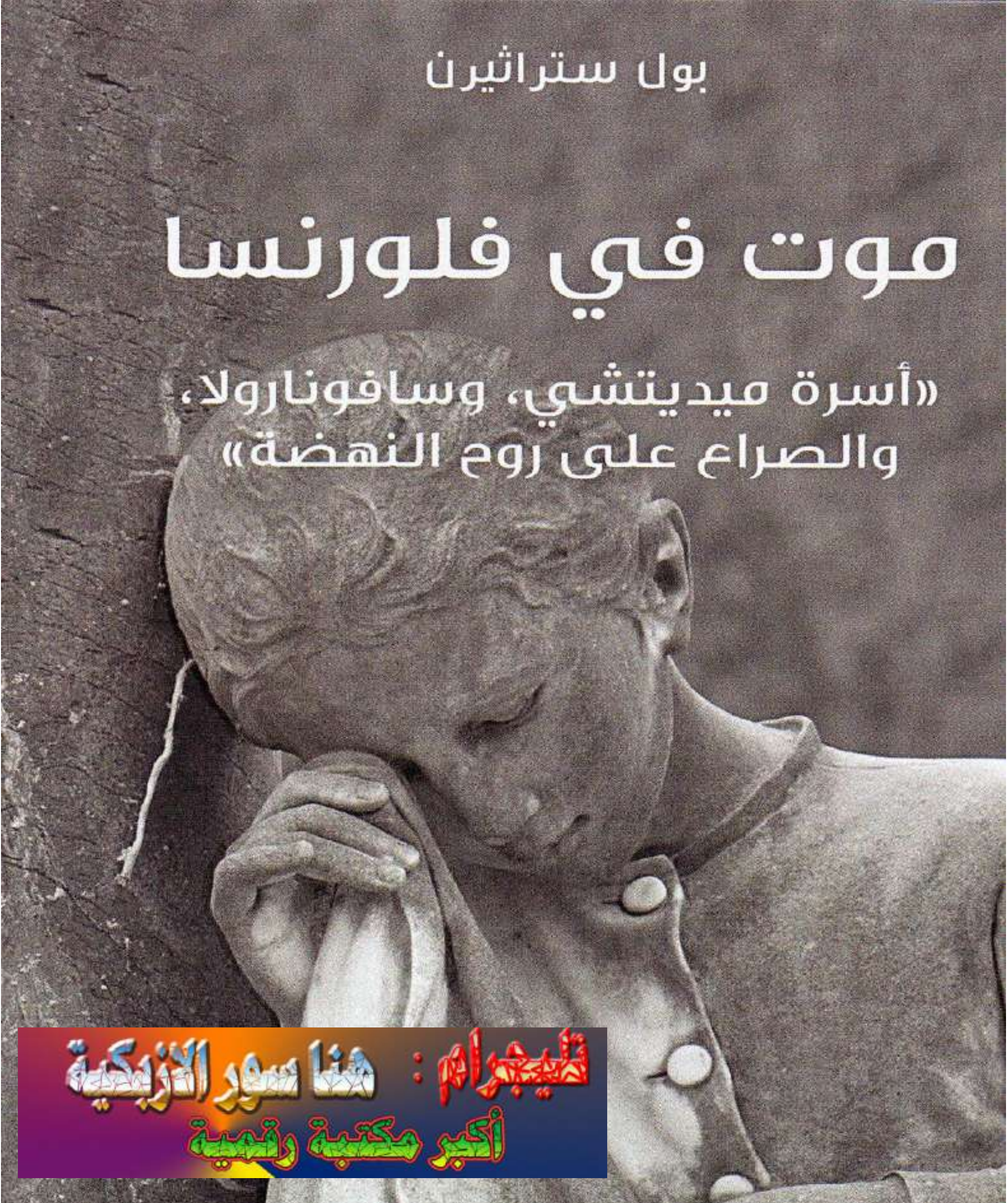


بول ستراثيرن

موت في فلورنسا

«أسرة ميديتشي، وسافونارولا،
والصراع على روح النهضة»

ترجمة
ناصر مصطفى أبو الهيجاء

نبذة عن المؤلّف:

بـول سـترائيرن: كاتب بريطـاني، ومحاضر في الفلسـفة والرياضيـات، وحائـز علـى جائـزة (سومرسـت مـوم) في الروايـة، فضـلاً عن كونه مؤلفاً لخمس روايات، وسلسـلة فلسـفية شهيرة موسـومة بـ(الفلاسـفة في 90 دقيقـة)، وقـد ترجمت كتبه إلى نحو اثنتي عشرة لغة.

بول ستراثيرن

موت في فلورنسا

«أسرة ميديتشي، وسافونارولا،
والصراع على روح النهضة»



ترجمة

ناصر مصطفى أبو الهيجاء

مراجعة

د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م

DG737.42.S7712 2015
Strathern, Paul, 1940-
[Death in Florence: The Medici, Savonarola and the Battle for the Soul of Man]
موت في فلورنسا : أسرة ميديتشي وسافونارولا والصراع على روح النهضة / تأليف بول ستراثيرن ؛ ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء ؛ مراجعة أحمد خريس.- ط. 1.- أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.
602 ص. ؛ 13 × 20 سم.
ترجمة كتاب: Death in Florence: The Medici, Savonarola and the Battle for the Soul of Man
تدمك: 978-9948-17-397-7
1- فلورنسا- تاريخ. 2- الفن- عصر النهضة.
أ- أبو الهيجاء، ناصر مصطفى. ب- خريس، أحمد. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Paul Strathern
Death in Florence: The Medici, Savonarola and the Battle for the Soul of Man



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY



موت في فلورنسا


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الإهداء

إلى أخي مارك



«يتساوى دور الأفراد أهميةً... في الحروب والثورات، لكننا نقع على فترات تاريخيَّة لا تصحُّ فيها القواعد الاعتياديَّة، وذلك حين تعجز طرق التصرف التقليديَّة عن تقديم دليل مفيد... ويكون من المُتعيِّن، حينها، على القادة الثوريين، الاعتماد على الغريزة والمناقبيَّة القياديَّة، فبمقدور الجرأة، والقدرة على الإقناع، والحكم الشخصي، أن تحدث فارقاً بين النصر والمصيبة».

أناتول كاليتسكي

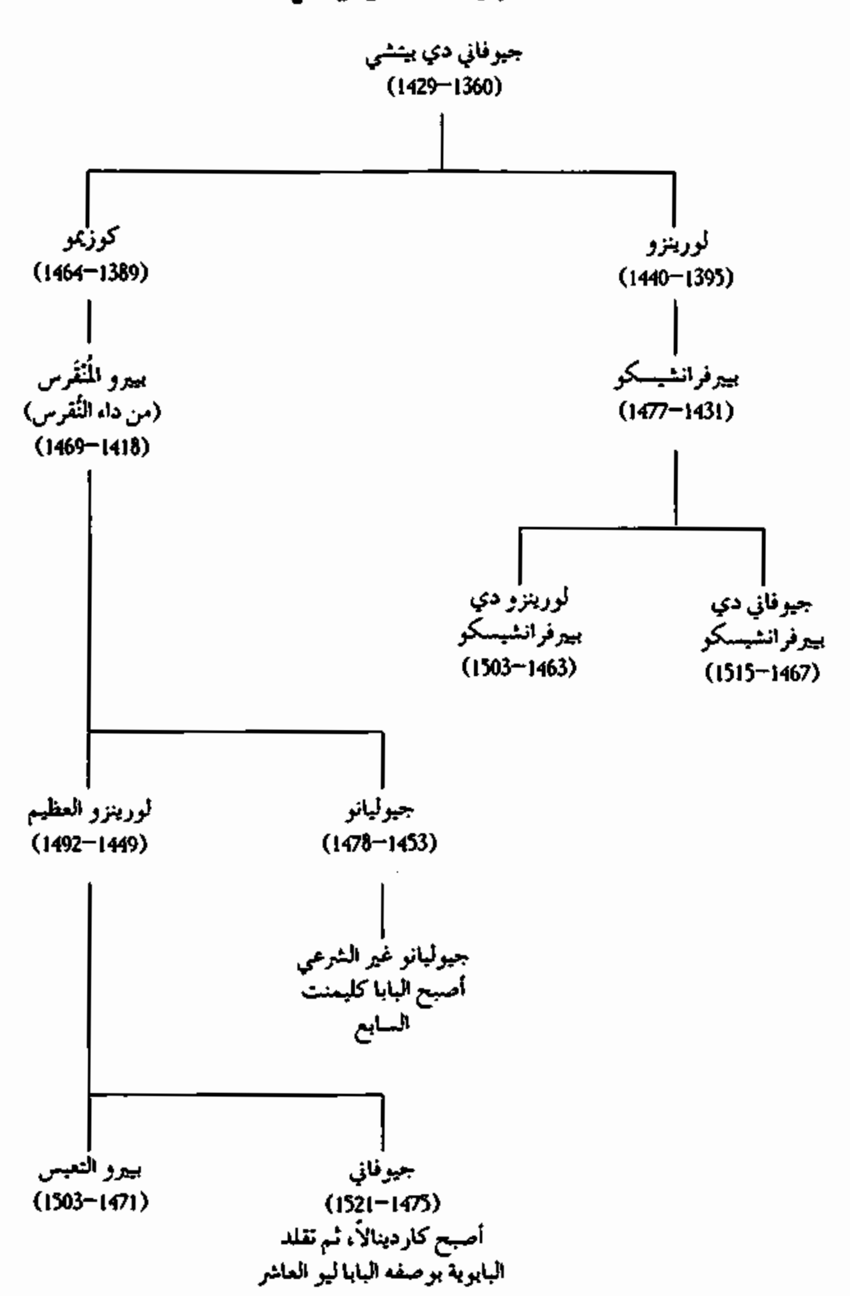
«أن تنسب للنكبة ضرورة يمكن التنبؤ بها... يعني أن تسبغ عليها معنى لا تملكه».

غولو مان



المحتويات

شجرة عائلة ميديتشي



الشخصيات والجماعات الرئيسيّة في هذه الدراما:

- ألكسندر السادس؛ البابا بورغيا، المعروف بفساده، والذي غدا عدو سافونارولا اللدود.
- ألفونشو؛ دوق كالابريا، وهو ابن ملك نابولي، فيرانتي الأول، ووريثه. وغدا لاحقاً ألفونشو الثاني، ملك نابولي.
- آن ملكة فرنسا؛ حكمت بوصفها وصيّةً على العرش، حين كان شارل الثامن في سن الصبا.
- جماعة الأرابياتي (الساخطين)؛ أقوى الجماعات المناهضة لسافونارولا.
- جماعة بيغي؛ جماعة داعمة لعودة بييرو ميديتشي.
- ساندرو بوتيتشيلي؛ رسام شهير وصديق للورينزو العظيم.
- الراهب باسافيكو بورلاماكي؛ كتب أول سيرة عن لورينزو العظيم، وجاء معظمها مما سمعه من لورينزو نفسه.
- بييرو دي غينو كابوني؛ مواطن فلورنسي بارز ذاع صيته لتحديه شارل الثامن.
- كاردينال نابولي المدعو كارافا؛ صديق لألكسندر السادس، على الرغم من دعم الأول لسافونارولا.
- سير شيكوني؛ واسمه الحقيقي فرانشيسكو دي سير بارون، وهو المحقق

المدني الرئيسي مع سافونارولا.

- **شارل الثامن**؛ ملك فرنسا الشاب الذي اجتاح إيطاليا.
- **كومباناتشي**؛ مجموعة متطرفة في عدائها لسافونارولا، وقد تزعّمها دوفو سبيني.
- **كومين**؛ مستشار بارز من مستشاري شارل الثامن، وقد دون مذكراته عن تلك الفترة.
- **الكاردينال ديلّا روفير**؛ العدو اللدود لألكسندر السادس، وهو من حثّ شارل الثامن على إنشاء مجلس لتنحيته.
- **بارتولوميو تشيرتاني**؛ إخباري فلورنسي معاصر لأحداث تلك الفترة.
- **دومينيكو دي بيشيا**؛ راهب دومينيكي، كان من أقرب المؤيدين لسافونارولا وأكثرهم ولاءً له، وقد بقي وفياً لصاحبه حتى النهاية.
- **لوتسريزيا دوناتي**؛ «أجمل نساء فلورنسا»، التي كتب لها لورينزو دي ميديتشي قصائد غرامية.
- **فيرانتي الأول**؛ ملك نابولي الذي استقبل لورينزو العظيم، وأحسن وفادته.
- **مارسيليو فيتشينو**؛ أفلاطوني شهير، وصديق مقرب من أسرة ميديتشي.
- **فرانشيسكو دا بوغليا**؛ راهب فرانسيسكاني من سان كروتشه، والعدو الشرس لسافونارولا، وهو من أعلن عن التحدي المدعو «محنة النار».
- **باتيستا غورينو**؛ عالم إنسانوي شهير حضر سافونارولا محاضراته في جامعة فيرارا.
- **فرانشيسكو غيتشارديني**؛ مؤرخ فلورنسا وإيطاليا في ذلك العصر.
- **الراهب ليوناردو دا فيغيزانو**؛ راهب أوغسطيني من سانتو سبيريتو، وقد

بشّر في عظاته ضد سافو نارولا حين كان الأخير في أوج قوته.

- جيوفاني ديلا فيتشيا؛ ضابط الساحة المسؤول عن حفظ الأمن في ساحة ديلاسينيوريا، ثم دير سان ماركو.
- جيوفاني مانيتي؛ واحد من جماعة الأرابياتي، كان مسؤولاً عن إثارة العامّة في أثناء عمليّة «محنة النار»، وقد طلب الإذن، لاحقاً، بتفتيش سافونارولا.
- نيكولو ماكيافيلّي؛ مؤرخ فلورنسا وإيطاليا في ذلك العهد.
- الراهب مالاتيستا (ساكرامورو)؛ جاسوس جماعة أرابياتي في دير سان ماركو.
- دومينيكو مازينغي؛ غونفالونيير (حاكم) مؤيد لسافونارولا، وهو من حاجج، لاحقاً، لصالح اعتماد «محنة النار».
- الراهب ماريانو دا جيناتسانو: رجل دين أوغسطيني، كان واعظ فلورنسا الأثير قبل أن يدخل في خصومة مع سافونارولا.
- كوزيمو دي ميديتشي؛ الرجل الذي بنى بنك ميديتشي، وهو جد لورينزو العظيم.
- جيوفاني ميديتشي؛ الابن الثاني للورينزو، والذي أصبح كاردينالاً وهو بعد في سن الصبا.
- جيوفاني دي بيرفرانشيسكو دي ميديتشي؛ أُخِذ وهو صبي إلى قصر ميديتشي، ليعيش في كنف عمه لورينزو العظيم حين تُوفي والده بيرفرانسيسو.
- جيوليانو دي ميديتشي؛ شقيق لورينزو الأصغر، الذي قُتِل غيلة.
- لورينزو دي ميديتشي (العظيم)؛ الحاكم الفعلي لفلورنسا حتى عام 1492.

- لورينزو دي بيرفرانشيسكو دي ميديتشي؛ ابن بيرفرانشيسكو دي ميدتشي؛ أُخِذ إلى قصر ميديتشي، صغيراً، حين مات أبوه.
- لوكريزيا دي ميديتشي (من عائلة تورنابوني في الأصل)؛ والدة لورينزو العظيم ذات النفوذ المؤثّر.
- الراهب لوديفيكو دا فيرارا؛ أرسله ألكسندر السادس إلى فلورنسا كي يستجوب سافونارولا.
- الراهب سيلفسترو ماروفي؛ راهب من رهبان سان ماركو، نزّاعٌ للإيمان بالرُّؤى، وسيبقى متبعاً لسافونارولا حتى النهاية.
- بيرفرانشيسكو دي ميديتشي؛ ابن عم بيرو ميديتشي، وحفيد جيوفاني دي بيتشي مؤسس بنك ميديتشي.
- بيرو دي ميديتشي؛ الابن الأكبر للورينزو دي ميديتشي، الذي تقلّد حكم فلورنسا عقب وفاة أبيه عام 1492.
- ديتيسالفي نيروني؛ مساعد تجاري لكوزيمو دي ميدتشي لأجل طويل، وقد نشأ حاسداً لبيرو ميديتشي.
- كلاريس دي ميديتشي (ولدت من عائلة أورسيني)؛ زوجة لورينزو العظيم الرومانيّة.
- بيكو ديلا ميراندولا؛ فيلسوف ذو شخصية كاريزميّة، كان صديقاً للورينزو العظيم، وقد كتب سيرته ابن أخيه فرانشيسكو بيكو ديلا ميراندولا.
- بيرو بارينتي؛ كاتب يوميّات فلورنسي دوّن يوميّات تلك الفترة من التاريخ الفلورنسي.
- بيانوني؛ المجموعة المؤيدة لسافونارولا، وتشكّل معظمها من المعدمين،

ولكن ما لبثت أن امتدت لتشمل أطياف المجتمع الفلورنسي كافة.

- أنجيلو بوليتسيانو؛ شاعر معروف، وعضو في حلقة ميديتشي.
- كاردينال ريمولينو؛ الكاردينال الذي أرسله البابا ألكسندر السادس، في آخر الأمر، للقيام باستجواب سافونارولا.
- برناردو روتشيلاي؛ شخصية فلورنسيَّة بارزة بعث بها لورينزو دي ميديتشي على رأس وفد إلى سافونارولا يطلبون منه التخفيف من حدة عِظاته.
- جيرولامو روتشيلاي؛ صوت العقل والاعتدال في الباتريكا «المجلس المُصغَّر»، الذي دعا إلى مناقشة قضية «محنة النار»، وتقليبها على وجوهها.
- ماركوتشيو سالفياتي؛ قائد المجموعة المؤيدة لسافونارولا في أثناء عملية محنة النار.
- جيرولامو سافونارولا؛ الراهب الدومينيكي الذي وقف معارضاً لكل ما مثلته عائلة ميديتشي.
- ميشيل سافونارولا؛ جد جيرولامو سافونارولا، الذي كان له تأثير تكويني على شخصية سافونارولا. وعلى الرغم من أنه كان طبيباً طليعياً، فإنه بقي ذا عقلية قروسطية صارمة.
- نيكولو سافونارولا؛ والد سافونارولا غير الناجح في أعماله.
- جالتسو ماريا سفورزا؛ ابن أخ لودفيكو سفورزا، والوريث الشرعي لدوقية ميلان.
- لودفيكو سفورزا، الملقب بـ «إل مورو»، عمل حاكماً لميلان حين كان ابن أخيه قاصراً.

- **باولانتونيو سودريني؛** مواطن من ذوي الشأن، وداعم لسافونارولا.
- **دوفو سبيني؛** قائد جامح لجماعة كامباناتشي المناهضة بشدة لسافونارولا.
- **جيوفاني تورنابوني؛** عم لورينزو ميديتشي، ومدير فرع بنك ميديتشي في روما.
- **الراهب ماريانو يوغي؛** الراهب الدومينيكي الثاني الذي تقدَّم متطوّعاً لعملية محنة النار.
- **فرانشيسكو فالوري؛** أرسله لورينزو دي ميديتشي برفقة وفد كي يطلب من سافونارولا التخفيف من عظاته، وأصبح، لاحقاً، غونفالونييراً (حاكماً) مؤيداً لسافونارولا.
- **سيمونيتا فيسبوتشي؛** اشتهرت وهي في السابعة عشرة بوصفها أجمل نساء فلورنسا، وقد قيل إنها شَغَفَتْ جيوليانو، شقيق لورينزو العظيم، حُباً.

شكر وتقدير

أود أن اشكر إيلا ألفري، التي عملت سابقاً في دار «جوناثان كيب» للنشر، فهي من رعت هذا الكتاب، كما أشكر أليكس باولر، الذي كان عوناً عظيماً لي في تأليفه، فضلاً عما أبداه من اقتراحات مستفيضة، وما قدمه من توجيهات وتصويبات كثيرة، وتحريرٍ عام للكتاب. وقد طوّرَت إرشاداتُه هذا الكتاب بصورة لا حدود لها، أما التحرير الذي قامت به ماندي غرينفيلد، فقد تميَّز بجهد بالغ، ومثَّل إسهاماً عظيماً.

وأود أن أتقدم بالشكر إلى الطاقم الذي التقيته في العديد من المكتبات والمؤسسات البريطانية والإيطالية، حيث قمت بالبحوث التي تطلبها هذا العمل. وقد كانوا جميعاً (ما خلا اثنين منهم، مثَّلا استثناء صارخاً) ودودين، فضلاً عما قدموه من عون كبير عبر نصائحهم وإرشاداتهم. وكان الطاقم الموجود في غرفة القراءة الخاصة بالإنسانيات (رقم 2)، كدأبهم دائماً، متفردين ورائعين.

كما ينبغي عليَّ أن أشكر، من جديد، وكيل أعمالي، جوليان الكسندر، الذي بذل وسعه لإخراج هذا العمل إلى حيز الوجود، وبقي، على مر السنين الطويلة، مساعداً وصديقاً. والشكر موصول، أيضاً، إلى ريتشارد فورمان، لما مَنَحَنيه من صحبة عظيمة ودعم متواصل.

المقدمة
إبرة البوصلة الإيطالية

وَقَع لورينزو العظيم حاكم فلورنسا في عصر النهضة، ذو الثلاثة والأربعين عاماً، طريحَ المرض في الأسبوع الأول من إبريل عام 1492، في فيلته الريفيّة في (كاريجي)، التي تبعد نحو ميلين شمالي أسوار المدينة، وكان لورينزو ذا شخصيّة فذّة في عصر استثنائي، وقد امتلك ملامح قويّة لكنها بشعة بصورة لافتة، مما أكسبه جاذبية حسية. وجاء نبوغه الفكري وإقدامه الطائش ليعززا هذه الجاذبيّة ويرفداها. كما كان شاعراً مبرّزاً، ومبارزاً بطلاً، وزير نساء، (وفي بعض الحالات عاشقاً لأمثاله من الرجال).

وقد فتك بهذه الصورة القَويّة ألمٌ مُقْعِدٌ، طوال شهرين، تجلّى في مَرَضيْ: النِّقرِس، الذي صحبه منذ الولادة، والتهاب المفاصل المزمن، الذي أصاب الكثير من أجيال عائلة ميديتشي العاملة في الصرافة. وقد ألمَّ بـ «لورينزو» ما هو أنكى وأسوأ حين رآه صديقه الأثير، الشاعر أنجيلو بوليتسيانو، يستسلم لنوع من الحمّى، افترشت جسده، ولم تستقر، كغيرها، في أوردته وشرايينه، وإنما تعدّتها إلى هيكله، وأعضائه الحيويّة، وعضلاته، وعظامه، حتى مخ عظامه. وإذ انتشرت خلسة كما لو أنها تمشي الهوينى على رؤوس أصابعها، فإنها لم تُلاحظ في البداية، لكنها حين أعلنت عن نفسها بصورة جليّة عصفت بجسده دون رحمة، فأوهنته، وأنحلته إلى درجة أنها لم تجرّده

من قوته فحسب، وإنما أنهكت جسده وأذهبته فعلاً[1][1].

وتولى الطبيب النطاسي، لاتسارو دا تتشينو[2]، الذي قدم من ميلان، العناية بلورينزو وعلاجه. وروى بوليتسيانو: «إن الطبيب لم يعدم وسيلة في علاج لورينزو، فجرَّب، فيما جرَّب، ضرباً مكلفاً من العلاج، وذلك حين عمد إلى سحن غير نوع من اللؤلؤ والحجارة». وكان هذا علاجاً تقليدياً يعود إلى الحقبة الكلاسيكيّة، وقد وصل إلى أوروبا، غالباً، عبر الصين؛ حيث اعتقد أن هذه الخلطات تنضوي تحت ما تصفه الخرافة الطِبيّة بـ «إكسير الحياة». أما من أرسل الطبيب ليقوم على علاج لورينزو العظيم، فهو الحاكم الفعلي لميلان؛ جارة فلورنسا الشماليّة القويّة، وكان يدعى لدوفيكو إل مورو سفورزا، ولعلَّه لُقِّب بـ «المغربي، moor»، بسبب ملامحه الداكنة، غير أنَّ شخصيته المتبجحة، التي غلبت عليها ملامح القسوة، انطوت على جانب أكثر إظلاماً، فقد كان مؤمناً إيماناً عميقاً بالخرافات، وإنْ أحبَّ أن يَعُدَّ نفسه وحاشيته من أصحاب الثقافة الرفيعة. كما كان، في واقع الأمر، طاغية تنتهبه هواجس ارتيابيّة، فقد مارس حكمه من وراء الجُدُر الشاهقة والقائمة لقصر سفورزا المهيب، الذي كان يُشرفُ من علٍ على أسطح بيوت عاصمته. وكانت العيون قد أعلمت لورينزو العظيم، قبل ذلك بعشر سنين، أن مشاعر التردد تساور لودفيكو إل مور في مساندته فلورنسا الضعيفة عسكرياً، فشنَّ الأول هجوماً فاتناً وناعماً تضمَّن إرسال ليوناردو دافنتشي إلى ميلان، مما أشبع مشاعر الغرور لدى حاكم ميلان. فعزَّز تحالفه مع فلورنسا، وجعل من لورينزو صديقه الشخصي الأثير.

وكان لورينزو قد حاز، خلال سنوات حكمه التي امتدت لثلاث

---

(1) للوقوف على الهوامش الموضوعة بين معقوفتين انظر نهاية الكتاب.

وعشرين سنة، إعجابَ الحكام وحبَّهم على امتداد الولايات الإيطاليَّة، فقد كانت إيطاليا مقسَّمة إلى خمس قوى كبرى: ميلان، والبندقية، والولاية البابويَّة، وفلورنسا، ونابولي، فضلاً عن عدة ولايات مدينيَّة صغيرة عمدت إلى التحالف مع جارتها القويَّة. وكان ميزان القوى بين الولايات الكبرى مهدَّداً، بصورة دائمة، بفعل التحوَّلات الخفيَّة في الولاءات. واحتفظت فلورنسا بمكانتها قوةً عظمى بما امتلكه لورينزو العظيم من حصافة دبلوماسيَّة، ودهاء تكتيكي، عَمِلا على إدامة النظر إلى فلورنسا بوصفها مركز الثقافة الإيطاليَّة. وقد أثمر عصر النهضة، أوَّلَ ما أثمر، في هذا الصقع من الأراضي الايطاليَّة، بفضل رعاية الأسر التي تزَّعمت عالم الصيرفة، مشفوعة بفناني فلورنسا ومعمارييها، الذين فاقوا أقرانهم من الأوروبيين، فكانوا بذلك مفخرة إيطاليا كلها. وعلى الرغم من كل ذلك، بقيت فلورنسا عرضة لتهديد القوة العسكرية المتوحشة، مما اقتضاها اللجوء إلى الجهود الدبلوماسيَّة الدائمة، لتبقى في مأمن من الولايات المتاخمة لها. ولم يكن لودفيكو إل مور، والحال هذه، القائدَ الايطالي القوي الوحيد، الذي أقام لورينزو معه علاقات دبلوماسيَّة دائمة، ونجح في جعله صديقاً حميماً، فلعلَّ أكثر تحالفاته غرابة تمثلت في تلك التي جمعته بملك نابولي؛ فيرانتي العجوز، الذي طبقت شهرته الآفاق بسبب غدره وخيانته، إذ كان الأخير ينتشي في سنوات حكمه المبكرة، حين يعرض «متحفه من المومياوات»[3]، الذي يحوي الأجساد المحنَّطة لخصومه، ولكنَّه حين دبَّر لاغتيال لورينزو، وأرسل جيش نابولي لاجتياح فلورنسا غير ذات الشوكة، فإن الأخير عرَّض حياته للخطر، وانطلق من فوره لا يلوي على شيء، كي يقابل فيرانتي شخصياً. وقد أثارت هذه الجرأة المتطرفة من شاب في التاسعة والعشرين إعجاب

الملك العجوز، فاختصَّه بصداقة وطيدة. ومضى لورينزو على النهج ذاته مع البابا إينوسنت الثامن. وكان هذا الأخير، الذي تجري الدماء اليونانيّة في عروقه، ذا شخصيّة مراوغة. وقد رُوي أنه (أنجب ثمانية أبناء وأمثالهم من البنات رجاءَ أن تدعوه روما، حقاً، بالأب)[4]، وأقام لورينزو أواصر القربى مع البابا إينوسنت حين رتَّب لاقتران ابن الأخير؛ فرنتشيسكو سيبو، بابنته؛ مادالينا دي ميدتشي.

وقد ارتفع لورينزو إلى مستوى اللقب[1] الذي دعي به، حتى إن ماكيافيلّي، وهو الناقد السياسي الساخر واللاذع، كان دَهِشاً «من الأشياء التي حباه الرب والحظ بها، مما كلل جميع مغامراته بالنجاح... وكانت طريقته في الحياة، وحصافته، وثروته مثار إعجاب الأمراء خارج الحدود الايطاليّة»[5].

ولم يكن هذا التوصيف من قبيل المبالغة، فقد تحدَّث ماكيافيلّي عن كل من السلطان التركي وملك هنغاريا بوصفهما من أصدقاء لورينزو. وقد رتعت في أراضي فيلا لورينزو الواقعة في «بوجيو كايانو» زرافةٌ أليفة، إلى درجة أنَّ

(1) Magnifico: كان في الواقع لقباً تشريفيّاً جرى استخدامه لمخاطبة القادة، وأكابر الأسر البارزة، وكذلك أصحاب المشاريع التجاريّة الناجحة. وحين كان مدير فرع بنك ميديتشي في روما، على سبيل المثال، يكتب إلى مدير بنك ميديتشي في فلورنسا فإنه كان يخاطبه بـ «Magnifico»، أما الإنجليزية فإن المكافئ فيها، غير المطابق تماماً لمعناها، هو لقب (my lord)، كما يظهر مراراً في مسرحيات شكسبير، لكن هذا اللقب اتخذ في حالة لورينزو صفة أكثر رسميّة وامتيازاً. وقد بدأ كثيرٌ من أهل فلورنسا يدعون لورينزو بهذه الصفة قبل وفاته بزمن طويل، ثم ما لبث أنْ استقر هذا اللقب في الاستخدام القروسطي الشائع، إذ كانت الألقاب، في ذلك العصر، تطلق بناء على الصفات الشخصيّة المستدامة كما هي الحال مع والد لورينزو الذي عُرِف بييرو المنقرس، أو كما الحال مع ملوك فرنسا الأوائل مثل: لويس المخاصم، وشارل المجنون.

بإمكانها التقام تفاحةٍ من يد طفل[6]. وكانت الزرافة هديةً بعث بها سلطان بابل إلى لورينزو العظيم، ولم يكن الأخير قديساً كما جلّى ذلك ماكيافيلّي: «فعلى الرغم من أن فضائله لم تَشُبْها الكبائر، فإنه خوَّضَ عميقاً في غراميّاته، كما انخرط في مجالس اللهو والظُّرف والألعاب الصبيانيّة بصورة تتجاوز ما يسمح به مقامه»[7].

وربما أسهمت هذه الخصال التي غلب عليها الطيش في تعزيز صورته الساحرة، فأعانه ذلك فيما اضطلع به من مهام خطيرة. وكما أدرك ذلك ماكيافيلّي، «فقد تسامح الناس بحصافته، وتنامى ذلك عاماً بعد عام، ذلك أنه كان بليغاً وأخّاذاً في حواراته، كما امتلك حكمة ودُّية إذا تعلّق الأمر بمعالجة القضايا. أما إذا حانت لحظة العمل، فإنه ينهض إليها دون إبطاء، ولا يتردد لحظةً. هذا هو الرجل الذي قاد إيطاليا عبر مياه السياسة الغادرة، مما حدا بالبابا إينوسنت الثامن إلى وسمه بتعبير شهير قائلاً: «إنه إبرة البوصلة الإيطالية»[8].

لكن ذلك كله لم يحل دون أن يكون حكم لورينزو موضع نزاع، فقد كانت فلورنسا، نظرياً، جمهوريّة ديمقراطيّة يفاخر بها مواطنوها. فهي الجمهوريّة الوحيدة التي امتلك فيها مواطنوها، آنئذ، كلمةً في حكومتهم، في حين حكم المناطق الأخرى المنفصلة، التي تمثّل في مجموعها إيطاليا، حكامٌ طغاة كالملك، والبابا، والأوليغاركية، والدُّوقات الورثة، والطغاة الصغار، وأمثالهم. وقد جرت العادة، في وقت الأزمات، أن تقرع الأجراس في فلورنسا، بما يمثّل دعوة لكل من تجاوز الرابعة عشرة من الذكور كي يلتئموا في الساحة الرئيسية لعقد البرلمان هناك، حيث يختار جمهور الناخبين لجنة طوارئ توكل إليها سلطة كاملة لمعالجة الأزمة بما تراه مناسباً. أما في الأحوال

الطبيعيّة، فقد حكم المدينة الغونفالونيير (ويعني حرفياً حامل العلم)، ومجلسه المكوّن من ثمانية أعضاء؛ السينيوريا، وقد كانوا يُختارون، بصورة منتظمة، عبر القرعة، بعد أن تُجعل أسماء النقابيين في حقائب جلديّة خاصّة. وقضى العُرْف الدبلوماسي في فلورنسا أن يسكن الرئيس الجديد ومجلسه، عقب انتخابهم، ديلا سينيوريا؛ ذلك القصر القروسطي الجليل بجرسيته الشاهقة ذات البُريجات، الذي لم يزل يشرف على وسط فلورنسا في الزمن الحاضر، وفيه يرتدي الرئيس ومجلسه أرديتهم الحمراء الرسميّة، وتُقدَّم لهم الخمور والأنبذة، ويتناولون أطايب الطعام، ويتحصّلون على ألوان كثيرة من اللهو، طوال شهرين يُنفَق فيها عليهم من أموال العامة. أما نقاشاتهم ومداولاتهم فكانت في معزل عن أي تأثير خارجي، وقد قُصِدَ من قِصَر مدة ولايتهم، كما هو أمرُ وضعهم في مكان منعزل، الحيلولة دون وقوع المدينة تحت سلطة دائمة لزمرة أو طاغية. وجرى استخدام النظام الانتخابي ذاته لاختيار أعضاء المجالس المختلفة، التي كانت تقدّم المشورة لمجلس السينيوريا، لكن هذا النظام بشروطه وتعقيداته؛ ممثلة في اختيار الأسماء من الحقائب الجلديّة، أثبت، على مرّ السنين، أنه عرضة للتلاعب، فقد نجحت الأسر الفلورنسيّة البارزة، منذ بداية هذا النظام، في التأثير على عملية الانتخابات الخاصّة بالمناصب المؤثّرة، حتى إن الأمر انتهى بالأسر المتنافسة إلى الخضوع لسلطة واحدة مسيطرة صنعتها الثروة الفاحشة لأسرة ميديتشي. وقد غض عامة الناس الطرف عن هذا الضرب من الفساد على كره، وذلك لما تمتع به لورينزو نفسه من شعبيّة، أو لأنه استطاع، على أقل تقدير، أن يحافظ على مظهر شعبي بإنفاقه السخي على ألوان التسلية واللهو المخصصة للمواطنين قاطبة. ولكن، حتّامَ تبقى هذه الحال، بعد أن غدا لورينزو مريضاً وعاجزاً؟

لم يكن ما يلوح في الأفق من تحوُّلٍ قاصراً على فلورنسا وحدها في هذا الدور من التاريخ، فبينما كان لورينزو يُحتَضر، كانت الحضارة الغربية ذاتها تختبر تحولاً عميقاً. فسيحطُّ كريستوفر كولومبوس، في أواخر السنة ذاتها، رحاله في العالم الجديد؛ ذلك الحدث الذي دفع الأوروبيين إلى الاعتقاد أن الكثير من أصقاع العالم لم تكتشف بعد. وقد كان الرحالة البرتغالي؛ بارثولوميو دياز، قد طاف قبل ذلك بنحو أربع سنين، بالرأس الغربي من إفريقيا، نافذاً إلى المحيط الهندي، فاتحاً بذلك طريقاً إلى عالم شرقي مجهول إلى حد كبير. وتحقق الوعي لدى ثُلّة من المفكرين الغربيين، في الوقت نفسه، بأن حياتهم، خلال هذا العالم، امتدت إلى آفاق فكرية أرحب لم تكن مطروقة من قبل: فلقد برز، وقتَها، تطورٌ يتعلق بوعي الإنسان ذاتَه، وبدأت الرؤية القروسطيّة للعالم، حين كانت المعرفة مقبولة، على نحو عريض، باتكائها على المرجعيات الأرسطية والكتابية (المتعلقة بالكتاب المقدس بعهديْه) تخلي السبيل لرؤية جديدة قائمة على النزعة الإنسانويّة. فقد عُدَّ العالم، وحياتنا المنضوية فيه، خلال القرون الوسطى، دار عمل واستعداد للحياة الأبديّة في الآخرة؛ هناك حيث تُسلم أرواحنا، بعد أن تحاسب، إما إلى الجنة، أو الأعراف، أو النار، كل امرئ بحسب ما قدمت يداه في الحياة الدنيويّة العابرة. أما الآن فقد شرع عصر النهضة بالظهور:

> فالانبعاث الجديد للمعرفة المنبثقة من العصر الكلاسيكي الوثني يعطي للإنسانيّة ثقة أكبر بنفسها وقواها، وتحثُّ طرائق جديدة في الرسم، وخطى متقدمة بالفن المعماري، كما في مجالات المعرفة جميعها، الإنسانيةَ على تغيير إيماننا بأنفسنا وفهمنا لها. وها هي نزعة إنسانيّة جديدة تعاين الحياة والعالم من منظور أكثر إنسانيّة تحل محل النظرة

القروسطيَّة الروحيَّة أساساً.

بلغت «النهضة»، في تلك الأثناء، أوجها في فلورنسا، فقد أنتج فنانوها الطليعيون، الذين اعترف لهم بالريادة في إيطاليا جميعها، أعمالاً مازالت تُعدُّ، حتى هذه اللحظة، قمة المنجز البشري. فما إن حلَّ عام 1492، حتى كان بوتيتشيلي قد أنجز رائعتيه؛ الربيع، ومولد فينوس. كما أسهم في الأعمال التي زينت سُقُف كنيسة سيستينا. وكان ليوناردو دافنتشي قد انتهى من وضع المخططات التفصيليَّة لآلته الطائرة، وسيشرع عما قريب في رسم «العشاء الأخير». أما ميخائيل أنجلو؛ ذو السبعة عشر ربيعاً، فقد بدأ بالعمل على منحوتته الرائعة الأولى «معركة القناطر»، التي كلَّفه بإنجازها لورينزو نفسه.

وغدا لورينزو العظيم، وقتها، متمرِّساً في استثمار فناني فلورنسا لتحقيق مآربه السياسية. فعلى الرغم من أنه أرسل بوتيتشيلي إلى روما، ودافنتشي إلى ميلان، لأسباب استراتيجيَّة محدَّدة، فإنه هدف إلى غاية أكبر من وراء ذلك، إذ سيعمل هؤلاء الفنانون بوصفهم سفراء ثقافيين لمدينتهم الأم، وقد اعتقد، دائماً، بوجود غايتين عليا ودنيا للفن، حتى في أرض الوطن، مما دفعه إلى استخدام فناني فلورنسا للمحافظة على شعبيته وإحياء ذكرى الأحداث التاريخيَّة، حتى قبل أن يستعملهم كأدوات للسياسة الخارجيَّة. ومثال ذلك، حين كلَّف لورينزو الفنان بوتيتشيلي برسم جداريَّة تصور عملية شنق الأشخاص الذين قُبض عليهم إثر مؤامرة باتسي، التي أخفقت في قتل لورينزو والإطاحة بحكم أسرة ميديتشي، قاصداً من ذلك أن يكون هؤلاء عبرة للآخرين، كما أنه أوعز، على نحو أقل حماساً، بعمل عروض ألعاب ناريَّة مثيرة، وتماثيل جليديَّة، أضافت طابعاً جمالياً على مهرجاناته الشعبيَّة.

وعلى الرغم من هذه المظاهر الاحتفاليَّة، فقد بدأ جو من الشعور بشر قادم يسود المدينة، وذلك حين استشعر ناس المدينة أموراً جوفاء في صميم طريقة الحياة الجديدة التي كانت تبرز للوجود من حولهم، إذ لم تطمئن قلوبهم، بَعد، للفن، والمعرفة، والاحتفاء بالذات الذي بات علامة على عصر النهضة، ولاسيما أن الروح البشريَّة، التي مثلت البؤرة الأخلاقيَّة لحياة الفرد طوال قرون من الحقبة القروسطيَّة، عانت، آنئذ، من تجاهل غير معهود، وهذا ما جعل اليقينيات الروحيَّة القديمة تحت رحمة النسيان والأفول. وما إن حلَّ عام 1500 حتى استولى على جلّ المواطنين شعور متنام بِشرٍّ مرتقب، فسيحل، عما قريب، موعد نصف الألفية الثانية. وطفق الناس يتهامسون حول مجيء القيامة، منذرةً بنهاية العالم والقدوم الثاني للمسيح. وشرع كثير من الناس، وسط هذا التيار المضطرم من القلق الميتافيزيقي، بالانصراف إلى راهب شاب ذي شخصية ناريَّة يُدْعى سافونارولا، الذي بدأ، في تلك الأثناء، بإلقاء عظات الصوم الكبير في كنسية سان ماركو.

وكان جيرولامو سافونارولا، كما يبدو لأول وهلة، شخصيَّة غير جذّابة، فقد كان «راهباً ضئيلاً»[9]، كما دأب على وصف نفسه، بتواضع زائف. وقد كان، فعلاً، رجلاً قصير القامة، ونحيلاً، وصارماً في سلوكه. وكان يتكلم لهجة ثقيلة؛ هي لهجة أهل فيرارا، التي كانت تبعد سبعين ميلاً إلى الشمال من جبال الأبينيني، وعُدَّت، في نظر الفلورنسيين، منعزَلاً ريفياً متخلّفاً. لم يُعْطَ سافونارولا موهبة أو كياسة اجتماعيَّة، وتُظهره الصورة الشخصيَّة التي رسمها له الراهب بارتولوميو، ذا وجه مُقَلنسٍ وبسيط بوجنتين غائرتين توحيان بالزهد، وأنف أقنى وغليظ تأتي أسفل منه شفتان شهويتان، وليس هناك ما يميّز مظهره الخارجي إذا استثنينا عينيه اللتين قيل

إنهما تلتمعان بوهج حاد تحت حاجبيه الداكنين الغليظين. وقد امتلك سافونارولا، عندما كان يتحدث، موهبة خاصّة في استثمار كلماته بكل ما أوتي من قوة شخصية وتأثير. وكانت عظاته مشحونة «بالروح القدس»، الذي شعر سافونارولا أنه ممتلئ به، وكذا فقد اضطرمت نفسه بروح العهد القديم الانتقاميّة.

أما كلماته، فقد امتلأت بنبوءات الهلاك، مشفوعة بروح ناقمة، وقد مثّل ذلك عودة إلى يقينيّات الأزمنة الغامرة. غرس سافونارولا في أذهان الفلورنسيين أنَّ من الواجب عليهم تكريس أنفسهم للحياة الروحيّة، لا أن يهدروا جوهر حياتهم على سفاسف الحياة الدنيا وشهواتها، فليست تلك إلا ضلالات أرْكَسَهم فيها حكام فاسدون.

وحين كان لورينزو العظيم يُحتَضرُ في فيلته الريفيّة في «كاريجي» أوائل إبريل من عام 1492، أرسل، على نحو غير متوقع، في طلب سافونارولا نفسه. وقد سوّغ لورينزو هذا الطلب، تبعاً لتقرير عاصره، بقوله: «اذهب إلى الأب سافونارولا، فإني لم أجد راهباً صادقاً مثله»[10].

وأقرَّ لورينزو بحقيقة ما كان عليه سافونارولا، تماماً كما فعل الأخير فيما خصَّ الأول. وقد كان لورينزو هو من أوعز، على نحو مفارق، بدعوة سافونارولا إلى فلورنسا، وربما انطوت دعوته، حُكْماً، على بواعث سياسيّة خفيّة تتصل بخطط وضعها للإبقاء على أُسرة ميديتشي في السلطة بعد مماته. فلقد أراد لورينزو لابنه أن يخلفه في تولي مقاليد الحكم في فلورنسا، لكنه أراد شأناً آخر لابنه الثاني؛ جيوفاني، صاحب الذهن المُتّقد. إذ نشأ هذا الأخير في المناخ الإنساني الذي خلقه جلساء لورينزو العظيم من الشعراء والعلماء، فضلاً عن أن الشاعر بوليتسيانو نفسه، عمل معلماً ومرشداً لجيوفاني. غير

أن لورينزو أراد لابنه جيوفاني، الآن، أن يلتحق بالكنيسة متأملاً الزج باسم أُسرة ميديتشي في هذا المجال الجديد. وهكذا، فقد أمل لورينزو أن تحوِّل عظات سافوناورلا ابنه جيوفاني عن تنشئته وتعليمه الليبراليين، وتلهمه تبنيَ موقف ديني ملائم.

وتتفاوت الروايات، بصورة ما، حول ما حدث حين قام سافوناورلا بعيادة لورينزو وهو على فراش الموت، غير أن من الثابت حدوث هذه الزيارة، غير المتوقعة، فعلاً. وتذهب بعض الروايات الراجحة إلى أن سافوناورلا وقف منتصباً في مكانه، ورفض الانحناء أمام حاكمه الذي كان يُحتضر، وتصرَّف معه بشيء من الشدَّة، فضلاً عن أنه أَمَر ببعض المطالب قبل أن يمنح لورينزو بركاته. وتقدَّم سافوناورلا بهذه المطالب، كما قيل، على النحو التالي: سأل سافوناورلا الحاكم لورينزو، أولاً: هل تتوب من ذنوبك جميعها وتؤمن برب واحد؟ فأجاب لورينزو: أفعل. وأردف الراهب: إن كنت تريد الخلاص لروحك فلا بُدَّ أن تتخلَّى عن ثروتك التي تحصَّلت عليها بالحرام، وأن «تَردَّ ما أخذته بغير حق»، فأجاب لورينزو العظيم: «سأفعل أيها الأب، أو أني ساوصي ورثتي بفعل ذلك، إذا لم أقدر على فعل ذلك بنفسي»[11]. وطلب الراهب، أخيراً، أن يعيد لورينزو إلى الفلورنسيين حريتهم التي لا تكفلها سوى حكومة جمهوريَّة حقيقيَّة، لكن لورينزو رفض الإجابة عن هذا السؤال الأخير، وأشاح بوجهه.

وليس من المؤكد أن يكون سافوناورلا قدْ تقدَّم بتلك المطالب على هذه الصورة الدقيقة، غير أن المصادر، في غالبها، تجمع على أنه تقدم بثلاثة مطالب لا تختلف كثيراً عما ذُكر آنفاً، وعندما رفض لورينزو العظيم الإجابة عن المطلب الثالث، قيل إن سافوناورلا وقف صامتاً برهة، قبل أن

يباركه ويغادر المكان.

وأسلم لورينزو العظيم الروح في اليوم التالي، الموافق للثامن من إبريل عام 1492. ونُقل جثمانه إلى فلورنسا حيث ووري الثرى في كنيسة سان لورينزو. وقد قيل إن مشاعرَ عميقة خالجت كل مواطن فلورنسي لموت هذا الرجل الذي حكمهم ثلاثةً وعشرين سنة، لكن طبيعة هذه المشاعر تباينت من فرد إلى آخر، فمن المؤكد أن كثرة من هؤلاء المواطنين قد محضوه محبة كبيرة، بيد أنَّ من المؤكد، أيضاً، أن آخرين أملوا، في دواخلهم، أن يعجِّل غيابه بالرجوع إلى أساليب الحكم القديمة التي كانت أكثر ديمقراطيّة.

وقد كتب الشاعر؛ بوليتسيانو، يرثي لورينزو العظيم، قائلاً:

«ها هو نور يهبط من السماء
كي يسلبنا إكليل مجدنا[1]
ها هو الصمت يرخي سدوله علينا في كل مكان
فلا نسمع شيئاً مما تقول»[12].

واستشعر سافونارولا، حينئذ، أن لحظته القدريّة قد أطلّت، وقد نُظر إلى ما كان يحدث في فلورنسا القرن الخامس عشر بوصفه صراع إرادات بين حاكم تنويري معتدل ورجل دين متزمِّت، وبين التعدديّة العلمانيّة مع كل تناقضاتها الداخليّة والتطرف القمعي لروحيّة شاملة ومغالية. لكننا نتبين،

(1) استخدم بوليتسيانو الكلمة اللاتينيّة laurus، كما هي الحال في laurel wreath، التي تعني إكليل الغار الذي توّج به الشعراء في العصور الكلاسيكيّة، غير أنها استخدمت هنا استخداماً مجازياً فضفاضاً في وصف لورينزو.

بعد أن تتكشَّف الصورة أمام أنظارنا تدريجياً، أن هذه القسمة الصارمة ضرب من التبسيط المفرط والمخجل. وسيتكشَّف، لدى تسليطنا الضوء على هذه الأحداث المضطربة، ما يبطِّن هذا الصراع من أمور دقيقة ولطيفة. ومع ذلك، فقد كان الصراع شديداً، والأخطار محدقة، ومن هنا تأتي قصة هذا الـ«موت في فلورنسا».

حكمت أسرة ميديتشي لصالحها الخاص وسعياً للحفاظ على السلطة، وما إن أطل عام 1492 حتى كانت مصالح الأسرة بعيدة عن مصالح الناس الذين تولَّتْ حكمهم، وكان ذلك معروفاً للجميع، بيد أن سافونارولا، دون سواه، امتلك الإرادة في مواجهة الفساد والتعنيف عليه أينما رآه، وكان الأخير رجلاً متزمتاً، فبينما كانت فلورنسا تحتفي بالطلائع البهيَّة الأولى لعصر النهضة، انصرف هو إلى المبادئ الأولى للمسيحيَّة المبكرة، وعُني بإقامة «مدينة الرَّب» ممثلةً في جمهوريَّة بسيطة وطاهرة تخشى الرَّب وتتقيه، حيث لا يحتاج المرء غير كفافه ليحيا حياة مكرَّسة للعلي القدير، الذي يقف جميع الخلق أمامه سواسية، وحيث تغدو التمايزات الطبقيَّة، وحياة الترف واللهو، والفحش، والمجون، من المنكرات.

وعلى الرغم من أن نظرة سافونارولا كانت، في الأساس، نظرة قروسطيَّة، فإن ذمَّه السلطات القديمة الفاسدة مهَّد، بنوع من المفارقة، الطريق نحو نزعة المساواة التي كانت، جوهرياً، حديثة. وستثبت الجمهوريَّة المبنية على رؤية سافونارولا أنها الجمهوريَّة التي فاقت سواها من الجمهوريَّات التي عرفتها فلورنسا ديمقراطيَّةً وانفتاحاً. لكنها كانت، كما ستحاول هذه الرواية أن توضح، المدينة الأكثر قمعاً ووحشية في تاريخ فلورنسا، وقد كان جانبا هذا الصراع على السلطة تمزقهما تناقضات كتلك.

حدث كل هذا قبل 500 سنة، ومثَّلت فلورنسا فضاءه الأول حين تولدت عنها النهضة؛ تلك اللحظة التي كانت بصدد نقل الحضارة الغربيَّة إلى فضاءات جديدة، ومدِّها بالملامح الأولى للعالم الحديث. بيد أن الصراع القائم بين ما هو علماني وديني بقي صداه يتردد عبر القرون اللاحقة، في أوروبا، أولاً، ثم في أمريكا، ليسود العالم أجمع في الوقت الحاضر. وليس ذلك سوى تنازعٍ على روح البشريَّة، وصراعٍ على الاتجاه الذي ينبغي أن تسلكه البشريَّة، وطريقة العيش التي يجب أن نتمثَّلها، وسؤالٍ حول مَنْ نحن، وكيف ينبغي أن نكون في مستقبل الزمان. وسيغدو هذا الصراع أكثر إلحاحاً وحضوراً ونحن نستنفد موارد هذا الكوكب وننهب بيئته، ونواجه خياراً -ربما لأول مرَّة في مسيرة حضارتنا المتقدمة- حول الكيفيَّة التي نكبح بها طريقة عيشنا.

لقد جرت هذه المعركة «القادمة»، التي تمثل وقائعها على نحو جلي لمصطلحاتنا الحديثة، أولَ مرةٍ، في فلورنسا قبل خمسة قرون.

(1)
أمير في كل شيء ما خلا الاسم

ولد لورينزو ميديتشي في الأول من شهر يناير لعام 1449 في قصر ميديتشي الكائن في فلورنسا[1]. وقد كان جدُّه كوزيمو، وهو مدير بنك ميديتشي، الحاكمَ الفعلي للمدينة. وكان كوزيمو هذا رجل أعمال حاد الذكاء، فلقد ضاعف ثروة البنك، فانتشرت فروع الأخير في المدن الإيطاليَّة الرئيسة، فضلاً عن أنها تعدَّت الأراضي الإيطاليَّة إلى لندن وبروج، كما انتشر ممثِّلو البنك في كل من إسبانيا وشمال إفريقيا والمشرق العربي والبلاد المطلَّة على البحر الأسود. وما لبثت أسرة ميديتشي أن قطفت ثمار هذه الجهود، ففاقت ثروتها ما لدى أصحاب البنوك الفلورنسيَّة الرائدة والعريقة، وتجاوزت كذلك ثروات الأسر السياسيَّة المتنفذة.

ولم ترغب أسرة ميديتشي، أول الأمر، في تولِّي السلطة، غير أنها أُرغمت على ذلك حين أدركت أنْ ليس بمقدورها حماية ثروتها دون القبض على مقاليد الحكم، فقد بلغت الغيرة والضغينة لدى بعض المجموعات السياسيَّة التي تزعمتها أسرة ألبيتسي العريقة، منتهاها في فلورنسا عام 1433، فانتهى الأمر بكوزيمو سجيناً بدعوى التدخل في شؤون الدولة سعياً لتولِّي السلطة. وعنى ذلك أنه وقع في الخيانة العظمى التي تستجلب حكم الإعدام، وقد أفلت منه كوزيمو عبر الرّشى والتدخل الخارجي. ومع ذلك، فقد حُكم

عليه بالنفي عشر سنين. وما إن مضت سنة من الحُكْم الذي أعوزته الكفاءة بسبب قلة التمويل، حتى سارع «الغونفالونير» الحاكم ومجلس حكمه (السينيوريا) بدعوة كوزيمو للعودة إلى فلورنسا، كي يضع ملكاته المتفردة وثروته الطائلة في خدمة المدينة، فتعزز حكم أسرة ميديتشي منذ ذلك الحين. ومضت عملية انتخاب الرئيس ومجلسه من خلال القرعة تبعاً لما جرى عليه العرف في الماضي، غير أن كوزيمو ابتدع آلية سياسيّة فاعلة، ضمنت، خفيةً، أن يكون المُنتَخَبون جميعهم من أشياع أسرة ميديتشي.

وربما بقي مقرُّ الحكومة «قصرَ السينيوريا» من الناحية الرسميّة، لكنه كان لا يعمل إلا بالتشاور مع قصر ميديتشي.

بدأ كوزيمو، الذي بلغ من السن مبلغاً كبيراً لدى ولادة لورينزو، بتفويض كثير من سلطاته إلى ابنه بييرو؛ والد لورينزو. وكان بييرو مصرفياً بارعاً مدقِّقاً، إن لم يكن عبقريّاً مدهشاً، وقدْ أبدى ذوقاً فنياً رفيعاً، وغدا راعياً حسنَ التمييز بين جيّد الفن ورديئه. ومما يؤسف له أنه عانى، بصورة مزمنة، من لعنة أسرة ميديتشي الخَلْقية، حتى إنه ما لبث أن عُرف بـ «بييرو المُنَقرِس» (من داء النُّقرس). وقد عنى هذا المرض الموهِن أن رجليه وهنتا، بسبب النوبات المتزايدة، إلى درجة العجز عن حمله، فما كان أمامه سوى أن يُحْمل على محفّة. كما ترك الألم المستمر آثاراً واضحة عليه، صابغاً شخصيته الساحرة بنوبات غضب متزايدة، مما نفَّر الآخرين منه. ولاسيما في مجتمع يقوم التأثير السياسي فيه، أساساً، على العلاقات الإنسانية الدافئة.

ومهما يكن من أمر، فقد جاء التأثير الأكبر على شخصية الشاب لورينزو من والدته؛ لوتسريزيا، وهي امرأة متقدة الذهن، ومرنة، في زمن لم تحظ فيه النساء بفرصة لإثبات أنفسهنّ خارج البيئة المنزليّة الصارمة. وانحدرت

لوتسريزيا من أسرة فلورنسيَّة عريقة ورفيعة الشأن، تُدْعى تورنابوني. وعلى الرغم من أن اقترانها بواحد من أفراد أسرة ميديتشي عُقد لأسباب سياسيَّة محضة، فإن ما بقي من رسائلها يظهر أنها كانت متيمة بزوجها، وشديدة القلق على صحته، فضلاً عن حرصها البالغ «ألّا تسمح للكآبة بالتسلل إلى حياته»[2]. وليست هذه الرسائل الدليل الوحيد على ممارسة لوتسريزيا الكتابة، فقد كانت الأخيرة شاعرة ملهمة، وناظمة للتراتيل. وإذا كان الطابع التديني التقليدي لأشعارها لا يوافق الذائقة الحديثة، فإن هذه النزعة التَّقويَّة لم تطمس دفء شخصيتها الودودة، إذ بدت قصائدها متنفساً لحساسية إبداعيَّة أكبر استُثمرت، بصورة ما، في توجيه رعاية زوجها المتبصِّرة للطليعيين من رموز فجر عصر النهضة، من أمثال المعماري ميتشيلوتسي، الذي صمَّمَ قصر ميديتشي البديع، والمَثَّال دوناتيلّو، الذي تضمنت تماثيله المبتكرة وشبه الواقعية التمثال المنتصب الذي عُدَّ أول تمثال عار منذ العصور الكلاسيكيَّة. ويلتحق بهؤلاء الفنان المضطرب فرا فليبو ليبّي، الذي عكست تصاويره المتنوعة غير الواقعيَّة شخصيته الخارجة على الواقع. وقد جعلت لوتسريزيا من هؤلاء الفنانين الثلاثة أصدقاءها الأثيرين. وكانت أسرة ميديتشي من بين رعاة الفنون الأوائل الذين أدركوا أن فناني اليوم ليسوا مجرد حرفيين كما كانوا من قبل، فبذلت وسعها لإرضاء الأمزجة العويصة، والسلوكات المشاكسة لهذه الفئة الجديدة من العباقرة. ومارست لوتسريزيا تأثيرها على زوجها في أمور تجاوزت الفن إلى السياسة، فهي من حثَّت بييرو على السماح لبعض أفراد أسرة ستروتسي بالعودة من المنفى الذي عوقبوا به لمعارضتهم كوزيمو، وانطوى ذلك على سلوك حكيم كما أثبتت الأيام.

ومارست لوتسريزيا تأثيراً مماثلاً وفاعلاً على شخصية لورينزو الشاب، الذي ما لبث أن أظهر نبوغاً وتألقاً في غير حقل؛ بدءاً من الأدب الكلاسيكي حتى ركوب الخيل. وروى بعضهم أنه امتلك صوتاً نديّاً أرفقه بعزف على القيثارة[1]. وقد أدى الفتى لورينزو ذو العشر سنين، بثقة بالغة، دوراً أساسياً في المهرجان العظيم الذي أُقيمَ احتفالاً بالبابا الجديد؛ بيوس الثاني، الذي كان يزور فلورنسا في تلك الأثناء، على الرغم من أن لورينزو لم يكن محيطاً بالدافع الكامن من وراء الأعمال المسرحيَّة[3]، وعروض مصارعة الوحوش البريَّة، والسباقات والرياضات الكرويَّة... التي كانت تؤدِّي على شرف الضيف الرفيع، فلقد سعى كوزيمو، في واقع الحال، إلى إقناع البابا بإعادة تكليف بنك ميديتشي بإدارة الحسابات الماليَّة البابويَّة المربحة.

وقد درس لورينزو وأخوه الأصغر؛ جيوليانو، على الأعضاء البارزين في الدائرة المشكَّلة من جماعة المفكرين الإنسانويين التي أمَّت قصر ميديتشي. وتلقَّيا، بادئ الأمر، دروساً في اللغة اللاتينيَّة على العالم المدعو جنتيل بيكي الذي كوفيء لاحقاً فمُنحَ أسقفية أرتيسو. وكان لورينزو يكبر أخاه جيوليانو بأربع سنين، واستحكمت علاقة الأخوين عاماً إثر عام. وقد استحضرت لوتسريزيا، في واحدة من رسائلها لزوجها، مشهداً مؤثراً قالت فيه إنَّ: لورينزو وهو ابن لتسع سنين آنئذ «يتعلَّم أشعاراً «لاتينيَّة»[4] على يد مؤدِّبه... ثم يقوم، هو بدوره، فيلقنها لأخيه جيوليانو». وقد درس الأخوان كذلك اللغة اليونانيَّة، والفلسفة الأرسطية، على العالم البيزنطي اللامع؛ جوانس

(1) يشهد كثير من المصادر الموثوقة بأن لورينزو امتلك هذه الموهبة، لكن لورينزو الشاب كان معروفاً بأن له أنفاً أفطس، وأنه فاقد لحاسة الشم وذو غُنَّة غريبة. وربما عُزي هذا العارض إلى حادث سقوط عن الفرس، وربما حدث ذلك في أثناء واحدة من المبارزات التي وقعت ربما في وقت ما من سنوات حداثته.

أرجيروبولوس الذي غادر القسطنطينيّة قبيل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين عام 1453، ذلك أن الفلسفة الأرسطية مثلت حجر الأساس في العلوم والمعرفة القروسطية، في حين اتجهت النزعة الإنسانويّة الحديثة نحو سَلفي أرسطو، وهما سقراط وأفلاطون. واضطلع فيتشينو بتعليم الأخوين ميديتشي الفلسفة الأفلاطونيّة، وقد كان فيتشينو عالم الأفلاطونيّة الأول في زمانه دون منازع، فكلفه كوزيمو بترجمة أعمال أفلاطون الكاملة من اليونانيّة إلى لاتينية يسيرة سائغة؛ تلك المهمّة التي استنفدت عمره كله. وامتلك فيتشينو شخصيّة فضوليّة لكنها ودودة، بجسم نحيل ومشية عرجاء بسبب قوامه الأحدب، فضلاً عن معاناته من فأفأة ظاهرة ومزاج عصبي. لكنه أكنَّ محبة كبيرة للورينزو الشاب، وما لبث أن بادل الأخير معلمَه الكهل مودة عميقة، وواصل سجاله الفلسفي معه طوال حياته. وآلى فيتشينو على نفسه، حتى في هذه اللحظة المبكرة، أن يمدَّ لورينزو بنصيحة فلسفيّة مؤدَّاها أننا: «حين نحاكي أفعال سقراط، نتعلَّم كيف نستجمع الشجاعة على نحو أفضل مما يعرضه أرسطو من فن في كتاباته عن الأخلاق[5]... وإني لأرجوك، رجاءً حاراً، أن تؤثر التعلم من الواقع عوض التعلم من الوصف، تماماً كما تؤثر الحي على الميت».

ومن المدهش أن فيتشينو حث لورينزو على كتابة أشعاره باللهجة التوسكانيّة الايطاليّة لا اللاتينيّة الأكاديميّة، إذ مضت الأولى في سبيلها لتكون اللغة الإيطاليّة الراجحة على سواها من اللهجات المحكيّة على امتداد شبه الجزيرة الايطاليّة. ويعود ذلك، جزئياً، إلى أن دانتي استخدمها في كوميدياه الإلهيّة، التي رآها كثير من ناس ذلك العصر أرفع عمل شعري منذ الحقبة الكلاسيكيّة.

ومهما يكن من أمر، أَظهرت أشعار لورينزو، منذ البداية، نزعة فصاميَّة لافتة، فهي مُشربة أحياناً بشعور صارم وحاد يماثل الشعور الذي تبّدى في أشعار أمه، وفي أحيان أخرى، غلبت عليها ظرافة داعرة تلائم المهرجانات التي ظهرت فيها.

وبدا أن هذه الثنائية الشعريَّة لدى لورينزو تخلَّلت، في واقع الأمر، جماع شخصيته، إذ إن التلميذ النجيب الذي سطَّر بقلمه شعراً بليغاً، هو نفسه الشاب الصَّاخب الذي اعتاد ممارسة لعبة الركل الفلورنيَّة؛ وهي نسخة عنيفة مبكرة من كرة القدم، اعتاد الفتية الفلورنسيون ممارستها بقصد الترويح عن أنفسهم. كما أن الشاب الرصين الذي شارك في المساجلات الرفيعة حول المثالية الأفلاطونيَّة في قصر ميديتشي، هو الشاب الأزعر نفسه الذي كان يلذُّ له التجوال في الشوارع، ليلاً، برفقة خلانه، رافعين عقيرتهم بغناء الأشعار الماجنة، أو قاذفين كرات الثلج، شتاءً، على نوافذ فتيات المدينة. وكما لاحظ ماكيافيلّي، فإن هذا العنصر الطفولي في شخصية لورينزو سيبقى رفيقه طوال حياته. نقرأ: «أن تراه ينتقل، لحظياً، من ذاته الجادَّة إلى ذاته اللاهية يعني أن تراه وكأنما اجتمعت فيه شخصيتان متمايزتان برابط مستحيل»[6].

ويبدو أن هذه الطفولة المستدامة مردُّها ردة فعل نفسية (psychological reaction)، فقد أُجبر لورينزو على تمثل الجانب الجدي من شخصيته منذ نعومة أظفاره، كي يبلغ سن الرشد قبل أوانه، وحين بلغ لورينزو الخامسة عشرة من عمره عام 1464، مات جدُّه؛ كوزيمو ميديتشي، وتولّى والده بيرو السلطة من بعده. ولمَّا فتك النقرس ببيرو، ذي السادسة والأربعين عاماً، فقد اعتقد أنه لن يُعمِّر طويلاً، مما جعله يعجِّل في إعداد

لورينــزو لدوره المستقبلــي حاكماً لفلورنسا. وما هي غــير سنة حتى أُرسل الأخــير في مهمتــه الأولى إلى ميلان، ممثلاً فلورنسا في حفــل زفاف إيبوليتا ماريا سفورزا؛ ابنة دوق ميلان فرانشيسكو سفورزا، التي زُفَّت إلى ألفونشو؛ ابــن ملك نابولي ووريثه. وأرسل بييرو العليــل إلى ولده ذي السادسة عشرة عــدداً مــن الرسائل، مطلقاً سيلاً مــن النصائح والتعليمــات المفصلة، نحو: «تصرَّف كرجل لا كصبي»[7]، و«اتبــع نصح بيجللو [مدير بنك ميديتشي في ميــلان]، وأهم من كل ذلك لا تُقــتِّر في الإنفاق، بل قم بما تَشْرُف به من الأعمــال»، و«إذا أقمت مادبــة أو مجلساً من مجالس الأنس، فلا تبخل بالمال او أي شيء يشرّفك».

لم يكن ثمة ما يدعو إلى القلق من جانب بييرو، فما لبث أن ابدى لورينزو ألمعيَّة دبلوماسيَّة وسحراً شخصياً، فضلاً عن الحصافة إذا اقتضى الحال، وقد باشر أسفاره الديبلوماسيَّة إلى البندقيَّة، ونابولي، وفيرارا، وأخيراً إلى روما في ربيع عام 1466، حيث اضطلع بمهمة بالغة الأهميَّة، إذ عُهد إليه بأن يقنع البابا بولس الثاني بمنح بنك ميديتشي حقوقاً حصريَّة في إدارة مناجم حجر الشب البابويَّة في توفلا، وكانت هذه ذات ربحيَّة عالية. ولقد استعمل حجر الشب (وهو ملح معدني)، في ذلك الزمان، لصبغ الملابس بألوان زاهية، مما جعله مكوناً رئيسياً في الصناعات النسيجيَّة المزدهرة في كل من فلورنسا والبندقيَّة والبلدان المنخفضة (هولندا، وبلجيكا، وغرب فرنسا، وإنجلترا). وبلغ أقصى مستوى إنتاجي لمناجم توفلا، التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً شمالي غرب روما، زهاء 3500 طناً من حجر الشب في العالم الواحد. وكانت تباع بما يناهز 150,000 فلورينا؛ أي ما يعادل، تقريباً، نصف العوائد البابويَّة التي كانت تجمع من العالم المسيحي برمته؛ تلك العوائد التي كانت

تصل، يومئذ، من الأبرشيات الممتدة من غرينلاند إلى قبرص، ومن بولندا إلى جزر الأزور. وستطالب البابويَّة، في واقع الأمر، بما يساوي نصف الريع المتأتي من مبيع حجر الشب، أما القيّم على المنجم فسيجني، بعد اقتطاع الكلفة التشغيليَّة، 50,000 فلوريناً، وهو مبلغ هائل إذا علمنا أن الأصول الكلية لبنك ميديتشي لم تتجاوز، في أوج ارتفاعها الذي عرفته إبان إدارة كوزيمو ميديتشي، 200,000 فلوريناً[8].

بيد أن العلاقات بين البابويَّة وأسرة ميديتشي أخذت في تلك الأثناء منعرجاً سيئاً وفجائياً، فقد كان البابا بولس الثاني من البندقيَّة. وإذ احتربت الأخيرة مع فلورنسا، عمد البابا إلى نقل حقوق تشغيل مناجم حجر الشب إلى مؤسسة من البندقيَّة، فضلاً عن سحبه الحسابات والمدّخرات البابويَّة من بنك ميديتشي، مما أدخل بنك ميديتشي في أزمة عرّضت حكم بييرو، جدياً، للخطر. فما لم تتدفق الأموال اللازمة لرعاية شؤون الناس، فإن من العسير الإبقاء على سلطة ميديتشي السياسيَّة.

ومن غير الخفي ما انطوت عليه مهمَّة لورينزو من أهميَّة لا تدانيها أهميَّة، وقد شعر بييرو، من جديد، بالحاجة إلى التشديد في مراسلاته على مسلكيات ولده، وأي هيئة ينبغي أن تكون عليها. يقول موجهاً لورينزو في واحدة من رسائله: «كفَّ عن المعازف والغناء والرقص... وتجاوز سنيّ عمرك، فهذا ما تقتضيه اللحظة»[9]. ويحمل هذا الكلام في أطوائه أن سفارات لورينزو السالفة لم تخل من السقوط في حبائل ما دعاه ماكيافيلّي «ذاته اللاهية». وكان بييرو قد أرسل إلى لورينزو بتعليمات دقيقة حول الكيفيَّة التي يطرح بها قضية بنك ميديشتي لدى البابا. وتوجب على لورينزو، تبعاً لهذه التعليمات، أن يبرهن للبابا أن بنك ميديتشي هو البنك الوحيد الذي

يمتلك الخبرة الكافية لإدارة ناتج المناجم الكبيرة، فضلاً عن امتلاكه الملاءة المالية والعلاقات لتأمين السفن «القوادس» لحمل حجر الشب في رحلته الطويلة إلى لندن وبروج. إذ يؤدي تحطم السفن والتهديد المتواصل من قراصنة شمال إفريقيا إلى خسائر محتومة لا يقوى أي بنك آخر على تحملها، ولا يمتلك أي من المشغلين البندقيين الموارد المالية التي تؤهلهم لاحتمال هذه الخسائر الفادحة. ومن الجلي أن لورينزو سلك سلوكاً رزيناً في روما، فأبلغه سحرُ شخصيته، مشفوعاً بتعليمات بيرو، وجشع البابا بولس الثاني، مرادَه، فمُنح بنك ميديتشي في إبريل من عام 1466 حقوقاً حصريَّة في إدارة مناجم حجر الشب.

لكن بيرو أرسل ابنه لورينزو إلى روما لسبب آخر ينطوي على بعض الأهميَّة، وهو الرغبة في أن يتعلم لورينزو الإدارة اليوميَّة المتعلقة بمشاريع الأسرة وأعمالها، وقد طلب إليه أن يقوم، في أثناء واجباته الديبلوماسيَّة، بزيارة عمه جيوفاني تورنابوني؛ مدير فرع بنك ميديتشي المهم في روما، وذلك حتى يكتسب فنون الأعمال المصرفيَّة وتقنياتها في عصر النهضة.

وقد اخترعت البنوك الحاليَّة، في جميع النواحي تقريباً، من جانب الإيطاليين، وبقيت، حتى القرن الخامس عشر، شأناً إيطالياً، ولاسيما بعد أن أُدخل، في ذلك الزمان، نظامُ القيد المزدوج الذي مكّن المصرفي من إجراء تدقيق سريع للموازنة بين الحسابات الدائنة والمدينة، مما مكّنه من الفصل، بنظرة واحدة، إن كان من الحصافة القيام بإنفاق إضافي، أو أن ذلك يُدْخِل البنك في مجازفة خطيرة إذا تخلّف أحد المدينين عن السداد. ولم يكن ذلك واضحاً، وضوحاً يسيراً، في الطرق المحاسبيَّة البدائيَّة، غير أن البنوك كانت ماتزال تعاني من عقبة قديمة، وهي، بصورة دقيقة، وقوع عمليتي الإقراض

والاستدانة تحت رحمة المرسوم البابوي الذي يحرّم «الربا». وجعل هذا البنوك عاجزةً، في ذلك الزمان، عن تقاضي فائدة على أي قرض، أو أن يتحصّل المودعون على أي فائدة لقاء أموالهم المودعة في البنوك. وقد جرى التغلب على هذه العقبة باجتراح حيلة ماليّة؛ فإذا ما أودِع المال (أو ما يكافئه من أدوات ذهبيّة أو مجوهرات وأمثالها)، فإن البنك سيتعهد بدفع «هديّة» سنوية للمودع تناهز 15٪ من قيمة الوديعة.

وتمثلت الوسيلة الثانية التي لُجِئ إليها لتحرير الدخل من الحظر المتعلق بالربا في «الصرافة»، فقد امتلك كل مركز من المراكز التجاريّة الإيطاليّة الرئيسة، مثل ميلان والبندقية وفلورنسا، عُملته المستقلة التي لا تتمتع بسعر صرف مُستقر. فلنلحظ، مثلاً، أن قيمة الفلورين الفلورنسي، في تلك الفترة، كانت أقل من الدوكات البندقي بنسبة تراوحت بين 10٪–20٪. ويصحُّ الأمر ذاته على الأقطار الأوروبيّة التي تراوحت أسعار صرف عملاتها بنسبة مقاربة، مما مكنَّ المصرفيين أن يقتطعوا الفائدة تحت ستارة الصرافة. وهكذا كانت الحال مع المصرفيين البابويين الذين عُهِدَ إليهم بجمع عوائد البابويّة من الأقطار المنتشرة على امتداد العالم المسيحي، ثم تحويل ما يعادلها من العملة الرومانيّة إلى روما. لكنَّ الحقيقة التي ظلت قائمة، تبعاً للمفهوم اللاهوتي، أن ممارسة الأعمال المصرفيّة تنطوي على خطيئة الربا. وفي واقع الحال، مثَّل القلق المتنامي لدى كوزيمو إزاء هذا الأمر، مع تقدمه في السن ودنو أجله واستشرافه الآخرة، الحافز الرئيس وراء تشييده العديد من الكنائس وتجديدها. وقدْ كان هذا القلق القروسطي الأصيل الذي ألمَّ بكوزيمو حيال المصير النهائي لروحه، وحثَّه على رعاية الكنيسة، هو الذي دشّن، بنوع من المفارقة، العصر الإنسانوي الجديد لحركة النهضة.

ويظهر أن لورينزو؛ حفيد كوزيمو، كان في المقابل غير معنيٍّ بأمور الآخرة، كما لم يعن بالشؤون المصرفيّة، فقد فاخر الشاب لورينزو بامتلاكه عقل شاعر وصلابة محارب، لذا نجده يستمتع بالحجاج الفلسفي ومناقشة أحدث الأفكار الإنسانويّة. وعليه، فلم يكن هذا العقل مجبولاً على دراسة ما تحتويه الدفاتر المحاسبيّة من تعقيدات. وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها عمُّه جيوفاني في أثناء سِفارة لورينزو إلى روما، فإن الأخير لم يفقه قليلاً أو كثيراً من العمليات التي استخدمتها أسرة ميديتشي لجمع ثروتها. وحين سئل، في مرحلة متأخرة، عن الأعمال المصرفيّة، فإنه اعترف (أو أنه تباهى) قائلاً: «إنني لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور»[10].

مهما يكن من أمر، فقد عاد لورينزو إلى أرض الوطن من روما متأملاً أن يستقبله والده استقبال الأبطال، بسبب ما أصابه من نجاح في مفاوضاته مع البابا حول الحقوق الحصريّة في إدارة مناجم حجر الشب، بيد أنه دخل فلورنسا ذاهلاً مما آلت إليه، فقد ألفاها مقسّمة، وألفى والده مستغرقاً في الكفاح من أجل الإبقاء على حياته السياسيّة.

ولم يكن إحجام بيرو ميديتشي عن السفر خارج مدينته الأصليّة، وخارج فلل ميديتشي القائمة في الضواحي القريبة منها، بسبب مرضه المضني وحسب، فقد غدا، منذ آلت إليه السلطة، مدركاً إدراكاً تاماً ما يحفُّ موقعه السلطوي من مخاطر وقلاقل. فما إن غيّب الموت كوزيمو بعد حياة مديدة، حتى بدأتْ ثلّة من أكابر الأسر الفلورنسيّة تتبرّم من سطوة أسرة ميديشتي، وتتشوف للعودة إلى طرق الجمهوريّة الأكثر شفافية في العصور السابقة، حين كان بمقدورها التأثير في شؤون المدينة. وقد كان كوزيمو، الذي لم تفارقه الحصافة، مدركاً ذلك حين أعلن قائلاً: إنني أعرف الطبائع

المتقلبة لمواطنينا[11]. وعليه فإننا؛ نحن أسرة ميديتشي، سَنُطرد من فلورنسا في غضون خمسين عاماً. وعلى الرغم مما انطوت عليه شخصية كوزيمو من فطنة وبعد نظر، فإنه اقترف خطأين غير عاديين. فهو، أولاً، لم يترك وصية توضح ملكية عائلته لبنك ميديتشي، وقد عنى ذلك أن ابنه بييرو لن يرث أكثر من نصف أرصدة بنك ميديتشي حين توافي كوزيمو المنيّة، أما النصف الآخر فإنه سيؤول إلى ابن عمه؛ بييرفرانشيسكو دي ميديتشي، الذي لم يشارك في إدارة البنك، أو في إدارة المدينة فعلياً. وتعيَّن على بييرو، إذّاك، إنفاق كثير من الأموال التي أخذت شكل رعاية للأشخاص والنشاطات، بغية الحفاظ على سلطة أسرة ميديتشي. وإذا ما احتاج البنك، كما حصل في بعض الأوقات، إلى ضخ السيولة فجأة، فإن بييرو هو من يتقدَّم بدفع المال، في حين كان بييرفرانشيسكو يراكم مزيداً من الأصول، ولن يلبث حتى تتجاوز ثروته ثروة الأسرة الحاكمة من أسرة ميديتشي، لكن الأخير كان متيقناً من غياب النظر إليه، بوصفه شريكاً في الحكم، على الإطلاق، على الرغم من أنه كان يجاور قصر ميديتشي، وقد شرع كثيرٌ من أهل فلورنسا يتساءلون: حتام تبقى هذه الحال؟

وتمثل خطأ كوزيمو الثاني في نصيحته لابنه بييرو، ومؤدّاها: أن على الأخير اتباع نصح ديتيسالفي نيروني، فيما يتصل بإدارة بنك ميديتشي، وكان نيروني مساعد كوزيمو في الأعمال التجاريّة والمالية لمدة طويلة، وقد جمع ثروة طائلة خلال عمله مع أسرة ميديتشي. غير أنه غدا، في غفلة من بييرو، حاسداً لما تمتعت به أسرة ميديتشي من سلطة، وبذل ولاءه خفية. وهذا ماكيافيلّي، الذي لم يكن خبيراً متبصّراً بالذات البشريّة فحسب، وإنما عارف، أيضاً، بأحابيل السياسة الفلورنسيّة، يصف هذا الأمر بقوله:

«إن السيّد ديتيسالفي [نيروني]، الذي كان مدفوعاً بمطامحه الخاصّة، لا بحبه لبييرو أو عرفان بما أسبغه عليه كوزيمو من منافع، اعتقد أن من السهل عليه تقويض مصداقية بييرو وقيمته الائتمانيّة، فضلاً عن تجريده من السلطة التي ورثها عن أبيه. فتقدّم بنصيحة لبييرو جعلت نيروني يبدو مخلصاً وحصيفاً، لكنه قصد منها، عملياً، أن يجلب الخراب على كوزيمو»[12].

أطلع نيروني الحاكمَ الجديد؛ بييرو ميديتشي، على دفاتر حسابات بنك ميديتشي الخاصّة، لافتاً انتباهه إلى أن البنك، خلافاً لظاهر الأمور، يمرُّ بمرحلة خطيرة. فقد أنفق كوزيمو، في سنواته الأخيرة، مبالغ مهولة، متولّياً تشييد المباني المكلفة، وترميم الكنائس. كما عمد، بسهولة ظاهرة، إلى إقراض مبالغ طائلة إلى عدد من الشخصيات الفلورنسيّة البارزة، التي غرقت في صعوبات ماليّة غداة الانكماش الذي أصاب تجارة الأصواف. وكانت للبنك، علاوة على ذلك، ديون كبيرة مجمدة خارج البلاد، مما أدخل عدداً من فروعه في وضع مالي حرج، وأوشك فرع بروج، بسبب سوء الإدارة، على الانهيار. أما الأسوأ من كل ذلك فعلاً، فقد تمثّل في وضعية فرع لندن، إذْ بلغت القروض التي قُدّمت للملك إدوارد الرابع ونبلائه الكثيرين لتمويل حرب الوردتين زهاء 800,000 فلوريناً. وقد شاع أن الملك إدوارد الرابع لم يكن راغباً أو قادراً على الإيفاء بديونه. وإذ أَعلَمَ نيروني الحاكمَ بييرو «بحالة الاضطراب التي تعمُّ أحواله، وكيف أن المال ضرورة مُلحّة حتى يُبقي على مصداقيته وقيمته الائتمانيّة»، فإنه اقترح عليه: «أن الوسيلة الكريمة لعلاج عسره المالي هي المطالبة باسترداد ديون والده من المواطنين والأجانب». وبدت هذه النصيحة، كما أشار

ماكيافيلّي، «جيدة وموثوقاً بها من جانب بيرو، الذي أراد أن يصلح شؤونه مستخدماً موارده الماليّة».

ولم تمض غير شهور قليلة على تولي بيرو السلطة أواخر عام 1464، حتى عزم على المطالبة بالديون المستحقة لبنك ميديتشي، وتبيّن أن ذلك كان خطأً كارثياً، فقد أدّى إلى إفلاس كثير من التجار، وبدأت الكراهيّة لأسرة ميديتشي تشيع في أوساط الأسر المتنفذة. وفي حين مرَّ بعض ثروات بنك ميديتشي بصعوبات وتعثرات، فإن بعضها الآخر قد ازدهر، ولاسيما البنك القديم الذي ترأسه لوكا بيتّي الذي شرع ببناء قصر فسيح مشيد في ضاحية أولترانو الواقعة على الجانب الآخر من مركز المدينة الرئيسي. وعلى الرغم من أن بناءه لم يكتمل، فقد بدا جلياً أنَّ هذا البيت المهيب أُريدَ له أن يعلو مباني إيطاليا جميعها، ولاسيما قصر ميديتشي. وعنى ما آلت إليه حال ثروة أسرة ميديتشي، أن الكثير من الناس التمسوا الرعاية من قصر بيتّي عوض التماسها لدى أسرة ميديتشي، وبدأت المدينة تتقطّب ضمن معسكرين متعارضين؛ معسكر الجبل (ومثّل جماعة بيتّي المتمركزة في قصره الكائن في أولترانو الجبليّة)، ومعسكر السهل (المتمركز في قصر ميديتشي الأقل بهاء، والقائم على الأرض المنبسطة في مركز المدينة).

وقد ساندت حزبَ الجبل عدة أُسر متنفذة، ومنها أسرة أتشيايولي، وسودريني، وكذلك أسرة نيروني بصورة أكثر سريّة. واحتفظ هؤلاء جميعهم بكره خفي لأسرة ميديتشي منذ أن بدأت باحتلال مكانة عليا في فلورنسا (من الجدير بالملاحظة أن أسرة ستروسي، التي سمح بيرو لأفرادها بالعودة من المنفى، أحجمت عن الانضمام إلى هؤلاء). ووقّع نحو 400 مواطن ممن يرتبطون بحزب الجبل، بدرجات متباينة، عريضةً، في مارس من عام

1465، دعوا فيها إلى عودة الطريقة الجمهوريّة القديمة في الانتخابات، وإنهاء تلاعب أسرة ميديتشي بالأسماء التي توضع في الحقائب الجلديّة، كي يُصار إلى انتخاب الرئيس «الغونفالونيير» ومجلس حكمه «السينيوريا». كما دعوا إلى إنهاء التعيينات الرئيسية التي تجري في الحكومة. ومن دواعي العجب أن بييرفرانشيسكو ميديتشي؛ المتزوج بامرأة من أسرة أتشيايولي، كان من بين الموقعين على العريضة. وقد تجاهل بييرو العريضة، وبقي متربصاً يتحيَّن الفرصة. وبينما كان لورينزو الشاب بعيداً في روما، سَرتْ الأنباء، في مارس من عام 1466، أن كبير حلفاء أسرة ميديتشي؛ وهو فرانشيسكو سفورزا؛ دوق ميلان، قد قضى وخلفه ابنه جاليتسو سفورزا، الذي يصعب التنبؤ بمواقفه. وأدرك بييرو، إذَّاك، أنْ لم يعد بمقدوره التيقن من دعم ميلان له.

وكان لوكا بيتّي وحزب الجبل قد أعدَّا، في تلك الأثناء، خططاً سريَّة للإطاحة ببييرو ميديتشي، مُؤمِّنين دعم بورسو دي إستي؛ دوق فيرارا، الذي كان بصدد إرسال 1300 فرد من سلاح الفرسان إلى فلورنسا عبر جبال الأبنين. هذا ما كانت عليه الحال حين قفل لورينزو عائداً من مهمته في روما صيف عام 1466.

وقد ألمَّت ببييرو، في منتصف آب اللهّاب، نوبة قاسية من نوبات النقرس، وحُمِل على محفّة إلى فيلته خارج المدينة في كاريجي، وسط الهواء العليل، كي يسترد عافيته. ورافقه لورينزو في رحلته تلك. وغدا بييرو، الآن، متيقناً من حجم المؤامرة التي تتقصَّد الإطاحة به. وإذْ أدرك حرج الموقف، فإنه بعث برسالة يائسة إلى ميلان، راجياً أن يهبَّ جاليتسو سفورزا لنجدته. وتهيَّأ في صبيحة السابع والعشرين من اغسطس، آمراً خدمه بحمله إلى فلورنسا على جناح السرعة. وأرسل لورينزو قبله محمَّلاً بأوامر توعز

بالتوجه لاستقباله والدفاع عن قصر ميديتشي. وبينما كان فرس لورينزو ينهب الأرض من تحته، كي يبلغ فلورنسا بأسرع وقت، حيّاه بعض الفلاحين ممّن، كانوا يعملون في الحقول، وحذروه من مجموعة مسلحة كانت كامنة أسفل الطريق المؤدية إلى فيلا المطران نيورني؛ شقيق ديتيسالفي. أدرك لورينزو أن هؤلاء الرجال يتربصون ببيرو وينوون اغتياله، فغذّ الخطى راجعاً إلى والده، وسلك الاثنان طريقاً عبر الحقول، مما أتاح لهما دخول المدينة خفية عبر بوابة ثانية.

وما إن حلَّ المساء حتى كان بيرو جالساً في قصر ميديتشي، وداعياً مناصريه في المدينة للاحتشاد، في حين سرت أنباء غير متوقعة تقول إن جاليتسو سفورزا؛ دوق ميلان، أرسل 1,500 من سلاح الفرسان لنجدة أسرة ميديتشي. ولمّا علم المتآمرون المجتمعون في قصر بيتّي أن بيرو عاد إلى فلورنسا، أدخلهم ذلك في حالة من الاضطراب. فذهب كل من أتشيايولي، وسودريني، ونيروني لحشد رجالهم. وحين ألفى بيتّي نفسه وقد تُرك وحيداً وأعزل في قصره ذي البناء غير المكتمل، تحركت في نفسه الشكوك، فجأة، حول رفقائه المتآمرين، وأصبح مذعوراً، فامتطى جواده، وغذَّ السير لا يلوي على شيء، متجاوزاً نهر أرنو من فوق جسر مونتي، ومخترقاً الشوارع التي أفضت به إلى قصر ميديتشي، حيث قدَّم، ذليلاً، ولاءه لبيرو. ولما كان بيرو غير مدرك لمدى تورُّط بيتّي في المؤامرة التي تقتضي قتله، فقد تكرّم وصفح عنه، لكنه حرص على الإبقاء عليه داخل قصر ميديتشي.

وكانت المدينة، حتى تلك اللحظة، في هرج ومرج، فأرسل بيرو رسالة إلى المنزل المجاور حيث يقيم ابن عمه بيرفرانشيسكو ميديتشي، يطلب منه إرسال 10,000 دوكاً دون إبطاء، حتى يتسنّى له تأمين المدينة،

وتوفير الإمدادات لقوات ميلان الزاحفة نحو فلورنسا. استجاب بييرفرانشيسكو، على نحو غير متوقع، وأرسل إليه المال المطلوب، وقد بقي حافز بييرفرانشيسكو في إرسال المال ملتبساً، فقد كان، من غير شك، ممن يؤثرون العودة إلى حكومة جمهوريّة أكثر انفتاحاً. ولعلّه خشي أن الإطاحة بابن عمّه ستفضي إلى زوال بنك ميديتشي، وزوال ثروته استصحاباً، وربما راعه الموقف، من ناحية ثانية، فخشي على نفسه حين احتشد كثير من مشايعي بييرو المسلحين حول قصر ميديتشي. وما إن تسلّم بييرو المبلغ حتى أرسل جنوده إلى أنحاء المدينة جميعها ليشتروا كل ما تتوافر عليه المدينة من خبز وخمر. وحين تسامع الناس الفزعون بذلك، توافدت أعداد غفيرة، أفواجاً، إلى قصر ميديتشي، حيث كان رجال ميديتشي يوزعون المؤن عليهم دون حساب. وقد فعل الحشد الشعبي المؤازر لأسرة ميديتشي، مشفوعاً بما سرى من أخبار عن زحف قوات ميلان، فعله على نحو وافٍ. كما أن المجموعات المسلحة التي كانت تأخذ بأعنة خيولها وتجوب المدينة، محاولة حشد الناس في صف المتآمرين، تلاشت الآن داخل الأزقّة الفرعيّة. أما دوق فيرارا الذي سمع أنه لن يكون موضع ترحيب من جانب الانتفاضة الشعبيّة المرتقبة ضد أسرة ميديتشي، فإنه أمر قواته بالانعطاف والانسحاب من الأراضي الفلورنسيّة قبل أن تتورّط في أي اشتباك مع قوات دوق ميلان. وقدْ دانت المدينة لأسرة ميديتشي إثر تلك الأحداث العصيبة التي شهدت، فيما شهدته، إنقاذ لورينزو لأبيه.

وما هو إلا وقت قصير حتى أُحيط بالمتآمرين الرئيسيين من عوائل أتشيايولي، ونيروني، وسودريني، ثم حكم عليهم بعقوبة الإعدام. لكن بييرو كان نزّاعاً، من جديد، لممارسة الرحمة والعطف، فخفّف عقوبة الإعدام

إلى النفي المؤبد، وانطوى ذلك، كما تبيَّن لاحقاً، على خطأ قاتل، ذلك أنَّ المتآمرين التأموا في البندقيَّة، حيث جرى تشكيل جيش هناك لمهاجمة فلورنسا. ومن يُمن الطالع أن بيرو استطاع التعويل على دعم ميلان، كما أنه استأجر زعيم المرتزقة؛ فيديريكو دا مونتيفيلترو، وجيشه. واستمرت بعض الأعمال العدائية الخفيفة عاماً واحداً، قبل أن يُعلَن عن فلورنسا، من جديد، بوصفها مدينة آمنة.

وكان لورينزو ذو السبعة عشر عاماً، والذي حقَّقَ نجاحات في الحياة الدبلوماسيَّة، يتعلَّم، وقتئذٍ، دروساً مباشرةً في فن الحكم ومخاطره وهو بجانب والده. فالإعداد، والفعل الحاسم (على الصعيدين الشخصي والعام، المتعلِّق بالفوز بمشاعر الناس وتأييدهم) مشفوعيْن بالحظ الجيد، تعدُّ عوامل أساسيَّة في هذا الشأن، وقد غدا ذلك درساً لن ينساه أبداً.

وعلى الرغم من انخراطه العميق في شؤون الدولة، فقد توفَّر لورينزو على الوقت لإشباع الجانب اللاهي والمرح من شخصيته، فأفاض في كتابة شعر جريء وبليغ، وبدأ يكتب قصائد يخاطب بها امرأة حسناء وقع في إسارها، متمثِّلاً في ذلك عُرفاً أدبياً ساد في ذلك الزمان. وكانت لوتسريزيا دوناتي، التي عُدَّت أجمل نساء فلورنسا، موضوع قصائده. وتختلف المصادر حول عمرها، فَمِن قائلٍ إنها لم تتجاوز الاثنتي عشرة سنة آنذاك، وثمة من يؤكد أنها كانت متزوجة (وليس من الضرورة أن تكون مثل هذه المزاعم متنافية في ذلك الزمان).

مهما يكن من أمر، فقد كان ذلك، وفقاً للتقليد المتَّبع في حكاية دانتي مع بياترس، وبترارك مع لورا، حباً شعرياً عفيفاً، وهو أفلاطونيّ واقعاً وأسلوباً، ومن ذلك قول لورينزو:

حين أرنو إليها وهي تبتسم بصورة سماويّة
فإنّ الحب الذي يضيء عينيها
يطلق سهم كوبيد الناري في عمق فؤداي[13].

وقد وصف الكاتب المتأخر؛ وليام راسكو، الذي وضع سيرة لورينزو، ذلك، بصورة فذّة، قائلاً: «كانت لوتسريشيا [كذا] عشيقة الشاعر لا عشيقة الرجل»، فربما كان التصريح بحب امرأة مخطوبة، وغير متزوجة في الواقع، مقبولاً شعرياً، أما إذا أخذ منحى جنسياً، فسيستدعي ذلك الغضب، ويستجلب الفضيحة والسعي إلى الانتقام. وكان لورينزو المراهق يفعل ذلك، في واقع الحال، بقصد المران قبل أن ينخرط في مشاعر عاطفية أنضج، بصورة تشبه ما كان يفعله المبارزون، في تلك الحقبة، حين كانوا يتدربون قبل الانخراط في منازلات القتال الحقيقيّة. وقد جرى العرف، حين كانت تجري مبارزة عامّة في ساحة سانتا كروتشه، أن تكون ملكة المسابقة أجمل فتيات المدينة. ووافقت لوتسريزيا دوناني شروط المسابقة، فجُعلت ملكة تلك الدورة[14]. وكان من دأب الفرسان أن يقتادوا خيولهم صعوداً نحو المنصة حيث تجلس الملكة، ويترجلوا، وينحنوا أمامها انحناءة تحيّة، ثم ينكسوا رماحهم قبل أن يعتلوا جيادهم من جديد، متأهبين للقتال. ولم يكتف لورينزو في هذه المسابقة، بتحية لوتسريزيا أمام الجماهير الهاتفة المتراصّة، وإنما حمل رايتها ووضع شعارها على درعه. وسيكون في ذلك امتحان حقيقي لعزيمة لورينزو، فهو سيتبارز مع بعض الفرسان المخضرمين والمتمرسين. وسيخلد الشاعر الفلورنسي؛ بوليجي بولتشي، الذي كان عضواً من أعضاء الدائرة الثقافيّة في قصر ميديتشي، هذه المنازلة، التي كان لورينزو أحد فرسانها، في واحدة من ملاحمه. وسيغدو المقطع المتعلق

بلورينزو، المسمّى «مبارزة لورينزو ميديتشي»، إحدى الأغاني البطوليّة الأكثر شعبيّة. ولقد ألفى بولتشي نفسه ملزماً بذكر ما حدث للورينزو حين هوى، في مرحلة من مراحل النزال، عن صهوة جواده، وذلك تحرّياً للدقة، لكنه نجح، عبر حيلة شعريّة، في جعل هذه الحادثة المثلَ على شجاعة لورينزو. وقد سجّل الأخير، الواعي لدوره في المسابقة، بتواضع، في يوميّاته قولَه: «على الرغم من حداثة سني وضرباتي غير القويّة، فإني مُنحت الجائزة الأولى، وهي عبارة عن خوذة فضيّة يُتوّجها مجسم مارس؛ إله الحرب»[15].

وإذا كان لورينزو قد تُوّج وفقاً للتقاليد المتبعة – أي وهو منحنٍ على ركبتيه، وملكة المسابقة تضع الخوذة على رأسه– فإن ذلك كان أقرب اتصال جسدي فِعلي بينه وبين لوتسريزيا. ولم تكن تلك المبارزات أكثر من استعراضات، فلا دماء تُسفك، ولا خطورة تذكر، وليس ثمّة غير الإثارة والحماسة. وسيتعلم لورينزو، هنا أيضاً، درساً مهماً آخر، مؤداه أن أهل فلورنسا تلهّوا بتلك العروض عن مشاكلهم، على الرغم من إدراكهم أن فوز لورينزو، وارتداءه شعار لوتسريزيا إعراباً عن حبه لها، ما هو إلا ضربٌ من التمثيل.

وفي واقع الأمر، كان لورينزو، آنئذ، قد خطب فتاة أخرى توطئةً لزواج مرتَّب. فقد قامت أمه برحلة استطلاعيّة إلى روما لتعاين العروس المرتقبة؛ كلاريس أورزيني، وكانت تنتمي إلى واحدة من أهم الأسر الأرستقراطيّة المتنفذة في روما وأبرزها؛ تلك الأسرة التي تضمنت شجرة نسبها الأصيلة العديد من الكاردينالات، فضلاً عن اثنين من البابوات. وكان لورينزو قد التقى كلاريس أورزيني، اتفاقاً، في روما دون أن يدرك أن تلك الفتاة لن تلبث أن يقع عليها الاختيار فتغدو عقيلته.

وكان هذا الاقتران، أساساً، مسألة سياسيّة كما أوحت بذلك الصيغة الظاهرة التي اتخذتها كلمات أم لورينزو حين كَتَبت لبييرو من روما واصفة المرأة التي توخياها عروساً للورينزو، فبعد أن ذَكَرَت: «طول قامة كلاريس الجيد»، و«مظهرها اللطيف»، و«سلوكها النبيل»، مضت تقول: «إن عنقها جد رائع، لكنه يبدو نحيلاً قليلاً، أما نهداها فمتناسقان، وهي لا ترفع رأسها بكبرياء مثل فتياتنا، وإنما تبرزه إلى الأمام قليلاً»[16]. وعلى الرغم من هذا الوصف الفاتر، فقد أدركت الأم أن اختيار عروس أرستقراطيّة من روما لابنها لورينزو يمثل انطلاقةً طموحةً ومهمّةً، تغاير العرف السائد. فقد دأبت أسرة ميديتشي، في السابق، على الاقتران بأسر فلورنسيّة بارزة مثل أسرتها هي. أمّا وقد اقترن لورينزو بكلاريس، فإنَّ الأسرة أكدت، بذلك، حقَّها في بلوغ المكانة الأرستقراطيّة، فضلاً عن فوزها بموطئ قدم في الهيراركية الرومانيّة. وكان ذلك إشهاراً لرغبة أفراد أسرة ميديتشي في تكريس أنفسهم حكاماً أرستقراطيين دائمين لفلورنسا. وكما سيلحظ ماكيافيلّي، بتبصُّر واضح، قائلاً: «من لا يرغب أن يقترن بعلاقة نسب تجمعه بمواطنيه، فإنه يريدهم عبيداً»[17]. وقدْ بقيت التفاصيل المتعلقة بمطامح أسرة ميديتشي سراً مصوناً تناقلته الأسرة، تقليدياً، من الأب المُحتضِر إلى الابن الوريث، وهو تقليد أرساه دي بيتشي؛ والد كوزيمو، ومؤسس مصرف ميديتشي. إذ نصح الأخير، بما أوتي من حكمة، كوزيمو أن يظلَّ متواضعاً، وألا يتدخل في الشأن السياسي. ولقد اتَّبع كوزيمو، بادئ الأمر، نصح والده، لكنه سرعان ما فهم أن السلطة السياسيّة هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الأسرة وثروتها. وكان كوزيمو مَنْ أسدى النصح لابنه كي يجد للورينزو الشاب عروساً أرستقراطيّة من روما، وذلك لظنّه أن أهل فلورنسا لن يلبثوا أن يضيقوا بأسرة

ميديتشي. وهكذا، فإذا طردت أسرة ميديتشي من فلورنسا، فسيكون لها صِلات بعِلية القوم في روما.

ارتحلت كلاريس أورزيني في يونيو من عام 1469 إلى فلورنسا، واقترنت، كما كان مخططاً، بلورينزو ميديتشي. وقد دوّت أجراس الكنيسة في أرجاء المدينة، وعمت المدينة الولائم والاحتفالات التي أقامتها أسرة ميديتشي. وعمل لورينزو، بصورة عامة، على تنظيم المهرجانات بنفسه؛ ذلك أن المرض أقعد والده، وبدا جلياً أنه يُحتَضَر، ولم تنقض خمسة أشهر حتى جلجلت أجراس الكنيسة معلنة وفاته.

وقد سجّل لورينزو في دفتر يومياته إثر ذلك ببضع سنين:

«على الرغم من أني كنت لمّا أزل بعد شاباً في الواحدة والعشرين[1] من عمره، فقد جاء وجهاء المدينة والدولة، في اليوم الذي أعقب وفاة والدي، إلى منزلنا لمواساتنا، وحثّي على الاضطلاع برعاية المدينة والدولة كما فعل والدي وجدّي من قبل، وكان ذلك مناقضاً لرغباتي في ذلك العهد من الشباب. وإذْ تفكرّت ملياً بما ينطوي عليه ذلك من مسؤوليّة وخطورة، فإني قبلته على كره مني. وقد قمت بذلك حمايةً لأصدقائي وممتلكاتي، فلا تجري الأمور –في فلورنسا– على ما يرام للموسرين الذين لا يسيطرون على مقاليد الحكم»[18].

كان سوء تقدير لورينزو، فيما يخصّ عمره، قابلاً للتبرير. غير أن إصراره

(1) كان لورينزو حقيقةً في العشرين آنذاك، ومعظم المصادر تؤكد ذلك، ومع ذلك فإن المدونة الإيطالية الأصلية التي نقل عنها روسكو (وهي ضائعة الآن)، والتي امتلكها لورينزو، أشارت بصورة جلية إلى أنه كان في الحادية والعشرين.

على ما دعاه «كرهَه» لتولي السلطة، مثلما بيّنته الحقائق، فقد كان ضرباً من التزييف. ففي الفترة بين الأول إلى الرابع من ديسمبر (وهي الأيّام التي سبقت قدوم الوفد الفلورنسي، والطلب إليه تولّي السلطة) كتب لورينزو ما لا يقل عن ثلاث رسائل إلى جالتسو سفورزا؛ دوق ميلان، مهيّئاً حليف أسرة ميديتشي الأقوى لانتقال السلطة في فلورنسا، ومُلتمساً دعمه المتواصل للمدينة والأسرة. ولما كان لورينزو متنبهاً إلى شخصية سفورزا المتقلبة والعنيفة، فقد حرص على أن يقوم بذلك مشتَطاً في تملُّقِه وتودُّدِه، ومن ذلك:

«أودُّ أن أعلن نفسي الخادم الأكثر إخلاصاً لسعادتكم، كما أودُّ أن أُحيي الولاء القديم الذي كرّسته أسرتي، وكرستُه أنا على نحو خاص، لسلطانكم الذي طبق الآفاق... وإنني وإن كنت متيقناً من دعم العديد من الأصدقاء المخلصين هنا، فيبدو لي أن هذا الدعم غير ذي نفع إذا لم يؤازره ما يهبه سلطانكم الأغر من عون ورعاية»[19].

وعلى الرغم مما ذكره لورينزو في دفتر يوميّاته من أن «المدينة برمتها فُجعت لموت أبيه»[20]، وما أخبر به جالتسو ماريا سفورزا عما حظي به من «تأييد عظيم من جانب أصدقاء كثر» في فلورنسا، فإن ذلك، أيضاً، انطوى على مكر وخداع. فمن الثابت أن وجهاء المدينة قد عرضوا عليه تولي منصب حاكم غير رسمي، لكنهم أجبروا على ذلك بالتأكيد بسبب ضغط مؤيدي العائلة. ولم يأسَ على موت بييرو، في واقع الحال، أحد باستثناء هذه العصبة القويّة والمنظمة تنظيماً جيّداً. وستثبت «وراثة» أسرة ميديتشي للسلطة، هذه المرة، أنها لم تكن أمراً محتوماً أو متوقعاً سلفاً.

لقد انتهز مشايعو حزب الجبل فرصة ما تصوروه موجة كراهية لأسرة

ميديتشي، فنظموا انتفاضة في مدينة براتو التي تبعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من فلورنسا، لكن أملهم خاب حين لم تعقب تلك انتفاضةً شعبيّة في فلورنسا نفسها. وحين علم الثوار أن لورينزو أمر بردٍّ عسكري خاطف بمباركة من الحاكم الـ«غونفالونيير» ومجلس الحكم «السينيوريا»، فإنهم استسلموا دون إبطاء.

وأسرَّ لورينزو، منذ بداية عهده، إلى سفير ميلان بما داخله من رغبة في حكم المدينة «بطريقة مدنيّة، قدر المستطاع، وضمن نطاق الدستور»[21]، غير أنّه أدرك، وقتها، أنه إن أراد الإبقاء على حكم المدينة في يده، والحفاظ على ثروة أسرة ميديتشي، فسيكون من المتوجّب عليه، حينها، أن يتخذ إجراءات تُحكم قبضته على العملية الانتخابيّة، كي يضمن تأييداً دائماً ممن يُنتَخبون لمواقع متنفذة في الحكومة. وتحقيقاً لهذه الغاية، تحوَّلت جماعة ميديتشي، مسنودة بأموال الأسرة، إلى آلة حزبيّة أكثر فاعليّة وقهراً. كان كوزيمو قد أسس مجلس المئة قبل ما ينوف على عشر سنين فقط، وذلك بغرض اختيار أسماء ملائمة لوضعها في الحقائب الجلديّة التي يُختار منها الرئيس الجديد الـ«غونفالونيير»، ومجلس حكمه «السينيوريا»، وكل المناصب العليا في الحكومة. وضمنت الآلة الحزبيّة الميديتشيّة، الآن، أن مجلس المئة يغصُّ برجال ميديتشي. وربما ظل ذلك «ضمن حدود الدستور»، لكنه أوهن الروح الديمقراطيّة الجمهوريّة التي فاخرت بها المدينة.

شهد عام 1471 وفاة البابا بولس الثاني، وخَلفَه البابا سيكستوس الرابع، فخفَّ لورينزو إلى روما ممثلاً فلورنسا في حفل تتويج البابا الجديد، واستقبل الأول استقبالاً كريماً بوصفه حاكم فلورنسا. وكان لورينزو حاضراً، من ناحية ثانية، بوصفه الممثل لمصالح أسرة ميديتشي التجاريّة، وقد أصاب

بمهمته هذه بعض النجاح. وكان بولس الثاني قد جدد منح بنك ميديتشي الحقوق الحصريّة في تشغيل مناجم حجر الشب في تولغا، حتى إنَّه سلم إدارة الحسابات البابويّة، مجدَّداً، إلى بنك ميديتشي. وقد سمح البابا للورينزو أن يشتري من مجموعة الأول عدداً من الأحجار الكريمة الفاخرة تعزيزاً لهذه العلاقة الجديدة. وعلى الرغم من أن لورينزو يُذكر، عادة، بوصفه راعياً للفنون، فإن ميله الشخصي كان متوجهاً، فيما يبدو، إلى الأحجار الكريمة المرصّعة، والجواهر، والأحجار الكريمة ذات النقوش، وما ماثلها.

وقد رأى بعض المعلقين في هذا الميل إشارة إلى أن لورينزو يتفق، في دخيلته، مع رأي جده كوزيمو أن أسرة ميديتشي مطرودة، لا محالة، من فلورنسا في بضع سنين. وسيكون من اليسير نقل هذه الأحجار الكريمة إذا ما حدث انقلاب مفاجئ، وربما انطوى هذه التقدير على بعض الحقيقة، ولاسيما في مقتبل عهد لورينزو. بيد أن ما فعله، لاحقاً، بمجموعته من الجواهر والأحجار الكريمة، يوحي أن هواجسه، غَدت بمرور السنين متجهةً، على النقيض من ذلك، نحو أكثر استيهامات العظمة تطرُّفاً فيما يتصل بمستقبل أسرة ميديتشي. فتراه لا ينظر إلى جواهره بما هي موجودات نفيسة يمكن أن تُباع في الشدائد، وإنما يعمد إلى «تدنيسها» حين أعلنها ممتلكاتٍ دائمةً لأسرة ميديتشي. فقد عمد إلى الإيعاز بنقش اسمه على الأحجار الكريمة، والمزهريات، وحتى الجواهر، وغالباً ما أخذ النقش هذه الصورة (lau. r. med)[22]. التي استجلبت كثيراً من التخمين، فإذا كانت الأحرف الثلاثة الأولى هي الصيغة اللاتينيّة الدالة على لورينزو، وكانت الأحرف الأخيرة مؤشراً إلى اسم الأسرة؛ ميديتشي. فماذا عن حرف الراء؟ هل يرمز إلى كلمة ملك كما في اللاتينية Rex أو في الإيطالية Re. لقد بدا

لورينزو كما لو أنه يحلم بأن يصبح آل ميديتشي ملوك فلورنسا أو أي مكان آخر في قابل الأيام. ورغب في احتلال الموقع الأول ضمن هذه السلالة الملكيّة.

بدا لورينزو وقد امتلك سيطرة كاملة على موقعه حاكماً لفلورنسا، وذلك بعد أن عزّز موقفه داخل البلاد، وأنشأ مع البابا حلفاً متمّماً لحلفه مع ميلان، لكنه ما لبث أن وقع في خطأ فادح، فقد اكتُشفت احتياطات جديدة من حجر الشب في فولتيرا التي تبعد أربعين ميلاً جنوبي شرقي فلورنسا، وتقع ضمن أراضي الأخيرة، وتخضع لسلطانها، وكانت تلتزم بدفع الضريبة، وتحتكم لحاكم فلورنسي معيّنٍ من جانب فلورنسا، لكنها تدير شؤونها فيما خلا ذلك، فنشأ خلاف، محتوم بصورة ما، بين مجموعة يساندها الحاكم الفلورنسي في فولتيرا، وأخرى يساندها المجلس المحلي حول أحقية التنقيب عن حجر الشّب. وأُحيل الأمر، عام 1471، إلى فلورنسا كي تحكم فيه، فحكم لورينزو، على نحو لا يدعو إلى الدهشة، لصالح الحاكم الذي عيّنه. وما إن بلغت تلك الأنباء فولتيرا حتى ثارت المدينة ودخلت في حالة من الشغب والاضطراب. فحدثت مقتلة كبيرة في صفوف الفلورنسيين، وكان الحاكم الفلورنسي محظوظاً حين نجا بنفسه. فقرر لورينزو، خلافاً لمشورة المجلس الحاكم «السينيوريا»، أنْ لا بُدّ من اتخاذ إجراء حازم، فلم يزل شاخصاً في الأذهان سقوط براتو في أيدي حزب الجبل المعارض بسهولة مذهلة. كما علم لورينزو أن مشاعر الضيق والتبرّم من الحكم الفلورنسي تتصاعد لدى العديد من المدن التوسكانية. وعمدت فلورنسا، مجدّداً، إلى استئجار زعيم المرتزقة؛ فيديريكو دا مونتيفلترو، وجيشه، فأمره لورينزو بالزحف على فولتيرا. ولما ألفى مونتيفلترو أبواب المدينة موصدة

وممتنعة عمد إلى محاصرتها، واستسلمت له المدينة في 16 من يونيو عام 1472، بعد خمسة وعشرين يوماً. ودخل مرتزقة مونتيفلترو، عندئذ، في سورة من الهياج، فسلبوا المواطنين العزل، واغتصبوا النساء، وأعملوا يد القتل. وحالما سمع لورينزو بما حدث، ركب جواده متجهاً، بأقصى سرعة، إلى فولتيرا حيث تقدَّم باعتذار حار للمواطنين. ووزع، في الوقت ذاته، الصدقات كي يخفِّفَ من محنتهم. لكن الضرر قد وقع، وكان هو من استقدم المرتزقة وأوعز إليهم بالدخول، وسيُلام على ما اقترفوه من أعمال وحشيَّة إلى أبد الآبدين.

بات من الجلي أن لورينزو لم يزل؛ بعدُ، بحاجة إلى تعلّم الدروس، على الرغم من تمرّسه في العمل الدبلوماسي في سن مبكرة. ولم تمض غير شهور قليلة حتى تبين أن موجودات حجر الشب في فولتيرا أقل بكثير مما يتوافر عليه منجم تولفا الغني باحتياطاته. ولم يُنْتج، في المحصلة، سوى كميات محدودة من حجر الشب ذي الجودة المتدنية. ولو أن لورينزو تروَّى ولم يتصرَّف على نحو أهوج، فربما تكشَّف كل ذلك في وقت مبكر، ونزع فتيل الأزمة، وزال التهديد. أمّا وقد جرى ما جرى، بات من اللازم عليه، الآن، أن يحصِّن الجبهة الداخليَّة للاحتفاظ بالحكم في فلورنسا، والحؤول دون تحوُّل ولاء المدينة إلى سيينا المجاورة.

ولعل ما حدث لاحقاً جاء ليؤكد سخرية الأقدار، فقد بدأ بنك ميديتشي يعاني من تراجع تجارة حجر الشب، وفقدت إحدى السفن الفلورنسيَّة المحمَّلة بحجر الشب، قريباً من إسبانيا، في أثناء رحلتها الطويلة إلى بروج، ثم تبعتها أُخرى. كما خرقت البندقية وجنوا احتكار البابا هذه التجارة، وشرعتا في شحن حجر الشب التركي إلى بروج، مما بخَس سعر احتياطيات حجر الشب الموجودة في مستودعات ميديتشي. وغدا الوضع كارثياً إلى

درجة أن بنك ميديتشي، الذي توجب عليه دفع المستحقات البابويّة على كل ما يستخرج من حجر الشب في توفلا، كان يتعرض للخسارة في هذه التجارة.

استمرّت الحياة في قصر ميديتشي، في تلك الأثناء، تبعاً لوتيرتها المعهودة، فضلاً عن أن رعايته لحركة النهضة كانت قد دخلت عصرها الذهبي. وبرزت من بين الشخصيات العديدة والمتعددة الثقافات، التي ارتبطت بقصر ميديتشي، الفنان ساندرو بوتيتشيلي، الذي لم يتجاوز الثلاثين حين أنجز لوحة «توقير المجوس» عام 1475، وهي وإن كانت أثراً فنياً رائعاً، فإنها تُعدُّ، أيضاً، نصباً تذكارياً لأسرة ميديتشي. فعلى الرغم من أنها تصوّر، ظاهرياً الحكماء الثلاثة، بمعية حاشيتهم، وهم يحملون الهدايا التقليديّة للمسيح الطفل، فإنها تصلح أن تكون لوحة عائليّة تصوّر أجيالاً ثلاثة من أسرة ميديتشي، فثمة تصاوير واضحة لكل من كوزيمو وبييرو ولورينزو بصحبة أخيه الأصغر جيوليانو، وهي تتضمن، أيضاً، تصاوير تشيرُ إلى العديد من المناصرين والأعضاء البارزين في دائرة ميديتشي الثقافية. وتشتمل اللوحة على صورة واضحة، وضوحاً ظاهراً، لبوتيتشيلي نفسه يقف إزاء المجتمعين، مما يمثل إحدى الإشارات الأولى إلى الأهميّة الصاعدة لفنان النهضة من جانبه وجانب من يرعونه.

وبرز من فناني دائرة ميديتشي، قريباً من ذلك الوقت، الفنان المُسن ميكلوتسو ميكلوتسي، الذي كُلّف حينئذ بتشييد ضريح لبييرو. وقد عمل لورينزو جاهداً لتأمين المشروعات، وقهر الصعاب أمام واحد من أكثر رجاله نبوغاً وتعقُّداً، وهو الشاب ليوناردو دافنتشي، الذي لم يكفّ عقله المتّقد بالنشاط عن القفز من مشروع إلى آخر، ومن الفن إلى الاختراعات. فما

انفكَّ دافنتشي يفقد رغبته في عمل، كوفئ عليه، قُبيل إنهائه بوقت وجيز.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الشخص الذي انجذب إليه لورينزو، بصورة عميقة، هو أنجلو بوليتسيانو، فما لبث لورينزو أن أدرك أن قصائد الأول أجود وأعذب من أشعاره. وقد ولد بوليتسيانو عام 1454 في بلدة «مونتي بوليتشيانو»، التي تقع، تماماً، على الحدود الجنوبيّة لتوسكانا، حيث عُيِّن والده حاكماً فلورنسياً على تلك البلدة. واتفق في سنة 1466، التي شهدت محاولة اغتيال بيرو ميديتشي، أن قام أهل مونتي بوليتشيانو بانتفاضة ضد فلورنسا أفضت، فيما أفضت، إلى مقتل والد بوليتسيانو. فنشأ بوليتسيانو، ذو الاثني عشر ربيعاً في فلورنسا، حيث أظهر المعيّة مبكرة، فكتب شعراً لاتينياً وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكتب شعراً يونانياً إثر ذلك بثلاث سنين، مما لفت إليه أنظار لورينزو، ودعي في زمن لاحق كي يتخذ من قصر ميديتشي مسكناً.

وكان للورينزو، آنئذ، ولدان. هما بيرو وجيوفاني. وأصبح بوليتسيانو والعالم الأفلاطوني؛ فيتشينو، مؤدِّبين للولديْن. ويبدو أن لورينزو كان منجذباً، بصفة خاصّة، إلى مزيج التبحُّر العلمي والانصراف الكلي إلى مباهج الحياة في شخص بوليتسيانو. وقدْ دعا ما تشاطره الاثنان من فيض عاطفي بعضهم إلى الاشتباه بأنهما كانا، في وقت من الأوقات، عاشقين، إذ لم يخفِّف زواج لورينزو من شبقه الجنسي. وقَدْ ألَّف بوليتسيانو ملحمةً أبرز فيها شقيق لورينزو الأصغر والمحبب لدى الأخير، وهو جيوليانو، الذي استحثَّه لورينزو، بداءة، على مشاركته حكم المدينة، لكنّه آثر البقاء بعيداً عن بريق الشهرة، وعمل في موقع استشاري. وعلى الرغم من أن جيوليانو كان يشبه أخاه في رعايته المتبصِّرة للفن، وشهيته للحياة، فقد أدهش معاصريه

بوصفه شخصيّةً محبوبة لا شخصيّة كاريزميّة مثل أخيه. وكان جيوليانو، بخلاف أخيه أيضاً، بهيّ الطلعة، وقد حاول أن يحذو حذو الأخير في سعيه وراء النساء، بيد أنه لم يكن ملائماً للعب دور زير النساء ذي القلب المتحجّر، وكثيراً ما وقع في حب نساء قُمن بصدّه، مما أركسه، غير مرّة، في حالة من الحرمان والالتياع. ولقد عمد بوليتسيانو، كي يشد من عزم جيوليانو واعتداده بنفسه، إلى تأليف قصيدة يعارض بها قصيدة بوليتشي المسمّاة «مبارزة لورينزو دي ديمتشي»، وأسماها «مبارزة جيوليانو دي ميديتشي». وعلى الرغم من أنّ هذه القصيدة الأخيرة تصوّر، في واقع الأمر، مبارزة حقيقيّة تشبه مبارزة أخيه التي حدثت قبل ست سنوات، فإنّ ما أضافه بوليتسيانو للحدث من تنمطيات وزخارف كانت مدعاة للتندُّر داخل دائرة ميديتشي الخاصة. إذْ تروي القصيدة كيف أن أجمل نساء فلورنسا، وهي في ذلك الوقت سيمونيتا فيسبوتشي، ذات السبعة عشر ربيعاً، شُغفت حباً بجيوليانو، لكنها أخفقت في امتلاك قلبه، فليس بمقدور أي من الفتيات أن تذيب الثلج الذي في صدره[23].

وحدث زهاء عام 1476 أن توفي ابن عم لورينزو؛ بيرفرانشيسكو دي ميديشي، المالك غير الفاعل لنصف بنك ميديتشي، وصهر عائلة أتشيايولي. وما لبث لورينزو أن أخذ ابني بيرفرانشيسكو: لورينزو بيرفرانشيسكو دي ميدتشي، وأخاه الأصغر جيوفاني، ليعيشا معه في قصر ميديتشي، حيث قام كل من فيتشينو وبوليتسيانو بتدريسهما[1]. ولكن دوافع لورينزو للقيام

(1) يشتمل اسم لورينزو دي بيرفرانسيسكو دي ميديتشي الكامل على اسم أبيه، ولقد استعملت هذه الصيغة عبر الكتاب للتمييز بينه وبين ابن عمه، حاكم فلورنسا، الذي كان اسمه الكامل في حقيقة الأمر، متضمناً اسم والده: لورينزو دي بيرو دي ميديتشي.

بذلك لم تكن خيريّة محضة، فقد قصد، بوصايته على أبناء عمومته، أن يطل تأثير أسرة أتشيايولي المعارضَة، فضلاً عن أنه أصبح، بذلك، «وَصياً» على ميراثهما المشتمل على نصف حصة أبيهما من بنك ميديتشي التي تجاوزت، في تلك المرحلة، ثروة لورينزو بكثير. ذلك أن الأخير باع جزءاً من أصوله كي يموّل الآلة الحزبيّة الميديتشيّة.

وقَدْ غرقت سوق حجر الشب بهذه السلعة، وهوت أسعاره بصورة كبيرة، مما دفع بأسرة ميديتشي إلى تقليل الكميّة المنتجة من مناجم تولغا، وذلك كي يقللوا من خسائرهم. وأدى ذلك إلى انخفاض المستحقات البابويّة، فأثار الأمر شكوكاً لدى البابا سكستوس الرابع، وأمر بإجراء تدقيق في حسابات ميديتشي. ومثَّل هذا الارتياب في ممارسة ميديتشي المصرفيّة سابقةً، مما تسبب للورينزو بإهانة عميقة. فعمد، في خطوة انتقاميّة، إلى عدم السماح لفرانشيسكو سالفياتي؛ رئيس الأساقفة الذي عيَّنه البابا حديثاً في بيزا، من شَغْل موقعه الجديد في المدينة، محتجاً بأنَّ من المفترض أن يستشيره البابا قبل قيامه بهذا التعيين على الأراضي الفلورنسيّة.

وانتكست العلاقة إلى حد بعيد، حين تقدَّم الباب سيكستوس الرابع؛ الذي عانى دائماً من ندرة النقد السائل، بطلب قرض مقداره 40,000 فلورين من بنك ميديتشي، وذلك كي يشتري لوردِّية «Lordship» بلدة إيمولا «لابن أخيه» جيرولامو رياريو، «الذي شاع أنه ابنه». وقد عنى موقع إيمولا الاستراتيجي في رومانيا الإيطاليّة أنها كانت تسيطر على الطريق التجاري الغربي لفلورنسا، مروراً بجبال الأبنين، ووصولاً إلى البحر الأدرياتيكي. فأثار ذلك –فوراً– مشاعر الريبة لدى لورينزو، ورفض، بأدب جمّ، طلب البابا، وأوعز إلى بقية المصرفيين الفلورنسيين أن يحذوا حذوه.

واجه بنك ميديتشي انحداراً على مدى خمس سنين، منذ أن خلف لورينزو أباه عام 1469، لكن البنوك الأخرى في فلورنسا استمرت في الازدهار، ولاسيما تلك التي كانت تديرها أسرة باتسي العريقة التي تجاوزت ثروتها، في ذلك الوقت، ثروة أسرة ميديتشي. وأدركت الأولى أن الفرصة سانحة لتحل محل الأخيرة في إدارة الحسابات البابويَّة، فتقدَّمت، راغبةً، وأقرضت سيكستوس الرابع المبلغ المطلوب، فأثار ذلك ثائرة لورينزو، وأبصر، في الوقت نفسه، العوائد الخطيرة للخطوة التي قامت بها أسرة باتسي. إذ سيفضي توليهم الحسابات البابويَّة إلى تنامي ثروتهم الكبيرة أساساً، مما يشكل، حتماً، تهديداً لأسرة ميديتشي. وكان من المعروف، في الواقع، أن أسرة باتسي غدت ناقمة أكثر فأكثر على أسرة ميديتشي لكونها تشغل موقعاً بارزاً في فلورنسا.

وآلى لورينزو على نفسه أن يقوم بالرد عند أول سانحة، ولم تكن هذه بعيدة، فقد وافت المنية، في مارس من عام 1577، أحد الأثرياء، الذي اقترنت ابنته بواحد من أسرة باتسي. فطالبت الابنة بالتركة الوفيرة التي تحوَّلت إلى أسرة باتسي لتزيد من ثروة الأخيرة وقوتها، وقرَّر لورينزو أن يتدخل حتى لا تقع هذه التركة بأيدي أسرة باتسي. وهكذا، قضى لورينزو أن من الواجب أن تؤول التركة إلى ابن عم الفتاة، لكونه أقرب الذكور للمتوفَّى. وانطوى هذا الحكم على إبطال لتقليد استقرَّ منذ عدة قرون، فضلاً عما مثله من تأسيس لسابقة ستكون لها آثار قاسية على عائلات فلورنسا جميعها، لكن لورينزو أبى أن يعود عن قراره.

يقول ماكيافيلّي: «كان لورينزو المنتشي بحُميّا الشباب والسلطة، مصمّماً على اتخاذ القرارات في كل صغيرة وكبيرة، وأن يبرهن للفلورنسيين أنه

مصدر السياسات جميعاً»[24]. حتى إن دائرة لورينزو الضيقة بدأت ترتاب بموقفه، الذي أثارته، فيما يبدو، التركة التي آلت إلى أسرة باتسي. وكما يقول ماكيافيلّي مرّة أخرى: «فما فتئ جيوليانو يعبّر عن شكوكه إزاء هذا الأمر، مخبراً أخاه بأن رغبته في الاستحواذ على كل شيء تجعله عرضة لخسارة كل شيء»[25]، وما هو غير وقت قليل حتى تحقّقت شكوك جيوليانو.

فقد حدث، عقب ذلك بسنة واحدة، في يوم الأحد الموافق للسادس من عام 1487، أنْ كان لورينزو يشهد قداساً في كاتدرائيّة فلورنسا، فثار شغب بين جماعة المصلين، واستلّ قسيسان كانا يقفان بإزاء لورينزو قرب المذبح، خنجرين من تحت رداءيهما، وحاولا طعنه، فأصابه أحدهما في عنقه، غير أنّه أفلت من المعترك، وتدبَّر أمره بمساعدة أصدقائه، فوصل إلى مأمنه حيث حجرة المقدسات التي احتمى داخلها، ولم يدرِ لورينزو -إلا لاحقاً- أن أخاه جيوليانو قد طُعِنَ حتى الموت وسط جماعة المصلين.

وتواقتت، مع ذلك، محاولة فرانشيسكو سالفياتي؛ رئيس الأساقفة المُعين حديثاً في بيزا، الاستيلاء على مقر الحكومة؛ قصر السينيوريا. لكن هذه المحاولة أُفشلت أيضاً، وما إن تناهى إلى مسامع الناس خبر محاولات الاغتيال، حتى انفجرت المدينة في حالة من الثورة والاهتياج. بيد أن مشايعي ميديتشي انطلقوا، دون إبطاء، لحشد المواطنين تأييداً لقضيتهم، مشيعين أن تلك كانت محاولة مدبَّرة من أعداء أجانب للاستيلاء على فلورنسا. وطوّح برئيس أساقفة بيزا، وهو لم يزل بعد مرتدياً ملابسه الكنسيّة، من إحدى شرفات قصر ديلا سينوريا المرتفعة، وقدْ جُعلت أنشوطة حول عنقه، في حين ضجَّت الحشود في الساحة، ساخرةً منه، وهو يتلوّى معانياً آلام الاحتضار. وظهر لورينزو المضرَّج بالدماء، أخيراً، من أحدى شرفات قصر

ميديتشي المرتفعة، وطمأن الحشود المروّعة التي احتشدت في الأسفل، أنه لم يزل قائدهم، وأنه سيقاوم أي محاولة أجنبيّة للاستيلاء على المدينة. واستُقبل خطاب لورينزو الدرامي بهتافات وطنيّة محمومة، وتفرّق الرعاع عازمين على الأخذ بالثأر.

لم يستطيع لورينزو أن يُلمّ بما حصل إلا تدريجياً ومع توالي الساعات في ذلك اليوم، فلقد تبيّن أنها محاولة للإطاحة بأسرة ميديتشي، إذ دَبَّرت أُسرة باتسي محاولة اغتيال وانقلاب في الآن ذاته، وكان البابا سيكستوس الرابع قد ساند ذلك خفية. ولقد التأم أعداء أسرة ميديتشي جميعهم في هذه المؤامرة، فالقسيس الذي حاول اغتيال لورينزو قدم من فولتيرا، أما قاتل أخيه فهو عضو بارز من أسرة باتسي، فضلاً عن تولي الأخيرة تمويل الانقلاب. وجرى في المقابل، جر المشايعين الحقيقيين «أو حتى المشتبه بولائهم» لأسرة باتسي من بيوتهم، ومُزّقت أجسادهم شرّ ممزق من جانب الغوغاء، كما قُبِضَ على القس الفولتيراني، وخُصي قبل أن يُعْدم.

وأمر لورينزو، على امتداد الأسبوع التالي، بقتل كل من نجا من أعضاء أسرة باتسي البارزين، أو زجهم داخل السجون، أو نفيهم. كما قضى بالاستيلاء على ممتلكاتهم جميعها. وصدرت الأوامر إلى وكلاء أسرة ميديتشي في أوروبا بالسعي إلى مصادرة أصول أسرة باتسي جميعها باسم الجمهوريّة.

لكن، وعلى الرغم من هذا النصر، ما لبث لورينزو أنْ أَدرك مدى العزم والتصميم الوطيدين لدى أعدائه. فلم تكن أسرة باتسي مدعومة من جانب البابا سيكستوس الرابع وحسب، وإنما من حليفه القريب؛ ملك نابولي المدعو فيرانتي، أيضاً. حتى إن زعيم المرتزقة؛ فيدريكو مونتفلترو، المؤتمن

لدى فلورنسا، كان يترقَّب، سراً في مدينته القريبة؛ أريينو، متأهباً لدخول الأراضي الفلورنسيَّة، وتعزيز استيلاء أسرة باتسي على السلطة.

استشاط البابا غضباً بسبب فشل الانقلاب، لكنه غضب أكثر للكيفية التي عومل بها رئيس أساقفة بيزا وهو يرتدي ثيابه الكنسيَّة لا غيرها، فقد مثَّل ذلك امتهاناً للكنيسة المقدسة، لذا عمد البابا إلى حرمان أهل فلورنسا جُملةً، وربما بدا ذلك من قبيل الكلام لا أكثر، ولكن سرعان ما صدقته الأفعال، فُشنَّت الحرب على فلورنسا، وذلك حين اندفعت القوات البابويَّة، معزَّزة بقوات زعيم المرتزقة مونتفلترو وقوات الملك فيرانتي، إلى داخل الأراضي الفلورنسيَّة. كل ذلك وفلورنسا غير قادرة على الركون إلى حليفها العتيد ميلان، ذلك أن صديق لورينزو الأثير؛ جالتسو سفورزا، قضى غيلة منذ سنتين، وغدتْ فلورنسا، حينها، عزلاء، وقَدْ أحاط بها الخطر من كل جانب.

وقد آن الأوان ليُظهر لورينزو شيمته الحقيقيَّة، فسمة الطيش الجامح التي تسبَّبت بإخفاقه في التعامل مع مدينة فولتيرا، ومن قبل في التعاطي مع أسرة باتسي المعارضة، برزت، الآن، لتثبت أنها المخلِّص للورينزو وفلورنسا معاً، فقد انطلق بفرسه متخذاً سبيله خارج فلورنسا دون أن يُخطِرَ أحداً بنواياه.

وإذ مضى بعيداً، وبات من المتعذّر إيقافه، كتب إلى مجلس الحكم «السينيوريا» يعلمهم بصورة ماكرة إلى حد ما قائلاً: «... وبناء على ذلك، فإني قررت، بمباركة من سعادتكم، أن أتوجَّه، جهاراً، إلى نابولي»[26]، ثم ركب قادساً في بيزا، وأبحر نحو الساحل ليترجَّل، أخيراً، في نابولي حيث اعتزم أن يمثل بنفسه أمام الملك فيرانتي، ويلتمس الرحمة، شخصياً، بالإنابة عن فلورنسا.

وكان ذلك فعلاً من أفعال الشجاعة الطائشة، فقد كان الملك فيرانتي ذو السادسة والخمسين عاماً طاغية لا يرحم، وقد تحدَّر من أصول مغربيّة وإسبانيّة، وجاءت تنشئته لتزيده «سوءاً وإظلاماً على ظلاميته، ومما لا ريب فيه، أن أحداً من أمراء عصره لم يباره في الوحشية»[27]. ومما بعث الشؤم بالنسبة إلى لورينزو أنَّ لفيرانتي طريقته الخاصة في معاملة أعدائه، فهو: «يضعهم إلى جانبه... موتى ومحنطين، وقد أُلبسوا ثيابهم التي اعتادوا ارتداءها وهم أحياء»، ولشدَّ ما كانت دهشة الناس جميعهم حين نجحت المغامرة التي قام بها لورينزو، إذ أحسن الملك وفادة لورينزو في بلاطه، مفتوناً بجرأة الشاب الذي بذل طاقته ليفوز بعطف الملك وأهل نابولي. فَقَدْ حرّر لورينزو العبيد الذين جدفوا بالمركب الذي سافر به من بيزا إلى نابولي، وأَمر بإعطائهم ملابس لائقة استبدلوها بما كانوا يرتدون من أسمال، وكوفئ كل واحد منهم بعشرة فلورينات لتعينهم في طريقهم، كما وزّعت المهور على العوائل المعدومة التي لا تستطيع تزويج بناتها حتى يكون بمقدورها عقد زيجات جيدة. وإذ أقام لورينزو في المقر المحلي لبنك ميديتشي، فإنه بدأ جولة من التسلية واللهو الباذخ كرّسها لأسر المجتمع المخملي في مدينة نابولي.

وتطلَّب ذلك موارد ماليّة لم يمتلكها لورينزو بل ولم يمتلكها مدير بنك ميديتشي نفسه، وقد أمرت أسرة ميديتشي، فيما تلا من سنين، بإتلاف وثائق تلك السنين جميعها. بيد أنَّ وثيقة واحدة نجت من الإتلاف. وكشفت هذه الوثيقة أن «لورينزو، في وقت ما غير معلوم، قد اختلس ما لا يقل عن 74948 فلوريناً من الخزانة الفلورنسيّة، وحوّلها إلى حسابه الخاص دون إقرار من قانون أو سلطة»[28]. ويعود تاريخ هذا المبلغ المهول، غالباً، إلى تلك الفترة.

ويبدو أنه استُخدم لغايتين اثنتين: تمثَّلت الأولى والأهم في تمويل السلوك الباذخ الذي انتهجه لورينزو في نابولي، أما الثانية فيقول عنها ريموند دي روفر؛ المرجع الأول في بنك ميديتشي: «وهكذا، فمن المحتمل أن الإفلاس الذي أعقب مؤامرة أُسرة باتسي لم يكن من الممكن تجنبه إلا بغمس اليد في الخزينة العامَّة»[29].

وغادر لورينزو ميديتشي نابولي عائداً إلى فلورنسا عودة البطل المُظفَّر في 13 مارس 1480، وهو لم يقنع الملك فيرانتي بتوقيع معاهدة سلم مع فلورنسا فحسب، وإنما ضمَّ البابا سيكستوس نفسه إلى هذا الحلف، سعياً وراء وحدة إيطاليا. وهكذا، فقد أنقذت فلورنسا، لكن أهلها بقوا غير مدركين كيف تمَّ ذلك على وجه الدِّقة، كما لم يدركوا كم كلفهم هذا التحوُّل شبه الإعجازي في مجرى الأحداث.

ولما كان لورينزو مدركاً إدراكاً وافياً عدم استقرار شعبيته، فإنه قرَّر أن الوقت قد حان للقيام بعدد من التغييرات الدستوريَّة التي من شأنها توطيد سلطته، وإن كان سيفعل ذلك بأسلوب خفي. وما إن مضت خمسة أسابيع على قدومه المُظفَّر، حتى تذرَّع بإصلاح الدستور والنظام الضريبي بغية جعلهما أكثر فاعلية وعدلاً، مقترحاً على مجلس المئة تسليم سلطاته إلى مجلس مكون من سبعين عضواً، يكون أكثر تنظيماً وجِدَّة. وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لهذه الخطوة، فقد أقرَّ مجلس المئة، آخر الأمر، هذا «الإصلاح» الدستوري بأغلبية صوت واحد. وقد سأل مؤرخ عصر النهضة؛ لورو مارتينز، أسئلة مسوَّغة بهذا الصدد، ومؤدَّاها: «هل وزِّعت الرِّشى؟ وبرزت لغة الوعد والوعيد في المنعزلات والدهاليز؟ لن يكون بمقدورنا معرفة ذلك أبداً». وقد عيَّن لورينزو، وقتها، أغلبيَّة كبيرة من المواطنين الطموحين

والمناصرين لأسرة ميديتشي كي يحتلوا مجلس السبعين خاصّته، «مُخْرجاً، إخراجاً مسرحياً، ما يُعدّ ... انقلاباً دستورياً». ومع ذلك، بقيت ثلة، حتى في صفوف جماعة ميديتشي وأعضاء مجلس السبعين، غير مطمئنّة لاطّراح آخر أثر من آثار العمليّة الديمقراطيّة. وفي الواقع، فإن مجلس السبعين نفسه سيثبت في قادم السنين أنه ليس جاداً دائماً في دعم سياسة لورينزو المزمعة، إذ إن حضوره المرعب – فضلاً عن انه يستطيع، عبره، أن يرى بنفسه من كان مؤيِّداً لإجرائه المقترح ومن كان معارضاً– سيتكفّل بترجيح التصويت.

ولم يكن لورينزو ليفقد السيطرة على فكرته المبتكرة، فقد كانت السلطات الممنوحة لمجلس السبعين هائلة فعلاً، إذ اقتضى القانون بقاء أعضائه في موقعهم الوظيفي خمس سنين (ستمدد لاحقاً لتصبح مدى الحياة)، كما اشتملت صلاحياتهم على اختيار الحاكم البلدي الجديد (الغونفالونير) ومجلس الحكم (السينيوريا)، فضلاً عن كونهم المجلس «الاستشاري» الرئيس للأخيرين، وذلك فيما يتعلّق بإقرار القوانين، وأمور السياسة الخارجيّة، ولاسيما في المجالين المالي والجنائي. وقد حلّ مجلس السبعين، عملياً، محل الحاكم « الغونفالونير» بعد أن جُعلت العمليّة الانتخابيّة لهذا الموقع (وكل المواقع العليا في الحكومة فعلياً) مجرد لعبة كلعبة دوّامة الخيل، يلعبها أتباع ميديتشي، في حين يمسك لورينزو بخيوط اللعبة كاملة. وعلى الرغم من ذلك، فقد جرت الانتخابات كما ينبغي، ودُوّنت النتائج كما يجب، كما لو أن كل شيء جرى بشفافية ودون خداع. وعلى الرغم من أن تلك كانت تمثيليّة ربما، فقد كان من المتوجّب الإبقاء على المظهر الخارجي للحكم الدستوري الديمقراطي.

ولقد نُظر إلى اندفاع لورينزو نحو نابولي بوصفه عملاً جسوراً، آنئذ،

ولا سابقة له في عالم السياسة الإيطاليّة الخَؤون. وسيُعرف الرجل الذي خاطر بحياته، وقام بهذه المأثرة النبيلة بلورينزو العظيم على امتداد الأراضي الايطاليّة، وسيلعب في السنين اللاحقة، دوراً بارزاً في حفظ السلم الايطالي، في حين سيعين تأثيره الثقافي على نشر النهضة في ربوع الدويلات الايطاليّة جميعها، إذ ستجري، من الآن فصاعداً، إعارة فناني فلورنسا العظماء إلى الدويلات الأخرى لاستعمال مواهبهم في خدمة القادة الايطاليين، عاملين بوصفهم سفراء ثقافيين، ورافعين اسم مدينتهم عالياً، وجاعلين منها مركز الثقافة في إيطاليا، وأنموذجاً للحضارة الأوروبيّة.

وهكذا، فقد ابتعث لورينزو، عام 1481، الفنان بوتيتشيلي إلى إيطاليا مسترضياً البابا سيكستوس الرابع، وأرسل ليوناردو دافنتشي إلى ميلان، في السنة التالية، للفوز بعلاقة دافئة مع حاكمها الجديد؛ لودفيكو سفورزا، في حين حافظ، لدى عودته إلى أرض الوطن، على السلم الأهلي، وشعبيته المشفوعة بأجندة ملأى بالأحداث والمسابقات البهيجة والمهرجانات. وكان أرقى فناني إيطاليا يُنتدبون لتصميم الأماكن المخصَّصة لهذه الغاية، في حين يضطلع أكثر شعراء لورينزو موهبة بكتابة الأشعار للمهرجانات التي تقام هناك، كما أن لورينزو نفسه زجَّ بموهبته الشعريّة في هذه المناسبات ناظماً قصائد ماجنة. ونحن لا نتوفر إلا على بضعة مقاطع من هذه القصائد، والموسيقى التي صحبتها.

ليس من العسير –مع ذلك– تخيل الحركات المألوفة للممثلين وهم يقومون بأدوارهم، صادحين بهذه القصائد. وهذه واحدة من المقاطع، مثلاً، التي تضمنتها قصيدة لورينزو «أنشودة الفلاحين»، نقرأ:

كلنا يملك حبات من الخيار، حبات كبيرة أيضاً
وهي، وإن بدت لكم عتيقة وناتئة
لكنها عظيمة تفتح الأنابيب المسدودة
فاستخدموا كلتا اليدين، وأَزيلوا رؤوسها
ثم قشّروها تقشيراً
وأولجوها في أفواهكم ومُصوها[30].

وربما ابتهج العامة لهذا النوع من أنشطة اللهو والمرح، لكنهم جهلوا أنهم هم من كان يدفع لقاء ذلك كلّه. هذا ما كانت عليه حال مدينة فلورنسا في مارس من عام 1482 حين وصل إليها راهب جاد يُدْعى سافونارولا، ليشغل موقعاً في دير سان ماركو.

(2)
الشرُّ الأعمى

جيرولامو سافونارولا هو، في الأصل، من فيرارا. وهي دويلة ريفيّة تقع شمالي إيطاليا، وتتوسّط نهر بو وما يليه من جنوب البندقيّة. وقد ولد في 21 من سبتمبر عام 1452، مما يعني أنه يصغر لورينزو العظيم بثلاث سنين. ولقد أظهر، أيضاً، نبوغاً مبكراً، صنو جدّه لأبيه ميشيلي سافونارولا، الذي عمل في القصر المهيب لأسرة دي إستي؛ وهم حكام فيرارا آنئذ. وكان ميشيلي واحداً من أبرز أطباء عصره، وألف العديد من الكتب، ومنها كتابه: ممارسة الطب من الراس حتى أخمص القدمين، الذي مثل دراسة شاملة تتضمن، كما أعلن، جماع المعرفة الطبية القائمة آنئذ، وصنّف كتاباً عن الأطفال ورعايتهم عُدَّ طليعياً في بابه، وربما عُدَّ ميشيلي، في ضوء هذه المعرفة، من الرُّواد الأُول للفكر الإنساني، لكنه كان في حياته الفعليّة نقيضاً لذلك، إذ بقي، من الناحية الروحيّة، ابناً للعصر الذي نشأ فيه؛ أي أواخر القرن الثالث عشر. وهكذا، كان ميشيلي رجلاً قروسيطاً ملتزماً «ومن المؤكد أن أعماله الثانوية التي كتبها في أُخريات عمره تشير إلى أن كاتبها عالم ناسك لا طبيب يعمل في قصر أسرة دي إستي، فهي تحتشد بالحذلقة والوعظ الأخلاقي»[1]. هذا ما كانت عليه حال شخصيّة ميشيلي المهيمنة، الذي كرّس نفسه في سنوات تقاعده، لتأديب حفيده؛ سافونارولا، ذي الخمس سنين، غارساً في

تلميذه المُتلهف كل المبادئ الصارمة لعصر كان في طريقه إلى مهاوي التاريخ في بعض أجزاء إيطاليا. وكان هذا، فعلياً، واقعَ دويلة فيرارا التي حكمها الدوق المثقف؛ بورسو دي إسْتِ، وهو سليل إحدى أكثر الأسر أرستقراطيّة، ولم تسبقها في رعاية الفنون، آنئذ، إلا أسرة ميديتشي[1].

وقد شهد سافونارولا وهو في عمر السابعة حدثاً تاريخياً تكوينياً (formative)، وذلك حين مرَّ البابا الجديد؛ بيوس الثاني، بفيرارا في موكبه المظفَّر عبر الشمال الإيطالي (قبل أن يحل البابا في فيرارا، جرى في الرحلة ذاتها إكرام وفادة البابا في فلورنسا بإقامة مهرجان أدّى فيه لورينزو ذو العشر سنين دوراً)، وصحب البابا بيوس الثاني في موكبه:

«حاشية مهيبة تجلُّ عن الوصف، قوامها عشرة كرادلة، وستة عشر أسقفاً، وطائفة من الأمراء... وقد دلف البابا إلى فيرارا تحتَ ظِلَّة من الدِمَقْس المُذهَّب، وفُرشت الطرق التي مرَّ بها بالسجاد، وأُمطرت بالورود، وعُلّقت البُسُط المزخرفة على الشُّرفات، في حين رجَّعت المدينة صدى الموسيقى والغناء. وما إن وصل البابا إلى الكاتدرائيّة حتى ابتدره جوارينو (عالم إنساني معروف) بخطبة لاتينيّة مطوَّلة، تحتشد بالإشارات المعرفيّة المُتجرّدة، وتمجيد قداسة البابا، ولقد بقي الأخير محتجزاً في فيرارا بسلسلة من المهرجانات طوال أسبوع كامل».

ولما كان البابا الدنيوي؛ بيوس الثاني، مولعاً بأطايب الطعام، والتسرّي بالمحظيات، فمن المؤكد أن مضيفه هيّأ له ما لذَّ وطاب إبان زيارته. وعلى

(1) كانت دي إستِ عائلة أرستقراطية واسعة الانتشار، رفد سلسالها ملك ألمانيا في القرن الثالث عشر، فضلاً عن حكام بافاريا وكارنثيا. وقد أنجبت العائلة أمير هانوفر، الذي غدا في القرن الثامن عشر ملك بريطانيا العظمى؛ جورج الأول.

الرغم من أن ذلك جرى في ظروف سريَّة صارمة، فإن الأقاويل ستشيع وسط العائلات القريبة الصلة بالقصر، ومن هؤلاء أسرة سافوناورلا. إذ استمرَّ نيكولو سافوناورلا؛ ابن ميشيلي بشغل وظيفة صغيرة غير محدَّدة في القصر حتى بعد أن أُحيل أبوه إلى التقاعد.

وربما كان بيوس الثاني منتشياً بما هُيّئ له من ترحيب عظيم في فيرارا، رغم امتلاكه بعض التوهُّمات إزاء مضيفه، فقد سجَّل قائلاً: «كان لبورسو هيئة جيدة، وقامة تتجاوز الطول المتوسط لدى الرجال، مشفوعة بشعر جميل وملامح لطيفة، وكان فصيحاً ومهذاراً، يصغي إلى نفسه وكأنما يمتِّعها أكثر مما يقصد إمتاع السامع، كما كان حديثه مليئاً بالمداهنة التي يخالطها الكذب»[2]. لكن بورسو كان شاذاً جنسياً، ولم يرق إسرافه المفرط لميشيلي سافوناورلا الذي عبَّر، سراً، عن رأيه بقوله: «إن منح الأثواب، والخيول، والممتلكات، والأموال إلى المهرِّجين، والرجال السفهاء يُذهب محبَّة الناس»[3]، وكان من الأفضل أن يحتفظ المرء بهذه الآراء لنفسه، ذلك أن من لازمَ قصر بورسو يعرف معرفة جيدة أن هناك تحت القصر: «زنازين مغلقة بقُضبٍ حديديَّة سبعة حُجب عنها ضوء النهار. وكانت تلك غاصةً بالضحايا، ممن يمكن سماع قعقعة أصفادهم وأنات آلامهم من أعماقها؛ تلك الأصوات التي كانت تختلط بالألحان الموسيقيَّة، والعربدة المتواصلة أعلى منها في القصر، فضلاً عن رنين الأطباق الفضيَّة، وصلصلة الأطباق الخزفيَّة والكؤوس البندقيَّة»[4].

وعلى الرغم من ضرورة التكتم، فلا بُدَّ أن آراء ميشيلي حول هذه الأحوال قد انتقلت إلى حفيده الذي قيل إن والده صحبه إلى القصر، مرَّة واحدة، فأقسم ألا يعود أبداً. وقَدْ قضى الجدُّ حوالي عام 1468 حين بلغ

حفيدة السادسة عشرة[1]. وأظهر الأخير نبوغاً مبكراً، الأمر الذي ميّزه عن أشقائه الستة. فقد حفظ، في هذه السن المبكّرة، الكتب المدرسية عن ظهر قلب. أما الحِكم التي ما انفكّ جده المتنسك يردّدها فقد تشرّبها كما لو كانت أسفاراً مقدّسة... ومن ذلك قوله: «ليس بمقدور البابوات وكهنتهم أن يقضوا بغير ما أمر الله»[5]. ولم يكن هذا الضرب من الأحاسيس والآراء غريباً في تلك اللحظة من التاريخ، فلقد كان ثمة إدراك سائد لدى الطبقات المتعلّمة والعلمانيّة في إيطاليا أن الكنيسة فاسدة. كما احتفظ العديد من الايطاليين المتبصّرين بإيمان ديني خالص بقي مستقلاً وشخصياً، مؤدّين بعض المداهنة (والمساهمات الماليّة التي لا مفرّ منها) تجاه الطبقة الدينيّة التي كانت تزعم أنها ظل الله في الأرض.

مهما يكن من أمر، فلم يكن ميشيلي سافونارولا ينظر إلى الحياة بهذه الطريقة، وقد غرس في حفيده موقفاً أكثر تعنّتاً، فغدا جيرولامو الشاب ممتلئاً بالغضب لهول ما رآه من انحلال وفساد استحثاه على تبني تصور أكثر صرامة للحياة. فإما أن يعني الدين خلاصاً لروح المرء –تلك المهمّة الأكثر جوهريّة وحيويّة على وجه الأرض– أو لا يعني شيئاً على الإطلاق.

غير أن جدّ الغلام جيرولامو درّسه الفلسفة أيضاً، وهي المرحلة التي تشرّب فيها النزعة الأرسطيّة عوضاً عن الأفلاطونيّة الجديدة الرائجة والأثيرة لدى الإنسانويين. وقَدْ تحمّس سافونارولا لأفكار أرسطو تبعاً للطريقة التي تأوّلها بها توما الأكويني؛ تلك الطريقة التي غدت المعتقد القويم لدى السكولائيّة القروسطيّة. وتبدّى ذلك في تطبيق جانب من الفلسفة اليونانيّة

(1) تزعم بعض المصادر أن هذه الحادثة جرت عام 1466، وأخرى تفيد بأنها أبكر من ذلك، وعلى أي حال فإن تأثيرها على حفيده الشاب كان عميقاً.

والمنطق الأرسطي على الكتاب المقدس بغية إيضاح تعاليم الدين المسيحي وكشف غوامضه. وكان –في ذلك– محاولة لإقامة الإيمان الديني على أساس فلسفي عميق، على الرغم من تحوُّله، مع تقادم الزمن، إلى أرثوذوكسيّة صارمة ومتحجّرة، إذ لا بُدَّ للحِجَاج الديني أن يباشر عمله بالاحتكام إلى سلطة الكتاب المقدَّس أو أرسطو. أما الأعمال الأفلاطونيّة المكتشفة مؤخراً، التي وصلت إلى أوروبا الغربيّة عقب سقوط القسطنطينيّة، مضافة إليها الأعمال الكلاسيكيّة الإغريقيّة التي تبنّاها الإنسانويون، حينئذ، فقد اطُّرحت بوصفها هرطقات وثنيّة.

ولقد تشرّب سافونارولا الشاب كل ذلك، وتحمّس له، وأمضى ساعات طوالاً يقرأ، وهو لما يزل بعد شاباً غضَّ الإهاب، في هذه المواضيع. وقيل إنه، في سني مراهقته، «لم يعتد الحديث إلى الناس إلا لِماماً، وغالباً ما كان منطوياً على نفسه ومعتزلاً»[6]. وعلى الرغم من ذلك، فيبدو أنه انخرط، في مرحلة لاحقة على وفاة جدِّه، في مساق تعليمي حول الدراسات الليبراليّة عَقَدَته جامعة فيرارا، وتولى تدريسه باتيستا جوارينو. وقَدْ حثُّه أبوه نيكولو أن يخوض غمار هذا المساق حتى يتحصَّل على درجة الماجستير في الفنون (العلوم الليبرالية)، بما هي متطلب أساسي لدراسة الطب، ذلك أن الأب وضع آمالاً عريضة فيما خصَّ مستقبل ولده، الذي اعتقد أنه سيجلب للأخير الشهرة والثروة اللتين حازهما جدُّه من قبل. لكن كانت ثمة أسباب أخرى لدى نيكولو لحث ابنه على السعي لتمثل خطى جدِّه الشهير، فقد ورث نيكولو تركة عظيمة من والده، وأراد أن يزيد دخله لكونه موظفاً صغيراً في قصر دي إيستِ، فعمد إلى استخدام ميراثه للقيام بعمل إضافي في مجال الصيرفة. وربما حاول أن يرفع من شأن نفسه، فعمل في القصر كفيلاً

للدولة المدنيّة التي عجزت، بعد ذلك، عن سداد ديونها، مما جعل نيكولو شديد الحاجة إلى المال. ولا بُدَّ أن يكون ما مارسه من ضغط على جيرولامو لدخول الجامعة منطوياً على سبب جدير بالاعتبار، فمِنَ المرتقب حين يصبح الأخير طبيباً ناجحاً أن يتكفَّل بالعائلة جميعها، فضلاً عن مساعدة أبيه في الحفاظ على مظهره في القصر.

ولقد أكسبت دراسات جيرولامو، التي تلقَّاها على يد جوارينو، معرفة واسعة في الفلسفة الإنسانيّة والفلاسفة الكلاسيكيين الذين استمدت هذه الحركة أفكارها منهم. وهكذا، فحين كان سافونارولا يهاجم الحركة الإنسانوية هجوماً شديداً فيما تلا ذلك من سنين، بدا خصومه ذاهلين من سعة إطلاعه على ما يتبنونه من أفكار ومواقف. وقد ركن سافونارولا نفسه، في واقع الحال، إلى ما في هذه النظرة الجديدة للحياة من إثارة، وذهب في ذلك بعيداً إلى درجة تعلُّم العزف على العود، وكتابة الشعر. لكنَّه هنا، أيضاً، ووسط حالة من السوداويّة الطبيعيّة لدى كل شاعر شاب، صبَّ تفكيره، في الغالب، على الانشغالات الأعمق التي تشرَّبها من جدِّه، ومن ذلك ما جاء في واحدة من قصائده:

«لما مَسَّ الحزن قلبي تكلَّمت
مع الأم القديمة التي لا تتغير[1]
وقد أطرقت عيناها وهي تبكي
واقتادتني إلى كهفها المُعْدِم»[7].

(1) هي الكنيسة الأم الخالدة، التي تختلف اختلافاً بيناً عن الكنيسة الفاسدة التي عاصرها.

ولا عجب أن يقع الشاعر الشاب في الحب قريباً من ذلك الوقت، فنحن نلمس ما تضمنَّه شعره هذا من مسحات فرويديَّة. وكانت معشوقته فتاة تدعى لوداميا، وهي ابنة غير شرعيَّة لأسرة ستروزي الشهيرة، المنفيَّة من فلورنسا، والمجاورة لعائلة سافوناورولا، إذ لم يفصل بين منزلي العائلتين سوى زقاق ضيق، مما يتيح لأفراد كلتا العائلتين التحادث عبر النوافذ المشرعة في الطوابق العلويَّة، ويبدو أن سافوناورولا ولوداميا تعرَّفا إلى بعضهما بهذه الطريقة. وما لبث أن عزف سافوناورلا السيرينادا لمعشوقته مستخدماً العود، غير أنَّه أخطأ التقدير، فحين طلب من لوداميا الاقتران به، رفضت طلبه بازدراء، قائلة له: ما كان لأحد من أسرة ستروزي أن يتنازل فيقترن بنكرة من عائلة سافوناورولا. ولما جرحه هذا الرفض، فإنَّه ردَّ، من فوره، أنه ما كان لرجل شرعي من عائلة سافوناورولا أن يذل نفسه فيقترن بفتاة غير شرعية من أسرة ستروزي.

ولم تخرج هذه القصة إلى النور إلا منذ ثلاثة قرون خلَتْ، إذ عُثِرَ عليها في طوايا أوراق الراهب بينديتو الفلورنسي[8]؛ وهو زميل سافوناورولا، وأول من كتب سيرته. ومع ذلك، فقد عُدَّت هذه القصة غير موثوقة وأُسطوريَّة.

مهما يكن من أمر، فإن البحوث اللاحقة كشفت أن منزل سافوناورولا يجاور قصر أسرة ستروزي فعلاً. كما تشير السجلات أنه وُلِدَ لروبرتو ستروزي ابنةٌ غير شرعيَّة اسمها لوداميا عاشت في فيرارا ذلك الوقت. وقد استقى الراهب بينديتو معظم معلوماته مباشرة من سافوناورولا، مشيراً إلى لِزام أن تكون هذه الحادثة قد استقرَّت في عقل سافوناورولا زمناً طويلاً، حتى بعد أن نبذ العالم الدنيوي. وربما أسهم هذا الرفض الجنسي، وما رافقه من دلالات اجتماعيَّة، في تشكيل شخصيَّة سافوناورولا، إذ سيكتب، فيما

تلا تلك الحادثة بسنين، أنه حتى قبل أن يتلقى درجته الكهنوتيّة: «لم يمتلك رغبة في أي امرأة»[9]. وإذا سلمنا بما داخله من ولع بقول الحقيقة، فلا بُدَّ أن يكون سافونارولا قد آمن بذلك، عن وعي، آنئذ. لكن رواية الراهب بينديتو تقول: إن سافونارولا سيستذكر قصة رفضه من جانب لوداميا، وربما غدت آثار هذه الحادثة أكثر قوة ورسوخاً نتيجة كبت هذه الذكرى فيما تخلَّل ذلك من سنين، إذ سيصبح «مقته للشبق الجنسي وشهوات الجسد»[10] وكرهه للامتياز الطبقي، جزءاً لا يتجزأ من وازعه الديني.

وقد جاء الواقع بكل فجاجته، وقتها، ليعزِّز هذه النزعات، فلقد وقع بورسو دي إستِ صريع المرض جراء إسرافه في الشرب، أو بسبب سم وضع له. وفي حين قاسى غمرات الموت في مقر إقامته في بيلفيوري التي تبعد 40 ميلاً شمالي فيرارا، نشبت حرب أهليّة في المدينة قطباها أخوه الأصغر؛ إركولي، وابن أخيه نيكولو، وذلك حين ادَّعى كلاهما، في غياب أيِّ إعلان عن خلافة بورسو، أنه الوريث الشرعي. فاستولى نيكولو على القصر، ملتمساً التأييد من ميلان ومانتوا، في حين طلب إيركولي الدعم من الجارة البندقيّة. واندفع مؤيدو كلا الفريقين إلى الشوارع، مما أدّى إلى ما سيدعوه سافونارولا، لاحقاً، بـ «عربدة فيرارا الدمويّة»[11]. ولقد تحصَّنوا، مستيئسين، داخل منزلهم الواقع على الطرق الرئيسة المؤدية إلى القصر، فلم يكن بوسع أفراد عائلة سافونارولا سوى، أنْ يشاهدوا، فزعين، أنصار كل فريق؛ ممن أسكرتهم رائحة الدم، وهم يمارسون حرب إبادة حقيقيّة، وذلك حين جُرَّت زوجات قادة الفريقين وبناتهم من منازلهم، ليقوم الدهماء بتلويث شرفهنَّ على رؤوس الأشهاد. كما جرى قذف الناس من سطوح منازلهم، حيث كانوا يحتمون، ليصار إلى تقطيعهم إرباً إرباً في الطرقات.

وقد أُشعلت الدور بالنيران، واستحال ساكنوها إلى أدخنة ولهب، بعد أن حال الدهماء بينهم وبين الخروج[12].

وانتصر الفريق المناصر لإيركولي في آخر الأمر، لكن ما تلا ذلك، تبعاً لأحد المصادر، لم يكن أقل وحشيَّة، إذ يروي كاليفيني أنَّ «مئتين من المواطنين البارزين صُلبوا على أفاريز القصر الدوقي بعد أن جُردوا من ثيابهم وبُترت أعضاؤهم»[13]. ولم يكن بمقدور الشاب سافونارولا ذي المشاعر الرقيقة أن يتجنَّب هول المشهد الذي لم يكن يبعد سوى بضع مئات من المترات عن الطريق المؤدية إلى منزله والجامعة المجاورة.

وقد حصل سافونارولا، بعد ذلك بوقت وجيز، على درجة الماجستير في الفنون «العلوم الليبراليَّة»، وباشر دراسة الطب. ولم يلبث التَّماس المباشر في مسائل الجسد، الذي يتطلبه هذا النوع من الدراسات أن نفَّر سافونارولا، باعثاً فيه توقاً روحياً شديداً. وكان مشمئزاً من كل ما رآه حوله، وماقتاً للعالم القذر الذي ألفى نفسه فيه، مثلما كتب في قصيدة أسماها «خراب العالم»، يقول:

«كل الذين يتعيَّشون من السرقات مسرورون الآن
وكذلك هم من يقتاتون على دماء الآخرين
والمراباة تُدْعى فلسفة الآن
وقد ترك الرجال فعل الخيرات وراء ظهورهم»[14].

ثم يمضي في قوله، معنِّفاً الذين يسلبون الأيامى والأطفال أشياءهم، ساخرين من إلهنا الذي في السَّماء، وكيف أن روما لن تعود إلى ماضيها

التليد لفرط ما فيها من رذائل، وأن «المراباة تُدْعى، الآن، فلسفة».

ومن الممكن أن يستبين المرء، وسط كل هذه الشكاوى والتذمرات، حساً متنامياً بالجور والظلم، إذ دأب الموسرون على التسلّق إلى أكتاف أرقّاء الحال ليغدوا أكثر غنى ويساراً، وانصرف الناس إلى جمع المال عوض الالتفات إلى الرحمة والتدين، كما وقفوا أنفسهم على استطلاع طرق المراباة لمضاعفة ثرواتهم عوض استكشاف الطرق الذي تعرّفهم بربّهم. ومن الصعب أن نُنحي الدور الذي لعبه أبوه في كل ذلك، فقد أضاع جشع الأخير ثروة العائلة بالتجائه إلى المراباة، مما أَجبر سافوناورولا على دراسة الطب خلافاً لكل ما طمح إليه، ودام ذلك حتى انتهت الأمور إلى أزمة في وقت مبكر من عام 1474، إذ قطع سافوناورولا مسافة 40 ميلاً إلى فاينزا، محتفلاً بعيد أول مايو، بعيداً عن إنجيله وكتبه الطبيّة، وعابراً الأرض الرطبة لدلتا نهر بو، وسائراً على طول الطريق وسط الحقول الخضراء المنبسطة، وحيداً لا يرافقه سوى أَفكاره المُلِحّة. وحالما وصل فاينزا شرع باستكشاف الشوارع في غمار حشود الأوّل من مايو. غير أنّ مشهد اللهو الدنيوي الصارخ وسط أكشاك العرض، والباعة الجائلين، وأكشاك الدُّمى، جعلته يفزع إلى كنيسة القديس أوغسطين باحثاً عن مَعاذ، حيث ألفى راهباً يلقي عظة ذلك اليوم، وكان صوته يتردَّد عبر السُّكون المجلّل بضوء خافت، مقتبساً خطبته من سفر التكوين حين يتحدَّث الرَّب إلى إبراهيم: «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك ...»[15]. وكما سيروي سافوناورولا ذلك في إحدى عظاته، فإنه أدرك، في الحال، أن ذلك هو صوت الرب، الذي كان يتحدَّث إليه مباشرة، فعرف –منذ ذلك اليوم– أن من الواجب عليه مغادرة منزله وهجر أهله، مطرحاً كل شيء، ولاجئاً إلى ربّه، ثم إنه قفل عائداً إلى

فيرارا باعتقاد راسخ أنّه سيهجر العالم ويصبح قسيساً. ولكن سيمضي نحوّ من الحول قبل أن يكون بمقدور سافونارولا إنفاذ ما عقد عليه العزم، ذلك أنه لم يكن راغباً في استثارة مشهد هستيري يلفي نفسه فيه مواجهاً بالعبرات والتضرُّعات التي ستنهال عليه من أفراد عائلته جميعهم، «فإن ذلك، يقيناً، سيجعل قلبي يتفطّر، وسأتخلّى عن مبتغاي»[16]، لذا أرجأ ذلك حتى 24 إبريل من السنة التالية، مؤثراً أن ينسلّ بعيداً عن بيته، حين تكون العائلة منهكمة في غمرة احتفالات عيد القدّيس جورج، فانطلق في رحلته، على عجل، قاطعاً ثلاثين ميلاً نحو بولونيا الإيطاليّة حيث قصد دير الدومينيكان هناك، فطرق الباب، وطلب أن يُقبَل بوصفه راهباً متدرّباً. ودبّج الشاب، ذو الثلاثة والعشرين عاماً، رسالة مطوّلة خاطب فيها: «الرجلَ النبيلَ واللامعَ نيكولو سافونارولا؛ الأب الذي لا مثيل له». ولمّا سعى إلى مؤاساة عائلته التي من غير شك «كانت تقاسي الأمرين بسبب رحيلي، ولاسيما اني رحلت عنكم خفية»، فقد مضى يقول: «إنّي أتضرّع إليك، يا أبتِ، أن تكفّ عن ذرف الدموع، وأن تجنبني مزيداً مما أكابده من الحزن والألَم، ولكن يتوجب عليك أن تعي أنني لا أقاسي بسبب ندمي على ما أقدمت عليه، فإني لن أعود عن عزمي حتى لو جعلني ذلك أعظم من قيصر نفسه، فمعاناتي تعود لكوني بشراً، مثلك، من لحم ودم، ولأن أحاسيسنا تتصارع مع عقلنا. وينبغي عليّ أن أكافح لمنع الشيطان من الوثوب على منكبي، وأن أكافح، أكثر من ذلك، نفسي حين ترقُّ لحالك».

لماذا اختار سافونارولا هذا الضرب من الحياة؟ يوجز سافونارولا السبب وراء تلقيه الأوامر القدسيّة، بعد أن يُعدِّد «البؤس الشديد للعالم، وشرانيّة الخلق، وحوادث الاغتصاب، والزنا» وغير ذلك، فيقول: «لقد فعلت ذلك

بسبب الشر الأعمى لدى أبناء إيطاليا».

وسواء تذمَّر سافونارولا من «الشرّ الأعمى» أو نوى القيام بشيء إزاء هذه الشر، فإن فراره من عائلته، وما سلكه من تصرفات، جاء بخلاف طبيعته. وسيتضح، من البداية، أن غايته تجاوزت تحقيق الخلاص لروحه، فتراه يختم رسالته الثانية إلى عائلته (استقبل والده الرسالة الأولى على نحو سيئ) بإعلامهم، بصورة متعجرفة، ضرورة «أنّ يتبهجوا لأن الرب جعلني طبيب أرواح عوض أن أكون طبيب أجساد»[17]، فهو سيعالج الأمراض الروحيَّة للعالم عوض اعتلالاته الجسديَّة.

ويتجه دليل آخر إلى مناقضة هذه النظرة الممجِّدة للذات، فقد قيل إنه حين دخل، أول ما دخل، الدير لم يفعل ذلك ليغدو قسيساً، وإنما ليقوم بأعمال الخدمة في الدير تكفيراً عن ذنوبه. راجياً أن يكلَّف بالأعمال الوضيعة: فيصبح العامل الكادح الذي يخيط الملابس لإخوته الرهبان، ويحرث الحديقة، ويعمل في تواضع وسلام، أو كما صاغ ذلك بكلماته قائلاً: «لم تكن لدي نيَّة في استبدال أرسطية العالم بأرسطية الدير»، غير أن تغليب واحد من الدليلين المتناقضين على الآخر ليس ضرورياً، إذ تؤشِّر هذه التناقضات على الصراعات العميقة التي بقيت قائمة في شخصيته المعقدة المتوفِّزة. فَهو ليس سوى ذات يملؤها التيه، وهي تتوق إلى مثل هذا الضرب من الإذلال، وهو كذلك ليس سوى إنسان مفكِّر يحلم بتغييب نفسه في عمل شاق لا صلة له بالعقل والفكر. وسيعد هذا العامل الكادح، بمعايير ذلك الزمان، قنّاً أدنى من البشر. وأسوأ من ذلك أن الحياكة كانت تُعدُّ عملاً نسوياً، بيد أن الراهب ظلَّ، رغم طهرانيته، رجلاً في إيطاليا ذلك العصر. وقَدْ أقام سافونارولا في رسالة إلى والده تعارضاً دقيقاً بين «رجل يزدري

عرض الدنيا سعياً وراء الحقيقة»، و«ولع المرأة البسيطة»[18]. ومن المهم ألا يغيب عن ذهننا، في ضوء هذه النقودات اللاذعة تجاه المرأة، أن نظرة سافونارولا لجنس المرأة غذّته، أساساً، الكراهية المتّقدة والساخطة على المرأة كما تجلّت لدى أنبياء العهد القديم، مأزورة بالإجحاف الذي ميّز عصر سافونارولا وموطنه. ويضاف إلى كل ذلك ما اختبره مع معشوقته لوداميا وأمه إيلينا التي لا نعرف عنها في تلك الفترة سوى تلك الحقيقة البارزة والمزلزلة، ففي الليلة السالفة على هجره عائلته، سمعته يعبث بأوتار العود، مصعداً نغمات شجيّة جعلتها تتوقف عن عملها. فقد أدركت، بالتماعة حدسيّة، ما سيقع، وقالت له: «أي بُني، إن ما تعزفه الآن يقول إنك راحل عنّا لا محالة»[19]، ولم يكن من استبطن أعماقه سوى تلك «المرأة البسيطة».

نحن لا نعرف، في واقع الحال، غير نزر يسير عن حياة سافونارولا المبكّرة في الدّير، وقد صاغ كاتب سيرته روبرتو ريدولفي ذلك قائلاً: «يبدو الصمت الذي غلّف حياته خلال هذه السنين السبع رامزاً إلى الصمت الذي دخل به حياة الدير شاباً ينوي بناء حياته الجديدة في جو من التواضع والتأمُّل»[20]. وقد أسس القديس دومينيك الرهبنة الدومينيكية عام 1216، وكان الأخير راهباً إسبانياً واسع المعرفة، تخلّى عن ممتلكاته لمساعدة الفقراء، وأسس الدومينيكية بوصفها جماعة تبشيريّة مكوّنة من الرهبان المتسولين، الذين نذروا أنفسهم للفقر، واعتمدوا في عيشهم على الصدقات. واتجهت الرهبنة الدومينيكية، على غرار مؤسسها، إلى جذب الرجال ذوي الدرجة المعرفيّة الرفيعة، الذين يسعون إلى الوعظ، ورفع معاناة المعوزين، كما خرّجت العديد من المحاضرين الجامعيين، وقد استخدموا، لاحقاً، في محاكم التفتيش (وهذا ما يفسّر سبب تسميتهم بـ «كلاب الرب domine canes»)،

بيد أنهم عُرفوا، عامّة، بالرهبان السود، وذلك لتميزهم بارتداء عباءات سود مقلنسة، اعتادوا على لبسها فوق ثيابهم الصوفيّة السوداء.

وسيذكر سافونارولا، لاحقاً، السنة التي أمضاها متدرباً في الدير الدومينيكي في بولونيا، بما هي السنة الأكثر إبهاجاً في حياته: «اختبرت، في تلك الأثناء الحريّة، وكنت أفعل كل ما أريد، وذلك لأني لم أرد شيئاً، ولم أرغب في شيء يتجاوز ما كنت أُخبَر به أو أُؤمر بفعله»[21]، فقد آنس نكران الذات المفروض على الرهبان، وابتهج بالتقشُّف الشديد الذي استطاع أن يفرضه على نفسه. وأُعفي سافونارولا، من البداية، من الدروس اللاتينيّة المُتطلّبة، لأنه درسها في الجامعة من قبل، فأمضى معظم وقته في دراسة الفيلسوف القروسطي العظيم توما الأكويني، الذي غدت تأويلاته لأرسطو المادة الأثيرة لدى سافونارولا. وقد أَخذ نذوره الرهبانيّة في مايو من عام 1476، وما لبث أن أسلم نفسه إلى حياة الرهبنة، وأصبح حماسه للتشقف ونكران الذات ظاهراً للجميع في زمن وجيز، فضلاً عن حماسه للمساق المعتاد في الدراسات اللاهوتيّة، الذي كان يعقد في الجامعة الدومينيكية الشهيرة (studuim generale) في بولونيا. وكانت هذه الأخيرة أشهر جامعة لاهوتيّة في إيطاليا، وقد أمّها العديد من العلماء البارزين. وما لبث أن سطع نجم سافونارولا وسط زملائه الطلاب. وفي واقع الأمر، هذا ما كانت عليه حال سافونارولا من أهليّة استثنائيّة في الجانبين اللاهوتي والزهدي لحياة الرهبنة، إلى درجة أنه عُدّ جاهزاً، خلال بضع سنين، لشغل موقع تعليمي. وعاد سافونارولا إلى فيرارا بعد مغادرتها بأربع سنين فقط (1479) ليشغل موقع معلم للرهبان المبتدئين في الدير الدومينيكي هناك. وكان والده مجبراً، في ذلك الوقت، على بيع بيتهم لأسرة ستورزي المجاورة، وقيل إنه قلّما

التقى القسيس الشاب عائلته في تلك الفترة من الزمان.

ودخلت إيطاليا في دورة جديدة من القلاقل السياسيَّة، إذ اغتيل دوق ميلان؛ جالتسو سفورزا، قبل ذلك بثلاثة أعوام (1476) في الكنيسة، وقاد نيكول دي إيستِ، في العام نفسه، حملة مسلحة على فيرارا في محاولة أخرى لانتزاع الدوقيَّة من عمه، لكنها أُحبطت، وضربت عنق نيكول (جُمع رأسه إلى جثته ودفن في مدافن العائلة). ولم ينقض على ذلك الحادث عامان، حتى صعقت الأنباء المتعلِّقة بمحاولة أسرة باتسي اغتيال لورينزو، بدعم من البابا سيكستوس الرابع وملك نابولي فيرانتي، إيطاليا برمتها. وقَدْ تبدَّت حقيقة أن من حاول اغتياله، كان قسيساً، وأن القاتل مدعوم من البابا نفسه، مما أكد علنياً ما كان يعرفه الكثير سراً، وهو أنَّ الهيراركيَّة الكنسية، والرتب العليا منها خاصَّة، باتت فاسدة فساداً لا يُرْجى صلاحه. وقَدْ كتب سافونارولا في قصيدته «خراب العالم»، يائساً، يقول:

«لقد وقع الصولجان بيد قرصان
وأُطيح بالقديس بطرس
هنا حيث يسود الشبق والجشع كل مكان»[1][22].

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقي سافونارولا ثابتاً على إيمانه مثلما فعل، غالباً، رعايا البابا على امتداد العالم المسيحي. وكان الدوق الجديد؛ إيركولي،

(1) يمثل الصولجان، بطبيعة الحال، البابوية التي ترجع أصولها إلى القديس بطرس، أما سيكوستوس الرابع، فقد اجتمع القول فيه أنه حصل ثروته حين كان قرصاناً في مستهل حياته، وقد استغلها في الارتقاء السريع للمراتب الكنسية.

معروفاً باعتياده الكنيسة، فلا يفوته قُداس أو صلاة غروب، كما أنه أنفق بغير حساب على بناء الكنائس والمؤسسات الدينيّة في فيرارا، جاعلاً من حركة النهضة العصر الذهبي لفيرارا. وذهب المؤرخ الكبير ياكوب بوركهارت إلى القول بسمو فيرارا على غيرها من المدن الأوروبيّة، نقرأ:

«إذا كانت الزيادة السكانية السريعة معياراً لدرجة الازدهار وعَلَماً عليه، فإن الحقيقة التالية تبدّى ذات أهميّة بالغة، إذْ لم يفرغ بيت واحد من المستأجرين عام 1497، على الرغم من الاتساع المدهش للمدينة. وهكذا، تغدو فيرارا أول مدينة حديثة في أوروبا، وقد طاولت المباني السكنية مقر إقامة الحاكم، وتشكلت، هنا، عاصمة حقيقيّة بسبب تجمع طبقات الموظفين، والنهوض الفاعل بالتجارة»[23].

وارتفع عدد سكان فيرارا إلى زهاء 25,000 نسمة خلال هذه الفترة. ونذكر، على سبيل المقارنة، أن سكان لندن، بلغوا، آنذاك، 50,000 نسمة، وبلغ سكان فلورنسا زهاء 90,000 نسمة. وفضلاً على ما سبق، فقد نافست العمارة في فيرارا نظيرتها التوسكانية، لذا، فإن سافونارولا حين حطَّ رحاله في فلورنسا، أول مرّة، لم يفغر فاه متعجباً كريفي ساذج، وإنْ ألصق الفلورنسيون به هذه الصفة[1].

لكن فيرارا اضطربت من جديد عام 1482 بفعل تقلبات المشهد السياسي الإيطالي. ففي أعقاب مؤامرة أسرة باتسي الفاشلة، واندفاع لورينزو الشجاع إلى نابولي، الذي أدّى إلى معاهدة سلام مع فيراني؛ ملك نابولي، اضطُر البابا

---

(1) ضرب فيرارا عام 1570 زلزال مدمر، جاء على كثير من أفضل مبانيها، ولم تستطع المدينة بعد هذه الكارثة أن تلملم جراحها، أو أن تحتمل المقارنة بفلورنسا. وعندما زار تشارلز ديكنز فيرارا عام 1846، كتب عن «شوارعها الممتدة الساكنة، وقصورها غير الآهلة، حيث يخفق نبات اللبلاب عوض الرايات، وينبت العشب زاحفاً نحو السلالم المهجورة»[24].

سيكستوس الرابع للانضمام إلى المعاهدة. وقد واجه هذا الحلف، وقتها، ومعه العالم المسيحي جملةً، خطراً جديداً جاء من الشرق البعيد، فلم يقف السلطان محمد الفاتح عند احتلال القسطنطينيّة عام 1453، وإنما امتدَّ بحدود الإمبراطوريّة العثمانيّة عبر اليونان وحدود البلقان، ليصل، أخيراً، إلى الساحل الأدرياتيكي المواجه لإيطاليا. ونزلت القوات العثمانيّة عام 1480 في كعب إيطاليا، مستولية على ميناء أوترانتو، حيث ذُبح 12,000 من السكان، وشُحن عدد مشابه بالسفن، وأُخذوا عبيداً. أما ما تبقى من السكان وعددهم ثمانمئة، فقد ضربت أعناقهم لأنهم رفضوا الرضوخ للعثمانيين، وصُنع هرم من جماجمهم. وغدا العالم المسيحي في خطر، فحشد البابا سيكستوس الرابع إيطاليا للذود عن العقيدة، ثم قضى محمد الفاتح نحبه عام 1481، فانسحبت معظم القوات العثمانيّة، واستعيد ميناء أوترانتو.

أما وقَدْ زال التهديد العثماني، فقد ارتأى البابا سيكستوس الرابع أنْ من الأجدى شن هجوم آخر على فلورنسا، لكن ذلك كان سيدخله في مواجهة ميدانيّة مع فيرانتي الأول؛ ملك نابولي، فقرر أن يتحرّك ضد فيرارا التي كانت محطَّ ادعاء قديم أنها ملكية بابويّة. وجنحت البندقيّة إلى دعم أحقية إيركولي دي إستِ بالدوقيّة، واستمرت فيرارا تعتمد في حمايتها على جارتها الشماليّة القويّة. لكن سيكستوس الرابع أغرى البندقية، سراً، بتحويل ولائها إلى الولاية البابويّة، واعداً البنادقة بالبِرَك الملحيّة لدلتا نهر بو إن هم أعانوا «ابن أخيه» على الظفر بفيرارا. فقد أراد سيكستوس الرابع ضمَّ فيرارا إلى المنطقة البابويّة التي يحكمها، أصلاً، «ابن أخيه»؛ جيرولامو رياريو. وهكذا، ألفت فيرارا نفسها مهددة بجحافل البنادقة، التي تتأهّب لعبور نهر بو وشن هجومها.

ولم يكن سافونارولا موجوداً في فيرارا آنئذ، فقد وقع عليه الاختيار ممثلاً لها في المجمع الرهباني العام، الخاص بالرهبان الدومينيكان في لومباردي، مما يؤشّر على تنامي منزلته في سلم الرهبنة. وكان المجمع العام اجتماعاً سنوياً دأب على مناقشة السياسة اللاهوتيّة في سلك الرهبنة، وقد عُقِدَ، آنذاك، في ريغيو التي تبعد 60 ميلاً إلى الغرب من فيرارا، جاذباً الوفود الإكليركيّة والعلمانيّة من كل حدب وصوب، فضلاً عن ثلّة من الأدباء والفلاسفة اللامعين. وقد أصغى سافونارولا للمساجلات التي تولاها لاهوتيون دومينيكيون بارزون. وقد ألقى، في سياق هذه المساجلات، كلمة متقدة هاجم فيها فساد الكنيسة. وإذ أنصت إليها الفيلسوف الشاب؛ بيكو ديلا ميراندولا ذو التسعة عشرة ربيعاً، فقد أُعجب أيّما إعجاب بالقدرات الثقافيّة الظاهرة لدى سافونارولا، ومعرفته اللاهوتيّة العميقة، فبحث عنه إثر ذلك، وقد قامت بين الاثنين علاقة، وألفة مباشرة، بقدر ما هي غير متوقعة.

وكان الكونت جيوفاني بيكو ديلّا ميراندولا، لكي ندعوه بلقبه كاملاً، أُعجوبة من أَعاجيب الزمان، يتحدَّر من محتد أرستقراطي صرف، كما جمعته صلة قربى بأسرة دي إست، وأسرة سفورزا الحاكمة في ميلان، وأسرة جونزاجا الحاكمة في منتوا المجاورة. وأمضى بيكو سني طفولته في الدويلة الدينيّة ميراندولا، التي حكمتها أسرته، وتمتعت بحماية فيرارا التي تبعد عنها عاصمتها 30 ميلاً فقط باتّجاه الغرب.

وتبدّى مظهر بيكو نقيضاً كاملاً لمظهر سافونارولا ذي الملامح الفجّة. وقد كان الأوّل، في واقع الحال، شخصاً مزهواً بنفسه، يتزيّا بأحدث صيحات عصر النهضة، وتنسدل خصلات شعره الكستنائية على كتفيه. أما وجهه، فإنه يتكشّف عن حساسية وجمال أنثويين. وأخذ ما امتلكه من

معرفة واسعة مدهشة يجلب الأنظار، فقد برع، في ذلك الوقت، باللاتينية، واليونانية القديمة، وانهمك في دراسة اللغتيْن العربيّة والعبريّة، وسيغدو، لاحقاً، واحداً ضمن نفر قليل في أوروبا ممن يستطيعون فهم النصوص الآراميّة والبابليّة من المخطوطات الكلدانيّة. غير أن مآثر بيكو الثقافيّة والفكريّة لم تكن إظهاراً لألمعيّة متفرِّدة، فقد كان يحدوه في دراسته حافز لاهوتي وفلسفي عميق، برز بوصفه حاجة ملحّة لفهم الأديان التي انبثقت المسيحيّة عنها، مشفوعة ببحث متفانٍ عن الأفكار الفلسفيّة العامّة التي أَغنت هذه الأديان. ومن المرجَّح، أن ما جمع بيكو وسافونارولا ماثل، أساساً، في فهمهما المشترك والعميق للنصوص اليهوديّة القديمة، التي شكلت العهد القديم، وأخبرت، استباعاً، عن العهد الجديد. وربما رأى «سافونارولا» «بيكو» قبل نحو ثلاث سنين، وذلك حين شارك الفيلسوف ذو الستة عشر عاماً في مناظرة لاهوتيّة عامة في فيرارا، حيث حازت اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت. كما حضر بيكو محاضرات باتيستا غورينو، وألفى أفكاره الإنسانيّة غير شافية. لكن تحفظات بيكو لم تصدر عن كره للإنسانويّة، بل بسبب ضحالة الأفكار الكلاسيكيّة التي ارتكنت إليها إنسانويّة جوارينو، فلم تُقِمْ محاضرات جوارينو، تبعاً لبيكو، اعتباراً للمصادر الأقدم والأوسع التي غذّت، ابتداءً، المعرفة الكلاسيكيّة.

وعلى الرغم من أن بيكو وسافونارولا لم يدركا ذلك، أول وهلة، فإن لقاءهما الذي حصل عام 1482 في المجمع الرهباني اللومباردي العام، الذي عُقد في ريغيو، سيكون له تأثير بعيد الغور في نفسيهما. وإذا كان لا بُدَّ لهذه المواجهة بين العالم الأرستقراطي ذي التسعة عشر ربيعاً والقس ذي التسعة والعشرين عاماً أن تكون عابرة، فليس بمقدور المرء أن ينكر أنها حقّقت لقاء

عقلياً، فربما كان تأويلهما للإيمان المسيحي متبايناً، تبايناً كبيراً، مثلما هي الحال بالنسبة إلى نظراتهما الفلسفيّة الشخصيّة، لكن كل واحد منهما أكنّ، دون ريب، مشاعر الاحترام لصاحبه. وقد تكون تلك المرّة الأولى التي ألفى كل واحد منهما نفسه مجابهاً بكفئه الثقافي من بين أبناء جيله جميعهم.

مهما يكن من أمر، فقد خلف حضور سافونارولا للمجمع العام في ريغيو نتيجة أكثر مباشرة، وسيثبت قادم الأيام أنها مهمّة جداً كذلك. فقد تحققّ ما خشيه كثيرٌ من الناس، واجتاحت القوات البندقيّة فيرارا، وبدا أن عودة سافونارولا إلى الدير الدومينكاني في بلدته ستكون محفوفة بالمخاطر، فعُيّن محاضراً في التفسير الكتابي في دير سان ماركو في فلورنسا. وهكذا، تأهّب سافونارولا، في مارس من عام 1482، ليسير 90 ميلاً إلى الجنوب، عابراً سلسلة جبال أبنيني عبر إحدى مجازاتها، وصولاً إلى المدينة التي يحكمها لورينزو العظيم. وكان سافونارولا يرتدي، في رحلته تلك، عباءته المقلنسة السوداء، وينتعل صندلاً. وقد حمل معه ممتلَكين دنيويّيْن لا غير؛ كتاب الصلاة المهترئ، الذي تمتلئ هوامشه بتعليقاته، فضلاً عن الترانيم والأدعية للقداسات اليوميّة، أما الآخر فالكتاب المقدّس الذي ورثه عن جدّه ميشيلي.

(3)
فلورنسا في عهد لورينزو

سيدخل سافونارولا فلورنسا عام 1482 عبر بوابة سان غالّو الكائنة في أقصى شمال أسوار المدينة، حيث سيصل بعد أن يقطع نصف ميل نزولاً عبر الطريق العام «via larga» إلى دير سان ماركو، وسيسمح له بالدخول، بعد أن يُشدَّ حبلِ جرس البوابة، إلى الحرم الداخلي المحاط بالأسوار.

وقد أُسس دير سان ماركو، الذي لا يفصل بينه وبين قصر ميديتشي سوى مبنيين إلى الشمال، في القرن الثالث عشر. لكن جدَّ لورينزو؛ كوزيمو ميديتشي، عمل على تجديده وتوسعته توسعة شاملة، قبل ثلاثين عاماً فقط. واستخدم كوزيمو، لهذه الغاية، مهندسه المعماري الأثير ميكلوتشو ميكلوتشي، وأدرج في التصاميم الداخلية أعمال الراهب المقيم أنجيلكو، وهو واحدٌ من أوائل عظماء فناني عصر النهضة. واضطلع ميكلوتشي ببعض الأعمال التي تُعدُّ من أجمل مباني عصر النهضة المبكرة في فلورنسا، ومن ضمنها تجديد قصر ديلا سينيوريا، وتصميم فيلا ديميتشي في كاريغي. أما الراهب أنجيلكو فإن لوحاته السماويّة ستؤثر تأثيراً عميقاً بميخائيل أنجلو، الذي استلهم منه لوحته (خلق آدم)، وقد رسمها على سقف كنيسة سيستين، وظهر فيها الرب وهو ينفخ الروح في آدم. والتقى عمل الفنانين؛ الراهب أنجيلكو وميكلوتشي في سان ماركو، داخل رواق القديس أنطونيو البهيج

الظليل، الذي تحتضن أعمدته الدقيقة ولوحاته الجصيّة حديقة خضراء رائقة وسط الدير.

وكان كوزيمو دي ميديتشي قد تولّى تجديد دير سان ماركو في أخريات أيّامه، متأملاً أن يُحلّه الرب من آثار المراباة التي مكنته، بوصفه مصرفياً، من جمع ثروته. بيد أن ثمّة سبباً آخر خفياً وراء نزعة كوزيمو الخيريّة، وهو يوضح لِمَ اختار أن يغدق من ثروته بغير حساب على دير سان ماركو خاصة، من دون الأديار المعتبرة الأخرى، فلقد تمكّن كوزيمو، قُبيل انقلاب عام 1433، الذي أدّى إلى خلع الأخير من السلطة وأوشك أن يودي بحياته، أن يتدبّر أمره في الوقت الحرج، فينقل، سراً، ودائع هائلة من بنك ميديتشي في فلورنسا إلى دير سان ماركو. وأغار خصومه، بعد أن جرى نفيه، على مباني أسرة ميديتشي ومشايعيهم المعروفين، دون أن يعثروا على تلك الودائع التي تولى رهبان دير سان ماركو حفظها والتكتم عليها، مما حدا بكوزيمو إلى بذل الغالي والنفيس لإعادة بناء سان ماكو الذي كَلَّف، في آخر الأمر، 30,000 فلورين، وهو مبلغ غير مسبوق في ذلك العصر. وقد جهّز الدير بمكتبة مزودة بمئات من المخطوطات الدينيّة، وجُعلت لخدمة عامة الناس، لتكون اول مكتبة أوروبيّة تُعير الكتب. وخُصّصَت لكل راهب صومعة خاصّة عوض المهجع الكوميوني «المشترك» المعتاد. وتوافرت الصومعات على تصاوير جداريّة للأخ أنجيلكو ومساعديه. وكانت هذه تصوّر، أساساً، ملائكة ومشاهد كتابيّة. كما استحدثت صومعة واسعة تملؤها اللوحات الجصيّة خُصّصت لكوزيمو، حيث كان يخلو فيها بين حين وآخر لغايات التأمل، لكنه مارس دوراً أكثر فاعليّة في إنشاء الحدائق على طول الشارع الصاعد من سان ماركو. وإذ كان يأنس في الانسحاب إلى الريف، فقد

جهد كوزيمو في خلق مراح رعوي داخل أسوار المدينة، وستغدو هذه الحدائق البقعةَ الأثيرة لدى لورينزو العظيم، الذي شرع في تزيين الأمكنة التي تظلّلها الأشجار بنماذج من المنحوتات الكلاسيكية القديمة. وتقول الرواية الشعبيّة إن سافونارولا رأى لورينزو العظيم، أول مرّة، من خلال نافذة صومعته، عندما كان الأخير يذرع الممرات وسط المَشكبات الخضراء والقطع الأثريّة المرمريّة.

ولم يمثّل دير سان ماركو ذلك الضرب من المؤسسات الدينيّة التي تشوّف إليها سافونارولا، أو تلك التي اعتاد عليها في الواقع، فلم يعد الدومينكان يعيشون في فقر أو يعتمدون على الصدقات التي تأتيهم من جماعة المصلين، وكانت الصومعات المخصّصة للرهبان المتوحّدين مجهزة بأثاث وثير، وكان قيّم المكتبة ورئيس الرهبان يعيشان، في الواقع، حياة رخاء وبذخ، فكانت تُهيّأ لهما الوجبات الخاصّة وترسل إلى صومعتيهما، وسيستضيفان، بين حين وآخر، مواطنين من علية القوم، ويقدّمان لهم الوجبات الملوكيّة على أطباق وصفائح زخرفت بشارة ميديتشي. وقَدْ زوّد لورينزو العظيم الدير بكل ما يحتاجه من أطعمة، فكان يمده بوفرة من زيت الزيتون، والخمور، والخبز، والسمك، والفواكه، والبيض، وكان كل ما يستورد للدير يعفى من الرسوم الجمركيّة المعتادة بأمر خاص من لورينزو. أما أثواب الرهبان، فكانت تُصنع بأيدي الحاكة المعيّنين من جانب لورينزو، وهم الحاكة أنفسهم الذين كانوا يُعدّون له الملابس التي ارتداها بالكرنفالات والمهرجانات الشعبيّة.

وقد شاهد سافونارولا ضروب اللهو والتسلية هذه حين كانت تعرض في أيام العطل والأعياد، وقرّر، من ساعته، أنها لا تلائم ذائقته، فشرع يجوب شوارع المدينة في رحلات طويلة على قدميه، وذلك وفقاً لما استخلصناه

من ملحوظات تضمنت عظاته المتأخرة. وكان بمقدور المرء، في تلك الأيام، أن يقطع، ماشياً، المسافة من بوابة الأسوار الشماليّة؛ سان غالّو، عابراً المدينة إلى البوابة رومانا الواقعة إلى أقصى الجنوب حيث ضاحية أولترارنو، بنصف ساعة. وهكذا، ما لبث سافونارولا أن تعرّف إلى الضواحي والأحياء المختلفة الواقعة بين شطري المدينة. وأصرّ سافونارولا على أنّه لم يكن مأخوذاً بما رآه من الساحات الفسيحة، والقصور، والكنائس الكائنة في مركز المدينة، فقد اعتاد رؤية أمثالها في بدلته فيرارا، غير أن الكثافة السكانية في فلورنسا، ونجاحات أسرها البارزة تجارياً، خلقت تفاوتاً كبيراً بين مباني الأثرياء وما تغصُّ به الشوارع الخلفيّة من مساكن أحياء الفقراء وأزقّتها. وقد سكنت هذه المباني المزدحمة العائلات التي كان رجالها وأبناؤها يعملون في الصباغة وصناعة الأقمشة، مُستَخْدَمين بوصفهم عمال مياومة في قطاع صناعة النسيج، التي اشتهرت بها المدينة في أوروبا كلها. وقد رأى سافونارولا في هذه البقعة من المدينة البؤس شاخصاً أمامه، فقد دأب المتسولون المهزولون على التشبث بأردانه، في حين كان المكفوفون يطلقون صرخات مثيرة للشفقة. وعلّمه ما تمثّله من نظام التقشف ونكران الذات ما الذي يعنيه أن يتضوّر المرء جوعاً، لكنّه سيعود في عظاته السابقة ليقول: إنه سرعان ما أدرك الحقيقة التي تقطّع نياط القلب، ومؤدّاها أن «فقره» الدومينيكي يختلف كلياً عن هذا الفقر الحقيقي الذي صادفه وسط سكان الضواحي الضاجة بأحياء الفقراء القذرة والمزدحمة. ولشدّ ما كان حزنه حين وجد أن ناس تلك الأحياء كانوا يكرهون حضوره عندما كان يمشي بينهم بأرديته السوداء المميزة، فقد نُظِرَ إلى الرهبان الدومينيكان بوصفهم رجال لرونزو، وعُدَّ إخوتهم من الرهبان الآخرين جواسيسه الذين مثّلوا

بصره وسمعه وسط العامّة. أما الرهبان الدومينيكان في فيرارا فقد نُظِر إليهم بوصفهم أصدقاء الفقراء وأحباءهم.

غير أن ثمة اختلافاً أكثر جوهريّة بين عديد الفقراء في فلورنسا وأولئك الذين ينتمون إلى فيرارا، فقد نشأ الأخيرون على الرضا بما قُسِمَ لهم، إذْ حكم أفراد أسرة إيستِ حكماً طاغوتياً، فلم يتركوا قطاعاً أو إدارة إلا وجعلوه تحت سيطرتهم الصارمة. ولم يكن ثمة وجود لحكومة تتحلّى بأدنَى صور الديمقراطيّة، بخلاف ما كانت عليه حال فلورنسا. وربما أصبحت العمليّة الديمقراطيّة التي مكنّت لورينزو من السلطة لا تتعدّى كونها عمليّة صوريّة، ولكن ليس بمقدور المرء أن ينكر أن روح الديمقراطيّة بقيت حيّة في أوساط الشعب، فما فتئ هؤلاء ينظرون إلى أنفسهم بما هم مواطنون متساوون، وكانوا يتحدثون في السياسة وهم مطمئنون، فضلاً عن أن ناس فلورنسا، بصورة مغايرة لنظرائهم في فيرارا حيث كان يُزجّ بأصحاب الأصوات المعارضة في الزنازين الموجودة تحت القصر، لم يخشوا من التعبير عن آرائهم، وإن تمّ ذلك خفية، وفيما بينهم، ولاسيما في أوساط الفقراء. وظل الشعور سارياً، في واقع الأمر، أن الأحوال قد تتغير في يوم من الأيام. وإذ كان الراهب الضئيل سافوناورلا يجتاز الشوارع الخلفيّة وحيداً، فإنه أدرك وتفهم صرخات الاستهجان والشتائم التي كانت تلاحقه.

وكان لدى لورينزو، في تلك الأثناء، أمور أكثر إلحاحاً من التجوال في الحديقة التي تتوزعها التماثيل تحت النظرات الشزرة لراهب فيرارا، فقد كان يحاول معالجة الحالة الطارئة التي جاءت بسافوناورلا إلى سان ماركو، وهي الحرب بين البندقية وفيرارا، التي تصاعدت بحلول منتصف عام 1482 إلى درجة أنها مثّلت تهديداً لطريق تجارة فلورنسا الشرقيّة التي تمرّ عبر جبال

بينيني إلى البحر الأدرياتيكي. غير أن هذه الحالة لم تكن أحادية البعد، فقد كان دوق فيرارا متزوجاً من ليونورا دي أراجونا؛ الابنة الكبرى لفيرانتي ملك نابولي. وحين غزا البنادقة فيرارا، فإن الأول طلب إلى حميه أن يهبَّ لنجدته. ولما كان دوق فيرارا مدركاً مساعي لورينزو الحثيثة في الحفاظ على توازن القوى في إيطاليا، فإنّه ناشَدَ فلورنسا طالباً إليها مد يد العون لمدينته، فأجابه لورينزو إلى طلبه، واستدعى حليفته ميلان، في حين انضمَّ هو إلى القوات بمعيّة صديقه فيرانتي؛ ملك نابولي.

وقد جُعلت قوات الحلفاء بإمرة ألفونشو؛ دوق كالابريا وابن ملك فيرانتي. وطلب ألفونشو، في حركة مهذّبة، إذناً رسمَياً من البابا سيكستوس الرابع ليزحف بقواته شمالاً من نابولي، عابراً المناطق البابويّة إلى فيرارا. غير أن البابا رفض طلبه، معلناً بذلك عن دعمه للبندقيّة بعد أن ساندها سراً فيما مضى. ولم يابه ألفونشو لذلك، وتقدَّم داخل الأَراضي البابويّة، لكن القوات البابويّة أوقعت به الهزيمة، مما جعل الملك فيرانتي يبادر، رداً على تلك النكسة، دون إبطاء، فيلعب على مسألة انعدام شعبيّة البابا في أوساط طبقة النبلاء الرومانيّة، وذلك باستنهاض أسرة أورزيني وغيرها من الأسر النبيلة لإعلان الثورة عليه، فاضطُر جيرولامو رياريو والقوات البابويّة إلى الانكفاء عن الأراضي البابويّة إلى روما نفسها، لحماية سيكستوس الرابع، في حين أمر لورينزو زعيم المرتزقة فيديريكو دوق أربينو ليزحف بقواته شرقاً، فيحول دون اجتياح القوات البندقية الأراضي الواقعة تحت حكم فيرارا، التي تعثرت قواتها بسبب مرض داهَمَ دوق إيركولي في هذا الوقت العصيب.

ووصلت الأنباء في سبتمبر من عام 1482 إلى فلورنسا تخبر عن وفاة

دوق أربينو؛ فيديركو، غير المتوقعة. وبدا، مجدَّداً، أن السيادة ستكون حليف البنادقة. أما جيرولامور رياريو الذي ظلَّ غير قادر على الوفاء بما عقده من تعهد سرّي يقضي بمد البنادقة بالقوات البابويَّة، فإنه بعث برسالة حول هذا التطور الأخير إلى «عمّه» سيكستوس الرابع، الذي أدرك، مباشرة، الخطر المتأتي عن ذلك. فإذا استولى البنادقة على أراضي فيرارا كاملة دون أن تكون ثمة معاهدة عسكرية موقعة بينهم وبين ابن أخيه، فلن يمنعهم شيء من التمدد وبسط سيطرتهم على المناطق البابويَّة التي يحكمها رياريو. فعمد البابا إلى تغيير موقفه حالاً، آمراً البنادقة بوقف زحفهم، لكونه، كما أعلن، لا ينطوي على قضية عادلة، لكن البنادقة مضوا قدماً غير آبهين بنداء البابا. وما إن بلغت الأخبار روما حتى دخل البابا في سورة من الغضب فحرم جمهورية البندقيَّة كلها من رضا الكنيسة. ولم ينثن البنادقة وأوغلوا في زحفهم حتى ضربوا حصاراً حول مدينة فيرارا ذاتها في نوفمبر من عام 1482، مما جعل البابا يستسلم إلى ضرب من الحُمى رافقته نوبة نقرس موهنة فاقمت من حالته المرضية.

وسعى لورينزو إلى إصلاح الوضع قبل فوات الآوان، فدعا إلى عقد مؤتمر للحلفاء المناهضين للبندقيَّة في مدينة كريمونا، وحضر المؤتمر، بالإضافة إلى لورينزو، ألفونشو؛ دوق كالابريا، ولودفيكو «إل مورو» سفورزا؛ دوق ميلان، وإيركولي؛ دوق فيرارا، وممثل البابا؛ جيرولامو رياريو. وخرج المُؤتمرون باتفاق عاجل يقضي بأن يشن لودفيكو سفورزا مترئساً قواته هجوماً على الأراضي البندقيَّة يُقصدُ منه مُشاغلة القوات البندقيَّة، في حين يقود ألفونشو ما تبقى من قواته شمالاً، سعياً لتخليص فيرارا من الحصار، قبل أن تقع في أيدي البنادقة. فحثَّت هذه التحركات البنادقة على

الانسحاب، وبات الأفرقاء، جميعهم، مجمعين على أنه لا مناص من الدخول في مفاوضات سلام. وكان لا بُدَّ من أن تنهار المعاهدة الهشَّة بين الحلفاء في ضوء سعي كل فريق لتحقيق المكاسب في المناطق المتفاوض عليها، فلقد استحثَّ جيرولامو رياريو نظيره ألفونشو دوق كالابريا لمساندة دعواه في ضم منطقة فيرارا إلى المناطق البابويَّة الواقعة، وقتها، تحت حكمه. لكن ما كان مجهولاً من جانب هؤلاء المتآمرين أن لودفيكو سفورزا دخل في اتفاقية سريَّة مع البنادقة. وحين بلغت مسامع البابا سيكستوس الرابع أن مفاوضات السلام ستبدأ عما قريب، أدرك، في الحال، أن سير الأحداث يتجه بعيداً عما أراده، فقد كان عرضة لخسارة كل ما خطط له، حين انبرى خصومه لتحقيق كل شيء على حسابه. وروى أحد ممثلي فيرارا الديبلوماسيين أن البابا خرج عن طوره، فكان: «يستعمل أقذع الكلمات وأفحشها في العالم، ويقول إنه جرى التغرير به وخيانته»[1]. هذه هي الصعوبات التي واجهت لورينزو العظيم في سعيه للحفاظ على ميزان القوى في إيطاليا، ولم يكن في مكنته سوى استمالة الأفرقاء للوصول إلى سلام متوازن ومعقول، آملاً في دوامه.

وجرى التوافق على شروط السلام، أخيراً، في السابع من أغسطس لعام 1484. وعلى الرغم مما بذله لورينزو من جهد بالغ، فإن شروط السلام عكست، لا محالة، التعهدات السرية التي اتخذت بين الأقوياء من الحلفاء المتفاوضين. وهكذا، فإذا كانت البندقيَّة قد أنهت الحرب بالانسحاب، فإنها وسعت، في واقع الحال، من منطقتها على حساب فيرارا. ويصحُّ الأمر ذاته على حليفتها السرية ميلان، في حين استردت نابولي ما خسرته من أراضيها، وعاد جيرولامو رياريو خالي الوفاض، ولم يسع الدوق إيركولي سوى الرضا بالحفاظ على مدينة فيرارا ومنطقة صغيرة تحيط بها. أما البابا

الذي تسببت مكائده في اشتعال الحرب، فإنه لم يفقد أي أمل وشيك في توسعة المناطق البابويّة التي يحكمها رياريو فحسب، وإنما بات الآن موضع ريبة من الحلفاء السابقين والحاليين على حد سواء. وحين وصلت حصيلة المفاوضات إلى روما بعد ذلك ببضعة أيام، فإن ردّة فعل البابا كانت متباينة على نحو واضح، فقد قال في جمع من الناس وبحضور كرادلته معبّراً بثقة، ظاهرياً، عن أسفه لما آلت إليه الأحداث: «لقد تجشمنا الكثير من العناء حين دخلنا الحرب إنقاذاً لفيرارا، وإرضاءً لجلالة الملك (ملك نابولي) وبقية الحلفاء، ولذلك كنا مستعدين للمضي قدماً»[2]، لكنه ما إن انسحب السفراء حتى دخل في نوبة من الغضب أسلمته إلى الحمى من جديد، وقَدْ عنّف لودفيكو سفورروزا، بصفة خاصّة، لما صدر عنه من «خيانة»، ذلك أنَّ البابا سيكستوس الرابع رسَّم أخا الأول كاردينالاً قبل بضعة أشهر أملاً في كسب ميلان لصالح قضيته. وانتكست حالة البابا الصحيّة في ليلة الثاني عشر من سبتمبر، ووصف المؤرخ البابوي؛ ف. لودفيج فون باستور، ذلك، معتمداً على تقرير لسفير فيرارا، قائلاً: لقد قضى سيكستوس في الليلة ذاتها، دون أن يكفّ عن شجب بنود اتفاقيّة السلام حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، معلناً أن لودفيكو سفورزا كان خؤوناً»[3]، كما وضع ذلك معاصره ماكيافيلّي، على نحو فج، في تأريخه لتلك الفترة قائلاً: «وهكذا، فقد ترك البابا إيطاليا تنعمُ بالسلام، بعد أن حرص على أن تبقى في حالة حرب طوال حياته»[4].

وما لبث أن طرقت هذه الأخبار مسامع سافونارولا ذي الواحد والثلاثين عاماً في صومعته في دير سان ماركو الكائن في فلورنسا. وقَدْ ألهم موت البابا سيكستوس الرابع، الذي كان مكروهاً لزمن طويل، الراهبَ

سافونارولا لكتابة أشعار ملتهبة جديدة عن الكنيسة، حتى عندما التأم الكرادلة في الكنيسة لاختيار بابا جديد، راجياً الرَّب:

«أي يسوع، يا أطيب الطيبين
وسلوى المحزونين
انظر إلى روما بمحبتك التامَّة
وخلص كنيسة روما المقدَّسة
من الشر الذي يمزِّقها تمزيقاً»[5]

وما فتئ سافونارولا يُعلِّل نفسه متأملاً عودة الكنيسة إلى سابق عهدها (ذلك العهد الذي عرفت فيه السلام حين كانت فقيرة)، وتبدَّت تلك الآمال أوهاماً صارخة، إذ بدأت إيطاليا تبتعد، بخطى واثقة، عن حياة الفقر البسيطة ونمط العيش الأخروي، الذي كان قسمة جل الناس إبان الفترة القروسطيَّة السابقة، وشكَّل لدى العديد من طبقات المجتمع مصدر جذب كبيراً، في الأيَّام الأولى للمسيحيَّة، في يهودا المشرقية، ثم، في مرحلة لاحقة، لدى عبيد روما القديمة. أما الآن، وعلى الرغم من الحرب وتقلبات الحياة السياسيَّة التي أجهدت إيطاليا عندما كان القرن الخامس عشر يسدل أستاره، فإن التحوُّلات التي استجلبتها حركة النهضة كانت تلج في مرحلة جديدة، فقد شرعت المعرفة الكلاسيكيَّة والأفكار السابقة على المسيحيَّة، عند حلول هذه المرحلة، باستنهاض روح جديدة، جدَّةً كاملة، في البحث وما يستتبعه من أصالة، وقد حققت، وقتها، فتوحات جديدة في حقول متعددة، بدءاً من التقنية المعماريَّة إلى الرياضيات حتى الرسم التصويري. وتجلّى ذلك،

أكثر ما تجلى، في فلورنسا، حيث جسّد، تلك المرحلة أفضل تجسيد، الفتى بوتيتشيلي، الذي أعاره لورينزو إلى سيكستوس الرابع ليزيّن سقف كنيسة البابا الجديدة؛ سيستين، باللوحات الجصية، وليعود، بعد ذلك، إلى فلورنسا عام 1482، أي في السنة التي استقرّ فيها سافونارولا في سان ماركو.

واستأنف بوتيتشيلي علاقته بالدائرة الثقافية المرتبطة بقصر ميديتشي حيث تأثّر، هناك، بالمثالية الأفلاطونيّة لدى الفيلسوف فيتشينو، وبالنزعة الإنسانويّة لدى الشاعر بوليتسيانو. فادخل ذلك عمل بوتيتشيلي في تحوّل دراماتيكي، إذ شرع في تصوير المواضيع الوثنيّة المستقاة من الميثولوجيا الكلاسيكيّة عوض الموضوعات الدينيّة. وليس أدل على ذلك من لوحته «بالاس والقنطور»، التي تصوّر الآلهة بالاس «أثينا» وهي تأخذ بشعر القنطور التائب «وهو مخلوق أسطوري نصفه بشر ونصفه الآخر حصان»، كابحةً جماحه فيما يظهر. ويبرز هذا المشهد مثالاً توضيحياً على الكيفيّة التي بدأ فيها عصر النهضة يجتاز مرحلة التقليد والتبعيّة للمعرفة الكلاسيكيّة نحو أصالته الخاصّة، فليس ثمة أسطورة كلاسيكيّة تجمع بين الآلهة بالاس «أثينا» والقنطور، لكن بوتيتشيلي استثمر هاتين الشخصيتين ليوحي بالمواجهة بين الحكمة (بالاس «أثينا») والشهوة (التي أخذت شكل المخلوق النصف آدمي والنصف حيواني)، وقد قصد من ذلك أن تصّور اليغورياً «كنائياً» صرامة العقل، مُتغلّبة على الحسيّة الحيوانيّة.

وكان لورينزو العظيم قد كلف بوتيتشيلي برسم هذه اللوحة عام 1482 كي يقدّمها هدّية لابن أخيه؛ لورينزو دي بييرفرانشيسكو دي ميديتشي، الذي كان وصيّاً عليه، وذلك بمناسبة زواج الأخير من سيميراميد؛ ابنة ياكوبو أبيانو الرابع؛ حاكم مدينة بيومبينو. وقد رُتّب هذا الزواج من

جانب لورينزو لغايات سياسيَّة على مجرى عادة ذلك الزمان، إذ احتلت يومبينو موقعاً استراتيجياً على الساحل، وهي لا تبعد أكثر من سبعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من فلورنسا، كما مثَّل تحالفها مع نابولي تهديداً حقيقياً لفلورنسا، وذلك إبان الحرب على الأخيرة في أعقاب مؤامرة باتسي، لكن هذا الزواج سيجعل منها حليفاً دائماً لفلورنسا. ولما كان ياكوبو الرابع زعيم مرتزقة، أيضاً، فلا ريب أن جيشه سيكون عوناً للقوات الفلورنسيَّة. وفضلاً عن ذلك، فقد اشتملت المنطقة التابعة لياكوبو الرابع على جزيرة إيلبا التي حوت، في تلك الأيام، احتياطات الحديد الخام الوحيدة في شبه الجزيرة الايطاليَّة كلها. وهكذا، إنْ وضع ميديتشي يده على هذه السلعة، فإنه سيقع على ثروة معتبرة. أما موضوع هدية زفاف لورينزو العظيم إلى ابن أخيه، فَقَدْ أُريد منه أن يكون إشارة إلى فوائد الزواج وحكمة ضبط النفس، مما يشْخَص إلماحاً لطيفاً إلى دنوّ الوقت الذي يكبح فيه ابن أخيه سلوكه الجامح، الذي يبدو أنه أطلق له العنان.

ولا بُدَّ أن يكون لورينزو بييرفرانشيسكو قد وعى تلك الإشارة، وأصلح أسلوب عيشه، ذلك أن معلِّميه السالفين؛ فيتشينو وبوليتسيانو، اللَّذين اقترحا، في الغالب، موضوع اللوحة على بوتيتشيلي، أحسنا الثناء عليه. فهذا فيتشينو الأحدب ذو الشخصيَّة الملغزة كتب، بعبارة تتمثل الديباجة الأفلاطونيَّة، كيف أن «عقل لورينزو بييرفرانشيسكو وإشعاعه الأخلاقي والثقافي، يُشرقان كما تشرق الشمس وسط النجوم»[6]. وكان بوليتسيانو متدفقاً، مثل فيتشينو، في قصيدته التي عدَّد فيها ما يمتلكه لورينزو بييرفرانشيسكو «من الجاذبية، وجمال المحيَّا، والرِّفعة التي تتوِّج قمة رأسه، والعبقريَّة الرَّحبة المكافئة لما هو مدني ومهذَّب، ولسانه الذي يرعى ثروات

عقله الوفيرة»[7]. وربما كان هذا الإطراء بما خالطه من زخرف القول متطرّفاً في مبالغته، لكنّه يؤشّر إلى أنّ لورينزو بييرفرانشيسكو احتلّ منزلة رفيعة لدى لورينزو العظيم، الذي كلّف هذين المثقفين ذويْ اللسان الذّرب لكتابة ما كتباه. فقد كان لورينزو العظيم معجباً بابن أخيه إلى درجة أنه بدأ بتكليفه، وهو لم يزل بعد في التاسعة عشرة، بسفارات ديبلوماسيّة، كما كان أبو الأخير يفعل حين كلّف لورينزو الشاب بمهام مماثلة. وفيما يتصل بهذا الجانب من حياة لورينزو بييرفرانشيسكو، فإنّ الغرض من لوحة بوتيتشيلي هدف إلى ما هدفت إليه رسائل بييرو المنقرس، التي كانَ يُحذّر فيها ابنه من الإفراط بالمرح واللهو. وانطوى ما أوكل إلى لورينزو بييروفرانشيسكو من مهام ديبلوماسيّة على أهميّة ما، إذ تضمن، فيما تضمن، بعثات إلى البابا وإلى البندقيّة. وربما كان لورينزو العظيم هو من حبّر هذه الرسائل، غير أن حضور لورينزو بييرفرانشيسكو احتل، في ظل تلك الظروف، أهميّة كبيرة. فقد شغل الأخير، عملياً، موقع ابن لورينزو العظيم ووريثه؛ بييرو، الذي لم يتجاوز، آنئذ، الثالثة عشرة. واجتاز لورينزو بييرفرانشيسكو الطريق إلى رانس في فرنسا، إثر ذلك بسنتين، ممثلاً فلورنسا في حفل تتويج الملك شارل الثامن ذي التسعة أعوام، في الثلاثين من مايو عام 1484. وسيثبت ذلك الحدث، في قابل السنين، أنه انطوى على أهميّة كبيرة بالنسبة إلى إيطاليا، فقد برزت الأمة الفرنسيّة أقوى أمّة أوربيّة، وأدرك لورينزو العظيم، مبكّراً، أهميّة العمل على ثني فرنسا عن الإسهام في إضعاف إيطاليا وتقسيمها.

وعلى الرغم من كل ذلك، فمن الممكن أن ننظر بعين ارتجاعيّة، فندرك أن تصرفات لورينزو العظيم انطوت على دوافع ماليّة غير نبيلة، تهدف إلى الإبقاء على ابن أخيه بعيداً عن فلورنسا، وإن لم تفلح تلك الأساليب. فقد

بلغ لورينزو بيرفرانشيسكو في الرابع من أغسطس عام 1484 سن الرشد، وطالب بالميراث الذي تركه أبوه له ولأخيه جيوفاني؛ ذلك الميراث الذي أوكل حفظه إلى لورينزو العظيم. وقَدْ رفض الأخير، أول الأمر، أن يُسلِّم هذا الميراث، ولكن ما هو غير وقت قصير حتى تبيَّن أن معظم ما يساويه الميراث، إن لم يكن كله، قد أنفق. وإذا كان من الصعب تبيُّن القيمة الماليَّة لهذا الميراث، فلا شكَّ أنَّه كان كبيراً جداً، فقد قيل إن لورينزو العظيم قد احتفظ به في «ثلاث عشرة حقيبة»[8]، على الرغم من بقاء قيمة ما احتوته أمراً خلافياً. ولا بُدَّ أن يكون الأخير قد أعمل يده في الفترة التي تلت مؤامرة باتسي؛ أي حينَ شنَّت الحرب على فلورنسا وهبَّ لورينزو مندفعاً، ببطولة ظاهرة، إلى نابولي. وتقول رواية الخبير المدقِّق في الشؤون الماليَّة لبنك ميديتشي؛ دي روفر أنَّه: «لمَّا ألمت بلورينزو دي ميديتشي ضائقة شديدة في الفترة الواقعة بين مايو وسبتمبر من سنة 1487، فإنه أخذ، في فترات مختلفة، مبلغاً مقداره 53643 فلوريناً على شكل عملة معدنيَّة، يعود إلى الأخوين جيوفاني ولورينزو بيرفرانشيسكو، اللذين كان لورينزو العظيم وصياً عليهما»[9].

وذهب بعض آخر إلى أن 20000 فلورين أخرى أُخذت في مرحلة لاحقة. ومهما يكن من أمر، فقد زعم الأخوان أن مجموع تركتهما، مشتملة على الفوائد، هو 105880 فلوريناً، ولقد تقدما إلى سلطات المدينة كي تقوم بالتحكيم القانوني في هذه المسألة. وأثبت الحكم، الذي نطق به المحلفون إثر ذلك بسنتين (عام 1486)، أن سلطة لورينزو العظيم لم تكن مطلقة بأي حال. وقَدْ جرى ذلك، دون ريب، بعد مداولات عميقة، وكثير من الضغط الخفي الذي مارسته جماعة ميديتشي، ورغم صدور الحكم ضد لورينزو العظيم، فإن المبلغ خُفِّض، في ذلك الوقت، إلى 61400 فلورين. وقامت

حجة لورينزو في تخفيض المبلغ على كون ابنَيْ أخيه مساهمَيْن في بنك ميديتشي، مما يوجب عليهما دفع بعض ما يحتاجه البنك من أموال حتى يكون قادراً على معالجة مشكلة المديونيّة الفادحة التي تعرّض لها البنك في أعقاب الإغلاق الذي فُرض على فرع بنك ميديتشي في لندن، فضلاً عن مصادرة البابا سيكستوس الرابع أصول فرع روما بعد ما حاق بمؤامرة باتسي من إخفاق (وحين أنكر البابا، أيضاً، مسحوباته من بنك ميديتشي) ولم يمتلك لورينزو، والحالة هذه، 61400 فلورين، فكان مجبراً على أن يتنازل لابني أخيه، عن فيلا ميديتشي الكائنة في كفاجيولو، ناهيك عن الأكثر قيمة من ذلك، وهو أرض الأجداد، والممتلكات والمزارع الواقعة في وادي موجيلو، الكائن في الجانب الآخر من شمالي فلورنسا، وهو الموطن الأصلي لأسرة ميديتشي، وقد أحدث ذلك الحكم جفوة وضغينة بين ذينك الفخذين من أسرة ميديتشي.

وعلى الرغم من افتقار لورينزو الواضح للسيولة النقديّة، فإنه ما انفكّ يحيا حياة البذخ والإسراف التي اعتادها في سالف أيّامه، فما فتئ قصر ميديتشي يغدق على الدائرة الشهيرة من الشعراء والفلاسفة والفنانين «ويكرمهم»، كما أُضيفت جواهر فائقة جديدة إلى مجموعة لورينزو الشهيرة. أما عامّة أهل فلورنسا، فلم تتوقف سياسة استرضائهم بالمهرجانات وحفلات اللهو والتسلية، ومن المؤكد أن مقداراً وافراً من تكاليف هذا كله يأتي من جيوب العامّة، على الرغم من أنّ المواد المفصلة حول المعاملات الماليّة لهذه الفترة قد أتلفت، كما ذُكر آنفاً، من جانب أسرة ميديتشي في فترة لاحقة. وكل ما نعلمه أن لورينزو وضع يده، في تلك الفترة، على كامل الشؤون المالية في المدينة، فضلاً عن خزينتها الماليّة التي وُضعت بين يدي صديقه الحميم

ومساعده؛ أنطونيو منياتي؛ ذلك الرجل الذي استجلب كثيراً من الكراهية في ربوع إيطاليا جميعها.

وكانت السياسة الماليّة واحدة من أسلحة لورينزو الرئيسة التي يستعملها ضد أثرياء المدينة ممن سعوا إلى معارضته. وكانت الضريبة المفروضة على كل مواطن تُقدَّر من جانب هيئة من موظفي الضريبة، الذين يأخذون بعين الاعتبار العقارات المسُجلة، وقائمة الممتلكات، فضلاً عن الدخل المعلن. غير أنَّ عمليّة التقدير هذه خضعت، لا محالة، للتلاعب. مما عرَّض خصوم ميديتشي للإفلاس تحت وطأة الضرائب الباهظة، أو أنهم كانوا يجبرون على الرحيل لينجوا بثرواتهم.

وإذ تقدَّم لورينزو بحجة الإفلاس، فإنَّه لم يكن ملزماً بدفع الضريبة في سني حكمه الأخيرة، وما إن حلَّت تلك المرحلة، في واقع الأمر، حتى أصبحت شؤونه الماليّة متصلة مع شؤون المدينة إلى درجة «التداخل» بين الاثنتين. وإذ كان لورينزو قد أفاد، يقيناً، من هذه الحالة، فمن غير الممكن أن ينكر المرء، أيضاً، أن أهل فلورنسا قد انتفعوا من إدارته لمدينتهم، فقد أعطى المدينة الكثير بما امتلكه من مناقبية قياديَّة وشخصيَّة قويَّة، فربما لم يكن أهل المدينة أحراراً تماماً، بيد أن حرية فلورنسا واستقلالها تأتت، أساساً، من حنكته السياسيَّة وما امتلكه من مؤهلات رجل الدولة.

ويصدق التقييم الذي وضعه المؤرخ فرانشيسكو غيتشارديني للمدينة، إثر ذلك ببضع سنين، وقد عايش ذلك الزمان، على السنين اللاحقة إلى حد بعيد، نقرأ:

«نعُمت المدينة بسلام تام، وكان المواطنون الذين اضطلعوا بإدارة المدينة موحدين، وكانت الحكومة قويَّة فلم يجرؤ أحد على التكلم

ضدها. أمّا أهل المدينة، فقد امتلأت أيامهم بكل صور المهرجانات والعروض المسرحيَّة ومعارض البيع. كما عرفت المدينة وفرة في الإمدادات لكل حاجياتها، في حين جلبت التبادلات والأنشطة التجاريَّة الرخاء للمدينة. وكان بمقدور المثقفين والمبدعين الانخراط في عالم الأدب والفنون والعلوم، وكانوا يُشجَّعون، فلا يُعترَف بجهودهم فحسب، وإنما يكافؤون عليها ويجزل لهم العطاء. وإذ عَمَّ السلام داخل المدينة فقد نُظِرَ إليها بتقدير كبير في الخارج؛ فهي تمتلك حكومة وزعيماً ذوا سلطة واسعة، وهي تمتلك مساحة فسيحة، وقد حازت الدعم الكامل من البابا إينوسنت الثامن[1]، فضلاً عن تحالفها مع نابولي وميلان، الذي حفظت عبره ميزان القوى في إيطاليا[10]».

وربما تبدو هذه الصورة شعريَّة في ضوء الحديث السابق حول حرب فيرارا والفقر الذي يُعشعشُ في أحياء فلورنسا الفقيرة، بيد أنها تنطوي على عنصر حقيقي، فقد كانت تلك السنين سنين وفرة وازدهار في فلورنسا التي امتدت تجارتها الخارجية، من جديد، إلى الحدود الأوروبيَّة وما وراءها. وكما أسلفنا، فقد مخرت القوادس الفلورنسية، في عهد كوزيمو ميديتشي، عباب الطريق البحري عبر مضيق جبل طارق وخليج بسكاي إلى بروج ولندن، مُحمَّلة بالأقمشة المصبوغة التي اشتهرت بها المدينة، فضلاً عن حجر الشب والبهارات الشرقيَّة التي كانت تشحن من شرق المتوسط. وعلى الرغم من المنافسة العنيفة التي واجهتها فلورنسا مع كل من البندقيَّة وجنوا، فَقَد نفذ وكلاء ميديتشي إلى مصر وبقية المراكز التجاريَّة في شرق المتوسط. ولما كان بنك ميديتشي يميلُ إلى الانحدار، فقد تلقَّف التجار الفلورنسيون

(1) خَلَف البابا المخادع ومثير الحروب سيكستوس الرابع.

والعائلات الأخرى التي تعمل في المجال المصرفي هذه الفرص، ولن يتخلّف عن هؤلاء، في قادم السنين، لورينزو بييرفرانشيسكو وأخوه جيوفاني اللذان سيؤسسان عدداً من المشاريع التجاريّة الدوليّة الناجحة.

وغدا الانقسام بين فخذي أسرة ميديتشي ظاهراً للجميع، غير أن هذين الأخيرين سيتجنبان، في ذلك الوقت، الدخول في منافسة أو صراع مع عمهما، إذ سيكون لورينزو العظيم ومشايعوه داخل الأسرة منشغلين بالسلطة السياسيّة، في حين سيسلك لورينزو بييرفرانشيسكو وعائلته طريق الثراء التجاري.

لم يلبث بييرفرانشيسكو وأخوه أنْ أقاما مشاريع في إسبانيا والفلاندرز، وحققت هذه المشاريع من النجاح ما جعل الأخوين يغادران فلورنسا، من فورهما، متخذين من بروج مكان إقامة. وتحوَّلا، هناك، إلى سوق البهارات الشرقيّة المربح، وتبعهما في ذلك تُجّار فلورنسيون آخرون، وقَدْ بلغ تغلغل فلورنسا التجاري للشرق، في تلك السنين، حداً طبق فيه خبرُ المدينة الآفاق على طول طريق الحرير، بعيداً كبعد الصين. فعُدّت فلورنسا، بما تنمازُ به من ثقافة وثروات عاصمة أوروبا، وقد أرسل سلطان مصر، عام 1487، سفيراً إلى فلورنسا، وحمل الأخير معه جملة من تحيات غير حاكم، ومجموعة من الحيوانات النادرة والغرائبيّة. وكان أهل فلورنسا معتادين على رؤية الأسود، فقد مثّلت الأخيرة حيوانات المدينة الجالبة للحظ، وكانت توضع في أقفاص في شارع يقع خلف قصر ديلا سينوريا، ومازال يعرف بشارع الأسود «via dei leoni»، لكنهم امتلؤوا دهشةً حقيقيةً حين وقعت أنظارهم على الحيوان الطويل ذي الأطراف المرتفعة الذي كانوا يدعونه بـ«cameleopardo»؛ ذلك أنه اجتمع فيه رأس الجمل وفراء الفهد المرقط،

وكان، في واقع الأمر، الزرافة، التي انتهى بها المآل في حديقة فيلا لورينزو الريفيّة في بوجيو أكايانو، وقد غدت الآن مستقرّه الريفي الأثير بعد أن خسر كفاجيولو لصالح لورينزو بييرفرانشيسكو.

وعلى الرغم من الصّدع الذي نشأ بين فخذي أسرة ميديتشي، فإن لورينزو بييرفرانشيسكو بقي محتفظاً بمسكن العائلة الملاصق لقصر ميديتشي على طريق فيا لارجا (الطريق العام)، وظل على تواصل مع أعضاء دائرة لورينزو الثقافيّة. وليس أدل على ذلك من استمرار لورينزو بييرفرانشيسكو بتكليف الفنانين المقربين من قصر ميديتشي برسم اللوحات الفنيّة، ويبرز من بين هؤلاء الفنان بوتيتشيلي، الذي أثمرت علاقته بالأخير واحدة من أروع لوحاته وأكثرها غموضاً، ألا وهي لوحة الربيع[1]، التي توحي بالسعادة التي رفلت بها المدينة، كشأن الفترات الأخرى التي شهدتها، وقام بوصفها، في وقت مبكر، المؤرّخ غيتشارديني. وتصوّر اللوحة مجموعة من الرموز الكلاسيكيّة الشفيفة في مراح غابيٍّ ظليل، حيث تتدلى حبات التفاح من الأغصان المرتفعة للأشجار في صورة مماثلة لحديقة هيسبيريدس؛ الجزيرة المباركة التي تسكنها الحوريات في الشفير الغربي من العالم. أما الشخصيّة التي تتوسّط اللوحة فهي فينوس، التي يوحي حملها الظاهر، ربما، بالخصوبة، وتتبدّى إلى يسارها ربّات الحسن الثلاث، اللاتي يرمزن إلى البهجة والجمال

(1) يبقى تاريخ رسم لوحة «الربيع» أمراً خلافياً، فيرى كثيرون أنها تعود إلى فترة مبكرة من عام 1482 أي بُعيد عودة بوتيتشيلي من روما، في حين يُغلّب بعض آخر ردُّها إلى عام 1477، وذلك حين كان لورينزو بييرفرانشيسكو صبياً في الرابعة عشرة. وإذا كانت اللوحة لم تُنجز، كما أرى، في وقت متأخر عن ذلك، فثمة أعمال أخرى تؤكد استمرار التفاعل بين دائرة ميديتشي الثقافية ولورينزو بييرفرانشيسكو حتى بعد تصدُّع العلاقة بين لورينزو العظيم وقريبه.

والخلق، وهن يرقصن بأثوابهن الشفيفة، في حين يحلّق كيوبيد فوق رؤوسهنّ معصوب العينين وهو يشدُّ قوسه متأهّباً لاختراق واحدة بسهم الحب أو الشبق.

وقد استجلبت لوحة «الربيع» كل أنماط التأويل عبر القرون، فَعَدَّها بعضهم مشهداً من مشاهد الأسطورة الكلاسيكيّة، وقرأ فيها آخرون أليغوريا سياسيّةً فائقة، في حين أشار كثير من المعاصرين إلى تماثل شخصي (أي أن عطارد يمثّل لورينزو بييرفرانشيسكو، وتُمثّل زوجته؛ سيمراميد، فينوس الحُبلى). وما من ريب أنها مُشربة، في الوقت ذاته، بفلسفة فيتشينو، وذلك بما احتوته من شخصيات تُجسّد الأفكار والمُثل الأفلاطونيّة. وهي تتسّم، بنوع من المفارقة، بالإنسانويّة الواقعيّة التي تميّز أشعار بوليتسيانو، إذ إنها، بخلاف كثير من اللوحات التي سبقتها تصوّرُ مشهداً علمانياً، بل وثنياً، جلياً. وتتبدّى، هنا، إنسانيّة ملموسة، تخلو، تماماً، من أي مسحة دينيّة في إطار لا يوحي بملمح مسيحي.

مهما يكن من أمر، فيبدو أن بوتيتشيلي لم يقصد إلى اليغوريا صريحة أو «معنى» في لوحته «الربيع»، وإنما نظر إليها أساساً، بوصفها، نقطة تتعيّنُ عندها بداية جديدة: مُتجلّيةً (اللوحة) كموضوع لتأملٍ جمالي وتفكير فلسفي. وربما عكس غموض هذه اللوحة الحالة الغامضة التي كانت تعتملُ في الوعي الإنساني «والوعي الذاتي» في هذه اللحظة الدقيقة والعميقة من مسيرة تطورنا. تلكم هي عناصر إنسانيتنا المتبرعمة، التي أوحت بها الإشارات الفلسفيّة والشعريّة التي صدرت عن دائرة ميديتشي الثقافيّة الموثوقة، وتحقّقت لدى بوتيتشيلي.

كان فيتشينو، من بين أفراد النخبة الثقافية الفلورنسية جميعهم، متمتعاً

بسطوة غير مسبوقة، وبدأت معرفته المتبحّرة بفلسفة أفلاطون تجتذب انتباهاً واسعاً، وكان بيكو ديلّا ميراندولا نفسه من أوائل من راسله. وقد تجاوز بحث بيكو لفهم الأفكار الدينيّة الأولى التي ألهمت المسيحيّة الديانةَ اليهوديَّة، ممتداً إلى أفكار فلاسفة اليونان القدماء. وربما كانت السكولائيّة؛ وهي الرّافد الفلسفي الرسمي للمسيحيّة القروسطيّة، مشبعة بكثير من الأفكار الأرسطيّة، لكن بيكو سعى، حينها، لاكتشاف ارتباطات المسيحيّة بالمثاليّة الأفلاطونيّة. فقصد، لهذه الغاية، فلورنسا، ووصلها عام 1484 ليتتلمذ، خصيصاً، على فيتشينو، الذي قدّمه للدائرة الثقافيّة في قصر ميديتشي حيث استقبل بحفاوة وتهليل. وكان بيكو، وفقاً لبوليتسيانو:

> «ذلك الرجل، أو البطل بالأحرى، أَسبغت عليه الطبيعة مواهب العقل والجسد جميعها... وهبات العقل الحصيف، والذاكرة المُدهشة، والدراسة الجادَّة... وكان ملماً، على نحو وثيق، بفروع الفلسفة جميعها، التي آزرتها معرفة بغير لغة وتضلُّع بكل علم جليل»[11].

وقَدْ كان بيكو معجباً، بصورة مماثلة، بلوريتزو العظيم، وذهب إلى درجة أنّه أهدى كتابه «الدفاع الكتابي» Apology إلى لورينزو، كما أنه لمّا قرأ شعر الأخير، وجده أشعر من دانتي. يقول بهذا الخصوص: «إن النزعة الإنسانويّة في أشعار لورينزو تعكس روح العصر بصورة أفضل مما تفعله موضوعات دانتي الدينيّة»[1].

وكان فيتشينو مسروراً لأنه لا بُدَّ أن يناصر هذا التلميذ الأريب أفلاطونيّة

(1) نقول بكل إنصاف إن كلام بيكو لم يكن من قبيل التملّق، فقد ذهب مذهبه غير مثقف من مثقفي عصره.

الأول، وأن يتنطّح لما تلقاه من نقد ملتهب من جانب بعض غلاة الأرسطية. بل ذهب عددٌ من اللاهوتيين مذهباً بعيداً حين قالوا بهرطقة أفكار فيتشينو، على الرغم من أنهم بنوا موقفهم على خوضه في بعض الأفكار الهرطقيّة التي وقع عليها في النصوص الأفلاطونيّة المتأخرة. وعلى الرغم من اتباع فيتشينو الفلسفة الأفلاطونيّة، فإنه بقي متديناً إلى حد بعيد، بل إنه أعجب أيّما إعجاب بقدرة بيكو على إقناع أتباع الفلسفة الكلاسيكيّة من أصحاب النزعة الإنسانوية المُستحكمة بأنهم ينتمون إلى جماعة المؤمنين المسيحيّة. وقد وصفه فيتشينو، جراء فعله هذا، بـ«صائد الرجال»[12].

مهما يكن من أمر، فقد تأسس هذا اللقاء الملتهب والعظيم في قصر ميديتشي على سوء فهم بعيد الغور، فربما بدا بيكو ديلا ميراندولا، بما تحلّى به من سلوك نبيل ومعرفة فلسفيّة عميقة، علماً على النزعة الإنسانويّة الجديدة، بيد أنَّ ذلك مثّل قراءة مغلوطة لموقفه الفكري. ذلك أن بيكو وإن كان راغباً في اعتناق الأفلاطونيّة، فإن ذلك لم يعن رفضه للأرسطيّة السكولائيّة الأرثوذكسيّة، وإنما أراد، على الضد من ذلك، أن يكون بحثه الفلسفي شاملاً، فيكتشف الدين الحقيقي متمظهراً في هذه المصادر المختلفة جميعها. ويتبدى هذا جلياً في رسالة كتبها مبكراً عام 1580 إلى العالم البندقي؛ إيرمولاو باربارو، شارحاً فيها أنه حين ارتحل إلى فلورنسا ليدرس على فيتشينو، فإنه لم يذهب بوصفه «فاراً من جيش» أرسطو، وإنما بوصفه «جاسوساً له»[13]، وكانت الكلمة اللاتينيّة التي استخدمها، في الواقع، هي «explorator»، التي تقترب مكافئاتها الإنجليزيّة من المعنى الذي قصد إليه. ولم ينطو قدوم بيكو ديلا ميراندولا للدراسة بين يدي فيتشينو، يقيناً، على نية عدائيّة، وإن انطوى، ربما، على المخادعة، فقد قبله من في قصر ميديتشي بوصفه إنسانوياً

مثلهم، مما يشير، ربما، إلى سِرّية غريبة على طبيعة بيكو المتوهجة، أو أنَّ الأخير جارى كلاً من لورينزو العظيم، وفيتشينو، وآخرين في افتراضهم الخاطئ، إذ يمكنّه ذلك، على نحو أفضل من فهم فكرهم. فليس من شك أن ما افترضه لورينزو ودائرته، في تلك المرحلة خاصة، كان خاطئاً، ويتضح هذا في الصحبة التي جمعت بيكو بالراهب سافوناورلا إبان إقامته في فلورنسا، فهو وإن غدا ذا حظوة لدى الدائرة الثقافية الليبرالية، فإن من المعروف أن بيكو جدد اتصاله بسافوناورلا. وسيكتب بيكو ذو الواحد والعشرين ربيعاً، لاحقاً، عن زياراته إلى الصومعة البسيطة في دير سان ماركو، واصفاً كيف أمضى وقته «يتفلسفُ بورع وتُقى»[14] مع الراهب المُجد ذي الاثنين والثلاثين عاماً. وقد تبقى لدى الفيلسوف الدنيوي واللاهوتي المتزهّد – وهما متعارضان بطرق كثيرة– شيء مشترك من دون شك؛ وهو العمقُ المتفرّد الذي يميّز معرفتهما اللاهوتية، كما اشتركا في عنصر آخر مفاجئ، بصورة ما، ونعني به معرفتهما المُتبحّرة في الفكر الفلسفي الغرائبي. إذ بدأ بيكو، في تلك الأثناء، يبدي اهتماماً بالمعرفة الباطنية مثل القبالة (فرع صوفي من الديانة اليهوديّة)، والزرادشتية (ديانة توحيديّة مبكرة عند عبدة النيران الفارسيين). أما سافوناورلا، فمن غير المرجّح أن تكون انشغالاته الدينيّة قد امتدت إلى هذا المستوى الغرائبي، على الرغم من أننا نعلم أن كسبه المعرفي لم يكن قاصراً على المعتقد المسيحي الأرثوذكسي، فمن الممكن أن يكون سافوناورلا قد أكمل مؤلَّفه: «الجامع في الفلسفات»، الذي لم ينشر إلا بعد وفاته، في تلك الفترة. ونحن نعلم الآن أن أجزاءً من هذا العمل، التي تتناول بإسهاب شكلاً من أشكال الفكر الديني غير الأرثوذوكسي، قد فُقِدَت، أو أنها أُتلفت، ربما، من جانب أتباع متشددين أرادوا استئصال أي ملمح من

ملامح التفكير الهرطقي من أعماله. وعلى الرغم من السنين المبكرة التي أمضاها سافونارولا في جامعة فيرارا يَدْرس الإنسانيات على معلمه جوارينو (خاض بيكو التجربة ذاتها)، فلا بُدَّ أن نقرّر أن معرفة بيكو بالفلاسفة والمفكرين غير الأرثوذكسيين تجاوزت، لا ريب، معرفة سافونارولا بكثير. لكن نقاشات سافونارولا المتبصِّرة، ونقوداته لهؤلاء المفكرين ستلعب، كما سوف نرى، جزءاً مكمِّلاً في اعتقادات بيكو لاحقاً. أما في هذه المرحلة، فيبدو أن الرفيقين اكتفيا بتبادل الآراء والتسليم باختلاف وجهتي نظرهما، ذلك أن سافونارولا ظلّ معارضاً بشدَّة لأي ضرب من ضروب التفكير غير الأرثوذكسي، على الرغم من دراسته في هذا الحقل وتضلُّعه فيه.

وكان سافونارولا، في تلك المرحلة، قد أسس لنفسه مكانة مرموقة في دير سان ماركو، فلم يمض على وصوله، هناك، وقت طويل، حتى عُيِّن معلِّماً للرهبان المبتدئين. وقَدْ ألهمت فطنته المعرفيّة، مشفوعة بتزهُّده وحماسه النموذجيين، مجموعة من الأتباع المخلصين، ممن لزموا دروسه اللاهوتيّة، وتمثَّل هؤلاء في طلابه وزملائه من الرهبان على حد سواء. وعلى الرغم من ذلك، فقد أشارت بعض أحوال سافونارولا إلى أنه قاسى شكلاً من أشكال الأزمة الروحيّة في تلك الفترة، إذ يروي عنه أحد زملائه الرهبان[15] أنه كان يأتي لإلقاء دروس الصباح وقد تورّمت عيناه من شدة البكاء، الذي كان يغلبه في صلوات القيام، وساعات التأملُ المتَّقد، التي فرضها على نفسه. لكن دروسه، بصرف النظر عن حالته النفسيّة المكروبة، «سَمَت بقلوب رجاله عن الشؤون الإنسانيّة جميعها»، وبدا لمن أنصت إليه أنه «لم يكن له نظير في تدريس الكتب المقدسة منذ آباء الكنيسة الأوائل»، وسيتضح أن هذه المُشابهة بالأيام الأولى للمسيحيّة لم تكن عارضة، فقد كان مقصد

سافوناورلا الصريح هو العودة بالكنيسة إلى أصولها، متمثلة في فقرها المادي، وورعها الروحي التام.

واشتمل جزء من الواجبات التي اضطلع بها سافوناورلا على المواعظ المناسباتية في العديد من الكنائس الصغيرة المنتشرة في فلورنسا. وما من ريب أن عظاته كانت مؤثرة، فقد دُعي، في ربيع عام 1484، لإلقاء عظات الصوم الكبير في كنيسة سان لورينزو، وهي أقدم كنائس فلورنسا وأكبرها، ولقد أعاد فيليبو برونليسكي تصميمها قبل عدة عقود. ومثلت هذه التحفة المعمارية من العصر المبكر لحركة النَّهضة المدافن الأثيرة لأسرة ميديتشي، واعتادت جماعة المصلين، ورجال الدين الإنصات، هناك، للعظات المتبحِّرة الفصيحة التي كان يلقيها الأحبار من وعَّاظ ذلك العصر. وقد مارست دروس سافوناورلا التي ألقاها في بيئة دير سان ماركو الانعزاليَّة تأثيراً إعجازياً على المستمعين، ولا بد أن يكون قد مارس تأثيراً ملهماً مشابهاً فيما ألقاه من عظات في كنائس فلورنسا الصغيرة، غير أنه لم يكن ذا سطوة خارج هذه البيئة الأليفة، إذ تبدَّى «الرَّاهب الضئيل»، وهو يقف في منبر الوعظ، بحاجبيه الكثيفين القاتمين وأنفه الأفطس الطويل، شخصيَّة منفرة. ولم يسعفه صوته الحاد الخفيض في صحن الكنيسة الطويل ذي السقف المرتفع، أما لهجته الفيراريَّة المُفخَّمة، فقد استثارت الضحك لدى الكثيرين، في حين تبدَّدت كلماته المتقدة حماساً في جنبات الكنيسة الرحبة. ويروي رفيقه بلاسيدو كينوتزي؛ الراهب الذي حضر كل عظات الصوم الكبير التي ألقاها سافوناورلا، أن الحشد من حوله أخذ بالتضاؤل، حتى لم يغد حوله سوى خمسة وعشرين شخصاً، بمن فيهم النساء والأطفال الصغار الذين رافقوهن، وقد أقر سافوناورلا نفسه، بذلك، لاحقاً، فقال:

«لم أمتلك الصوت، أو القوة، أو المقدرة على الوعظ، مما أسأم الجميع من عظاتي... فلم يأت لسماعي غير نفر من الرجال البسطاء، جلسوا في أحد أجنحة الكنيسة، فضلاً عن قلة من النساء المسكينات، جلسن في الجناح الآخر»[16].

وقد كان سافونارولا مُحبطاً جداً إلى درجة أن قرّر الإقلاع، تماماً، عن فكرة إلقاء العظات على ملأ من الناس. ولا بُدَّ أن يكون ذلك قراراً مهيناً حقاً، فهو يشير –على أقل تقدير– إلى إخفاقه بوصفه راهباً، ذلك أن الرهبان الدومينيكان هم، في الأساس، جماعة وعظيّة. ومن المؤكد أنَّ هذه الحقيقة تصدَّرت تفكيره حين اختار هذه الجماعة دون غيرها من الجماعات، وكان أحدُ الأسباب الدّالة التي علّل بها سافونارولا إقلاعه عن الوعظ أن عظاته كانت غير فاعلة، «فلم تُخِف حتى فرخ دجاج». ويوحي ذلك بأنه نظر، منذ البداية، إلى عظاته وفقاً لغرض بعينه، إذْ لم تهدف كلماته إلى تنوير مستمعيه أو طمأنتهم، وإنما إلى بث خشية الرب في نفوسهم.

وقد أوصل هذا الإذلال الأزمة الروحيّة المتنامية لدى سافونارولا إلى ذروتها، وقد رافق سافونارولا، في وقت متأخر من عام 1484، واحداً من إخوته الرهبان، الذي كان يزور أخته في دير راهبات سان جيورجيو. وبينما كان سافونارولا ينتظر، وحيداً، في فناء الكنيسة خارج الدير، اجتاحه وحي مفاجئ وصفه بأنه أخذ شكل «العديد من الأسباب، أو سبعة منها على أقل تقدير، أن ما سيحيق بالكنسية من قارعة بات وشيكاً... وشَرَعْت في التفكير ملياً في هذه الأمور منذ تلك اللحظة»[17].

وقرّر من هم أعلى درجة من سافونارولا ضرورةَ أن يمضي في واجباته الوعظيّة خلافاً لرغبته، وقد تحاشى من أوصى بذلك أن يتسبب هذا بمزيد

من الأذى لسافونارولا، فطُلب إلى الأخير أن يُلقي عظات الصوم الكبير في بلدة صغيرة تقع على تلة مرتفعة، وهي سان جيمنيانو، الواقعة في أقاصي الريف التوسكاني المتموّج، وتبعد نحواً من الثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي من فلورنسا. وإذْ لم يقع تحت سطوة النُّظارة كي «يؤدي عظاته» في هذه البلدة الصغيرة، ولما كان ممتلئاً بالإلهام المتأتي من الوحي الذي نزل عليه مؤخراً، فقد تبدّى سافونارولا وكأنه لم يجد صوته الخاص فحسب، وإنما بدأ، لأول مرة، يعبّر عن نفسه بأسلوب سيغدو أسلوبه الخاص. ونحن لا نقع، لسوء الطالع، على أي من مواد تلك العظات التي ألقاها عام 1485، لكننا نستطيع أن نكوّن انطباعاً حول حالته العقليّة من خلال رسالة كتبها في تلك الفترة، ففي التاسع من مارس استلم سافونارولا، وهو في غمرة سلسلة عظاته في سان جيمنيانو، رسالة من أمه «إلينا» في فيرارا تنبئه فيها أن والده نيكولو قد وافته المنيّة. وإذا كنا لا نعلم، على وجه الدقة، ما تضمنته إجابة سافونارولا من كلمات، فإن بمقدورنا أن نستشفّ محتواها ونبرتها من الرسائل التي بعث بها إلى أمّه في الفترة ذاتها، فهو يبدو منشغلاً بندائه الباطني وعظاته، وقد أجاب أمه: أنه لا ينبغي لها أن تَعُدَّه، بعد الآن، واحداً من أفراد الأسرة، ذلك أن يسوع هو أبوه الآن، وعائلته هي جماعة الرهبان الدومنيكان. وألحّ عليها، المرة تلو الأخرى، بقوله: «ينبغي أن تَعُدّيني في عداد الموتى»[18]. ولا يمكن لهذه الكلمات أن تواسي إلينا، لكنها داومت على النظر إليه بوصفه ولدها، وكتبت إليه، بعد سبعة أشهر، تعلمه بوفاة أخيها بورسو، وكان عجز نيكولو المالي قد ترك «إلينا» تصارعُ الديون. وكان بورسو؛ خال سافونارولا، هو الداعم الوحيد لأمه وابنتيها. ويبدو أن سافونارولا ألفى نفسه، هذه المرّة، متأثراً بكلمات أمه المحزنة، وبليّتها

الباعثة على الرثاء. وقد بيّن لها، مخاطباً إيّاها بـ «الأم التي لا تضاهيها أم شرفاً ومحبّة»[19] أنْ ليس بمقدوره أن يرسل لها المال الذي طلبته، لأن الفقر الذي نذر نفسه له يعني أنه لا يملك مالاً البتة. وأرسل لها، عوضاً عن المال، كل ما كان يقدر عليه؛ وهو رسالة من خمس صفحات اقتضته كتاباتها عدة أيام، وكانت عبارة عن مزيج غريب من عظة ونصيحة ترشدها إلى الكيفيّة التي تغدو فيها قديسة، ثم اختتمها بإحالات من الكتاب المقدس راوحت بين المزامير ورسائل كورنثوس، نقرأ:

«أريدُ أن تَبلغي من الايمان مبلغاً يكون بمقدورك عنده أن تراقبي [أولادك] وهم يُحْتَضرون ويُستشهدون دون أن تذرفي دمعة واحدة لأجلهم، متأسّية بتلك المرأة العبرية الورعة، التي عُذِّب أطفالها الطاهرون وقتلوا على مرأى منها دون أن تبكي أو تتفجع، بل إنها أراحتهم في موتهم».

يمكن أن يُقرأ بعض أجزاء هذه الرسالة الدعويّة بوصفه عظة ونصحاً يوجههما سافونارولا لنفسه، وحين تُقرأ تبعاً لذلك، فإن موقفها إزاء من أرسلت إليه يتبدّى متصفاً بانعدام الرحمة وبالأثرة، بيد أنها دعوة، في واقع الأمر، إلى أن يضع المرء جماع حياته بين يدي الرب. «وهكذا، فمن الأفضل أن نتقبّل، صابرين، ما يحلُّ بنا من بلاء، كي نحظى بالسعادة الأبديّة، والسلام والمجد الدائمين». ومن المؤكد أنه يخاطب بهذه النصيحة الأخيرة أمه لا نفسه، لكنها لا تنطوي على مراءاة، فقد انتهى سافونارولا إلى رؤية ألْفى فيها حياته متصلة بغاية تتجاوز السعي «وراء السلام والسعادة الأبديين»، إذ أقنعه الإلهام الذي جاءه في دير الراهبات أنه أريدَ له أن يكون نبياً، وسيغدو ذلك ملحوظاً في عظاته. وقد جلبت عظات الصوم الكبير التي ألقاها سافونارولا

في سان جيمنيانو أفواجاً من المستمعين، فدُعي، مرة ثانية، لإلقاء عظات الصوم الكبير لعام 1486. وقَدْ جرى الاعتقاد، لسنين عديدة، أنَّ مواد هذه العظات قَدْ فُقدت أيضاً. غير أنَّ الأكاديمي الايطالي روبرتو ريدولفي وَقَع على بعض المُذكَّرات المكتوبة باللاتينيّة القروسطيّة وهو ينقِّب في الأرشيف الفلورنسي عام 1935، وتبيَّن له لدى تفحصها أنها كانت المسودات التي وضعها سافونارولا لعظاته التي أزمع إلقاءها في الصوم الكبير عام 1486. وقد توسَّع سافونارولا في هذه العظات، في الحديث عما «أُوحي به إليه»، وذلك حين أفاض بالحديث في عظاته عن «الأسباب السبعة» التي جعلت «القارعة التي ستحلُّ بالكنيسة وشيكة»[20]. وعدَّد من ذلك وجود «الرُّعاة» الأشرار في الكنيسة، وفساد الكنيسة، والسيمونيّة (بيع المناصب الكنسيّة لقاء المال)، ويشير هذا السبب الأخير، لا محالة، إلى البابا الجديد إينوسنت الثامن، الذي أثبت أنه يستنسخ في فساده سيرة سلفه سيكستوس الرابع، إذ لم يكن إينوسنت الثامن أول من اعترف، جهاراً، باولاده فحسب، وإنما أسَّس بيع المناصب الدينيّة كذلك. وربما امتعض سافونارولا من بابويّة سيكستوس الرابع، لكنه أدرك أنه بتولِّي إينوسنت الثامن سدَّة البابويّة، فإنَّ الأمور تتجه من سيئ إلى أسوأ، أو كما كتب في واحدة من قصائده آنئذ:

«حين رأيت تلك المرأة المتعجرفة»[1]، فإن ذلك أسلمه إلى حالة من «النَّحيب الدائم»[21].

وقد أخبر سافونارولا أهل سان جيمنيانو، أيضاً، أن الرب بعث النبيين كي ينذروا البشريّة مما هو قادم عما قريب، متمثلاً في «مجيء المسيح الدَّجال،

(1) المقصود هنا هو السيمونيّة التي تُجسِّد، كما جلّى ذلك سافونارولا في الهامش الذي سطَّره بيده، «السّعي وراء الألقاب الكنسيّة».

والحرب، والطاعون أو المجاعة». وعلى الرغم من وضوحه هذا، فإنّه ألح على: «أنني لا أنذركم لكوني نبياً، وإنما لأني أَخلُصُ من قراءتي الكتاب المقدّس إلى أنّ ما سيحل بالكنيسة من قارعة بات وشيكاً». وهو وإن كان يمارس، يقيناً، دور نبي، فإنه لم يكن متثبتاً، بعدُ، من نفسه كي يجاهر بدعوته.

وقفل سافونارولا عائداً إلى فلورنسا بعد أن أتمّ عظات الصوم الكبير في سان جيمنيانو. وما هي إلا بضعة أشهر حتى أُعلم بأنه عُيّن أستاذاً لقسم الدراسات في المدرسة العامّة المرموقة [أو ما يكافئ الجامعة اليوم] (stadium generale) في بولونيا، وهكذا، فإنه سيعود إلى المكان عينه الذي درس فيه اللاهوت أول مرّة، ولن تمرَّ عليه أكثر من عشر سنوات حتى يكون من أميز اللاهوتيين في الهيئة التدريسيّة.

(4)
تثبيت دعائم سلالة ميديتشي

شنّ لورينزو العظيم هجوماً ديلوماسياً عاجلاً حين أُعلم باختيار إينوسنت الثامن خلفاً للبابا سيكستوس الرابع، وتَغيًّا من ذلك الفوز بدعم البابا في قضيته. ولكن، ما هذه القضية بالضبط؟ لقد أراد لورينزو، دون شك، أن يحافظ على توازن القوى في إيطاليا حتى يكون بمقدور فلورنسا وتجارتها النامية بقوة المضي في ازدهارهما دون تهديد من جانب جارتها القويّة. وتبدى التحالف مع البابا، بما يمثله من قوة سياسيّة وروحيّة عظيمتين، أمراً جوهرياً لتحقيق هذه الغاية. ولكن سرعان ما بات واضحاً أن لدى لورينزو العظيم دوافع خفيّة في سعيه للتحالف مع البابا الجديد ومصادقته، وهي تثبيت دعائم سلالة ميديتشي، وقد اعتزم القيام بذلك تبعاً لأكثر الطرق إثارة وإدهاشاً.

وكان بيرو؛ الابن الأكبر للورينزو العظيم، قد بلغ الثالثة عشرة عام 1484، ونُظر إليه بوصفه الوريث الطبيعي لأبيه في تولي السلطة. وكان بيرو صبياً صعب المراس، ومتغطرساً بصورة ما. وقد شابه أباه فيما امتلكه من صفات الجرأة المتهورة، لكنه لم يُظهر، حتى تلك اللحظة، ما أظهره أبوه من حكمة وثقافة. فعلى الرغم من أن بوليتسيانو وفيتشينو كانا يقومان على تأديبه، فإنه لم يُبْد انشغالاً بشؤون الحكم والتعلم مثلما أبداه من حماس للصيد،

مما أوجب على لورينزو السعي لتصويب هذا الأمر، فأرسل ابنه، برفقة بوليتسيانو، على رأس وفد فلورنسي إلى روما بقصد تهنئة البابا الجديد في توليه لكرسي البابويَّة.

كان إينوسنت الثامن لبقاً ومواداعاً وحسن الأخلاق، فضلاً عن كونه ذا شخصيَّة مراوغة بصورة ما، وقَدْ وقع عليه الاختيار لشغل كرسي البابويَّة بما مثله من حل وسطي، وذلك حين عجز كل من الكاردينال رودريغو بورغيا؛ صاحب النفوذ والسمعة الرديئة، وعدوِّه اللدود القريب من أهل الحل والعقد؛ الكاردينال جيوليانو ديلّا روفير، عن جمع الأصوات الكافية للفوز بكرسي البابويَّة. وقَدْ عرف لورينزو أنَّ الاضطلاع بمهمة ديبلوماسيَّة مع البابا ذي الخمسة والخمسين عاماً قد يدخل الخشية في روع الشاب اليافع الغر، فيثوب إلى رشده.

وقد ألفى لورينزو نفسه متمثّلاً طريقة أبيه المغالية في الحرص، حين أرسله الأخير في بعثات ديبلوماسيَّة في سني شبابه الأولى. ويمكننا أن نمثِّل على ذلك بالرسالة ذات الخَمس صفحات، التي بعث بها لورينزو العظيم إلى ابنه بييرو في السادس والعشرين من نوفمبر لعام 1484؛ تلك الرسالة التي لا تعدو كونها ابتهالاً يضجُّ بالتعليمات المشابهة لتعليمات أبيه؛ بييرو المنقرس، متمحورةً حول الطريقة التي يجب عليه أن يتمثلها في سلوكه، نقرأ:

«حاذر من أن تتصدَّر من هم أكبر منك سناً، فما أنت، وإن كنت ابني، سوى مواطن فلورنسي... وحين يجد جيوفاني[1] اللحظة المناسبة لتقديمك، بصورة شخصيَّة، إلى البابا، فاحرص على أنْ تكون

(1) جيوفاني تورنابوني هو خال لورينزو وأمين سرّه، الذي تمتع بعلاقات قوية مع ذوي الشأن. وكان يترأس بنك ميديتشي في روما.

ملماً بالطقوس المتبعة في التشريفات، وحين تُعرض على قداسته، بعد ذلك، قبّل رسالتي إليه مُتضرّعاً إليه أن يتفضّل بقراءتها»[1].

لكن لورينزو لم يتطرّق إلى لباب الموضوع إلا في الصفحة الثالثة من رسالته إلى ابنه، إذ يقول: «ويتوجب عليك، إثر ذلك، أن تقول لقداسته: لما كنت قد زكّيتني يا قداسة البابا، فإن المحبّة الأخويّة تقتضيك أن تزكّي، أيضاً، السيد جيوفاني الذي نشأْتُه تنشئة قس».

وكان السيّد جيوفاني هذا هو ابن لورينزو الثاني الذي لم يتجاوز، آنئذ، التاسعة. وقَدْ أُعِدَّ ليشغل منصباً رفيعاً في الكنيسة. وكان جيوفاني طفلاً ظريفاً ومكتنزاً، أظهر علامات على النبوغ في تلك السن المبكّرة، كما أظهر خمولاً أفزع والده، وهي سمة غير معهودة البتة لدى أسرة ميديتشي. وعلى الرغم من ذلك، فقد علق لورينزو آمالاً عراضاً على جيوفاني، وبدأ، إذّاك، بتمهيد الطريق له، بأن اشترى له عدداً من المناصب والإقطاعيات الكنسيّة المثمرة وفق ما عُهِد في ذلك الزمان. ويكون، بذلك، قَدْ أمدّه بدخل ومنصب كنسيَّين. وعلى الرغم من شيوع هذه الطرق، فإنها غَدَتْ مألوفة أكثر بحلول عهد إينوسنت الثامن، الذي اتسم بسيمونية صريحة أزعجت لورينزو وكثيرين غيره.

وسيتلقف لورينزو هذه السانحة التي أتاحها هذا التسيُّب، بل إنه عمد إلى خطوة غير مألوفة في تعيين الشاب جيوفاني أسقفاً لمدينة «أريتسو»، ثمّ ما لبث أن بدأ يتملّق ملك فرنسا لتعيين جيوفاني أسقفاً لمدينة آكس آن بروفانس الفرنسية، وهو منصب مرموق بإيراد كبير.

ومن الجدير بالذكر، أن هذه مثّلت بداية مسعى لورينزو في التأسيس لأسرة ميديتشي في فرنسا. ويمكننا أن نحدّد، بنظرة ارتجاعيّة، مدى فداحة

المطامح التي حركت لورينزو العظيم في سبيل أسرته، حتى إن لورينزو لم يكن، آنئذ، حاكماً رسمياً لفلورنسا، وكان موقعه بلا لقب. ولنذكر هنا أن صديقه بيكو ديلا ميراندولا؛ وهو أحد أفراد حاشيته، كان كونتاً، فضلاً عما أحاط بزعم لورينزو المتعلق بحكم فلورنسا من خطر كما تبدّى في مؤامرة باتسي. غير أنَّ خططه التي شرع في بعثها سراً، وقتها، هدفت إلى القفز بأسرة ميديتشي إلى سدة العروش الأوروبيّة، لا أقل من ذلك، ممثّلة في العرشين البابوي والفرنسي. وقد تزامن ذلك مع بدء لورينزو في نقش تلك الشارة الدائمة، سراً، على مجوهراته النفيسة، وهي Lau R. Med، أي الملك لورينزو ميديتشي، فقد رأى نفسه الأب المؤسس لسلالة ملكيّة، غير أن هذه المطامح الباهرة لن تؤتي أكلها خلال حياته، أو حتى في القرن الذي عاش فيه، بل في الذي تلاه، ولن يتأتى ذلك تبعاً لاستبصارات لورينزو، فربما لم تتجاوز حظوظ أسرة ميديتشي، آنذاك، حدود فلورنسا؛ تلك المدينة التي تنبأ جده الحكيم بأنها ستضيق بهم في مدة لن تتعدّى خمسين عاماً. وقد مضت، حينئذ، ثلاثة عقود على هذه النبوءة المشؤومة.

أرسل لورينزو، في تلك الأثناء، مديره المالي؛ أنطونيو منياتي، ليطوف في أوروبا باحثاً عن إقطاعات كنسيّة مثمرة للشاب جيوفاني. كما أُرسلت رسائل مشابهة إلى مدراء الفروع الأجنبيّة لبنك ميديتشي، غير أنها لم تجد نفعاً، إذ شهدت هذه الفترة انحداراً في وضعية بنك ميديتشي إلى درجةٍ لم يتبق معها من فروعه سوى فرع روما، ونابولي، وبيزا، وفرع جنيف–ليون المشترك، فقد أُغلق، خلال بضع سنين، فرع ميلان عام (1478)، وفرع أفينيون عام (1479)، وفرع لندن عام (1480)، وفرع بروج عام (1480)، وفرع البندقية عام (1481). وإذا كانت الأسباب التي أسهمت في هذا الانحدار

مختلفة ومتعددة، فقد مثّلت، بحق، كتالوجاً من المصائب بالنسبة إلى موارد أسرة ميديتشي الماليّة. وقد أُرغِم فرع البندقيّة المعتل، مثلاً، على الإغلاق إبان الحرب المستعرة، آنئذ، بين البندقية وفيرارا، مما تسبّب في تقليص الدخل المتأتي من المشاريع التجاريّة القائمة في كل من ألمانيا والمشرق العربي. ولم يتعاف فرع لندن من الخسارة التي مُنِي بها جراء المبلغ الذي أقرضه للملك إدوارد الرابع ونبلائه، وكان مقداره 80000 فلورين. أما إغلاق فرع بروج ذي العوائد العالية، فقد عُزي جزئياً، إلى ما اتصف به أمين سرّه الذي ترأسه أمداً طويلاً؛ توماسو بورتيناري، من تبذير وخفة يد، إذ عمد الأخير، كي يبرهن على المكانة المرموقة للبنك (ومديره)، إلى إنفاق نحو 10000 فلورين ثمناً لفندق بليديلن وتجديده، وكان هذا (ولم يزل) واحداً من أرفع المقار القروسطيّة في بروج، ثم استثمر بورتيناري، في مرحلة لاحقة، موجودات بنك ميديتشي في مشروع جانبي مشترك يتعلّق بتجارة الصوف. وقد وضع صيغة العقد بمهارة فائقة، فخصّص لنفسه أرباحاً طائلة، في حين حُمّل البنك (ولورينزو) أيّ خسائر محتملة. وإذ أعوزت لورينزو، بصورة ما، الحيويّة فيما يتعلق بشؤون الأسرة المصرفيّة، فإنه لم يلحظ ذلك إلا حين لفته إليه بعضهم في مرحلة متأخرة جداً. وقد سدّد بورتيناري الماكر والأخرق ضربته القاسية، مستمراً، على نحو مخالفٍ كلَّ التعليمات الصارمة والواضحة، في حملة برتغاليّة خطرة إلى الساحل الغيني الواقع في غرب إفريقيا. وعندما باء هذا العمل بالفشل، فإن بورتيناري أتلف كل دليل استطاعت يده أن تطاله، وجرى ذلك مثلما صوره المؤرخ المالي لبنك ميديتشي؛ دي روفر، بطريقة مقتضبة بارعة: «ليست ثمة معلومات تُذكر عن هذا المشروع الذي لا طائل منه»[2]. وعلى الرغم من توفر لورينزو على مُستشارين أكفاء، مثلما هو

أمر خاله في روما، فإن بجمل شؤون المصرف بقيت، بصورة عامّة، غير خاضعة للرقابة. وكان والد لورينزو؛ بييرو المنقرس، قد استهلّ حكمه في تبني النّصيحة الطائشة المتمثلة في المطالبة بالديون المستحقة للبنك. فانبرى لورينزو، في السنين الخمس الأولى من رياسته، لتطبيق مواهبه التجاريّة المُميزة في إدارة دفة البنك في تلك الفترة العصيبة، لكنه صرف انتباهه، بصفة دائمة، إلى غير ذلك من الأُمور، مما جعل التلاعب، الذي تنهض حالة بورتيناري مثالاً واضحاً عليه، أمراً محتمل الحدوث بصورة كبيرة.

لم يكن بورتيناري، في واقع الحال، المدير الوحيد الذي تورّط في صفقات مشبوهة؛ تلك الصفقات التي لم تكتشف إلا بعد أن صار علاجها عسيراً. ويبدو أن لورينزو كان غير محيط بمدى تورط بورتيناري في العمل ضدّ مصالح أسرة ميديتشي، وقَدْ تُرِك الأوّل الطاعن في السن ليواجه ديونه الشخصيّة الفادحة عقب إغلاق فرع بروج. وشعر لورينزو أن جزءاً من هذه الديون يقع على عاتق بنك ميديتشي، فمنح هذا المصرفي وضعاً ديلوماسياً يُمكّنه من العودة إلى موطنه فلورنسا، دون أن يُرْغم على البقاء في بروج من جانب الدائنين. ولم تمض غير بضع سنين حتى وافت بورتيناري المنيّة، لكن ابنه رفض، في نهاية المطاف، قبول تركته، إذْ لما لم يكن الأخير، ممتلكاً لصفة ديلوماسيّة، فإنه سيكون عرضة للمقاضاة من جانب الوكلاء الذين أُرسلوا لاسترداد الديون الفادحة المستحقة على والده.

وهكذا فقد اجتمع سوء الإدارة، واستخفاف لورينزو، ليُدخل بنك ميديتشي فيما بدا أنه مرحلة النزع الأخير. واستمر الدخل المتأتي لأسرة ميديتشي من هذا المصدر في التناقص، ولم ير لورينزو مبرّراً لتصويب الأمور، بل إنه ارتأى، على الضد من ذلك، أنّ الأسرة التي تتطلّع إلى أن

تكون واحدة من الأسر الملكيّة الأوروبيّة، لن ترغب في أن تُرى بوصفها أسرة تعمل بالقطاع المصرفي لا أكثر. ولم يعد دخل لورينزو، بحلول منتصف عام 1480، عالة على المعاملات النقديّة، أو المشاريع التجاريّة الماليّة، فقد جعل من نفسه وفلورنسا شيئاً واحداً. وانتهى إلى التعاطي مع خزينتها بوصفها ملكه الخاص، فهو ينفق منها على نفسه ويوزع ما يرتئيه ملائماً لمصلحة المدينة. وباتت مصلحة المدينة، وفقاً لرؤية لورينزو، لا تنفصل عن مصلحة أسرة ميديتشي، فإذا ازدهرت إحداهما لحقت بها الثانية.

وتبقّت، مع ذلك، اختلافات تقنيّة، إذ على الرغم من احتمال تمويل عمليات شراء الإقطاعات الكنسيّة لجيوفاني الشاب من خزينة الدولة، وذلك بما استعمله مينياتي من أساليب احتياليّة، فإن العوائد الطائلة المتأتية من هذه الإقطاعات كانت تتحول مباشرة إلى مالكها من أسرة ميديتشي، وتبدّى ذلك اختلافاً دقيقاً ظلّ أهل فلورنسا يجهلونه.

وقَدْ طرح لورينزو العظيم، في هذا الوقت تحديداً، طلبه الأجرأ على صديقه الجديد إينوسنت الثامن، متقدماً عام 1484 بموضوع مؤدّاه ترسيم ابنه جيوفاني كردينالاً. ولم يكن هذا الطلب مسبوقاً حتى مع مجيء السيمونيّة المُمأسسة، فقد مثّل مجمع الكرادلة الهيئة الأهم والأكثر تأثيراً في الكنيسة، ولا يتقدمها، مكانة أو نفوذاً، إلا البابا نفسُه. وكان هذا المجمع، هو ما اضطلع، في واقع الحال، باختيار البابا الجديد، وذلك في خلوة سريّة تُعقد «عقب وفاة البابا السابق» في الفاتيكان، هناك حيث تتوافق المجموعات المختلفة، في منعزلها البعيد عن المؤثرات الخارجيّة، على التصويت، وتدخل في الصلاة، أحياناً، طلباً للإرشاد الرباني. ومن الممكن أن يتوقع من دَعَم المرشّح الفائز المِنَح والمكافآت، فضلاً عن ممارسة التأثير على السياسة

البابويَّة. وكان لورينزو العظيم قد طرح، وقتها، جعل ابنه ذي الأحد عشر عاماً، عضواً في هذا المجمع الجليل. ولم يكن الفتى قد بلغ، فعلياً، الحادية عشرة، إذ عمد لورينزو، في سعي منه لإقناع البابا أينوسنت الثامن، إلى إضافة سنتين إلى عمر ابنه الحقيقي. وحتى إن دخل غير جيوفاني من الفتيان في هذا السلك، فإذا رُسّم الأخير كاردينالاً، فإن ذلك يعني تمكينه بوصفه: كاردينالاً صاحب سبق في هذا السلك، وعاملاً خبيراً، وذا صلة بذوي الشأن داخل المجموعة. وهكذا يغدو من عُدَّ مجرد خادم للبابا في وضع مكين، ليصبح لاحقاً، هو نفسه، بابا. لكن إينوسنت الثامن لم يكن ليقتنع بذلك، فمن شأن هذا التعيين أن يُعرّض برنامج السيموتيّة برمته للشكوك، وذلك برده إلى أضحوكة مطلقة. وإذ أغضب ذلك لورينزو وخيّب رجاءه، فقد أكدَّ له البابا ضرورة الانتظار حتى تحين الفرصة، لكنَّ الأول عزم على المضي بحملته بوسائل أكثر سريَّة.

ولما كان لورينزو يجهد، في تلك الأثناء، لتمتين حكم سلالة ميديتشي في فلورنسا، فقد رتَّب لاقتران ابنه ووريثه بييرو؛ ذي السبعة عشر عاماً، من فتاة تنتمي إلى فخذ آخر من أسرة أمه الأرستقراطيّة الرومانيّة؛ وهي أسرة أورزيني. وكان والد قرينة بييرو، واسمها ألفونسينا أورزيني، قد قضى مقاتلاً في صفوف ملك نابولي؛ فيرانتي، الذي جعلها مذّاك في كنفه. وكان من شأن هذا الزواج أن يعزّز حلفاً استراتيجياً: فهو سيعمل على تحقيق هدف مزدوج قوامه تعزيز منزلة أسرة ميديتشي الأرستقراطيّة، وتحالف فلورنسا مع نابولي، فضلاً عن تقوية العلاقات مع أسرة أورزيني المتنفذة في روما. وهكذا، فإن ما اجتمع لأسرة ميديتشي من دعم الأصدقاء الأقوياء، سيجبر أياً من الأعداء على التفكير ملياً قبل محاولة الاستيلاء على فلورنسا.

ولم يكتف لورينزو بالسعي إلى تمكين أسرة ميديتشي من وراثة الحكم في فلورنسا، وإنما جاهد للحفاظ على الإرث الثقافي للأسرة وإدامته، فعيَّن، لهذه الغاية، مارسيليو فيتشينو؛ المثقف الأثير لدى جدّه، شمّاساً لكاتدرائيّة فلورنسا، ولقد مكنت هذه الوظيفة السهلة الكلاسيكي الأحدب أن يستمر في عمله الفلسفي، دون أن تشغله المشكلات الماليّة. وكان الجهد الذي بذله الأخير في التوفيق بين الأفلاطونيّة والمعتقد المسيحي المُسلَّم به، قد أفضى به إلى كتابة عدد من الشروحات لعمل أفلاطون. ومن الممكن أن يُنظر إلى هذه الأخيرة بوصفها أعمالاً أصيلة قائمة بذاتها.

وبرزت منها شروحاته حول سمبوزيوم أفلاطون[1]، وهو العمل الشهير الذي يصف فيه الفيلسوف اليوناني القديم المأدبة التي جمعت سقراط وآخرين، حيث تدارس هؤلاء طبيعة الحب، منطلقين من صوره المثاليّة إلى أشكاله المِثْلِيّة الأكثر بذاءة. وقد أكدَّ أفلاطون أنَّ الحب يقودنا، بانجذابه نحو المثال الجمالي، إلى البحث النفسي نحو الحكمة (من اليسير علينا أن نتبين مدى تأثير هذه الأفكار على الفنان بوتيتشيلي، وكيف عمل على تجسيدها في أَعماله التي برزت منها لوحة «الربيع»). وتُدعى حاشية فيتشينو على «سمبوزيوم أفلاطون» بـ «في الحب»، وقد أخذت شكل مأدبة مشابهة في واحدة من فيلات لورينزو العظيم، حضرها أعضاء دائرة قصر ميديتشي الثقافيّة. وتناول فيتشينو، في عمله هذا، الحب المِثْلي الذي لا بُدَّ أنّه لم يكن غريباً على لورينزو العظيم، وبوليتسيانو، وغيرهما من الحضور، كما أنه يفضِّل الحديث فيه، ضمن مستوى أرفع من سابقه، عن الأفكار الأفلاطونيّة وفحواها؟ وكيف أن الحب يخلق الحياة، وأنه يُبقي على وجود العالم،

(1) محاورة سقراطيّة تعني محاورة المأدبة.

وكيف أن الكائن البشري يتحصل على حكمته العليا ويعود إلى أمثاله عبر حبه للجمال. بيد أن فيتشينو كان متأثراً، في هذا العمل وأشباهه، بفلسفة الأفلاطونيَّة الجديدة لدى أفلوطين، وبأشكالها الهرمسيَّة، فضلاً عن تأثره بمفكرين اشتطوا في نزوعاتهم السحريَّة والميتافيزيقية، فقد كان فيتشينو منجذباً، بطبعه، إلى الطَّوالع الفلكيَّة، وتواقاً إلى الاعتقاد بما تُحدِّث به من أخبار (لقد عزا فيتشينو قدوم بيكو للدراسة لديه في فلورنسا إلى الطوالع الفلكية التي ظهرت في اليوم المذكور).

وقد انجذب بيكو ميراندولا، بدوره، إلى الجوانب الأكثر باطنية وميتافيزيقيَّة في تعاليم فيتشينو، إذ كان ذلك يتوافق مع سعي بيكو في جمع الحقول والفلسفات جميعها في بوتقة واحدة، باحثاً عن حقيقة كونية تُبطِّنها. وستُعرف هذه المحاولة في الجمع بين الفلسفات والديانات المختلفة بالتوفيقيَّة (syncretism)[1]. ومما يثير الانتباه، أن عقلاً متبصِّراً، كعقل سافونارولا، كان لا بُدَّ أن ينبري ليحدس، على نحو دقيق ربما، بالمنحى الفكري لبيكو خلال الفترة التي أَعقبت مجيئه إلى فلورنسا عام 1484. إذ يعود سافونارولا، فيما تلا ذلك من سنين، إلى تلك الأوقات حين اعتاد بيكو زيارته في صومعته في دير سان ماركو حيث كانا «يتفلسفان بورع»، مسترجعاً انطباعاته عن بيكو في واحدة من عظاته، قائلاً: «لقد اعتاد أن

(1) (syncretism) مشتقة من كلمتين يونانيتين؛ وهما (syn) وتعني معاً. و(kertismos) وتعني أهل كريت. وهي تحيل، بذلك، إلى أهل كريت القدماء الذين دأبوا على الاقتتال فيما بينهم، لكنهم توحدوا (syncretismos) حين كانوا يُجابهون بعدو مشترك. ولن تستقرّ التوفيقيَّة بوصفها فلسفة إلا في القرن السَّابع عشر، وذلك حين سعت هذه الفلسفة إلى التوفيق بين البروتستانتية والكاثوليكيَّة، وسيُعَدُّ بيكو ديلا ميراندولا واحداً من الشخصيات التوفيقيَّة الطليعيَّة البارزة.

يكون متآلفاً معي، وأن يبوح لي بمكنونات قلبه التي استخلصت منها أن الرب دعاه عبر إلهام خاص إلى الدين. ولهذا، فإنه نوى غير مرّة أن يمتثل لهذا الإلهام، ويتّبع ذلك النداء. ولكن لكونه غير مستعد، بصورة ملائمة، لهذه المنح الربانية العظيمة، أو لأنه كان مُقيّداً بالضعف البدني (لقد كان ذا بنية جسديّة رقيقة) فإنه أحجم عن العمل بذلك. أو ربما فكّر، جذلاً، أنّه ليس في حاجة إلى الدين المسيحي»[3].

يبدو أنَّ هذه الملاحظات ستنطوي على كثير من الحقيقة فيما يتعلق بازدواجيّة بيكو، فقد كمن وراء رغبته للجمع بين الفكر والإيمان توقٌ للاعتقاد بوجود حقيقة كونيّة واحدة، لكنه عجز عن حمل نفسه على الاعتقاد بأن هذه الحقيقة هي الرب، ذلك أنه لم يكن راغباً في إسلام نفسه إلى ما يقتضيه ذلك من تضحيات فكريّة وانضباط روحي.

مهما يكن من أمر، فلم تستطع اللذائذ الفكريّة المتاحة في قصر ميديتشي، أو الحجاج الروحي العميق لدى سافونارولا، أن تستبقي، طويلاً، عقلاً قلقاً مثل عقل بيكو ديلا ميراندولا، فغادر فلورنسا في يوليو من عام 1485، لينطلق، من جديد، في رحلة طلبه للحقيقة، بكل تجلّياتها الفلسفيّة. وكما كتب ابن أخيه؛ جيوفاني فرانشيسكو بيكو، في السيرة التي وضعها بعد أربع سنين على وفاة بيكو (ترجمها إلى الإنجليزية، السير توماس مور)، متحدّثاً عن «دراسته للفلسفة واللاهوت»:

«لما كان باحثاً تواقاً عن أسرار الطبيعة، فإنه هجر سبل الحياة المطروقة، وأسلم نفسه، كليّاً، للتأمل والفلسفة بصورتيهما (الإنسانيّة واللاهوتيّة). وجهد لتحقيق ذلك (مقتفياً خطى أفلاطون والفيلسوف الفيثاغوري بلينياس الحكيم) فسعى وراء أشهر أساتذة

عصره، ودأب على زيارة جامعات إيطاليا ومدارسها، حتى إنه تعدَّاها إلى تلك الفرنسيَّة»[4].

وقد قصد بيكو، إثر مغادرته فلورنسا، باريسَ، حيث درَّس العالم الأرسطوي العظيم؛ توما الإكويني، في السوربون قبل قرنين، مؤسِّساً نسخته من السكولائيَّة، التي غدت المعتقد الأرثوذوكسي المسيحيَّ السائد. وبقيت باريس، حتى في عصر بيكو، المركز الفكري العظيم لأوروبا، وذلك إن تعلَّق الأمر بالمعرفة القروسطيَّة حصراً. أما حينئذ، فإن المراكز الإيطاليَّة، مثل بدوا وفلورنسا، برهنت أنها في الصدر من المعرفة الجديدة: ممثلة في إحياء الدراسات الكلاسيكيَّة، والنزعة الإنسانويَّة الجديدة، والعلوم المبتدئة (proto-science). وإذْ تشرَّب بيكو السكولائية من منبعها الأصيل، مُختلفاً إلى محاضرات ثلة من أساتذة السوربون المرموقين، يبدو أنه شدَّ عصا الرحيل عائداً إلى إيطاليا في وقت ما من عام 1485.

ولقد عاد بيكو، لفترة قصيرة، إلى الفيلا التي بناها لنفسه غير بعيد عن «ميراندولا»؛ ذلك البيت الذي لم يجتذبه كثيراً واصفاً إياه، تبعاً لكلمات مديحه الفاترة، بأنه: «لا بأس به، قياساً على طبيعة المكان والناحية»[5]. وربما أشار ذلك أنَّ حب بيكو للسِّفار كان يتجاوز سعيه وراء المعرفة، فقد امتلك سبباً قوياً لعدم الشعور بالراحة في موطنه، إذ اغتاظ أخوه الأكبر غيظاً شديداً من وصية أبيه، الذي وزَّع أملاكه بين أبنائه بالقسطاس المستقيم، وبلغ به الأمر أن ألقى بواحد من إخوته بزنزانته في ميراندولا، إلى أن تدخل البابا وأمره بالكفِّ عن هذا السلوك.

واستضاف بيكو، خلال إقامته القصيرة في فيلته الكائنة خارج البلدة، فلافيوس مثراديتيس؛ العالم الإنسانوي الإيطالي اليهودي، الذي وسَّع من

معرفة بيكو بالعربيّة، وبدأ يُعلّمه مبادئ اللغة الآراميّة؛ وهي لغة التلمود المعن في القدم، ولغة أجزاء من العهد القديم، وربما اللغة التي تحدَّث بها المسيح.

وغادر بيكو فيلته، في الشتاء الذي حلّ بين عامي 1485 و 1486عائداً إلى فلورنسا، حيث سُرَّ بتجديد صداقته المميزة مع كل من لورينزو العظيم، وبوليتسيانو، وفتشينو، وغيرهم من الدائرة الثقافيَّة في قصر ميديتشي، التي استلهم منها الفلسفة الإنسانويَّة والأعراف الأكثر ليبراليَّة، فصنَّف رسالة في الحب عُرفت، عادة، بـ «التعليق؛ commento»، وقد مثَّلت أول عمل فلسفي أصيل لبيكو. وتقوم أُطروحة الأخير في هذه الرسالة على وجوب النظر إلى الآلهة الوثنية والقديمة بما هي تجسيدٌ للأفكار الميتافيزيقيَّة الأكثر تجديداً، مما نقع عليه لدى كانت، فتغدو الإلهة فينوس، بذلك، المثال التجريدي للجمال (هنا يقفز بوتيتشيلي إلى الذهن من جديد). ويتبدى مؤلف بيكو «التعليق»، في جزء منه، نقداً لمؤلَّف فيتشينو؛ «في الحب»، الذي رآه بيكو مغرقاً بالشعريَّة، وملتبساً، ولاسيما ما تعلَّق منه برؤية فيتشينو للحب الفيزيقي والميتافيزيقي، بما هما عرضان مختلفان بالدرجة لباعث واحد، في حين ألح بيكو على فصل الحب الإلهي، بشكليه الأفلاطوني والكوني، عن العملية السيكولوجيَّة التي ينطوي عليها الحب الفيزيقي الدنيوي.

وفيما يتعلَّق بهذا الموضوع الأخير، فقد كان العالم، المُنهك بسبب ساعات الدراسة، ذا تجربة، واسعة. فمما لا شك فيه أنه كان ذا ميول جنسيَّة مزدوجة، إذ يبدو أنه غدا منخرطاً، في مرحلة ما، بعلاقة حميميَّة مع بوليتسيانو تتجاوز ما يجمعهما من انشغالات شعريَّة (يعود تعبير بوليتسيانو المتدفِّق حول بيكو، غالباً، إلى تلك الفترة، ويقول فيه: يبرز بيكو بطلاً

أسبغت عليه الطبيعة كل هبات العقل والجسد). وثمة إشارات توحي بأن بيكو كوّن علاقة مشابهة مع لورينزو ذي الميول الجنسيّة المثليّة. ولكن، على الرغم من مظهر بيكو المتأنّث بصورة ما، فلا ريب أنَّ طبيعته انطوت على اشتهاء قوي للجنس الآخر، وسيدخله هذا في محنة شديدة.

فقد شُغفَ بيكو، في وقت ما من عام 1486، بشابة تدعى مارغريتا؛ وهي زوجة بقال مُسن من أريزو. وحين توفي الأخير، أجبرت عائلته السيدة مارغريتا على الاقتران بموظف ضريبي يُدعى جيوليانو ماريوتو مديتيشي، حيث ربطته قرابة بعيدة بلورينزو العظيم. ولما بلغ هذا الأمر بيكو، ركب فرسه قاصداً أريزو، التي تبعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من فلورنسا، متربعة على سفح من سفوح جبال الأبنيني. ورافقه في رحلته عشرون فارساً مُسلَّحاً، وقد التقوا بمارغريتا التي كانت تنتظر، تبعاً لما خطّط له، عند بوابة المدينة، وانطلقوا بها. فأرسلت السلطات المحليّة، تواً، فصيلاً من حرّاس المدينة المُسلَّحين لتتعقبهم في مطاردة مثيرة. وحين لحقوا بـ«بيكو» ورجاله، حدثت مواجهة عنيفة قُتِلَ فيها، كما رُوي، خمسة عشر رجلاً. (لا بُدَّ وأن تكون هذه مواجهة ساخنة، أما تلك المعارك المصمّمة سلفاً، التي شهدتها إيطاليا في ذلك العصر، فقد كانت تنتهي بإصابات أقل كثيراً من هذه، وذلك قبل أن يقرّر أحد الفصيلين المتقاتلين من المرتزقة أن يفرّ من المعركة)[6].

وقد تدبّر كل من بيكو وسكرتيره، وكذلك مارغريتا، أمرهم وأفلتوا من هذه المواجهة الدامية، غير أن مطارديهم أمسكوا بهم عند قرية ماركينو التي تبعد 20 ميلاً شمالي أريزو، حيث احتجزوا، ثمّ سُجن بيكو وسكرتيره لاحقاً. وحين وصلت تلك الأخبار إلى فلورنسا، مَثّلتْ، لا محالة، إحراجاً كبيراً للورينزو العظيم. فهو لم يرغب في التخلي عن صديقه في محنته، وإن

كان مخطئاً. غير أن شرف أسرة ميديتشي، في الوقت نفسه، كان على المحك، واقتضت الحاجة أن يُصانَ على مرأى من الناس، فتوصَّل لورينزو إلى قرار يشهدُ بألمعيته الدبلوماسيَّة كما لم يشهد موقف آخر، فقد أمر بوجوب رجوع مارغريتا إلى زوجها، ما دام من غير المعقول أن تخون المرأة زوجها الذي ينتمي لأسرة ميديتشي. وينتفي، عند ذلك، أي سبب لاحتجاز بيكو الذي سيفرج عنه بعد ذلك. وقد أُلقيت مسؤوليّة هذا الأمر كاملة على عاتق سكرتير بيكو، الذي بقي مصيره مجهولاً.

ويبدو أن الدائرة الثقافية في قصر ميديتشي قَدْ نظرت إلى الأَمر برمته بوصفه ضرباً من الطرفة التي خلَّدها فيتشينو حين كتب قصة أسطوريَّة شعريَّة شُبهت فيها قصة بيكو الغراميَّة بمشهد أسطوري كلاسيكي اغتصبت فيه إحدى الحوريَّات من جانب الآلهة.

بيد أنَّ حراجة هذا الموقف، الذي تسبَّب به بيكو لصديقه لورينزو، تُعدُّ أمراً لا يُذْكر مقارنة بما ستأتي به مخبّآت الأيام، ولن يكون مناسبة للتفكُّه بالنسبة إلى لورينزو أو النخبة المثقفة في قصر ميديتشي، ولن نبالغ إذا قلنا إن الأحداث القادمة في حياة بيكو ستلعب دوراً فاعلاً في تحول المناخ الفكري لعصر النهضة، وستفضي، لاحقاً، إلى أفوله في مدينة فلورنسا.

(5)
التحدّي الذي جاء به بيكو

بلغت توفيقيّة بيكو، وطموحاته الفكريّة غير المطروقة، أوجها الآن؛ ممثّلة بـ 900 أطروحة، زعم أنّها تناولت أسئلة الفلسفة واللاهوت كافّة، وأجابت عنها، وقد أُخذت هذه من المصادر المصريّة القديمة، واليونانيّة، واللاتينيّة والعبريّة، وقُصِدَ منها أن تقوم بوصفها بدهيات مركزيّة لمعرفة كونيّة جديدة، ومنظومة تشتمل على حقيقة المعتقدات جميعها، وما كان لذلك سوى غاية واحدة، هي أن تمثّل تلك المنظومة أساساً لدين واحد حقيقي، لا غير.

وتضمنت أُطروحات بيكو التسعمئة استبصارات عظيمة حول الحالة البشريّة، وهي ماتزال تحتفظ بأهمية حتى الوقت الحاضر. ولنأخذ، مثلاً، توكيده الآتي: «لما لم تكن آراء المرء مثلما يريدُ لها، تماماً، أن تكون، فإن معتقداته ليست، بالضرورة، مثلما يريد لها، تماماً، أن تكون». والمقصود هنا أن عناصر معتقداتنا العميقة لا تنشأ من عقلنا الواعي الإرادي. فلسنا، بعبارة أخرى، مجرد كائنات عاقلة. وسيتردّد صدى هذه الرؤية المتبصّرة، وما تستثيره من أسئلة، عبر القرون، محرزة علاقة دقيقة بكتابات فرويد حول اللاوعي في العصر الحديث، فضلاً عن صلتها بالمحاولات المعاصرة لتعريف الوعي، كما انطوت رسائل بيكو على بصائر استبقت عصرها، ومنها: «حين تقوم الروح بالفعل، فإنها لا تكون متيقنة من شيء غير ذاتها»، إذ تستبق

هذه الرؤية، بصورة باهرة، الخلاصة الشهيرة التي انتهى إليها الفيلسوف ديكارت عقب ذلك بقرن ونصف، وهي: «أنا أفكر إذاً أنا موجود»، التي رآها الكثيرون النقطة التي عيَّنت بداية الفلسفة الحديثة. ومما لا شك فيه، أن جماع مشروع بيكو يحمل، في أطوائه، شبهاً صارخاً، بالمقصد الذي هدفت إليه فلسفة ديكارت، وهو السعي إلى إقامة أساس متين تقوم عليه المعرفة البشريَّة، فضلاً عن السعي لتأسيس طريقة ملائمة للتفكير العلمي.

وقَدْ أظهرت أُطروحات بيكو التسعمئة، بطرق عديدة، محاولةَ عصر النهضة الأقرب لإنتاج فلسفة أصيلة، فمن الصحيح أن فن عصر النهضة، وادبه، وفكره، تحمل سمات النزعة الإنسانويَّة، غير أنها ليستْ فلسفةً محكمة بذاتها، وإنما موقف تخلل الفنون والعلوم الإنسانيَّة جميعها[1]. وإذا تناولنا الأمر من وجهة نظر فلسفيَّة، فقد كان عصر النهضة عصر إعادة اكتشاف المفكرين الكلاسيكيين من أمثال: أفلاطون، وأرسطو في بعض أعماله المنسيَّة، ولوكريتيوس، وأفلوطين، وأمثالهم، مما أيقظ حماسة جديدة لهذا الفكر العلماني. وربما حرَّر ذلك مفكري عصر النهضة من قيود السكولائيَّة الجافَّة والبالية، غير أنَّها غمرت، بذلك، مخيلتهم وأَصالتهم، إلى درجة جعلت إنتاجهم من الفكر الفلسفي متواضعاً.

وقد وصلت العديد من أعمال الفلاسفة القدماء إلى إيطاليا إبان سقوط القسطنطينيَّة عام 1453 تقريباً، وذلك حين أَنقذ العلماء الفارون، ما وسعهم، من المكتبات والأرشيفات الغنيَّة للإمبراطوريَّة البيزنطيَّة الموشكة على الأفول، بيد أنَّ هذه المكتبات احتوت، فيما احتوت، على المخطوطات

(1) يعود مصطلح «العلوم الإنسانية»، كما يتبدى في التصنيف الأكاديمي، إلى الأدب والمعرفة العلمانيين (أي البشريين)، ولاسيما الأدب الكلاسيكي والفلسفة الطبيعيَّة (أي العلم)، بما هما متمايزان عن مبحث الإلهيات الذي تناول بالدرس المعرفة الإلهيَّة أو اللاهوت.

ولفائف البردي القديمة، المتعلقة بالجانب الأكثر إظلاماً من التعليم والمعرفة البيزنطيين. ونعني تلك الأعمال التي تتناول الفنون الهرمسيَّة، والتنجيم، والخيمياء، والسحر وأشباهها، وستمثل هذه جانباً من العالم الذي سعت النزعة الإنسانيَّة المُحْدثة لفهمه. وقد كان الجانبان؛ المظلم والناصع، من الفكر البيزنطي، في واقع الحال، ممتزجين على نحو لا ينفصم. فكان علم الفلك مايزال مشوباً بـ«المعنى» الذي فرضه عليه مبحث التنجيم، في حين لم ينتج عن الخيمياء، بعدُ، علم الكيمياء المنقّى من محاولات تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب حقيقي أو روحي. وتأثَّر بيكو بهذه المصادر، وكان مفتوناً بالصوفيَّة اليهوديَّة المدعوة بـ «القبالة» كما صرَّح في أُطروحاته التسعمئة[1]:

«لن نعثر على علم يقدِّم دليلاً على ألوهيَّة المسيح مثل الممارسات القباليَّة والسحريَّة»، وإذا نظرنا إلى ذلك وفق رؤية ارتجاعيَّة، فإن من اليسير أن نُعيِّن، هنا، امتزاج، المقولات العقليَّة وتلك الميتافيزيقيَّة. وينهض هذا الأمر، في واقع الحال، مثالاً قوياً على التفكير المختلط، الذي استبق (وعاون على مجيء) عصر العقل. وفيما خصَّ هذا المثال المتعلِّق بأطروحات بيكو، فقد استُحضر «العلم» والدليل الإمبريقي، لا للبحث عن الحقيقة الفيزيقيَّة، وإنما لتقديم الدليل على الحقيقة الميتافيزيقيَّة، ممثلة بألوهيَّة المسيح. ويتبدى الخلط المفاهيمي أوضح حين لا يتوسَّل «العلم»؛ الذي يُعدُّ الأنسب لهذا البحث، طرق المنطق العلماني، وإنما الممارسات الباطنيَّة والسحريَّة. وسيتوجب على الفكر الغربي أن يمضي أكثر من قرنين من التطور قبل أن يتعلَّم كيف يفصل بين هذه الممارسات والمقولات المتناقضة.

وقد اقتادت محاولة بيكو الجريئة (وإن تكن مضلِّلة) في إدراج التفكير الباطني والهرمسي في بحثه عن الحقيقة الإلهيّة، صاحبَها إلى منطقة خطرة، وربما لم تنحرف أطروحاته الأخرى عن جادة العقيدة القويمة، لكنَّ تلك التي تستحضر الصوفيّة القباليّة كانت، دون ريب، هرطقيّة، وإن رفض بيكو أن يراها كذلك، ولا ندري هل تأتّي موقفه هذا عن سذاجة سياسيّة، أَو أن مردّه عجرفة عمياء. وتنعكس هذه الثقة المفرطة في عنوان فرعي أَلحقه بأطروحاته التسعمئة، وهو «نتائج». ويتضح من ذلك أن بيكو نظر إلى أطروحاته بوصفها نتائج حاسمة ونهائية، وليست مجرد اقتراحات أو افتراضات تجريبيّة كما يقضي بذلك التأويل الليبرالي[1] لكلمة «أُطروحة». وكان مستعداً أن يدافع عنها، بما هي نتائج لا أطروحات. فقرّر، مدفوعاً بهذه الرغبة، أن يرتحل إلى روما، حيث سينشر أطروحاته التسعمئة كي تحوز انتشاراً واسعاً في أوساط علماء عصره، الذين سَيُدعوْن للسفر إلى روما، على نفقة بيكو، ليعقد، إثر ذلك، مناظرة عامّة يتولّى فيها الدفاع عن أطروحاته التسعمئة تجاه الحجج المضادة. وانطلق بيكو في رحلته إلى روما في وقت ما من ربيع عام 1486 [2]. وقد استُقبل خبر وصوله المدينة الخالية بريبة عميقة من جانب الكنيسة، على الرغم من إعلانه: أنه لن يقول بصحة شيء لا توافق عليه الكنيسة الكاثولوكيّة وراعيها إينوسنت الثامن[2]. وقام بيكو بتوزيع

(1) النسبة في «ليبرالي» هنا تعود إلى الفنون الليبراليّة التي تطوّر عبرها التفكير العقلاني، ومنها: الأدب، والفلسفة، والتاريخ، واللغة. ومثّلت الفنون الليبراليّة السبعة في جامعات القرون الوسطى العلوم التالية: النحو، والبلاغة، والمنطق، والحساب، والهندسة الرياضيّة، والموسيقى، وعلم الفلك. (المترجم).

(2) يزعم عدد من المصادر أن حادثة العشق في أريزو جرت عندما كان متوجهاً إلى روما. وسيتضح أن تاريخ هذه الحادثة وتاريخ ارتحاله إلى روما متقاربان.

النسخ على نحو وافٍ، وزعم في رسالة بعث بها إلى صديق له في نوفمبر من عام 1486 أن نُسخ (أُطروحاته التسعمئة) باتت «معروضة للجميع في جامعات إيطاليا كافّة»[3]، غير أن الأخبار المتعلقة بالطبيعة الخلافيّة لعمله ما لبثت أنْ وصلت الفاتيكان. فإذا كان البابا رجلاً مرتشياً، فإنه ليس غافلاً عن سلطة الكنيسة، وتبدّى سلوك بيكو تحدياً صريحاً لهذه السلطة. فعمد البابا إلى حظر مناظرة بيكو المزمعة، وشكّل لجنة من الكاردينالات واللاهوتيين لفحص أطروحات بيكو فحصاً استقصائياً، وقرّرت الأخيرة أن أطروحات بيكو تنطوي على مواد ذات طبيعة: «هرطقيّة وطائشة»، ومن المرجح أنها تجلب العار على «الإنسان المؤمن»[4]، معلنة أن ما لا يقل عن ثلاث عشرة أطروحة من أطروحات بيكو غير مقبولة بصورة صريحة. فأعدَّ البابا إينوسنت الثامن، في الرابع من أغسطس لعام 1487، رسالة بابوية تدين، على وجه الخصوص، عمل بيكو.

مهما يكن من أمر، فقد أعوزت الإدارة الكنسية الحيويّة المطلوبة، ولم تنشر الرسالة البابويّة إلا في ديسمبر من العام نفسه، وعزم بيكو، لدى قراءته الرسالة البابويّة، على الدفاع عن نفسه، وزعم، في حُمّى شعور ثأري، أنه كتب، في عشرين ليلة[5]، دفاعاً «Apologia» عن أُطروحاته التي أهداها للورينزو العظيم، وقد نشرها في الأراضي النابوليّة المجاورة، التي تقع خارج نطاق سلطة البابا. وأرَّخها في مايو من عام 1487، أي في تاريخ سابق على صدور الرسالة البابويّة، وذلك كي يعطي انطباعاً أنه لم يقصد معارضة الرسالة البابويّة. وكان جوهر «الدفاع» قد قُيِّد، سابقاً، في مقدمة مقترحة لـ«أطروحاته التسعمئة»، ثم نُشر مستقلاً، في مرحلة لاحقة، حاملاً عنوان «كرامة الإنسان»، ذلك العمل الذي يُعدُّ، الآن، من أكثر صيغ

النزعة الإنسانيّة وضوحاً في عصر النهضة، وهي الصيغة الأقرب التي وصل إليها ذلك العصر في مسعاه نحو فلسفة أصيلة، وقَدْ عقد «كرامة الإنسان» مشابهة بين حال البشر وحالة آدم، فصاغ رواية عن أُسطورة خلق الإنسان خاطب فيها الربُّ آدمَ قائلاً:

«أي آدم، إننا لم نمنحك مسكناً ثابتاً، ولا طبيعة داخليّة متشكلة، ولا موهبة تختصُّ بك. ولقد فعلنا ذلك كي تتخذ لنفسك المسكن الذي تشاء، والطبيعة أو المواهب التي تريد. أمّا المخلوقات الأُخرى فإنا حصرناها داخل قوانين الطبيعة التي وضعناها، ولم نقيّدك بهذه الحدود كي تمارس الحريّة التي أسبغناها عليك، وحتى لا يتأطر الفن بتلك الحدود، وحتّى تضع حدود طبيعتك بنفسك. ولقد أَقمتك في مركز العالم حتى تتمكن من رؤية ما حولك جيداً، وترى ما شئت من العالم. وإذا لم نَجعلكَ فانياً ولا خالداً، فلعلّك تكوّن نفسك تبعاً للشكل الذي تتخيّره، ولا يمكنك أن ترتدَّ إلى أسفل سافلين وتتخذ الطبيعة الدُّنيا للبهائم، أو أن تتسامى بروحك متوسلاً الطرق العقليّة، فتبلغ الممالك العليا للإلهي»[6].

وتبدو هذه الأفكار الوجدانيّة، إذا نحّينا استخدام بيكو اللغة الكتابيّة (المتعلقة بالعهدين القديم والجديد)، محتفظة بجدَّتها كما كانت منذ خمسة قرون خَلَتْ، بيد أن هذه الحريّة الوجوديّة مثّلت لعنة بالنسبة إلى الكنيسة، فما من مكان للرب –وفقها– في هذا العالم. وما نفع الصلاة إذا أتاحَ الشرط الإنساني للبشرية خلق نفسها على الصورة التي تختارها، وأين تقع سلطة الكنيسة؟ ولم يَرْقَ إلى ذهن بيكو أنه يعارض، جوهرياً، تعاليم الكنيسة، إلا حين استوطن روما، فليست هذه فلورنسا اللينة التي لا تعرف التعنت،

حيث لم يشعر بالاغتراب وسط مثقفي قصر ميديتشي النابهين والموهوبين. أما هنا فإنه كان في أراضي الكنيسة، حيث يقيم في معقل العالم المسيحي.

ورأى بيكو، بعد أن أصدر «الدفاع»، الذي أكّد أفكاره الهرطقيّة، أن من الحكمة أن يخرج، خلسةً، من روما ويفرّ إلى فرنسا، فطالب البابا، إذ ذاك، باعتقاله. وما لبثت الأنباء أن وصلت الأراضي الفرنسيّة، حيث احتجزته السلطات الفرنسيّة، وألقت به في السجن. ولما كان بيكو قد أهدى كتابه؛ الدّفاع، إلى لورينزو، فقد بات الأخير في وضع حرج، وليس من الواضح أن بيكو قد سعى إلى الحصول على إذن بخصوص هذا الإهداء. لكن ذلك كان، من جهة ثانية، غير بعيد عن لورينزو ودائرته الثقافيّة، الذين لم يلهموا عمل بيكو، فحسب، وإنما جسدوا كثيراً مما دافع عنه. وليس الأمر، في هذا المقام، متعلقاً بما رآه لورينزو، بصورة شخصيّة، في عمل بيكو؛ الدفاع، ذلك أن تجاوز الأخير، هذه المرة، لم يكن هفوة عابرة يمكن الصفح عنها بتعقّل، فتداعياتها تخطت الأراضي الفلورنسيّة.

ومن طلائع سعد لورينزو أن مسلكياته الدبلوماسيّة، لم تجعله صديقاً مقرّباً للبابا إينوسنت الثامن فحسب، وإنما حظيت باحترام آن؛ الوصيّة على العرش الفرنسي، التي رأتها في صالح الملك اليافع؛ شارل الثامن. وقد غامر لورينزو بمكانته بصورة ما، حين تشفّع لبيكو مُطالباً بتحريره من السجن، فنزل البابا عند رغبة لورينزو العظيم، في حين أَمرت الوصيّة على العرش الفرنسي بتحرير بيكو من السجن، وسمح له بالسفر إلى فلورنسا حيث وضع تحت سلطان لورينزو في فيلا جعلت له، في فيزولي، بعيداً، في الجبال الواقعة شمالي فلورنسا. غير أن تهمة الهرقطة لم تُسقط عن بيكو، ولما كان من شأن هذا المُنلقب أن يؤدّب بيكو، مشفوعاً بإدراكه العميق لما يحفّ

بهذه الحالة من خطر (كان الهراطقة معرضون للحرق على الخازوق)، فإنه آلى على نفسه أن يكرّس جهده لاتباع الطريق الأقوم في بحثه عن الحقيقة.

وقَدْ سرَّ ذلك لورينزو، الذي غدا، وقتها، أكثر نزوعاً نحو الدين؛ ذلك التحول الذي أسهمت به عوامل عدَّة. فعلى الرغم من أن لورينزو لم يبلغ بعد سن الأربعين، فإن بلاء الأسرة قد بدأ يفتك، على نحو متزايد، بجسده، وربما لم يكن ما عاناه من مرض النقرس معوِّقاً مثل ذلك الذي ألمَّ بأبيه من قبل، غير أنه عرف أياماً أقعده فيها ألم المفاصل الشديد في فراشه. وكما كتب في رسالته، بتاريخ نوفمبر من عام 1484، يشرحُ فيها تأخره في الرد، قائلاً: «لقد أعاقني الألم عن الرد، صحيح أن اللسان والقدم متباعدان، غير أنهما يتداخلان»، وقد تحوّلت أشعاره حينئذ إلى التساؤلات الدينيّة، نقرأ:

«حين تفرُّ الروح من بحر العواصف والكفاح
هذه هي حياتنا، وحين تعثر على مرفأ هادئ تغمره السكينة
نلفي أنفسنا وقد انتهبتنا الشكوك التي نسعى إلى حلها
إن كان المرء عاجزاً عن السعي الحثيث وراء السعادة الأبديَّة،
إلا إذا تغمدته رحمة الرَّب؛
الرحمة التي لا تمنح إلا لمن تأهَّب وقال لها أقبلي
فما الذي يتوجب ان يأتي أولاً
رحمة الرب،
أم تأهُّبنا؟»[7]

وقد امتدت يد المنون لتخطف زوجته؛ كلاريس، في أغسطس من عام

1488، وكان النقرس قد فتك بجسد لورينزو، على نحو منذر بالشؤم، فمنعه من حضوره الجنازة. وعلى الرغم من أن لورينزو لم يكن مخلصاً، لزوجته، فإنه كان قريباً منها، وذلك لما أشاعته من استقرار عائلي وسط مكائد السياسة والإثارة الفكريَّة التي وسمت قصر ميديتشي. وتجلّى شعوره العميق تجاهها حين شجر خلاف بينها وبين صديقه الأثير؛ بوليتسيانو، الذي لعب دوراً محورياً في نشاطات لورينزو اللامنهجيَّة؛ الثقافية منها والغراميَّة. فلم يتردد لورينزو في الانحياز إلى صف زوجته، وحُثَّ بوليتسيانو على أن يُسكِّن مزاجه المُستثار في المنفى لفترة من الزمن في بلدة مانتوا القريبة، ولم يُسمح له بالعودة إلا بعد سنة حين تعلَّم الدرس، فقد احتلت الأسرة لدى لورينزو أهميَّة لا تضاهيها أهميَّة، وكان عازماً على فعل كل ما وسعه لضمان الإرث الميديتشي. ولقَدْ حقَّق منجزاً عظيماً لتأمين إرث عائلة ميديتشي السُّلطوي في فلورنسا حين زوَّج ابنه الأكبر؛ بييرو، من ألفونسينا أورزيني، التي كانت تعيش في كنف فيرانتي؛ ملك نابولي، ضامناً، بذلك، دعم حلفاء أقوياء لعملية انتقال السلطة. أما ما يتعلق بابنه الموهوب؛ جيوفاني، فإنَّه مضى قدماً في حملته لتأمين مركز قوي لأسرة ميديتشي داخل الهيراركيَّة الكنسيَّة. وكان جيوفاني قد بلغ، حينئذ، الثالثة عشرة من عمره، ولم يعد مجرد أسقفٍ لـ «أريزو»، فقد نجح لورينزو، آخر الأَمر، في إقناع الملك الفرنسي لتعيين جيوفاني رئيساً لأساقفة بلدة إكس إين بروفانس، وهو منصب مرموق. كما اشترى له رئاسة دير مونتي كاسينو؛ المُدّر للربح الوفير، وذلك بعد أَن تفضَّل ملك نابولي وسمح له بذلك. ولم يقف لورينزو عند ذلك الحد، فقد اشترى لجيوفاني؛ بإذن من حاكم ميلان؛ لودفيكو «إل مورو» سفورزا، المنصب المرموق في رئاسة دير ميروموندا. وهكذا، فلم يكن لورينزو فيما فعله

يؤمّن لجيوفاني أعلى المراكز في السلّم الهرمي للكنسية فحسب، وإنما يعزّز تحالفات فلورنسا الحيويّة والحمائيّة مع كل من نابولي وميلان.

وقَدْ كلّف شراء هذه المناصب الكنسيّة لورينزو مبالغ طائلة، وما من شك أن الحصة الكبرى «اقتطعت» من خزينة فلورنسا بمساعدة أنطونيو ميناياتي؛ التابع الأمين لأسرة ميديتشي في الدائرة الماليّة. بيد أن لورينزو أدرك أن هذه المناصب ستظلُّ تُمدُّ جيوفاني بدخل وفير حتى وإن فقدت أسرة ميديتشي تحكُّمها بالخزينة الفلورنسيّة. لكن ذلك كله لم يكن كافياً، فمضى لورينزو في ممارسة ضغوطه على البابا إينوسنت الثامن كي يرسّم جيوفاني كاردينالاً، إذ يجب عدم التفريط بالوقت، فقد كان البابا قد بلغ السادسة والخمسين، وسرت الشائعات حول ما يظهر على البابا من علامات السقم، وإن مات الأخير، فلن يكون خَلفَه ملزماً بالنظر إلى جيوفاني، بوصفه مرشحاً ملائماً لمجمع الكرادلة.

لقد عمد لورينزو، مدفوعاً بهذه السياسة الثابتة، إلى تزويج ابنته ذات الأربعة عشر ربيعاً، من فرانتسيتو؛ الابن الأكبر للبابا، عام 1488. وكان الأخير رجلاً أربعينياً مقامراً ومنحلاً أخلاقياً. وكان سَرَفُ البابا وتبذيره قد أفضيا به، قريباً من ذلك العهد، إلى الإفلاس المؤقت، فالتجأ إلى لورينزو العظيم كي يقرضه 30000 فلورين، وارتكب لورينزو مجازفة كبيرة، آمراً ميناياتي أن يختلس مبلغاً من الخزينة الفلورنسيّة، ويحوله إلى بنك ميديتشي، كي يصار إلى تحويله إلى روما. وعادَ من غير السهل، إذّاك، التعمية على ما يحدث لأموال دافع الضرائب، وبدأ كثيرٌ من الناس يرتابون بأعمال ميناياتي.

وقد رَضخَ البابا إينوسنت الثامن آخر الأمر، وأُضيف اسم جيوفاني إلى قائمة الكرادلة في مارس من عام 1489، غير أن البابا نفسه كان مدركاً أن

الناس لا بُدَّ وأن ينظروا إلى هذا التعيين بوصفه فضيحة، فآلى على لورينزو أن يقسم، تحت طائلة الحرم الكنسي، ألا يُعلن عن هذا الأمر قبل أن تمضي ثلاث سنين، ولن تُثبَّت ترقية جيوفاني حتى ذلك الحين. وقد كتب لورينزو إلى سفير فلورنسا في روما معرباً عن ابتهاجه: «هذا أعظم شرف حدث لأسرتنا». وعلى الرغم من ذلك، فإن كردينالية جيوفاني بقيت معلقة بيد القدر، فقد وصلت الأخبار من روما إلى فلورنسا معلنة أن البابا إينوسنت الثامن البدين قد تعرَّض لنوبة سكتيَّة (apoplectic fit). وإذا اتفق أن ماتَ البابا قبل التثبيت الرسمي لجيوفاني بوصفه كاردينالاً، فإن كل شيء سيذهب أدراج الرياح، لكنه، لحسن الحظ، تعافى، من نوبته. وقد حرص لورينزو، الذي عركته الأيام، أن يبقى على اتصال وثيق بالبابا، وظلّ يراسل روما بصورة منتظمة.

وقد بعث لورينزو برسالة إلى سفير فلورنسا لدى البلاط البابوي في وقت مبكر من عام 1490، وضمنها جملة من الأخبار التي توقَّع أن تصل إلى البابا إينوسنت الثامن، وجاء فيها:

> «ها هو الكونت ديلّا ميراندولا (بيكو) يحيا هنا حياة القديسين المتنسّكين فيصوم يومه، ويسلك طريق الطهارة المطلقة. وليس لديه إلا قليل من الخدم، ويعيش متقشفاً، على الضروري من الأشياء. ويبدو لي قدوة لغيره من الرجال، وهو متشوق إلى أن يُحلَّ من ذلك العصيان البسيط الذي مازال ينسب إليه من جانب قداسة البابا، ويتطلَّع إلى الحصول على رسالة بابوية يعلن فيها قداسة البابا قبوله ابناً ومسيحيّاً صالحاً... ابذل وسعك للحصول على هذه الرسالة تبعاً للصيغة المذكورة، فلعلها تريحُ ضميره»[9].

غير أن البابا لم يرقَّ لحاله، بل إنّ لورينزو نفسه أصبح، في أعقاب فضيحة

بيكو، قلقاً حيال سلامة عقيدته، وخشي أن تكون النخبة من المثقفين المحيطين به قد أخذت باعتناق أفكار هرطقيّة، إذ إن أفلاطونيّة فيتشينو وتأويلات بوليتسيانو الوثنيّة للوحات بوتيتشيلي بدأت تثيرُ مزيداً من الريبة. وأخذ لورينزو يرى نفسه مسؤولاً عن حالة التسيب، التي بدأت تسود إزاء الدين في المجتمع الفلورنسي، وهي حالة أوقدتها المهرجانات المرحة والمتحلّلة، التي أقامها لهم، فبدأت هذه الأمور تعصف بذهنه.

وثمة أمر آخر يتعلق بتعليم جيوفاني. فإذا أراد هذا الأخير أن يضطلع بدوره في الكنيسة، كما ينبغي، فسيتوجب عليه، الآن، أن يكون ملماً باللاهوت التقليدي القديم، لا ذلك اللاهوت الذي شاع في جنبات قصر ميديتشي وسط مدرّسيه من أمثال فيتشينو وبوليتسيانو.

وقد أبلغ لورينزو روما بهذا الأمر، طالباً نُصحَ البابا في هذا الشأن، ومستفهماً منه، قائلاً: إنني أتمنّى على قداستكم أن تُعلموني على أي نحو يتوجب أن تكون الحياة المستقبلية للسيد الفاضل جيوفاني[10]، كما ناقش لورينزو هذا الأمر مع بيكو أيضاً، لكن الأخير لم يكن مؤهلاً لإبداء النصح، فقد كان هو، نفسه، يرنو إلى الكنيسة مسترشداً، وكان متعطشاً للحصول على العفو الذي تمسّك البابا بمنعه. لكن لورينزو ما انفكَّ يلحُّ عليه بالسؤال؛ كيف أفعل؟ فلم يدر بخلد بيكو، في حميا يأسه، سوى رجل واحد، وهو سافونارولا، الذي أثار تبحرُّه المعرفي وروحانيته إعجاب بيكو كما لم يفعل الآخرون؛ ذاك هو الرجل القادر على حل مشاكل لورينزو، فهو سليم العقيدة، مما يجعله، يقيناً، الرجل الذي سيغرس الروح الدينية في فلورنسا. وقد اقتنع لورينزو العظيم، في الحال، بحجة بيكو إلى درجة أنه فوّض إليه الأمر كله، قائلاً له: «كن على يقين بأني راغب في تكليفك،

بصدق وإخلاص، بهذا الأمر. وهكذا، ستكتب، سيادتكم، رسالة بأي صيغة تريدها، ثم ينسخها مستشاري ويدمغها بخاتمنا»[11]. وقَدْ أرسلت الرسالة التي تستدعي سافونارولا إلى دير سان ماركو، كما ينبغي، إلى النائب الأسقفي العام في الرهبنة الدومينكيّة. وكان سافونارولا قد غادر فلورنسا قبل سنتين، وتوجّه إلى مدينة بولونيا ليشغل موقعه بوصفه أستاذاً لقسم الدراسات في مدرسته الأم «المدرسة العامة»، وسيبقى هناك عدة شهور، قبل أن يرجع إلى موقعه في بلدته فيرارا حيث اعتاد زيارة والدته، التي يبدو أن ما حدث بينهما من شقاق قد اندمل، غير أنَّ موقفه إزاء بقية العالم لم يلن، فما نزل عليه في فلورنسا من إلهام يعلمه «بما سيحلُّ بالكنيسة من قارعة وشيكة»[12]، وما تلا ذلك من عظات الصوم الكبير التي ألقاها في سان جيمنيانو، متنبئاً بهذه القارعة (لكنه أصرَّ في الوقت ذاته على أنّه «ليس» نبياً) قَدْ قَلبا كينونته. لكنَّا إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الملحوظات التي جاءت في عظاته اللاحقة، فإننا نلمس أنه بدأ يتلقّى إلماحات بأنه سَيُحمَّلُ رسالة عظيمة، وكان لزاماً عليه أن يؤديها.

ولم تمثِّل فيرارا، فيما يبدو، أكثر من قاعدة انطلاق لسافونارولا، كما جاء في ردِّه على رسالة من أمه، فقد أمضى نحواً من السنتين مترحلاً من مدينة إلى أخرى على امتداد المكان كلِّه[13]. وكان سافونارولا، حينئذ، يقوم بوظيفته الموكلة إليه بوصفه راهباً في سلك الرهبنة الدومينكية التبشيريّة. ومن المعروف أنه ألقى العظات في أنحاء كثيرة من منطقة لومبارديا وشمالي إيطاليا، مرتحلاً إلى أقصى الأماكن مثل بريشيا وبياتشينزا، حتى جنوا التي تبعد 150 ميلاً، فضلاً عما يقتضيه الارتحال إلى هذه المدينة من اجتياز جبال الأبنيني التي يتجاوز ارتفاع ذراها في تلك المنطقة 6000 قدم. ومن المعروف

عن سافونارولا أنه كان يسافرُ، دائماً، على قدميه، ويرفض استخدام وسائل الراحة النسبيَّة، كأن يتخذ بغلاً أو حماراً تبعاً للحقوق الممنوحة له. وربما واءم السير الطويل، بصندل جلدي، في الظروف الجويَّة جميعها، الطبيعة التقشفيَّة لسافونارولا. ولكن كيف كان ذلك يُحقِّق الشعور المتنامي بالمصير الذي كان يستشعره في دخيلته؟ سيدَّعي سافونارولا، في مرحلة لاحقة، أنه استمرَّ في الوعظ، في تلك الفترة، بالأسلوب النبوي المثير الذي اختبره، أول مرة، في سان جيميانو، مستخدماً، في الغالب الأعم، موضوعات العهد القديم، «فقد ألقيت عظاتي بهذه الطريقة في غير مكان من لومباردي، متناولاً الموضوعات ذاتها مراراً وتكراراً»[14]. وقد ذهب، في رسالة بعث بها لأمه، أبعد من ذلك، زاعماً أن عظاته كانت شديدة التأثير إلى درجة أنَّه حين «همَّ بالمغادرة كانت أعين الرجال والنساء على السَّواء تفيض من الدمع، كما أنهم أولوا قيمة عليا لما كنت أقوله لهم»[15]. وعلى الرغم من أن الإخباريين، في المدن التي زارها، درجوا إذَّاك على تدوين كل ما يندُّ عن المألوف، بدءاً من حفلات زفاف العائلة الحاكمة إلى الإشاعات البسيطة، فإننا لا نقع على ذكر العظات المثيرة التي كان يلقيها سافونارولا. ويعود ذلك، ربما، لأنه لم يمكث في بقعة بعينها، فيمكِّنه ذلك من غرس رسالته، وخلق مريدين مخلصين. أما المصدر الوحيد الذي يدعم رواية سافونارولا فقد جاء من معاصره، وكاتب سيرته الأول؛ باسيفيكو بورلاماكي، الذي استقى معلوماته من سافونارولا نفسه، فضلاً عن القريبين من الأخير. ويعود باسيفيكو إلى مناسبة بعينها في بريشيا حين ألقى عظة القدوم في عيد القديس أندراوس الموافق لـ 30 من نوفمبر 1489. وإذ اتخذ من سفر الرؤيا موضوعاً لعظته، فإنَّه ألقى عظة نبوئيَّة تحدَّث خلالها، بصوت راعد، موبخاً

الناس بسبب ما قارفوه من آثام، ومندداً بإيطاليا جميعها، ومتوعداً الأمة جمعاء بغضب الربِّ[16]. وقد رجع، في ثنايا عظته، إلى الشيوخ الأربعة والعشرين[17] في سفر الرؤيا، الحافِّين من حول العرش، والمتسربلين، كما يصفهم الكتاب المُقدَّس، بثياب بيض، وتعلو رؤوسهم أكاليل من ذهب.

وروى سافونارولا كيف أنه رأى في المنام واحداً من هؤلاء الشيوخ يُبعث ليتنبأ بأنّ أهل بريشيا:

«سيقعون فريسة أعداء متميزين من الغيظ، وسيرون أنهاراً من الدم تغمر الشوراع، وسَتُنتزع النساء من أزواجهنّ، وستغتصب العذارى، وسيقتّل الأطفال على مرأى من أمهاتهم، وسيعم الإرهاب، والحرائق، وسفك الدماء». وختم سافوناورلا، الذي كان يقف على منبر الوعظ مشرفاً على وجوه المصلين الذاهلة، عظته بـ: «دعوة تحذيريّة بالتوبة، ذلك أن الرب لا يمنح رحمته إلا لمن يستحقها»، وسيذكر أهل بريشيا كلمات سافوناورلا حين نُهبت مدينتهم، بعد ذلك بثلاث وعشرين سنة، على يد الجيش الفرنسي، وذُبِحَ زهاء عشرة آلاف من أبنائها وسط مناظر تشبه الوحشية الشنيعة التي ذكرها سافوناورلا[1]. وقد مكنت أسفار سافوناورلا في شمال إيطاليا الأخيرَ من شحذ مهاراته الوعظيّة، غير أن أمه بدأت تكابد الآلام بسبب غيابه المتكرر عن فيرارا، وكتبت إليه تعلمه بذلك، فأجاب سافوناورلا على واحدة من رسائلها، قائلاً: «ينبغي ألا تستشعري الحزن لغيابي... لأني أقوم بكل ذلك لصالح أنفس كثيرة... مبشّراً، ونذيراً، ومصغياً

(1) كانت السنوات اللاحقة على نبوءة سافوناورلا القيامئة سنوات هرج ومرج في إيطاليا، وقد تحققت هذه النبوءة في كثير من مدن إيطاليا الشماليّة المحاذية لبريشيا.

للاعترافات، وقارئاً، وناصحاً. وهكذا، فإني لا أكفُّ عن الارتحال من مكان إلى آخر، نزولاً عند رغبة من هم أعلى مني رتبة. ويجب أن تَقرّي عيناً، يا أمي، لأن الرّب اختار واحداً من بنيك ليتولّى هذا العمل، ولو بقيت في فيرارا لما تمكنت من الاضطلاع بهذا العمل الصالح، إذ قلّما تثمر دعوة الرجل الورع في وطنه. ولهذا، تخبرنا الأناجيل، مراراً وتكراراً، بوجوب مغادرة أوطاننا، ذلك أن عظة ابن البلد ونصحه لا تقدَّران مثلما تقدَّر عظات الغريب الطارئ. ألا ترين ما يقوله مُخلّصنا من ألا كرامة لنبي في وطنه. أماه، لما تلطّف الرب فانتشلني من ذنوبي وجعلني في هذا الموقع الرَّفيع، فإنه ينبغي لك أن تكوني مطمئنة البال، لأني أكدح في كرْم المسيح في منتآي عن وطني»[18].

ويتبيَّن من كلماته هذه أنَّ شعوره بمصيره، بوصفه نبياً، قد استقر في ذهنه واستحكم في هذه المرحلة من حياته، حتى إنَّه غدا في المركز من شعوره بهويته. وقد بلغته الأنباء، في تلك الأثناء بوجوب أن يعود إلى فلورنسا، حيث أمر أنْ يقيمَ هناك بصفة مدرس في دير سان ماركو القديم. وهكذا، فقد امتلك، أخيراً، مُستقراً أكثر ديمومة، ورعايا دائمين، يستطيع، الآن، أن يمارس عليهم سلطاته التي يمتدُّ أثرها زمناً طويلاً إلى حد ما. ونحن نعرف أنَّ سافونارولا انطلق، في يوم من أواخر أيام مارس عام 1490، من بولونيا في رحلة تمتد إلى خمسين ميلاً جنوباً على طول وادي سافينا باتجاه الممر الذي يخترق جبال أبينيني إلى فلورنسا.

ويروي كاتب سيرته؛ بورلاماكي، قصة دالة، تقول: ما كاد سافونارولا يبلغ قرية بيانورو، التي تبعد نحواً من عشرة أميال، حتى غلبه الإنهاك

والإعياء. فعلى الرغم من ملامحه الفتيّة والجادّة، فإن سافوناورلا لم يعد شاباً كما كان من قبل، فقد شارف، في واقع الحال، على الأربعين (ويُعدُّ هذا العمر مرحلة متقدمة من الاكتهال، في زمن تثبت فيه سجلات الدير أنَّ الراهب كان يُعدُّ محظوظاً إذا تجاوز الخمسين من عمره) لكنه أبى، بعناده، أن يفارق نمطه التقشفي في الحياة، حتى لدى ترحاله. وهكذا، فقد أظهرت حميته الشديدة أنها غير ملائمة لاجتياز المسار الطويل عبر جبال أبنيني، فسقط في آخر الأمر، مغشياً عليه على قارعة الطريق. وقدْ عَثَر على الراهب، الذي لم يكن يملك سوى كتاب الصلاة ونسخة الكتاب المقدس البالية التي ورثها عن جده ميشيلي، مسافرٌ مجهول، فأعطاه بعض الطعام والشراب. وأمضى سافوناورلا ليلته تلك مرتاحاً في خان قائم على جانب الطريق، واستأنف المسير في اليوم التالي، يصحبه ذلك الرجل الغريب الطيّب. ولاحت لهما، بعد مسير طويل، قبة المدينة، وأبراجها من وراء أسوارها. ولازمه المسافر الغريب حتى بوابة سان غاللو، حيث ودّعه هناك، ودعاه: «أن يذهب مُلبّياً ما اختاره الرب له»[19]. ولم يكتشف سافوناورلا اسم ذلك السامري الصالح أبداً، غير أنه لن ينسى إحسانه وبركته طوال حياته.

وتنطوي هذه الحكاية على المقوّمات الأسطوريّة جميعها، لكنها قد تحوي بذرة حقيقيّة. فلا ريب أنها تمتلك صِحّة نفسيّة، فنحن نعرف من التصريحات التي جاءت في عظاته المتأخرة أنه شعر بأن الرب هو من قاده إلى فلورنسا، حتى يكون بمقدوره مباشرة حياة جديدة، تحقّقٌ المصير الذي كان سافوناورلا متيقناً بأنه يندا أمامه وقتها.

(6)
عودة سافونارولا

شغل سافونارولا موقعه مدرساً في دير سان ماركو في وقت ما من أوائل يونيو عام 1490، ملقياً محاضراته في المنطق على طلبته من الرهبان المبتدئين وغيرهم من أعضاء الدير. لكنه، تولى، أيضاً، إعطاء محاضرات إضافيَّة في أيَّام الآحاد بعد صلاة الغروب، وذلك في حديقة الدير تحت شجرة ورديَّة ضاربة إلى اللون الرمادي. وقد بدأ في هذه المحاضرات العامَّة الحميميَّة، التي كان يلقيها على مسامع إخوته الرهبان، بتفسير فقرات من الكتاب المقدَّس، متخذاً أسلوباً هادئاً وعاطفياً طالما اجتذب سامعيه خلال الجلسات التعليميَّة ذات الطابع الشخصي. وقد اجتمع جمال الحدائق في تلك المساءات الصيفيَّة الطويلة مع الأجواء الروحيَّة الطاغيَّة، لتجتذب، في زمن وجيز، جمهوراً متديِّناً من خارج الدير. كما دأب بيكو ديلا ميراندولا، المتشوّق لتلقي التعاليم الدينيَّة من سافونارولا، على زيارة الأخير في صومعته. وقد اعترف سافونارولا، لاحقاً، بأنه سعى جاهداً، خلال لقاءاتهما السابقة، ليصرف بيكو عن تطلُّعه لخلق فلسفة عامَّة، وقد حاول، ما وسعه ذلك، إقناعه باتباع ندائه الحقيقي، وأن يكرِّس حياته، دون إبطاء، للمسيحيَّة، والرب الواحد الحق، وكذا حذَّره سافونارولا، قائلاً: «وأنذرته لتأخره هذا، منبهاً إياه... أنه سيعاقب إذا تخلَّف عن الهدف الذي وضعه الرب

في عقله. ولقد صليتُ أنا بنفسي للرب (لن أكذب في هذا الصدد) علّه يلين بعض الشيء، وذلك لإرغامه على اتخاذ الطريق الذي أراه إياه الرّب من علٍ»[1].

وقد «لان بيكو بعض الشيء»، حينئذ، وغدا رجلاً آخر، فقد وهب فيلته، ومنزله القريب من ميراندولا إلى قريبه جيانفرانشيسكو، الذي سيرد له الجميل، لاحقاً، فيضع عنه أول، سيرة غيريّة. وجاء فيها ما عنّ لبيكو في صيف عام 1490 أن يحذو حذو القديس فرانسيس الأسيزي، فسار حافي القدمين على طول المدن والبلدات الإيطاليّة، واستعدّ للانضمام إلى سلك الرهبنة مثل سافونارولا، وتكريس حياته للتّبشير، لكنه لم يكن قادراً، حتى تلك اللحظة، على نبذ العالم كلّية على الرغم من إلحاح سافونارولا المتكرّر.

تشير كل الدلائل أن سافونارولا وبيكو أمضيا الساعات في الجدال الفلسفي. وعلى الرغم من أن سافونارولا سعى، دون شك، إلى التأثير في بيكو، فإن ثمّة دلائل، تشيرُ إلى انّ بيكو قد أثّر، بدوره، في سافونارولا في سياق نقاشاتهما الفلسفيّة. وكان سافونارولا منهمكاً، في تلك الأثناء، بمحاضراته حول المنطق. وقَدْ خطرت له، فكرة «تقسيم العلوم جميعها»[2]. وكان في ذلك، يقترب أكثر ما يكون من تقديم أساس فلسفي خالص لمعتقده. وقسّم الفلسفة إلى قسمين؛ العقلاني والوضعي، واشتمل الأخير، الذي تضمّن ما هو حقيقي وعملي، على الأَخلاقي (علم الأخلاق، والاقتصاد(1)، والسياسة) والميكانيكي (الفنون). أما العقلاني، فإنّه ضمّ ما هو منطقي وتأملي. ويشتمل هذا الأخير على الفيزياء والرياضيات

(1) لم يكن الاقتصاد في حد ذاته قد تبلور كعلم، وغاية سافونارولا منه درس أثر الممارسات التجارية في المجتمع.

والميتافيزيقيا، وكانت الفيزياء ملازمة للمادة، واشتقت الرياضيات من المادة. أما الميتافيزيقيا فقد كانت متحررة من القيود، فكانت، بذلك، ملكة العلوم، تجدُّ لاكتشاف الحقيقة في أَسنى أَشكالها، فترتفع، إذاك، بالروح البشريَّة. وقد عنت الميتافيزيقا، تبعاً لسافوناررولا، اللاهوت، أي اللاهوت المسيحي المستمد من الكتاب المقدس.

ولم تكن فلسفة سافوناررولا فلسفة أصيلة أو واضحة، إذْ لم تكن الفلسفة مهمَّة في ذاتها بالنسبة إليه، لكنها أضاءت، دون شك، طبيعة معتقده. ولقد كان السعي الروحي للميتافيزيقا منفصلاً تماماً عن الأخلاق، والاقتصاد، والسياسة، غير أن هذا المبحث الأخير ينتمي إلى العالم الواقعي. وعليه، فلا يمكن تجاهله. وستنطوي عناية سافوناررولا بتلامذته وسامعيه، دائماً، على عنصر عاطفي عميق، إذ حتى وإن كانت رسالته ميتافيزيقيَّة؛ فإنها انطوت، كذلك، على جانب أخلاقي. وتكون بذلك منطوية على الآداب والاقتصاد والسياسة. ولم تكن هذه الموضوعات مفتوحة للنقاش الحر في تلك الفترة، فقد وضعت الكنيسة القانون الأخلاقي، ونظَّمت النقابات المتنفذةُ الحياة الاقتصاديَّة تنظيماً صارماً. أما السياسة فقد كانت من شأن الحكام، لكن سافوناررولا رآها مندرجة في فئة الأخلاق، واستتباعاً، فهي داخلة في حقل الجدل الفلسفي العملي. فإما أن يكون المجتمع الذي تنظمه الآداب والاقتصاد والسياسة مجتمعاً أخلاقياً أو لا شيء آخر على الإطلاق. وعليه، فقد كان المجتمع المعاصر في حاجة للتغيير. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الساعات الطوال التي أمضاها كل من سافوناررولا وبيكو في النقاش الفلسفي، غدا من المهم مقارنة أوجه الاختلاف لديهما. فقد أراد بيكو أن يبتني مبدأ فلسفياً—دينياً على 900 بدهيَّة أساسيَّة. وستنطوي هذه

الأخيرة على كل الأنظمة الاعتقاديّة وأنماط الفكر، لكنها سوف تستبقي وجهة نظر إنسانويّة في الأساس، فقد منحت الإنسانيّة الحريّة في اختيار ما تريد أن تكونه. غير أنها، من جديد، ستلحُّ على استخدام العقل لتحقيق «العوالم العليا للإلهي». في المقابل، كانت بدهيّات سافونارولا متضمنة في الكتاب المقدس، وليس إلا الايمان وحده (مسنوداً بعقل الميتافيزيقا؛ ملكة العلوم) هو ما يستطيع الارتقاء إلى ما هو إلهي. وإذ أقنع سافونارولا بيكو أن من الأجَدى له الانصراف عن أطروحاته التسعمئة، وعدم الارتكان إلى الحجج المستخلصة من الأديان جميعها، فقد أضحت الطريقة مشرعة أمامه لتبني نمط فكري تماثلي يستثمر الكتاب المقدّس والايمان. ولكن، على الرغم من أن بيكو اطُّرح فلسفته جانباً، فإنه لم يطُّرح قدراته الفكريّة. فربما أحاله الصدام المضني مع البابا إلى رجل آخر، لكنَّه لم يتركه منكسر الروح. فلم يفقد، قط، سجاياه الشخصيّة القويّة، أو قدرته المذهلة على التفكير المنطقي. ومازال بمقدوره أن يناقش في الفلسفة نظيره الفكري؛ سافونارولا. وقد سلّم له الأخير بهذا، على الرغم من أنّه لا ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال التي تُعجب بمثل هذه المزايا، لكن الراهب المتزهّد سيقول عن بيكو لدى وفاة الأخير: «لقد أسبغ الرب على هذا الرجل مواهب عظيمة، وأنعم عليه بصفات متفرّدة، مما يجعله خسارة لا تقدَّر للكنيسة»[3].

وقد ألقى سافونارولا أولى عظاته، بعد أن رجع إلى فلورنسا، في الأول من أغسطس عام 1490 في كنيسة سان ماركو، أي بعد مضي شهرين على وصوله. ويبدو أنه نال صيتاً شعبياً بسبب عظاته القياميّة (المستقاة من سفر الرؤيا)، التي ألقاها في شمال إيطاليا. وضمن له هذا، مشفوعاً مع تنامي عدد المستمعين لأحاديثه المسائية في حديقة الدير، عدداً مهولاً من الجمهور

في يوم الأحد ذاك. إذ روى بورلاماكي، الذي ربما كان شاهداً، أن بعض الحضور لم يجد ما يجلس عليه، في حين تعلّق آخرون بمشابك نوافذ الكنيسة الحديديّة، وقَدْ شخصت أعينهم إلى داخل الكنيسة. ولم يخيّب سافونارولا أفواج المستمعين الموجودين تحت اللوحات الجصيّة الدقيقة، والمتراصين في صحن الكنيسة الطويل، الذي جعل صوت سافونارولا يجلجل في جنباته. وقَدْ عاد إلى موضوعه الأثير؛ سفر الرؤيا، وبيَّن ما سيغدو من خلال نبوءاته الشهيرة المتعلقة بالكنيسة، فتناول مسألة إصلاحها، وكيف ستحيق بها نازلة العذاب، فضلاً عن قرب حلول هذه الأحداث. وسوف يستذكر، منتشياً، الأثر الذي خلفته هذه العظة، بقوله، إثر ذلك بعدد من السنين: «إنني عاصفة من البَرَد ستحطِّم رؤوس من لا يضع على رأسه غطاءً»[4]. هذا ما كانت عليه حال عظته تلك، وما تلاها من عظات، مما دفع رئيس دير سان ماركو إلى اختياره لإلقاء عظات الصوم الكبير في السنة اللاحقة، واتُّخذ قرارٌ بوجوب أن يلقيها في كنيسة فلورنسا الرئيسة؛ كاتدرائيّة سانتا ماريا دي فيوري.

وقد بلغت لورينزو العظيم، في تلك الأثناء، ما تنطوي عليه عظات سافونارولا من مضامين مزعجة، فالرجل الذي دُعي إلى فلورنسا كي ينهض بحياة لورينزو الروحيّة وابنه؛ جيوفاني، وكي ينفخ الروح في عقيدة أرثوذكسيّة جديدة داخل البلاط ولدى عامة الشعب، بدأ ينشر نبوءات هدّامة تتعلق بالكنيسة، مما جعل لورينزو يبعث إليه برسالة مع مجموعة من المواطنين البارزين، ومؤداها أن من الأفضل «ألا يتطرّق كثيراً، في عظات الصوم القادمة، إلى الحديث عن مخبّآت الأيام»[5]، غير أن هذه الطريقة لم تجدِ في التعامل مع سافونارولا؛ فلغة التهديد تستثير فيه العناد، بل ما هو أسوأ من

ذلك، فقد رأى فيها مساومة على استقامته؛ ذلك العنصر الذي احتلَّ مكاناً بؤروياً من إيمانه وشخصيته ومن كنه كينونته.

ولم يكن لورينزو الوحيد الذي لُفت انتباهُه إلى موقف سافونارولا، فقد اعترف الأخير أن «الناس من شتى الفئات»[6] قد جاؤوا إليه وحذروه بألا يكون متهوّراً، وكان من بين هؤلاء رهبان شبان في سان ماركو بدأ يشكّل منهم مريدين مخلصين، غير أن تحذيرات هؤلاء لم تكن متوعّدة كتلك التي حملها وفد لورينزو، وإنما نصائح وديّة ممن عُرف عنهم التأييد لقضيته. وقرّر سافونارولا أخذ تحذيراتهم بعين الاعتبار، فبدأ في إعداد سلسلة من العظات حول ثيمات أكثر أرثوذكسيّة، واعتزم إلقاءها بأسلوب غير مثير. غير أنّه ما لبث أن اكتشف: «أنني غير قادر على فعل ذلك، لأن ما كنت أقرؤه أو أدرسه كان باعثاً على الملل، وحين حاولت أن أعظ بأسلوب مغاير لما اعتدت عليه، فإني بعثت الملل حتى في نفسي»[7]. وسوف يستذكر، لاحقاً، كيف أنه سمع هاتفاً يستحثه للعودة إلى أسلوبه السّالف في الوعظ والتبشير، ويقول له: «أيها الأحمق، ألا تدري أنها إرادة الرب التي تقضي بوجوب أن تبشّر بهذه الطريقة؟»[8] وقَدْ أقنعه هذا «الهاتف» في الحال. فما إن صعد مَقْرأ الكاتدرائيّة، إثر ذلك، حتى ابتدر المصلين بعظة سيصفها بأنها «خطبة مفزعة»[9]. وقد جلجل صوته تحت القبة العظيمة التي صمَّمَها الفنان برونليسكي العظيمة، وذلك حين كان يتحدّث عن قدوم «أزمان لم يسمع بها بشرٌ من قبل»[10]. وانطلق في خطبة تقريعيّة مطوّلة ضد شرور المدينة، مندّداً باللوطيين، «الذين يجاهرون بذلك ولا يستترون»، والقتلة «الممتلئين بالشر»، والمقامرين، والمجدفين؛ كل أولئك الذين «مقتهم الرّب». كما أدان الصيرفة بما هي «مراباة»، شارحاً كيف «سيعاني الأغنياء من عذاب أليم».

وندد «بالضرائب الجائرة التي تسحق الفقراء». وقد حذرهم أنَّ: «الوقت الذي ستضرب فيه أعناقهم ليس ببعيد»، وأضاف أن المدينة لن تُعْرَف، بعد الآن، بوصفها فلورنسا، وإنما «الوكر العظيم للجور والظلم».

إنَّ الجمهور الكبير الذي حضر مواعظ الصوم الكبير لعام 1491 اشتمل على أطياف أهل المدينة جميعها، وبرز من هؤلاء الفقراء، الذين باتوا يعرفونه بوصفه «مبشِّر القانطين»[1][11]. ووصف كاتب سيرته؛ ريدولفي، ذلك فقال: «إذا لم يصبح سافوناورلا سيِّد فلورنسا نفسها، بعد عظات الصوم الكبير هذه، فمما لا ريب فيه أنه أصبح سيد أهل المدينة»[12]. وقَدْ جرى التقليد في فلورنسا، أن يلقي مُبشِّر الصوم الكبير خطبة خاصَّة للحاكم الـ«غونفالونير»، ومجلس حكمه «السينيوريا» المكوَّن من ثمانية عشر عضواً في قصر بلازا ديلا سينيوريا، وذلك في أول أربعاء من بعد عيد الفصح، الذي جاء ذاك العام في السادس من إبريل. لكنَّه بقي تجمُّعاً صغيراً قياساً إلى العظة التي كانت تعقد في كنيسة سان ماركو أو الكاتدرائيَّة، ونحن لا نعرف كيف قال سافوناورلا ما قالَه بدقَّة، غير أن ما سوَّده من ملاحظات عن هذه الخطبة نجا من التلف، وهو يقدِّم إشارة جيدة، إذ لا بد أنه ألفى عملية الوعظ في هذا المناخ الأكثر حميمية ترويعاً لمن فيه، وقد بدأ خطبته بصورة خرقاء واستفزازيَّة مشبِّهاً نفسه بالمسيح في منزل الفِرِّيسي «مما أجبرني على أن اكون أكْيَس وأرقى مستوى مما كنت عليه في الكنيسة»[13]، وعلى الرغم من ذلك، فإنه ما لبث أن انطلق في مجابهة أوضح، قائلاً: «كل ما هو خيرٌ وكل ما هو شرير في هذه المدينة يعود، أساساً، إلى الرجل الذي يحكمها، وهو

---

(1) المقصود هنا سمعان الأبرص، الذي زاره السيد المسيح كما ورد في إنجيل متى وإنجيل مرقص. (المترجم)

المسؤول عن كل ما هو طالح فيها، ذلك أنه لو اتبع مسلكاً قويماً لبرئت المدينة من كل خطيئة. إنَّ الطغاة لا يبدِّلون طرقهم لأنهم متغطرسون، ويترعرعون على ما يكال لهم من مديح، ويرفضون أن يردُّوا إلى الناس ما سلبوه منهم، وهم يضعون كل شيء في أيدي قساوسة فاسدين، ولا يلقون السمع إلا لزخرف القول، ويتلهَّون عن الفقراء ولا يُعْنون إلا بالأثرياء. إنهم يطلبون من الفقراء أن يكدوا لأجلهم، ويكدحوا لقاء دراهم معدودة، وينتظرون من قساوستهم أن يتغاضوا عن ذلك، وهم يرشون الناخبين، ويستعملون جباةً جائرين، فيترك ذلك المعوزين والفقراء في أسوأ حال».

ويستطيع المرء أن يتخيَّل علامات الغضب التي تعلو وجوه علية القوم من سوء ما طرق أسماعهم، فلم يَعْتد المواطنون البارزون الذين حكموا فلورنسا، على امتداد السنين الطويلة من هيمنة أُسرة ميديتشي، أن يستمعوا إلى مثل هذا النقد الديمقراطي الصريح. وقد كان سافونارولا، يغامر بالدخول في منطقة سياسيَّة خطرة، بيد أن هذا هو ما كان عليه من اعتداد متعاظم بالنفس تزداد وتيرتُه. وألقى سافونارولا خطبته الأخيرة في جمع غفير وقد جلجل صوته الأجش بتنغيمات لهجته الفيراريَّة البسيطة في أرجاء الكاتدرائيَّة وسط بحر الوجوه الخاشعة، والسابحة في عوالم غيبيَّة، وهم لا يكادون يصدقون ما يطرق مسامعهم من كلام. لكن بمقدور سافونارولا، حينها، ان يرى فاتحة المصير الذي أُعلم عنه في المنام وقد فُضَّ أمامه. وإذْ امتلأ بالروح القدس، فقد شعر بأنه مفوَّض بإعلام الجمع المحتشد من أبناء فلورنسا بـ «أني أعتقد ان المسيح يتكلم من خلالي»[14].

وما لبثت خطبة لورينزو الأخيرة، وما انطوت عليه من تجاوزات وتخرصات، أن بلغت لورينزو العظيم، الذي نُصح بان يطرد سافونارولا

دون إبطاء. لكنَّ الأخير اتَّخذ قراراً مغايراً لهذه الخطوة المتطرفة، وذلك لعدة أسباب، «فقد أكنَّ لورينزو، تبعاً لمؤرخ ذلك العصر؛ غيتشارديني، احتراماً خاصاً لجيرولامو سافوناورلا، الذي رأى فيه قديساً حقيقياً»[15] غير أن موقفه الليِّن انطوى على أسباب أُخرى تغلب عليها الدوافع الدنيويَّة، فقد بدأ مبشِّرٌ آخر يُدْعى الراهب بيرناردينو دا فيلتري ينال شعبية مماثلة في فلورنسا، وكانت عظات الأَخير البريئة والبسيطة بمحمولاتها الأخلاقيَّة التي تركزُ على طهريَّة الفقراء ونقائهم تشيع تعاطفاً عريضاً في أوساط المحرومين من أهل فلورنسا، فحاز، بهذه الطريقة، مكانة القديسين، غير أن طريقته الأُخرويَّة لم تمنعه من تسجيل ملحوظات دنيويَّة صريحة، فقد بدأ بمهاجمة المصرفيين الفلورنسيين، لأنهم يفرضون فوائد عالية على القروض التي يمنحونها للفقراء، مما يغرق عوائل هؤلاء الأَخيرين في فقر مدقع طوال حياتهم، فاقترح، علاجاً لهذا الأمر، إقامةَ جبل رحمة Monte della pieta (ما يعني في الواقع مصرفاً لعامة الناس). وقد جعل ما جسَّده الراهب بيرناردينو من استقامة ظاهرة أهلَ فلورنسا ينظرون إلى حكامهم نظرة جديدة، فساءهم ما وقعت عليه أعينهم، واستشعر لورينزو، في الحال، أن تيار الرأي العام كان يتحول ضدَّه في أوساط الفقراء، كما الأمر بين الطبقات المتعلِّمة، فقد كان هناك تبرُّمٌ متنام بنظام أسرة ميديتشي، والضرائب التي لا تبقي على الفقراء في مستنقع الفقر فحسب، وإنما يمكن استخدامها أداة عقابيَّة لكل زمرة تسوِّل لها نفسها معارضة حكم أسرة ميديتشي. فعمد لورينزو إلى نفي الأخ بيرناردينو في الحال، مما تسبب باستثارة الناس، وتبدى ذلك في موجة عريضة من السخط والتذمر، التي اقتضى إخمادها حيناً من الزمن، فضلاً عن أكلاف كبيرة (متمثلة في الرّشى

وإقامة حفلات اللهو والتسليَّة)، وهكذا، فإن لورينزو لن يقارف الخطأ ذاته، ولاسيما أنَّ الأخير هو من دعا سافونارولا إلى العودة إلى فلورنسا، وهنا مكمن المفارقة ومنبع السخرية. وسيجعل منه مثل هذا القرار، والحالة هذه، أُضحوكةً للمُتندرين، إذ لا ينبغي لحامي فلورنسا العظيم من أعدائها أن يبدو متردِّداً وناكثاً لعهده. ولقد قرر لورينزو، عوضاً عن ذلك، أنه سيعمد إلى تدمير سافونارولا مستخدماً طريقة ألطف، فسيسعى إلى تشويه سمعته بوصفه خطيباً شعبياً، وذلك بإظهاره شخصيةً دېماغوجيَّة ومجدِّفاً أيضاً، إذ كيف يكون بمقدور أي راهب عادي الزعم أنه يتكلم بصوت المسيح؟ وهكذا، فإذا ما جرى فضحه بوصفه دجالاً، فلا بُدَّ أن يتبخَّر مشايعوه من أرقَّاء الحال. وأهم من ذلك، أنَّ سمعته المتنامية في صفوف الإنسانويين سيجري هدمها أيضاً. وفيما يتصل بهذا الأمر الأخير، فقد كان لورينزو يعملُ، جزئياً على أقل تقدير، ضد نفسه، ذلك أن نزعته المتنامية تجاه الدِّين تمتدُّ على حساب معتقداته الإنسانويَّة، فضلاً عن انجذابه إلى النزعة التقويَّة لدى سافونارولا، كما أن آخر ما كتبه كان دراما شعريَّة دينيَّة عن القديسين يوحنا وبولس. ولم يكن الأمر بعيداً عن ذلك بالنسبة إلى صديق لورينزو المقرَّب؛ بيكو، فقد مضى وقت طويل الآن مذ أن أسلم الأخير نفسه لأنشودة سافونارولا الفاتنة. حتى إن بوليتسيانو نفسه دأب على حضور عظات سافونارولا، وشارف على الوقوع تحت تأثيره. وسيصفه، لاحقاً، بأنه: «رجلٌ مبرّز في المعرفة كما في الورع[16]. وهو مبشِّر بديع للعقيدة الإلهيَّة». وقد انطوت شخصيَّة بوليتسيانو على جانب عاطفي وآخر فكري، ويبدو أنه استجاب لما رآه تكثيفاً شعرياً في أسلوب سافونارولا الوعظي. لكن ما اجتذب الفقراء، ويا للمفارقة، هو انعدام الأسلوب لدى

راهبنا، إذ يظهر أن شخصية هذا الأخير توفرت على كل ما يشبع الأذواق، ففي حين رأى فيه بيكو مفكّراً عظيماً، أعجب بوليتسيانو بالعبارات الموقّعة للشاعر سافونارولا، في حين رأى فيه المسحوقون رجلاً يحملُ قضيتهم، ويطوي عليها شغافه. حتى إن الأفلاطوني المتزمت؛ فيتشينو، كان معجباً بسافونارولا، وإن كان لديه، في تلك المرحلة، بعض التحفظات. فلا مكان داخل معتقد سافونارولا، فيما بدا، لكثير من فلسفة أفلاطون الوثنيّة، التي ترى العالم مجرد مسرحيّة من الظلال، يُديرها الإشراق البعيد لأفكار مجرّدة يخلق إشعاعُها الحقيقةَ المطلقة، ولا تتوفر مثالية أفلاطون الأثيريّة على عزاء للفقراء. لكن سافونارولا، ويا للغرابة، كان متأثراً بأفلاطون عبر التأثير الذي شكلته، قطعاً، كتابات فيتشينو؛ تلك الحقيقة التي لم تغب عن الأخير حين قرأ كلمات سافونارولا التي تقول: «إن الغاية المطلقة للإنسان هي الجمال. وهو لا يكمن، كما أراد لنا فلاسفة الطبيعة أن نعتقد، في تأملات العلم التأملي. كلا، فالجمال هو الرؤية الخالصة للرب. ونحن لا نستطيع أن نرى، في هذه الحياة، سوى صورة بعيدة، وظلاً باهتاً للجمال. ولن يكون بمقدورنا أن ننعم بهذه الرؤية بكل حقيقتها المُشعّة إلا في الحياة الآخرة»[17].

ولا بُدَّ أن يكون بيكو، وبوليتسيانو، وفيتشينو، قد تبينوا، جميعهم، مرجعيّة سافونارولا الفلسفيّة، مثلما استوعبت قوة هذه الصورة ووضوحها، بسهولة، من جانب من هم أقل تعليماً في صفوف جماعة المصلين. وبدا كأن كلمات سافونارولا تملأ بعض الفراغ في قلب المجتمع الذي كان يخاطبه، وذلك بسبب ما جلبته النهضة من تغيرات جماليّة سطحيّة إلى المدينة – كالعمارة، واللوحات الجصيّة، والمهرجانات، والنزعة الإنسانويّة، واكتشاف العالم الكلاسيكي الوثني– ذلك التحوّل الذي جلب معه إحدى

صور التوغّل الروحي، وأيقظ، بصورة حتمية، في الوقت ذاته، مخاوف هاجعة، وكان سافونارولا يخاطب -معاً- هذا التوغل وتلك المخاوف.

وقَدْ فتك النقرس، أكثر فأكثر، بلورينزو العظيم، فاستشعر دنوَّ أجله، واستجاب الرجلُ المُحتَضر لمُطْلَقية الدعوة الإيمانية لدى سافونارولا، غير أن الرجل الذي نجح في حكم فلورنسا لأزيد من عقدين كان مدركاً أن سافونارولا يمثّل تهديداً سياسياً لاستقرار المدينة وكل ما مثّلته بوصفها المركز الثقافي البارز في إيطاليا، فضلاً عما يمثله من تهديد لحكمه، وأسرة ميديتشي، وكل ما نهضت الأسرة من أجل تحقيقه في الأجيال القادمة.

وقد كانت خطة لورينزو لتقويض سافونارولا خطة طموحة وبارعة، ولا يقدر عليها غير رجل واحد، هو الراهب ماريانو دا جيناتسانو؛ رئيس الرهبنة الأوغسطينيّة في فلورنسا. فبينما مثّل سافونارولا العودة إلى زمن غابر، مثّل الراهب ماريانو العصر القادم بما هو واعظ ذو ثقافة وفكر رفيعيْن.

وعلى الرغم من شعبيّة سافونارولا المتنامية، فقد حاز ماريانو لقب المُبشّر الأشهر في فلورنسا، وحافظ عليه بحماسة. وقَدْ احترق الدير الذي يُؤوي الرهبان الأوغسطينين عن آخره قبل نحو عشرين عاماً، فكلّف لورينزو العظيم، عندئذ، برونليسكي بتصميم مقر جديد لهم غير بعيد عن بوابة المدينة الشماليّة، ونشأت عن ذلك بناية زاهرة تتألف من مئة صومعة، وكنيسة حملت طراز عصر النهضة. كان لورينزوا منجذباً، بصفة خاصّة، إلى الراهب ماريانو، ودأب على زيارته في ديره، حيث تبادلا الآراء حول المسائل اللاهوتيّة والثقافيّة التي سادت ذلك العصر، فلقد كان ماريانو متضلّعاً بالمعرفة النهضويّة الجديدة، ولم ير تعارضاً بين دوره بوصفه راهباً وحبه للشعر الكلاسيكي الوثني والفلسفة. وحين كان لورينزو ينسحب

إلى واحدة من فيلله الريفيَّة في الأشهر الصيفيَّة الطويلة القائظة، فإنه اعتاد دعوة الراهب ماريو للنزول عنده، وقد أثار هذا الراهب الأوغسطيني هناك انطباعاً محبَّباً لدى المثقفين من أصدقاء لورينزو، وكان رأي بوليتسيانو في الراهب ماريانو دالاً في هذا السياق، يقول:

«لقد التقيت الراهب ماريانو، غير مرَّة، في الفيلا، وشرعت معه في أحاديث خاصة، وأدركت على الفور أنه لم يتفق لي أن عرفت رجلاً أكثر جاذبيَّة واحترازاً منه، فهو لا ينفِّرك بتجهم متطرف، أو يضللك بالتساهل المغالى فيه، كما هي حال الكثير من المبشِّرين الذين يظنون أنفسهم أوصياء على حياة الناس وموتهم. وبينما يستغل أولئك سلطتهم، فإنهم يبدون، دائماً، متجهمين ومضجرين بتنصيب أنفسهم قضاة على الأخلاق. في حين نعثر هنا على رجل الاعتدال، فهو رقيب صارم حين يصعد المنبر، لكنه ينخرط في محادثة فرديَّة أخاذة حين ينزل منه... لقد كانت لكلينا، أنا وصديقي بيكو، نقاشات كثيرة معه، ولم ينعش أرواحنا شيء، بعد مدارساتنا الأدبية اللاغبة، مثلما فعل الاسترخاء [كذا] بصحبته. أما لورينزو الذي خَبِر الرجال كما لم يفعل سواه، فقد كان يظهر ما يوليه له من تقدير كبير... وذلك حين آثر مجالسته ومحادثته على أيِّ ضرب من ضروب الراحة والاستجمام»[18].

وكان بوليتسيانو، بصورة مماثلة، مأخوذاً بأسلوبه في الوعظ. وقد كتب إلى صديق له يحدثه عن «صوته الموسيقي الندي، وكلماته المنتقاة بعناية، وعباراته الجليلة... وقد أَلِفتُ طريقته في نحت المجازات، ووقفاته التي يصطنعها بقصد التأثير على سامعيه، وتموجات صوته الموقَّعة والفاتنة»[19].

وربما ارتكنت عظات الراهب ماريانو، وما اغتنت به من إحالات كلاسيكيّة وفلسفيّة، إلى مطارحات فيتشنو المتبحّرة في مجلس لورينزو الممتلئ بندمائه من المثقفين. بيد أنّه كان، من دون شك، «ممثلاً» أكثر من أي شيء آخر. وما خلا عباراته الرشيقة وإيماءاته اللبقة، فإن عظاته لم تزد عن كونها تأوهات متكلّفة، وحشرجات مرتعشة، تهدف إلى استثارة عواطف سامعيه ممّن لم يحظوا بالتعليم. كما كان مشايعوه، مثل مشايعي سافونارولا، من المعدمين وأرقّاء الحال.

وقد دأب بعض رهبان سان ماركو أنفسهم على الذهاب إلى الكنيسة بقصد الاستماع إلى عظات الراهب ماريانو، حتى إن دومنيكو بينفيني؛ وهو من كبار المعجبين بسافونارولا والمنافحين عنه، لم يستطع منع نفسه من القول لسافونارولا: «أيها الأب، ما من شك أن مذهبك قويم، وضروري وذو نفع عميم، ولا يقول بغير ذلك إلا جاحد، غير أن أسلوبك في طرحه تُعوزه الرشاقة إعوازاً كبيراً، ولاسيما حين يقارن بأسلوب الراهب ماريانو»[20]، وقد قيل إنّ سافونارولا أجاب بصورة قاطعة: «لا بُدّ أن يفسح هذا التأنق اللفظي المجال أمام الدعوة البسيطة لمذهب قويم».

وأدرك ماريانو ما بات يتمتع به سافونارولا من سمعة متعاظمة، فقام بزيارته في ربيع عام 1491، متقصّداً، على نحو بيّن، تقييم المستوى الذي بلغه خصمه، ثم غادر مؤكّداً لسافونارولا ما يكنّه له من مودة وصداقة. واقترح لورينزو العظيم، في تلك الأثناء، على الراهب ماريانو أن يخوض التحدي مع خصمه الصّاعد، وذلك بأن يلقي خطبة مُدمّرة تظهر الطبيعة الجوفاء لمزاعم خصمه ونبوءاته، فيخبو نجمه، وتنحط مكانته بصورة حاسمة، لدى العامة من سوء ما لحق به من عار، فأجابه ماريانو إلى طلبه

عن طيب نفس، وأخبره أنه سيلقي خطبته في سانتو سبيرتو، وهي كنيسة دير سان غالو، وذلك في يوم عيد الصعود الموافق ليوم الخميس الثاني عشر من مايو لعام 1491. وكان عيد الصعود أكبر مناسبة في التقويم الديني بعد عيد الفصح الذي يسبقه بأربعين يوماً، مما يوفّر وقتاً كافياً كي يخفت الكلام حول عظات سافونارولا في الصوم الكبير، وحتى لا تبدو خطبة ماريانو رداً شخصياً متعجلاً على «واعظ اليائسين»؛ سافونارولا. وما لبثت أخبار هذا الهجوم الوشيك أن طرقت مسامع سافونارولا الذي لم يزد على أن قال متنبئاً: «إن شأني سيتعاظم، أما هو فسينمحق»[21]. وقد انتشرت أخبار هذه «المبارزة»، بحلول يوم الصعود، عبر أرجاء فلورنسا جميعها. وقد فاضَ عدد المحتشدين الذين تجمعوا في دير سان غالو عن كنيسته الكبيرة[1]. وكان على رأس هؤلاء لورينزو نفسه، وبوليتسيانو، وبيكو ميراندولا، الذين كانوا على بيّنة بما يجري. وقد ترك صديق سافونارولا وكاتب سيرته؛ الراهب بلاسيدو كينوتزي، رواية عيانيّة عما حدث، إذْ اقتبس الراهب ماريانو إجابة يسوع المسيح لحوارييه حين سألوه عما سيجري في قادم الأيام، ومؤدّاها: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السموات»[22]، ثم تابع موضّحاً أنَّ من الحمق، وأي حمق، أن يزعم إنسان أنه يعلم غيب الأيام، وحوادث ما يستقبل من الزمان، وأعقب ذلك بهجوم شخصي متقد على سافونارولا، واصفاً إياه بالمتنبئ الزائف، الذي نشر الفتنة القاتلة بقصد إثارة الناس وحضهم على العصيان. ومن الجلي أنَّ الراهب ماريانو[23] أساء تفسير ما أراده لورينزو منه. فقد دخل في حالة من

(1) لم يعد دير سان غالو الأوغسطيني وكنيسة سانتو سبيرتو المرفقة به موجودين، وذلك لجملة من الأسباب ستبدى في فصل لاحق.

الاهتياج إلى درجة أنه بدأ يُقلّد، ساخراً، إيماءات سافوناورلا الفظّة ولهجته الريفيّة قبل أن يطلق سيلاً من الشتائم ضده، ناعتاً إياه بالدودة، والأفعى، والمهرج الجاهل بالكتاب المقدس، والعاجز حتى عن تأدية قداسٍ بلاتينيّة فصيحة. وما إن أنهى الراهب ماريانو خطبته حتى بدا توبيخه لاذعاً مبتذلاً وقد انفجر غضباً، أما جماعة المصلين فقد كانوا مصدومين، إذ لم يرغب الفلورنسيون في رؤية هذا الضرب من السلوك في حرم الكنيسة، وحتى أولئك الذين ناصروا الراهب ماريانو فقد بدأت الشكوك، حينها، تنتهبهم. وقد ردَّ سافوناورلا مباشرة، بعد ذلك بثلاثة أيام، أي في الأحد التالي، عبر خطبة ألقاها في الكاتدرائية، فقد أهدى ماريانو خصمه فرصة لن يفرّط بها هذا الأخير قيد أنملة. ولقد استند إلى النص عينه الذي احتجَّ به ماريانو، فبدأ يشرح معناه الحقيقي، مفنّداً ما زعم أنها حجج ماريانو الخادعة ضده، الواحدة تلو الأخرى، ثم تحوّل إلى هجوم شخصي على الراهب ماريانو دون أن يشتطَّ أو يسرف في الإهانة، لكنه عمد، عوضاً عن ذلك، إلى تذكير الأخير، بدماثة ظاهرة، كيف أنه زار، قبل بضعة أيام فقط، دير سان ماركو، قاصداً رؤيته هو، كما ذكّر الأخيرُ ماريانو كيف أنه هنّأه، خلال لقائهما، على عظاته، مادحاً ما تنطوي عليه من دراية كتابيّة (متعلقة بالعهدين القديم والحديث)، ومؤكداً له ما سيكون لها من أثرٍ عظيم في فلورنسا. وهكذا، فلما هيّأ سافوناورلا الأرضيّة جيداً، شرع في طرح أسئلة قاتلة نحو: ما الذي جعلك تغيّر رأيك؟ ومن اقترح عليك أن تهاجمني؟ وقد كان الحضور، جميعهم، مدركين تماماً من الشخص الذي كان يُلمح إليه سافوناورلا. ولم يفنّد سافوناورلا، بذلك، حجج ماريانو فحسب، وإنما أقحم لورينزو في ذلك واتهمه.

وقد شهد أهل فلورنسا بأم أعينهم الهزيمة النكراء التي مُني بها مبشّرهم ذو المقام الجليل. وإذْ عجز الأخير عن احتمال ما حاق به من إذلال، فإنه حَزَم حقائبه ويمَّمَ وجهه شطر روما، وغدا، بذلك، عدو سافونارولا، الخطير والأبدي، الذي سيستثمر نفوذه في الفاتيكان ليشفي غليله منه. وقد زار بيكو، الذي أقلقه التحوُّل الذي طرأ على مجرى الأحداث، سافونارولا في صومعته في دير سان ماركو، وحذّره قائلاً: «إنك لن تفلح إذا مضيت في هذا الضرب من المقارعة»[24].

(7)
القط والفأر

حظي سافونارولا بشعبية كبيرة وسط إخوته من رهبان دير سان ماركو، فانتخبوه رئيساً للدير في يوليو من عام 1491. ولما كانت أسرة ميديتشي هي التي اضطلعت بترميم دير سان ماركو، واستمرت في رعايته (إلى درجة أنها دأبت على الحديث عنه بصيغة «ديرنا»)، فقد كان من المعتاد أن يقوم الراهب المنتخب حديثاً بزيارة مجاملة إلى قصر ميديتشي، الذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة أسفل طريق فيا لارجا (الطريق العام). بيد أن الرهبان حين طلبوا من سافونارولا أن يفي بهذا الالتزام، فإنه سألهم: «من الذي جعل مني رئيساً للدير، الرب أم لورينزو؟»[1] وعندما أجابوه: أنه الرب، أعلن سافونارولا: «إذن، سأشكر الرب»، ثم عاد إلى صومعته يتحنّث، مستأنفاً نظامه المعتاد في القيام والصيام.

ولما بلغ رفض سافونارولا قصر ميديتشي، علق لورينزو غاضباً: «راهب غريب جاء ليعيش في منزلي، وهو لا يتنازل فيأتي لرؤيتي!»[1]. وقد فاقم مرض لورينزو من آلامه، فقرّر، هذه المرّة، ألا يدخل في مواجهة مع سافونارولا. واختار، عوض ذلك، أن يتخذ منحنى تصالحياً، مما يمنح رئيس الدير الفرصة لإصلاح ما أفسده، دون أن يفقد أي منهما ماء وجهه أمام عامة أهل فلورنسا. وبدأ لورينزو يعتادُ كنيسة سان ماركو أيام الآحاد كي

يستمع إلى القداس، حتى إنه سيذرع حديقة الدير، بعد ذلك، أو سيتجوّل في أروقته، آملاً في ملاقاة سافونارولا، والانخراط معه في الحديث، وممارسة سحره على رئيس الدير الجديد. وقد جرت العادة، في المناسبات السابقة، أن ينضمّ إليه رئيس الدير السابق برفقة العديد من كبار الرهبان، وذلك حين كان لورينزو يطوف بحدائق الدير بعد القداس، إذ كان من دواعي سعدهم الانضمام إلى الرجل الذي نظروا إليه بوصفه وليّ نعمتهم. أما وقتها، حين كان يأتي إخوة سافونارولا الرهبان ليبلغوه بما كان يفعل لروينزو، فقد كان يتدرهم بالسؤال: هل سأل عني؟ وحين كانوا يجيبونه بأنه لم يفعل، كان يخبرهم: إذن دعوه يتنزّه كما يشاء[3].

وقد جعل ذلك لورينزو أكثر عزماً على كسب ثقة الرجل، الذي نظر الأول إلى قداسته وورعه بمزيد من الإجلال والاحترام، وإن كان ما رآه منه من معارضة لا يُحتمل، لما انطوت عليه من خطر سياسي. لكن المرض كان قد أخذ مأخذه من لورينزو، في تلك المرحلة، وأفقده السيطرة على شؤون الدولة، وأعشى بصيرته في الحكم على الأشياء. وتبدّى ذلك، بأجلى صوره، في الطريقة التي قيّم بها سافوناورلا حينئذ، فقد أمر لورينزو بإرسال الهدايا إلى دير سان ماركو، لكنها رُدّت، ببساطة، إلى قصر ميديتشي. وأشار سافوناورلا، إشارة عامة إلى هذا التحول في مجرى الأحداث من على المنبر، مُشبّهاً المبشّر الحقيقي بكلب الحراسة الأمين، الذي يسهو إذا رمى له لص عظمة أو قطعة من لحم، مفضلاً أن يتجاهل هذه الهدايا ويظل ينبح.

وأمر لورينزو، في مسعى أخير، مستشاره؛ بييرو دا بيبينا، أن يودع، سراً، عملة ذهبيّة تساوي 300 فلورين في صندوق صدقات الدير الذي مثّل مصدراً رئيساً من الدعم المالي الشعبي للدّير، ففيه تجتمع، طوال الأسبوع،

مجموعة من العملات النحاسيّة الكبيرة، فضلاً عن بعض العملات الفضيّة. وحين أُعلم سافونارولا بهذه الهدية الجزيلة المجهولة المصدر، أدرك، في الحال، أنها جاءت من لورينزو. فقضى أن تعزل قطع العملة النحاسيّة والفضيّة التي أودعها أهل المدينة الصالحين، وتخصص، كالمعتاد، لتكاليف الدير اليوميّة. أما القطع الذهبيّة فقد أمر أن تُرسل إلى أخوية سانت مارتين، التي تضطلع بتوزيع الصدقات لمستحقيها من الفقراء. وحين سمع بيبينا بما فعله سافونارولا، أرسل تقريراً بذلك إلى لورينزو معلناً: «أن الشخص الذي نتعامل معه عبارة عن زبون مراوغ»[4].

كان من الواضح أنَّ سافونارولا غير راغب البتة في أي نوع من التآلف مع سلطة لورينزو، فلا مساومة من جهته، مما أجبر لورينزو على العودة إلى أرض الواقع، ليدرك أنه وإن كان يحترم سافونارولا، فليس بمقدوره أن يقدِّم مزيداً من التنازلات. وقد حانت الساعة التي تستوجب تأكيد سلطته، إذ لم يزل بمكنة لورينزو أن ينفي سافونارولا دون ضجة تذكر، مثلما فعل حين نفي الراهب بيرناردينو قبل ثلاث سنين. وهو لا بُدَّ قادر على الاقتصاص، بصورة وحشيّة، إذا شعر أن سلطته السياسيّة مهدَّدة، فقد حدث، قبل نحو عقد من السنين، أن اشتبه لورينزو بأن أحد الحجاج، ممن كانوا يستجدون الطعام على باب فيلته الريفيّة هو، في الحقيقة، قاتل مُستأجر، فَقُبِضَ على ذلك الحاج، وأُخضع للاستجواب. وقَدْ جُعل باطن قدميه فوق النار حتى سال منهما الشحم قطرة قطرة، وتلقفته ألسنة اللهب. وإذْ لم يعترف الحاج، فإنه أُجبر على المشي بقدميه المُتفحِّمتين الداميتين على ملح خشن، فأودت به هذه المحنة الشديدة إلى الموت. ولاحقاً، علق ماكيافيلّي، الذي عاصر تلك الأحداث، على ما سبق، بأسلوبه المميّز بسخريته، فقال: «لقد واجه

أعداؤه، جميعاً، نهاية غير سعيدة»[5].

لكن لورينزو تردد في اتخاذ خطوة جذريَّة ونهائية، إذ سيعمد إلى ممارسة سلطته على نحو غير مباشر، فقد وصل، بعد ذلك ببضعة أيام، خمسة من أشراف فلورنسا إلى دير سان ماركو، وطلبوا مقابلة سافونارولا. وضمَّ الوفد أعضاء من أكابر العائلات الفلورنسيَّة مثل: غويدانتونيو فيسبوتشي، وباولانطونيو سودريني، وفرانشيسكو فالوري، ودومينيكو بونتسي، وبرناردو روتشلاي، وجرى اللقاء في غرفة المقدسات، وقد أخبر عنه عدد من الأشخاص المعاصرين، الذين تركوا رواية مشابهة جداً تخص سلوك سافونارولا المثير. وأوضح الوفد، بداءة، إلى سافونارولا بأنهم جاؤوا بمحض إرادتهم لتحذيره من المضي في سلوكه الرَّاهن، الذي يضع نفسه وديره موضع الخطر، غير أن سافونارولا قاطعهم، قائلاً: «إني لأعلم أنكم لم تأتوا بمحض إرادتكم وإنما أرسلكم لورينزو. ادعوه فليُكفِّر عن خطاياه، فالرب لا يقيم اعتباراً لمقامات الأشخاص، وهو لا يعفي حتى الأمراء من عقابه»[6]. فكرَّر المواطنون تحذيرهم، ملحين بأنه إذا مضى في انتهاج هذا السلوك، فسيكون عُرضة للنفي من فلورنسا. فأجابهم سافونارولا قائلاً: «لا يخشى النَّفي إلا أمثالكم من الناس، ممن لهم زوجات وأولاد، أما أنا فليست لدي هذه المخاوف، وإذا اقتضاني الأمر أن أغادر، فستغدو هذه المدينة، بالنسبة إلي، ذرَّة من غبار مقارنة ببقية العالم. وأنا لست فزعاً من أنني لست سوى غريب في هذه المدينة، وأن لورينزو هو الرجل الأقوى في فلورنسا. فإنني أنا من سيمكث هنا، أما هو فسيرحل قبلي بزمن طويل». فعقدت الدهشة ألسنة أعضاء الوفد، وأدركوا أن سافونارولا كان يتنبأ، في واقع الحال، بموت لورينزو. أما باسكوالي فيلاري (1827–1917)؛ كاتب سيرة سافونارولا،

فقد قارن بين روايات ذلك العصر، ووصف ما جرى لاحقاً، بقوله: «لقد بدأ سافوناورلا في الحديث عن مدينة فلورنسا، والوضع السياسي في عموم إيطاليا، مبدياً معرفة عميقة بهذه الأمور أدهشت سامعيه، ثمّ تنبأ، على مسمع عديد الشهود ممن كان حاضراً في غرفة المقدسات، بأن تغيرات كبيرة ستحدث، عما قريب، في إيطاليا، ثم تنبأ، على نحو أخص، أن كلاً من لورينزو العظيم، والبابا إينوسنت الثامن، وفيرانتي، ملك نابولي سيلقون حتوفهم عاجلاً غير آجل»، وما لبث أن تهامس الناس بهذه النبوءات المثيرة عبر أرجاء فلورنسا جميعها[1].

أدرك لورينزو العظيم أن السلطة الفعليّة تتفلّت من قبضته، فقد أوهن المرض جسده، ولم يعد حاضراً في سدة المشهد السياسي، لكنه لم يكن ذلك الشخص الذي يلقي معاذيره، إذ كتب حول مناسبة سابقة، يقول: «لقد قاسيت ما قاسيت من عاديات الأيام والناس في ذلك الوقت، غير أني نزّاعٌ بطبيعتي إلى التسامي على مثل هذه الأشياء، وعدم ذكرها، حتى لا يأخذني العجب والخيلاء. فلا بُدَّ أن يصحب الحديث عما يحيق بالمرء من أخطار وأهوال التيهُ والعُجْب»[7].

وقد أحال النقرس الخَلْقي بنيته القويّة اللافتة إلى هيكل عظمي، وغدا بطلُ المبارزة والعشق النَّهم المفعم ببهجة الحياة الفكريّة والماديّة والروحيّة، وذلك

(1) يذهب ريدولفي أبعد من ذلك حين يزعم قائلاً: بهذه الكلمات تنبأ سافوناورلا بأن لورينزو سيموت عما قريب، حتى إنه حدّد، تبعاً لرواية من كان قريباً منه، تاريخ الوفاة. وقد صدر هذا الزّعم الأخير، فعلياً، قريباً من تاريخ اللقاء، ولكن في أعقاب ذلك الحدث. وكان ذلك متماثلاً مع عملية الأسطرة التي تنامت حول اسم سافوناورلا حتى في سنين حياته. أما ما يتعلّق بالمزاعم الشهيرة المتعلقة بإيطاليا، وما صاحبها من حديث عن لورينزو، والبابا، وملك نابولي، فإن من الممكن التثبت منها، وسنمتحن موثوقيتها لاحقاً.

الرجل الذي افتتن به بوليتسيانو وبيكو ميراندولا، وأسر سحره ملك نابولي، والبابا إينوسنت الثامن، غدا، حينها، نكد المزاج ونزقاً وكليلاً وسقيماً في الثانية والأربعين، وقد أغشى الألم بصيرته. وإذ صار صورة شبحية لما كان عليه، فإنه كان يمضي الساعات، حينئذ، ترتعدُ أطرافه وهو يجلس بعباءته إزاء الموقد، محاولاً أن يذيب إبر الألم الجليديّة المُتبلِّرة في مفاصله. وقد أصبح، في تلك المرحلة، يائساً ومستعداً للجوء إلى كل أشكال العلاجات الخرافيّة، وحتى بمجموعته الشهيرة من المجوهرات قد أقحمت لحل المشكلة. وكتب إليه الطبيب بيتروس بوناس أفوغاريوس مشيراً عليه، قائلاً: «يتوجب عليك، كي لا تعاودك الآلام، أن تأتي بحجر كريم يقال له الياقوت الأزرق، وأن يُجعل في الذهب كي يلامس البشرة، ويجب أن يُتختّم به فيوضع في البنصر، فإذا جرى العمل بهذه الوصفة فإن آلام المفاصل، أو الآلام التي يتسبب بها النقرس، ستتوقف، وذلك لما يمتلكه هذا الحجر من خواص سحريّة، ولاسيما تلك الخاصيّة المتعلقة بمنع الأخلاط الشريرة من النفاذ إلى المفاصل»[8].

وقد بقيت مجوهرات لورينزو موضع فخره وسروره، إذ حملت ما تركه عليها من دليل على طموحه الخفي الأكثر غوراً: وهو lua. R. Med؛ أي الملك لورينزو ميديتشي أو والد ملوك المستقبل. ذلك ما تنبأ به، بخلاف شديد عن النبوءات التي صدرت عن قسٍّ متشدق، إذ سيخلفه ابنه الأكبر؛ بيرو، حاكماً لفلورنسا، وقد جرت تسوية ذلك مع أكابر شخصيات عائلة ميديتشي من أمثال: سودريني، وفيسبوتشي، وفالوري، الذين يستطيع لورينزو التعويل عليهم، فلورينزو نفسه لم يتولَّ الحكم إلا بدعوة من مجلس الحكم الـ«سينيوريا»، وذلك إكراماً لأبيه. لكن مياهاً كثيرة قد جرت خلال عهد لورينزو، الذي امتد لعقدين من الزمن، إذ سيغدو تولي الحكم، من ذلك

الزمان فصاعداً، حقاً شرعياً لأسرة ميديتشي.

وستمد أسرة ميديتشي، في الوقت ذاته، نفوذها خارج فلورنسا عبر الكنيسة، ومن خلال إقطاعات جيوفاني الكنسيّة وكردياليته المرتقبة. بيد أن البابا إينوسنت الثامن تشدّد في عقد الصفقة المتعلقة بمنصب الكادرياليّة، التي أبهظت موارد لورينزو الماليّة، وفاقمت من ديْنه العام.

وقد تشكل جزء من هذا الديْن بسبب تكاليف دراسة جيوفاني، الذي أُرسل عام 1490 إلى الجامعة المرموقة، التي أعاد لورينزو تأسيسها في بيزا. وسرعان ما بات واضحاً لدى لورينزو أن من الأجدى ألا يتعرّض جيوفاني لخطب سافوناورلا التحريضيّة، وتأمّل أن يمنحه التعليم الجامعي السكولائي سنداً لاهوتياً أكثر ملاءمة. لكن تكاليف دراسة جيوفاني أثبتت أنها أكثر مما قدَّر والده. وعلى الرغم مما أظهره جيوفاني من نبوغ متفرّد، مشفوعاً بكسل واضح، فإن الفتى الجسيم المحبوب ورث، في الوقت عينه، ميل والده الشديد لحياة المجون والملذات، مما اضطرَّ لورينزو، الذي يشكو من قلة السيولة آنئذ، أن يطلب من بنك ميديتشي تغطية ديون جيوفاني في بيزا. وقد بلغت، تبعاً لبعض المصادر مبلغاً فادحاً مقداره 70000 فلورين[9].

وجاءت نهايات عام 1491 لتزيد الأمر سوءاً، وذلك حين استلم لورينزو رسالة من البابا إينوسنت الثامن يطالبه فيها بدفع ما مقداره 10000 فلورين، بما هي دفعة أولى و«نهائيّة» لقاء كردينالية جيوفاني، التي سيحين موعد تثبيتها والإعلان عنها بعد بضعة شهور. وكان لورينزو متيقناً أنْ لا مفر من تلبية «طلب» البابا إذا أراد من الأخير أن يثبّت تعيين جيوفاني في هذا المنصب، مما أجبره، على اللجوء، من جديد، إلى ميناتي وألاعيبه بخزينة فلورنسا، ومثَّل هذا مُلتجأ اليائس، ذلك أن الإصلاح المالي الأخير الذي قام

به لورينزو، بتواطؤ من مينياتي، أثارَ اضطرابات كبيرة، وقد اتفق أن نشأت مشكلة، في السنة السابقة، تتعلق بتداول العملة في فلورنسا، إذ دخل مبلغ وفير من العملات المعدنية الأجنبيّة دائرةَ التداول في فلورنسا، لما نهضت به الأخيرة من دور بوصفها مركزاً تجارياً، ولاسيما فيما يتعلّق بمواد الصوف، وحجر الشب، والأقمشة المرهفة. وقد جاءت معظم هذه العملات المعدنية من المدن القريبة، التي تُصْدر عملاتها الخاصة، مثل: بولونيا وسيينا ولوكا. وأشبهت هذه العملات البنس الفلورنسي الـ«كواتريني»، الذي كانت تستبدل به. كما كانت العملات النقديّة الفلورنسيّة تُعرف بـ «الكواتريني الأسود». وشكلٌ لورينزو لجنة كي تعمل على حل هذه المشكلة، فقررت الأخيرة جمع الكواتريني الأسود واستبداله بـ «الكواتريني الأبيض»، الذي تزيد قيمته عن قيمة سابقة بـ 25٪. وهكذا، فقد جرى صهر القطع النقديّة القديمة، واعتمد الكواتريني الأبيض، لا غير، في دفع الضرائب، والرسوم وغيرها من المدفوعات لخزينة الدولة. ولم يتسبّب ذلك بتذمرٍ يذكر لدى المواطنين إلا عندما علم هؤلاء بأنه لم يجر صهر العملة النقديّة الفلورنسيّة القديمة (الكواتريني الأسود)، بل عمدت السلطات إلى إعادة طرحها بوصفها عملة مكافئة «للكواتريني الأبيض». وتكون الحكومة قد ربحت 25٪ في أي صفقة تدخل فيها العملة النقديّة القديمة (التي لا يمكن أن يستخدمها المواطنون لدفع الضرائب، فترتد، بالنتيجة، إلى سعر صرفها القديم).

وازداد الأمر سوءاً على سوء حين عمد لورينزو إلى عملية اختلاس متهوّرة، مدفوعاً بحاجته الملحة وغير المتوقعة لما يساوي 10000 فلورين، كي يدفعها للبابا إينوسنت الثامن، ولم يتكشّف ذلك إلا بعد وفاته.

وقد طال ذلك فيما طال الصندوق العام المعروف بـ «صندوق المهور» Monte delle Doti، وهو حساب إيداع عام أسسه كوزيمو دي ميديتشي عام 1424 لتوفير المهور للبنات الفقيرات، اللاتي لم يكنّ ليتزوجن لولا ما يَتحصلن عليه من هذا الصندوق. وجرت العادة على أن من يُسهم في هذا الصندوق فإنه يستلم 5٪ من المبلغ فائدة على مُدَّخراته التي لا يمكنه سحبها إلا بعد عدد متوافق عليه من السنين، كي يُسْتخدم مهراً للفتاة. وحازت مبادرة تأسيس صندوق المهور شعبيّة كبيرة، وما لبث أن اجتمع في هذا الصندوق مبلغ عظيم، فقد تجاوزت إيراداته أضْعاف ما يسحب منه. وهكذا، حين وجدت الخزينة الفلورنسيّة موجوداتها في حالة تناقص، عمدت، عوضاً عن الوفاء بدفع ما يستحق عليها من مبالغ للمودعين، إلى إصدار أسهم باسمهم، بفائدة تبلغ، أيضاً، 5٪ سنوياً. ومن الممكن أن تُسحب في أجل مسمى من السنين لتُستعمل مهوراً للفتيات. وعلى الرغم من أَن هذا الضرب من التوفير القسري أثار شكوكاً لدى الناس، لكنه كان محتملاً، إذ إنَّ هذا الإجراء لم يُمثّل سوى سطوٍ طفيف، وإن استمرَّ في الزيادة مع توالي السنين.

ومهما يكن من أمر، فقد شهد عام 1485 انكماشاً في النشاط التجاري أفضى إلى تقلص في الإيرادات المتأتية من الضرائب، مما ترك الخزينة الفلورنسيّة تغرق في الدين، فأمر لورينزو بمصادرة مبلغ مهول من صندوق المهور، في مسعى منه لإنقاذ موارد المدينة المالية، فضلاً عن موارده (يبقى حجم المبلغ غير محدد تحديداً دقيقاً، وذلك بسبب إتلاف أسرة ميديتشي لكل الدفاتر الحسابيّة المتعلقة بتلك السنين. غير أن من المرشّح، أيضاً، أن يكون جزءاً، على الأقل، من مبلغ الـ 74948 فلوريناً، الذي طولبت به أسرة

ميديتشي تعويضاً عن المال الذي وضع لورينزو يده عليه دون إقرار من قانون أو سلطة). وأوعز لورينزو، في سعي منه للتعمية على عملية الاختلاس هذه، إلى مينياتي بأن يشرح للناس ألا فرد يجوز له أن يسحب ما يزيد عن خُمس مدخراته في صندوق المهور دفعة واحدة، بسبب الانكماش الاقتصادي، على أن ترفع نسبة الفائدة على ما يتبقى من مدخرّات إلى 7٪. وكان هذا التقييد، وما أحراهُ أن يكون كذلك، مثيراً لسخط الشعب. فقد اعتادت العائلات الأفقر في فلورنسا، على امتداد حياة أجيال ثلاثة، إيداع دراهمها القليلة في صندوق المهور. وقَدْ أقبل الناس، في واقع الحال، على هذا الصندوق إقبالاً شديداً إلى درجة أن غالبيتهم، حتى تلك اللحظة، امتلك حصصاً فيه. ومما خفّف من فداحة هذا الجرم، وهوّن الأمر بالنسبة إلى لورينزو، أن هذه الغارة على صندوق المهور مثلت أمله الوحيد في استرداد الوضع المالي للمدينة، التي إن انتهت حالها إلى إفلاس، فإنَّ ذلك سيعني، ربما، نهاية حكم ميديتشي. أما بالنسبة إلى عامة الناس، فربما أفضى إفلاس المدينة إلى حالة من الشدة والعسر، بل إلى المجاعة. وستمزق الحرب الأهليّة المحتومة، آنئذ، المدينة شرَّ ممزق، مما يفقد فلورنسا، حتماً، استقلالها لصالح، واحدة من القوى الكبرى في إيطاليا.

ولا بدَّ أن لورينزو كان متنبهاً إلى هذا الضرب من الأخطار، مما أسبغ على عملية الاستيلاء هذه عنصراً إيثارياً، أو على الأقل، براجماتياً، ولا بُدَّ أنه استخدم، من جهة ثانية، جزءاً من المال المستولى عليه لتغطية نفقاته الشخصيّة. بيد أن التمييز بين نفقات أسرة ميديتشي (التي غالباً ما كانت تنفق في وسائل اللهو العام وما شاكلها) وخزينة المدينة غدت، حينها، غير واضحة بتاتاً، مما جعل من الصعب تمييز الصحيح من الخطأ في إقرار التقييد

السابق المتعلق بتوزيع أرباح صندوق المهور. ومهما يكن من أمر، فربما لعبت عملية الاختلاس التي قام بها لورينزو دوراً فاعلاً في إنقاذ المدينة، وأكثر من ذلك، إذْ شهدت السنين اللاحقة ازدهاراً تجارياً أفادت منه فلورنسا كثيراً، وذلك لتمتعها بوضع مالي حسن. غير أن هذه الظروف التي خففت من سوء أفْعال لورينزو لم ترافق تصرفات لورينزو الأخيرة في التعاطي من صندوق المهور، فحين فوجئ بطلب البابا إينوسنت الثامن الذي يقضي بدفع 10000 فلورين قبل أن يُثبِّت جيوفاني كردينالاً، لجأ، من جديد، إلى مينياتي. وقَد نُهِبَ صندوق المهور، هذه المرّة، بمبلغ قدره 10000 فلورين لصالح لورينزو حصراً، مما أدى إلى استنزاف الصندوق. وأعلن، في سبيل التعمية على ذلك، بأن الفائدة المستحقة على الإيداعات سوف تقلّص من 7٪ إلى 3٪. وكان من الطبيعي أن تستثير هذه الخطوة سخط الناس.

وقد استثمر سافونارولا هذا السخط الشعبي في عظاته إبان تلك الفترة، وكان مدركاً ما يقوم به، حتى إن بعض المعلقين المتأخرين ذهبوا إلى حد الزعم بأن سافونارولا ذكر، على وجه التخصيص، عملية السطو، المذكورة آنفاً، من صندوق المهور خلال عظاته في الصوم الكبير عام 1492 «متهماً لورينزو بسرقة مهور البنات الفقيرات، ليملأ جيوبه بهذه الطرق غير النزيهة»[10]. وأبقى سافونارولا نفسه على اطلاع وثيق بما يجري في فلورنسا، ولا بد أن يكون قد سمع بالإشاعات التي راجت، في تلك الأثناء، حول لورينزو وكيف أنه أولج يده في صندوق المهور. أما أن يكون سافونارولا قَدْ اتخذ خطوة تحريضيّة بذكر ذلك، فهذا ما لا نستطيع أن نقطع به. لكننا نعلم، علم اليقين، من المسودات اللاتينيّة التي أعدَّها سافونارولا لإلقاء عظاته في يوم الصوم الكبير عام 1492، أن الأخير أدان أفعال لورينزو

بعبارات ولغة عامتين، ومن ذلك قوله: «هؤلاء الرجال العظام يريدون، كما لو أنهم لا يدركون أنهم مجرد رجال كأمثالهم من الناس، أن يُمدَحوا ويمجدوا من جانب خلق الله قاطبة. غير أن من يُبشِّر بالحقيقة، لا بُدَّ أن يهاجم هذه الرذائل والنقائص...»[11]. فهل توسَّع، فعلياً، في الحديث عن هذا الموضوع الأخير؟ والجواب أنه سواء فعل ذلك أم لم يفعل، فلا بُدَّ أن جماعة المصلين كانوا يعلمون في طوايا أنفسهم، وانطلاقاً مما خبروه في واقعهم، جزءاً كبيراً مما تضمنته هذه الرذائل.

وقد جاءت الأخبار من روما، في مارس من عام 1492، تعلن تثبيت جيوفاني ذي الستة عشر ربيعاً، بعد طول انتظار، في منصب الكارديناليَّة. وجرى الإعلام عن هذا الحدث بعقد مراسم دينيَّة في العاشر من مارس في دير باديا (الدير الذي يرجع إنشاؤه إلى القرن الحادي عشر)، الكائن في بلدة فيزول الواقعة خارج فلورنسا. وقد اعتمر جيوفاني، في أثناء المراسم، قلنسوة الكارديناليَّة الحمراء، ودخل الأخير، بصحبة أخيه الأكبر؛ بيرو، إلى فلورنسا في اليوم التالي على رأس موكب مهيب. ووصف أحد الإخباريين المعاصرين للحدث المشهد قائلاً: «هل نقول إن المدينة جمعاء قد تجمعت كالجسد الواحد، لا بل المنطقة كلها، مما يبرز مدى تشوُّف فلورنسا لحصول واحد من أبنائها على هذا الشرف»[12].

ومضى جيوفاني، عقب إقامة القداس العالي في الكاتدرائيَّة، عابراً الشوارع وقد جُلِّل بأسباب الحفاوة والتشريف، مُتَّجهاً إلى زيارة مقر السينيوريا، حيث تلقَّى الهدايا التي تتجاوز قيمتها الاحتفاليَّة بكثير، إذْ فصَّل الحديث حولها كاتب اليوميَّات المعاصر للحدث؛ لوكا لاندوتشي، قائلاً:

«وقَدْ تمثَّلت هذه بثلاثين حمل من الهدايا التي اضطلع بنقلها الحمالون،

واحتوت، على أطباق فضيّة، وزبادٍ، وأباريق وصحون، وأنواع مختلفة من الأواني الفضيّة، التي يمكن أن يستخدمها أمير عظيم، ولهذا قال الجميع: لقد تكلّف هذا أزيد من 20000 فلورين. وعلى الرغم من أني أجد صعوبة في التسليم بذلك، لكن هذا ما كان يجري على ألسن الناس، فدونّته كما هو. ومما لا ريب فيه أن هذه الأحمال توفرت على هدية عظيمة، فسبحان الله العظيم»[13].

وربما عملت الشائعات، فعلياً، على تضخيم قيمة الهديّة، بيد أنه من المتوجب أن يكون حجمها المهول قَدْ أثار انطباعاً وإعجاباً كبيرين، ولا بُدَّ أن يكون المواطنون قد رأوا ذلك عندما كان الكاردينال جيوفاني يتقدّم عبر مركز المدينة منطلقاً من قصر ديلا سينيوريا إلى قصر ميديتشي على طريق آرغا. ويبدو أن ذلك كله أشار إلى أن أفراد أسرة ميديتشي احتفظوا بشعبيّة ما بوصفهم حكاماً لفلورنسا، رغم الشّائعات حول حيل لورينزو الماليّة، التي أثارت بعض الاضطراب المُذكى بسبب عظات سافونارولا. فمما لا ريب فيه أن الفتى الجسيم جيوفاني تمتع بمحبة الناس له، وكانت حفاوة المواطنين جميعاً، به وبموكبه الجليل، عفويّة تماماً، مثلما كانت استجابتهم لما جلبه لمدينتهم من شرف.

ومهما يكن من أمر، فما إن حلّ الوقت الذي رُسّم فيه جيوفاني كاردينالاً حتى كان النقرس قد أقعد لورينزو، وجعله عاجزاً عن حضور أي من الاحتفالات، ناهيك عن الظهور في موكب مهيب بمعية ابنه وهو يجوب شوارع المدينة. لكن من المؤكد أنه رأى جيوفاني لدى عودة الأخير، في ذلك اليوم، لقَصْر ميديتشي حيث سيترأس مأدبة مراسيميّة في القاعة الرئيسة، حضرها ستون ضيفاً مؤلفين من سفراء أجانب وأكابر المواطنين. ولا ندري

على وجه الدقة إن كان لورينزو ظهر، لبعض الوقت، في أثناء إقامة المادبة. ويرى بعضهم أن لورينزو حضر جانباً من المادبة، أو أن أحدهم، على أقل تقدير، اقتاده إلى القاعة، حيث صدم جسده الأشل وملامحه التي أهزلها النقرس الضيوف الحاضرين، فلم يكونوا مدركين أن المرض قد فتك به إلى هذا الحد، وأيقنوا، حينئذ، بأنه يُحتضر. وأشارت بعض التقارير أن لورينزو أَمر أن يُحمل على محفَّة إلى الشرفة التي تطل على القاعة، فنظر، من حيث لا يُرى، إلى ابنه الذي بلغ، بعيني والده الفخور، مستوى جديداً من الرشد والنضج مع منصبه الجديد، وبدا أنه: «غدا شخصاً آخر منذ البارحة»[14].

وعلى الرغم من ذلك، بقي لورينزو قلقاً إزاء شخصية ابنه. وما إن انطلق الأخير في رحلته إلى روما لتولي منصبه فيها، حتى شرع أبوه بتدبيج رسالة نصح له. ولا بُدَّ أن تكون كتابة هذه الرسالة قد اقتضت جهداً كبيراً من لورينزو، لكنه كان عاقداً العزم على أن إرث أسرة ميديتشي لا بُدَّ أن يزدهر حتى يأتي اليوم الذي تحقق فيه حلمها. ويستحضرنا هنا المثل الذي يقول من شابه أباه فما ظلم، فعندما أقعد مرض النقرس والد لورينزو؛ بييرو، كان الأخير قلقاً حيال سلوك لورينزو «العابث»، وذلك حين ابتعثه خارج البلاد كي يمثله في المحافل الإيطاليَّة. ونحن نرى، الآن، لورينزو نفسه قلقاً إزاء سلوك ابنه الأكبر؛ بييرو، وسيتملكه القلق إزاء حياة السَّرف التي ينتهجها ابنه جيوفاني، ومما جاءَ في رسالته:

«أوصيك ألا تبالغ في الاحتفال أيام الأعياد كما يفعل الآخرون... وكن منسجماً مع الموقع الذي تحتلُّه، فاقتصد في لبس الجواهر والحرير من الثياب... وخيرٌ لك أن تتخيَّر الأشياء العتيقة، فضلاً عن الكتب القديمة... وتناول البسيط من الطعام، واحرص على التريُّض بصورة

منتظمة، ذلك أن من يرتدي عباءة الراهب يكون عرضة للمرض إن لم يكن متنبهاً لشأنه الصحي»[15].

وتحول لورينزو إلى أمور أكثر جديّة، بعد هذه النصيحة البسيطة والضروريّة، حتماً، في حالة جيوفاني. فمن الجلي أن لورينزو يشاطر سافونارولا في بعض آرائه، على الأقل، حول الكنيسة، فقد أشار إلى روما بوصفها: «مستنقع أشكال الجور جميعها»، وسينظر إلى جيوفاني بعين الحسد من جانب «أعدائك الذين كانوا متعطشين للحؤول دون تعيينك في هذا الموقع، كما سيجاهدون لتشويه سمعتك، شيئاً فشيئاً، ساعين إلى جرّك نحو الحفرة التي هووا فيها».

لكن لورينزو اعتقد، خلافاً لسافونارولا، أن روما تتوفر على «ميزات خلاصّية» بما تحويه من «رجال صالحين وعلماء تمثّلوا حياة نموذجيّة». وأوصى لورينزو ابنه أن يتمثّل خطاهم، ثم عرّج بحديث النصح إلى جيوفاني، فيما يتعلق بالأمور العمليّة:

«لما كانت هذه زيارتك الأولى إلى روما، فإني أعتقد أنَّ من الخير لك أن تستخدم أذنيك أكثر من لسانك... وأنصحك أن تكرّس نفسك، كلياً، لمصالح الكنيسة. ولن يَعْسُر عليك، بذلك، أن تكون عوناً لفلورنسا وأسرتك... واحرص على ملازمة البابا دون أن تكون متطلباً».

وعلى الرغم من إسداء النصح حول هذه الأمور العظيمة الشأن، فإن لورينزو الذي ينتهبه القلق لم يكن قادراً على منع نفسه من الرجوع إلى فكرته الرئيسة، حاثاً جيوفاني الكسول مهما فعل: «فإني أحثُّك أن تتقيد بقاعدة كما لم تتقيد بسواها: ألا وهي الحرص على الاستيقاظ في الصباح الباكر».

ولا تنطوي هذه النصيحة الموجهة من أب لابنه على ما هو استثنائي، غير أنَّ ما يعوزها من جدَّة وتبصُّر يجعلها مثيرة للاهتمام، إذ ربَّما اختلط ذهن لورينزو بسبب الألم حين كان يكتب (أو، على الأغلب، يملي) رسالته. لكنه يبقى واحداً من أميز مثقفي عصره. وإذ استشعر دنوَّ أجله، فقد كان يسوق نصيحته الأخيرة إلى الفتى، الذي اعتقد بأنه ابنه الأكثر موهبة. (تحدَّث لورينزو، مرَّة، عن ابنيه بييرو وجيوفاني قائلاً: الأول غبي والآخر ذكي) [16] وكان لورينزو، بهذه النصائح، ينقل عُصارة الحنكة السياسيَّة، والحكمة التي اكتسبها «إبرة البوصلة الإيطاليَّة»، وليس ذلك بقليل. غير أن نصيحته الأكثر إلحاحاً لجيوفاني تعلقت بسلوك الأخير وشخصيته، وربما حاول لورينزو اتباع الحكمة الشائعة التي نقلها لابنه، فلعلَّها كانت الدليل الهادي الذي نقله إليه أبوه، لكنه تجاوز الجانب الأكبر من هذه النصيحة، إن لم نقل انتهكه. إذ إن عظمته بوصفه رجل دولة، وأخطاءه، تأتت عبر ما تبدى من قراراته الطائشة، وتهوره، واعتقاده بألمعيته: ومن ذلك اندفاعه المتهوِّر نحو ملك نابولي؛ فيرانتي، والإخفاق العظيم في فيرارا، وقراره بالإغارة على صندوق المهور لتعزيز موقف أسرة ميديتشي، وإصراره على تأمين ملتجأ لصديقه بيكو بعد أن اصطرع الأخير مع البابا إينوسنت الثامن، وإيعازه لبيكو بالكتابة إلى سافونارولا باسمه يدعوه للعودة إلى فلورنسا. وكان لورينزو مدركاً ما يمتلكه جيوفاني من سجايا حسنة، فقد كان الكادرينال الفتى يعي كيف يتصرَّف بطريقة راشدة، ويجتذب الآخرين، ويكتسب ودَّ العامة، غير أنه كان بحاجة إلى نصيحة صغيرة. فقد توَّجبت حمايته من نقيصة واحدة كان من شأنها، ربما، أن تذهب بخلاله الحميدة كلها، وهي صفة الخمول، فكانت النصيحة: انهض من النوم مبكراً، وعندها سيجري

كل شيء على أَحسن ما يرام. ولا ندري إلى أي درجة كان لورينزو واعياً بهذه المفارقة، فهو (الذي لم يعرف الخمول قط) حبيس فراشه الآن.

واقتضت كتابة هذه الرسالة جهداً بطولياً من لورينزو، إذ اشتدّ عليه المرض، وقتها، إلى درجة أنه لم يعد يقوى على ممارسة شؤون الحكم، فقد أُجبر السفير الميلاني، وهو ممثّل الحليف الأقوى لفلورنسا، على الانتظار أربعة عشر يوماً لمقابلة لورينزو. وكان طبيب الأخير الشخصي قَدْ استنفد كل ما عرفه من علاجات. فكان أنْ نقل السفير الميلاني لحاكمه لودوفيكو سفوروزا حراجة وضع لورينزو الصحي، فأوعز الأخير إلى الطبيب الشهير؛ لازارو دا تشينو، بالسفر إلى فلورنسا، دون إبطاء، لمعالجة صديقه. وعلى الرغم من هذه التدابير، كان الطبيب ليوني لم يزل مُصراً على عدم خطورة الأمر، فربما كان لورينزو مريضاً، غير أنَّ مرضه لم يكن قاتلاً. وهكذا، فقد طمأن ابنه الأكبر؛ بيرو، الذي غدا مستثاراً مما رأى عليه والده من عجز، ومن معارضة ليوني استخدام مزيد من العلاجات المؤلمة في تطبيب والده. ويبدو أن جانباً من اهتياج بيرو كان مرده إمكانية توليه مقاليد الحكم. فقد طوّر ضرباً من الشخصيَّة المتغطرسة وهو لم يزل بعد في العشرين من عمره، غير أن نشأته في ظل شخصية والده المهيمنة تركته نهباً لشكوك عميقة حيال قدراته الخاصّة.

وما كادت تمضي بضعة أيام على كتابة لورينزو للرسالة التي بعث بها إلى ابنه الكاردينال جيوفاني، حتى حُمل الأول، في 21 من مارس، على محفَّة من فلورنسا إلى فيلته الريفيَّة في كارديغي التي تبعد نحو الميلين إلى الشمال من أسوار المدينة. وتبدَّى ذلك للكثيرين فألاً سيئاً، فقد انسحب كل من جد لورينزو وأبيه إلى هذا المكان من قبل ليقضيا أيامهما الأخيرة.

وبلغت أخبارٌ، في الخامس من مايو 1492، فيلة ميديتشي في كاريغي، تقول إن أسديْ فلورنسا الشهيرين اقتتلا بشراسة حتى سقطا ميتين في القفص[17]. وتبدَّى ذلك، أيضاً، شؤماً منذراً بالسوء لكل من سمع به. وكانت دلالة ذلك جليّة: فثمة شر مستطير يتربّص بفلورنسا. وقد دوَّن العطّار الفلورنسي؛ لوكا لاندوتشي، مذكرات غطت تلك الفترة من السنين. وسجّل، فيما سجّل، ما حدث في المدينة في ليلة الخامس من إبريل: «إذ ضربت، عند الساعة الثالثة ليلاً تقريباً (الحادية عشرة بمعاييرنا الوقتية)(1)، صاعقةٌ المنارةَ التي تعتلي قبة كاتدرائية فلورنسا، فتصدَّعت، تقريباً، إلى نصفين. وقد كسر، نتيجة ذلك، المحراب المرمري وغيره الكثير من القطع المرميّة القائمة بإزاء الباب المفضي إلى طريق سيرفي (servi) (الواقع إلى شمال المبنى) بصورة اعجازيّة. ولم يتفق لأحد، من قبل، أن رأى برقاً يخلّف مثل هذه الآثار... وقد سقط عدد كبير من القطع المرمريّة حول المبنى خارج الباب المفضي إلى سيرفي. بل إن واحدة من القطع سقطت على الشارع المرصوف بالحجارة وانطمرت تحت الأرض»[18].

وقد ألفى حتى الإنسانوي العتيد؛ لورينزو العظيم، نفسه، وسط هذا المناخ المحموم، خاضعاً للخرافات القديمة، ومنقاداً إليها. فلما سمع بأن صاعقة ضربت الكاتدرائيّة، بادر بالسؤال عن الجهة التي سقطت عليها القطع المرمريّة المتحطّمة. وما إن أُخبر بأنها سقطت على الجهة الشماليّة حتى أعلن قائلاً: «إنها تواجه المنزل، ذلك يعني أن روحي لا بُدَّ زاهقة»[19].

(1) جرى حساب ساعات اليوم في فلورنسا، آنئذ، باعتماد دقات ناقوس الصلاة، الذي كان يقرع عند الغروب. وكان يوافق في ذلك الوقت من السنة الساعة الثامنة تبعاً لمعاييرنا التوقيتية.

وثمة قصة شائعة حول الصاعقة تتعلّق بسافونارولا، فقد روى كاتب سيرته؛ ريدولفي، قائلاً: «لقد هجر النوم عيني سافونارولا في تلك الليلة، وبقي مُتأهباً يحاول، دون نجاح، أن يكتب العظة التي من المقرر أن يلقيها في اليوم التالي»، ثم ما لبث أن تلقّى رؤيا مدهشة، مؤدّاها أن عقاب الرب سيحلّ بالعالم. وقد ضمّن هذه الرؤيا، صباح اليوم التالي، في عظته. فربطت جماعة المصلين ذلك، مباشرة، بالصاعقة. غير أن نصوص سافونارولا الأصليّة التي يضمها كتابه (جامع الكشوفات) توضح أنه تلقّى هذه الرؤيا «في الليلة السابقة لعظتي في عيد البشارة». ويضع هذا موعد رؤيا سافونارولا قبيل عيد الميلاد لعام 1492، أي بعد ذلك بما يقرب من تسعة شهور، مما يغيّب أي احتمال بتوافقها مع الصاعقة.

وعلى الرغم من اعتراض الطبيب ليوني على كل ما يناقض ما ذهب إليه، فقد بات جلياً لدى جميع الحضور بأن لورينزو كان يُحتضر. وقد تولّى الطبيب الشهير؛ لازارو دا تشينو، الذي وصل حديثاً من ميلان، علاج لورينزو بدلاً من ليوني، الذي لم تُجد وسائله نفعاً. وبدأ، من ساعته، في تقديم أكاسيره العلاجيّة مثل اللؤلؤ المطحون ونحوه. واستدعى لورينزو، عند لحظة معينة، ابنه بييرو، وأسرَّ له، تبعاً للتقاليد المتبعة لدى الأسرة، بالطموحات التي تهدف أسرة ميديتشي إلى بلوغها. ولا بُدَّ أن تكون هذه الطموحات الفادحة صاعقة بمعايير تلك اللحظة، متبدية في ما وضع من خطط للأسرة كي تتسلّق العرشين البابوي والملكي. وهي طموحات غير مسبوقة فعلياً، لكنها ستتحقق، على نحو مدهش، خلال خمسين سنة. ولم تتحقق هذه الأحداث الجسام صدفة، إذ لا بد أن تكون التفاصيل الدقيقة حول كيفيّة تحقيقها قد جرى تسليمها إلى بييرو في ساعات الاحتضار تلك.

وكان أن دخل لورينزو في مواجهة مصيريّة ثانية في فراش احتضاره، وستثبت هذه، على نحو مدهش، أنها أكثر أهميّة من سابقتها في المستقبل القريب لفلورنسا، كما ستكون هذه المواجهة هي اللقاء المعروف الوحيد الذي تم وجهاً لوجه بين لورينزو العظيم وسافونارولا. وليس من المعروف، على وجه الدقّة، كيف قام لورينزو بدعوة سافونارولا ليحضر إلى جانبه في فيّلته الريفيّة في كاريغي، ولماذا، وكل ما نعرفه يتلخّص في أنّه وجّه دعوة إلى الرجل الذي نظر إليه بوصفه «الراهب المستقيم» الوحيد. وربما كان بيكو ديلا ميراندولا استحثّه على فعل ذلك، أو أنّ بوليتسيانو عمل بوصفه رسولاً للورينزو في هذا الشأن. فمن المعروف أن كلا الاثنين وُجِدا في كاريغي خلال تلك الأيّام، وكان من الميسور لأي منهما أن يعبر الحقول إلى أسوار المدينة ومنها إلى سان ماركو. ومن الممكن أن يكون أحدهما قد مثل العامل الحاسم في إقناع سافونارولا بزيارة لورينزو، وذلك بما حمله للأول من إعجاب ظاهر.

وقد توافرت روايات عدّة ومعاصرة لهذه المواجهة، وتبدت رواية بوليتسيانو أكثر الروايات قوة وبلاغة من بين تلك الروايات المتعاصرة مع المواجهة المذكورة، نقرأ:

«وصل بيكو لرؤية لورينزو، وجلس بمحاذاته على السرير، في حين جثوت أنا على ركبتي قريباً منه حتى يكون بمقدوري سماع ما كان لورينزو يتفوّه به، ذلك أن صوته بلغ من الضعف، الآن، درجة جعلته غير مسموع بوضوح... وكان بيكو قد غادر لتوه، حين دلف سافونارولا إلى حجرة نوم لورينزو، وحضّ سافونارولا الأخير على الثبات على الايمان (وأجابه لورينزو بأنه قابضٌ على إيمانه بقوة) وأن

يحيى، من الآن فصاعداً، حياة زكيّة خالية من الذنوب (وأجاب لورينزو بأنه سيحرص على فعل ذلك)، ويجب عليه أن يتصبّر على الموت الذي لا سبيل إلى اجتنابه الآن، وأن يواجهه رابط الجأش. وأجاب لورينزو عن ذلك، قائلاً: لن أغتبط بشيء مثل اغتباطي بالموت إذا قضى الرب حدوثه. وبينما همّ سافونارولا بالمغادرة، ناشده لورينزو قائلاً: أيها الأب، امنحني بركاتك قبل أن تغادر، قال ذلك وقد طأطأ برأسه وخشعت ملامحه، مردّداً ما يتلوه الأب من كلمات وصلوات على نحو دقيق، ومما يحفظه في الذاكرة، غير مكترث بنحيب الأهل والأصدقاء الذين لم يعد بمقدورهم أن يتمالكوا أنفسهم»[20].

وجاءت رواية بوليتسيانو هذه بعد شهر فقط من هذا اللقاء، وذلك في رسالة مطوّلة إلى صديقه الميلاني جاكوبو أنتكواري، وهي مؤرّخة بتاريخ 18 مايو. ولا ريب أن بوليتسيانو كان حزيناً أشدّ الحزن لدى حضوره إلى جانب لورينزو في أيّامه الأخيرة، فهو يتحدث في هذه الرسالة أنه كان: يشيحُ بوجهه عن «لورينزو» محاولاً إخفاء مشاعره، وكيف أنه سيندفع، في واحدة من المرات: «إلى حجرة داخليّة مجاورة، حيث كان بمُكنتي أن أطلق لواعج الأسى دون قيد».

ويُفسّر ما اعتمل في نفس بوليتسيانو من عاطفة جيّاشة اختلاف رواية الأخير حول المطالب الثلاثة عن الرواية التي تصدّرت هذا الكتاب. وهي رواية جاءتنا من مشايعي سافونارولا (الذين سمعوها، على الأرجح، من سافونارولا نفسه). وقد سأل الأخير لورينزو، تبعاً لهذه الرواية، إن كان يتوب من خطاياه ويؤمن برب واحد حقيقي. وهو السؤال الذي أجاب

عنه لورينزو بنعم، ثم سأله سافونارولا أنه إن أراد لروحه الخلاص، فلا بُدّ أن يبرأ من ثروته التي جمعها من أبواب الكسب الحرام، «وأن يردُّ ما أخذه بغير وجه حق»[21] وَأجاب لورينزو، سأفعل، أيها الأب، أو سأجعل ورثتي يفعلون إن أنا عجزت عن ذلك». وطالبه سافونارولا، أخيراً، بان يردَّ إلى أهل فلورنسا حريتهم التي لا تكفلها، كما اعتقد الأخير، إلا حكومة جمهورية حقيقيّة، فأبى لورينزو أن يجيب هذا الطلب الأخير، وأشاح بوجهه بعيداً. وتبدو هذه الرواية أكثر ملاءمة لشخصية بطليْها.

ولم يكن ذلك كل ما في الأمر، إذ يبرهنُ دليل متأخر على وجود عنصر مثير فيما جرى بين الرجلين من تفاوض، لم يأت على ذكره أي من المصادر. كما أنّه يبدو، ظاهرياً، غير محتمل البتة، لولا أن ما جرى الاتفاق عليه، في هذه المناسبة، سيلعب دوراً جلياً فيما تلا من الأحداث التي ستكشف عن تفاصيل هذا الاتفاق لحظة انبثاقها في الزمان. إذ ستتبدّى الأحداث، على نحو مدهش، كما لو أن لورينزو طلب من سافونارولا أن يؤازر تولي ابنه؛ بييرو، السلطة من بعده، وأن يدعم حكمه لفلورنسا. ومما يثير الدهشة أكثر، أنَّ هذا، بالضبط، ما وافق عليه سافونارولا. وكانت الأسباب التي حدت بلورينزو إلى طلبه ذلك واضحة، أما دوافع سافونارولا فهي أقل وضوحاً. ولكن لِمَ لمْ تات المصادر على ذكر هذا العهد؟ ربما تواطأ أولئك الذين شهدوا هذا اللقاء، من الدائرة المحيطة بلورينزو، ومن بينهم بوليتسيانو، على إبقاء هذا الاتفاق طيّ الكتمان، وذلك ظناً منهم أنه إذا ظهر إلى العلن، فإن سافونارولا سينكره لا محالة، وسيأخذه هذا إلى موقف أكثر حدّة في معارضته حكم أسرة ميديتشي. وثمة سؤال آخر: فَلِمَ يوافق سافونارولا على بقاء أسرة ميديشتي في الحكم، في حين اتسمت عظاته بمعارضة شديدة

لهذا الأمر؟ والجواب عن ذلك أن سافونارولا أراد، بنوع من المفارقة، أن يعزِّز نفوذه، ونفوذ الدير الذي ينتمي إليه، داخل المدينة. وهكذا، فقد بدأ سافونارولا يدرك، بوصفه رئيساً لدير سان ماركو، صعوبة تحقيق الأشياء جميعها بالتبشير المستقيم، حتى لو كان مؤازراً برؤى نبوئيّة، إذْ لا يكون اكتساب السلطة بالوسائل الروحيّة حصراً، وتبقى السلطة، في حاضر ذلك الزمان، متصلة العُرى بالسياسة على نحو لا يقبل الانفصام، كما أنه لن يحقق شيئاً إذا لم يمتلك السلطة.

وبرز ذلك مُؤشّراً أَولياً على قسوة سافونارولا الواعية في سعيه لتحقيق مطامحه اللاهوتيّة، ومن الممكن النظر إليه بوصفه منحى لاأخلاقياً ونفاقياً أو أنه، ببساطة، براجماتي. ومع ذلك، فلا بُدَّ أن تكون هذه القسوة قد اتخذت في التعبير عن نفسها شكلاً لاواعياً، فلم يكن سافونارولا مدركاً ما اقتاده إلى رؤاه النبوئيّة، فهو لم يستنطقها كما لم يستنطق بواعثها. ولا ينطوي الأمر، هنا، على انعدام للضمير أو نفاق، ذلك أنه آمن بما خبره في عقله، ورآه شاخصاً في عين عقله. ويبدو أنه «رأى»، فعلاً، هذه الرؤى، وكان متيقناً – تماماً– من «النبوءات» التي جاءت بها. وإذ كان موقناً بأنها ليست من صنيعه، فقد شعر أنَّها جاءت من عالم خارجي، وأنها مشفوعة بقوة هائلة. وهكذا، فمن أي مكان يتأتى لها أن تأتي، إن لم تكن من الرَّب؟

ولما كان يسعى، حينئذ، إلى تحقيق إرادة الرب، فإنه بات مستعداً للتضحية حتى باستقامته. وإذا اقتضاه الأمر أن يتأقلم مع الشيطان، فإنه لن يستنكف عن ذلك. وامتلك سافونارولا، مثل لورينزو العظيم، أجندة بعيدة الأمد، وكانت كلتا الأجندتين متشابهتين في تلك المرحلة من الزمن، إذ رَمَتا إلى التركيز على الحاجة لنجاح أحد أفراد أسرة ميديتشي حاكماً لفلورنسا.

(8)
نهاية عصر

توفي لورينزو العظيم في ليلة الثامن من إبريل عام 1492 عن ثلاثة وأربعين عاماً. وتركت وفاته كلَّ من كان حوله في فيلا كاريغي في حالة من الذهول. وقد قيل في تلك الليلة، وما أعقبها من أيام، أن كل أشكال الشؤم ونُذُر النحس شوهدت في فلورنسا، وما حولها. وجاء بوليتسيانو على ذكر بعضها، نقرأ:

«لقد شوهد، في الليلة التي وافت موت لورينزو، نجم هائلٌ ومشع في السماء المظلمة فوق الفيّلا (في كاريغي)، حيث كان يُحتضر، وقد سقط هذا النجم وخمد نوره في الوقت عينه الذي قضى فيه لورينزو كما تبيَّن لاحقاً. كما شوهدت مشاعل تستبقُ على السفوح المحيطة ببلدة فيسولي لثلاث ليال متتالية، ثم انتهى بها المطاف إلى المقام الذي يدفن فيه أعضاء أسرة ميديتشي، هناك حيث أومضت قليلاً ثم تلاشت»[1].

وقد جاء جُلُّ مصادر ذلك العصر، على ذكر هذه العلامات والنُّذر، وسجل غيتشارديني كيف «سمع الناس عواء الذئاب، وامرأة ممسوسة في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا تصرخ أن ثوراً بقرون من نار سوف يحرق المدينة عن آخرها»[2]، حتى إن الرجل المتعقل ماكيافيلّي تحدَّثَ عن: «وجود علامات سماويّة كثيرة تنذر بأن هذا الموت سيقود إلى نوازل عظيمة»[3].

ويُعلّق كاتب سيرة لورينزو؛ وليام روسكو، الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، بحصافة قائلاً:

«تنضاف إلى هذه الأحداث الناشئة، نشوءاً عرضياً، ربما، بيد أنها جُعِلت استثنائيّة بفعل مخيلة متقدة، أحداثٌ أُخرى رواها مؤلفو ذلك العصر؛ تلك الأحداث التي، على الرغم من أنها تشيرُ إلى قابلية الجنس البشري في العصور جميعها، لتصديق التفاهات، فإنها تُظهر، ربما، فرضية أن الحدث الذي كان المؤلفون يشيرون إليه، قد جرى تضخيمه كي يحدث انزياحاً عن المجرى الاعتيادي للطبيعة»[4].

ويبدو أن أهل فلورنسا – من الصباغين الذين يقطنون الأحياء الفقيرة إلى أكابر النخبة المثقفة التابعة لقصر ميديتشي – كانوا عرضة للتأثُّر بمثل هذه «الأحداث»، (وقد غدا سافونارولا واعياً، يوماً إثر آخر، بهذه الحقيقة). ومهما يكن من أمر، فيمكننا أن نتيقن من أن بعضاً من «الأحداث» الأخرى التي وصفت في ذلك العصر قد حدثت فعلاً، وإن تكن في ظروف غامضة جداً، فحين أعلم طبيب لورينزو الشخصي؛ ليوني، بيرو بموت سيده أصابه اضطراب شديد، محمّلاً نفسه نتيجة ما حدث. وعلى الرغم مما عُرف عنه من تضلّع في الطب، فإنه عجز عن فعل شيء يحول دون تلك الطامّة الكبرى، وإذْ ألمَّ به كرب مبرح، فإنه هاجر من كاريغيو، وتوارى عن الأنظار في قرية سان جرفاسيو، التي تبعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من فلورنسا، رابضةً هناك في التلال العالية، حيث انتحر بإلقاء نفسه في بئر عميقة. لكن الشائعات ما لبثت أن راجتْ لتنبئ أن موت ليوني لم يكن كما بدا في ظاهر الأمر، وقَدْ ظهرت هذه الشائعة، في وقت لاحق، ضمن عمل شاعر إنسانوي مرموق من نابولي يُدْعى جاكوبو سانازارو، وقد ذكر، صراحة، أن

ليوني مات غيلة بأمر من بيرو ميديتشي. ومن الواضح أنَّ بيرو المُرتاب كان موقناً بأن عجز ليوني الظاهر مثَّل جزءاً من مؤامرة لقتل لورينزو، وانغرس في ذهنه أن ليوني قد دسّ السمّ لوالده، وإذا صحّ ذلك، فإنه يُعدُّ علامة شؤم على شخصيَّة حاكم فلورنسا الجديد.

ويبدو أن المؤرِّخيْن المرموقين؛ غيتشارديني وماكيافيلّي، فضلاً عن كاتب اليوميات لاندوتشي، أدركوا، جميعاً، أَنَّ وفاة لورينزو، حتى عند لحظة حدوثها، قد أشَّرت على نهاية عصر. فهذا لاندوتشي، الذي كان يمتلك حانوتاً للعطارة، ولم يزد عن كونه إخبارياً مسجِّلاً للأحداث، قد أدرك، في الحال، الأهميَّة التاريخيَّة لما حدث، وذلك حين كتب في سجلِّه حول وفاة لورينزو قائلاً:

«مثَّل هذا الرجل، في أعين الناس، الشخص الأكثر أَلمعيّة، وصحّة، وحنكة سياسيّة، فضلاً عن كونه الأشهر بين الرجال جميعهم. وقَدْ اعترف الجميع بحكمه لإيطاليا جميعها، وأنه امتلك، حقاً، حكمة عظيمة. أمّا مشاريعه فقد ازدهرت كلها، وقد أفلح في فعل ما عجز عنه أي من المواطنين على امتداد سنين طويلة، وأعني نجاحه في جعل ابنه كاردينالاً، وهو منجز لم يجلب الشرف لأسرته فحسب، وإنما للمدينة جمعاء»[3].

وتنطوي هذه الفقرة على أهميَّة كبيرة لغير اعتبار، فإذا كان عطَّارٌ غير ذي شأن مدركاً بأنَّ حدثاً تاريخياً جللاً يتراءى في هذه اللحظة، وأن عصراً قد أفل وانقضى، فلا بُدَّ أن يكون القطاع الغالب من السكان واعياً بذلك أيضاً. وهكذا، فقد كان الشطر الأعظم من أهل فلورنسا، الآن، مُهيَّئين ذهنياً للتغيير، وربما كانوا يتوقعونه.

وما كادت تمرُّ بضع ساعات على وفاة لورينزو حتى حُمِل جثمانه عالياً، في الواحدة صباحاً، وشيِّع على طول الطريق في موكب مهيب تُجلِّله المشاعل، ثم فتحت بوابة سان غالو لدى وصوله أسوار المدينة، وحمل النعش إلى دير سان ماركو حيث سيلقي عليه أهل فلورنسا، في اليوم التالي، نظرتهم الأخيرة. وعلى الرغم مما اعتادت عليه أسرة ميديتشي من النظر إلى دير سان ماركو بوصفه «منزلها الخاص»، فلا بُدَّ أن يكون سافونارولا، بما هو رئيس الدير، قد استشير، مسبقاً، في هذا الأمر، مما يعطي دليلاً إضافياً، على ما يبدو، يؤكد صيغةً تصالحيَّة قامت بين سافونارولا وأسرة ميديتشي. وقد بقي جثمان لورينزو معروضاً يوماً ونصف اليوم أمام قوافل المودعين. وحُمل في مساء العاشر من إبريل، مسافة قصيرة إلى كنيسة سان لورينزو، حيث جرى التقليد أن يُدْفن موتى اسرة ميديتشي هناك. وتقدَّم الموكب الجنائزي نزولاً نحو طريق فيا لارجا، مجتازاً قصر ميديتشي، ومقترباً من المنعطف المفضي إلى سان لورينزو، بالتابوت المبطن بالجوخ، الذي يتبعه الغونفالونيير، والسينيوريا، والسفراء الأجانب جميعهم. وكذا فقد حضر بوليتسيانو وبيكو ديلا ميراندولا وفيتشينو والرسامان بوتيتشيلي وميخائيل انجلو، فضلاً عن مشايعي لورينزو من أكابر العائلات، مثل عائلة سودريني، وفيسبوتشي، وروتشيلاي، وفالوري. وينضاف إلى كل هؤلاء شخصيات أقل جاذبية مثل وكيل لورينزو المالي ميناياتي، ولا بُدَّ أن يوجد بين الحشود لاندوتشي وماكيافيلّي وغيتشارديني ابن التسع سنين. وقد اصطفَّ أهل فلورنسا على جانبي الطريق يراقبون الموكب بصمت، في حين جلجلت أجراس الكنيسة الداكنة فوق أسقف المدينة. غير أن ما فكَّر به هؤلاء، وجثمان «العظيم» يمرُّ من أمامهم، يظل سراً حجبته وجوههم الصامتة الذاهلة. فكم

واحداً من هؤلاء حزن، حقيقة، لموت لورينزو، وكم سُرّ من هؤلاء، خفية، لدى رؤيتهم نهاية «الطاغية» الذي انتقده سافوناورلا على رؤوس الأشهاد وشنّع عليه؟ تقول بعض المصادر إن المدينة جمعاء أسفت لموته مثلما أسف البابا وحكام إيطاليا وما وراءها من البلدان، في حين ذكرت مصادر أُخرى أن من حزن لفقده، فعلاً، انحسر في الأقربين من أسرته، ودائرته الثقافيّة، ومن تفضّل عليهم من أعضاء مافيا ميديتشي.

وعلى الرغم من الصيغة الورديّة التي قدّمها غيتشارديني، وعزّزها ماكيافيلّي بقوله: «إن أهل فلورنسا كانوا يرفلون في رخاء ورغد كبيرين حتى عام 1492»[6]، فإنّ ثمة دلائل تشير إلى أن بعض المواطنين قد بدؤوا يعانون من تدهور تجارة الصوف، وقد غدا هذا الأمر حتمياً حين بدأ الإنجليز، الذين زوّدوا فلورنسا بالصوف لزمن طويل، يعالجون منتوجهم من الصوف ويصبغونه. وربما انتفعت الأسر الغنيّة العاملة في الصناعة المصرفيّة، وكبار التجار وصغارهم، مثل لاندوتتشي من فورة «الازدهار العظيم»، لكن شيئاً من نواتج هذا الازدهار لم ينسرب إلى العاملين غير المثبّتين في صباغة الصوف وتسريحه، أو أولئك الذين كانوا يسمون تشيومبي[1]. ويبقى الازدهار الذي أشار إليه غيتشارديني وماكيافيلّي أمراً إشكالياً، لكنه كان، دون شك، قائماً، فقد مثل ذلك الوقت من الزمان الفترة العظمى من عصر النهضة الذي عرفَ إنفاقاً عظيماً على الرسم، وصناعة التماثيل، والعمارة (ولم يكن لورينزو الوحيد الذي يبذل الأموال في اقتناء الجواهر والمخطوطات النادرة). لكن، لا بُدّ أن يقارن هذا بالتقييم الذي خرج به

(1) أو «الكومبرز»، وقد سمُّوا بذلك بسبب ما كانت تُصدره قباقيبهم المميّزة من أصوات حين يدوسون بها على الطرق المبلّطة، ولاسيما وهم ذاهبون إلى العمل في هدأة الفجر.

دي روفر؛ المؤرخ الاقتصادي الكبير لبنك ميديتشي، نقرأ:

«من المسلَّم به، الآن، على نحو كبير، أن العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر لم تكن عصر ازدهار عظيم، وإنما شهدت ركوداً دائماً وعميقاً، فقد أفسدت الاقتصاد الفلورنسي، وكانت مسؤولة، جزئياً، عما لحق ببنك ميدتشي من عسر»[7].

ولكن كيف يمكن التوفيق بين هذا التقييم وحقيقة أن عدداً من العائلات العاملة في التجارة، وأبرزها عائلة لورينزو دي بيرفرانشيسكو دي دميديتشي، وأخيه جيوفاني، قد جمعت ثرواتها في تلك الفترة؟ والجواب المتفق عليه في هذا الشأن أن هذا الفرع من أسرة ميديتشي جمع القسم الأكبر من ثروته عبر التجارة الخارجيّة مع إسبانيا والبلدان المنخفضة (تضم هذه البلاد حالياً بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمالي فرنسا وغربي ألمانيا)، غير أن بعض التجار قد أثرى، دون ريب، عبر تجارته الداخليّة مع ميلان، وروما، ونابولي، والبندقيّة.

ولا يسعنا إلا أن نتبنى طريقة واحدة لحل التعارض الظاهر بين الرأيين السالفين المتعلقين بالاقتصاد الفلورنسي، وهي أن نقول بصحة كلا الرأيين، فقد اتسعت الفجوة بين الأثرياء والمعدمين اتساعاً مهولاً إبان تلك السنين. ومن الممكن رؤية هذا الأمر في تزايد عدد الفقراء الذين بدؤوا في الرجوع إلى الدين أفواجاً؛ ذلك الاتجاه الذي استثمره سافونارولا بحصافة ظاهرة. ويبدو أنَّ عدداً كبيراً من أهل فلورنسا قد امتلأت نفوسهم، قبل وفاة لورينزو بزمن غير قليل، بمشاعر الرهبة إزاء المستقبل، وتحولوا إلى الكنيسة طلباً للتوجيه والهداية. وقَدْ بلغ ذلك أوْجَه في الأسابيع الأخيرة التي شهدت مرض لورينزو الأخير. وسجَّل لاندوتشي في الخامس من إبريل لعام 1492،

أي قبل وفاة لورينزو بثلاثة أيام، «أنَّ العظات كانت تلقى كل يوم، وكان يشهدها خمسة عشر ألفاً من المصلين»[8] في الكاتدرائية، إبان فترة الصوم الكبير. لكن سافونارولا لم يكن الراهب الذي اضطلع بإلقاء هذه العظات، فقد كان يلقي عظاته، وقتها، في كنيسة سان لورينزو الأقل حجماً، هناك حيث ألهبت عظاته مشاعر المصلين، دون أن تخلَّ بالميثاق السرّي الذي قام بينه وبين أسرة ميديتشي، مما جعلها مدار حديثٍ بين أناس كثيرين في فلورنسا.

وكانت قد مضت ثلاثة أيام على انقضاء جنازة لورينزو، التي أُقيمت في الكنيسة ذاتها التي أَلقى فيها سافونارولا عظاته، حين أخبرت رسالة كتبها نيكولو غيتشارديني، وهو قريب فرانشيسكو غيتشارديني الذي يكبره سناً، بأن «سافونارولا يلحّ، كل صباح، في عظته على ترديد القول حول الكيفيّة التي ستعاني فيها البشريّة جمعاء من عقاب ينزله بها الرب... وقد أُخبرتُ أنه قال في الصباح ذاته: إن الرب قد أصدر حكمه، وما من شيء يمكن أن يستنقذنا منه الآن»[9]. ووصف سافونارولا، إثر ذلك بأسبوع، في جمعة الآلام ما خبره من رؤيا جديدة، وتأتي هذه الأخيرة في الترتيب الثاني من سلسلة رؤاه؛ تلك الرؤيا التي شابهت في حدتها، فضلاً عما انطوت عليه من غموض، الخيالات القياميّة التي طبعت ما تنزّل عليه من إلهامات وحشيّة في بريشيا، فقد كشفت له هذه الرؤيا الجديدة:

«أنَّ صليباً أسود مدَّ ذراعيه ليغطي الأرض كلها. وقد طُبعت عليه الكلمات التالية: (صليب غضب الرب)، وكانت السماء قطعة سوداء تضيؤها التماعات البرق ودوّي الرعد، قبل أن تقتل عاصفة هوجاء من البَرَد جمهرة من الناس، ثمَّ انقشعت الغيوم، وتبدت

السماء ناصعة، وظهر في وسط القدس صليب ذهبي ارتفع إلى السماء مضيئاً العالم كله، وكتب على هذا الصليب الكلمات التالية: صليب رحمة الرب، واندفع الناس أفواجاً ليوقروه»[10].

وما يبعث على الدهشة أن الرؤيا المذكورة آنفاً لم تعرض لسافونارولا خلال ليلة من ليالي تحنُّثه داخل منعزله في صومعة الدير، إذ ستأتي السنين لتكشف، كما زعم في النسخة المكتوبة التي تحكي عما تنزَّل عليه من إلهامات، أن هذه الرؤيا تكشفت له وهو في غمرة إلقائه لعظته، وأنه اكتفى بوصفها لجماعة المصلين كما رآها لا أكثر[1]. ويمكن للمرء أن يتخيَّل شدَّة هذه التجربة، وطبيعة وصفه لها، فضلاً عما تركته من أثر محتوم على نفوس سامعيها.

لكن، ماذا عنى هذا الإلهام الأخير؟ رفض سافونارولا، من جهته، أن يُجرَّ إلى الحديث عن هذا الأمر، وبقيت فلورنسا، عدّة أيام، مسكونة بالهواجس والتخمينات. وكتب أحدُ المواطنين المهمين، بعد ذلك بأسبوعين، في رسالة حول هذا النبأ المثير يقول: «كانت فلورنسا كلها تسعى لفك مغاليق هذه النبوءة»[11]. وليس بوسعنا إلا التكهُّن إزاء هذا الشأن، على أنَّ جلاء الأمر -كما يبدو- يتمثل في أن ما خبره سافونارولا من إلهام لم يكن سوى تفصيل إضافي لفكرته الرئيسة حول العقاب الإلهي، وكيف أن هذا الغضب الإلهي

(1) إذا أخذنا بعين الاعتبار التزام سافونارولا الصارم بقول الحقيقة، فمن المستبعد، بصورة كبيرة، أن تكون مثل هذه المزاعم من باب الكذب. وفي واقع الأمر، فإن علم الأعصاب الحديث يتجه لدعم زعم سافونارولا هذا، إذ يشير النشاط الدماغي الموضَّع، خلال هذه الرؤى بأن الشخص الذي يعاني من هذه الحالة الذهنيّة «يرى»، فعلياً، ما يدَّعي أنه يراه. وعلى نحو مشابه، فحين يدعي أحد الناس أنه يسمع «أصواتاً» تتحدث إليه، فإن النشاط الدماغي الملائم يشير إلى أنه يقول الحقيقة. ولا يشعر الشخص في أي من الحالتين أنه مسؤول عن هذه التأثيرات النفسيّة التي تبدو له صادرة من مصدر خارجي جبّار.

سينزل بكنيسة روما، في حين سينعم من بقي وفياً للرسالة الأصليّة، التي بشَّر بها المسيح في مدينة القدس، برحمة الرَّب.

تواقتت وفاة الطاغية الأول؛ لورينزو، الذي تنبأ سافونارولا بموته مع التاريخ الذي حدَّثت عنه تلك النبوءة، وما لبثت الأخبار أن تواردت إلى فلورنسا من روما مخبرة عن وفاة إينوسنت الثامن في الخامس والعشرين من يوليو، وتكون النبوءة الثانية من نبوءات سافونارولا الثلاث، بذلك، قد تحققت، بيد أن فيرانتي؛ ملك نابولي بقي حياً يرزق، وإن تحدثت الإشاعة عن معاناته من المرض. وكثر اللغط في أوساط أهل فلورنسا، فكيف قُدِّر لسافونارولا معرفة أن هذه الأمور لا بُدَّ حادثة، لولا أن كان، بالفعل، نبياً حقيقياً يتلقى كلمات الرب مباشرة؟

والجواب عن هذا متضمن في التقرير الأصلي للنبوءة، الذي أَعدَّه سافونارولا في منتصف عام 1491 في غرفة مقدسات دير سان ماركو للوفد الذي أرسله له لورينزو العظيم، وهي نبوءة تناهت إلى مسامع عدد من الحاضرين. وتصف رواية فيلاري تقارير هؤلاء المستقاة من حضورهم ذلك الاجتماع، «كيف بدأ سافونارولا يتكلم عن مدينة فلورنسا والواقع السياسي في إيطاليا، مظهراً معرفة عميقة بهذا الشأن أدهشت مستعميه»، وما من شك أنَّ سافونارولا بدا، بهذا الاعتبار، راهباً دنيوياً بامتياز، حرص أن يكون ملماً بآخر التطورات السياسيَّة في فلورنسا، وإيطاليا، وما وراءها. وفي غياب الصحف، كانت الأخبار تنتقل، من مدينة إلى أُخرى، عبر التقارير الدبلوماسيَّة المنتظمة، وعبر الأخبار التي يحملها التجّار والرحّالة. وكان عدد كبير من هؤلاء الرحالة رهباناً متعلمين، تنقلوا بين الأَديرة، فقد دأب الرهبان الدومينيكان على السفر إلى دير سان ماركو في فلورنسا أو

التعريج عليه، حاملين معهم آراء مدعمة بالمعلومات حول آخر التطورات في المدن التي سافروا عبرها. وهكذا، فلا بُدَّ أن يكون سافونارولا، والحالة هذه، مطَّلعاً على حراجة وضع إينوسنت الثامن الصحي، وأنَّ مُقام ملك نابولي، الذي أوهنه العمر، لن يطول كثيراً في هذه الحياة، وما من شك في أن سافونارولا كان عارفاً بأنَّ نوبة النقرس المهلكة قد أَلَمَّت بلورينزو العظيم. وهكذا، فإن عدداً كبيراً من المصلين المطلعين على خفايا الأمور لم يجدوا في «نبوءة» سافونارولا المتعلقة بهؤلاء الطغاة الثلاثة ما هو خارق للعادة. أما البسطاء وغير المطلعين من أهل فلورنسا، فلا ريب أنهم ألفوا هذه «الإلهامات» المتعلقة بمصير عظماء زمانهم مثيرة جداً.

غير أنَّ هناك عاملاً آخر، هنا، فعلَ فعله حتى في أهل الدراية ممَّن كانوا يستمعون إلى عظات سافونارولا، ومن بين هؤلاء مثقفون بارزون من أمثال بيكو ديلا ميراندولا، وبوليتسيانو، وحتى فيتشينو؛ الأفلاطوني المتشدِّد، وإن بصورة أقل. وتمثَّل هذا العامل في ميخائيل انجلو الذي ألمع إلى قوة سافونارولا الحقيقيَّة، فقد صقل الفتى ميخائيل مهاراته في النحت في الحديقة التي أقامها لورينزو إلى جوار دير سان ماركو، هناك حيث أنفق الساعات الطوال يجاهد في صنع تماثيل تشبه نماذج التماثيل الكلاسيكيَّة التي جمعها لورينزو. وسيتسقَّط، وهو في غمرة العمل، ما يعظ به سافونارولا طلبته من الرهبان المبتدئين وأخوته الرهبان، مستظلاً بشجرة الورد الجوري في حديقة الدير الكائنة على الجانب الآخر من الطريق؛ تلك التجربة التي لن ينساها ميخائيل انجلو ما حيي. ولقد تشرَّب الأخير روحانيَّة عميقة وهو لم يزل بعد صغيراً، وسرعان ما ألفى نفسه منصتاً بكليته لما كان يقوله سافونارولا، حتى إنه وَجد نفسه مأخوذاً بالأسلوب الذي كان يتحدث به سافونارولا

إلى درجة أنه أسرَّ إلى أحد تلامذته الأثيرين، واسمه أسكانيو كونديفي، بعد ذلك بست عشرة سنة، «أنه مازال بمقدوره سماع صوت سافونارولا حياً ومجلجلاً في عقله ونفسه»[12].

ولا ريب أن سافونارولا أصبح، لدى عودته إلى فلورنسا، وتبوُّئِه رئاسة دير سان ماركو، مبشِّراً متفرِّداً[13]، إذ تعلَّمَ كيف يبرز صوته، فإذا هو يجلجل على نحو لا يماثله في التأثير أسلوب آخر، متردِّداً في جنبات أي كنيسة، بدءاً من كنيسة سان ماركو الصغيرة إلى الفضاء الفسيح تحت قبة كاتدرائية فلورنسا. كما تعلم أن يُليِّن الأحرف الصائتة في لهجتة الفيراريَّة الغليظة التي تنطق الـ «g» المرقَّقة كما لو أنها «z» (كما هي الحال في اللهجة البندقيَّة التي يتكلم بها الناس، وتُرى على اللافتات حتى يومنا هذا)، إذْ لا بُدَّ أنه نطق كلمة Bargello (قصر العدل) بقلب الجيم زاياً لتصبح «Barzello»، مما أثار ضحكاً مكتوماً في أرجاء الكنيسة، وقاد نفراً من الناس إلى تقليد سافونارولا بغرض التهكم. لكنَّ عمَلَهم خَبِط، فالأغنية الساحرة التي ستتلبَّث في عقل ميخائيل أنجلو إلى الأبد، وتسلب ألباب المثقفين المرهفة، ويتمايل لوقعها عامة الناس، أخذت، حتماً، في تلطيف هذه العيوب المضحكة منذ زمن بعيد. وقد مارس سافونارولا هذه العمليَّة (إصلاح نطقه)، لا ريب، ممارسة واعية، ومن المحتَّم أن يكون قد استخدمها في رحلته التبشيريَّة في شمال إيطاليا بعد أن غادر فلورنسا، إثر الإخفاق الذي رافق عظاته هناك وجعله يعتزم الإقلاع عن الوعظ تماماً. أما ما يتصل برحلته إلى مدن شمالي إيطاليا– التي امتلكت كل مدينة منها لهجتها الخاصة– فمن نافل القول أن يكون سافونارولا قَدْ كيَّف صوته كي يكون مفهوماً وخلواً من أي عاميَّة غريبة أو خاصيَّة مثيرة للضحك، ولم يكن بمقدوره فعل ذلك إلا عبر تجريبه غير لهجة،

وتقييمه تأثيرات كل واحدة منها.

ولم يكن سافونارولا يعلم، خلال سنوات تطوافه هذه، أنه سيعود يوماً إلى فلورنسا. لكنه كان مدركاً أن اللهجة الفلورنسيَّة كانت في طريقها لتصبح معتمدة في أرجاء إيطاليا جميعها بوصفها اللغة القوميَّة. وربما لعب دانتي دوراً في الدفع بهذا الاتجاه، وذلك حين كتبَ، في القرن السابق، كوميدياه الإلهيَّة، مستخدماً اللهجة التوسكانيَّة، فضلاً عن إسهام معاصِرَيْه الأديبين العظيمين؛ بوكاتشيو وبيترارك، اللذيْن آثرا الكتابة باللهجة التوسكانيَّة المستخدمة في منطقتهما المحليَّة عوض الكتابة باللاتينيَّة المعتادة، التي درجت النخبة المثقفة على استخدامها في التأليف. وهكذا، فقد جاءت الكوميديا الإلهيَّة، وحكايات بوكاتشيو المفعمة بالحيويَّة، وسونيتات بيترارك في الحب، لتحتل المشهد الأدبي برمته. وإذ أثبتت أعمالهم أنها شعبية ومحبوبة لدى قطاع واسع من القراء على اختلاف ميولهم، وذوائقهم، فقد غدت الطبقات المتعلِّمة، خلال فترة قصيرة، متمكنة من هذه اللهجة التوسكانيَّة، كما أصبحت الأخيرة، بحلول القرن التالي، لهجة مفهومة، بصورة قليلة التفاوت، على امتداد الشمال الإيطالي، حيث اختار سافونارولا كغيره من المبشِّرين الجائلين، الذين كانوا يلقون عظاتهم على مسامع عامة الناس من المصلين) أن يعظ بهذه النسخة من الايطاليَّة، كي يكون كلامه مفهوماً لدى قطاع أوسع من المصلين. وعنى اجتماع هذه الجملة من الظروف، أن سافونارولا حين عاد إلى فلورنسا، إثر ذلك بثلاث سنين، كان قد تمكَّن، من اللهجة التوسكانيَّة، وانطلق بها لسانه؛ تلك اللهجة التي غَدت، شيئاً فشيئاً، لغة إيطاليا قاطبة.

ولا بُدَّ من أن نضع، هنا، نقطة أخرى بعين الاعتبار، مؤداها أن العظة

مثّلت الملمح الرئيس الثابت في قُدّاس ذلك العصر، ولاسيما في الصوم الكبير وعيد الظهور. إذ تُلْقى في هاتين المناسبتين سلسلة من العظات لا تلتزم الأساس اليومي. وهكذا، فمن المؤكد اجتذابها حشوداً كبيرة، وأن تطول إلى ما شاء الله، ساعتين أو ثلاث ساعات ربما. ويقتضي ذلك من المبشّر أن يصطنع أسلوباً رشيقاً ومثيراً حتى يجتذب انتباه الحاضرين، ويشنّف آذانهم طوال فترة العظة الطويلة، وغالباً ما كان يتضمن هذا الأسلوب أسئلة منمقة وملهبة يباشر هو نفسه بالإجابة عنها ما إن ينتهي من طرحها. كما كانت قطاعات بأعيانها من المجتمع، وأشخاص بذواتهم، وحتى أفراد مخصوصون من جماعة المصلين، عرضةً إلى أن يُشار إليهم بالبنان في معرض هذه العظات. وكان يجري استخدام أمثلة اجتماعيّة، وأشكالٍ من السلوك بغرض السخرية، وغالباً ما يتضمن ذلك المحاكاة الساخرة والمؤثرات الهزليّة. كما كان يجري التعليق على الأحداث والوقائع المحليّة. واستخدمت في هذا الشأن أساليب محبّبة مثل السخرية (غالباً ما كانت من العيار الثقيل) والمحاكاة التهكميّة، فضلاً عن أساليب الفكاهة الصريحة. ويضاف إلى كل ما سلف، استخدام أساليب الجدال العنيف، التي تتصاعد إلى مستويات مشتطة من القدح والسباب، أو تنزل إلى مستوى الخطبة الرنانة البسيطة. غير أن هذه الأساليب والطرق لم تستخدم إلا بغرض تسخين جماعة المصلين، ولفت انتباههم، على اختلاف مشاربهم. وتأتي بعد ذلك كله الوسيلة الخطابيّة الأكثر تأثيراً وتكراراً، وهي استثارة الخوف الوعيدي، الذي سيستخدم إلى أقصى مدى، وتمثّل في الخوف من الموت، والخشية من غضب الرب، والخوف من جهنم وما فيها من صور العذاب.

وقد أصبح سافونارولا متمرّساً بهذه الطرق عندما اكتشف، خلال عظات الصوم الكبير التي ألقاها في سان جيمنيانو قبل ست سنوات، كيف يمكن للرؤى القياميّة أن تلهب مشاعر المصلين. وقد ألمح، في البداية، إلى أن هذه الرؤى مستقاة من الكتاب المقدس، ولاسيما من أنبياء العهد القديم وسفر الرؤيا. وظل، لفترة متأخرة، يتوسّع في تناول هذه الرؤى، زاعماً، حتى ذلك الحين، أنها تستندُ إلى ما جاء به الكتاب المقدس، الذي يمثّل المرجع لكلامه حتى حين تجاوزه بمخيلته. ولم يحد عن المعتقد والمرجع الكتابيّين إلا حين أسكره ما حظي به من سلطة وقوة إلى الحد الذي بدأ معه يطالع الناس برؤاه الخاصّة. وقد تلقى حينها الإشارة الأولى بأن ما مارسه من قوة وتأثير على جماعة المصلين من سُدّة المنبر يمكن أن يمتدّ خارج الكنيسة التي كان ينشرُ فيها رؤاه.

وأمل سافونارولا أن يُحرّر مشايعيه من الفساد الذي نفذ إلى كل جانب من جوانب الكنيسة، كما أراد العودة إلى الروحانية البسيطة للمسيحيّة الأصليّة التي بشّر بها السيد المسيح. ومن الممكن أن يَفرِض ما تتطلبه هذه الحياة من تفان وتقشف صارمين ضمن حدود الدير، ومن الممكن أن يتقيّد به، حتى أولئك المؤمنون من الفقراء. ليس هذا وحسب، فربما ألهمت الكنيسة، بصلبانها المروّعة، وما تتوفر عليه من صور مقدسة وتماثيل بديعة للقديسين، كثيراً من الناس لتغير حياتهم. لكن المصلين سيخرجون، ما إن ينفض القداس، وتبتلعهم ساحات المدينة وطرقاتها الممتلئة بأشعة الشمس؛ تلك الساحات والطرقات التي احتفظت ببهائها الدنيوي، حيث يلتقي الأصدقاء فيتبادلون التحايا والأخبار، وينهمكون في القيل والقال. وهكذا تعود الحياة إلى مجراها الدنيوي، بما فيها من دفء عائلي ومشاحنات وكدح

يومي لنيل لقمة العيش، فضلاً عن مباهج الحياة اليوميّة القليلة وخيباتها البائسة الكثيرة. وثمة الضرائب، أيضاً، وأرباب السياسة، والقوانين الصارمة، وهي أمور تهوي، مجتمعةً، بحياة البشر إلى الدرك الأسفل. وقَدْ عرف سافونارولا، أنه إن أراد لكلمات المسيح أن تتحقق على نحو وافٍ ودائم، فلا بُدَّ له أن يَمُدَّ سلطته خارج حدود المباني الكنسية، إلى طرقات المدينة.

وقد خلف بييرو ابن العشرين عاماً، وبِكْر أبيه، والدَه لورينزو تبعاً لما خطط له الأخير تماماً. وتتباين الآراء حول شخصية بييرو، فمِن قائل إنه غير كفء، ومن قائل إنه موهوب، ولكن تعوزه الخبرة. لقد كان بييرو شاباً وسيماً وموهوباً على المستويين العقلي والبدني، وكان مغرماً بالصيد والمبارزة، ولكنه آثر أن يقضي أوقات فراغه في لعبة كرة القدم الخشنة، التي دعيت كالتشيو ستوريكو (Calcio Storico)، وكانت تقام في الساحة الكبرى مقابل كنيسة سان كروتشه، ولم تكن هذه اللعبة ملائمة لذوي القلوب الضعيفة. وكان بييرو، صنوُ أبيه، على درجة عالية من التعليم، إذ درس على معلمين من وزن بوليتسيانو وفيتشينو، كما قرض الشعر. لكنه لم يكن شاعراً مجدّاً مثل أبيه. وفي واقع الحال، جهد بييرو، في سنوات مراهقته، لتقليد أبيه لورينزو وتمثل شخصيته، فلماذا اعترف أبوه، سراً، بقوله: «إن أحد أبنائه غبي، أما الآخر فذكي»، قاصداً بييرو بصفة الغباء؟

لقد نجحت أسرة ميديتشي، خلال عهد لورينزو الذي امتدَّ إلى ثلاث وعشرين سنة، في أن تحقق الصدارة، تدريجياً، وتصبح الأسرة الأولى في فلورنسا. ورافق ذلك كل مظاهر الأبهة التقليديّة التي لم تعرف التواضع. ولقد لاحظ لورينزو، على وجه السرعة، أن ما تمتع به بييرو من امتياز بوصفه

ابنه ووريثه عزَّز في شخصه صفة الغطرسة، مما قاده، في بعض الأحيان، إلى سلوكات طائشة أو قرارات متعجلة حاذياً، في ذلك، خطى والده النزقة والمتطرفة في جرأتها (تلك الخطى التي كان من الممكن أن توصف بالطيش والتسرُّع لو أنها باءت بالفشل). وربما داخلت بيرو ريبة في مواهبه، ورغبة في البروز أمام عيني والده، وربما في التفوق عليه. وهكذا، تبرز هذه الغطرسة والطيش عَرَضيْن لما داخله من شكوك وطموحات.

وقد بذل لورينزو وسعه لإصلاح ما انطوت عليه شخصيَّة ابنه من عيوب، وهيَّأه، بعناية بالغة، كي يخلفه في الحكم، فحرص أن يعقد بيرو صداقات مع رجال بارزين من الأسر الفلورنسيَّة، مثل؛ باولانتونيو سودريني، وبرناردو روتشيلاي، وفرانشيسكو فالوري؛ أولئك الرجال الذين ارتبط العديد منهم بأسرة ميديتشي بآصرة نسب، وأثبتوا ولاءهم إبان حكمه. كما حثَّ لورينزو ابنه على الاستماع إلى نصحهم، فقد كان استمرار حكم أسرة ميديتشي منوطاً، إلى حد كبير، بما توافر لديها من حظوة وشعبيَّة عند غالبية العائلات البارزة القويَّة، ناهيك عن دعم عامة الناس الذي كان متقلّباً. لكن غطرسة بيرو، لسوء الحظ، ذهبت بهذه الشعبية. وما كان لهذا أن يكون شديد الضرر لولا زوجة بيرو؛ ألفونسنيا أورزيني ذات المحتد الأرستقراطي. فَقدْ كان لورينزو قد زوَّج بيرو بألفونسينا، بغرض تعزيز تحالفه مع روما، فضلاً عن ملك نابولي الذي كان وصياً عليها، لكن ألفونسينا كانت فتاة متنفِّجة، واعتقدت أن زواجها بواحد من أسرة ميديتشي هو اقتران بمن هو أدنى منزلة منها. وأسوأ من ذلك، أنها نظرت إلى فلورنسا بما هي مدينة ريفيَّة مملَّة تفتقر إلى البيوتات البابويَّة والأرستقراطيَّة في روما، وتعوزها الثقافة والثروات الفاخرة للمدينة التي تمارس تأثيرها على

العالم المسيحي أجمعه[1].

وكان بيرو يرى نفسه، مثله كمثل والده، نسيج وحده، مما رغّبه في انتهاج أسلوب حكم خاص به، لا أن يحذو حذو أبيه. لكنه شابه أباه في تبرّمه من التفاصيل اليوميّة الدقيقة، وضيقه بالإشراف على أعمال السينيوريا، ولهذا فإنه استبقى مستشار والده؛ بيرو دا بيبينا، كما احتفظ بالرجل المسن؛ جيوفاني تورنابوني، مديراً لبنك ميديتشي، الذي يرزح تحت ضعف ظاهر. لكنه عمد، كي يضع بصمته الخاصة على إدارة المدينة، إلى ترقية عدد من الشخصيّات التي استحق بعضها ذلك بما امتلكه من موهبة حقيقيّة، أما الآخرون فلم تكن لهم سوى صفة الصداقة التي جمعتهم ببيرو. واقتضت هذه التعيينات الجديدة عزل عدد من الشخصيّات المؤثّرة، التي انتمت، غالباً، إلى الأسر المتنفذة المؤيدة لأسرة ميديتشي. وبدأ الخلاف يحتدم بين بيرو ومستشاريه؛ باولانتونيو سودريني وبرناردو روتشيلاي، وما لبث أن تجاهل توصياتهما قبل أن يصرفهما من الخدمة.

وكان لورينزو قد حرص، بما امتلكه من إدارة سياسيّة محنّكة، أن يقترن المستشارون من أمثال باولانتونيو سودريني، وبرناردو روتشيلاي، بآصرة النسب مع أسرة ميديتشي، فينال بذلك ولاء أسرهم المتنفذة. وهكذا، فقد ترك هذا الطرد كلاً من عائلتي سودريني وروتشيلاي في وضع حرج[14]، إذْ لا تستطيع هاتان الأسرتان، الآن، أن تتحالفا مع الأسر البارزة التي استمرت، وإن سراً؛ في معارضة حكم أسرة ميديتشي بصورة ضارية. ومع

(1) يتعارض هذا مع الحقيقة التاريخيّة التي تقوم على النقيض من ذلك، ومؤداها أن النهضة في فلورنسا بلغت، في ذلك الوقت أوجها، في حين ظلّت روما، إلى حد كبير، قروسطيّة في ثقافتها. ولم تكن النهضة في المدينة المقدّسة، آنئذ، إلا في بداياتها؛ تلك التي تدين بها المدينة كثيراً إلى الفنانين الذين أرسلتهم فلورنسا.

ذلك، توضَّح، في وقت قصير، أن ثمة حلاً لمشكلة الولاءات المُنقسمة هذه، فقد عاد الأخوان لورينزو وجيوفاني دي بيرفرانشيسكو دي ميديتشي، في هذا الوقت، إلى فلورنسا، وذلك بعد ما أمضياه من سنين في إسبانيا والبلاد المنخفضة، حيث عملا على تنمية تجارتهما التي تمثَّلت، أساساً، في تجارة نقل الحبوب، التي تُدرُّ أرباحاً طائلة. ولم يكن الأخوان بيرفرانشيسكو أغنى بكثير من فرع الأسرة الرئيس فحسب، وإنما اتبعا كذلك، في سبيل حماية ثروتهما، خطى أقربائهما، وبدأا في بناء قاعدة نفوذ سياسيّة خاصة بهما. وكان لا بُدّ أن تكون هذه الأخيرة متحالفة مع قاعدة النفوذ المتعلقة بفرع العائلة الرئيس. ومهما يكن من أمر، فلم يخف بييرو غيرته المتناميّة من الأخوين لورينزو وجيوفاني اللذيْن رآهما مُحْدَثَيْ النعمة، مما تسبب في برودة العلاقات بين فرعي الأسرة. وقد تعزّز هذا التنافر بطرد سودريني وروتشيلاي. ولما لم تكن هاتان العائلتان قادرتين أو راغبتين في قطع علاقتهما مع أسرة ميديتشي، فقد جاهرتا بأن ولاءهما، حينئذ، منصرف إلى الفرع الثاني من أسرة ميديتشي، الذي يتزعمه لورينزو دي بيرفرانشيسكو. وكان الأخير قد أمضى كثيراً من الوقت متنقلاً بين المواقع الرئيسة التي تضطلع بإدارة المدينة، وشغل الموظفون هذه المواقع عبر الانتخاب. وقد أثبت لورينزو دي بيرفرانشيسكو، خلال هذه الزيارات، أنه سياسي محترف وذو شخصيّة منظمة تنظيماً عالياً، فبدأ بعض الناس يتساءل، نتيجة لذلك، لَمِ يمتلك سليلو فرع كوزيمو ميديتشي الحق في تبوُّؤ الحكم دون بقية أعضاء الأسرة، ولاسيما إذا أثبت أحد هؤلاء أنه يمتلك من المؤهلات ما يجعله قادراً على الاضطلاع بهذا الدور. غير أن هذا الحديث لم يحظ بإجماع أسرة مديتشي، إذ أدرك هؤلاء الأشياع، بحق، أنه إذا أُخضع حكم ابن أحد فروع

أسرة ميديتشي وورثه للمساءلة، فربما لن يمضي وقت طويل قبل أن يخضع لها حكم أسرة ميديتشي عامةً. والسؤال هنا: لم تستقلُّ أسرة ما بالحكم، وتستأثر به في مدينة تفاخر بكونها جمهوريّة ديمقراطيّة؟

(9)
فلك نوح

كان بالإمكان أن تفضي مكائد خفيَّة، كتلك السابقة، إلى التعجيل بسقوط بيرو دي ميديتشي، ولاسيما إذا عمد الناس إلى الانقلاب عليه، لكنهم لم يفعلوا. ولا بُدَّ أن يعزى السبب الرئيس في هذا إلى سافونارولا، الذي التزم بما عاهد عليه لورينزو عشية وفاة الأخير، فأحجم عن مهاجمة بيرو في عظاته. فلقد استشعر سافونارولا سلطته المتناميَّة المستمدة من المنبر، فأراد أن يتصالح مع لورينزو أملاً في الحصول على بعض النفوذ السياسي فيما وراء سان ماركو، لكنه لم يشكل في ذهنه –حتى هذه الفترة– اي فكرة واعية تتصل بكيفيَّة فرض معتقداته على مدينة فلورنسا أجمعها. وفي نهاية المطاف، كيف يمكن، بحق السماء، تحقيق ذلك؟ لعله أضمر رغبة تحقيقه، وتاقت نفسه إليه، وربما حلم به، لكن هذا الأمر لم يكن هيِّناً يسيراً، بل إنه أَدْخَلُ في باب المُحال، وهو أشبه بتحويل المدينة جمعاء إلى دير، لكن حلماً مستحيلاً بدأ بالتنامي في عقل سافونارولا بالتأكيد، ولا ندري كم كانت درجة الوعي بهذا الحلم، أو ما انطوى عليه من ممكنات عمليَّة، غير أنَّ الدليل على وجوده قائم ولا مراء فيه، ذلك أنّ عظاته حينئذ، أي التي ألقاها في عيد الظهور الموافق لديسمبر من عام 1492، بدأت تدور حول موضوع كامل الجدَّة، ذلك أنه شرع، في معرض إدانته المعتادة للشر المستطير

الذي يهدِّد بابتلاع العالم، في الحديث عن فلك نوح، وهي السفينة التي حملت، تبعاً للتاريخ الكتابي (المتعلق بالكتاب المقدس)، الناجين من طوفان الرب. وسيفعل الرب ذلك، من جديد، فيُغرِق العالَم بما حواه من خليقته إن غدا فسادهم مستفحلاً ولا براء منه. وقد تجاوز ذلك التحذيرات القيامئة والأوامر الموجهة للمؤمنين، التي تحضُّهم على التمسّك بما بشر به المسيح من تعاليم أصليّة في مدينة القدس، فقد كان سافونارولا يقترح، للمرة الأولى، فكرة عمليّة إيجابيّة في سبيل تحقيق الخلاص الأرضي، أو أنها بدت كذلك.

ونحن لا نعرف، في واقع الحال، الطبيعة الدقيقة لهذه العظات، فالنسخة المطبوعة التي وصلتنا هي، تبعاً لكاتب سيرة سافونارولا؛ فيلاري، نسخة مُجمَّعة كيفما اتفق، ومليئة بالأغلاط إلى درجة تجعلها لا تتوفر على أي ملمح بسيط من ملامح أسلوب سافونارولا في الكتابة. ذلك أن الشخص الذي عمد إلى تدوين هذه الخطب لم يكن بمقدوره مجاراة كلمات سافونارولا المتلاحقة، فكان كل ما تيسّر له تدوينه، على ما يبدو، إشارات متفرقة ومجتزأة لما قاله سافونارولا فعلياً، ثم جرت ترجمته، لاحقاً، إلى صورة رديئة من اللاتينيّة المكرونيّة[1].

مهما يكن من أمر، فقد رأى فيلاري، الذي لم يعرف سافونارولا كما عرفه الآخرون فحسب، وإنما امتلك، فيما يبدو، مصادر إضافيّة، أن سافونارولا تحدَّث في عظاته عن فُلْك غامض أو ملغز، تأتي لكل من أَراد الفرار والنجاة من الطوفان، الذي سيغمر العالم عما قريب، أن يأوي إليه. وإذا أخذنا ذلك بالمعنى الحرفي فهذا فلك نوح الذي تكلَّم عنه سفر التكوين. أما إذا تناولناه من الزاوية الألغورية (الكنائية)، فمن الممكن أن يعني اجتماع

---

(1) لغة مُلمَّعة بكلمات لاتينيّة وأخرى غير لاتينيّة. (المترجم)

المؤمنين الذين سيفوزون بالخلاص، ثم فصَّل سافونارولا الحديث حول هذه الثيمة، موضِّحاً أن طول الفلك يمثِّل الايمان، وعرضه عمل الخيرات، أما ارتفاعه فيمثِّل الرجاء»[2].

لكنَّ «أليغوريا سافونارولا الغريبة» ما لبث أن اتخذت أبعاداً أكثر عمليَّة، حين أوضح كيف سَيُبنى هذا الفلك باستخدام عشرة ألواح.

ويعارض سافونارولا في هذا المجال، ما درج عليه، الكتاب المقدس، الذي يقرِّر فيه الرَّب أنَّ: «ثلاثمئة ذراع[1] يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه»[3]. ومن الممكن، هنا، أن نتبيَّن دافع سافونارولا إلى ذلك في الشَّكل الذي اتَّخذته مدينة فلورنسا في العصور الرومانيَّة، إذ كانت مُقسمة، في الأصل، إلى عشر مناطق «decumani». غير أن سافونارولا جهد في التأكيد أنَّ هذا التفسير ليس صحيحاً، ذلك أنَّه: «سيعطي، كل يوم، تفسيراً مختلفاً للألواح العشرة التي ستستخدم في بناء الفلك»[4].

وسيلقى هذا المزيج الغريب مما هو عملي، واستعاري، وكتابي، وروحي، أهمية مختلفة لكل شريحة من جماعة المصلين، كما أنَّ طبيعته الامتزاجيَّة هذه ستعزِّز قوة ما يحمله من رسالة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يكن سوى خطوة قصيرة في الانتقال من الجوانب الأكثر روحيَّة للفلك إلى تمظهره المادي المتشخِّص بألواحه الخشبيَّة العشرة. وكان سافونارولا، في هذا الموضع، يحلم بصوت عال وواضح، مطلقاً لمخيلته العنان في الترحل والتجواب، حتى وإن لم يكن قد امتلك، بعد، تصوراً حول الكيفيَّة التي

---

(1) يُقدَّر الذراع، عادة، بأنه كان يساوي، على الأقل، قدماً ونصف، مما يجعل طول فلك نوح مساوٍ لـ 150 ياردة.

يمكن أن يبني فيها فلكه. ولم يكن سافونارولا، في الوقت ذاته، يُدلي بأي تصريح سياسي، وكان واضحاً في ذلك أيّما وضوح. وهكذا، فإن بييرو ميديتشي، مثله كمثل السلطات، لم يستشعر تهديداً من عظاته التي عملت على حض المواطنين على تمثّل حياة مسيحيّة ملتزمة وعميقة لا غير، فقد حفظ سافونارولا ما قطعه من وعد بشأن بييرو ولم يخلفه.

ربما بدت هذه الخلاصة متكلّفة وبعيدة الاحتمال، غير أنها تستمدُّ قوتها من موقف سافونارولا، في عظاته تلك، تجاه الدويلات الإيطاليّة الأخرى؛ تلك الثيمة السياسيّة التي مثّلت لديه نقطة البدء والمعاد. ويمكننا القول كذلك إن فلورنسا مثّلت القوّة الكبرى الوحيدة التي سلمت من طعونه وتقريعه، دون غيرها من القوى. ولقد مارس إلقاء عظات عيد الظهور المنتظم تأثيراً مدمّراً على قوى سافونارولا البدنيّة، والذهنيّة، والتخيليّة، وأفضت به هذه المحنة المرهقة، التي امتدت حتى أواخر عام 1492، إلى اختبار اللوحة الثالثة من «إلهاماته الكبرى»[1]. وعندما كان سافونارولا وحيداً ومسهّداً داخل صومعته، في إحدى ليالي الشتاء الطويلة الباردة، فإنه أجهد ذهنه ملتمساً من الرب الإلهام فيما سيقوله في عظته الأخيرة من عيد الظهور، التي كان من المقرر أن يلقيها في اليوم التالي.

ولم يتنزّل عليه شيء، ثم ما لبث أن تراءت له يد تلوّح بسيف نقشت عليه كلمات تقول: «سيف الرَّب المحيط بالأرض، قاطعٌ وسريع»[3]، وسمع هاتفاً مدوّياً: «لقد أزف الوقت الذي أستلُّ به سيفي، فتُب قبل أن ينزل بك

(1) الإشارة، هنا، إلى الإلهام الذي جرت الإشارة إليه سابقاً. وكان قد أُعتقد، خطأً، أنه سابق على وفاة لورينزو العظيم، مما تسبب، كما زعم بعضهم، في أن ترى جماعة المصلين الصاعقة التي ضربت الكاتدرائيّة بما هي دليل إعجازي على غضب الرب كما ذكر سافونارولا.

غضبي، فربما سعيت إلى الاختباء حين يحلُّ يوم الدينونة، ولكنك لن تعثر، حينذاك، على معاذ».

ولقد تتابعت رؤيا سافونارولا، فرأى اليد التي تحمل السيف في السماء، وسط هزيم الرَّعد، توجَّه السيف نحو الأرض كما لو لكانت ستهوي عليها بضربة، في حين امتلأ الفضاء بالنيران المُتلظيّة، حارقة كوكبة السهم وغيرها من الطَّوالع، مما أشَّر إلى أن الأرض ستغمرها الحرب والمجاعة والوباء.

وأصبح السيف الدَّال على غضب الرب الشغل الشَّاغل لسافونارولا، وملمحاً دائماً في رؤاه. هذا ما كانت عليه حال المشاهد المفزعة التي شهدها سافونارولا في هذه «الرؤيا»، مما جعله لا يكشف عنها في عظته التي ألقاها في اليوم التالي. وعندما وضع كتابه «جامع الكشوفات»، فإنه اعترف بالسبب الذي جعله يحجب ما رآه، فقد خشي إن تحدَّث بمثل هذه الأشياء الغريبة أن يسخر منه أهل فلورنسا.

ولم يصلنا نص هذه العظة، شأنها شأن غيرها من العظات، غير أنَّ بعض المصادر المعاصرة في ذلك الزمان، أجمعت على أن هذه العظة، بخلاف ما كان يظنُّ سافونارولا، بعثت الرعب في أوصال قطاع واسع من المصلين، الذين لم يسبق أن طرقت أسماعهم مثل هذه الأشياء التي تنبأ بها. وتشيرُ الدلائل جميعها أن ذلك كان يتعلَّق بعظة سافونارولا التي حذَّر فيها من أن إيطاليا سيجتاحها قورش جديد[1] وسيعبر جيشه الغازي الجبال مجتاحاً كل ما يقف أمامه. ولما كان هذا الغزو إنفاذاً لإرادة الرب، فإن هذا الجيش الذي

---

(1) قورش العظيم الذي ذُكر، غير مرَّة، في التوارة، وكان ملك فارس في القرن السادس قبل الميلاد، وهو من حرَّر الإسرائيليين من السبي البابلي، سامحاً لهم بالعودة إلى «موطنهم» لبناء هيكل سليمان. وعليه، فقد نُظر إلى قورش في التراث المسيحي بوصفه أداة الرب غير العالمة بما جُعلت له.

يتزعمه قورش لن يقهر، و«سيستولي على المدن والقلاع بسهولة ويُسر»[6]. وعمد سافوناورلا إلى دعم نبوءته المفزعة بأن استشهد بكلمات الرب التي سطَّرها النبي التوراتي في سفر إشعيا، وتقول: «أنا أسير قدَّامك والهضاب أمهد، أكسر مصراعي النحاس، ومغاليق الحديد أقصف»[7].

ومهما يكن من أمر، فلم تكن كلمات سافوناورلا تُرهب الناس جميعهم، فعلى الرغم مما اتخذه سافوناورلا من تحوطات، فقد انصرف كثير من الناس عن عظته، وهم مقتنعون بأنه ذهب بعيداً هذه المرَّة، فقد كشف عن نفسه بوصفه مخبولاً يبحث عن الشهرة، وأن دعواه النبوئيَّة لم ترسِّمه قديساً، وإنما تجلَّت هلوساتٍ، وأعراضاً لمرض عقلي أو هذيانات تخيُّليَّة، ببساطة. ولم يكن ذلك اعتقاد السواد الأعظم من الناس، بل ربما سيتمُّ النظر إلى هذه العظة، في قابل الأيام، بوصفها الدليل الأهم، الذي يدعم توكيد سافوناورلا أنه نبي. ومما لا يمكن إنكاره، هنا، أن الأخير زعم أنه يُبصر المستقبل، ومالبث أن اتضح ما كان يدور في رأسه، فقد بقي توسع الإمبراطوريَّة العثمانية نحو الغرب تهديداً قائماً ودائماً لأوروبا الغربيَّة، بدءاً من المجر حتى البلقان، ولم يمض سوى اثني عشر عاماً على نزول القوات العثمانية في البر الايطالي، واحتلالها لأوترانتو الواقعة في كعب إيطاليا مدة سنتين، ولن يمضي وقت طويل، كما بدا، حتى تعود من جديد. وفي واقع الأمر، فقد ظهر سافوناورلا في واحدة من عظاته مرحباً بهذا الحدث المرتقب، نقرأ:

«أيها الرب، لقد استخفت بنا الأمم جميعها، فغدا الأتراك أسياد القسطنطينية، وخسرنا آسيا، واليونان. ليس هذا وحسب، فنحن

ندفع الجزية للكفار[1]. أواه أيها الرب، لقد عاقبتنا مثلما يعاقب الأب الغضبان أبناءه، لقد نفيتنا من رحابك، فعجل بعقابك وسوط عذابك علّنا نرجع إليك، أطلق غضبك على شعبنا»[8].

وقد ألفى سافونارولا نفسه ضائق الصدر بموقعه الجديد رئيساً لدير سان ماركو، فقد أبأسه ما رأى، خلال سنوات إقامته الأولى في الدير، من استرخاء ورفاه يرفل فيه أكابر أعضاء الرهبنة، الذين ينتمون إلى أسر فلورنسيّة بارزة، وغالباً ما كانوا من أصدقاء لورينزو المقربين. أمّا وقد غدا حينئذ رئيساً للدير، وغيّب الموت لورينزو، فقد عقد العزم على تغيير ذلك كله، ورأى ضرورة عودة سان ماركو إلى مألوف عهده من التقشف الذي أراده له مؤسس الرهبنة الدومينيكيّة، فقد قطع القديس دومينيك الطرق والأزقة حافي القدمين، مبشّراً بإنجيل المسيح الأصيل، وعائشاً على ما يتفضل به المستمعون إليه من صدقات يسيرة. وإذْ أسس رهبنته، فإنه أصرّ على أن يحتذي من يتبع هذا السلك من الرهبان حذوه، فيتخذوا نذور الفقر، والعفة، والطاعة. وعلى الرغم من اتخاذه نذور الفقر، فقد ألفى سافونارولا نفسه يعيش، في سان ماركو، وسط العديد من اللوحات الجصّية الفارهة والجميلة، التي تبرّع بها، على مر السنين، آل ميديتشي وغيرهم من رعاة الفن الأثرياء. وقد أحزنه النفاق الظاهر الذي يُميّز الموقع الذي يشغله، وأراد لطائفته أن تحيا تبعاً للتقشف الذي بَشّر به في عظاته بحماس شديد.

ولقد أخذ ذلك بمجامع عقله إلى درجة جعلته يرى، في إحدى الليالي

(1) آسيا المشار إليها، هنا، هي المنطقة الأصليّة التي أعطيت هذا الاسم. وتمثّلت في ذلك الإقليم من الإمبراطوريّة الرومانيّة الذي ضمّ غالبيةَ أناضوليا (تركيا الحديثة) بما فيها كامل الساحل الإيجي.

حلماً[1] أبصر في غضونه ثمانية وعشرين راهباً من رهبان سان ماركو، الذين قضوا في السنة الفائتة، يواجهون يوم القيامة. ومما أفزعه أن جميع هؤلاء، ما عدا ثلاثة، قُضي عليهم بالخلود في جهنم لنقضهم نذور الرهبنة، ولاسيما ما تعلّق منها بحياة الرَّفاه والدَّعة. وقَدْ شدَّ هذا الحلم من عزم سافونارولا لمباشرة إصلاحه لسان ماركو. وفي واقع الأمر، فإنَّه قرَّر أن من الأفضل للجميع أن تنتقل الطائفة خارج بلدة سان ماركو تماماً، ذلك أنها غدت مزدحمة، وإن استدعت هذه الخطوة مفاوضات مطوَّلة مع السلطات العليا.

وقد طَبّق ما عُرِف عن سافونارولا من تقوى الآفاق، وبدأ في اجتذاب تيّار من الزوار الشبان الجادين، الذين انصبَّ اهتمامهم على العودة إلى مسيحيَّة يسوع البسيطة، التي دعا إليها سافونارولا في عظاته وأيَّدها. وقد قدم هؤلاء الزوار إلى الدير من أمكنة قصيَّة ومختلفة، ولم يكونوا، جميعهم، من فئة الشبان. وضمَّ هؤلاء عدداً من الأكاديميين والفنانين، ممن ألهمهم فكر سافونارولا وشخصيته على نحو ما اجتذب بيكو ديلا ميراندولا وبوليتسيانو. وكان من بين هؤلاء العالم اليهودي ميثراداتس، الذي درَّس كلاً من بيكو وفيتشينو غوامض «القبالة» قبل بضع سنين. وكان كل من ميثراداتس وفيتشينو يكافح للتوفيق بين معرفتهما الهرطقية أساساً ومسيحيَّة يسوع البسيطة.

(1) يُرْجَع، عادة، إلى هذا الحلم، وغيره من الأحلام، بوصفها «رؤى»، في حين توحي الحيثيات أن ما خبره، هذه المرة وغيرها من المرات، كان، في واقع الأمر، حُلماً لا «رؤيا» يقظة، فلا بُدَّ أنه خبر هذه الأخيرة (أي رآها في عقله) وهو يقظان، حينما اعتاد أن يكون في حالة عاطفيَّة عالية (وهو يعظ، مثلاً)، أو بسبب الآثار التي تركها على عقله ما سار عليه من نظامٍ قوامه نكران مفرط للذات، اشتمل على فاعليات مسببة للهلوسة مثل الممارسات العقابيَّة للذات (كالجلد)، والجوع، والحرمان من النوم.

ويَبْرز بوتيتشيلي، من بين الفنانين، كأحد من لم تُخامرهم أي ريبة بوضعِه نفسَه، بالكامل، بين يدي سافونارولا. وعلى الرغم مما ذهب إليه جيورجيو فاساري من أن بوتيتشيلي «قد هجر الرسم» خلال تلك الفترة[9] كي يتفرغ لعبادة الرب، ويكرّس نفسه له، فإن ذلك تبدّى، منذ ذلك الحين، خاطئاً على نحو شبه مؤكد. إذ تحوّلت لوحاته، وقتها، إلى تصوير المناظر الدينيّة، ولاسيما ذات الطبيعة الحزينة المُشْجية. وبدأ مزاج بوتيتشيلي النابض بالحياة، الذي احتفى بالرمزيّة الوثنيّة للحقبة الكلاسيكيّة، متوسّلاً جماليّة رائقة، يكفهر متخذاً عمقاً سيكولوجياً أبعد غوراً. وتتبدى حالة ميخائيل إنجلو؛ الفنان المبّرز الذي أُخذ بشخصية سافونارولا وتعاليمه، أكثر إشكاليّة، فقد انطوى مزاج ميخائيل أنجلو، دائماً، على نزوع ديني عميق. ومن المؤكد أن تعليمات سافونارولا قد عزّزت لديه هذا الاتجاه. وما من دليل يؤشّر على أن «الراهب الضئيل» قد أثّر، أي تأثير قويّ، في فن ميخائيل أنجلو الذي احتفظ، على الرغم من الحس الديني العميق، بحسيّة ذكوريّة ظاهرة، متحت، أساساً، من المؤثرات العلمانيّة، مثل النزعة الإنسانويّة والفن الكلاسيكي.

أما الذي مثل، فيما يبدو، حالة مختلفة تماماً من بين النخبة الفكريّة الفلورنسيّة، فهو صديق سافونارولا الأقرب إلى نفسه؛ بيكو. وبقدر ما يتصل الأمر بهذا الأخير، فإن الهرطقة غدت لديه شيئاً من الماضي، إذ بدا، في أثناء الشهور التي أعقبت عودته إلى فلورنسا تحت حماية لورينزو، وقد تخلّى عن التفكير في إنتاج أي عمل فلسفي. لكن من الواضح، وقتها، أنه عاد، قريباً من ذلك الوقت، إلى الكتابة. وكان قد مضى، إذاك، زمنٌ طويل على تبرئه من أي معتقدات علمانيّة، واضعاً إيمانه بين يدي سافونارولا،

الذي أُعجب بطبيعة فكر صاحبه وروحانيته كما لم يفعل من قبل، حتى إنه سيذهب أبعد من ذلك، ليزعم أن بيكو: «في العقل وحده، كان أعظم من القديس أوغسطين»[10]، وينطوي هذا على بعض المجاملة، وذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن أوغسطين كان أعظم مفكر من بين القديسين على الإطلاق، وأنه كان موضع إجلال وتبجيل عند سافونارولا منذ كان الأخير راهباً مبتدئاً في سلك الرهبنة. ويبدو أن هذا الاحترام المفرط كان متبادلاً بين بيكو وسافونارولا، على الرغم مما بين الاثنين من اختلاف فيما يتعلق بالمزاج، والطموح، والمكانة الاجتماعيّة، ونمط الحياة. وما من شك أن هذه الاختلافات بقيت قائمة وواضحة، ولاسيما ما تعلّق منها بالفئتين الأخيرتين، ذلك أن بيكو ألفى من العسير عليه أن يُنحّي، حتى في غضون المرحلة التي كان فيها تقيّاً وأواباً مثلما لم يكن في أي مرحلة من حياته، العاداتِ التي دأب عليها طوال معيشته. ويذكر ريدولفي ببعض التصرف «ملاحظة غير مكتشفة من قبل»[11] بقلم الراهب جيوفاني سينيالدي، وهو أحد أكثر المؤتمنين الثقات لدى سافونارولا في سان ماركو إبان تلك الفترة، نقرأ:

> «ونعلم من هذه الحقيقة غير المتوقعة والاستثنائيّة التي لا تتوافق، يقيناً، مع ما يفاخر به (القديس) من حياة صالحة؛ تلك الحقيقة التي تخبر بأن بيكو عاش، خلال هذه الفترة، مع محظيّة»[12].

وتشيرُ الكلمة (concubina) في مثل هذه الظروف–التاريخيّة واللغويّة والجغرافيّة– إلى زوجة جرى الاقتران بها تبعاً لتقاليد الزواج العرفي، لا كما هي الحال في أمكنة أخرى، إذ من الممكن أن تعني الخليلة، أو الزوجة الثانية غير المصرَّح بها، أو ببساطة امرأة فَعَولة تُتخذ عشيقة. ومن الواضح

أن بيكو أقلع عن عاداته السالفة في التهتُّك والمجون، لكنه لم يكن قادراً على الانصراف عن مباهج الجسد الحسيَّة تماماً. لكن لماذا كان من المحتَّم على بيكو، وهو الذي يكافح حينئذ لاحتذاء سيرة صديقه سافونارولا، ويتبادل معه الآراء في الأمور اللاهوتيَّة على خطة راتبة، أن يختار العيش في الإثم، ولاسيما وهو يعلم، علم اليقين، فزع سافونارولا من خطيئة الزنا؟ وببساطة، لِمَ عَزف بيكو عن الزواج؟ ونحن لا نعرف شيئاً عن شريكته، ومن الممكن أن يكون التباين الطبقي بينهما، قد جعل من الزواج أمراً مستحيلاً. ومهما يكن من أمر، فربما كان ثمة سبب آخر لعزوف بيكو عن الزواج، وربما تبدَّى ذلك السبب بوصفه التفسير الأكثر احتمالاً في هذا الشأن. إذ كان سافونارولا قد حثَّ بيكو على أن يتجهَّز لأخذ نذور الرهبنة، ودخول السلك الدومينيكي بوصفه راهباً. وقد أخذت هذه الفكرة بمجامع فؤاد بيكو، في مبتدأ الأمر، لكنه ما لبث أن ارتاب في كونه صالحاً لمثل هذه الحياة أم لا؟ على أي حال، ورغم بقائه متقلِّباً ومرتاباً إزاء هذا الخيار المصيري، فإن إمكان اقترانه بزوجة يبقى قائماً وقوياً، وسيجعل ظهور أي وثيقة زواج رسميَّة أمر الالتحاق بالسلك الرهبني ضرباً من المحال. ويُدْلي ريدولفي باقتراح مدهش جداً، وذلك حين كتب يقول: «إنَّ سافونارولا كان يعلم على وجه اليقين، تبعاً لما يراه سينيالدي، بأمر هذه العلاقة غير الشرعية، حتى إنه أسرَّ بذلك للراهب روبرتو أوبالديني... وهو من سيكون مؤرخ الدير في المستقبل»[13]. وتُزودنا هذه الحالة الغريبة بمفتاح لعدد من الأحداث التالية، التي لولاها لبدت، ربما، عصيَّة على التفسير.

إذ على الرغم من أن بيكو تبَّرأ من أفكاره الإنسانويَّة وفلسفته الهرطقيَّة الكونيَّة، فإن سافونارولا كان مصمماً على عدم تخلي صاحبه عن فكره

الجبار. واستحثَّ، لهذه الغاية، بيكو على وضع عمل سيحمل، في آخر الأمر، عنوان «Disputationes adversus Astroloigam diviuatricem» و معناه بتصرُّف (نقض التنبؤ التنجيمي)، وقد غدا علم التنجيم شائعاً في أوساط الإنسانويين، ذلك أنه يسعى لرؤية الحيوات البشريَّة محكومة بسمات سيكولوجيَّة (علامات النجوم) التي من الممكن رسم خريطة حركاتها في السماء، ليلاً، بصورة علميَّة تبعاً لعلاقة إحداها بالأُخرى (منتجة «المؤثرات»)، ويتساوق ذلك كله مع حس عصر النهضة الصاعد بالفرديَّة، وفهم الذات، وتنامي الوعي العلمي. ومن سوء الطالع، أن ذلك لم يكن علم نفس وإنما تفكير رغائبي، وليس فهماً للذات وإنما توهم ذاتي، وليس فيزياء وإنما ميتافيزيقيا. وعوض أن تمنح الروح الحرية لاختيار مصيرها فيحكم عليها، بحق، أن تدخل الجنة أو المطهر أو النار، فإن ما انطوت عليها هذه الرؤية من جبريَّة يفضي، بالنتيجة، إلى حبس كل كائن بشري داخل قدر محتوم، بصرف النظر عن الطريق الذي اختار الفرد أن يسلكه. ومن المؤكد أن علم التنجيم كان متعارضاً مع المعتقد المسيحي (كما كان متعارضاً، فعلياً، مع المبادئ المركزيَّة للمذهب الإنسانوي).

وكان سافوناورلا حريصاً على نشر هذه الأطروحة، واستحثَّ بيكو على وضع مواهبه الفكريَّة لصالح هذه القضيَّة، التي غدت مصدر تحفيز دائم لصديقة. ويروي جيوفاني نيسي؛ الصديق الأفلاطوني لفيتشينو، أن سافوناورلا ساعد بيكو بإعطائه «النصيحة والرأي»[14]، حين كان الأخير يضع كتابه؛ نقض التنبؤ التنجيمي. ومن الصعب أن نحدِّد المستوى الذي بلغته هذه المساعدة. ولكن، تذهب بعض مصادر ذلك العصر إلى أن دور سافوناورلا في هذا العمل امتدَّ إلى حد المشاركة في تأليفه. وسواء صحَّ هذا

أو ذاك، فإنه عمل متفرد بصورة ما، فقد عمل، بصورة منهجيّة، على تفكيك الأساسات، التي نهض عليها هذا العلم البابلي القديم، القائم على العرافة، واحداً تلو الآخر. ولا شك أن أجزاء بعينها كانت من تأليف بيكو، ومن ذلك تلك المواضع التي يعمد فيها الأخير إلى التهكم والسخرية، مشيراً إلى أن المنجّمين لا يستطيعون التنبؤ بأحوال الطقس، فكيف يتنبؤون بالحوادث العظيمة. ومن الممكن أن تكون النقاط اللاهوتيّة الأدق من وضع أي من الكاتبين المفترضين. ومن النقاط الدّالة في هذا الاتجاه، الفكرة التي تؤكد أن المنجمين كانوا باعتمادهم حركات الأبراج الفلكيّة، التي استُقيت أسماؤها من الصور العلمانيّة والآلهة الوثنية، يلتمسون، في واقع الأمر، العون من آلهة زائفة. ولا تدين هذه الأخيرة بالولاء للرب، وهي تعمل تبعاً لحركاتها أو قوانينها المتقلبة. ولا يمت ذلك كله بأي صلة للمعتقد المسيحي القويم، القائم على الوصايا العشر، التي جاءت في العهد القديم، ولا تمت كذلك لتعاليم العهد الجديد كما جاءت في موعظة الجبل التي ألقاها السيد المسيح. فقد كان عالم التنجيم، جوهرياً، عالماً ميكانيكياً تحكمه «المؤثرات»، لا عالماً ذا مغزى تحكمه غاية أخلاقيّة.

وعلى الرغم من هذا الدليل القوي على ألمعيته المتواصلة، فقد اجتاز عقل بيكو، حينئذ، تحولاً موضوعياً قاطعاً وعميقاً. وقد سعى الأخير، في السابق، للتوفيق بين أفكار الأديان والعصور المختلفة وصهرها في وحدة خلاقة، عبر الجمع بين أشكال التجربة الإنسانيّة في العالم وتحويلها إلى رؤية تخيليّة واحدة تكون مقبولة للكائنات البشرية كافّة. ومثّلت هذه «التوفيقيّة» طموحاً إيجابياً، وكانت متوافقة مع روح عصر النهضة. ومن غير العسير أن نرى فيها كنايةً واستشرافاً لوجهة النظر العلميّة، التي ستبدأ بالانبثاق على مدى

القرون القادمة، مشفوعةً بقوانينها العالميّة القابلة للتطبيق. ومن الممكن رؤية كتاب: نقض التنبؤ التنجيمي، بوصفه عملاً علمياً، بصورة ما، فهو رفض للميتافيزيقيا والمصادفات المتقلّبة التي تشتمل عليها «المؤثرات» والرموز. أما ما خلا ذلك، فإنه يمثّل، لشديد الأسف، انقلاباً كاملاً في فكر بيكو، إذ ينكفئ الأخير إلى طريقة التفكير القروسطيّة، برفضه طريقة التفكير التي تميز عصر النهضة، متمثّلاً طريقة التفكير القروسطيّة التي تزعمها سافونارولا عوضاً عن السعي لخلق حقيقة، عبر نهج توفيقي. ويتوجب العثور على الحقيقة، بموجب هذا المنحى الذي تمثّله بيكو، في التأويلات الصحيحة لمجموعة من النصوص الموثوقة، أما التأويلات المغلوطة أو غيرها من الانحرافات العقديّة، فمن الواجب أن تدان بوصفها هرطقات، فالحجّة، كما تتجلى بكلمة الرب، هي الحقيقة الوحيدة المقبولة. وهكذا ارتدّ فكر بيكو العظيم من عالم عصر النهضة إلى العالم القروسطي، ومن حرية الخيال الخلاق إلى تقييدات المعتقد.

وكان سافونارولا، بطبيعة الحال، هو الداعم الأكبر لرغبة بيكو في أخذ نذور الرهبنة، وجاهد كي يثنيه عن تردُّده، غير أن سافونارولا كان مدركاً أن مثل هذه الخطوة تتطلّب ما هو أكثر من دعمه وإيمان بيكو بدعوته، إذ إن تهمة الهرطقة الذي رُمي بها بيكو – تأسياً بأنشطته الفلسفيّة المبكّرة – بقيت قائمة حتى بعد وفاة إينوسنت الثامن، ولن يحلّه من هذه التهمة إلا أمر يصدره البابا ألكسندر السادس. وكان من الممكن أن يقام الدليل على صلاح أفكار بيكو واعتناقه المعتقد القويم بنشر كتابه المبني على حجج بارعة؛ نقض التنبؤ التنجيمي. غير أن سافونارولا كانت لديه شكوكه إزاء عرض هذا الكتاب على البابا بورغيا ألكسندر السادس. فلم يكن البابا الجديد منحلاً وغير

جدير بالثقة فحسب (تلك الحقائق التي شرع سافونارولا بالتأشير عليها، بصورة غامضة، في عظاته) وإنما تُحدِّث الإشاعات بأن أسرة بورغيا الإسبانية كانت منخرطةً انخراطاً عميقاً في هذا الضرب من الخرافات، فضلاً عن كون أفرادها ممارسين ممتهنين للتنجيم. (لعل ذلك يشرح عدم نشر كتاب نقض التنبؤ التنجيمي، أو حتى توزيع نسخ مخطوطة منه على نحو عريض، إلا بعد وفاة المؤلفين المفترضين كليهما)، فلن يجدي نشره نفعاً، وإذا كان من الممكن إقناع ألكسندر السادس في إسقاط تهمة الهرطقة عن بيكو، فلا بُدَّ، كما أدرك سافونارولا، أن يستخدم مقاربة أخرى، لكنه غدا، حينئذ، منشغلاً بأمر آخر بالغ الأهمية.

(10)
السعي نحو الاستقلال

تلقَّت رغبة سافونارولا في نقل الرهبان الدومينيكان التابعين له من دير سان ماركو إلى مبنى جديد، أكثر ملاءمة من سابقه، دعماً غير متوقع في وقتٍ حامَ حول عام 1493، وذاك حين وهب رجلٌ من أهل اليسار للدير رقعة أرض غابيَّة، تحوي حرجاً من شجر الكستناء على سفح تلٍّ مونتي كافو، قريباً من كاريغي. وبات متيسّراً لسافونارولا، وإخوته الرهبان، حينئذ، أن يرتحلوا من دير سان ماركو إلى دير خاص بهم، يشيّدونه من الصفر. وكان سافونارولا قد فكَّر طويلاً، ومَخَضَ قريحته حول هذا الأمر، مشدِّداً على قدرته هو وإخوته الرهبان أن يتمثَّلوا «حياة الطُّهر والورع، مشيِّدين ديراً بسيطاً وفقيراً، ومرتدين المرقَّع والعتيق من الأردية الصوفيَّة، أما الطعام والشراب، فلا يتناولون منهما إلا القليل الزهيد، كما يفعل الرهبان المقتصدون. وأما عيشهم، ففي صوامع بائسة، لا تتوفر إلا على أساسيات العيش، هناكَ، حيث ينقطعون عن العالم، ولا عمل لهم سوى التدبر الصامت في العزلة»[1].

وتقول مصادر معاصرة، آنئذ، أنه لم يكتف بذلك، وإنما قام بعمل تصميم ملائم لديره الجديد، نقرأ:

«لقد عزم على إقامة ديره في بقعة قصيَّة ومنعزلة، بحيث يُعبّرُ كل

جزء من أجزاء هذا الدير عن روح الفقر والبساطة. ورغب في أن يكون البناء خفيفاً وقريباً من الأرض، تتوزعه صوامع تفصل بينهما ألواح وحواجز مصنوعة من أسيجة شجريَّة مجصَّصة. أما إطارات أبواب هذه الصوامع، ودرجاته، ورُتُجه، فمصنوعة من الخشب، فلا وجود للمزالج أو المفاتيح المصنوعة من الحديد. وستبنى الأعمدة من الطوب لا الحجارة، ولن تحمل أي مظهر من مظاهر الزينة والزخرف»[2].

وحين يحطُّ رهبان سافونارولا في هذا المكان، حيث يتكرَّسون لأخوتهم، ويعيشون في بناية ريفية بسيطة، ليس فيها أقفال أو قضبان حماية حديديّة، فسيكون بمقدورهم تكريس حياتهم لرؤيا المسيحيَّة الحقَّة، التي غدت مَثَل سافونارولا الأعلى، مثلما أوضح لإخوته، قائلاً:

«حين تُتمُّ بناء هذا الدير، ويأتي الرجال إلى بابه طالبين الحديث إلى أي واحد من الرهبان أو الآباء، فإنَّ البواب سيسألهم: هل أنتم من بسطاء الناس؟ إذا كنتم كذلك حقاً، فعلى الرحب والسَّعة، أما إن كنتم لا تنتمون إلى هذه الفئة، فعليكم أن تغادروا المكان لأنه لا يحوي غير البسطاء»[3].

وقد كانت دوافع سافونارولا لبناء ديره الجديد نقيَّة في الظاهر، فسيعني بناؤه انسحاب سافونارولا من العالم وأيَّ محاولة للتأثير في الحياة السيَّاسية الفلورنسيَّة، لكنَّها كانت على النقيض من ذلك في الواقع، ولم تظهر الطبيعة الكاملة للاتفاق الذي أبرمه سافونارولا مع لورينزو العظيم وهو يُحتَضَر إلا في هذا الوقت تحديداً، وقضى أن يضمن سافونارولا المساندة من ابن لورينزو؛ بييرو، في نضاله السياسي النَّاهد إلى الحريَّة، وذلك لقاء دعم

سافونارولا له، والامتناع عن حض أهل فلورنسا على طلب الحريَّة من نظام ميديتشي «المستبد».

وعلى الرغم من أنَّ من سافونارولا كان رئيساً لدير سان ماركو، الذي يُعدُّ الدير الأعلى مكانة في فلورنسا، بل في إقليم توسكانا أجمعه، فإنه لم يكن النائب الأسقفي العام لجماعة الدومينيكان، في المنطقة. وقد انتمى الرُّهبان الدومينيكان في توسكانا، بفعل قدر تاريخي غريب، إلى المجمع اللمباردي التابع لمنطقة شمالي إيطاليا، التي تنتمي، بدورها، إلى دوقيَّة ميلان. وحين أُعلم النائب الأسقفي العام لمجمع اللومباردي بخطط سافونارولا، التي كان من المقرر إنفاذها دون إذن منه، فإن مشروع بناء الدير الجديد قوبل، فوراً، بالرفض. وطلب من سافونارولا أن ينقل إخوته الرهبان إلى بناية لاسابينزا، وهي مؤسسة تعليميَّة ملحقة بسان ماركو في الجهة الشماليَّة الشرقيَّة لبياتزا[1]. وتذهب بعض المصادر إلى أن بيرو ميديتشي ساند النائب الأسقفي العام في خطوته هذه. ولم يكن ذلك حتماً، سوى خديعة سياسيَّة، فقد كان بيرو على تماس مباشر مع سافونارولا عبر صديقيهما المُقرَّبيْن المشتركين؛ بيكو وبوليتسيانو، ومحيطاً بخطط سافونارولا، وثمة رسالة بعث بها سافونارولا إلى بيرو، رفع فيها آيات الوفاء والإجلال قائلاً: «إنَّ ما أسعى إليه أنا ومن معي في هذا الدير، هو إنفاذ ما ترغب فيه سيادتكم»[4].

وإذ سعى بيرو دي ميديتشي إلى التحلل من الإرث الطاغي لوالده، والظهور بمظهر الرجل المستقل، فقد قرَّر أن من المتوجب على فلورنسا التحلل من الاعتماد الكامل على حليفتها الشماليَّة القويَّة؛ ميلان، وأن تعزِّز من علاقاتها مع حليفتها المحوريَّة؛ مملكة نابولي. وقد أتاح الرفض

(1) يمثل هذا الموقع، في الوقت الحاضر، جزءاً من جامعة فلورنسا.

الذي جابه به النّائب الأسقفي العام لمجمع اللومباردي خطط سافونارولا فرصة مثاليّة للمضي في سياسته الخارجيّة الجديدة، فأرسل وفداً يلتمس من البابا ألكسندر السادس أن يعلن مجمع الدومنيكان التابع لتوسكانا مجمعاً مستقلاً عن مجمع الدومينيكان التابع للومبارديا، فلم تكن هذه العلاقة سوى انحراف تاريخي لا يمتُّ بعلاقة لما عليه حال الإدارة الكنسيّة الحاليّة.

ومهما يكن من أمر، فقد رأى لودفيكو «إل مورو» سفورزا نفسَه، بعد أن غيَّب الموت صديقه لورينزو العظيم، الحاكمَ الأول في إيطاليا. وعليه، فلا بُدَّ من الرجوع إليه في كل أمر يتعلّق بالواقع السياسي الايطالي (ويتضمن ذلك، بصورة واضحة، الإدارة الكنسيّة) لهذا، فإنّ أي محاولة للانتقاص من سلطة ميلان، كما ارتأى بييرو ميديتشي أن يفعل، تقع في دائرة المحال، كما أن المجمع الدومنيكي اللومباردي يمدُّ ميلان بمصدر معلوماتي مفيد داخل فلورنسا، ويمنحها سلطة على أكثر رجال الدين تأثيراً في المنطقة عامّة. وهكذا، سيعمد حاكم ميلان إلى إرسال وفد إلى روما لمجابهة الالتماس الذي تقدّم به بييرو دي ميدتشي إلى البابا، وجرى تعزيز هذا الوفد بأقوى تمثيل سياسي. وكان لودفيكو سفورزا عارفاً بوجود أعضاء محافظين متنفذين في كنيسة روما، وأنهم لا يرغبون في رؤية «خطوات إصلاحية»، ولاسيما تلك التي يبادر بها سافونارولا، الذي كان عداؤه لتلك الكنيسة وما مثلته ظاهراً للجميع. وكان من بين حلفاء لودفيكو سفورزا في روما سفراء كل من البندقيّة، وبولونيا، ونابولي. كما كان ثمة كثير من رؤساء الأديرة داخل المجمع التوسكاني يعارضون سافونارولا، وما جاء به من «رسالة» جديدة، معارضة شديدة، مدركين ما سيجلبه «استقلاله» من تأثير جذري وعاجل على إدارة أديرتهم، وبخاصة رؤساء أديرة فيسولي، وبيزا، وسيينا، ورئيس

. دير جيمنيانو قبل هؤلاء جميعاً. وكما لو أنَّ هذه الجماعة من أصحاب الرأي النّافذ غير كافية، فتقرَّر ألا يترأَّس الوفد الممثِّل للمجمع اللومباردي سوى أسكانيو سفورزا، الذي لم يكن شقيقاً للودفيكو سفوروزا فحسب، وإنما حليف شخصي مقرَّب لألكسندر السادس. وقد كان الكاردينال أسكانيو هذا هو الذي أعطى الصوت المرجِّح (مدفوعاً إلى ذلك بقافلة البغال التي حُمِّلت بالذهب والجواهر، وأرسلت إلى فيلته)، ضامناً بابويَّة ألكسندر السادس. وهكذا، واجه وفد بييرو مهمّة عسيرة إن لم تكن مستحيلة.

ولم تكن تدابير السياسة، وممارسة السُّلطة بصفة خاصّة، في روما القرن الخامس عشر، مثلما تتبدى لعين الناظر، ولاسيما إذا اتصل الأمر بشخصية ألكسندر السادس، الذي شغل كرسيَّ القديس بطرس، إذ كان أمر فلورنسا برمتها متوقفاً على ذلك. وهكذا، عَمِدَ بييرو ميديتشي، تمشياً مع سياسته الخارجيَّة الجديدة، إلى اختيار كاردينال من نابولي هو أوليفيرو كارافا ليرأس وفده إلى روما. وكان هذا الأخير هو «المدافع الكاردينالي» الرسمي عن الرهبنة الدومينيكية، وإن كان غير ذي نفوذ لدى مقارنته بخصومه. وربما كانت ثمة يد لأخي بييرو؛ الكاردينال جيوفاني، ذي السبعة عشر ربيعاً في هذا الاختيار العقيم على ما يظهر، فلم يمض عليه، إذ ذاك، سوى سنة ونيف، وكان لايزال قليل الخبرة في طرق السياسة البابويَّة. ولكن، ربما جرت المصادقة على ذلك من جانب بيكو وبوليتسيانو، اللذين أمدتهما الشبكة الواسعة من أصدقائهما المثقفين على امتداد الأراضي الإيطاليَّة، على الأرجح، بموقعية أفضل للحكم على شخصيَّة الكاردينال كارافّا.

وقد انطلق الوفد الفلورنسي، في تاريخ قريب للعاشر من إبريل عام 1493، من سان ماركو، قاصداً روما للاجتماع بالكاردينال كارافّا. واشتمل

هذا الوفد الصغير على شخصين من أكثر زملاء سافونارولا إخلاصاً، نزولاً عند إلحاح الأخير في الطلب، وهما: أمين أسراره، ومؤرخ دير سان ماركو لاحقاً؛ الراهب روبرتو أوبالديني، والراهب دومينيكو دا بيسا، وهو من أوائل مريديه وأكثرهم حماساً، ولم يبدوا من ذوي الخبرة السياسيّة، التي قد تثير انطباعاً قوياً لدى ألكسندر السادس، إذ ظهرا برداءيهما الرثَّيْن، رفقةَ الكاردينال المتأنّق بثوبه القرمزي الحرير، بيد أن سافونارولا ألحّ على أن يُمثَّل، ولو جزئياً، برجال من أشياعه دينياً.

واجتمع الوفد القادم من سان ماركو، لحظة وصوله إلى روما، مع الكاردينال كارافّا، وتحصّل على دعم إضافي من فيليبو فالوري؛ السفير الفلورنسي ذي الثقافة الرفيعة، والمعرفة الواسعة. وكان هذا الأخير هو من رافق الكاردينال الجديد؛ جيوفاني ميديتشي، لدى وصوله أول مرة إلى روما، وبذل وسعه في تعليمه البروتوكولات المتبعة في البلاط البابوي، فضلاً عن غيرها من الأعمال والأمور غير المنهجيّة. كما حاول فالوري مراقبة جيوفاني وما يصدر عنه من سلوكات، هادفاً إلى التحقق من أن شخصيّة الأخير تتوافق مع نصيحة لورينزو المطوّلة، التي تضمنتها رسالته الأخيرة الممتلئة بالتعليمات؛ تلك التي تصدرتها وصاياه المشدّدة على الاستيقاظ مبكراً، والتقيُّد بنمط حياتي معتدل، والتريُّض، وانطوى ذلك على صعوبة كبيرة، فما لبثت الأنباء أن حملت خبر وفاة لورينزو لدى وصول الكاردينال جيوفاني إلى روما، فانهالت دعوات الكرادلة، وقتها، على الكاردينال الفطن المحبوب؛ جيوفاني، فقد كانوا متشوفين إلى معرفة السياسات التي ستخضع لها أسرة ميديتشي وفلورنسا تحت حكم زعيمها الجديد؛ بييرو. وقد طوّر جيوفاني، خلال هذه الموائد الباذخة، غراماً خاصاً

بالمطبخ الروماني، الذي بدا أغنى من مثيله الفلورنسي، وكان لهذا الولع أثره الضار على محيط خصره. أما ما تعلّق بالمباهج الحسيّة الأخرى، فقد بقي الكاردينال جيوفاني متقشّفاً فيها. وقد كان فالوري ومخبروه، فضلاً عن غيرهم من المراقبين، متيقنين أن جيوفاني يتمثّل حياة الطهر والعفة، التي كانت عزيزة في أوساط كرادلة ذلك العصر. غير أنّ حكم فالوري، وغيره من المراقبين الرومان، حاد عن الصواب، فلم يُعن جيوفاني بالنساء البتة، وربما كان قد شرع بالانغماس، بصورة متكتّمة، في الممارسات الشاذّة التي ستتزايد، لاحقاً، محتجبة وراء العفة الكهنوتية السمحة.

وجاءت إرشادات فالوري للكاردينال جيوفاني كي تعزز من نصح لورينزو العظيم لابنه حول الكيفيّة التي يتوجب عليه أن يعامل بها البابا حين كتب له يقول: «خذ النصح من قداسته في الأوقات جميعها... واجتهد ألا تلحّ عليه في الطلب، فإنه يضجر، بسرعة، من أولئك الذين يرهقون سمعه بالكلام والطلب... ولذا، ينبغي عليك حين تلتقيه أن تحدثه بأمور مسليّة، ولكن بطريقة متواضعة، حتى تُسرّي عنه»[3].

وقد عاد ذلك كله بنفع كبير على الكاردينال الجديد، فكان من أهل الحظوة لدى البابا المريض؛ إينوسنت الثامن. لكن هذه الحال السعيدة لم تدم طويلاً، إذ انقلبت الأمور في روما، مع وفاة البابا في أغسطس من عام 1492، رأساً على عقب، فغدا من الصعب، حتى على عضو محنك من مجمع الكرادلة، التكهن بمآلات الأمور أو حتى التعاطي معها. فقد أُقنع الكاردينال جيوفاني، آخر الأمر، أن يدعم الكاردينال الأكثر شعبيّة، ديلا روفير في الانتخابات البابويّة التي تلت وفاة البابا. وكان الأخير معروفاً بميوله لأسرة ميديتشي، كما كان مدعوماً من ملك فرنسا القوي، الذي وضع 200000 دوكات

تحت تصرفه، من أجل تيسير الحصول على أصوات الكرادلة «المترددين». ولشديد الأسف، فإن سعي الكاردينال ديلا روفير، الواثق من الحصول على أصوات رفقائه الكرادلة، قد دُمِّر تدميراً بما قدَّمه الكاردينال روديغو بورجيا من رشوة لا سابق لها من قبل. ولنذكر في هذا السياق ما قاله إخباري، من إخباريي الكنيسة المعاصرين آنئذ، مع بعض التصرف:

«أعلن عن [الكاردينال] رودريغو بورغيا بوصفه البابا ألكسندر السادس، وكانت هذه النتيجة مستبعدة. وقد شغل الكاردينال بورغيا هذا الموقع بفعل سيمونيَّة كريهة. تلكم هي الوسائل التي كانت متبعة في ذلك الزمان... إذ يتحصل رجل ما، بهذه الوسائل المتوافقة مع التدابير المبهمة للعناية الإلهيَّة، على أعلى المقامات رفعة. وما كان لذاك الرجل أن يمنح، في عصور الكنيسة المبكرة، إلا أقل الرتب في الإكليروس، لسوء خلقه وأفعاله[6]. وقد تضمنت سيرة ألكسندر السادس اللاأخلاقيَّة فضلاً عن السيمونيَّة، سلسلةً من المحظيات اللاتي أقام بعض أطفالهنَّ (ومن ضمنهم تشيزاري ولوكرتزيا السيئا الصيت) معه في الفاتيكان، مما مثَّل انتهاكاً غير مسبوق في التقاليد البابويَّة المتبعة ذلكَ الزمان. كما اجتمع في شخصه ازدراء الرأي العام، والقسوة، وتحجر الفؤاد.

حين أُعلم الكاردينال جيوفاني بمن فاز بالبابويَّة، هتف قائلاً: «إننا الآن في قبضة الذئب؛ المخلوق الأكثر افتراساً في العالم، وإذا لم نسارع في الفرار، فإنه سيلتهمنا جميعاً»[7]. وأدرك الكاردينال ديلا روفير حقيقة هذه الكلمات، وغادر روما، دون إبطاء، طلباً للنجاة بحياته. وقد لاذ، أول الأمر، بميناء أوستيا، ثمَ شد الرحال إلى فرنسا، متخذاً منها منفاه، حيث مكث تحت

حماية الملك الفرنسي. ولقد بقي جيوفاني في المدينة المقدسة، بعض الوقت، نزولاً عند رغبة والده التي قضت باكتسابه الخبرة في البلاط البابوي. لكنه ما لبث أن رأى، هو أيضاً، أن من الحكمة الانكفاء إلى فلورنسا، حيث أقام، حيناً من الزمن، مع أخيه بيرو في قصر الأسرة.

وقد عنى ذلك أنَّ الوفد الذي اضطلع بقضية سافونارولا، التي تطالب باستقلال المجمع التوسكاني، احتوى على كاردينال واحد، في حين كان من الممكن أن يتوفر على اثنين. وكان من شأن الوفد، في حال توفره على كاردينالين لهما علاقات حسنة مع ذوي الشأن، أن تكون له الأرجحيَّة على الوفد اللومباردي الذي يَؤمُّه كاردينال واحد. وفي واقع الأمر، ربما كان الكاردينال أسكانيو سفورزا هو من تلقَّى قافلة النفائس التي رجّحت فوز ألكسندر السادس بالبابويَّة، لكنه لم يكن بالقوة التي ظهر عليها. فكما يحصل للمتعاونين في الأزمان جميعها، بدأ المستفيد؛ ألكسندر السادس، يتشكك بالكاردينال أسكانيو، الذي لم يكن ثرياً على نحو خطير فحسب، وإنما كان يخدم، وقتها، مآربه الخاصة. وما إن استقرَّ الوفد التوسكاني في روما، حتى شرع يساجل، بعناد، ويحشد الحجج حول مشروعيَّة قضيته، مستلهماً الشجاعة من رسائل المؤازرة التي كانت تنهال عليه من سافونارولا، الذي يؤكد لهم أنهم يمتثلون في عملهم هذا لإرادة الرب، وما لبث أن تبين أن الوفد اللومباردي يفوز بدعم البابا لقضيته، فقد أوضح البابا، منذ البداية، أنه يجد القضية برمتها مدعاة للضجر على نحو متزايد. وبلغ ذلك حداً كما لو أن الوفد التوسكاني في حاجة إلى معجزة لإنقاذ قضيته. هذا ما اعتقده، على ما بدا، مريد سافونارولا؛ الراهب دومينيكو دا بيشيا، الذي غلبته الحماسة المستلهمة من رسائل سافونارولا، فاقترح أن

ينكبُّ على قدمي البابا ألكسندر السادس، واعداً بأن يجترح معجزة فيبعث رجلاً من موته، ليبرهن، بذلك، للناس كافَّة أن الرب يؤيِّد استقلال المجمع التوسكاني.

ومن حسن الحظ أن الكاردينال كارافّا قرر عدم الأخذ بهذه الوسيلة المتطرّفة؛ فلن يؤثر بعث إنسان من موته على البابا المتبرّم بقدر ما سيؤثّر عليه رفع معنوياته وتحسين مزاجه. وإذ انقضى الوقت الذي خُصّص للمفاوضات اليوميّة في 22 مايو، وحيل بين الوفدين والبابا، تخلّف عنهم الكاردينال كارافّا، وبقي مع قداسته. وكانت مداولات ذلك اليوم قد أرهقت البابا وأثارت أعصابه، وما هي إلا بضع لحظات حتى تمكن الكاردينال كارافّا من تحسين مزاج البابا، عازفاً على وتر العلاقة بين سحره المستمد من موطنه نابولي وشخصيّة البابا الإسبانيّة. وقد كان الاثنان صديقين وأجنبيين وسط هؤلاء الرومان المقيتين، بما كانوا عليه من عادات بائدة، وازدراء مترفع للأجانب من أمثالهما. وما لبث أن انخرط الاثنان في نوبة من الضحك، فعمد، عندها، الكاردينال كارافّا إلى سحب المرسوم البابوي الذي يقضي بالفصل؛ ذلك المرسوم الذي يمنح الاستقلال للمجمع التوسكاني. وكان كارافّا قد أعدّه سلفاً بما امتلكه من حنكة وبصيرة، فضلاً عن أن البابا ألكسندر السادس بدا مبتهجاً بالحيلة التي اصطنعها كارافّا، لكنه أبى أن يدمغها بختمه معلناً أنه منهك، فلا يستطيع أن يضطلع بعمل إضافي في ذلك اليوم. ولكن كارافّا مدّ يده بحركة رشيقة، وهو يضحك، إلى إصبع البابا وأخذ الخاتم خلسة وختم به المرسوم. وهكذا، فقد دمغه بالسلطة البابويّة، ويبدو أن ألكسندر السادس تلقي الأمر بروح النكتة، وضحك لما ندَّ عن كارافّا من سلوك صفيق. غير أنَّ الأخير مضى بمكيدته إلى آخر الشوط،

فاستأذن البابا بالمغادرة، ومرّر المرسوم، بسرعة، إلى الراهب دومينيكو دا بيشيا، الذي طلب إليه أن ينتظر في الخارج، ثم غادر الفاتيكان، مُسْرِعاً، وبعث بالمرسوم إلى سافونارولا في فلورنسا[1].

وقد طلب الوفد اللومباردي، الذي كان غافلاً عما حدث، لقاء خاصاً مع البابا لدى وصوله إلى الفاتيكان، ووضع بين يدي البابا مرسوماً كي يمهره بخاتمه. وقضى هذا المرسوم بالحيلولة دون استقلال المجمع التوسكاني. وكان الوفد اللومباردي قد أوضح، منذ بداية المفاوضات، لألكسندر السادس أن لودفيكو سفورزا يقيم اعتباراً كبيراً لهذا الأمر، فإذا منح الاستقلال للمجمع التوسكاني، فإنه سيرى في ذلك مساساً بشرفه، مما سيعرّض العلاقات بين ميلان وروما للخطر. ومن المعلوم أن البابا الجديد قد ارتكن إلى هذا الحلف لتعزيز خططه السياسيّة، غير أن البابا كان يرغب، حينئذ، في أن يتخلّص من الأمر كله، ولم يفعل شيئاً سوى أن أجاب الوفد اللومباردي قائلاً: «لو أنكم وصلتم قبل عشر دقائق لأجبتكم إلى طلبكم»[8]، لقد فات أوان ذلك، وما وقع قَدْ وقع[9].

وغدا سافونارولا، الآن، حُراً في إدارة دير سان ماركو على النحو الذي يرتئيه، وفي التأسيس لإصلاحاته دون الخشية من إمكانية إبطالها من جانب سلطة عليا في المجمع اللومباردي، وربما كانت أولى خطواته الإصلاحيّة أكثر إصلاحاته راديكاليّة، بيد أنها الأكثر توافقاً معه طائفته الرهبانيّة. إذ كانت كلمات القديس دومينيك، التي طواها النسيان حينها، إلى مريديه

(1) أثبتت مصادر عديدة هذا الحدث الذي يبدو بعيد الاحتمال (انظر الملاحظات آخر الكتاب لمزيد من التفاصيل). وقد قيل إن المزاح السمج الذي تخلّله الضحك والمداعبة لدى نزع كارافًا خاتم التوقيع من إصبع البابا يشير إلى احتمال بقاء الكاردينال كارافًا مع البابا كي يقدّم له هديّة من الكرمي التوسكانيّة الأثيرة لديه.

من طلائع الطائفة الدومينيكيّة، واضحة لا لبس فيها. وكانت تقول آمرةً:

«خذ الصدقة، وابق متواضعاً، والتزم بالفقر الطوعي، ولتحل لعنتي ولعنة الرب على أي امرئ يأتي بالممتلكات إلى الدير»[10].

وعلى الرغم من أنَّ هذه الكلمات كانت منقوشة، فعلياً، على جدران دير سان ماركو، فإنَّ التقيّد بها أضحى في غياهب النسيان. فحين انتهى كوزيمو دي ميديتشي من ترميم الدير، وأعلن البابا يوجين الرابع عن مباركته لهذا المنجز، سنة 1443، جرت إضافة ملحق بدستور الدير يقضي بتحرير جماعة سان ماركو من الحظر الدومينكاني الذي يحرّم التملُّك على الرهبان. فسمح لهم بذلك امتلاكُ الهدايا المختلفة التي أسبغها عليهم ولي نعمتهم، كما حوَّل كوزيمو دي ميديتشي ملكية عدداً غير قليل من عقارات أسرة ميديتشي الكائنة خارج فلورنسا إلى الدير، ممكِّناً الرهبان، بذلك، من تشغيل هذه الأراضي، أو التعيُّش على ربوعها عوض الاعتماد كلياً على ما يجود به الناس عليهم من صدقات. وتمثلت أولى إصلاحات سافوناورلا في تجريد الدير من هذه الأراضي، وردِّها إلى أصحابها الأصليين.

وقد أسرَّت هذه الحركة بييرو دي ميديتشي على نحو خاص، فمن شأن هذه الأملاك أن تساعده، يقيناً، على زيادة دخله الذي فتكت به الأزمات، مما يمكنه من النجاة من الوضع المالي المقلق الذي خلَّفه والده وراءه، فقد بقيت خزينة المدينة في وضع حرج، وكان من الصعب على ميناياتي تحويل مبالغ مالية كافية إلى بييرو، الذي أبقى على نمط الحياة المتبع في قصر ميديتشي إبان عهد أبيه لورينزو، ناهيك عن النفقات الباهظة التي لما يزل على بييرو دفعها للإبقاء على ماكينة أسرة ميديتشي السياسيّة، المتضمنة، فيما تتضمّن، المكافآت التي يدفعها لضباطه و«أجنادهم الذين يأتمرون بأمرهم»[11].

ومن الممكن رؤية الصعوبات الماليّة التي واجهت إدارة الحكم في فلورنسا، والمدى الذي بلغه فقر أهلها في الحقيقة التي تفيد أن 30٪ من السكان الخاضعين للضريبة (وهم يناهزون 10 آلاف نسمة)، إبان تلك السنين، قد افتقروا إلى درجة أنهم لم يدفعوا ضرائب قط، في حين لم يدفع 50٪ من القوى العاملة إلا ما يزيد عن الفلورين بقليل عن كل فرد. وكان من عادة حكومة فلورنسا في ذلك العصر أن تُقيّم مواطنيها، لغايات ضريبية، باعتمادها على سجل المسح المدعو بـ(كتاستو) «Catasto». وقد كان في البداية، سجلاً للأراضي حصراً، ثم تحوَّل إلى سجل عام يتطلَّب من كل عائلة في المدينة أن تسجِّل فيه أملاكها، ودخلها، واستثماراتها، وما تمتلكه من أشياء ثمينة ونفائس. وجرت العادة أن يُعدَّ الكتاستو كل ثلاث سنين، أو أكثر من ذلك كما جرى لاحقاً، على يد فريق من المفتشين المدققين. ومع ذلك، فقد كان الناس يجبرون على دفع الضريبة المقدرة تبعاً للكتاستو مرّة كل سنة، بل مرتين أو ثلاثاً في أوقات العسرة. وتمثلت واحدة من طرق الحكومة في جباية المال بالقرض المفزع المدعو بِـ«بريستانزي»؛ وهو قرض إلزامي يفرض على دافعي الضرائب تبعاً لما يمتلكون من أصول، وبمقتضى معيار غير ثابت. وتحدَّد هذا القرض، بصورة مشابهة للسندات الحكوميّة الحديثة، بدفع فائدة (ربما وصلت إلى 15٪ من قيمة القرض). ومن الممكن أن يُستردَّ المبلغ الأصلي خلال عدد من السنين يُنصُّ عليها في العقد. غير أن الحكومة كانت تضطر، مراراً، إلى تعطيل هذه الشروط في أحوال الضيق الاقتصادي، فلم تكن تدفع الفوائد مرّة واحدة وإنما منجمّة «في أحسن الأحوال»، كما أُرجئ رد المبلغ الأصلي إلى أَجل غير مُسمّى. ويمكننا أن نتبيَّن مدى ثقة الناس بهذه السندات حين نعلم أن شهادات هذه السندات،

القابلة للتحويل والتداول آنئذ، كانت تستبدل، في تلك الأيام العجاف، بما مقداره 30٪ من قيمة المبلغ الأصلي. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان من صالح إدارة الحكم، دوماً، ألا تعتمد طريقة تعسفيّة فيما يتعلق بهذه القروض الملزمة، فقد بُذلت جهود حقيقيّة لكي تلتزم بالدفعات بقدر ما تسمح به خزينة المدينة. وهذا لأن أعضاء تلك الإدارة ينتمون إلى العائلات ذاتها التي من واجبها أن تسهم في الحصة الكبرى من القروض.

وقد شرع سافونارولا، حينئذ، في إعداد خطط لتوضيع جماعته على المنحدرات الكائنة وسط غابات الكستناء البريّة قرب بلدة فيسولي، بما يُمثّل ملتجأ تنسكياً «لأناس بسطاء». وعلى الرغم من أن الكلمة التي استخدمها سافونارولا هي، فعلياً، «بسيط» semplici، فإن الوصف الملائم لذلك هو: ديرٌ يقوم على العيش البسيط، أو تبني نمط عيش بسيط. إذْ لم يكن جل من اجتذبهم سافونارولا إلى جماعته الدومينيكيّة بسطاء، تبعاً للمعنى الحقيقي للكلمة، بل غالباً ما كان أكثر المتحمّسين لقضيته من أوساط النخبة، ممن تحصّلوا على التعليم العالي، ممثلين بالشبان المثاليين، الذين أعلو من شأن ما تنطوي عليه شخصية سافونارولا من معرفة متبحرة وفهم عميق للرسالة الحقيقيّة التي أفصح عنها الكتاب المقدّس، وهي تناقض، تماماً، الحياة التي كان يحياها رجال الكنيسة الفاسدين جميعهم في ذلك الدور من التاريخ الكنسي.

ولم يكن حلم سافونارولا في تأسيس جماعته البسيطة هذه بدعة عارضة، إذ سيكتب له صديقه المقرب؛ الراهب روبرتو أُبالديني، المقيم في روما، في وقت متأخر من السنة التالية، الموافق للأول من مايو عام 1494، قائلاً: إنه قد تّدبر أمره، في آخر الأمر، واستطاع أن يتحصّل على إذن شفهي من

ألكسندر السادس لبناء ذلك الدير[12].

ولا بُدَّ أن نضع في اعتبارنا أنه طالما بقي بيرو دو ميديتشي في الحكم، فإنَّ همَّ سافونارولا الأساسي سيظل مقتصراً على ذلك الهدف الروحي عوضاً عن السياسي، متمثلاً في التأسيس لطريقة عيش متقشفة لدى الرهبان الدومينيكان في المجمع التوسكاني الجديد، لا إثارة الاضطرابات وسط أهل فلورنسا. وسيبقى فُلْك نوح الغامض، الذي سينقذ المجْمعين؛ الديني والعلماني على السواء، من عقاب الربّ المتخذ شكل الطوفان، كلاماً مجازياً استخدمه في عظاته. أما «الألواح العشرة» المبهمة المخصَّصة لبناء فلكه فقد بقيت، أيضاً، جزءاً من حلمه المتنامي وغير المحدد تحديداً واضحاً بعد. وإذا عاينا الأمر بنظرة ارتجاعيّة، فمن الممكن أن نتبين التناقض الذي يحكم هاتين الفكرتين، ونعني به الخلاص الذي لا يتحقق إلا عبر حياة الرهبنة البسيطة والمنعزلة، بوصفه مختلفاً عن خلاص التائبين والمضطهدين على امتداد فلورنسا، ممَّن اختاروا الالتحاق بفلك نوح، إذ إن خلاصاً متماثلاً ومتزامناً لن يتحقق لكلا الفريقين، ونعني الفريق الأول المتمثّل في قلّة تتمثّل حياة بسيطة مكرّسة للرب، والآخر المتمثّل في المعذَّبين الذين كان عليهم أن يكدّوا في خضم العالم الدنيوي. فإما أن تتحوّل القلة إلى الكثرة، أو أن تُهيِّأ الأخيرة لتحتذي خطى الأولى.

وقد ركّز سافونارولا اهتمامه، في ذلك الوقت، على مجمعه التوسكاني المستقل الجديد، الذي غدا، حينئذ، نائبه الأسقفي العام. وأدخل إلى سان ماركو إصلاحات كبيرة أكدت بساطة العيش، جاعلاً الرهبان الدومينيكان أقل اتكالاً على الصدقات العامّة (ولاسيما تلك التي تأتي من أسرة ميديتشي)، كما حثَّهم، في الوقت ذاته، على تطوير مهاراتهم الفكريّة وتعلم

مهن جديدة. وقد جرى التشديد على نمط متقشف من الحياة، إذ سيرتدي الرهبان، من الآن فصاعداً، الخشن والبسيط من الثياب، وسيشاركون في الصيام والقيام، وسيسعون إلى تنمية روح جماعيّة أكثر نزوعاً للمساواة. أما الوجبات فستكون مشتركة وجماعيّة، ولا تتوفر إلا على البسيط من الطعام والماء فقط. ولن يسمح، بعد الآن، بتناول الوجبات الباذخة، وما يصحبها من أنبذة فاخرة برفقة الأصدقاء غير المتدينين في الصومعات. وبات من المنتظر أن يعمل الرهبان جميعهم ليسهموا في تكاليف عيشهم ومبيتهم، فضلاً عن صيانة الدير. وحُثَّ كل راهب على إتقان ما يمتلكه من مهارات إتقاناً كاملاً، في حين عُلِّم الآخرون حِرَفاً أُخرى. فقد عُلِّم الرهبان والإخوة من غير الرهبان نحت الخشب، وعُلِّم الآخرون نسخ المخطوطات المقدسة، حتى أصبح بعضهم مثّالين ومعماريين. أما ما اتصل بأعضاء الجماعة الأكثر موهبة من الزاوية الفكريّة، فقد درسوا اللاهوت والفلسفة. وتشير بعض الأدلة إلى أن سافونارولا استشار بيكو حول ما ينبغي على الرهبان تعلُّمه من اللغات القديمة الأجنبيّة. ويذكر بورلاماكي أن هذه اللغات تضمنت «العبريّة، واليونانيّة، واللاتينيّة، والكلدانيّة، والموريسكية (العربية)، والتركيّة»[13]، مما يؤشر على احتمال أن يكون بيكو قَدْ عُيِّن مدرساً نظامياً في دير سان ماركو، بمعيّة كل من ميثراداتس (الذي يُرجَّح تدريسه العبريّة)، وبوليتسيانو وفيتشينو اللذين درسا اليونانية القديمة على الأغلب).

وقد انطوى هدف سافونارولا في تعليم رهبانه هذا القدر الواسع من اللغات على غرضين؛ تمثل أولهما في أن إحاطتهم باللغات القديمة من شأنها أن تمكنهم من فهم الكتاب المقدس عبر الاستعانة بالنصوص الأصليّة المبكرة، مما يعزِّز تبصُّرهم اللاهوتي، ويعينهم على فهم جوهر رسالة سافونارولا على

نحو أفضل. أما ثانيهما فقد كان مُثيراً، إذ كشفت عظاته المتأخِّرة أن رهبانه كانوا يتعلمون التركية والموريسكية استعداداً ليوم بعْثهم في إرساليات تبشيريَّة إلى كل من الإمبراطوريَّة العثمانية، وشمال إفريقيا، للتبشير بالإنجيل، وهداية الوثنيين إلى الطريق القويم. ولا يمكن النظر إلى هذه التفاؤليَّة المفرطة إلا بوصفها تفاؤليَّة ضيقة الأفق بالمعنيين الحرفي والتاريخي. وهو إن طوَّر، في هذه المرحلة، حدساً قوياً فيما خصَّ الوضع السياسي في فلورنسا، وحتى في إيطاليا جميعها، بصورة ما، فإن زعمه أنه راغب في تحويل العالم الإسلامي إلى المسيحيَّة يدلل على جهل غير معهود بالوضعين الديني والسياسي في العالم الخارجي، ناهيك عن كون هذه المهمة تقع على النقيض من نبوءته التي تفيد أن «قورش» جديداً سيعبر الجبال، ليعمل بمثابة عقاب رباني، فيدمِّر كل ما يقف أمامه. ونحن نجابه، مرَّة ثانية، بانفصام متأصل في رؤيا سافونارولا؛ إذ تبدت الأخيرة حلماً مستحيلاً طوراً، وإلهاماً قيامياً من شأنه تدمير العالم، طوراً آخر. فهل كانت هذه الرؤيا بساطةً طوبايويَّة أم ثورة؟

وقد عمد سافونارولا، في تلك الأثناء، إلى انتهاج طريق عملي، وذلك حين بدأ بإرسال رهبانه خارج سان ماركو إلى الأرياف، ليبشِّروا بمذهبه النصراني الأصولي الجديد في أرجاء القرى والبلدات التوسكانيَّة، وسيصحب كلَّ واحد من هؤلاء الرهبان رجل من عامة الناس أو تلميذ عامل، كي يتولَّى العمل ويوفِّر احتياجاتهم الأساسيَّة. ولن يكون رهبان سافونارولا، حينذاك، متوجسِّين في عظاتهم، لكونهم ما عادوا يخشون من أن رسالتهم غير الشعبيَّة ستستفزُّ العامة، فتدفع بهؤلاء الأخيرين إلى حرمانهم من الصدقات التي اتكل عليها المبشِّرون الدومينيكان فيما مضى.

مهما يكن من أمر، فقد ظل هناك من عارض، داخل المجمع، موقع

سافونارولا بوصفه النائب الأسقفي العام، إذ آثر أربعة من الرهبان، في فيسولي المجاورة، أن يغادروا الدير على الخضوع لسلطة سافونارولا الجديدة. وحين بلغت أخبار المجمع الذي شُكل حديثاً بلدة سان جيمنيانو، التي تبعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب، أعلن رهبان البلدة جميعهم، من جانب واحد، أنهم سيبقون جزءاً من المجمع اللومباردي، حتى إن جماعات من الرهبان الدومينيكان، الذين يقيمون في مناطق أبعد من فلورنسا اتخذوا الموقف المعارض نفسه. فهؤلاء الأخيرون لم يعرفوا سافونارولا إلا عبر ما اشتهر عنه من عظات رؤيويّة جامحة، وتقيد شديد بالتقشف. ولم يستمع إليه، في واقع الأمر، إلا قلة منهم، أو لم تتح لأي منهم الفرصة للوقوع تحت سحره الأخّاذ.

وقد قرّر سافونارولا، في سعي منه لتبديد هذه الصعوبات، أن يَشُدَّ الرحال إلى مدينة سيينا برفقة زهاء عشرين من رهبانه الخُلّص. إذ على الرغم من أن سيينا كانت مستقلة عن فلورنسا، فإنها كانت تقع ضمن حدود المجمع التوسكاني الجديد. وكان سافونارولا عازماً على التشبث بالسيطرة على هذه المدينة ذات الشأن. وتلقت مهمته هذه الدعم الكامل من بييرو دي ميديتشي، فقد رأى فيها فرصة لبسط نفوذ فلورنسا على سيينا، التي بسطت سيطرتها، آنئذ، على منطقة تتجاوز ثلث المساحة التي تسيطر عليها فلورنسا. وقد سعت الأخيرة، سنين عديدة، إلى ضم سيينا. وأدرك بييرو أن من شأن هذه الحركة أن تدشّن المرحلة الأولى في هذه العمليّة. وإذا كان بمقدور بييرو أن يجلب هذه الغنيمة الكبرى إلى فلورنسا، فإن هذا المنجز سيوضع في مصاف منجزات والده، مما سيكرّسه حاكماً عظيماً بحق.

وما إن انطلق سافونارولا وعصبته من الرهبان، في يونيو من عام 1493،

في رحلتهم التي سيقطعون خلالها 40 ميلاً راجلين، إلى سينا، حتى كانت أخبار إرساليتهم قد سبقتهم، إذ يروي أحد شهود العيان، قائلاً:

«لما كان دير سانتو سبيريتو (الدومينيكي) متاخماً لأسوار المدينة، فسرعان ما سرت الشائعة في أوساط أهل سينا، ومؤدّاها أن سافونارولا ورهبانه قد أُرسلوا، في الحقيقة، كي يستولوا على المدينة لصالح فلورنسا»[14].

وهكذا، فحين حط سافونارلا ورجاله الرحال في المدينة، تلقوا استقبالاً عدائياً، نقرأ:

«بينما همَّ سافونارولا بالحديث إلى زعيم الناس، جابهه ثلاثة من أعضاء السينيوريا في مدينة سينا، وبادروه بأقوى عبارات التهديد، وما لبث أن انضم إليهم العديد من الناس، كما أنه لم يسلم من النسوة اللاتي هاجمنه ورمينه بأقذع الشتائم... وفي واقع الحال لقد امتُهن سافونارولا وجرى نبذه وتهديده من جانب سكان المدينة قاطبة. وإني لعلى يقين من أنه لو لم يغادر المكان لكانوا رجموه».

وبعد أن طلب إليه أعضاء السينيوريا، رسمياً، الخروج من سينا، وأجبرته الجموع الغاضبة للتراجع سريعاً، غذَّ سافونارولا ورهبانه الخطى طالبين الأَمان في الأَراضي الفلورنسيَّة. وحين دلفوا إلى الحدود الفلورنسيَّة، عمد سافونارولا إلى نفض تراب سينا عن قدميه، تأسّياً بأنبياء الكتاب المقدَّس.

وقَصدَ سافونارولا وطائفة أخرى من الرهبان، في وقت متأخر من ذلك الصيف، بيزا؛ المدينة التي تقع، أيضاً، في نطاق المجمع التوسكاني المستقل حديثاً. وقد حافظت بيزا على استقلالها عن فلورنسا زمناً طويلاً. ولكن الجمهوريَّة الفلورنسيَّة عادت واحتلتها في وقت مبكر من القرن الخامس

عشر. ووطئت قدما سافونارولا أراضي بيزا في العشرين من أغسطس، وقوبل وصوله، هنا، بكثير من الارتياب، أيضاً، ولاسيما من جانب الرهبان الدومينيكان في دير سانتا كاترينا، إذ رفض أربعون من أصل أربعة وأربعين راهباً الخضوع لسلطته وغادروا المدينة. فعمد سافونارولا، حينها، إلى تعيين اثنين وعشرين من الرهبان الذين كانوا برفقته ليشغلوا الدير المهجور.

وقد ألقى سافونارولا، في تلك السنة، عظات عيد القدوم في كاتدرائية فلورنسا. وبنى عظاته، في الأغلب، على نص من سفر التكوين والمزمور الثالث والسبعين. وعلى الرغم من شكوك كاتب سيرته؛ ريدولفي، حيال نُسخ هذه العظات، فإنه علّق قائلاً: «لا نقع في هذه الخطب إلا على نزر يسير من الفورات المألوفة لدى سافونارولا ضد القسس الأشرار والبلاط البابوي. وليست هناك إحالات إلى الرؤى، أو الرُهبان (وهذا غريب)؛ رهبان المدينة التي لا تذكر مطلقاً»[15].

وقد مضى كل من سافونارولا وبييرو دي ميديتشي في حلفهما المثير للفضول. أما بوليتسيانو وبيكو ديلا ميراندولا، وحتى بوتيتشيلي (نسمي هنا بضعة أشخاص، فقط، من دائرة ميديتشي الثقافيّة) فلم يجدوا، على ما يبدو، تناقضاً في البقاء منخرطين في علاقة مقرَّبة وشبه يوميّة مع بييرو ورئيس دير سان ماركو في وقت واحد.

(11)
«تواجه إيطاليا أوقاتاً عصيبة... فطوالع نجومها تُحدِّث عن شرور قادمة»[1]

اتخذ الوضع السياسي في إيطاليا، عام 1493، منحى دراميا سيئاً، وبقي ميزان القوى قائماً، وإن بصورة غير مستقرة، منذ وفاة لورينزو العظيم، لكنه سيدخل، حينها، في حالة اضطراب بسبب الطموحات المتعجرفة والضالة لـ «لودفيكو إل مورو سفورزا». ولم يكن الأخير الحاكم الشرعي لميلان، وإنما كان يحكم عوضاً عن ابن شقيقه الصغير جيان جاليتسو سفورزا، الذي خَلَف أباه المقتول غيلةً، وهو بعد في سن الثامنة[2].

ولما بلغ جيان التاسعة عشرة من عمره، عام 1488، اقترن بابنة عمه إيزابيلا؛ حفيدة فيرانتي ملك نابولي. ولم يكن واضحاً، قبل أن يبلغَ جيان سن الرشد، أن لدى عمه نيّة بالتنازل عن السلطة لابن أخيه، الذي رآه الأول شاباً ضعيفاً وساذجاً. وعندما أصبح جيان في الحادية والعشرين، اتخذ لودفيكو خطوة غير مسبوقة عندما أوعز إلى دار سك النقود بإصدار عمله نقدية يحمل وجهها الأول صورته، في حين يحمل الوجه الثاني صورة جيان. وعمد، في الوقت عينه، إلى إرسال جيان وزوجته إيزابيلا، سراً، إلى عزبتهما في بافيا، التي تبعد أكثر من 20 ميلاً جنوبي ميلان في وادي بو. ولم يبال جيان بذلك، فقد كان أكثر اهتماماً بالصيد وإقامة الولائم. أما إيزابيلا فلم تكن لتقبل بهذه المعاملة التي تقلّل من شأنها، فعادت إلى والدها الذي كان وريثاً

لعرش نابولي، تحثُّه على إقناع الملك فيرانتي كي يأمر بتنصيب زوجها دوقاً شرعياً. وقد بلغ عدم اكتراث جيان بتبوؤ عرش ميلان حداً جعله يبلغ عمه لودفيكو بخطط زوجته، مُقنعاً الأخير أن ألفونشو؛ والد إيزابيلا عزم على تأكيد حق جيان في السلطة حين تولَّى عرش نابولي في أثناء مرض الملك فيرانتي الطاعن بالسِّن. وإذ كان ألفونشو ماضياً في تهديده، أدرك لودفيكو أنه في موقع ضعيف. وعلى الرغم من السَّلام السائد، بصورة ما، بين القوى الإقليميَّة الكبرى، فقد بقيت البندقيَّة عدوة ميلان التقليديَّة. وكانت فلورنسا، ببساطة، أضعف من أن تهب لنجدته. وقد شعر، بحق، أَنْ ليس بمقدوره الوثوق في البابا على الرغم من تحالفه معه.

وقام لودفيكو سفورزا، في مواجهة هذا التهديد بما عدَّه مناورة سياسيَّة ذكيَّة. إذ سعى، عام 1493، في خطوة غير متوقعة إلى طلب العون من خارج إيطاليا، ملتمساً الدعم من شارل الثامن؛ الملك الشاب الجديد لفرنسا، التي مثَّلت أقوى أمة أوروبيَّة في ذلك العصر. وتعهَّد لودفيكو، في مقابل هذا الدعم، أنه سيدعم شارل الثامن إذا أراد أن يؤكِّد حقَّه في عرش نابولي؛ ذلك الحق الغائم، بصورة ما، الذي يأتي عن طريق جدته لأبيه. وقد أدَّى ذلك، بلا ريب، إلى نكوص إيزابيلا على عقبيها. ورأى لودفيكو نفسه، وقتها، وريثاً للورينزو العظيم، بوصفه الحكم الفيصل في المشهد السياسي الايطالي، بل إنه «فاخر أنَّ البابا هو قسيسه، وأن مجلس سينيوريا البندقيَّة حاجبه، وأن ملك فرنسا رسوله أو ساعي بريده»[3].

وكما جاء في إحدى الحكايات الأخلاقيَّة الرمزيَّة، التي سيدرك سافونارولا مغزاها، فإن الكلمات التي جاءت على لسان نبي العهد القديم؛ هوشع، وجلجت أصداؤها عبر القرون، قد وجدت تجسُّدها من جديد:

«إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة»[4]. فما لم يدركه لودفيكو أن شارل الثامن كان يتعطَّش إلى مثل هذه الفرصة، إذ كان يحلم، قبل تولِّيه العرش بزمن طويل، بغزو إيطاليا ليثبت فروسيته، محاكياً قصص الفروسيَّة التي كان يستمع إليها، بشغف، في طفولته.

وفي واقع الأمر، اقتصر تعليم شارل الثامن، غالباً، على الإصغاء إلى الحكايات الفروسيَّة، ولم يكن بمقدوره قراءتها بنفسه، فقد كان لا يجيد القراءة أو الكتابة طوال سنين طفولته. وحتى حين بلغ الحادية والعشرين من عمره، وتولى سلطاته الملكية بقي، بصورة ما، أُمياً. وكان شارل طفلاً غريباً، غدا مع مرور السنين، أغرب على المستويين الجسدي والعقلي. فقد امتلك جسداً قصيراً أحدب، وكان في مشيته عرج أبرزته قدمه المتضخمة، وقيل إنه امتلك ستة أصابع في كل قدم، مما يوحي أن عيوبه الجسديَّة متأتية من زواج القربى بين الأسر الملكيَّة الفرنسيَّة. وما كان سلوكه يوحي بالحالة السويَّة أو الطبيعيَّة، إذ أن سذاجته الظاهرة كانت بادية في فمه الفاغر على الدوام، وشفتيه اللحيمتيْن، فضلاً عن غمغمته الدائمة التي أشعرت الكثير ممن حوله بالضيق. وقد ترافقت شهيته الجنسيَّة المذهلة مع طموحه الطاغي الذي شارف جنون العظمة، وسايرت أسرته هذا الجانب من شخصيته بغرض الخروج به من حالة العبث واللهو. وما لبث أن تعزَّزت أحلامه في الفروسيَّة المغامرة، وسرعان ما تراءى له أنَّ احتياجه لنابولي ليس إلا مقدمة لحملة صليبيَّة مجيدة ستشهد استعادة القسطنطينيَّة من الأتراك العثمانيين، وسيتبعها الاستيلاء على القدس. تلكم كانت الطريقة التي رأى فيها شارل الثامن الشاب نفسه يدخل التاريخ، وهو وإن كان ساذجاً، فإنَّ قوَّة حضوره، وطموحه، والأمة التي حكمها، جعلته مُهاباً من الجميع.

وعلى أي حال، فقد كان شارل الثامن مدركاً أن من الحمق وغير الحكمة الزحف، ببساطة، على إيطاليا وادعاء الحق في عرش نابولي، فمن شأن ذلك أن يخلق سابقة غير معهودة. فلقد كانت العروش الأوروبيّة مثار ادّعاءات ظاهرة بين الملوك الذين يطالبون بحقهم فيها. وكانت هذه الادعاءات متفاوتة في صدق دعواها ومبرّراتها (لم يكن عرش شارل الثامن استثناء من هذه القاعدة). وعليه، فإن القيام بعمل غير مسوّغ لخلع ملك نابولي، القابع على عرشه منذ زمن طويل، من شأنه أن يوحّد إيطاليا جميعها في وجهه. وكان من الأفضل تجنب هذه الخطوة، إذ كان يقتضيه أن يعبر 500 ميل داخل الأراضي الإيطاليّة حتى يبلغ نابولي، وكان يريد لهذه المنطقة أن تبقى محايدة، أو سهلة القياد على أقل تقدير، إن أراد أن يحافظ على خطوط إمداده البريّة وروابط العبور مع فرنسا. وأدرك شارل الثامن، هو ومستشاروه وأسرته، أنه يحتاج إلى مبرر ما إذا أراد للمرحلة الأُولى من خطته المجيدة أن تدخل حيِّز التنفيذ. ولهذا كان عليه أن يتلبّث قليلاً.

وقد قاست إيطاليا، في ذلك الوقت من شهر يناير لعام 1494م، أسوأ شتاء عرفته في ذلك القرن، إذ سجّل لاندوتشي؛ كاتب اليوميّات الفلورنسي، قائلاً:

> «التاريخ: 20 من يناير... عانت فلورنسا أسوأ عاصفة ثلجيّة لم ير مثيلاً لها حتى أكبر المواطنين سناً. ومن الغريب أنها ترافقت مع عاصفة ريحيّة بلغت من الشدة حداً جعل من غير الممكن فتح أيٍّ من الحوانيت، أو النوافذ، أو الأبواب. وبقيت هذه العاصفة الثلجية من صبيحة اليوم مع بدء السلام الملائكي (السلام عليك يا مريم)، إلى صبيحة اليوم التالي، وذلك دون أن تتوقف هنيهةً واحدة، ولم تسكن

الريح لحظة، مما جعل الثلج ينفذ إلى البيوت عبر الشقوق والثقوب مهما صغرت. وفي واقع الأمر، لم يكن ثمة بيت محكم الإغلاق بصورة كافية لمنع دخول تلك الكميَّة من الثلج، التي يقتضي إخراجها أياماً بعد ذلك. وتكدَّست أكوام الثلج على امتداد الطرقات، فلم يكن بمقدور إنسان أو حيوان، في بعض الأماكن، أن يجد عبرها طريقة للعبور. وبلغت كميات الثلج المتراكم حداً استدعى ذوبانه أياماً، تماماً كما يحصل حين يتسنى للصبية أن يصنعوا أسداً من الثلج. وسيكون من العسير عليَّ تصديق ذلك، لولا أني رأيته بأم عيني»[5].

ولا بُدّ أن يكون ذلك في الوقت الذي نحت فيه ميخائيل انجلو أسداً هائلاً (رمز المدينة) من الثلج المرصوص لـ (بيرو دي ميديتشي). وكذا الشأن بالنسبة إلى «ليوناردو دافنتشي» الذي نحت تماثيل جليديَّة لوالده[6]. وكان لورينزو العظيم معجباً إعجاباً عميقاً بموهبة النحت لدى ميخائيل أنجلو؛ الفتى، فدعاه للعيش في قصر ميديتشي. وكان بيرو يكبر ميخائيل أنجلو بثلاث سنين. وقد عرفا بعضهما جيداً، رغم تباين شخصيتيهما، إذ تعارض شغف بيرو بالممارسات الفيزيقيَّة المتهوِّرة مثل الصيد والمبارزة، مع شخصية أنجلو الحاذَّة، فضلاً عن هوسه بالنحت، وعاداته المتقشفة. ومع ذلك، بقي ميخائيل أنجلو لصيقاً ببيرو ذي الشخصيَّة المركبة، على الرغم من تعامله مع النحات الشاب ببعض العجرفة. ورغم هذا السلوك المتعالي، فقد حافظ بيرو على مستوى من الاحترام للمبدع الذي رعاه أبوه، وحرص على أن يستمرَّ ميخائيل أَنجلو؛ الشاب الطموح ذو الثمانية عشر عاماً، في تسلّم التكليفات من الراعين الأثرياء، ولاسيَّما الكنيسة.

أما الفنان الآخر الذي بقي لصيقاً بـ «بيرو» فهو بوتيتشيلي، الذي رسم

عدداً من الصور النابضة بالحياة، والغنية بالألوان، لبيرو الشاب. غير أن بوتيتشيلي بدا، حينئذ، يشعر بقسوة الولاء المزدوج، وتعاظم ألمه بسبب من تعارض الحياة في قصر ميديتشي وحياة البساطة التي بشّر بها سافونارولا، ورغب بوتيتشيلي في اتباعها. وبدأ هذا الصراع الداخلي يؤثّر في عمله، فقد تحوّل إلى المواضيع الدينيّة الحزينة عوض احتفائه الطاغي والنابض بما هو إنسانوي، كما تمثّل في لوحتيه؛ الربيع، ومولد فينوس.

وقد كان لورينزو دي بيرفرانشيسكو مَن رأى أنَّ مِن الأجدر أن يعمل بوتيتشيلي على موضوع يتوافق، تماماً، مع انشغالاته الروحيّة، فكلّفه بإنتاج سلسلة من الرسومات التوضيحيّة لـ «كوميديا دانتي». وكان هذا المشروع، ما سيعود إليه بوتيتشيلي، مرّة تلو أخرى، على مر السنين. وستضيء لنا معالجاته الحيّة للعذابات التي تحيق بتلك الأنفس المخلّدة في الجحيم ما كان يعانيه من حالة عقليّة مضطربة.

وتبدى ذلك جلياً في لوحته التوضيحيّة لدائرة الجحيم، التي يسكنها «أهل الظلام»[7] المنغمسون، دنيوياً، في «الرذائل المنحرفة التي تدمّر قوى الجسد الطبيعيّة، وتفسدها»[8]، وعنى بهؤلاء الأخيرين، اللوطيين، الذين ما انفك سافونارولا يشنّع عليهم في عظاته. وربما اعتقد بوتيتشيلي، جازماً، أنَّ هذا هو مصيره الذي سيرزح فيه، يوماً ما، إلى الأبد. وهكذا، فقد استقرأ من كلمات دانتي صورة مروعة لعدد مهول من الأجساد العارية، التي تتلوّى وتترنّح في سكرات الألم عبر الرمال المحترقة وتحت وابل متواصل من قطع اللهب المتساقطة؛ تلك الصورة التي تُحاكي، بصورة واعية، القدر الكتابي (نسبة إلى الكتاب المقدس) لأهل سدوم وعمورة.

وقد سجّل لاندوتشي، بتاريخ 29 من شهر يناير 1494، في يومياته قائلاً:

«لقد سمعنا أنَّ ملك نابولي قد مات»[9] فنودي بابنه ملكاً، على الفور. ونصَّب نفسه بوصفه الملك ألفونشو الثاني. وسنحت في ما جرى فرصة لشارل الثامن كي ينقض ذلك، ويدَّعي حقه في عرش نابولي. وقد رفض ألفونشو الثاني دعوى الملك الفرنسي بازدراء، فانبرى الأخير لحشد جيش عرمرم استعداداً لغزوة يقوم بها عبر جبال الألب. وكي يكون في مكنة الجيش الفرنسي بلوغ نابولي، سيكون عليه الزحف عبر أراضي ميلان، وفلورنسا، والولاية البابويَّة. وقد كان لودفيكو سفورزا مغتبطاً أيَّما اغتباط بقدوم شارل الثامن. أما ألكسندر السادس وبييرو ميديتشي، فقد عمدا إلى المراوغة. وهدفت سياسة بييرو دي ميديتشي الأجنبيَّة إلى تقوية العلاقات مع نابولي، والتحلل، في الوقت ذاته، من الاعتماد الوثيق على ميلان. وقد دخل هذا التحوُّل الديبلوماسيُّ دائرة الفعل في القضيَّة الخلافيَّة التي دارت حول استقلال المجمع التوسكاني عن نظيره اللومباردي؛ تلك القضيَّة التي عزَّزت العلاقات بين بييرو والبابا. غير أن الأخير بقي غير جدير بالثقة كما كان عهده دائماً، وأدرك بييرو أنه إذا دعم نابولي، فمن الممكن أن يترك وحيداً في مواجهة جبروت الجيش الفرنسي، أما إذا اختار أن يدعم ألفونشو الثاني، واصطفَّ البابا إلى جانب نابولي، وانضمَّ البنادقة إلى هذا الحلف، فربما واجهت فلورنسا، من جديد، خطراً داهماً من جانب جاراتها، هذه المرة، ولاسيما إذا أرجأ شارل الثامن، لسبب أو آخر، غزوه لنابولي.

ولقد تناهت الأخبار، في ربيع عام 1494، إلى فلورنسا تنبئ أن إرجاء الغزو قد حدث فعلاً، فما كان لخزينة الدولة الفرنسية، مهما عظمت، أن تمتلك القدرة على تكاليف هذه الحملة الطموحة التي تخيَّلها شارل الثامن. وثمة سبب يتقدَّم على هذا الأمر في أهميته، إذ امتلك الملك من الأسباب

ما جعله يعتقد أن عرشه تتهدّده المخاطر، وذلك بسبب مكر أُسرته وانعدام شعبيته عامّة. وما إن تناهى الخبر إلى بييرو دي ميديتشي حتى هبَّ للتعهد بدعم ألفونشو، وما لبث ألكسندر السادس أن بارك هذا التحالف. وقد ظل، عدو البابا اللدود؛ الكاردينال ديلا روفير، المنفي في تلك الأثناء، مقيماً في البلاط الملكي الفرنسي. وبذل هذا الكاردينال وسعه كي يستحث شارل الثامن على تحقيق طموحه في غزو إيطاليا؛ تلك الخطوة التي ستؤدي، يقيناً، إلى هزيمة ألكسندر السادس. وقد اقتنع شارل الثامن، في آخر الأمر، بأن ينفذ ما عزم عليه منذ زمن بعيد. إذ جرت طمأنته بأن عرشه في مأمن من الدسائس، وعلم أن لديه موارد ماليّة كافية كي ينطلق بالحملة على أقل تقدير، ومن الممكن تحصيل موارد إضافيّة من عمليات السلب في أثناء الحملة، ولاسيما من البابا، وربما من فلورنسا.

وكانت فلورنسا، تقليدياً، حليفاً لفرنسا، وبنيت تلك السياسة، بحذر، على مدى العقود السابقة، وبخاصة في عهد لورينزو العظيم. واعتاد مجلس السينيوريا إرسال الوفود إلى البلاط الملكي الفرنسي لتمتين الأواصر بالملك الفرنسي، صاحب الأفضال الكثيرة على فلورنسا. ومن ذلك، أن الملك السابق لويس الحادي عشر، ومجلس الوصاية على العرش من بعده، قد باركا الإقطاعات الكنسيّة التي اشتراها لورينزو العظيم لشقيق بييرو الأصغر؛ الكاردينال القادم جيوفاني ميديتشي. ويبدو أن بييرو لم يُعنَ، حتى قبل أن يبدّل ولاءه، باستشارة أخيه الذي يشاطره العيش في القصر، والذي مازال يعتمد على تلك الإقطاعات الفرنسيّة بوصفها القسم الأكبر من دخله.

ولم يكن جيوفاني الخاسر الوحيد جراء القرار الذي اتخذه بييرو. فقد عُيِّن بييرو دي جينو كابوني، في عهد لورينزو، سفيراً لدى البلاط الملكي

الفرنسي، وغدا قريباً جداً من شارل الثامن الشاب، ومتعاطفاً مع الطفل الأخرق ذي الهيئة العفريتيّة والقدمين المفلطحتين، الذي طالما كان موضع سخرية وتندُّر وهو قاصر، حين حكمت فرنسا الوصيَّةُ على العرش؛ الشقيقة الكبرى آن، التي تميَّزت بالقوّة والذكاء المُتّقد[1]. وقَدْ محض شارل الثامن، من جهته، السفير كابوني حباً عميقاً. وهكذا، فإنَّ إنهاء بييرو لتحالف فلورنسا مع فرنسا عُدَّ من جانب الملك الفرنسي النزق فعلاً خيانياً شخصياً.

وتدل هذه الطريقة في تعريض بييرو شقيقه والسفير الفلورنسي للخطر على أن بييرو قد اتخذ هذا القرار المتعلّق بالسياسة الخارجيّة دون أي استشارة ديمقراطيّة، حتى وإن كانت صوريّة. وقد كان القطاع الأعظم من أعضاء الإدارة الحكوميّة، التي عيَّنتها أُسرة ميديتشي، مكروهاً إبان تلك الفترة. غير أنَّ أهل فلورنسا، وهو أمر يكتسي مغزى خاصاً، لم ينحوا باللائمة على الغونفالونير والسينيوريا بشأن إنهاء التحالف مع فرنسا. وكنتيجة لذلك، لم يشع التذمر في أوساط الناس العاديين فحسب، وإنما بدأ العديد من العائلات البارزة، ولاسيما عائلة كابوني، في التحول عن بييرو، الذي أدهشتهم عجرفته وانعدام كفاءته. وليس سوى وقت يسير حتى صار ينظر إليه مواطنوه بوصفه خلفاً سيئاً للورينزو العظيم، جالباً لنفسه صورة دفعت بأعدائه إلى نعته بـ «بييرو الأحمق»، في حين نعته آخرون، على نحو أقل حدّة، بـ «بييرو المشؤوم»، وربما كان هذا اللقب الأخير أكثر إنصافاً له إذا علمنا أي وضع عسير كان يواجهه وقتها، حين أجبر على الاختيار بين فرنسا والحلفاء الإيطاليين غير الموثوقين. فضلاً عن أنَّ الوضع الذي ألفت

(1) حرص لويس الحادي عشر على أن تكون ابنته الكبرى؛ آن، وصية على العرش، بعد وفاته، وقد قال فيها ما رآه أعلى درجات الإطراء، حين وصفها بأنها «المرأة الأقل اضطراباً في فرنسا»[10].

فيه فلورنسا نفسها، مشفوعاً بما كان يحيق بإيطاليا من خطر قاتل، كان كفيلاً، ربما، بهزيمة أكثر القادة عزماً واقتداراً. ولما كان الأمر كذلك، فإن الكثيرين في ذلك الوقت لم يملكوا إلا أن يقارنوا مزايا الحاكم الفلورنسي بما حازه ابن عمه الموهوب لورينزو دي بيرفرانشيسكو دي ميديتشي. وكان من الجلي أن بيرفرانشيسكو امتلك قيم أسرة ميديتشي العريقة، ممثلة في الحنكة التجاريّة، والحكمة السياسيّة كما تجلّت، بصورة باهرة، في شخص عمه الأكبر كوزيمو دي ميديتشي. وقد جمع، لورينزو دي بيرفرانشيسكو، على نحو مشابه ولافت، ثروة عبر عدة مشاريع تجاريّة، وأثبت أنه رجل إدارة مقتدر حين اختير ليتولّى غير لجنة حكوميّة. وقد تأسّى بكوزيمو دي ميديتشي فتصرّف بتواضع، مما أكسبه ودّ العائلات البارزة.

وإذ بدأ أصحاب الرأي المستنير يتحوّلون عن بييرو دي ميديتشي، فإن أفكاراً بعينها أخذت بالبروز. لكن كل واحدة من هذه الأفكار انطوت على عوار ما. وعلى سبيل المثال، فإن أي محاولة تهدف إلى إسقاط بييرو، في مثل هذا الوقت، من شانها أن تحدث اضطراباً وثوراناً عظيمين، وستفضي، لا محالة، إلى إضعاف موقف فلورنسا في إيطاليا. ومن ناحية ثانية، إذا اتفق أن انتُخب لورينزو بيرفرانشيسكو لمنصب الغونفالونير، وتولي المكان الأول في الدولة، فإنّ ذلك لن يكون ذا جدوى، فالغونفالونير يتولى هذا المنصب لشهرين فقط، بيد أنّ كثرة من الناس، وهذا لا ينكره أحد، رأت في لورينزو دي بيرفرانشيسكو الوريث الطبيعي لبييرو.

وقد كان كلا الرجلين مدركين لهذه الموجه المتعاظمة من الرأي. وجاهد لورينزو دي بيرفرانشيسكو للتقليل من هذا الأمر، فهو لم يرغب، بصدق، في تولي مقاليد الحكم. أما بييرو ميديتشي، فقد أخذ يشعر بما يجري له من

إضعاف مطَّردٍ من جانب ابن عمِّه الثري، فأشعل ذلك مشاعر الرِّيبة لديه، مما فاقم من استبداديَّة سلوكه.

وبلغت الأمور ذروتها بين ابني العم خلال موسم حفلات الربيع التي تأتي، تقليدياً، بعد عيد الفصح (الموافق 30 من مارس سنة 1494). فقد ألفى بيرو ميديتشي وأخو لورينزو بيرفرانشيسكو الأصغر؛ جيوفاني، نفسيهما في واحدة من الحفلات يتباريان لجذب انتباه امرأة فاتنة وقع الاثنان صرعى هواها. وحين رغب جيوفاني دي بيرفرانشيسكو في مراقصتها، استشاط بيرو غضباً، وصفعه على مرأى من الحضور. وكان الرد التقليدي على مثل هذه الإهانة هو الدعوة إلى المبارزة، غير أن هذا الخيار لم يكن متاحاً لجيوفاني، لأن بيرو هو حاكم المدينة. وهكذا، كان جيوفاني مجبراً على قبول هذه الإهانة العلنية، والانسحاب مجللاً بالعار. وسرى أمر الفُرقة داخل أسرة ميديتشي عبر المدينة برمتها، وأدرك بيرو أنَّ من المتعيِّن عليه، أن يحتذي خطى أبيه، فيتخذ إجراءً مباشراً وحاسماً، لكنه تلبَّث عِدة أيام، لعلمه أن الرأي العام لم يكن في صفه. وأُعلم، في تلك الأثناء، بأنَّ الأخوين بيرفرانشيسكو كانا يدعمان - بقوة- التخلي عن التحالف مع نابولي، وتشكيل حلف مع شارل الثامن، وكان ذلك صحيحاً تماماً. ومن المرجَّح أن يكون بيرو قد عرف ذلك من قبل. ومهما يكن من أمر، فالقادم أسوأ من كل ذلك، إذ كان شارل الثامن قد أرسل، مسبقاً، مستشاره المقرب؛ فيليب دي كومين، موفداً إلى إيطاليا في مهمَّة استطلاعيَّة يستفهم، خلالها، عمَّن سيؤيد غزوه لإيطاليا ومن سيعارضه. وكان بيرو قد أعلم كومين أن فلورنسا لن تمنح الجيش الفرنسي ممراً آمناً عبر الأراضي الفلورنسيَّة في أثناء زحفه على نابولي، لكنه أُعلمَ حينئذ أنَّ لورينزو دي بيرفرانشيسكو كان على تواصل مع كومين.

وأرسل الأول رسالة مع هذا الأخير إلى شارل الثامن ينبئه فيها أنَّ الغالبيَّة العظمى من أهل فلورنسا يخالفون بيرو دي ميديتشي الرأي، على الرغم من تعهّد الأخير لنابولي أنّه سيتولى الدفاع عن الأراضي الفلورنسيّة ضد أي اختراق فرنسي. وهكذا، سيكون الجيش الفرنسي قادراً على عبور المناطق الفلورنسيّة دون عواقب تُذْكر. وانطوى تقدير الموقف هذا على صحّة ظاهرة، لكن الأخوين بيرفرانشيسكو كتبا، كما زُعم أيضاً، إلى شارل الثامن يعدانه بالدعم المالي، له ولجيشه، لدى عبورهم توسكانا. وإذا صحَّ ذلك فهو فعل خياني يستلزم أقصى عقوبة. ويُعلمنا كاتب اليوميات لاندوتشي، في واقع الحال، بتاريخ 26 من إبريل «أن ابني بيرفرانشيسكو دي ميديتشي؛ لورينزو وجيوفاني، قد احتجزا في سجن بلاجيو[1]. وقيل إن بعضهم طالب بإنزال عقوبة الإعدام بهما، دون أن يتمكن أحد من الحديث عن السبب. وقد أُطلق سراحهما في التاسع والعشرين من الشهر عينه، وقد ذهبا في الرابع عشر من مايو إلى مكان بعيد، وبقيا مقيدي الحركة ضمن حدود بعينها»[11].

وتشيرُ الفوارق في التاريخ، وعدم المضي في عقوبة الإعدام، إلى تردد في موقف بيرو، فضلاً عن الانقسام في صفوف مجلس السينيوريا الحاكم. وفي واقع الأمر، فقد حدث، بتاريخ الـ4 من مايو، وفي حُمى هذه النقاشات العاصفة، دون شك، أمرٌ شديد الأهمية. وكما أكدَّ كل من غيتشارديني ولاندوتشي، فإنَّ وفداً من أربعة سفراء فرنسيين دخلوا الأراضي الفلورنسيّة

---

(1) من شبه المؤكد أنه قصر ديل بارجيلّو؛ مقر إقامة المحافظ. وكانت هذه البناية المحصنة والقريبة من المنعطف الذي يبدأ من قصر السينيوريا، قد انعقدت فيها المحاكمات، وأصبحت معروفة بوصفها سجن المدينة، حيث غدا التعذيب طريقة من طرق العقاب المألوفة، كما أجريت الإعدامات في ساحته الداخليّة.

في طريقهم إلى روما. وبينما كانوا في المدينة، نقلوا خبراً مؤداه أن ملكهم يتجهَّز لغزو إيطاليا. وقد طلب دعم فلورنسا، أو جواز مرور، على أقل تقدير، لدى عبوره الأراضي الفلورنسيَّة. وما لبث الأخبار أن شاعت بأنَّ بييرو رفض هذا الطلب، على الرغم من جهود الحكماء من المواطنين لردِّه عن ذلك.

وقد كان ذلك في الأيام القليلة التي أعقبت «ذهاب الأخوين فرانشيسكو إلى مكان بعيد، وبقائهما مقيدي الحركة في منطقة بعينها».

ولم يكن الأمر بهذا الرفق الذي بدا عليه، فقد أُعيد اعتقالهما، ونفيا، رسمياً، من المدينة (وهكذا فقد حُرما من جميع حقوقهما المدنيَّة)، ثم اقتيد الاثنان، تحت الحراسة المشدَّدة، وأرسل كل واحد إلى فيلته المنفصلة، حيث وُضعا تحت الإقامة الجبريَّة. فأقام لورينزو بييرفرانشيسكو في كافاغيولو القائمة وسط الجبال في وادي موغيلّو، أما جيوفاني فأقام في كاستيلّو على مبعدة خمسة أميال من المدينة.

وبينما كانت أشهر الصيف تسيرُ ثقالاً، انتظرت إيطاليا في حالة من الرعب، ولاسيما فلورنسا، فقد أتى موت فيرانتي؛ ملك نابولي، أخيراً، ليؤكد نبوءة سافونارولا المتعلقة بوفاة «الطغاة الثلاثة». وبدا كما لو أنَّ نبوءة أُخرى من نبوءاته في طريقها إلى التحقق، وإن يكن على غير ما تنبَّأ به سافونارولا تماماً. فقد عزَّز المشهد المنتظر، ممثَّلاً باجتياح إيطاليا من الجيش الفرنسي الجزَّار الذي لا يرحم، في أذهان أهل فلورنسا جميعهم أنَّ ذلك تحقق لنبوءة سافونارولا المتعلقة بوصول قورش جديد يظهر من وسط الجبال. وبدا أن ملك فرنسا، لا السلطان العثماني، هو من سيكون «سوط الرب».

وزحف الملك شارل الثامن في أواخر أغسطس من عام 1494 جنوباً

خلال السفوح الفرنسيّة لجبال الألب، عابراً الممر الجنوبي القديم؛ كول دي مونتجينيفر، الذي يرتفع 6000 قدم. وكان قد قطع، في الأيام الأولى من سبتمبر، عشرين ميلاً داخل الأراضي الإيطاليّة إلى الغرب من تورينو. وتحدثت الأخبار أن عدد جيش شارل الثامن بلغ 40000 رجل، منهم 24000 من الفرسان، و20000 من المشاة، ولحقتهم مجموعة مُتنافرة من المدنيين التابعين للمعسكر، التي ضمّت إليها، الطهاة والمنجمين، والنساء اللاتي يقمن بغسل الملابس، وحتى المومسات[1]. وكان الجنود أنفسهم، في الغالب، من رجال الخدمة النظاميّة، الذين دُرّبوا تبعاً للقواعد الحربيّة المتّبعة في مدرسة شمال أوروبا، حيث تخاض المعارك بوحشيّة، ويهلك الناس، بخلافِ حال المواجهات التي كانت تنشب بين الجيوش في إيطاليا. فقد بقيت المعارك، في إيطاليا، ممارسات تكتيكيّة تخوضها جيوش تقاد من جانب قائد المرتزقة. إذ كان يُسمح للجيش الذي يُستدرج إلى «الخسارة» بالفرار من أرض المعركة، ضمن أقل قدر من الإصابات (التي غالباً ما نتجت عن الانسحاب المتعجّل والمضطرب). ومكنت هذه الطرق الجنود المهزومين من المضي في ممارسة تجارة الارتزاق من القتال في وقت لاحق، وذلك حين يُستأجرون، ربما، للقتال في صفوف أعدائهم السابقين. وقد عاون كل ذلك على إدامة الحروب بين الدويلات الإيطاليّة، ولعب دوراً في تكريس حالة الانقسام إبان تلك السنين.

ولم يحدث أن عَبَر جيش نظامي مجهز بأسلحة متفوقة، كجيش شارل الثامن، جبال الألب، عبر إيطاليا، منذ 700 عام، وذلك عندما سعى هانيبال إلى تدمير الإمبراطوريّة الرومانيّة العظمى. ولكن جيش شارل الثامن أحضر،

(1) تتفاوت التقديرات المتعلقة بعديد جنود هذا الجيش، بيد أن من المرجح أن يكون عددهم قد تجاوز 50000، بمشاركة من لحق المعسكر من المدنيين.

عوض أفيال هانيبال المُرعبة، أحدث سلاح مدفعيّة، وهو لم يكن متحرّكاً فحسب، وإنما بلغت قوته درجةً مكنته من تدمير ما يقف في طريقه من أسوار أي مدينة أو قلعة. فقد ولّى عصر المعارك القروسطيّة، المتمثلة في استخدام صفوف الرماة، وضرب الحصار الطويل حول المدن، ودخل شكل جديد، جدّةٌ كاملة، من الحروب.

وبينما كان جيش شارل الثامن يعبر جبال الألب، تناهى إلى سمع لاندوتشي في فلورنسا، «أن أسطول الملك الفرنسي وصل إلى جنوا، ودار حديث كثير عن معركة قائمة»[12]، وكان ألفونشو الثاني قد تجهّز لذلك وأرسل أسطوله، شمالاً، من نابولي. وبينما كانت أحدث الرسائل تتوارد إلى فلورنسا، دوّن لاندوتشي في يومياته الأخبار التي كانت تتناقلها ألسن المواطنين، الذين يتعاظم قلقهم:

> «لقد شهد الحادي عشر من سبتمبر هزيمة أسطول ملك نابولي في رابالّو. وكانت القوات المشتركة المكونة من القوات الفرنسيّة وتلك الجَنَويّة هي ما أنزل هذه الهزيمة بأسطول ملك نابولي. ولم تكن تلك معركة بحريّة، ذلك أن هذا الأخير أنزل ثلاثة آلاف جندي بغرض الاستيلاء على رابالّو. لكنهم عُزلوا عن سفنهم من جانب القوات المشتركة، ففروا، إثر ذلك، إلى الجبال، حيث قُتِل منهم من قُتل، وأُسر من أسر. أما أسطول ملك نابولي، فقد جُرّد من السلاح ودُمّر».

وتوالت الأنباء والشائعات المشوشة، إثر ذلك بعشرة أيام، مغطية 100 ميل أو نحوها داخل فلورنسا، مما فاقم قلق المواطنين وخشيتهم، نقرأ:

> «بلغتنا الأخبار، في الحادي والعشرين من سبتمبر، أنَّ ملك فرنسا قد دخل جنوا، وأنَّ أهلها يتجهزون لاستقباله بكل إجلال واحترام.

فقد زينوا المدينة كلها، حتى إنّهم ذهبوا بعيداً إلى حد خلع بوّاباتها، وبَسْطها على الأرض، إمعاناً في إظهار الترحيب بالملك، وصوناً لسلامته. لكن الملك، كما تبيّن، لم يكن بصدد الذهاب إلى جنوا، على الرغم من انتظار أهلها قدومه، وتجهزهم لاستقباله. فقد نُقل عنه شعوره بانتفاء قدرته على الوثوق بالجَنَويين».

وإذا كان شارل الثامن قد ساورته مشاعر الريبة تجاه مثل هؤلاء الحلفاء، فكيف ستكون حاله مع فلورنسا، التي أعلنت أنها ستقف في وجهه. في واقع الأمر، لم يسع شارل الثامن إلى النزول بجنوا، فقد بدأ الصيف يمهد الطريق أمام الخريف. ولم يكن لدى الملك وقت إضافي ليفقده قبل حلول الشتاء، فيعيق زحفه إلى نابولي أو حَتّى يوقفه. وقد جرى الترحيب به في أستي، وهي بوابة أراضي ميلانو، من جانب لودوفيكو إل مورو سفورزا؛ الرجل ذاته، الذي استدعى ملك فرنسا إلى بلاده. وقد وصف ماكيافيلّي الأول وصفاً تقريعياً، فرآه «المُحرّك الأول للمحنة الإيطاليّة»[13]، وسيبدأ حينئذ ذلك العصر الذي سيرثيه ماكيافيلّي بقوله:

«تواجه إيطاليا أوقاتاً عصيبة
فطوالع نجومها تحدث عن شرور قادمة
تروح جبال النوازل
وتغدو
مملوءة بالدم وجثث الرجال
وحين فتحت إيطاليا المضطربة بوّاباتها لأهل الغال
واندفع البرابرة داخلها
أصبحت توسكانا كلها في هرج ومرج»[14].

(12)

«لأُهلك كل جسد فيه روح حياة»[1]

لجأ أهل فلورنسا -عندما اشتدت الأمور- إلى سافونارولا، الذي انبرى لهذه المهمّة، فألقى عظة في الكاتدرائيّة، في الحادي والعشرين من سبتمبر عام 1494. وقد اجتمعت في ذلك اليوم مناسبتان، هما: عيد القديس متى، وتاريخ مولد سافونارولا. وقد بلغ، آنئذ، اثنين وأربعين عاماً. وكان في أوج قوته، فقد تحققت نبوءاته، ودقت حينها ساعة الحقيقة، فعزم على إنفاذ المهمّة التي كان متيقناً أن الرب قد أوكلها إليه.

وقد توافد أهل فلورنسا أفواجاً إلى الكاتدرائيّة، فكان أكبر تجمع للمصلين وُجِد تحت قبتها المرتفعة الهائلة، وانحشروا في المقاعد التي ضاقت بهم، فاحتلوا الممرات، وامتدّ الحشد حتى وصل إلى الساحة المحيطة. وغدا سافونارولا، وقتها، متمرّساً في فن جذب انتباه حشود المصلين الغفيرة. وكان يقف بجسده الصغير المُقَلنس قبالة منضدة التلاوة المنتصبة، مُطلاً على بحر الرؤوس المحتشدة أمامه، ومحدّقاً بهم، كما لو كانت عيناه الحادتان تردّان نظرات جمهوره الصامت أجمعها. وقد بدأ سافونارولا بعظته، دون أنْ ينظر إلى الكُرّاسة، وكان صوته يدوي عبر السكون المتسامي لصحن الكنيسة. ولقد كان ذلك هو «الصوت الحي الذي يدمدم في رأسه»؛ ذلك الصوت الذي سيظل ميخائيل أنجلوُ المُعمَّر قادراً على سماعه بعد

قرابة الستين عاماً. غير أن سافوناررولا لم يسعَ، هذه المرة، إلى الفوز بقلوب المصلين، وإنما كان ينوي غرس مخافة الرب في قلوبهم، والخشية من غضب الجبار، على نحو لم يألفوه من قبل، إذ صبَّ عظاته، فيما سبق، على موضوع فلك نوح، أي بناء مركب سينقذ الصادق من المؤمنين. أما الآن، فقد مضى أبعد من ذلك حين عمد إلى استخدام الآيات التالية من سفر التكوين، حيث يتنزل صوت الرّب الغاضب من السماء، مرعداً ومتوعداً الإسرائيليين: «فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لِأُهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت»، (6: سفر التكوين)[2].

ولم يكن ذلك سوى بداية، فقد شنَّ سافوناررولا هجوماً نارياً، قرّع به الآثمين البائسين الذين يتجمّعون قبالته. وكان المصلون يعون تماماً من هم هؤلاء الآثمون، فقد عنّفت العظات السابقة المقامرين، والمجدّفين، واللوطيين، وتجلّى ذلك ثيمةً ثابتة. لكن سافوناررولا لوحظ عليه، حتى في حُمّى احتجاجاته ونبوءاته بالهلاك، ومهما غدا مهتاجاً، بقاؤُه حافظاً للعهد، الذي قطعه للورينزو العظيم، فلم يهاجم بييرو بصورة مباشرة، إذ لا حاجة، بعد الآن، لذلك. فقد حلَّ «سوط الرب» في آخر الأمر، متمثّلاً في شارل الثامن وجيشه. غير أن هذه التفاصيل، أيضاً، ما عادت تكتسي أهميّة كبرى، فالتاريخ آخذٌ في إخلاء مكانه للواقع الرؤيوي القيامي (Apocalyptic)، وكل ما حَدَث تجلّى بوصفه إرادة الرَّب.

«انظروا، ها هو السيف قد هبط. لقد نزل السوط، في النهاية، علينا، واكتمل تحقق النبوءات، انظروا إنه الرب نفسه من يقود هذا الجيش. ولست أنا من تنبأ بهذا الأمر، وإنما الرب نفسه. وهو يأتي، الآن، إلى حيز الوجود. ليس هذا وحسب، فالأمر يحدث أمام أنظاركم»[3].

وقد اعترف بيكو ديلا ميراندولا، الذي كان وسط جماعة المُصلّين، لسافونارولا لاحقاً، بأنه لم يكن قادراً على تمالك نفسه حين لامست هذه الكلمات سمعه، فبدأ يرتجف، وقُفَّ شعر رأسه، في حين كانت ثلة من المصلين المتراصين أكثر تأثراً. وسرعان ما غدت الغالبية أسيرة حالة من الهستيريا الجماعيّة، فبكى العديد منهم بصورة ظاهرة، وانتحب آخرون وقد تملكهم الخوف لدى سماعهم كلمات سافونارولا، في حين تطلع جمع آخر إلى السماء، متوسلين إلى الرب أن ينزل عليهم رحمته. وإذ أنهى سافونارولا عظته، وانفضّت جموع المصلين «مشى الناس عبر المدينة ذاهلين في صمت، وكأنما هم أنصاف أحياء»[4].

وأصبح بييرو ميديتشي، أكثر فأكثر، لا يدري ما يفعله، أو ما يمكن فعله، وانقسم مستشاروه، وحتى أعضاء مجلس السينوريا، على أنفسهم. وقد رغب كثيرون، سراً، في أن تحلَّ نهاية نظام ميديتشي. وسعى بعض الوشاة، على نحو ماكر، إلى إثارة العامة ضد بييرو، فأعلموه أن سافونارولا يهاجمه صراحاً في عظاته، ويدعو إلى الإطاحة به، مثلما فعل في السابق حين كان «الراهب الضئيل» يدعو للإطاحة بـ «لورينزو العظيم» في عظاته، التي عنَّف فيها «الطغاة الثلاثة». وقد قصد هؤلاء المفترون إثارة بييرو كي يقوم بنفي سافونارولا من المدينة، مما سيتسبَّب، لا محالة، بثورة شعبيّة. غير أن نفراً آخر، ولاسيما من الدائرة الفكريّة التابعة لقصر ميديتشي، أكَّد لبييرو أنَّ سافونارولا لم يقم بذلك، وأنَّ عظاته عكست الحالة الخطرة التي تواجه المدينة، بل إيطاليا جمعاء، واضعاً هذه الحالة، وفق ما رآه، في سياقها الديني. وعليه، فإن سافونارولا لم يشر مباشرة إلى بييرو، أو حكمه للمدينة. لكن بييرو دي ميديتشي ظل، من بعدُ، على ارتيابه، ذلك أنه لم

يكن حاضراً حين ألقى سافوناررولا عظاته، كما لم يكن قادراً على الحكم بنفسه. وقد كان بييرو مطلعاً على الاتفاق السرّي الذي عقده سافوناررولا مع والده المُحتَضر -تلك الحقيقة التي اطّلع عليها نفر قليل- وكان راغباً في الاعتقاد برأي والده؛ لورينزو، أنَّ سافوناررولا هو من تلك الفئة من الرجال التي لا تنكث العهد. لكن شكوكه تنامت، وأذكتها أقاويل هذه الجماعات غير الوفيّة. أما أولئك النفر من دائرة ميديتشي الذين شعروا بالانجذاب نحو سافوناررولا، فقد ألفوا أنفسهم في صراع داخلي عميق. ويبرز في هذا السياق كل من بوليتسيانو وبوتيتشيلي. ولا بُدَّ أن يكون بوليتسيانو قد أشار على بوتيتشيلي أن يرسم لوحة حول موضوع «الافتراء على أبيليس» في وقت ما من الشهور السابقة. ومن الجدير بالذِّكر، أنَّ هذه ثيمة دينيّة على غرار ما كان بوتشيلي ينتجه في تلك الفترة، ولا بُدَّ أن يكون بوليتسيانو قد أراد من هذا العمل أن يكون تأكيداً لبييرو، أنهما، هو وبوتيتشيلي، لم يقلعا عن كل ما مثّله أبوه، واضطلع به، وهو ما ندعوه الآن النهضة، رغم إعجابهما بسافوناررولا.

وتنهض لوحة «الافتراء على أبيليس» واحدةً من أكثر اللوحات إغراقاً في الغموض، غير أنّها، بخلاف لوحتي؛ مولد فينوس، والربيع، لا ينطوي غموضها على أي صورة من صور المثاليّة الفلسفيّة المتفائلة أو المشرقة؛ فليس هناك سوى ما تحمله من ظلام. وتتأسس هذه اللوحة على عمل الرسام اليوناني أبيليس، الذي قيل إنه أرفع فنان كلاسيكي، وإن لم يصلنا أي من أعماله. فكل ما نعرفه لا يعدو وصفاً لفظياً لهذا العمل، تركه الكاتب الإغريقي لوقيان السميساطي، وهو كاتب إغريقي من القرن الثاني بعد الميلاد. وكان قد أنجز هذه اللوحة الأصليّة حين افترى الخصُوم الغيورون على أبيليس،

مخبرين الملك بطليموس بانه ضالع في مؤامرة تحاك ضده. وردَّ أبيليس على هذا البهتان بأن أنتج اللوحة المذكورة. وتصوِّر لوحة بوتيتشيلي، التي تحاكي لوحة أبيليس، الأخير شاباً عارياً يُجرُّ من شعره ليواجه الملك الذي يجلس على عرشه، وكان بعض أهل الجهل والريبة ممن يرتدون الملابس السوداء يهمسون في أذنيه المكسُوة بالفراء كأذني حمار. وقَدْ أُريدَ من ذلك تأكيد سذاجة الملك. والطبيعة الكنائية للوحة تجعلها مفتوحة على طيف واسع من الإشارات الفلسفيَّة والسيكولوجيَّة، ومن الممكن رؤية أبيليس، وهو يبرز بعريه بريئاً وكليلاً، بوصفه الحقيقة المفترى عليها. فهل قُصد أن يكنَّى به عن سافونارولا المُفترى عليه. وهل أحال الملك، بأذنيه الحماريَّتين الملتصقتين بأفواه أولئك الجهلة المريبين ممن يوسوس له، على شخصية بييرو ميديتشي؟ ربما يتبدى ذلك كأوضح تفسير. غير أن تفسيرات أُخرى تطرح نفسها بكثرة، وليس أقلها تماهي شخصيَّة بوتيتشيلي مع أبيليس العاري. وربما كان هذا الغموض متقصَّداً من طرف بوتيتشيلي. فمازال لا يدري أيَّ شيء يفعل، وما الذي يحدث، فعلياً، داخله، وفي ولائه المزدوج، أو مدينته المهدَّدة. وتبقى أسئلة أخرى وثيقة الصلة بإنتاج لوحة بوتيتشيلي، فمن المؤكد أنَّ الأخير لم يكن بمقدوره توفير الوقت والجهد الذي يتطلبه إنتاج مثل هذا العمل الكبير والمُعقَّد ما لم ينبر أحدٌ لتكليفه به ورعايته، مما يكسو هذا العمل ملمحاً غير متوقع. فقد كان لورينزو بيرفرانشيسكو الراعي الرئيس لبوتيتشيلي، سنين عديدة، فهل أَرسل لورينزو رسالة من وراء الجبال حيث يقيمُ، إجبارياً، في موجيلّو، يُكلف فيها بوتيتشيلي بإنتاج عمل يوحي أن كراهية لورينزو المزعومة لبييرو ليست سوى افتراء اصطنعه أولئك الراغبون في أن يسود الشقاق أسرة ميديتشي؟ وهل قُصِدَ من اللوحة إحداث مصالحة

بين أبناء العمومة؟ وقد كانت فلورنسا نفسها منقسمة، وليس الوقت ملائماً لمثل هذه الانقسامات بين أسرها البارزة.

عكست المعاني الغامضة والخفيّة لهذه اللوحة، دون ريب، المناخ العاطفي الذي ساد قصر ميديتيشي في تلك الأثناء، متجّسداً في الشك، وبث الافتراء، ونبذ الحقيقة، وغير ذلك كثير. وفضلاً عن بوليتسيانو، فقد وقع فيتشينو وبيكو، أَسرى هذا المناخ، وربما أدليا، أيضاً، بمقترحاتهما، ووضعاها بين يدي بوتيتشيلي. وربما تعزَّزت الحقيقة التي مؤدَّاها أن اللوحة موجهة إلى بييرو ميديتيشي ما جاء في كتاب فاساري الشهير؛ حياة الفنانين؛ إذ يروي قائلاً إن بيتاً شعرياً لاتينياً نُقش، لاحقاً، أسفل لوحة بوتيتشيلي؛ هو:

«تُحذِّرُ هذه الصورة الصغيرة الملوك
بألا يرموا الناس بتهم باطلة
فحين آلم ملك مصر أبيليس وآذاه
ردَّ أبيليس إليه الصاع صاعين»[5].

ولم ترسل اللوحة، قط، إلى بييرو دي ميديتشي، ربما لأن بوليتسيانو، وبيكو، وفيتشينو، وبوتيتشيلي رأوا أن اللحظة ليست مواتية، أو أنَّهم خشوا من ردَّة الفعل التي يمكن أن تصدر عن بييرو، فربما رأى فيها، تحت وطأة ما يعيشه من توتر، تحريضاً من ابن عمِّه الذي نشأ على كرهه. فهل رغب بوليتسيانو، وبوتيتشيلي، والآخرون في المخاطرة بالظهور بمظهر الغادرين إبان محنته؟ إن هذه كلّها تفسيرات ممكنة. غير أن بييرو سيكون، في

تلك اللحظة وما طفحت به من وضع سياسي بائس، منشغلاً -غالباً- عن هذه الأمور. وربما لم يكن في فلورنسا، فعلياً، حين أنجزت اللوحة في آخر الأمر، فقد كانت الأحداث تترى مسرعة.

وما كاد لودفيكو «إل مورو» سفورزا يقدِّم آيات الترحيب لشارل الثامن في أستي، في سبتمبر من عام 1494، حتى بدأت تساوره الشكوك. وقد سجَّل غيتشارديني يقول:

«على الرغم من أن لودفيكو هو من انبرى لدعوة الفرنسيين إلى دخول إيطاليا، وكان مدركاً أنهم حلفاؤه، فقد بدأت تساوره الشكوك الآن حيال المغامرة برمتها. وإذا أخذنا في الاعتبار دأب الأمراء على الخيانة، والفرنسيين منهم خاصَّة، الذين بدوا وقد أعوزهم الشرف أو المبادئ حين يتعلق الأمر بمصالحهم، فإن الشكوك بدأت تداخل لودفيكو إزاء الملك الفرنسي... وإذا ما كان الأخير سيتوفر على عذر في عزله عن السلطة»[6].

وشك لودفيكو بصفة خاصَّة أن شارل الثامن يرغب في أن يَحُلَّ ابن أخي لودفيكو؛ جيان جلاتسيو، وهو الشَّاب الضعيف والوريث الشرعي للحكم، محله. وقد تعززت هذه الشكوك حين عبَّر شارل الثامن عن نيته زيارة بافيا، فقد رغب، انسجاماً مع البروتكول، في أن يستقبله جيان جلاتسيو. وجهد لودفيكو في تأخير شارل الثامن، لكن الأخير وصل إلى بافيا، آخر الأمر، ليجد جيان جلاتسيو طريح مرض غامض. وما لبث شارل نفسه أن وقع طريح المرض في منتصف سبتمبر، مُسْتَسلماً لنوبة من جدري الماء، فأوقف القطاعُ الأكبر من الجيش الفرنسي تقدمه، حتى يتعافى شارل من مرضه. وأصبح إقليم توسكانا حينئذ هو المنطقة المعادية المباشرة، التي

تحول بين الجيش الفرنسي وسيره جنوباً. غير أن شارل الثامن امتلك فكرة جيدة إزاء ما ينتظره. ولم يكن فيليب دي كومين؛ مبعوثه المتمرّس الذي قاد المهمة الفرنسيّة الأُولى إلى فلورنسا، معجباً ببييرو ميديتشي، ملفياً إياه: «شاباً غراً تعوزه الحكمة»[7]. وبدا أنَّ بييرو يراوغ حينها، إذ أرسل بعثة إلى شارل الثامن متعمداً أن يُدْخل في أعضائها بييرو دي جينو كابّوني، وهو معلم الملك السابق، وراجياً، بطريقة ما، تجنب الصراع بين فلورنسا وفرنسا. ولكن حين مَثَلَ كابّوني أمام شارل الثامن، فإنه تنكَّب لبييرو وخانه. وتبعاً لما رواه كومين، الذي كان حاضراً، فإن: «كابّوني أسرَّ إلينا أن العمل جار على قدم وساق لتأليب المدينة ضد بييرو والانقلاب عليه»[8]. وكان كومين موقناً أن أيام أسرة ميديتشي باتت معدودة، وأن فلورنسا لن تشكل عائقاً في وجه الزحف الفرنسي.

بيد أنَّ شارل الثامن كان منشغلاً بأمور أخرى، فما كاد يبرأ من مرضه حتى تواردت إليه الأنباء، في الحادي والعشرين من أكتوبر، تنعى له جيان جلاتسيو سفورروزا، وقد روى غيتشارديني قائلاً:

> «راجت شائعة أنَّ موت جلاتسيو تأتى عن الإفراط في الجماع، لكن الاعتقاد سرى عبر إيطاليا جميعها أنّه لم يمت بسبب سرفه في الجماع، وإنما مسموماً. وكان واحدٌ من الطاقم الطِّبي الملكي، الذي حضر حين قام شارل الملك بزيارة جلاتسيو، قد أشار إلى أن هناك علامات جليّة على هذا الأمر. ولم يشك أحدٌ على الإطلاق أنه إذا كان قد مات مسموماً، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من عمل عمّه»[9].

وقد أعلن لودفيكو سفورزا نفسه في صبيحة اليوم التالي دوقاً شرعياً لميلان، على الرغم من أن جلاتسيو قد عقَّب ابناً شاباً، مما يعني أنَّ الأَخير

هو الوريث الشرعي للدوقيّة. وقد ألمّ شارل الثامن، تماماً، حينئذ، بما تنطوي عليه شخصيّة حليفه الرئيس من ختل ومراوغة. وبدأت الشكوك تساور العديد من رجال البلاط (بمن فيهم كومين)، مرتابين بازدواجية لودفيكو إزاء المغامرة برمتها[10].

وقد كانت المغامرة تسيرُ على خير ما يُرام، مع اقتراب الجيش الفرنسي من حدود توسكانا، قاصداً تأمين ميناء بيزا الاستراتيجي. وقد تدبّر الأخوان بييرفرانشيسكو أمريهما، وأفلتا من الإقامة الجبريّة، واتخذا سبيلهما تجاه معسكر شارل الثامن، مما أكد لشارل الثامن، من جديد، أنَّ أهل فلورنسا لا يرغبون في معارضته، وأنّهم يعارضون بييرو دي ميديتشي بشدّة. وكان ذلك، من غير ريب، صحيحاً. غير أنَّ فئة من الناس بقيت تستذكر لورينزو العظيم بالشكر والعرفان لما قدمه من رعاية، فلم يمض على وفاته في ذلك الوقت سوى سنتين، وكان من بين هؤلاء ميخائيل أنجلو، الذي سيستذكر ذلك الوقت طوال حياته، وذلك حين يستحضر كيف جاءه أحد الأصدقاء ليخبره عن حلم غريب، ويحكي هذا الحلم:

«أن لورينزو العظيم ظهر أمامه متشحاً بأسمال سوداء لا تكاد تسترُ عُريه، وقد أمره لورينزو تبليغ ابنه بييرو أن لن يمضي وقت طويل حتى يُصار إلى إخراجه من منزله إلى غير عودة»[11].

وأدْخل هذا الحلم ميخائيل أنجلو، خلال بضعة أيام، في حيرة وبلبلة، فقد «أقنع نفسه أن هذا الحلم سيتحقق عما قريب. وغادر فلورنسا قاصداً بولونيا... فقد خشي ألا يكون آمناً في المدينة إذا ما تحقَّ هذا الحلم».

ولما تواترت الأنباء حول تقدم الجيش الفرنسي، بدأ بييرو ميديتشي، في محاولة أخرى يائسة، إلى استئجار المرتزقة للدفاع عن الحصن الذي يحمي

الحدود الشماليّة لتوسكانا. فأرسل 300 من جنود المشاة ومفرزة صغيرة من الفرسان تحت أمرة باولو أورزيني، وهو قائد مرتزقة موثوق، وصهر لبيرو. غير أن الأخبار المفزعة وصلت إلى فلورنسا، في 29 من أكتوبر، محدِّثة عن اجتياح الجيش الفرنسي للقلعة الجبليّة؛ فيفتزانو، وأنه ذبح عناصر حاميتها جميعهم. وبدأ الجيش الفرنسي، إثر ذلك، بضرب حصار حول قلعة سارزانيلّو، التي يطل جانباها، من جهة بلدتي سارزانا وبياتراسانتا، على الطريق الساحلي إلى بيزا وجنوبي إيطاليا، بالإضافة إلى الطريق الرئيس الممتد من ميلان إلى فلورنسا ذاتها. وقد ذهب كومين، قائلاً: «لو كان المكان محمياً جيّداً، لَهُزِمَ جيش الملك، فهي منطقة جدباء لا ينمو فيها شيء يقيم أود الجنود، فضلاً عن كونها مغطاة بالثّلج عن آخرها»[12]. لكن، حتى قلعة سارزانيلّو، القائمة على صخرة عالية، وهي القلعة التي لم يوجد فيها سوى عدد قليل من العناصر، أثبتت أنها منيعة على الجيش الفرنسي الذي كان يحاصرها من الأسفل. وبدا وكأنما التقدُّم الفرنسي قد أُوقف، مما جعل المغامرة برمتها في خطر.

لكن بيرو ميديتشي هو من سيدخل مغامرة تؤكّد، شأنها شأن أي مغامرة خاضها خلال سنوات حكمه المتصفة بعدم الكياسة والحظ العاثر، اللقبَ الذي عُرف به في التاريخ، أي بيرو التّعس. ولقد كشف هذه التحرك عن الشخصيّة الحقيقيّة، التي تظهر قدراً متساوياً من التردد والتهور، وهما أمران طوّرهما أثناء عيشه في ظل الوجود الطّاغي والاستثنائي لأبيه، وحينها كان بيرو يجاهد ليتفوّق على الأخير. وهكذا، فقد عَمِدَ، عوض مقاومته للزحف الفرنسي، إلى اتباع سنن أبيه فيما قام به من مأثرة شهيرة، عندما خاض القفار وحيداً قاصداً نابولي، كي يواجه الملك فيرانتي، فكان أن

أثار لورينزو إعجاب الأخير واستنقذ، بذلك، فلورنسا. وعليه، فقد أخذ بيرو بعنان فرسه، وغادر فلورنسا دون أن يستشير مجلس السينيوريا، وقد أخبرهم بفعلته هذه عبر رسالة بعث بها إليهم وهو في الطريق، حينما كان من غير الممكن إيقاف مخططاته. وهكذا، سيمثل أمام شارل الثامن، متشفِّعاً للمدينة، وجاهداً في تخليصها من المصير الذي ينتظرها.

مهما يكن من أمر، فحين حلَّ بيرو في البلاط الملكي، حيث كان الملك وجيشه يُعسكرون، لثلاثة أيام، أسفل الصخرة المحاصرة في سارزانيلّو، لَمْ يُثر إعجاباً بما قام به من فعل جسور، بل الضد من ذلك، فقد استقبله شارل الثامن بازدراء صريح. وما لبث أن انعكس ذلك في موقف مستشاريه وناصحيه. وتبعاً لما قاله كومين: «فإن من تعاملوا مع بيرو لم يأخذوه على محمل الجد، فقد سخروا منه ولم يعيروه اهتماماً»[13]. وقَدْ جعلت هذه المُعاملة بيرو يفقد أعصابه. وكان ذلك مقصوداً بالفعل، فقد أدرك شارل الثامن أن مغامرته بكاملها في يد القدر، فافتتح الملك الفرنسي المزاد بإعلانه عن طلباته الباهظة جداً:

«أخبر بيرو أنه يطلب الاستسلام العاجل لقلعة سارزانيلّو [إضافة إلى توأميها؛ قلعة سارازانا وقلعة بياتراسانتا] كما طالب بأَنْ يسمح له بالاستيلاء على ليفورنو وبيزا»[14]. ولم يكن ذلك ليسمح بتأمين طريقه إلى الجنوب، وحرمان الجمهوريّة الفلورنسيّة من أكبر مدينتين من مدنها الساحليّة فحسب، وإنما سيترك مدينة فلورنسا مقطَّعة الأوصال وتحت رحمته. ولشدَّ ما كانت دهشة الجميع، حين تخلى بيرو عن أي موقف تفاوضي، مستجيباً، في الحال، لكل مطالب الملك الفرنسي، ومعلناً أنَّ بمقدور شارل الثامن أن يحتل

هذه القلاع والمدن إلى المدى الذي يريده. وقد ذهب بييرو أبعد من ذلك، فحين أشار شارل الثامن بضرورة أن تقرضه فلورنسا المال ليعوّض النقص المتزايد في خزينته، وافق بييرو على تقديم مبلغ هائل له، مقداره 200000 فلورين. وحين عبَّر شارل الثامن عن نيته عبور فلورنسا بجيشه، فإن بييرو كان سخياً، فعرض على الأول استخدام قصر ميديتشي في فلورنسا؛ ذلك القصر الذي وصفه كومين أنه: «أجمل ما وقعت عليه عيناه من البيوت الممتلكة من جانب التجار أو المواطنين»[15].

وفي تلك الأثناء، استدعى بييرو كابّوني، الذي انتخب وقتها لمنصب الغونفالونيير، بمجلس السينيوريا، وأرسل في الحال، وفداً للحاق ببييرو وإحباط مسعاه، غير أن ذلك جاء متأخراً. وكانت فلورنسا، آنئذ، تنتظر، وقد تملكها الفزع. فبقيت الحوانيت مغلقة، وهجرت الشوارع، وامتلأت المصارف على جوانب الشوارع بالنفايات، ووصف مُمَثِّلُ مانتوا ذلك، فقال: «لجأت البنات وكثير من الزوجات إلى الأديرة، فلم يُر في الشوارع، والحالة هذه، سوى الرجال والشبان الصغار والعجائز»[16]، غير أنّ سافونارولا كان مصمّماً على جعل الناس مدركين مغزى ما كان يحدث، وقد شرع في الأول من نوفمبر، وكان بييرو إذَّاك مقيماً في البلاط الملكي الفرنسي، بإلقاء عظة عيد جميع القدّيسين، في الكاتدرائية، على مسمع المصلين الخاشعين المتراصين:

«لقد تنبأت، قبل أن تكون هناك أدنى إشاعة عن هذه الحروب التي قدمت إلينا عبر الجبال، أن محناً كبيرة ستحل بنا. وأنتم تعرفون، ايضاً، أنّي حذَّرتكم، قبل أقل من سنتين، عندما قلت: ها هو سيف الرّب قاطع وعاجل».

وقد مثلت تلك لحظة الحقيقة بالنسبة إلى سافونارولا؛ اللحظة التي ثبت فيها كل ما تنبأ به، وكان عازماً على أَنْ يَهْتبل هذه الفرصة، فمضى في عظته، منتفضاً من وراء المنبر:

«أواه، يا إيطاليا، ستعانين من كل صروف البلوى والعذاب بسبب شهواتيك، وجشعك، وغرورك، وحسدك، وما اقترفت من سرقات، واغتصاب... ويا فلورنسا ستغرقك المحن والبلى بسبب آثامك، ووحشيتك، وجشعك، وشهوانيتك. ويا رجال الدين، أنتم العلة الرئيسة للعديد من الشرور، الويلُ لكم».

وصرخ، وسط هذه التعازيم التي ألقاها ضدَّ إيطاليا، وفلورنسا، و«رجال الدين»، قائلاً: «يا أهل فلورنسا، لقد رغبت في أن أتحدَّث إليكم، فرداً فرداً، بصراحة وإخلاص، فأنا لا أستطيع أن أفعل خلاف ذلك بعد الآن». ولما غدا بيرو ميديتشي خارج فلورنسا حينئذ، فإن سافونارولا شعر بأنه في مندوحة من الأمر، وأن بمقدوره أن يتحدَّث بصراحة أكبر دون أن يخل بالوعد الذي قطعه للورينزو وهو في فراش احتضاره. لكنه لم يذكر، وهذا أمر له مغزاه، أسرة ميديتشي بالاسم حتى هذه اللحظة، ولقد كانت رسالته طافحة بالعاطفة والقوّة، بيد أنه عبَّر عن نفسه مستمراً المجاز الكتابي (المتعلق بالكتاب المقدس). فقد ابتلى الرب إيطاليا، وفلورنسا بصفة خاصّة، بصور العذاب بما كسبت أيديها من شرور، فكان أهل فلورنسا مدعوين، بل مطالبين بالتوسّل، كي يطفئوا غضب الرب بتقديم الصواب، وإعلان التوبة. وعاد سافونارولا إلى ثيمته القديمة المتعلقة بفلك نوح، فعندما يرسل الرب الطوفان إلى الأرض، فلن يُسمح إلا لمن يستحقون الخلاص بالدخول إلى الفلك. ولكن، ما هذا الفلك بالضبط، المبني من عشرة ألواح تماثل، على

نحو لافت للنّظر، مقاطعات فلورنسا العشر القديمة؟

لقد رغب سافونارولا في أن يتحدّث إلى أهل فلورنسا «بصراحة وإخلاص»، لكن غايته الكبرى لم تتضح بعد، وربما غمضت عليه هو نفسه. وبدا كما لو كانت هناك فكرتان تصطرعان في عقله بصورة لاواعية، وتمثلتا في الوعد الذي قطعه للورينزو بالامتناع عن المس بوضع أسرة ميديتشي في فلورنسا، ورغبته في تحويل فلورنسا إلى «فُلْك» روحي. وقد جلجل صوته في جنبات الكنيسة، مفعماً بالعاطفة، ومنتشياً باعتقاده، الذي عبَّر عنه صراحة، أن الرب قد تكلَّم من خلاله. وسيأتي أولاً سوط الرب، ولكن بقي من غير الواضح ماذا سيحل بعد ذلك، فقد وضع نفسه بين يدي الرَّب، وسيبذل وسعه لتحقيق إرادته، حين تكشف عن نفسها، وبالصورة التي تتمثل بها.

وسيلقي سافونارولا عظات طويلة ومُتقدة في الكاتدرائية طوال ثلاثة أيّام متتالية، عامداً إلى تسخين نبرته في كل مناسبة. وكما أشار في وقت لاحق فإنه «صرخ، خلال تلك الأيام الثلاثة، بشدَّة، كاد معها شريان صدره ينفجر، وبلغ من الإجهاد البدني حداً جعله يقع طريح المرض»[17].

ويشير غيتشارديني، وغيره من المصادر، أن ذلك الوقت كان حاسماً وبالغ الأهميَّة، فقد كان كاتبوني ومجلس السينيوريا في حالة من الضياع. وكان بييرو ميديتشي، كما هو معلوم، خارج المدينة. ودخل أنصار ميديتشي في صراع متزايد، وخبرت السلطات حالة من الشّلل. وإذ بدأت الأنباء المتعلّقة بالصفقة التي عقدها بييرو ميديتشي مع شارل الثامن بالوصول إلى فلورنسا، فإنها انتشرت انتشار النار في الهشيم، وما لبث أن اقتربت من حالة الفوضى العامَّة. وكانت بنية السلطة المدنيَّة على شفا الانهيار في سياق

الحالة التي جعلت أهل فلورنسا على حافَّة الثوران وتدمير المدينة لما هم فيه من فزع وخوف وغضب مكبوت بسبب ما كان يحدث.

غير أنَّ عظات سافونارولا، عملت، بصورة إِعجازية، على تفادي هذا الاضطراب الكارثي. وجاء في رسالة لممثل مانتوان أن: «الراهب الدومينيكي أرْهَبَ الفلورنسيين جميعهم، موعزاً إليهم بأن يُسْلموا أنفسهم للإيمان والتقوى»[18]. وقد مثَّلت عظات سافونارولا؛ صوت الرب، في أعين الناس، رجاءهم الوحيد.

وما لبث أن أدرك مجلس السينيوريا القوَّة المؤثِّرة التي اجتمعت حينها في يد سافونارولا. واستدعى الغونفالونيير كابّوني، ومجلس السينيوريا، في الرابع من نوفمبر، مجلس السبعين الذي استحدثه لورينزو العظيم، حتى يقضي على سلطة ميديتشي، وكي يؤثر في مجلس السينيوريا. غير أن مجلس السبعين هذا بدأ يعبّر عن مشاعر معادية لأسرة ميديتشي في ضوء ما آلت إليه حال المدينة. وقد أعلن كابوني أن: «الوقت الذي لا نُحْكَمُ فيه من طرف صبية صغار قد حان»[19] (وكانت الإحالة هنا لا تشيرُ إلى بييرو ذي الثلاثة والعشرين عاماً فحسب، وإنما شملت أيضاً أخاه الأصغر؛ الكاردينال جيوفاني ذي التسعة عشر عاماً، الذي كان يُدْعى، بصورة متقطعة حتى ذلك الحين، بصفة مستشار للأخير). واقترح كابوني أن السبيل الوحيد لإنقاذ فلورنسا، أو التقليل من سوء ما ينوء به حاضرها الأليم، ماثلٌ في إرسال وفد إلى شارل الثامن يتكون من أربعة سفراء، بما هم ممثلون حقيقيون لأهل فلورنسا. وكان على استعداد أن يكون واحداً من أعضاء هذا الوفد، لكنه ارتأى أن أفضل من يترأسه «هو رجل من أهل التقوى والقداسة... يجمع في شخصه الجرأة والذّكاء، فضلاً عن الاقتدار وطيب الذّكر»[20]، أيّ

سافونارولا. وسرعان ما ثنّى مجلس السينيوريا على مقترح كابّوني، وبَدَت زعامة سافونارولا للمدينة، حينها، ماثلة وجليّة للجميع.

وعلى الرغم من الإنهاك المتواصل، المتأتي عن ثلاثة أيام من الوعظ الانفعالي الذي أوشك خلاله على الدخول في انهيار عقلي وبدني، فإن سافونارولا ألفى نفسه غير قادر على ردّ طلب كابّوني. وتتبدّى بواعثه كما بواعث كابوني، هنا، مفتوحةً على الشك والتساؤل. فهل كان سافونارولا عاجزاً عن إخماد شهوته للسلطة؟ وهل كان كابوني يريد أن يجعل من سافونارولا كبش فداء، في حال اتخذت الأمور مآلاً سيئاً؟ لا بُدّ أن يوضع إمكان مثل هذه البواعث في الاعتبار لدى معاينتنا للقادم من الحوادث.

لم ينتظر سافونارولا وزملاؤه السفراء كثيراً، فغادروا المدينة صبيحة اليوم التالي في الخامس من نوفمبر، وعلى الرغم مما يتطلبه الموقف من تعجل، وحاجة لإثارة الانطباع لدى البلاط الملكي، فقد أصرّ سافونارولا على الارتحال سيراً على الأقدام. وأُجبر الآخرون على اللحاق به على جيادهم التي كُسيت بزي المدينة تبعاً لأعراف ذلك الزمان، ولم يكن المقصود من هذا البروتوكول أن يعكس أهميّة السفراء والمدينة التي يمثلونها فحسب، وإنما قصد منه، أيضاً، أن يكون علامة على تقديرهم لمضيفهم. وهكذا، فإن الرّاهب صاحب العزم الواثق، والأسمال البالية، والذي لا يحمل سوى كتاب الصلاة الخاص به، قاد الوفد المرتاب قليلاً، إلى شمال غربي المدينة باتجاه الريف التوسكاني. ولم يكن من الواضح إذا كان شارل الثامن وجيشه مازالا في منطقة سارزانيلّو، أو أنهما انطلاقا جنوباً للاستيلاء على بيزا. وظلت البعثة الفلورنسيّة تستخبر عن آخر المعلومات المتعلقة بالجيش الفرنسي في كل قرية تعبرُ منها.

ولم يقتصر جهل البعثة الفلورنسيّة بمكان وجود الملك وحاشيته وحسب، فما كادوا يغادرون المدينة حتى وصلت مفرزة متقدمة من الجيش الفرنسي إلى فلورنسا، حيث طلبت الإذن بالبدء بتدابير الايواء غداة وصول الجيش الفرنسي. وقد وافق أعضاء السينيوريا، على ذلك صاغرين، وأخذ جنود الجيش الفرنسي بشق طريقهم عبر الشوارع، مستخدمين الطباشير في وضع شارات الصليب على البيوت التي ستؤوي أعضاء الحامية الفرنسيّة. وأعلن المنادون الرسميون، تتقدمهم أبواقهم، أن من يمحو شارة الصليب الموضوعة على بابه، فإنه سَيُجْبر على دفع غرامة باهظة مقدارها 500 فلورين (أي ما يعادل ضعف الدخل السنوي للعديد من التُّجار، ناهيك عن أرباب الأسر الأقل حظاً). وعندما علم بييرو دي ميديتشي بأن الوفد الفلورنسي يقترب من المعسكر الفرنسي، قفل عائداً، من فوره، إلى فلورنسا. والتقى، وهو في الطريق، بِباولو أورزيني و300 من رجاله. وقد وصل بييرو إلى فلورنسا يوم السبت في الثامن من نوفمبر، أي بعد ثلاثة أيام من مغادرة سافونارولا وأعضاء وفده فلورنسا. ولما بلغ بييرو أسوار فلورنسا من جهة بوابة سان غالّو، لم يجد، بخلاف العادة، أي مجموعة رسميّة ترحّب بمقدمه، مما مثل نذير شؤوم. لكنه أمر أورزيني ومن معه من المرتزقة، التزاماً بقواعد اللباقة واحتراماً لحساسية المواطنين ربما، بالبقاء خارج أسوار المدينة، ثم امتطى جواده، وعبر بوابة المدينة متجهاً نحو قصر ميديتشي ليجد جمهرة من المتفرجين الغرباء والصامتين محيطين بالقصر. وما إن ترجّل في ساحة داخليّة محميّة حتى أمر بأن تلقى حلويات «الكونفتي» (كعك محلى صغير باللوز المغطى بالسكر) من النوافذ إلى المحتشدين في الأسفل. كما أمر، تماشياً مع تقليد الإعلان عن قدوم أعضاء الأسرة الحاكمة، بأن توضع المناضد

الطويلة في الشوارع حيث يُقدَّم عليها الخبز والأنبذة للفقراء. غير أن هؤلاء المتفرّجين المرتابين بدوا مصممين على ألا يُؤْخذوا بهذا الصنيع، ولم تتعالَ صرخات الولاء والشكر الاعتياديَّة: كرات، كرات، كرات[1]. (إشارة إلى الكرات «علامات النبالة»، التي كان يرتديها الأعضاء البارزون من أُسرة ميديتشي).

وقد حضر بييرو في اليوم التالي، أي في يوم الأحد، قُدّاساً حيث عرف هناك واقع المدينة، ثم توجه برفقة مجموعة من الرجال المسلحين إلى قصر السينيوريا، قاصداً أن يُلقي تقريره الرسمي. وكان أعضاء مجلس السينيوريا يعتقدون أنهم يمتلكون تأييد القطاع الأكبر من الناس. ومع ذلك، بقوا حذرين، فقد عرفوا أن أورزيني ورجاله الثلاثمئة معسكرون خارج بوابة سان غالّو.

وشهدت تلك الأوقات توارد طلائع أخرى من القوات الفرنسيَّة إلى المدينة عن طريق البوابة الغربيَّة، وذلك كي يضعوا العلامات على بوابات البيوت التي تصلح لإيوائهم. وعلى الرغم من وعي مجلس السينيوريا بما يجلبه ذلك من عار على المدينة، وإدراكهم أن كثرة من الناس تلقي باللائمة عليهم للسماح بحدوث ذلك، فإنهم سرعان ما رأوا أن الوجود الفرنسي قَدْ ينقلب لصالحهم. فما كان بيرو ليجرؤ على استدعاء أورزيني ومرتزقته

(1) كانت تلك صرخة التحشيد التقليديّة التي يستخدمها أفراد أسرة ميديتشي كما أنصارهم. وهي تحيل كما هو ظاهر إلى Palle ومعناها «الكرات الحمراء»، التي تظهر على درع ميديتشي؛ ذلك الشعار الذي من الممكن رؤيته في قصر ميديتشي وكثير غيره من مباني المدينة. وقد أحال هذا الشعار، تبعاً لأحد المصادر، على حبوب الدواء الظاهرة في إحدى لوحات إعلانات الدواء المعلقة على دكان الدواء الأصلي، الذي امتلكه، يوماً، أسرة ميديتشي، فقد بدأت، كما يوحي اسمها، ببيع الدواء في المدينة قبل ثلاثة قرون أو نحوها.

إلى المدينة للدفاع عنه، إذا كان ذلك سيفضي إلى تصادم مع السرايا الفرنسيّة المسلحة. فمن شأن هذه الخطوة أن تُؤلِّب الجيش الفرنسي القادم ضدّه، ويعني ذلك أن بييرو يقف وحده أساساً، وأن أي خطوة يتخذها مجلس السينيوريا ضده من شأنها أن تُساعد في إحلالهم من مسؤولية وجود القوّات الفرنسيّة وانشطتها المُذلَّة. وهكذا، حين يعمد هؤلاء إلى النأي بأنفسهم عن بييرو وعزله، فإنهم يصرفون عن أنفسهم شُبة العجز والضعف، ويكونون، بذلك، قد جعلوه كبش فداء لكل ما كان يحدث.

وعندما وصل بييرو إلى قصر مجلس السينيوريا، برفقة نفر قليل من الحرس، فوجئ بإغلاق الباب في وجهه. وعلا صوت يُعْلمه أنّه إن أراد الدخول، فليدخل بمفرده عبر بوابة السبورتيلّو؛ وهي بوابة صغيرة جانبية مُعدّة للخدم وصبية التوزيع. وبينما وقف بييرو متأمّلاً هذه الإهانة المباشرة، غير دارٍ بما يتوجب عليه أن يفعله لتجنب فقدان ماء وجهه، انبرى مجلس السينيوريا وأخذوا الأمر بأيديهم. فقد جاء صوت دقّات «الفاكا»، من أعالي جرسية القصر، مجلجلاً وعميقاً عبر المدينة. و«الفاكا» هذا هو جرس المدينة الشهير (يعني الاسم حرفياً البقرة، لأن دويّه يشبه خوار البقرة)، وكان قرع هذا الجرس الذي يدوّي صوته فوق أسطح منازل المدينة نداءً تقليدياً يوجّه إلى المواطنين في زمن الخطر والطوارئ، ليجتمعوا في ساحة قصر السينيوريا المُعبَّدة بالحجارة. وما إن هرع الناس إلى الساحة، وبدأت تمتلئ بهم، حتى انقلب مزاج الحشد، وبدأ بعضهم يوجه الإهانات، بصوت مرتفع، لبييرو، الذي كان يقف ذاهلاً على الرصيف المرتفع خارج الباب الرئيس للقصر. وإذ بدأَت ترتفع وتائر هذه المشاعر، أخذ الناس بقذف الأشياء، والنفايات، ثم الحجارة. وسرعان ما عمد حرس بييرو إلى حثّه على المغادرة، فشقّوا له

طريقاً عبر الحشد الذي تزايدت عدوانيته، ثم انطلقوا عائدين إلى مأمنهم في قصر ميديتشي.

وشرع أخو بييرو الأصغر، الكاردينال جيوفاني، باتخاذ إجراءاته الخاصّة، قاطعاً طريق «فيا لارجا»، جيئة وذهاباً، بمعيّة رفقاء مسلحين، وذلك في سعي منه لحشد الدعم لقضية ميديتشي مشفوعة بهتافات: كرات، كرات، كرات. وقد اجتذب ذلك عدداً من أنصار أُسرة ميديتشي، الذين بدؤوا ينهمرون من الشوارع القريبة، ثم ما لبث أن اقتاد الكاردينال جيوفاني جماعته من الرّجال المسلّحين وأنصار ميديتشي، الذين كان يصدحون بأغاني التأييد، إلى ساحة قصر السينيوريا، حيث وجدوا أنفسهم مواجهين بعدد من الرعاع المعادين، الذين فاقوهم عدداً، مما اضطرهم إلى التراجع، على عجل، إلى الشّوارع الخلفيّة لقصر ميديتشي حيث كان بييرو ورجاله يواجهون حشداً مُسلّحاً آخر من المعادين. وبدا، لوهلة، كما لو أن صراعاً دموياً بين مجموعتين متخاصمين سيقع لا محالة. بيد أن جيوفاني، كما قيل، أعلن لبييرو، حين وصل جمع آخر من المعادين لأسرة ميديتشي إلى المكان، قائلاً: «نحن هالكون»[21]. فانسحب الأخوان، ومن معهم، إذّاك، عبر بوابة قصر ميديتشي، واستحكموا وراء الأسوار العالية.

وكانت المدينة حينئذ على شفير حرب أهليّة. وأتبع مجلس السينيوريا استدعاءه للناس بإصدار مرسوم يقضي بـ: «يمنع أي كان من مساعدة بييرو ميديتشي، أو الانضمام إليه تحت طائلة عقوبة الإعدام»[22]. وربما كان ذلك فعلاً انتهازياً اقتضته تلك اللحظة، لكن إصلاحه بدا متعذّراً كذلك، فلو هُيّئ لأسرة ميديتشي استرداد السلطة، سيُعَد هذا المرسوم خيانة عظمى، تستجلب عقوبة الإعدام أو المنفى الدّائم. غير أنّ مقامرة السينيوريا بَدت

تؤتي أُكلها. يقول لاندوتشي بهذا الشأن: «تخلى كثيرٌ من الناس عن بييرو، ووضعوا أسلحتهم في أعقاب الإعلان عن هذا المرسوم، فانسحبوا من جميع الجهات، ولم تبق معه سوى فئة قليلة».

غير أن الحشد الموجود حول قصر ميديتشي بدأ، بسبب هذا المرسوم، بالتفرّق جزئياً، مخافة أن يُنظر إليهم، خطأ، أنهم ممن يساعد أسرة ميديتشي أو ينضم إليها، أو مخافة الانخراط في صراع دموي بدا حينها محتوماً. وإذ تفرّق هؤلاء، غادر بييرو، برفقة زوجته وأولاده، قصر ميديتشي تحت حماية مجموعة من الحرس. وشقّوا طريقهم، مسرعين، عبر طريق فيا لارجا حتى بلغوا بوابة بورتاسان غالّو، التي كانت تحت سيطرة أورزيني ورجاله. وتذهب بعض المصادر إلى أن هذا الهروب حدث تحت جنح الظلام، لكن شهادة لاندوتشي العيانيّة تقرّر أنه في وقت متأخر من اليوم نفسه (أي في الساعات المتأخرة من مساء الأحد الموافق للتاسع من نوفمبر)، رأى كيف أن: «الكاردينال الشاب المسكين تُرك في المنزل وحيداً، وقد رأيته، عبر النافذة، راكعاً وقد ضمّ يديه إلى صدره، ضارعاً إلى السماء، مستمطراً الرحمات. وقد حركت صورته فيَّ لواعج الألم، ذلك أنه كان، في الحقيقة، رجل استقامة وصلاح».

فهل ترك بييرو أخاه متأمّلاً أن يحشد جيوفاني المحبوب دعماً كافياً لأسرة ميديتشي، ويقلب الأمور لصالحها؟ إن رؤية جيوفاني وهو يتضرّع تستدعي تساؤلات عديدة؛ فما الذي طلبه جيوفاني في صلاته؟ ولماذا أدّى صلاته على نافذة القصر كي يراه الجميع، في حين كان المصلّى الصغير هو المكان الملائم لهذا الفعل التعبّدي؟ ليس هذا فِعْلَ امرئ يتضرّع من أجل سلامته، فلو كان قلقاً بهذا الشأن، لبذل وسعه، وانضمّ إلى أخيه الذي غادر

برفقة حرسه، ويكون بذلك قد أظهر مشاعر الولاء تجاه أخيه. كلا، فمن المحال أن تكون صلوات جيوفاني ذات طبيعة تفجعيّة، وإنما هي التماس إلى الرب كي يحفظ حكم أسرة ميديتشي. ولا بُدَّ أن يكون قد أدى ذلك بصورة علنية، بغرض انتزاع التعاطف المتحقق، يقيناً، في حالة لاندوتشي، الذي جعله موقعه، بوصفه صاحب حانوت صغير، ممثلاً لمشاعر قطاع شعبي واسع في المدينة. فقد كانت صلاة جيوفاني العلنيّة فعل رجل يرجو استثمار شعبيته، وتحويل الحشود إلى صفِّه. غير أن من الواضح حتماً للكاردينال جيوفاني ومن بقي معه من الأنصار أن العامّة قد انقلبوا ضد أسرة ميديتشي إلى غير رجعة، وقد قدمت صرخات الناس في الخارج دليلاً دامغاً على ذلك. فلم يسعَ، إذّاك، لكسب قلوب الناس، وإنما راح، هو ومن معه، في محاولة مستعرة، وإن شاملة، لإنقاذ وضعهم بأُسلوب مختلف تماماً، فسرعان ما انهمكوا في عملية تنقيب في كل غرف القصر، جامعين كل ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، ومنه تلك الجواهر والأحجار التي جمعها لورينزو العظيم بشرهٍ وأي شره؛ تلك الأحجار التي انطوت على طبيعة متناقضة، فهي سهلة الحمل، في حال تحققت نبوءة الجد كوزيمو ميديتشي في طرد الأسرة من فلورنسا، وهي تحمل، في الوقت نفسه، الإشارات التي تحيل على المطمح الملكي الأقصى، الذي أراده لورينزو لأسرة ميديتشي. كما قيل إنَّ الكاردينال جيوفاني جمع ما مقداره 200000 من الدوكات، وهي من بين ما تبقّى من موجودات بنك ميديتشي في فلورنسا. واشتملت الأشياء الأخرى على التماثيل الصغيرة، والميداليات الذهبيّة والفضيّة، فضلاً عن الكتب النفيسة والمخطوطات القديمة النادرة، التي توفرت عليها مكتبة ميديتشي. وقد سجَّل لاندوتشي، إثر مغادرة بيرو بعض الوقت، أن الكاردينال

جيوفاني تنكر بثياب «راهب، وغادر المدينة». ولا بد أن يكون هذا الهروب خلسة، وتحت جنح الظلام، بسبب قيمة الثروة المحمولة. غير أنَّ هذه الأشياء لم تُؤخذ كلها عبر طريق فيا لارجا إلى مأمنها عند بوابة بورتا سان غالّو. إذ يبدو أنَّ الكاردينال الشاب عمد، استثنائياً، إلى التوقف في الطريق عند دير سان ماركو، حيث أنزل المخطوطات والكتب النادرة، وربما بعض الكنوز الدينيّة، كي تكون في عهدة الرهبان. ويستثير هذا الأمر عدداً من الأسئلة، فنحن نعلم أن سافونارولا، في تلك الأثناء، كان خارجاً في البعثة المتوجهة إلى شارل الثامن، بيد أنَّ من المفترض أن يكون الدير قد بقي في أيدي أتباعه. وقَدْ عُدَّ دير سان ماركو، من جهة ثانية، «ديرنا»، بالنسبة إلى أسرة ميديتشي. ومن الممكن، أن يكون بعض هؤلاء الرهبان قد بقي نصيراً قوياً، وإن يكن بصورة مستترة، لأسرة ميديتشي. ولكن، كيف كان بإمكان هؤلاء الأخيرين أن يستلموا كنوزاً من الكاردينال جيوفاني، على الرغم من أنه كان متخفياً، ومُخفياً ما معه من أحمال، دون أن يعي الرهبان الآخرون من أتباع سافونارولا ذلك.

إن السيناريو الأكثر معقوليّة يستلزم أن يكون جيوفاني المتخفي قد نقل المخطوطات والكتب بمعرفة كاملة من جانب الرهبان المناصرين لسافونارولا. ومِن المُمكن أن يكون هذا الحدث قد جرى بترتيبٍ من بعض الوسطاء مثل بيكو أو فيتشينو، كما من الممكن أن تكون هذه الهدية بادرة حسنة تجاه سافونارولا، الذي سيرحب، دون ريب، بضم هذه المواد الثمينة إلى المجموعة التي يتوفر عليها الدير. فهل كان ذلك مكافأة لسافونارولا على حفظه الوعد، الذي تعهد به للورينزو العظيم حين أحجم عن مهاجمة بييرو، أو حتى التنديد، مباشرة، بحكم أسرة ميديتشي، في عظاته؟ ومما لا

شك فيه أن هذه النظريّة ذات طبيعية حدسية محضة، غير أنَّ من العسير فهم هذا التحرك الذي قام به الكاردينال جيوفاني بطريقة أُخرى. وإذ أودع جيوفاني هذه الهدايا في دير سان ماركو، فإنَّه غذَّ الخطى عبر طريق فيا لارجا إلى مأمنه عند بوابة سان غالّو حيث ينتظر أورزيني بمعيّة رجاله المسلحين.

وقد سجّل لاندوتشي كيف أنَّ مجلس السينيوريا اتخذ، قريباً من ذلك الوقت، خطوة أكثر تطرُّفاً، لكنها كانت غير ذات أهميّة ومتأخرة مثل الخطوات التي سبقتها:

«فقد أعلن عن بيان آخر في الساحة، يَعِدُ من يقوم بذبح بييرو ميديتشي بمكافأة مالية مقدارها 2000 من الدوكات، ويحوز من يقتل الكاردينال جيوفاني 1000 من الدوكات»[23].

غير أن أعضاء أسرة ميديتشي كانوا قد غادروا، ممتطين جيادهم، التي نهبت الأرض من تحتهم عبر جبال الألب، متجهين إلى بولونيا القريبة والآمنة. لقد أُجبر بييرو التّعس على الذهاب إلى منفاه، وغَرُبَ، بذلك، حكم أسرة ميديتشي في فلورنسا.

(13)
الإذلال

حين عمّت الأخبار فلورنسا محدّثة عن فرار أسرة ميديتشي، فإن جماعة من الدهماء هبطت على قصر ميديتشي، قاصدة سلب الكنوز الأسطوريّة التي شاع أن القصر يتوفر عليها. لكن أفرادها ألفوا القصر مُقفلاً ومحظوراً من جانب ساكنه الجديد، وهو نبيل فرنسي من حاشية شارل الثامن يُدْعى سينيور دي بلزاك[1]. وكان قد نزل بالقصر قبل بضعة أيام، وطُلِب إليه، بأوامر من بييرو ميديتشي، أن يهيّئ القصر لشارل الثامن، بعد أن قبل الأخير عرض بييرو في اتخاذه مسكناً. لكن، ما كاد أعضاء أسرة ميديتشي يفرّون من المكان حتى عمد بلزاك إلى إحكام غلق كل مداخل القصر، وشرع في «عملية نهب لمحتوياته، مُدعّياً أن فرع بنك ميديتشي المُسمّى؛ الليونز، مدينٌ له بمبلغ كبير من المال»[2]. ولم يكن بمقدور جيوفاني أن ينتزع من القصر إلا ما غلا ثمنه وخفّ حمله، مخلّفاً وراءه كثيراً من الكنوز والأعمال الفنية لبلزاك، واشتملت تلك على كل الأشياء الغرائبيّة، وقد سجّل كومين أنّ: «بلزاك استولى، فيما استولى، على قرن وحيد(1) قرن كاملاً، وكان يساوي الستة آلاف دوكات أو السبعة»[3].

(1) جرى الاعتقاد، تبعاً لمحرِّر يوميّات كومين؛ جوزيف كالميت، أن قرن هذا الحيوان العظيم الحجم يتسم بالقدرة على كشف السُّم. كما أن ندرته، وصلابته، ورمزيته الايروسية أنشأت الاعتقاد أنه إذا ما سُحِن وجعل على هيئة مسحوق، يكون مقوّياً فعالاً للباه.

وبدا أنَّ ممتلكات أُسرة ميديتشي قد عُدَّت حينئذ، في المدينة كلها، شيئاً مباحاً. ويروي كومين: «أن الآخرين احتذوا [في وقت يسير] حذو بلزاك. وكان كل ما هو نفيس قد خُزّن في منزل آخر داخل المدينة، لكن الناس نهبوه أيضاً. وقد نجح مجلس السينيوريا في وضع يده على بعض أنفس المجوهرات، إضافة إلى 20000 من الدوكات، التي بقيت في مبنى بنك ميديتشي المحلي، والعديد من الفازات المطعّمة بالعقيق، وقدر هائل من الأحجار الكريمة المصوغة على نحو جميل، وهي من أجمل ما رأيت. كما وضعوا أيديهم على ثلاثة آلاف من الميداليات الذهبية والفضيّة، التي تزن أربعين رطلاً. وما كان لامرئ التصديق أن ثمة هذا العدد الهائل من الميداليات النفيسة في إيطاليا جمعاء»[4].

وأرسل مجلس السينيوريا، مجموعة من الحرس بغرض حماية قصر ميديتشي من الدهماء. وبدا أن هؤلاء قد نجحوا، بمعيّة بلزاك والجنود الفرنسيين، في صد السُرَّاق والناهبين. ولكن، يبدو أن عدداً من مواطني فلورنسا اخترق، في مرحلة ما، القصر وأَشعل النِّيران في الملفَّات الرسميَّة بقصد إتلاف الوثائق المتعلِّقة بالمواد الضريبيَّة والديون، ومازالت «علامات الحرق السوداء ظاهرة على الأوراق التي نجت»[5] حتى يومنا هذا. غير أن من المدهش أن تُكتب لعديد كنوز ميدتشي النجاة، وهي غير تلك التي أَوْدَعها جيوفاني دير سان ماركو أو أخذها معه. فقد نجت، حتى هذا اليوم، العديد من اللوحات، التي وجدت في قصر ميديتشي وغيره من الأماكن في عموم فلورنسا؛ بما فيها صور الأسرة الشخصيَّة، والمناظر الدينية (التي أدخلت فيها صور الأسرة، مثل لوحة بوتيتشيلي الموسومة بـ «توقير المجوس»). وقد أُبقي على اللوحات، لا بسبب مضامينها الدينيَّة، إذ إن

ذلك بدا مستبعداً تماماً، ففي الساعات الأولى التي كان فيها الناس سكارى بخمر التحرّر غاب كل مُقدَّس، ولاسيما إذا اتصل الأمر بأسرة ميديتشي، حتى إن دير سان غالّو الزّاهر نفسه لم يُستثن من ذلك، وهو الذي عُدَّ من أفضل عمائر عصر النهضة المبكرة، وكان قد صُمِّم للرهبان الأوغسطينيين المُبجّلين، وبناه برونيليسكي نفسه، بتكليف من لورينزو العظيم، وهذا أمر كاف لاستباحته، فسوِّى الدهماء المبنى كاملاً بالأرض، وما أبقوا فيه على باقية. وهو اليوم فضاء مفتوح يكسوه العشب، وتحيط به الأشجار بإزاء بوابة سان غالّو، ويعرفُ بالروضة «parterre».

وقَدْ أشَّرت مصادرة مجلس السينيوريا على ما تبقى من موجودات فرع بنك ميديتشي المحلي[1]، بصورة دامغة، على زوال هذه المؤسسة المالية، التي كانت عظيمة في يوم من الأيّام. وتظل أرقام دفتر الحسابات وما عاناه البنك من اختلالات مجهولاً، ذلك أنَّ قِسماً كبيراً من سجلات البنك قد أتلف بفعل النيران التي أُضرمت في قصر ميديتشي. ومهما يكن من أمر، فقد أوضح دي روفر أن انهيار بنك ميديتشي، في تلك المرحلة، كان محتوماً بصورة ما.

ولو لم تجر الإطاحة بحكم أسرة ميديتشي سنة 1494 بسبب ما اتصف به بييرو من قصور سياسي، وبدافع من الغزو الفرنسي، فربما انتهى أمرها، بصورة أكثر خزياً، في انهيار مالي شامل، «فقد كان بنك ميديتشي على حافة الإفلاس»، إذ أُغلقت معظم فروعه، «في حين صارعت بقية الفروع من أجل البقاء، حتى إن فرع روما، وهو أهم أعمدة بنك ميديتشي، منذ زمن طويل، قد تراجع بسبب تجميد ودائعه بدعوى الديون... فضلاً عن أنَّ

(1) ذكر كومين أنها بلغت 20000 دوكات، فيما قدّرته مصادر أُخرى بـ 16000 فلورين.

الديونُ المستحقّة على أُسرة ميديتشي لفرع روما فاقت ما لديهم من أسهم .بما قيمته 11243 فلوريناً من فئة الفلورين الكبيرة. ليس هذا وحسب، فالسيد جيوفاني؛ الكاردينال الشاب، ... كان مديناً للفرع بـ 7500 فلورين»[6].

وعلى الرغم من الرسالة التي أرسل بها لورينزو العظيم، قبل وفاته، إلى ابنه جيوفاني يحضُّه، بطريقة مُعبِّرة، على كبح إسرافه وتبذيره، فإن ذلك، وفق ما اتضح، لم يأت بأي نتيجة. ومن جهة أخرى، ستثبت مبادرة جيوفاني في استنقاذ ما غلا ثمنه وخفَّ حمله من قصر ميديتشي، أنها كانت مسألة حيويّة وحاسمة في الإبقاء على وضع أُسرة ميديتشي المالي. إذ إن مجموعة لورينزو الأسطوريّة من الجواهر وأشباهها ستمدُّ بيرو وعائلته بأسباب العيش الكريم في المنفى. في حين سيعتمد جيوفاني على إقطاعاته الكنسيّة الغنيّة التي وفرّها له أبوه لورينزو، كما سيتحصل منها على موارد إضافيّة، وسيعين كل ذلك على تمويل الخطط والمكائد التي أُعدّت للعودة ببيرو إلى قِمة السُلطة في فلورنسا. وكان الأخير قد مضى في هذا الطريق من اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدمه أرض المنفى.

وكان شارل الثامن قد دخل بيزا في التاسع من نوفمبر عام 1494، أي في اليوم عينه الذي فرَّ فيه بيرو ميديتشي من فلورنسا. وقد خرج أهل بيزا، في الساعات التي سبقت الاحتلال الفرنسي، ثائرين ضد حاكمهم وإداراته، لتحقّق لهم، بعد ذلك، السعادة بالتخلص من نير غزاتهم الفلورنسيين المكروهين. ولم يكن الجيش الفرنسي ليُعنى كثيراً بهذه الأحداث: فقد رُحّب بشارل الثامن بما هو مُخلِّص، واتُخذ من سيتاديلا نوفا «القلعة الجديدة»، المتاخمة لنهر أرنو، سكناً. وكانت بيزا المكانَ الذي أدرك فيه الوفد الفلورنسي بزعامة سافوناورولا، أخيراً، الجيش الفرنسي، وقد مُنح

على الفور مقابلة مع الملك.

تبدى شارل الثامن، دون ريب، شخصيَّة غير جذابة، فهو «قصير القامة، ودميم الخلقة إلى حد بعيد» كما ذكر ذلك غيتشارديني، ومضى قائلاً: «إن أعضاءه كانت متشكلة على نحو ظهر فيه أشبه بمسخ لا إنسان»[7]. ومهما يكن من أمر، فقد أضفت صورة هذا الملك الضئيل الغريب، وهو يتربَّع على عرشه الذي يحفُّ به مستشاروه، والزينة توشِّي بلاطه، حتى حين يكون هذا البلاط خارج البلاد، مهابة وجلالاً، فهو الملك القوي بكل صولجانه القروسطي. وعلى النقيض من ذلك، فحين دخل سافونارولا بصندله وأسماله، يتبعه زملاؤه الثلاثة الذين يتملَّكهم الخوف، لم يثيروا أي انطباع يذكر. غير أن سافونارولا كان جسوراً، فلم يطرف له جفن، وانخرط في خطبة رحَّب فيها بالملك قائلاً: «لقد وصلتَ، أخيراً، أيها الملك، تماماً كما تنبأتُ بذلك خلال السنوات الأخيرة الماضية. ولقد أتيتَ مفَوضاً من الرَّب بوصفك رمزاً للعدالة الإلهيَّة. إننا نرحب بمقدمكم بقلوب جذلى ووجوه باشَّة، فالرب أرسلك لتعاقب طغاة إيطاليا، فما من أحد يمكنه أن يقف أمامك، أو أن يدافع عن نفسه ضدك»[8]. وإذْ رحَّب بـ«سوط الرَّب» القاهر، بدَّل سافونارولا نبرته فجأة مُحذِّراً، فعلى الرغم من أن فلورنسا عادَتْه على نحو غير مقصود، ينبغي على شارل الثامن أن يعفو عن المدينة، وألا يمس مواطنيها بسوء. ذلك، «أنه وإن كان مبتعثاً من جانب الرَّب، فإن بمقدور السماء أن تنزل عقاباً وانتقاماً أليمين حتى بالأداة التي أرسلتها»، إذا أجاز ملك فرنسا لجنوده أن يمسوا فلورنسا بضرر أو سوء.

وكان مستشارو الملك قد أحاطوه بمعلومات حول شخصيَّة سافونارولا، وهديته الممثلة بالنبوءة؛ تلك الهدية التي راقت، بصفة خاصَّة، للملك الشاب

الأُمي ذي الطبيعة الواهمة الخرافية (كما راقت للعديد من مستشاريه الأكثر ثقافة وفكراً)، مما حدا بشارل الثامن إلى الإنصات باهتمام كبير لكلمات سافونارولا، شاعراً بالحماس لدى سماعه نبوءاته المتعلقة بالحملة الفرنسيّة في إيطاليا. وكان شارل الثامن مُتأثِّراً إلى درجة أنه سمح للثلاثة الآخرين من الوفد بالانصراف حين انتهى اللقاء، وألحَّ على سافونارولا بالبقاء من أجل لقاء خاص معه. وقد تبادلا الحديث، تبعاً إلى كومين، حول: «ما كشفه له الرب، وأوحى به إليه».

وقد أثار سافونارولا انطباع كومين أيضاً، وهو إن كان رجلاً ذا ثقافة رفيعة، ومرتاباً من نزاهة الديبلوماسية، ومتمرّساً في تقلبات حياة البلاط، فإنه اعترف، بما خصَّ سافونارولا، قائلاً: «من جهتي، وجدته رجلاً صالحاً».

ارتحل شارل الثامن بجيشه، في اليوم التالي، وانطلق منحدراً نحو وادي أرنو تجاه فلورنسا، وتوقف عند سيينا، التي تبعد زهاء ثمانية أميال عن أسوار المدينة. وقد تعجَّل سافونارولا الرجوع إلى فلورنسا. ولعلَّ ذلك كان بإيعاز من شارل الثامن، بقصد إعلام المدينة بقرب قدوم الأخير، وتقييم الوضع العام. ولما كانت الحكومة المدنية على شفير الانهيار تحت حكم مجلس السينيوريا غير ذي السلطة، غدت استعادة النظام أمراً ملزماً، فقد رغب الملك الفرنسي في أن يدخل فلورنسا دخولاً مظفَّراً على رأس جيشه، وأراد من أهل فلورنسا أن يحفوا بموكبه مهللين مرحبين. وإذا ما عمَّت الفوضى، فإنَّه سيضطر إلى إرسال قواته لإخماد أي اضطراب، بكل ما يستدعي ذلك من نتائج دمويَّة.

بلغ سافونارولا فلورنسا مبكِّراً في يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من نوفمبر، وأعلن أنه سيلقي عظة في وقت متأخر من اليوم عينه. وقد توافد أهل

فلورنسا من كل حدب وصوب، متجهين شطر الكاتدرائية كي يستمعوا إلى المُخلِّص الوحيد كما رأوه. وقد عاد سافونارولا، في عظته، إلى ثيمته الأثيرة حول فلك نوح، الذي دعاه قائلاً: «قارب التوبة الحقيقيّة والخلاص الذي سينطلق ماخراً عباب طوفان المحن المحيط بنا من كل جانب»[9]. وسعى، أيضاً، إلى طمأنة أهل فلورنسا بأن الأذى لن يطالهم. وإذ عرّج على ما ساد المدينة من أحوال أعقبت فرار بييرو ميديتشي، فقد حذّر من ممارسة الانتقام ضد أنصاره، فمن الواجب على أهل فلورنسا أن يشكروا الرب، إذ جرت الثورة دون أنْ تُراق قطرة دم واحدة. وأكّد سافونارولا بأن شارل الثامن قد قطع له وعداً أن أحداً لن يُمسَّ بسوء ما لم يُستهدف الجيش الفرنسي.

وظل الجيش الفرنسي معسكراً، طوال خمسة أيام، خارج أسوار المدينة، في حين كان أهل فلورنسا ينتظرون في فزع وخوف. ولما تناهى إلى سافونارولا، في السادس عشر من نوفمبر، أن شارل الثامن يزمع دخول المدينة في اليوم التالي، فإنه ألقى عظة، وبدأها بأن حثّ الناس قائلاً: «فليلزم كل منكم مكانه». وألحّ على أن يُسمح للجيش الفرنسي بدخول المدينة دون أي مقاومة، فهو لن يلبث أن يغادر فلورنسا متجهاً إلى نابولي. ومضى سافونارولا موضحاً أن إدارة جديدة ستُعين، قريباً، لتشغل مكان الإدارة المعينة من جانب أسرة ميديتشي. ومن اللازم أن يُنجَز ذلك بصورة سلميّة لا عنفيّة، إذ إن شؤون المدينة تُدار بأيدي أمينة، «وهناك كثيرٌ من الرجال ممّن يرغبون بالإسهام في إدارة الدولة، لكنهم لا يستطيعون فعل ذلك لافتقارهم إلى الأهليّة». وعليه، يتوجب على «كل مواطن أن يكون راضياً بما لديه».

على أي حال، ورغم مناشدة سافونارولا الناس أن يضبطوا أنفسهم ويتقيدوا بالنظام، فقد بقوا أسرى لمشاعر الخوف، وقد كان الوضع العام

مشحوناً بخطر الانهيار، والخوف من التحول إلى الفوضى، والغرق في بحر من الدماء. وكانت أفواج جديدة من الجيش الفرنسي، آنذاك، قد بدأت بالوصول إلى المدينة، متخذة من المنازل التي جرى تعليمها بإشارة الصليب مساكن لها. ولم يكتف الجنود بذلك، فقد ساروا قدماً ليضعوا الشارات على مئات المنازل، في كل جزء من أجزاء المدينة. ولم تسلم من ذلك حتى منطقة «الكامادولي»، وهي الضاحية الغربيّة التي تزدحم بالطبقة الكادحة التي تعمل في الدباغة، والصباغة، والصيد، ممتدة على طول النهر بدءاً من وسط المدينة عند حي أولترانو، منحشرةً بين ضفة النهر وأسوار المدينة الجنوبيّة.

وقد عاد بيرو كابُوني ليستأنف دوره، بما هو قائد مرتزقة، باذلاً وسعه لفرض شكل من أشكال الحكومة المدنية. لكن المدينة شهدت، بصورة لا مفرَّ منها، عمليّات انتقام ضدَّ أنصار ميديتشي، فضلاً عن الخطر الماثل بتورط الجنود الفرنسيين في ذلك. وقد وصف لاندوتشي واحداً من الحوادث التي عكست حالة الفوضى والاضطراب قائلاً:

«مزّق معادون لأسرة ميديتشي، في كنيسة أورتو ساميشليه، رداء جيرولامو تورنابوني المُرصَّع بالجواهر، لكنه حين ناشدهم الرحمة أبقوا على حياته، بيد أنه أُصيب بجرح عميق في خَدِّه فعاد إلى منزله. وحين بدأ هذا الشغب توشَّح جنود فرنسيون أسلحتهم، وانضموا إلى أنصار ميديتشي صارخين، فرنسا. وأعتقد أنهم أُخبروا أن ما يحدث هو شأن يجري بين مجموعة من المواطنين لا أكثر، وأنهم إذا ما اقترفوا (الجنود الفرنسيون) أمراً ما ضد قصر السينيوريا، فإنهم سيتورطون في المشاكل لما قاموا به من زلل. لذلك، حين وجدوا

أنفسهم في المكان الخطأ، تحوّلوا مُسْرعين إلى منازلهم... ولا بُدَّ أن أذكر هنا أن عدد الجنود والمواطنين الذين انخرطوا في نهب المواطنين الأبرياء كان يزداد باضطراد»[10].

وكما صاغ ذلك فيلاري؛ كاتب سيرة سافونارولا:

«كان ثمة سبب قوي لما ذاع من خوف وفزع. ومن يمن الطالع، أن فلورنسا توفرت، إذاك، على عديد من المواطنين العقلاء، وأصحاب العزم ممّن تعهّدوا بدعم السينيوريا، وعلى رأس هؤلاء بيرو كابّوني، الذي غدا يد الجمهوريّة اليمنى، بقدر ما غدا سافونارولا قلبها وروحها. فكما دعا الأخير بعظاته إلى الصفح والإحسان والأُخوّة، فإن كابّوني غذَّ الخطى من مكان إلى آخر حيث تكون هناك حاجة إلى سلطته، موزّعاً السلاح، ومجنّداً الرجال لحفظ الأمن والسلام»[11].

وقد دخل شارل الثامن على رأس جيشه، أخيراً، إلى فلورنسا، في ساعة متأخرة من مساء الاثنين الموافق للسابع عشر من نوفمبر. وكان ذلك الدخول عبر بوابة «سان فريانو الجنوبيّة- الغربيّة. وقد برز الملك بثوبه المخملي الأسود، وعباءته المطرّزة بالذهب، واستقبل بكل المراسم والحفاوة التي تليق به من جانب مجلس السينيوريا وكل المواطنين البارزين، وهم يمتطون صهوات جيادهم، ويرتدون أبهى الثياب. وقد أحنوا رؤوسهم، ودعوه، رسمياً، لدخول المدينة، لكن شارل الثامن أوضح، منذ البداية، أنه يحلُّ في تلك البلاد غازياً لا ضيفاً محتفى به، إذ تقدّم بفرسه داخل المدينة وقد جعل رمحه على مفصل وركه كما يفعل الظّافرون. وعلى الرغم من تطمينات سافونارولا، فإن أحداً لم يستطع أن يتكهّن بما يدور في خلد الملك، صاحب المزاج المُتقلّب، بشأن فلورنسا. وفي واقع الأمر، كان من الجليّ أن الملك

نفسه لم يستقر على رأي في هذه المرحلة.

وعلى الرغم من الإذلال الذي أصاب المدينة، فإنَّ العديد من مواطنيها اصطفوا على جوانب الطرقات يهلّلون ويهتفون: «عاشت فرنسا، عاشت فرنسا»[12]، في حين كان الملك وجيشه يجوسون خلال المدينة، عابرين نهر أرنو من طريق بونتي فيتشيو، ثم مارين، عن عمدٍ، بقصر ديلا سينيوريا والكاتدرائيّة. وقد اتفق معظم شهود العيان على أن عديد الجيش الفرنسي بلغ زهاء 10000 رجل، أما بقية القوات الفرنسيّة فقد كانت مُعَسكرة قرب بيزا. وكانت ثمة كتيبة معسكرة في الولاية الإيطاليّة المسمّاة: رومانيا، متأهبة للزحف جنوباً. وقد جاء في تقرير للسفير البندقي قوله: «لقد قاد الجنود إلى المدينة رجلٌ مسخ يحمل سيفاً مثل السفود الذي يستخدم في شَيّ الخنازير، وصحبت الجمع أربعة طبول قُرِع عليها بكلتا اليدين، وأُرفقت بمزامير، مما أحدث ضجّة جهنميّة تُشبه تلك التي تُسمع في الكرنفالات». وبلغ عدد الجنود المشاة السويسريين في صفوف الجيش الفرنسي الذي دخل فلورنسا 7000 جندي، من أصل 10000 جندي هم قوام الجيش، وعُدَّ هؤلاء الجنود الأعتى والأصلب من بين كل الجنود الأوروبيين في ذلك العصر. وقد كان أحد النظّارة الفلورنسيين معجباً أيّما إعجاب بهم، مستذكراً كيف أدّوا المارش العسكري: «بإيقاع منتظم، فلم تُسمع سوى أصوات الطبول والمزامير». وقد تبع هؤلاء فرسان رماة من غير فئة، وجنود مشاة مسلحون بالرماح، وغيرهم من العسكر «ممن قدموا من دالماشيا، وغيرها من الأمكنة الغربية».

وعلى الرغم مما كان فيه الفلورنسيون من ابتهاج وهتاف، فقد ملأهم الفزع والخوف وهم ينظرون إلى هؤلاء الجنود، الذين لم تقع أعينهم على أمثالهم من قبل. وقد عكست ردة فعل بارتولوميو تشيرتاني هذا الشعور،

إذ رآهم «برابرة... من المناطق الباردة، التي تنتجُ رجالاً أشبه بالدواب، وتميز الفظاظةُ سلوكَهم وحديثهم». وقد لاحظ وجود: «البريطانيين والإسكتلنديين، وكل أصناف الرجال، الذين تباينت ألسنتهم، فما يعود بمقدور بعضهم فهم بعض». هذا ما كانت عليه حال ذلك الخليط من الرجال الذين استولوا على المدينة، ورأوا في أنفسهم أكثر الناس تحضُّراً في أوروبا جميعها.

لكن الملك نفسه لم يخلِّف رهبة في نفوس الناس كما فعل جيشه، فما إن وصل الكاتدرائيّة وترجَّل عن فرسه حتى «بدا للناس»، كما سجَّل لاندوتشي، «حين شوهد على قدميه، أقلَّ وهجاً، فقد كان صغير الحجم». وقد استغرق الموكب أكثر من ساعتين كي يقطع مسافة تناهز الميل من الطريق التي تفصل بين بوابة المدينة والكاتدرائية. وكان الظلام قد هبط في تلك الساعة، وقد أُشعلت الشمعدانات لتضيء الكاتدرائيّة، فصلَّى الملك على المذبح قبل أن يركب فرسه ويقوده وسط المشاعل، لينزل بعد ذلك في قصر ميديتشي الذي زيَّنه بلزاك (أو زيَّن ما تبقى منه)، بمعونة من مجلس السينيوريا، فجعله في صورة بهيَّة وجليلة. على أي حال، فقد أثار كل ذلك إعجاب شارل الثامن، ذلك أنه كتب، في وقت متأخر من تلك الليلة، إلى أخيه في فرنسا؛ دوق بوربون، يقول: «أي أُخي، لقد دخلت اليوم مدينة فلورنسا، حيث استُقبلت استقبالاً مهيباً من جانب مجلس السينيوريا، وشُرِّفت كما لم أُشرَّف في أي مدينة في مملكتي... لقد مضى زمن طويل قبل أن يقوم أحدهم بمثل هذا الدخول العظيم لمكان مثل هذا. أما مجلس السينيوريا فقد ملأتهم الرغبة في فعل كل ما آمرهم به»[13].

ولكن ما طبيعة هذه الأوامر؟ هل أمر جنده المرعبين أن ينهبوا فلورنسا؟

أم أنه ألقى بالاً لكلمات سافونارولا التحذيريّة؟ لا ريب أن رأي شارل الثامن قد استقرّ على أمر واحد لا ثاني له: فقد أراد أن ينتزع قدر ما يستطيع من أموال تلك المدينة الغنيّة، كي يموّل جيشه الجرار المكلف في الشطر الثاني من مسيرته التي ستمضي به بعيداً إلى روما، حيث من المرتقب أن ينتزع لخزينته مزيداً من الذهب الذي تتوفر عليه خزائن البابا، مما يجعله في وضع يطعم فيه جنده جيداً، ويجزل لهم العطاء، فيضطلعوا بالمهمّة الأخيرة في الزحف على نابولي. وأياً كان القرار الذي انتهى إليه شارل الثامن، فقد شعر، واثقاً، أن فلورنسا غدت الآن تحت رحمة جيشه. وكان تعداد فلورنسا من السكان، آنئذ، يُقدَّر بنحو 70000 نسمة (فرّ العديد من الناس إلى الأرياف مع قدوم الجيش الفرنسي)، وأقامَ في أوساطهم، وقتها، عشرة آلاف من الجنود الأشد بأساً في أُوروبا، ويضاف إليهم المئات من الجنود الذين أرسلوا مسبقاً كي يُعدّوا المساكن للجيش الفرنسي.

وما هي غير أيام قليلة حتى وضع الملك ومستشاروه مطالبهم بين يدي أعضاء مجلس السينيوريا، الذين كانوا فزعين لدى سماعهم أنَّ الملك الفرنسي يريدُ منهم أن يدفعوا له ما لا يقل عن 150000 فلورين[1]، على الرغم من أن هذا المبلغ يقلّ عن الـ 200000 فلورين، التي أجبر بييرو ميديتشي على التعهد بها. وأنكى من ذلك، أن شارل الثامن طلب إليهم أن يعيدوا بييرو ميديتشي حاكماً على فلورنسا، ليس هذا فحسب، وإنما عزم على أن يخلف وراءه «مفوضين» فرنسيين ليكونوا حاضرين في الاجتماعات التي يعقدها مجلس السينيوريا. وتملك المجلس الخوف من أن يسلب شارل الثامن المدينة، غير

(1) كان مقدار ما تتكلّف أسرة تاجر متوسط، صاحب تجارة مزدهرة، سنوياً 150 فلوريناً، واشتمل ذلك على نفقات عائلته وأقربائه وخدمه.

أنه عقد العزم على ألا يتنازل عن حريَّة فلورنسا المكتسبة حديثاً، فثبت على موقفه دون أن يتزحزح، إذ إن إعادة تنصيب بيرو ميديتشي أدخَلُ في باب المحال. كما استاء المجلس من فكرة الإبقاء على «المفوضين الفرنسيين» بوصفهم حكّاماً فِعليين لفلورنسا، كما أبلغوا الملك أنهم، ببساطة، لا يملكون ما طلبه من أموال.

وأعقبت ذلك مساومات ومفاوضات قاسية لبضعة أيَّام، لكن فلورنسا في تلك الأثناء، شهدت تدهوراً يومياً في الأوضاع، فقد اقتنى العديد من المواطنين السلاح، وتزايدت أحداث العنف على امتداد المدنية، وبلغت هذه الأحداث ذِرْوتَها في 21 نوفمبر، وذلك حين:

«بدأت مجموعة من الجنود الفرنسيين تجوب الشوارع، وهي تجرُّ وراءها بعض الإيطاليين الموثقين بالحبال، الذين أخذوا أسرى خلال القتال قريباً من الحدود، وقد جعلوهم يتوسَّلون المال كي يشتروا به حرِّيتهم. هدَّد الفرنسيون بقتلهم ما لم يُعْطَوْا المال الكافي، فأثار ذلك المشهد الهمجي الفلورنسيين، مما دفع ببعض الشبان الجسورين إلى قطع الحبال، ممكنين هؤلاء الأسرى من الفرار. واستشاط الفرنسيون غضباً، وسعوا، عبثاً، للقبض عليهم من جديد، ثم نشب قتال بينهم وبين المواطنين الذين بادروا للمقاومة، وسرعان ما تداعى آخرون من كل جانب وانخرطوا في مقاومة الجنود، وتناهت الشائعات إلى مسامع الجنود السويسريين، الذين ظنوا أن حياة الملك في خطر، فاندفعوا صوب قصر ميديتشي. لكنهم ألفوا الطريق مغلقة أمامهم عند منطقة بورغو نيسانتي. وحين حاولوا شقَّ طريقهم بالقوة، فإنهم جوبهوا بوابل من الحجارة التي انهالت عليهم من النوافذ، مما

اضطرهم إلى التراجع. واستمرَّ القتال لساعة قبل أن يتمكن ضباط الملك، والعديد من أكابر المواطنين، من إخماد الشغب بأمر من مجلس السينيوريا»[14]. وكما لاحظ كاتب اليوميّات؛ بييرو بارنتي، الذي عاصر تلك الأحداث: «لم تتوقف الأمور، التي كادت تخرج عن السيطرة إلا بفضل العناية الإلهيّة»[15]. وقد نُزِع فتيل الأزمة، غير أن المدينة بقيت في حالة من التوتر طوال الأيام القادمة. ويصف لاندوتشي ذلك، فيقول: «لقد سرى، طوال ذلك الوقت، اعتقادٌ أن الملك وعد جنوده بأنّه سيخلّي بينهم وبين المدينة»[16].

وتوصل شارل الثامن ومجلس السينيوريا، في آخر الأمر، إلى تسوية تم خلالها التوافق على معاهدة تقضي بأن يمنح مجلس السينيوريا الملكَ المبلغَ الذي طلبه ومقداره 150000 فلورين، على أن تحتفظ المدينة بحرّيتها المكتسبة. وقد عقدت، في الـ25 من نوفمبر، مراسم التوقيع على المعاهدة. وحضر المراسم شارل الثامن بمعيّة مستشاريه، ومجلس السينيوريا برفقة مجموعة صغيرة من وجهاء المدينة. وبدأ الناطق الرسمي بقراءة بنود الاتفاقية الرسميّة على مسمع الوفود المجتمعة. لكن مجلس السينيوريا عَدّل، بصورة مراوغة، على البند الخاص بالمبلغ المطلوب، فجعلوه 120000 فلورين عوض 150000. وما إن سمع الملك ذلك، حتى وثب على قدميه، وقال متوعداً: «ينبغي علينا أن ننفخ في أبواقنا، ونعلن النفير».

وكانت تلك إشارة أنه سيدعو جنده لحمل السلاح للبدء في سلب فلورنسا. واستشاط كابّوني، وهو الذي صادق شارل الثاني خلال سني طفولته الخرقاء، غضباً، لدى رؤيته ما صدر عن الملك الأخرق من وقاحة حين توعّد فلورنسا بعظائم الأمور، ثم قفز وانتزع المعاهدة من يد الناطق

الرسمي، وبدأ بتمزيقها، ناثراً أجزاءها حوله بازدراء، ومعلناً: «إذا كنت ستنفخ في أبواقك، فإننا سنقرع أجراسنا»[17]. ومثَّل ذلك الدعوة التقليديَّة في حث الفلورنسيين على حمل السلاح للدفاع عن مدينتهم. وكان من المحتمل أن يواجه شارل الثامن معركة ضارية في الشوارع التي كان يجهلها جنوده تماماً، في حين كان سكان فلورنسا يعرفون كل زقاق.

وحاول الملك، في الحال، أن يلطِّف من حدَّة الموقف، فعمد إلى ممازحة كابُّوني بقوله: «يا لك من ديك خصي»[1]. وقد لطَّف ذلك من الاحتقان الذي ساد المكان، ولان الملك، في آخر الأمر، وقنع بالمبلغ الجديد وهو 120000. وقدْ عُزي هذا التنازل إلى غير سبب، فربما جعلت شجاعة كابّوني المفرطة، الملكَ يظنّ أنَّ ذلك يمثل جزءاً من خطة، وهي أن أهل فلورنسا أَصبحوا مُسلحين عن آخرهم حينها، وهم بصدد الخروج من مكامنهم ومهاجمة القوات الفرنسيَّة. أو أن ما أكنَّه من مشاعر حقيقية لصديقه القديم جعله يخجل من فعلته التي أخرجت كابوني الرصين عن طبعه.

وقد وُقِّعت حينئذ المعاهدة التي نصَّت على دفع 120000 فلورين للملك شارل الثامن، غير أن التوتر استمر في التصاعد على طول المدينة وعرضها، وجلب كل يوم مزيداً من حوادث الطعن والاختطاف، ولم تصدر أي إشارة عن الملك الفرنسي تدل على رغبته في مغادرة المدينة بمعيَّة قواته، فإلى متى سيكون بمستطاعه منع قواته من نهب المدينة؟

لجأ مجلس السينيوريا، في محاولة أخرى، إلى سافونارولا كي يحاول استعمال تأثيره الشخصي على شارل الثامن. وتحدثت رواية أحد المعاصرين

(1) رأى العديد من الحاضرين أنها نكتة غير ملائمة من جانب شارل الأحمق، غير أنها لا بُدَّ بدت، في ذلك السياق، تورية قويَّة.

أن سافونارولا ذهب إلى قصر ميديتشي، وطلب لقاء الملك، وحين حاول الحرس اعتراض طريقه، دفعهم بكل بساطة ومضى في طريقه، ليجد شارل الثامن داخل القصر وقد لبس دروعه استعداداً لقيادة رجاله في عملية نهب المدينة. فوقف سافونارولا قبالته، ورفع صليباً نحاسياً. فتبدَّل سلوك الملك، عندئذ، وحيّا الراهب بإجلال واحترام، فخاطبه سافونارولا، بقوة، مُلحاً:

«لستُ الشخصَ الذي يتوجَّب عليك تقديم آيات الإجلال له، وإنما هو ملك الملوك الذي يمنحُ النصر لملوك هذا العالم بحسب مشيئته وعدله، لكنه ينزل عقابه بأُولئك الظالمين. وعليه، فإنه سيدمِّرك وجندك تَدميراً ما لم تتوقَّف، حالاً، عن معاملتك الوحشيَّة لأهل مدينتنا المسكينة...»[18].

وقد أشار سافونارولا إلى الملك الشاب أنه بقدر ما يطيل المكث في فلورنسا، فإن القوة الدافعة لحملته على نابولي ستخفت، ثم قال له ساخطاً:

> «أصغ، الآن، إلى صوت خادم الرَّب، امض في مسيرتك دون أي تأجيل إضافي، ولا تحاول أن تُدمِّر هذه المدينة، وإلا فإنك ستجلب غضب الرب على رأسك».

وقد كان لكلمات سافونارولا فعلها الواضح على الملك، فقد غادر الأخير فلورنسا على رأس جيشه، كما يجب، في 28 نوفمبر، وتحدَّثت بعض الرّوايات المُعاصرة بشيوع الاعتقاد وسط أهل فلورنسا أن مدينتهم استُنقذت بفضل بسالة كابوني، وبما أوتيه سافونارولا من تأثير مُسكِّنٍ على جماعة المصلين، وشارل الثامن، سواء بسواء. وقد استجلب سلوك سافونارولا الجريء، خلال تلك الفترة العصبية المتوترة، كل مشاعر الإعجاب بما نعلمه الآن عن حياته الشخصيَّة في ذلك الوقت. ففي 25 من نوفمبر، أي في اليوم

نفسه الذي ألقى فيه عظته العصماء، التي دعا فيها إلى الهدوء «حاثاً الناس على التزام أماكنهم»، كانت أمه قد نُعيت إليه من فيرارا. ومن الممكن أن يُقدَّر مدى قرب سافونارولا من أمِّه، عبر ما كتبه لها من رسائل قليلة، ويقع فيها المرء، تبعاً لتوصيف ريدولفي: « تحت الصرامة التقويّة»[19]، على تيار دافق من الحنان الكامن، الذي لا يوازيه حنان». كما أتى سافونارولا على ذكر أمِّه في واحدة من عظاته المتأخِّرة. وقَدْ أعلِم سافونارولا، أيضاً، بخبر وفاة آخر، إثر يومين من وفاة والدته، أي في اليوم نفسه الذي دخلت فيه القوات الفرنسيَّة فلورنسا، وكان المنعي صديقه الحميم بيكو ديلا ميراندولا. وعنى ذلك أنه فقد، في بضعة شهور فقط، اثنين من أصدقائه العلمانيين المقرَّبين المعجبين. وذلك أنه أُعلم في ليلة 28—29 من سبتمبر بوفاة صديقه الشاعر بوليتسيانو. وحدث ذلك صدفة، وبصورة غير متوقعة، بالتزامن مع الوقت الذي حثَّ فيه بوليتسيانو صديقه بوتيتشيلي على رسم لوحته المسمَّاة: «الافتراء على أبيليس»، بغرض إقناع بييرو بأن الوشايات التي زعمت أن سافونارولا يهاجمه في عظاته ما هي إلا افتراءات، غير أن بوليتسيانو، نفسه، سيكون موضوعاً لإشاعات مغرضة أيضاً. وقد بدأ الناس يتداولون قصة مشينة حول وفاته، ومؤداها أنَّ بوليتسيانو أصبح محموماً بسبب غرامه بواحد من الشباب اليونانيين المحليين. وقد أخذته نوبة جنون في منتصف الليل، فاندفع إلى بيت معشوقه، وبدأ يعزف على العود تحت نافذته، ثم اقتيد إلى منزله ليلفظ أنفاسه وهو في حالة من هذيان الحُمَّى.

وقد تكدَّر سافونارولا لوفاة بوليتسيانو، وأدرك، من ساعته، أن الإشاعة المغرضة، وما أحاط بها من ظروف، لم يُقصد منهما سوى المس بشخصية صديقه، والتشكيك بتحول الأخير إلى تعاليمه. ليس هذا وحسب، فبينما

كان الجيش الفرنسي يزحف على فلورنسا، كان بيكو، في اليوم عينه، يُحتَضر على فراش الموت، بعد أن ألمّ به داء عضال، وهو بعد في الحادية والثلاثين من عمره. وقد جاء وقت على بيكو كان فيه ممزقاً بين نزوعه الطبيعي نحو الحياة الفكريّة الدنيويّة، مُتّخذاً فيلا خارج فلورنسا هو وعشيقته، وبين تشوُّفه إلى تكريس حياته للرّب، بتبني حياة الرهبنة الدومينيكيّة؛ ذلك التشوف الذي عمل سافونارولا على تعزيزه لدى بيكو، وإذ ألفى الأخير حياته في طور الانحسار، فإنه، كما قيل، أوصى بكل ما يملك إلى دير سان ماركو، وتوسّل إلى سافونارولا، في آخر الأمر، كي يقبله في سلك الرهبنة.

وتقول الحكاية الشعبيّة أن سافونارولا، سجّى جسد بيكو المُحتَضر بثوب دومينيكي. ووضع الأخير في كفنه، بعد ذلك، وهو يرتدي هذا الثوب. ودُفن، بإيعاز من سافونارولا، في سان ماركو بإزاء قبر صديقه بوليتسيانو. ولما ألقى سافونارولا عظته في الأحد التالي الموافق لل 24 من نوفمبر، فإنه أعقبها بخطبة موجزة بمناسبة وفاة صديقه، معلناً أنه «لو قُيض للأخير أن يُعَمّر، فإنه سيضع مؤلفات تتجاوز ما أُلّف خلال القرون الثمانية الماضية»[20]. ومضى سافونارولا ليقول إنّ القلق قد ساوره إزاء المصير النهائي لصديقه، مخافة أن يكون قَدْ قُضي عليه أن يخلد في عذابات جهنم، نظراً لطبيعة الحياة التي عاشها. لكن بيكو ظهر في أحد مناماته، قائلاً إنّه كان يُكفّر عن خطاياه في المطهر، وقد مُنح هذا الغفران بناءً على منحه الصدقات لدير سان ماركو، وبفضل الصلوات الحارة، التي تضرّع بها الرُّهبان الدومينكان، ممن غدوا يرونه واحداً منهم.

وقد عم الحزن إيطاليا جميعها لموت بيكو، مثلما حزنت على موت صديقه بوليتسيانو سابقاً. ومن الغريب، أن سافونارولا قد ارتأى، من

قبل، أن يُدفن مسجًى بأردية دومينكانيّة، على الرغم من أنه –وتبعاً لأحد الفلورنسيين المعاصرين– «جمع من الأعمال الشائنة والسمعة السيئة ما لم يجمع سواه»[21]. غير أنَّ ما لحق به من شنار عام لم يتأتَ من الإشاعات المفتراة التي أحاطت بالطريقة التي قضى بها فحسب، وإنما من قربه الشديد من بيرو ميديتشي.

على أي حال، ما كان لكل ذلك إلا أنْ يشهدَ خاتمة مثيرة. فقد أخرجت جثتا بوليتسيانو وبيكو، عام 2008، بغرض تحديد السبب الحقيقي لموتهما. وكما جاء في تقرير الديلي تيلغراف: «استخدم العلماء التكنولوجيا ثنائية الجزيء، وأجهزة المَسح الضوئي، إضافة إلى تحليل الحمض النووي، للكشف عن السبب... وقد خلصوا إلى أن كلا الرجلين قد جرى تسميمه بالزرنيخ، بعد أن وجدوا كميّة من السم في عظامهما. كما وجدت كميّات من الزئبق والرصاص....

وأعلن سيلفانو فينشنتي؛ رئيس اللجنة الثقافية الوطنيّة التي نظمت عمليّة إخراج الجثتين، أنَّ القتلة هم من الدائرة القريبة جداً من بيكو... وإذ جمعنا بين نتائج ما قمنا به من تحليل من الوثائق التاريخيّة التي ظهرت للوجود حديثاً، فيبدو أن بيرو [ميديتشي] كان، على الأرجح، هو من أوعز باغتيالهما»[22].

ولم تصل لوحة بوتيتشيلي؛ الافتراء على أبيلس، إلى بيرو مطلقاً، لكنَّه انتهى إلى الاعتقاد بصحة الافتراءات التي كان يهمس بها المغرضون في أذنه. وبات مقتنعاً، في آخر الأمر، أن صديقيه، في الظاهر؛ بوليتسيانو وبيكو، المتعاطفين، على نحو جلي، مع راهب سان ماركو، كانا يتآمران، في حقيقة الأمر، ضده، ومن المتوجب القضاء عليهما.

(14)
حكومة جديدة

ترك الجيش الفرنسي إقليم توسكانا وقد أحاله إلى أطلال وخرائب، فموانئه وقعت في أيدي الفرنسيين، وسيطرت القوات الفرنسية على طرقه. ومثلما صاغ ذلك غيتشارديني، فقد: «انتُزعت كل من بيزا، وليفورنو، وسارتزانا، وبياتراسانتو من فلورنسا؛ تلك المناطق التي تقوم عليها قوتنا، وأمننا، وسلطتنا، ومكانتنا»[1]. وقد اغتنمت المدن الأخرى في الإقليم؛ مثل أريتسو، ومونتي بولتشيانو في الجنوب، الفرصةَ للتحرُّر من الحكم الفلورنسي: «وعليه، فقد فقدت العديد من المناطق، وتبددت، بصفة خاصة سيادتنا، وأُضعفت مدينتنا كثيراً، وتقلصت قوتها وإيراداتها».

وقد دَثُرت أيام ميديتشي إلى غير رجعة، وكان على المدينة أن تستنشئ نفسها من جديد. وقد وصف غيتشارديني كيف كانت المدينة: «حين غادرها شارل الثامن، في حالة من الاضطراب المدني، وشرع المواطنون، إذَّاك، في إعادة تأليف الحكومة. وقد قُدِّمت خطة من جانب العديد من أكابر المواطنين، الذين تزعمَّهم بييرو كابوني... ولورينزو دي بييرفرانشيسكو [دي ميديتشي] وبرناردو روتشيلاي، وعندما توافقوا على هذه الخطة، قُرِعت الأجراس»[2].

وحين حلَّ الثاني من ديسمبر من عام 1494، أي بعد أربعة أيام من انسحاب

الفرنسيين، جلجل جرس الـ«فاكا» من على برج الجرس، وتقاطر الناس إلى ساحة السينيوريا لعقد البرلمان هناك، كي يستمعوا إلى الخطط التي وضعها «أكابر المواطنين»، ويصوّتوا عليها. وتمثلت المقترحات الرئيسة في إلغاء المجالس الفاسدة التي جاءت بها أسرة ميديتشي بغرض البقاء في السلطة، والسماح لجميع المواطنين الذي نُفوا، منذ تولي أسرة ميديتشي السلطة عام 1434، بالعودة، هم وعوائلهم ومن تحدَّر من نسلهم، إلى فلورنسا. وقد صاحت الحشود، بأغلبيّة ساحقة، مع كل مرّة يجري النطق بأحد المقترحات، معلنة تأييده. كما جرى الإجماع، أيضاً، على أنَّ «من المتوجَّب إجراء الانتخابات في أسرع وقت ممكن، أما في الوقت الحالي، فسيُعيَّن عشرون رجلاً من أنبل وأكفأ الرِّجال كي يضطلعوا بعمل السينيوريا، وغيرها من الوظائف، إلى أن يجري الترتيب للانتخابات»[3]. وسيعمل مجلس العشرين المكوّن من «أنبل المواطنين وأكفئهم» على إخراج دستور جديد من شأنه أن يستبدل مجالس ميديتشي الفاسدة القديمة. كما ستختار الانتخابات القادمة غونفالونيراً ومجلس سينيوريا جديدين. وكذا الأمر بالنسبة إلى أي مجلس أعدَّه المواطنون العشرون. وجرى التوافق، أيضاً، على أن تجري الانتخابات على نحو منفتح ومتحرِّر من الممارسات الفاسدة المعهودة، مثل التلاعب بأسماء من هم جديرون بالوظيفة، والعبث بحقائب الاقتراع الجلديَّة.

وقد بدأ الكثير من المبعدين، بحلول ذلك الوقت، يعودون من منافيهم. فقد أصدر مجلس السينيوريا عفواً عاماً بعد فرار بييرو ميديتشي مباشرة. وقد أحيا ذلك، بصورة لا مَردَّ لها، صراعات قديمة، ورغبة في الانتقام، ولاسيما ضدَّ تلك الفئة من المواطنين التي ناصرت، علانية، أسرة ميديتشي، وانتفعت من وجودهم في الحكم. وكما وصف غيتشارديني ذلك، قائلاً:

«لقد أصاب الفزع كل من شغل وظيفة رسميَّة إبان حكم لورينزو أو بييرو. وصَحَّ الأمر ذاته على من أضرَّ، هو أو أحدٌ من أسلافه، بأي من المنفيين أو أحد من أسلافه»[4].

وقد عَمِدَ لورينزو دي بيرفرانشيسكو دي ميديتشي، في إجراء احترازي، إلى تغيير اسمه من ميديتشي إلى «بابولاني» (وتعني الشعبي)، سعياً منه إلى فصل نفسه عن النظام القديم. وتجاوز هذا الإجراء الأهداف التجميليَّة، فقد احتشد الدهماء، منذ اليوم الأول الذي عمَّت فيه أخبار فرار بيرو ميديتشي، وعزموا على الانتقام، فذهبوا في سعي محموم وراء رجال بيرو وأتباعه، فجرى اقتحام منزل المسؤول المالي لدى بيرو؛ ميناتي، وفُتِّش بحثاً عن المال، ثم حُرق عن آخره، شأنه شأن العديد من منازل غيره من المناصرين. لكن ميناتي ورفقاءه المقرَّبين تدَّبروا أمرهم، وتمكنوا من الفرار، وقد حاولوا الاختفاء في المدينة بقدر ما يستطيعون. ويعلِّق غيتشارديني على ذلك بقوله: «على الرغم من أنهم اختبؤوا في الكنائس والأديرة، فإنهم أُخذوا إلى السجن في آخر الأمر»[5]. وكان ذلك من طلائع سعدهم، فلو أنهم اعتقلوا من جانب الدهماء، لا من جانب السلطات، لقُطِّعوا تقطيعاً. وقد عمَّ جوٌّ من الانتقام القاتل والسَّريع في أرجاء المدينة، واستسلمت السلطات، في سعي منها إلى التخفيف من غلواء هذه الحُمى، للشعور العام، وقد سجَّل لاندوتشي في يوميَّاته، يقول: «شُنق أنطونيو دي برناردو (ميناتي) صبيحة يوم الجمعة الموافق للثاني عشر من ديسمبر على نافذة (كاسا ديل كابيتانو)[1]؛ منزل مدير الأمن، وبقي جثمانه يطوح في

(1) مقر إقامة الـ Podesta؛ المحافظ أو رئيس الميليشيا المسؤول عن الشؤون الأمنية والحقوقيَّة في المدينة. وكانت هذه البناية، التي مثلت نسخة مصغَّرة عن قصر السينيوريا المجاور، معروفة على نحو أفضل باسم بارجيلّو Bargello.

الهواء حتى مساء الرابع والعشرين من الشهر عينه [8 مساءً]»[6]. غير أن الدهماء والغوغاء لم يكونوا بمزاج يَسهُلُ معه استرضاؤهم، فشرعوا في سورة من البحث المحموم عن مزيد من الإعدامات لأتباع بيرو، وخضع مجلس العشرين لسطوة الواقع.

وكتب غيتشارديني في يوميّاته، يقول: «لقد عزموا أمرهم على ضرورة أن يلقى كاتب عدل الحكومة؛ السير جيوفاني، المصير ذاته. وكان الأخير رجلاً قميئاً ومكروهاً على نطاق واسع. لكن سافونارولا جاء لإنقاذه، واعظاً الناس من على منبره أنَّ وقت العدالة قد انقضى، وحان الآن وقت الرحمة والرأفة»[7].

وكان سافونارولا حينئذ منخرطاً في سلسلة عظات عيد القدوم، التي كان يلقيها في الكاتدرائية على مسامع جمهور مهول تراوح «بين 13 إلى 14 ألفاً من البشر»[8]. وقد بدأ هؤلاء الناس يعملون وفقاً لكل كلمة تصدرُ عن الراهب سافونارولا. يشهدُ بذلك ما سجّله كاتب اليوميات لاندوتشي، ومفاده: «أنَّ سافونارولا وعظ الناس، وألزمهم بإيتاء الصدقات للفقراء البائسين (Poveri vergognosi)[1]. وقد جمعت الصدقات، فعلاً، في اليوم التّالي، الذي وافق يوم الأحد. وقد أجزل الناس في العطاء، فما كان من الممكن تعداد قيمة ما جمع من الصدقات، التي اشتملت على الذهب والفضّة، وأثواب الصوف والكتان، والحرائر، واللؤلؤ وغير ذلك كثير. وقد جاد الناس بالكثير حُباً وإحساناً».

وحين رأى سافونارولا رغبة مجلس العشرين في اتباع توصياته حين طلب الرحمة للسير جيوفاني، بدأ يستشعر المدى الحقيقي الذي بلغته سلطته.

(1) وتعني حرفيّاً الفقير المخزي، أي أولئك الذين يعيشون في حالة من العوز المُذل.

وكان مصير فلورنسا مرتهناً بالانتخابات الحرّة القادمة، وعقد سافونارولا العزم على أن تكون له كلمة بهذا الشأن، ففي الرابع من ديسمبر «أفرغ سافونارولا جهده من على المنبر، ساعياً إلى إقناع أهل فلورنسا باختيار شكل صالح من الحكومة... واطنب، بصورة ما، في حديثه حول شؤون الدولة.

وأن من المتعيّن علينا أن نحب الرّب ونخشاه، وأن نحب الحكومة الصالحة. كما لا ينبغي لأحد أن يتعالى على الناس ويضع نفسه فوقهم، فلقد قَدَّم سافونارولا عامة الناس، دائماً، وآثرهم على غيرهم».

وأوضح سافونارولا، في تلك الأثناء، أنه «لا يُريدُ أياً من النساء أن تحضر عظاته»، فقد كان يستهدف بكلماته الرجال ممن يمتلكون حق الاقتراع، وأراد أن يحضر أكبر عدد من هؤلاء. وإذا صَحَّ عدد الناس الذين قدَّر لاندوتشي حضورهم عظات سافونارولا، فهذا يعني أن الغالبية العظمى من الناخبين كانوا ممن يحضر عظاته.

وقَدْ طلب، في عظات عيد القدوم السابقة على عيد الميلاد، أن يُعلن المسيح ملكاً على فلورنسا. فأمرت الإدارة، في حينه، أن تُضرب عملة نقدية تنقش على أحد وجوهها السوسنة التي ترمز إلى فلورنسا، أما وجهها الآخر فتنقش عليه الكلمات (Jesus Christus Rex Noster)[9] [يسوع المسيح هو ملكنا]. وستغدو فلورنسا، مُذَّاك الحين، «مدينة الرب». غير أن همَّ سافونارولا الأول، حتى هذه اللحظة، تمثَّل في حكم الناس روحياً. ولم يترك مجالاً للشك أن ما تعلَّق بآرائه حول الحكم المدني، والشؤون السياسيَّة، متروك، في نهاية الأمر، للناخبين أنفسهم. وها هي الانتخابات الأكثر حريَّة في فلورنسا؛ الانتخابات التي يمكن لأي شخص أن يستذكرها، في

طريقها للانعقاد بمباركة ظاهرة من سافونارولا، الذي ذهب بعيداً ليعلن: «أنَّ الشكل الوحيد من الحكومة الذي يلائمنا هو حكومة مدنية جماعيَّة»، وإن كان قَدْ حذّر الناخبين من المصلين، قائلاً: «فلتنزل بكم البليَّة إذا انتخبتم طاغية يسحق الناس ويضطهدهم». وفي حين أُخذ العهد بإقامة الانتخابات فلم يجر العمل، حتى تلك اللحظة، على الشكل الذي ستتخذه هذه العمليّة، فالصعوبات المتعلقة بهذا الشأن أكثر من أن تُحْصى. وكما أشار فيلاري، فبعد ما خبره الناس من الحكومات الفاسدة خلال السنين الطوال: «ما عادوا يرون في أنفسهم جماعة ديمقراطيَّة، وأعوزتهم الثقة بأنفسهم، مما جعل من تأليف أي حكومة أمراً بالغ الصعوبة... إذ لا وجود لأي شكل من الأشكال الجمهوريَّة القديمة للحكومة من الممكن أن يكون صالحاً للواقع الرّاهن، وينضاف إلى عدم وجود الكفاءة اللازمة لمثل هذا الأمر، الافتقار إلى القادة الملهمين، الذين يقودون الناس عبر المهمة الصعبة، بيد أنها الأساسيَّة، في وضع دستور جديد»[10].

وسيكون الخيار الواضح، فيما يتعلق بالقيادة، هو بييرو كابّوني، غير أنَّ كثيراً من أهل الرّأي رأى أنَّ «كابّوني يفتقر إلى المناقب الضروريَّة والأناة التي تميِّز رجل الدولة، على الرغم من خلود اسمه، بفضل تحديه شارل الثامن وحاشيته الجبّارة، فعندما تحين لحظة البأس ويستلزم الأمر توشّح السيوف، فهو، لا ريب، رجل الساعة، لكن مقدرته على الجلوس بعباءته وقلنسوته مُشنِّفاً أذنيه للنقاشات التفصيليَّة المطوَّلة حول المسائل الدستوريَّة، فهذا أمرٌ يتجاوزه».

ولم تتوقف النقاشات حول الدستور الجديد في قصر السينيوريا. وقد استُدعي سافونارولا غير مرّة من أجل المشورة، وكان الأخير قد أوضح في

عظاته أنه يدعم تأسيس مجلس أكبر[11] يقوم بانتخاب الغونفالونيير ومجلس السينيوريا، كما ينتخب كبار الموظفين في الإدارة الحكوميّة. وتشتمل صلاحيته، أيضاً، على المصادقة على القوانين جميعها، والعمل على إصلاح النظام الضريبي. وستكون عضوية هذا المجلس الأكبر مفتوحة لجميع المواطنين المؤهلين لشغل المناصب المنتخبة في الإدارة الحكومية، وجرى التقليد أن يكون هؤلاء ممن تجاوز التاسعة والعشرين من عمره ودفع الضرائب، أو ممن سبق أن كان في عائلته، عضو من كبار الموظفين. وعلى الرغم من هذه القيود، فقد بلغ عدد أعضاء المجلس «خمس من تجاوز التاسعة والعشرين من عدد السّكان الذكور»[12]، أي 3200 فرداً. وكي يحتفظ المجلس بطبيعته الديمقراطيّة دون أن يفقد الصفة العمليّة بسبب ضخامته، فقد قُسّمت هذه المجموعة إلى ثلاث مجموعات، على أن تحكم كل واحدة مدة ستة أشهر. وسينتخب، في الوقت عينه، ستون رجلاً ممن لا يحق لهم التصويت كي يُلحقوا بالمجلس الأكبر كل ثلاث سنين، وذلك «لتشجيع الشباب وحث من هم أكبر منهم على الفضيلة»[13]. وعلى الرغم من أوجه القصور هذه، فإنّ تلك المؤسسة التي قادها سافوناررولا ستجعل من حكومة فلورنسا مكافئة للدولة المدينيّة المستقلّة في اليونان القديمة، بل يمكن القول كذلك إنها المدينة الأوروبية الكبرى والأولى من نوعها منذ 1800 سنة.

وتبدّى المجلس الأكبر صورة مُحسنّة عن نظرائه من المجالس الكلاسيكية كما تجلّت، مثلاً، في أثينا القديمة، ذلك أنّ هذا المجلس سيثبت فاعليّة أكبر في عمله. وعلى الرغم من أن مثل هذه الحكومة كانت بعيدة عن المفهوم الديمقراطي بصيغته الحديثة، فإنها «زادت من عدد المواطنين الذين يمكنهم المشاركة في صنع القوانين، والمشاركة في انتخاب الموظفين الرّسميين. فنظر

إليها، لاحقاً، بوصفها حكومة شعبيّة»[14].

وقد ظلّت السياسة، كدأبها دائماً، مادّة متفجّرة، إذ سجّل لاندوتشي كيف أن سافونارولا مضى، خلال عظات عيد القدوم، «يتحدّث عن شؤون الحكم والدولة، إذ كانت ثمة خشية كبيرة من عدم توافق المواطنين (فقد كان أحدهم يرغب في سلق اللحم والآخر في شيّه)، [أي أن كل واحد من الناس امتلك رأياً مختلفاً]، فكان ثمة من يتفق مع الراهب [سافونارولا]، ومن يختلف معه، ولولا الأخير لسفكت الدماء»[15].

ومع ذلك فقد بقي الوضع محتقناً ومشحوناً. ففي 21 ديسمبر، أي في يوم الأحد عينه الذي دوّن فيه لاندوتشي المادة السابقة، سجّل، مناقضاً نفسه، كيف أنه حين كان عائداً إلى البيت في العاشرة من ذلك اليوم، «طُعن ابنه في وجهه على طول خده»، دون سبب واضح.

وقد أُجريت الانتخابات في حينها، في اليوم التالي الموافق 22 من ديسمبر، وعُين أعضاء المجلس الكبير الجديد. غير أنّ مشكلة غير متوقعة برزت إلى العلن، ولم يكن الدستور قد عالجها. فقبل أن يشرع المجلس الأكبر فيما سيكون، بلا ريب، عمليّة من الجدال الطويل حول اختيار مجلس سينيوريا جديد، ادّعى مجلس العشرين المؤقت أنه مازال يمتلك الحق، بما هو الحاكم الفعلي حينها، في تعيين مجلس سينيوريا جديد، في الحال، كي يكون بمقدور المدينة العودة إلى ما يشبه الحكومة الملائمة.

وقد اشتمل مجلس العشرين على العديد من الشخصيات البارزة ممن جاهروا بمعارضتهم حكم بييرو ميديتشي، من أمثال بييرو كابّوني، وبرناردو روتشيلاي، وفرانشيسكو فالوري، وغويدانتونيو فيسبوتشي. وجرى العرف ألا يُعيَّن في هذا المجلس رجل دون الأربعين، غير أنّ الشّابّ ذا

الواحد والثلاثين عاماً استثني من هذه القاعدة لدوره البارز في معارضته ابن عمّه، ولأجل ما أظهره من مهارات متفرّدة وبصيرة في بناء إمبراطوريته التجاريّة. ومضى مجلس العشرين قدماً، وانتخبوا مجلس سينيوريا جديداً. وقد سجّل لاندوتشي، في الأول من شهر يناير عام 1495، والغبطة تملؤه قائلاً:

«دخل مجلس السينيوريا مكتب العمل، وعمّت البهجة لدى رؤية ساحة قصر السينيوريا تمتلئ عن آخرها، على نحو مختلف عن سالف الأيّام، شاكرين الرب على فضله بأن منح هذه الحكومة النزيهة لفلورنسا وخلّصنا من التبعيّة والعبوديّة. وقد تحقّق كل ذلك بما اضطلع به (الراهب) من سعي مشكور»[16].

وعلى الرغم من أن مجلس العشرين ضم العديد من الشخصيّات التي اتحدت في معارضتها الصريحة حكم بييرو ميديتشي، فضلاً عن كونهم أنصاراً مُتحمّسين للشكل الديمقراطي الجديد في الحكم، فقد عصفت بهذا المجلس النزاعات الحزبيّة. وهكذا، فلمّا كان بييرو كابّوني مدركاً أنه غير مرغوب فيه كقائد، ناور كي يمنع وصول خصمه الرئيس؛ باولانتونيو سوديريني، من أن ينتخب فيكون عضواً في مجلس العشرين. كما بدأ المجلس الأكبر في التفرّق إلى مجموعات سعت وراء مصالحها الخاصّة، واعتمدت اتجاهات تصويتيّة ما لبثت أن عكست أغراضها الاقتصاديّة والاجتماعيّة المختلفة.

ومهما يكن من أمر، فلم يكن هذا البرلمان الجنيني ذا شأن إذا قورن بما اجتمع لسافونارولا، وقتها، من قوّة. فقد اجتذبت عظاته أتباعاً مخلصين من كل الحيثيات والطبقات الاجتماعيّة، بدءاً من بوتيتشيلي وفيتشينو، وانتهاء

بالناس المغمورين من أمثال الـ «تشيومبي» (عمال الصوف) والمعدمين، فقد امتدَّ تأثيره ليتجاوز الطبقة المقترعة إلى الغالبية ممن لا يملكون حق الاقتراع، وهؤلاء الأخيرون، في معظمهم، يتشبثون بكل كلمة تصدر عن سافونارولا.

وسيصف سافونارولا، بعد سنة أو نحوها، الديمقراطيّة الجديدة بأنها «الحكومة التي أنشأْتُها»[17]، جامعاً ما لديه من حظوة لدى الحكومة، بالنفوذ والتأثير العميق على الغالبيّة ممن ليس لهم كلمة أو وجود في الحكومة، فلم يكن المجلس الأكبر منصته العامّة وإنما منبر الوعظ، حيث لا يمكن لأي كان أن يحاججه أو يصوِّت ضده. ولقد توافق معظم الناس، فيما خصَّ النظام الجديد، أن سافونارولا، على أقل تقدير، لعب دوراً كبيراً في إرسائه. لكن الريبة ما لبثت أن داخلت بعض الناس حول المدى الذي بلغته سلطته في الحكومة، كما عند الناس عامّة، وإزاء الكيفيّة التي يمكن أن يمارس بها هذه السلطة. وقد حذَّر سافونارولا، من قبل، «أن حكومة يتربع عليها شخص واحد لا بُدَّ أن تنتهي إلى حالة من الطغيان، حتى في إيطاليا، وبصورة أخص في فلورنسا، حيث تتوافر القوة والذَّكاء، وحيث يمتلك الرجال عقولاً فطنة وطبائع لا تهدأ»[18]. غير أن سافونارولا زعم، أيضاً، أنَّ الربَّ يتكلم من خلاله، وأن صوت الرب الذي ألمح إليه غير مرّة كان صوت العهد القديم، الذي أطلق «سوط الرب»؛ ذلك الصوت الذي أراد أن يُدمِّر كل من لم يدخل فلكه، والصوت لا يطيق جدالاً أو اعتراضاً. وقد كان ثمة قلق متصاعد إزاء هذا الوضع، وكما صاغ ذلك لاندوتشي، فإن كثيراً من الناس بدؤوا يُعبِّرون، بعد استماعهم لعظات سافونارولا، عن خوفهم الخرافي، قائلين فيما بينهم: «سيجلب لنا هذا الراهب المتعوس النحس وسوء الطالع»[19].

واقتاد شارل الثامن جيشه، بعد مغادرته فلورنسا، جنوباً باتجاه روما. ولم يعترض أحد مسيرته، وحين بلغ المدينة الخالدة «روما»، فإن ألكسندر السادس فرَّ من الفاتيكان، متخذاً من القلعة البابويَّة القديمة المسمَّاة: سانت أنجلو، ملتجأً. وقد انضمَّ إلى شارل الثامن، في هذه المرحلة، العدو اللدود لألكسندر السادس، وهو الكاردينال ديلا روفير. وكان الجميع قد لاحظ كيف غدا الفسوق، والجشع، وجنون العظمة أكثر وضوحاً لدى ألكسندر السادس منذ صعوده إلى العرش البابوي. ولما كان غير مكترث، البتة، للرأي العام الديني والعلماني (بل إنه لا يحتفظ بمشاعر الإجلال لمن سبقه من البابوات) فإنه أتى بأولاده، جهاراً، إلى الفاتيكان. وكان من هؤلاء ولداه ذَوَا السمعة السيئة؛ سيزار بورجيا وأخته لوكريتسيا، اللذان سيتجاوز ما اشتهرا به من عمل شائن عمل أبيهما. ولم يدَّخر الكاردينال روفير جهداً لإقناع شارل الثامن بخلع ألكسندر السادس، أو إخضاعه، على أقل تقدير، لمجلس يهدف إلى إصلاح البابويَّة؛ ذلك المجلس الذي سيفضي إلى النتيجة ذاتها، لكنه سينطوي على إذلال وإخزاء وسيستغرق مدة أطول.

وقد صفَّ شارل الثامن سلاح المدفعية خارج قلعة سان أنجلو، وأمر البابا بالخروج والالتقاء به، ولكن دون جدوى. غير أن قذيفة واحدة من مدفع فرنسي جبار جعلت قسماً كبيراً من أسوار القلعة القروسطيَّة القديمة يتداعى ويستحيل إلى كومة من الأنقاض، مما دفع بالبابا إلى الموافقة على لقائه. ولم يضع الكاردينال روفير في اعتباره التبجيل الخرافي الذي أولاه شارل الساذج، للبابا، ولا مكر الأخير. إذ حين برز البابا بكل بهائه، جثا شارل الثامن على ركبتيه، وحاول تقبيل قدمي البابا، لكن الأخير رفع شارل الثامن، بلطف أبوي، وباركه. وهكذا، فقد غاب أي احتمال بخلع البابا

أو إخضاعه لمجلس تحقيق. ومع ذلك، فقد حرص مفوّضو شارل الثامن أن يكون ألكسندر السادس قد أدرك الهزيمة الكاملة التي ألحقها الفرنسيون به، فقد احتلّ الجيش الفرنسي روما، وكان الفاتيكان مطالباً بأن يقدّم لحملة شارل المحتاج إلى الدعم الأموال كي تنطلق في مهمتها الأخيرة إلى نابولي.

وهكذا، فلمّا رحل الجيش الفرنسي عن روما، رافقته «هديّة» من ألكسندر السادس قوامها ما لا يقلّ عن تسعة عشر بغلاً مُحمَّلة بالصناديق التي توفرت على المجوهرات، والأطباق الذهبيّة، والبُسط المطرّزة (لم يتكلّف ألكسندر السادس سوى ستة بغال محمّلة، تماماً مثل ما حُملت به البغال التي وهبت لشارل الثامن، لشراء البابوية)، وقد ألحّ الفرنسيون أن يرافق قافلة البغال هذه ابن البابا نفسه، المدعو تشيزاري بورغيا، الذي سيرافق حملتهم إظهاراً لحسن النيّة (ورهينة أيضاً)، غير أن الفرنسيين لم يحوزوا ما حازته أسرة بورغيا من مكر وغدر، فقد تمكن تشيزاري، في غضون يومين، أن يراوغ آسريه، ويفر، مصطحباً معه ما لا يقل عن نصف قافلة البغال. أما الصناديق التي حملتها بقية البغال، فقد كانت فارغة.

وقد استشاط شارل الثامن غضباً، ومع ذلك فقد أُقنع بأن يمضي في طريقه إلى نابولي. وما إن سمع الملك ألفونشو الثاني بقدوم الجيش الفرنسي حتى تنازل عن العرش، والتجأ إلى الدير. وفرّ الملك الجديد؛ ابنه فيرانتي الثاني، إذّاك من نابولي، فاتحاً المجال للجيش الفرنسي أن يدخلها دخولاً مظفّراً ويسيراً. وقد أطلق شارل الثامن، خلال الشهور القليلة التالية، العنان لشهيته الجنسيّة الجبّارة، متمتّعاً بسيدات الطبقات البورجوازيّة وبناتهن العذراوات، في حين أشبع جنوده نهمهم الجنسي بممارسة الجنس مع نساء المدينة غير المستقيمات، وذلك دون أن يدرك هؤلاء الجنود أن مرض الزهري

قد انتقل إلى نابولي عن طريق إسبانيا، التي جاءت به من العالم الجديد. وقد أُقنع الملك شارل، في آخر الأمر، أن يتخلى عن خطته الطموحة في تحرير القسطنطينيّة من الأتراك، والاستيلاء عليها، من ثمّ على القدس، فقفل عائداً إلى فرنسا. ومهما يكن من أمر، فقد كان ألكسندر السادس عازماً على الانتقام والانتصار لكرامته. وشرع في إقناع القوى الإيطالية الأخرى بأن الإهانة التي ألحقها الفرنسيون بزعيم الأمة المسيحيّة؛ ممثل بطرس الرسول على الأرض، يجب ألا تمرّ دون عقاب، حتى إنه استطاع إقناع لودفيكو سفورزا، الذي ندم على دعوته شارلَ الثامن لغزو إيطاليا، بالانضمام إلى حلف قوامه القوات البابويّة والجيش البندقي القوي. وهكذا، جرى في مارس من عام 1495 التعاقد على تحالف مقدس ضد فرنسا. ورفضت فلورنسا، وحدها، الانضمام إلى هذا التحالف، فقد أصرّ سافونارولا على أنه ليس بمقدور المدينة معارضة شارل الثامن، بوصفه أداة إرادة الرّب.

وقد اقتاد شارل الثامن جيشه الضخم، في مايو من عام 1495، خارج نابولي، متيحاً لأهل نابولي المُحرَّرين، حينها، الترحيب بفيرانتي الثاني. وبدأ الجنود الفرنسيون، وقتها، رحلة السبعمئة ميل إلى الشمال، يتقاطر خلفهم المتطفلون، وما جمعوه من آثار مُقدَّسة، وسيف شارل الثامن النفيس الذي يعود إلى شارلمان، ناشرين مرض الزهري في كل مكان دخلوه من إيطاليا. ولدى تقدّمهم من جديد، فرّ ألكسندر السادس من روما. وقد أُرسل كومين، في تلك الأثناء، في مهمة دبلوماسيّة فرنسيّة إلى فلورنسا، ليرى إن كانت ستراجع عن كلمتها ووعدها، وتنضم إلى التحالف المقدس. وذهب الأخير، رأساً، لمقابلة سافوناورلا، ذلك أنه كان، دوماً، مناصراً قوياً، في عظاته، لشارل الثامن. ولم ترتدّ فلورنسا ضد الملك بأثر من موقف

سافونارولا، لأن المدينة لم تعرف واعظاً حاز من السطوة والتأثير ما حازه سافونارولا.

وقد استأثر سافونارولا بإعجاب الرجل العلماني؛ كومين، من جديد، وبدأ الأخير يسأله عن نبوءاته، نقرأ:

«لقد بشَّر بضرورة إصلاح الواقع القائم، الذي ترزح تحته الكنيسة بقوة. غير أن ذلك لم يحدث بعد، وإن كان على وشك الحدوث [حين دخل شارل روما]، لكنه مازال يلحُّ على أنَّه سيحدث لا محالة... وسألته، أيضاً، إن كان الملك سيقدر على الرجوع [إلى فرنسا] دون أنْ يُعرض نفسه للمخاطر في وجود الجيش العرمرم الذي حشده البندقيون؛ ذلك الجيش الذي عرف عنه سافونارولا أكثر مما عرفت... فأجاب أنه من المتوجب على الملك أن يعود سيرته الأولى ليقاتل، وستوصله شجاعته إلى مبتغاه، على الرغم من احتمال ألا يكون معه سوى 100 رجل، فالرب الذي أتى به إلى هنا سوف يعود به كرَّة ثانية»[20].

وفي الواقع، انطوى تنبؤ سافونارولا على أكثر من عنصر حقيقي، فقد التحم الجيش الفرنسي، إثر ذلك بشهر، أي في السادس من يوليو، مع القوات المشتركة للتحالف المقدس في منطقة فورنوفو على ضفتي أحد روافد نهر بو، التي تبعد سبعة أميال شرقي جنوب ميلان. وقد فاقت القوات المشتركة قوات الجيش الفرنسي عدداً، حتى إن بعضهم قدَّر النسبة بثلاثة مقابل واحد، على الرغم من أن الجيش الفرنسي كان مدعوماً بمدفعيته الجبَّارة. وجرت المعركة في أجواء من الفوضى وسط عاصفة رعدية، وهي وإن انتهت، من زاوية تقنية، بنصر الفرنسيين، فإنها تسببت بفقد عدد كبير

من الأرواح في كلا المعسكرين. وفي حين كان شارل الثامن قادراً على العودة إلى فلورنسا بعدد أكبر بكثير من المئة رجل، فإنه خسر الكثير مما غنمه جيشه، وما تحصَّل عليه من آثار مقدَّسة، فضلاً عن سيف شارلمان العزيز على قلبه.

وقد تملَّك ألكسندر السادس الغضب بسبب من نجاة شارل الثامن، وألقى باللائمة على فلورنسا فيما يتعلَّق بهزيمة جيش التحالف المُقدَّس، ولاسيما ما مارسه سافوناورولا من تأثير ضار. وقد حثَّ كبار رجال الدين ألكسندر السادس على استخدام ما له من امتياز، واتخاذ تدابير مباشرة ضد سافوناورولا. وكان أكثر المتحمسين لذلك الراهب ماريانو دا جيناتسانو، الذي كان، مرّة، خطيب فلورنسا الأثير، قبل أن يُنْزِلَ به سافوناورولا إذلالاً شديداً، إلى درجة دفعته إلى مغادرة فلورنسا. وكان ماريانو هذا قد أصبح، حينئذ، يتربع على قمة الرَّهبنة الأوغسطينيَّة، وله دالة على ألكسندر السادس.

وعلى الرَّغم من أن سافوناورولا قد أمضى، وقتها، سنوات وهو يعظ ضد الكنيسة، متوسِّلاً أقوى العبارات وأقساها، فإنه لم يقم بأي إحالة مباشرة إلى ألكسندر السادس. ولهذا فقد عمد الأخير، في ضوء ذلك، إلى المخاتلة والخداع عوضاً عن استخدام أي سلطة بابويَّة صارمة ضدَّ سافوناورولا. وقد كتب البابا، في 25 من يوليو، رسالة بابويَّة خاطب فيها سافوناورولا، وقَدْ وصفها ريدولفي بدقّة، قائلاً: «إنها الوثيقة الأكثر فرادة، ويمكن مقارنتها، رمزياً، بالحلويات السامَّة التي دأبت عائلة بورجيا على استخدامها للنيل من خصومها»[21]. فقد صبغت الرسالة بأكثر عبارات الديبلوماسيَّة لطفاً ووداً، موضِّحاً:

«لقد تسامعنا بإعلانك أن ما صدر عنك من تنبؤ بقادم الأحداث لم ينشأ عنك أنت وإنما أتى من الرب، لذا فإن الرغبة تحدونا، بحكم دورنا الرّعوي، إلى أن نتجاذب معك أطراف الحديث، لعلنا نتحصَّلُ منك على فهم أكبر لما هو مقبول لدى الرّب، فنضعه موضع التطبيق. وعليه، فإنا نستحثُّك، باسم الطاعة المقدَّسة، أن تأتي إلى روما دون إبطاء، حيث سنستقبلك بكل حب ولطف»[22].

إذا كان سافو نارولا مثالياً، فإنه ليس ساذجاً، فهو يدري، جيداً، ما الذي سيحدث له إن قبل دعوة ألكسندر السادس، فمصيره المحاكمة أو السجن، بل الاغتيال، على الأرجح، وهو في طريقه إلى روما. لذا كتب، في31 من يوليو، إلى ألكسندر السادس يعتذر إليه عن عدم قدرته على قبول دعوته، وذلك:

«أولاً: لأنَّ بدني قد أنهكه المرض، فأنا محموم وأعاني من الزُّحار. ثانياً: إن ما بذلته من جهد متواصل بغرض جلب الخير للدولة جعلني أعاني من التوتر المتواصل في بدني وعقلي... لقد قضت مشيئة الرب أن أبقى هنا في الوقت الحاضر، ولقد استحثني ناصح لبيب ألا أغادر... ومع ذلك، فإذا كان قداستكم يرغب في التعرُّف على ما بَشَّرت به، على رؤوس الأشهاد، فيما يتعلّق بمخبّآت الأيام؛ نحو خراب إيطاليا وتجدد الكنيسة، فإني بصدد طبع كُتيِّب حول هذه المسائل[1]. وسأكون شديد الحرص، في اللحظة التي يُنجز فيها هذا العمل، أن أدفع، لقداستكم، بنسخة منه»[23].

ويبدو هذا، على السطح، مزيجاً من الصفاقة والتحدي (فضلاً عمّا فيه

---

(1) كتاب «جامع الكشوفات».

من تبجح ظاهر) ولا ريب أنه استُقبل على النحو ذاته من طرف السلطات الكنسيّة في روما. وكما رأينا، فإن سافونارولا كان، في واقع الأمر، متمسكاً بالحقيقة. فلم يكن مرضه عُذراً مصطنعاً، ذلك أنّ ما بذله من جهد متواصل في الحكومة، كما في عظاته الكنسيّة، فضلاً عما ألزم نفسه به من نظام في الصيام والقيام، أوصله، فيما يبدو، إلى شفير الانهيار الجسدي والعقلي. وقد بلغ منه هذا الوهن مبلغاً اعتقد معه سافونارولا نفسُه أنه لن يبرأ منه. وقد ألقى سافونارولا، في يوم الأربعاء الموافق 29 من يوليو، أي قبل يومين فقط من ردّه على البابا، «آخر عظاته»[24] في الكاتدرائيّة. وكان أعضاء مجلس السينيوريا، حاضرين وسط المصلين الذين ازدحمت بهم الكاتدرائيّة، وكذلك الشخصيات البارزة في الإدارة الحكوميّة.

وتستأهل تفاصيل هذه العظة بعض الاهتمام، ذلك أنّ سافونارولا رأى فيها، إذاك، وصيته الأخيرة ربما. فعلى الرغم من أنه استفتح بالحديث عن أن عظته في ذلك اليوم «تستلهم الحب»، فإنّه ما لبث أن عرّج في الحديث عن ثيمته الدائمة، متوعِّداً، بطريقته الانفعاليّة، الآثمين، الذين رآهم من حوله في كل مكان من فلورنسا، وهم أهل الميسر، والخليعات من النساء، والمجدّفون، واللوطيون، وغيرهم ممن يقارفون الآثام، التي يعف الذكر عنها لعظمتها وخِسّتها. فلقد أدخل حضورهم المدينة في الرِّجس والدَّنس، ولم يردعهم حضوره عن المضي في المعاصي والرذائل، فأي مآل سيئ ستؤول إليه الأمور حين يكون غير قادر على الوعظ؟ لا بُدَّ من تقديم أمثولة تكون عبرة للآخرين. فمن يقارف ذنباً من هذه الذنوب والآثام، فلن يكون مصيره أقل من عقوبة الأعدام: «إنني أنذركم، أن الرب الجبّار يأمر بالعدل... فكفوا عن الرقص، والميسر، وأغلقوا الحانات. فهذا أوان البكاء والابتهاج

والفرح... فقد صبَّ الرب غضبه على بني إسرائيل كلهم عقاباً على ما اقترفه رجلٌ واحد من الموبقات، ولن نستجلب رضا الرب إلا إذا أنزلنا عقوبة الإعدام بهذا المذنب».

وإذ حوَّل انتباهه إلى مجلس السينيوريا، وحكام المدينة، فقد أصرَّ على أن يباشروا، حالاً، بإعداد الخطط لبناء قاعة تخصَّص للمجلس الأكبر، وأن من الضروري سنُّ قانون يبطل ما دُعي برلماناً، فقد استخدم من طرف الحكام السابقين المجرَّدين من المبادئ، لإدخال التدابير التي تصون حكمهم[1].

وحين أوشك سافونارولا على الانتهاء من عظته، اختتمها بجملة وداعيَّة لشعبه قائلاً: «يا شعبي، حين أقف قبالتكم على هذا المنبر فإني دائماً أكون قوياً. وحين أنزل عنه وأهبط هذه الدرجات، فإني أعتقد أن أوجاع الجسد ستعاودني، وسيمضي بعض الوقت قبل أن أراكم مُجدَّداً. وسأعظكم، عندها، من جديد إذا كتب لي البقاء». وذكر أن غيابه ربما كان «لبضعة أشهر» فقط. لكنه استدرك معلناً بقوَّة: «أنا راغب في نيل الشهادة، وأدعو الرب من أجل هذا كل يوم».

ورأى بعضهم في ذلك شعوراً سبقياً بتصرُّم أجله. لكنه انبرى، حينها، لتحدي جبروت الكنيسة بأكمله، متمثلاً في ألكسندر السادس المخدوع

(1) كان سافونارولا، خلافاً لما يظهر، دقيقاً من الزاوية التاريخيَّة في هذا الموضع. فربما كان الفلورنسيون فخورين ببرلمانهم، لكن الأخير كان عرضة للتلاعب والاستغلال، فقد كان الناخبون من المواطنين غير مسلحين، وكانت مداخل قصر السينيوريا محروسة برجال مسلحين بدعوى حفظ النظام. وكان هؤلاء الأخيرون قد استُخدموا في بعض المناسبات لصرف الناخبين المعروفين بمعارضتهم لأسرة ميديتشي، في حين جرى ترهيب من سُمح له بالدخول كي يصوت لصالح إنشاء مجالس جديدة قامت مهمتها الرئيسة على الإبقاء على سلطة ميديتشي. وقد وضع سافونارولا إيمانه أو معتقده السياسي في المجلس الأكبر الأقل تطويعاً.

والتوّاق للانتقام، وربما استشعر سافوناورلا أنه يغامر خارج خندقه.

ولم يكن الأخير بالرجل الذي يُروَّع بسهولة، غير أن المواجهة المباشرة مع البابا -حتى وإن اتخذت شكل رسالة بابويّة -جعلته، دون شك، واعياً بفداحة المهمّة التي اضطلع بها منذ كان شاباً مثالياً. وأشار مُعلّقون آخرون إلى افتقار هذه العظة للتواضع والمطامح العالية، وهو وإن رغب في حكم الشعب، والتحرر من الطغيان، فإنه كان يدافع عن طغيانه الخاص، إذ بَشَّر بالتحرر من الشر، غير أن ما سمَّاه «تحرراً» وما سمّاه «شراً» انطويا على دلالتين؛ التحرر من «طغيان» الشر السياسي، والتحرر من رذيلة الشر الروحي. فينبغي أن يكون الناس أحراراً في حكم أنفسهم. لكن من الواجب، أيضاً، أن يتحرروا من حكم الرذائل. وكلا الأمرين يتطلبان الإكراه؛ الأول يقوم به الناس أصالةً عن أنفسهم، أما الثاني فإنه يمارس على الناس. ونحن نلفي أنفسنا مواجهين، هنا، بإقامة تمييز عميق بين الحياة العامّة وتلك الخاصّة، بيد أن سافوناورلا لم ير، متفكّراً في حياته الخاصّة، فرقاً بين الاثنتين، إذ ينبغي أن تعكس إحداهما الأُخرى. وليس ثمة من لا يرى تداخلاً بين الحقلين المدني والروحي (أو الشخصي)، لكن سافوناورلا اختار أن يراهما مترادفين إن لم نقل متطابقين. فمثلما لا مجال للرذيلة الشخصيّة، فإن معارضة حكم الشعب لنفسه لا مجال لها أيضاً. ونقع هنا على عهد أو وصيّة سيتردد صداها عبر القرون التالية وصولاً إلى تاريخنا الحاضر، متجسّدة في أصوليّة ترى نفسها متحرّرة من كل شيء لا يتوافق مع مبادئها، وترى ضرورة تطهير المجتمع من هذه العناصر الفاسدة. وقد تنشأ هذه الأصوليّة التبشيريّة في الدير بداية، ولكن لا بُدّ أن ترود، بحكم طبيعتها، العالم الخارجي وتمتدّ إليه. ويقع التعايش مع أي معارضة، إذّاك، على النّقيض

من طبيعتها وجوهر وجودها.

وإذ أصدر وصيته بنفسه، فقد آوى إلى صومعته في سان ماركو كي ينهي ردَّه على ألكسندر السادس، ويقوم بالتصويبات النهائيَّة لكتابه «كُرّاس الكشوفات». وينهض هذا العمل الموجز ذو المئة صفحة تقريباً، الذي ظهر في اللاتينيَّة وترجمات إيطاليَّة، وثيقة مفتاحيَّة في فهمنا لسافونارولا في تلك الفترة من حياته. فقد بدأ سافونارولا كتابه هذا، وهو أمرٌ يكتسب دلالة خاصَّة، بمفتتح تبريري، حين أراد أن يدوِّن بكلماته الخاصَّة رؤاه ونبوءاته المعروفة على نطاق واسع. فقد طالها التشويه والمبالغة حين تناقلتها الألسن، وهو يريد، الآن، أن تصل الناس على حقيقتها، فيرونها تبعاً لما كانت عليه، واستناداً إلى الكلمات التي استخدمت لوصفها. وإذ لم يدَّعِ، فيما مضى، النبوَّة في كل الأحوال، فإنه ارتدى حينها عباءة النُبوة، بكل ما في الكلمة من معنى، زاعماً أنَّ: «الرَّب جعلني في هذا المكان، وقال لي: جعلتك رقيباً في قلب إيطاليا... لعلَّك تسمع كلماتي وتبلِّغها»[25]. وقد زعم أنه كان قادراً على الإخبار عن رؤاه الآتية من لدن الرب لأنها: «مشربة بضوء غيبي متعال على الطبيعة». وقد تحدَّث بعض المرضى النفسيين ممن يعانون من الهلوسات عن «ضوء أثيري» يرافق رؤاهم، مما يؤكد، مُجدَّداً، زعم سافونارولا أنَّه «رأى» يقيناً، ما وصفه بـ «الرؤى الرمزيَّة»، و«سَمِعَ» الأصوات النبوئيَّة التي زعم أنَّها «صادرة عن الملائكة»[1].

وقد وصف سافونارولا بوضوح كيف تطورت موهبته الخارقة للطبيعة،

(1) يخبر العديد ممن يعانون من الشقيقة عن التماعات لألاءة ومتذبذبة في أثناء ما يمرون به من حالات هلوسيَّة. ومن الممكن أن تكون مضامينها مقنعة تماماً لمن يختبر هذه الحالة. وقد اشتملت كل من وصوفات القديسة هايلديغراد بينجن لرؤاها الدينيَّة، واللوحات الرؤيويَّة لوليام بليك وفان كوخ على هذه السمات المائزة.

فقال:

«في البداية، كنت أتنبأ بمستقبل الأيام من خلال ذكر ما كان مكتوباً في الكتاب المقدس، متوسّلاً في ذلك العقل والأمثال، لأن الناس لم يكونوا مستعدين بعد لسماعي والإنصات إلي، ثمّ بدأت بكشف ما كنت أعرفه عن المستقبل من مصدر آخر غير الكتاب المقدس، إلى أن اعترفت، صراحة، أن ما كنت أقوله كان يتنزل علي مباشرة من الرّب».

وليس من العسير تقصي زيادة الايمان المستجلب بالمجاهدة الذاتية في حالة سافونارولا، بدءاً من القراءات المكثّفة الموقِنة للأحداث الكتابيّة (المتعلقة بالكتاب المقدس)، ومروراً بأقصى حالات التوهم الذاتي. وعاون على ذلك إفراطه في الصوم، وقيام الليل، واتباع نظام من أقسى أنظمة نكران الذات، إذ إن التزامه صومعته متوحّداً، في عالم روحي وذهني مفعم بالعهد القديم وسفر الرؤيا؛ ممثّلاً بقصص الأنبياء، وسخط الرب، الذي تنزّل على القبيلة التائهة من بني إسرائيل، ورؤيا يوم الحساب التي ترافق آخر الزمان، نزع الغرابة عن أن يبدأ برؤية نفسه كما لو أنه يقيم في عالم ما قبل المسيحيّة هذا[1].

وإن المبشّر المتلعثم معقود اللسان الذي ألقى أولى عظاته الباهتة في فلورنسا، قد انطلق لسانه، أخيراً، في عظاته الإلهاميّة التي ألقاها في موسم الصوم الكبير في كنيسة سان جمينيانو، معزّياً نفسه بأن الرب لم يخذله، وأنه قرأ بنهم حول هذا العالم الرؤيوي القيامي، وقد خطا، الآن، أولى خطواته

(1) لا يعود سفر رؤيا يوحنا، يقيناً، إلى الفترة المسيحيّة، غير أن نبرته وكثيراً من تصويراته تعود، في واقع الأمر، إلى أنبياء الفترة اليهوديّة.

داخله. ومع ذلك، فقد تناول سافونارولا، في كتابه: «جامع الكشوفات» السؤال الذي من المؤكد أنه سأله لنفسه بوصفه مؤمناً ورعاً، ومؤدّاه: هل يمكن أن تكون تلك الرؤى من عمل الشيطان؟ وانتهى إلى نتيجة، منطلقاً من معرفته الإمبريقيّة، أنها لا يمكن أن تكون من عمل الشيطان. فقد تحققت نبوءاته ولم تُغرر به مرّة واحدة، غير أن مثل هذه الرؤى الرمزيّة تخضع، على نحو صارخ، لكل صور التأويل، وقد استرجع سافونارولا الرؤى التي رآها بشأن سيف الرب الذي رآه مشرعاً ومتأهباً لضرب العالم الفاسد، فضلاً عن رؤيا الصليب الأسود الذي يخرج من روما. وكانت هذه الرؤى قد تحققت (على الأقل مجازياً) أو أنها كانت على وشك التحقق، فلقد رأينا، من قبل، كيف أن نبوءة سافونارولا المتعلقة بـ «سوط الرب» الذي سيأتي «عبر الجبال»، كان يمكن أن تنطبق على الأتراك مثل انطباقها على الفرنسيين، حتى إن «سيوارد» يذكر كيف أن سافونارولا في «جامع الكشوفات» قام باعتراف من وحي كشوفاته:

«فقد استذكر، وهو يصف سفارته لشارل الثامن، كيف بيّن أن الرب عيّن الملك (وزير عدل) لديه. كما أخبر شارل بمعرفته، منذ زمن بعيد، أن الفرنسيين [كذا] قادمون. لكن الرب لم يأذن له بالتلفظ باسم الملك».

حين أعلن سافونارولا نبوءته الأصلية (1492)، كان شارل الثامن قد بلغ، للتو، سن الرشد، وبسط نفوذه على العرش الفرنسي. ولم يدر، حينها، عن أحلام الملك الشاب بالفتح العظيم سوى نفر قليل؛ ذلك الحلم الذي لم يتحقق على أرض الواقع إلا بعد سنتين، فضلاً عن أن فلورنسا بقيت حليفاً وثيقاً لفرنسا، فما كان من شيء يجعلها تخشى الغزو الفرنسي.

وكانت نبوءة سافونارولا، إلى ذلك الحين، مبهمة وعامّة (فلم يتنبأ إلا بأنّ

«قورش جديداً» سيأتي «عبر الجبال»)، ولم يحدث أن أصبح لدى فلورنسا سبب لخشية شارل الثامن إلا من بعد أن بدأ «بيرو ميديتشي» يتذبذب في ولائه لفرنسا. وعندها فقط، أذن الرب، تبعاً لسافونارولا، للأخير بالكشف عن اسم الملك. وربما كان من الأصوب القول إن سافونارولا أدرك، عندها فقط، أن قورش الجديد سيكون شارل الثامن.

ويصف الجزء الثاني من «الجامع» بشيء من التفصيل رحلة حج يزعم سافونارولا أنه قام بها لرؤية مريم العذراء في السماء، وصاحبه فيها أربعة رفاق هم: الإيمان، والبساطة، والصلاة، والصبر، ولا ريب أنه استلهم في هذا «الكوميديا الإلهيّة» لدانتي، على الرغم من أن وصفه للقائه الفعلي بمريم العذراء يستنسخ الوصف الذي سطّره الفيلسوف الروماني بوثيوس (480–524م) حول مواجهته مع التجسّد الأنثوي للفلسفة. ويظهر ذلك في كتاب بوثيوس الموسوم بـ«عزاء الفلسفة». وهو كتاب أثّر تأثير كبيراً وواسعاً في مسيحيّة العصور الوسطى وعصر النهضة. ومن المؤكد أنه كان معروفاً جيداً من جانب سافونارولا، وعلّق آخرون على التشابه القائم بين وصف سافونارولا التفصيلي لعرش العذراء المرصع بالجواهر، وذلك الذي يظهر في «تتويج العذراء» وهي آخر «أسرار الورديّة»؛ ذلك الموضوع الذي لم يكن مطروقاً لدى الرهبان الدومينيك فقط، وإنما ألهم العديد من الفنانين. ومن الممكن أن تكون استعارات سافونارولا غير واعية على نحو ما يكون في الخيال الشّعري، وقد تكون رؤى سافونارولا كتابيّة في أسلوبها. لكنها تتوفر، دون شك، على عناصر تتجاوز الأشعار الكتابيّة وتُغايِرُها. وقد يكون سافونارولا أشار، في بعض الأحيان، إلى رؤاه بوصفها رؤى «رمزيّة»، لكنه أكد تأكيداً لازباً، في أحيان أُخرى، أنه أراد أن تؤخذ رؤاه بصورة حرفيّة.

فهل أقنع سافونارولا نفسه بأنه زار مريم العذراء، فعلاً، في السماء؟ ما من شك أنه أقنع العديد من شيعته وجماعة المصلين التي كانت تؤم كنيسته بذلك، فلم يكن ذاك العصر عصر شك وارتياب وإنما عصر يقين وإيمان، إذ كان الناس، في القرن السالف، يشيرون إلى دانتي في الشارع، معتقدين أنه سافر عبر جهنّم والمطهر والجنّة، على نحو ما ذكر في كتابه «الكوميديا الإلهيّة». ولم يكن من قبيل الصدفة والعبث أن «البساطة» كانت ترافق سافونارولا في حجّه الرّباني. فقد أكّد «الراهب الضئيل»، على الدوام، أنه كان يخاطب في عظاته، أساساً، «الأناس البسطاء». وقد تُرك من هم أقل بساطة مثل فيتشينو وبوتيتشيلي ليحكموا بعقولهم على صحة رؤاه، وإذا ما كانت شعريّة أم فعليّة. وقد ردَّ سافونارولا على نقاده من ذوي الثقافة الرفيعة في «جامع الكشوفات»، الذي لا يتيسّر للأميين من الناس البسطاء. وجاء فيه:

> «إنهم يعرفون أني لا أزعم بأن جسدي الفاني قد زار الجنة، فأنا لم أَخبر ذلك إلا عبر رؤيا روحيّة. ومن المؤكد أنَّ ما أصفه من أشجار، وجداول، وبوابات، وعروش لا وجود له في الجنَّة. ولو أنَّ سوء طويّة النقاد المُتشككين لم تغش أبصارهم لأدركوا أن الملائكة هي من وضع تلك المشاهد والصور أمام عيني».

قد يصحُ هذا الدفاع في حالة الإلهام الشعري، حتى عند أولئك الذين لا يؤمنون بالملائكة، غير أن سافونارولا لم يفسح مجالاً لمثل ذلك التأويل المفتوح للرسائل التي تشتمل على رؤاه، إذ إن لسانه قد نطق بكلمة الرب. ومن المؤكد أنَّ حواره مع مريم العذراء وقع ضمن الفئة الأخيرة. فقد أخبرته كيف: «ستغدو مدينة فلورنسا أكثر مجداً وقوة وثراءً مما كانت عليه في أي

وقت من الأوقات: وأنها ستسترد كل ما خسرته من الأراضي. وأن حدودها ستمتد إلى أبعد مما كانت عليه من قبل. ولقد تنبأت، بهدي من روح القدس، بإيمان غير المؤمنين من الترك، وأهل المغرب، وغيرهم، وأن هذا سيحدث عمّا قريب. وهو من القرب إلى درجة أن العديد ممن هم على قيد الحياة هذه الأيام سيشهده شهود عيان، ولكن إصلاح الكنيسة، كما صدعت بالقول، لن يحدث دون أن تتنزّل البلايا والمحن. فليكن من غير المستغرب أنْ تأخذ فلورنسا نصيبها من الجوائح، على الرغم من أن معاناتها ستكون أقل من الآخرين... وكذلك الأخيار من المواطنين، فلن ينزل بهم من البلاء ما ينزل بغيرهم. وذلك تبعاً لسيرتهم، ولاسيما، لما ينفذونه من قوانين صارمة، بحق المجدفين، والمقامرين، والشّواذ، وغيرهم من مرتكبي الشرور... ولدى فراغي من هذه الكلمات طُلب مني الانصراف من مجلس العذراء المقدَّسة».

ونحن نقع في كتاب سافونارولا «جامع الكشوفات» على مزيج قوي قوامه شاعر قروسطي ورع (رؤيوي صوفي) ونبي توراتي[1]. وهنا تكمن قوة جاذبية سافونارولا وحظوته لدى المثقفين «وبسطاء الناس» على حد سواء. ولكن بينما يبقى المتصوفة الزهاد على هامش المجتمع، فإن أنبياء العهد القديم أنزلوا أنفسهم في القلب منه تماماً. وقد سعوا إلى قيادة بني إسرائيل لمعاقبتهم باسم الرب وحكمهم. وإذا كان لسافونارولا أن يحقق

(1) من الممكن عقد مقارنة شيّقة، هنا، بين سافونارولا وجان دارك، التي كانت صاحبة كشوفات صوفيّة (تسمع أصواتاً، وترى ملائكة)، ونبيّة (قادت فرنسا للانتصارات التي تنبأت بها).

الدور الذي اصطنعه لنفسه، فمن المتعيِّن عليه أن يقوم بتعزيز القيادة السياسيّة التي تولاها، نيابة ودفاعاً، عن الديمقراطية والفقراء، فضلاً عن اضطلاعه بمقدار أكبر من السلطة العلمانيّة.

كان نشر «جامع الكشوفات»، في فلورنسا، في 18 من أغسطس عام 1494، يعني أن تأثير سافونارولا، إن لم يكن نفوذه الفعلي، قد بدأ ببلوغ قطاع أعرض من الناس. وقد كان القبول الذي حظي به الكتاب كبيراً، فما كادت تمضي ثلاثة أسابيع حتى ظهرت أربع طبعات أخرى باللغة الإيطاليّة. كما ظهرت، إثر ذلك بشهر، أول طبعة باللاتينيّة ترجمها سافونارولا بنفسه. وكانت هذه الأخيرة هي التي جعلت اسمه يسطع في الآفاق بين رجال الدين وأهل الفكر والعلم على حد سواء، وما لبثت أن انتشرت، تماماً كما تأمّل، بين القراء خارج إيطاليا. وستطبع منها، خلال عام 1496، أربع طبعات أخرى باللاتينيّة. وكان من ضمن هذه نسخة طبعت في باريس، وأخرى في جنوب ألمانيا، حتى إن السلطان بايزيد الثاني، في القسطنطينية، وفقاً لـ «بورلاماكي» طلب نسخة، وتُرجمت له.

وكان فساد الكنيسة المعروف على نطاق واسع، ولاسيما منذ مجيء ألكسندر السادس بصفته خليفة للقديس بطرس، واستتباعاً، بما هو ممثل للرب على هذه الأرض، قد خلق تعطشاً لوحي يتنزّل مباشرة من محتد ربّاني. وفي واقع الأمر، فإن رؤى سافونارولا الكشفيّة القياميّة تُذكِّر بكشوفات القديس يوحنا، التي تمثّل السفر الأخير من الكتاب المقدّس، لما بينهما من تشابه، وقد جعل هذا بعضهم يتساءل إن لم تكن تلك الرؤى تتمّة – طال انتظارها– للكتاب المقدس. وعلى النحو ذاته، فأقل ما نُظر به إلى نبوءات

سافونارولا بشأن تجديد الكنيسة، أنها رؤىً لـ«إصلاح خارق»[1]، مذهلةً العديد في أنحاء العالم المسيحي، بما هيأته من قوة دافعة شديدة للمعجزة التي تعين حدوثها منذ زمن طويل.

(1) لن يبدأ الإصلاح الفعلي الذي باشر به مارتن لوثر إلا بعد مضي اثنين وعشرين سنة (1517). ولن يحدث هذا الإصلاح الداخلي الذي سعى إليه سافونارولا، بل سيكون إصلاحاً خارجياً في الأساس، وسينتج عنه انشقاق كان سافونارولا سيدينه.

(15)
أصوات فلورنسا

علىٰ الرغم مما حظيت به عظات سافونارولا من شعبيّة ظاهرة، مصحوبةً بالرضا، الذي داخل قطاعاً واسعاً من الناس بسبب استبدال حكم أسرة ميديتشي بحكم أكثر جمهوريّة، فإن فلورنسا غدت، حينها، مدينة منقسمة. وتمثلت بؤرة هذا الانقسام، التي لا يمكن إنكارها، في سافونارولا. وتبقى المؤيدون الأكثر ولاء لـ «الراهب الضئيل»، وهم المدعوون «رجال الراهب»، والمُمَثَّلون، أساساً، برهبان سان ماركو وأصدقائهم من ذوي الفكر والعلم. ومع ذلك، فقد أتى الجزء الأكبر من التأييد لسافونارولا من أولئك الذين يشارُ إليهم على وجه السخرية باسم الـ«بيانوني» Piagnoni، وهي كلمة تحمل طيفاً واسعاً من المعاني. وتعني حرفياً البكّائين، الذين تسيل أنوفهم من شدة البكاء (snivellers) أو المتذمّرين، أو النائحين، أي المضطهدين، ممن كانوا يبكون، أو يتذمّرون وينوحون في أثناء صلواتهم وتضرعهم. وكان أحباء سافونارولا هؤلاء من «بسطاء الناس» الذين ضربوا صفحاً عن دعوة الأخير الحارّة للتسامح والتصالح، وظلوا يكنون حقداً وبغضاً عميقين لأسرة ميديتشي ومؤيديها، الذين فرّ السواد الأعظم منهم، بالطبع، من المدينة. وعلى الرغم من أنّ أولئك الذين تخلّفوا عن الخروج سلكوا مسلكاً متحفّظاً وبعيداً عن الأضواء، فإنهم مثّلوا قوة لا يستهان بها،

وكانوا يشيرون إلى أنفسهم بـ«البيغي» Bigi (أي الرماديين). ولن يلبثوا أن يتآمروا من أجل عودة بييرو ميديتشي، الذي ما فتئ يمثّل خطراً واضحاً على فلورنسا، إذ بدأ الأخير، إلى جانب أخيه، الذي تمتع بصلات جيدة مع ذوي النفوذ، يلتمس التأييد لقضية أسرة ميديتشي لدى العديد من الدول، والرتب الكنسيّة العليا، ولاسيما لدى ألكسندر السادس. وقد عزّز رفض سافونارولا الانضمام إلى الحلف المقدّس موقف روما، ومعها قادة إيطاليا جميعهم، لإعادة حكم ميديتشي.

مهما يكن من أمر، فقد ظهرت المعارضة الرئيسة لسافونارولا من داخل فلورنسا ذاتها، ممثلة في الأرابياتي (Arrabbiati الساخطين[1]) وهم جماعة منتشرة في أوصال المجتمع جميعه، تكوّنت من الحانقين على تدخل سافونارولا في شؤون حكومة المدينة العلمانيّة، فضلاً عمّن آثر عودة الأيام الخوالي، التي مازت حُكم أسرة ميديتشي. وكان ثمة الليبراليون العلمانيون، الذين دعوا أنفسهم بـ (بيانكي Bianchi) «البيض»، وذلك حتى يميّزوا أنفسهم عن «الرماديين». وعلى الرّغم من سرور هؤلاء لرؤية أسرة ميديتشي تغادر فلورنسا، فقد كان لديهم شعور بالحنين لأيام لورينزو العظيم الرخية، كما رأى هؤلاء ألا مكان لرجال الدين في حكومة جمهورية. وعَرفت فلورنسا، آنئذ، جماعة أخرى على الخط ذاته الذي كانت عليه جماعة الأرابياتي، وهي جماعة الفاترين Tiepidi (أو المعتدلين في آرائهم)، وقد عارضت الأخيرة إصلاحات سافونارولا، واستمدت الكثير من تأييد القساوسة المترخّصين، الذين لا يرون أن نُذُرَهم تلزمهم أن يعيشوا حياة

(1) لم تأت العلاقة التضمينية التي ربطت كلمة Ararbbiati بكلمة Rabid (مَسْعور)، واستتباعاً بكلمة Rabies (داء الكَلَب)، من فراغ.

تقشف بيوريتانيّة متشدّدة. وإذ كان معظم أفراد هذه الجماعة ينتمون إلى الأُسر الثريّة، فقد كانت لديهم شعبية كبيرة لدى هؤلاء الأخيرين، فضلاً عما كان لهم من أسباب وصلات بروما.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت الجماعتان المتعارضتان الرئيسيتان في فلورنسا هما الأرابياتي (الساخطون) والبيانوني (البُكاؤون). وبينما مال بقية الناس إلى إحدى هاتين الجماعتين بتعاطف كبير أو قليل، ظل سافونارولا عامل الانقسام الأساسي. وكان لكل من هذين الفصيلين الكبيرين مناصرون متحمسون في المجلس الأكبر، على الرغم من أن جماعة «البيانوني»، المحرومة من حق التصويت، ليس لها تمثيل مباشر بالمجلس. وأخذ سافونارولا على عاتقه مهمّة التأكد من أن تؤخذ مصالح هذه الأخيرة بالحسبان، وأن يضمن عديدها الكبير، الذي استشعر الثقة بتحرر المدينة، تلمّسَ ما لديه من ثقل وتأثير.

ولقد علّق سافونارولا أهمية كبيرة على المجلس الأكبر، ولاسيما في هذه المرحلة المبكّرة. إذ رأى في الأخير ضامناً لحرية المواطنين التي نالوها حديثاً. وحث مجلس السينيوريا على البدء، عاجلاً غير آجل، ببناء قاعة فسيحة تستوعب أعضاء المجلس –ونصابهم إذّاك 500 عضو– وتمكنهم من إنجاز أعمالهم. ومن الممكن النظر إلى هذه القاعة الفسيحة بوصفها تجسيداً مادياً ورمزياً للحكومة الجديدة. وقد اختير لها موقعٌ في الطابق الأول في الساحة التي تقع إلى الجانب الشمالي من البناية المعروفة باسم دوغانا (كانت تستعمل سابقاً مركزاً للجمرك). ويبدو أن مجلس السينيوريا قد سلّم، من البداية، المشروع برمته إلى سافونارولا، الذي لم يلبث أن أوكل مهمة البناء إلى المعماري المحلي؛ سيموني ديل بولّايولو. وقد اجتذب بناء هذه

القاعة الفسيحة اهتماماً شعبياً واسعاً. ومن الممكن الحكم على مغزى هذا الاهتمام (فضلاً عن السرعة التي شيّد بها) من خلال ما دوّنه لاندوتشي في يوميّاته بتاريخ الثامن عشر من يوليو عام 1495، يقول: «كانت قواعد القاعة الكبرى قد أرسيت في ساحة دوغانا، وكان (الراهب) لايني يستحثهم على العمل»[1] وعلّق، قبل أقل من شهر، أي في الثامن عشر من أغسطس، قائلاً: «جرى الفراغ من بناء عقود سُقُف القاعة الكبرى». ولا بد أن تشييد قاعة بهذا الحجم مأثرة بصورة من الصور، إذ إن قاعة الخمسمئة، كما لاتزال تُعرف، ما هي إلا مجرد توسعة صغيرة للقاعة الرئيسة. مع ذلك فإنها تمتد على طول 170 قدماً، وعرض يبلغ 75 قدماً، ويزيد ارتفاعها عن 25 قدماً. وقد رأى بعضهم في هذه القاعة الكبرى، وما اجتمع فيها من جماعات متعددة المشارب والمذاهب بدايات السياسة القائمة على الأحزاب كما نعرفها اليوم. لا ريب في أننا نقع على هذا التشابه، ولاسيما في المستوى التكوينيّ، لكن المؤرخ الحديث لاورو مارتينيز، يحاجج قائلاً: «على الرغم من إمكانية استخدام كلمة (حزب)، فإن من اللازم علينا [ألا نخلط] مضمون هذه الكلمة مع أي صورة من صور تشكُل الآلة السياسيّة الحديثة»[2]. ولم يكن هناك، حتى في فلورنسا ذات النظام الجمهوري، ما يشبه النظام السياسي الديمقراطي تبعاً لمفهومنا الغربي الحديث. وليس من وجود، على النحو ذاته، لفكرة الاقتراع العام، إذ كانت مصالح الطبقة العليا والأسر والجماعات هي ما يدير دفة الأمور، في حين بقيت الأيديولوجيا، في جانبها الأعظم، مفككّة، ولا يُعبّرُ عنها أو تتحدّد في أي برنامج صريح. وهكذا، لم تكن فلورنسا الديمقراطيّة –نسبياً– قادرةً على إيجاد نظام حزبي سياسي تبعاً للمعنى الحديث. ولم يكن لأي تصور بالالتزام شبه الدائم أن

يكتب له البقاء في دستور لا يسمح ببقاء أعضاء مجلس السينيوريا في منصبهم أكثر من شهرين، في حين لا تزيدُ عضوية المجلس الأكبر عن ستة أشهر، فقد كانت التحالفات بين الشخصيّات البارزة، في ظل تلك الظروف، عرضة للتغير، وكان أي تحالف خارج نطاق الرّوابط العائليّة يرتدُّ، سريعاً، إلى الولاء القائم على القربى الموثوقة لدى أول ملمح من ملامح الخطر. ولا تغيب عن ذلك المسألة ذات الأهميّة القصوى المتعلقة بالشراكة التجاريّة، فهي تُعدُّ أمراً جوهرياً لأي صورة من صور العمل التجاري، فضلاً عن المحسوبيّة، التي لا يستطيع أي شاب، دونها، أن ينهض بأيٍ من الأعمال السياسية أو الإداريّة أو التجاريّة أو الفنيّة. وتقوم هذه، أساساً، على منظومات مرتكزة على الولاءات العائليّة الممتدة، التي تعزّزها أواصر المصاهرة، وما إلى ذلك. فالمرء، حينذاك، لن يرسل من يمثله في أعماله التجاريّة، أو من يعمل بوصفه مدير أعماله في مدينة أُخرى ما لم يكن واثقاً ومتيقناً من ولائه واستعداده لاتباع التعليمات. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت العمليّة السياسيّة، كما جلّى ذلك مارتينيز، لا تحتمل التسامح مع المعارضة الصريحة والانشقاق، حتى إنها لا تحتمل المعارضة السلميّة للزمرة الحاكمة، ولا تعترف، بذلك، بوصفه حقاً معترفاً به، وبقيت فكرة المعارضة الديمقراطيّة برمتها أمراً غير مقبول. أما من تحدث ضدَّ الحكومة، فقد كان عرضة للاعتقال، أو أن يلقى في السجن. ليس هذا وحسب، فإن صرّح أحد أكابر الأفراد المنتمين إلى عائلة ذات منزلة عظيمة بمعارضته على الملأ، مِنَ الممكن أن يطرد هو وعائلته إلى المنافي، أو أن يتم إخراسه بفرض الضرائب التأديبيّة، التي قد تؤدي إلى إفقار العائلة وتدميرها.

وقد ظلّت المعارضة، في واقع الحال، أمراً سرياً، وعملاً تحفُّه المخاطر.

ولم يكن أمراً اعتباطيّاً تسمية الأنصار المتحمسين لأسرة ميديتشي بالرمادين (Bigi)، وهي درجة من درجات اللون غير القويّة، التي قُصد منها التشديد على تأييدهم –غير اللافت للنظر– لأسرة ميديتشي، ذلك أنَّ الاتصال ببيرو ميديتشي، أو الإشارة إلى أنه بصدد شن غزو سيقومون بتأييده، هما، دون شك، فعلان خيانيان سيقودانهم إلى عقوبة الموت. وهكذا فقد تبدَّت المعارضة عملاً تخريبياً، وناقضاً من نواقض الولاء للدولة. وكان العنف، كالاغتيال– مثلاً– إجراء من الإجراءات السياسيَّة التي يمكن أن تلجأ إليها فصائل المعارضة. وكان سافونارولا، بخاصة، هدفاً للعنف، وحين يغادر سان ماركو عابراً الشوارع إلى كنيسة أخرى، حيث سيلقي إحدى عظاته، كان يلازمه حرس شخصي من أتباعه المخلصين. وكما سجَّل لاندوتشي: «فقد حاول بعض الناس، في الرابع والعشرين من مايو، مهاجمة الراهب جيرولامو سافونارولا في شارع فيا ديل كوكوميرو بعد فراغه من إحدى عظاته»[3]. وكان سافونارولا ذاته، في واقع الأمر، قد ذكر ذلك في رسالته لألكسندر السادس في الـ 31 من يوليو، وأدرجه ضمن الأسباب التي تمنعه من زيارة روما: «ثمة الكثير من الأعداء في هذه الدِّيار، ممّن يتعطشون لسفك دمي. وقد قاموا بغير محاولة لإفنائي، وذلك بمحاولة قتلي غيلة تارة، ودس السمّ لي تارة أخرى. ولهذا، فإني لا آمن على نفسي من الخطر إذا خرجت، إلا إذا رافقني حرس مسلَّحون. وهذه هي حالي إذا جُلتُ في المدينة، فكيف أصنع إن تجاوزت حدودها!»[4].

وشهدت فلورنسا، في ذلك الوقت، انكماشاً خطيراً في التجارة ناجماً، بصورة عامة، عن مضي بيزا في استقلالها، ورفضها الخضوع من جديد للحكم الفلورنسي بعد أن انسحبت الحامية العسكرية التي وضعها شارل

الثامن. ومن الجدير ذكره هنا أن ميناء بيزا يقع عند مصب نهر أرنو. وهكذا، فقد كان يتحكم بقدر كبير من تجارة فلورنسا فيما وراء البحار. وعمد مجلس السينيوريا، سعياً منه للتخلص من هذا الخِناق، إلى استئجار جيش من المرتزقة لاسترجاع «بيزا». لكنه أثبت، إلى ذلك الحين، أنه غير ذي جدوى، فضلاً عن أكلافه العالية. وهكذا، فما عاد في مكنة الأثرياء، حتى من أمثال لورينزو دي بيرفرانشيسكو تحمل رعاية الفن، الذي لعب دوراً طليعيّاً في عصر النهضة في فلورنسا، مما حدا بفناني فلورنسا إلى البحث عن عمل في المدن الأخرى، فقد كانت النهضة تنتشرُ في أرجاء إيطاليا جميعها، وتنشر آثارها العميقة على عصر كان فيه -تبعاً للمؤرخ السويسري الكبير الذي عاش في القرن التاسع عشر؛ ياكوب بوركهارت- «كلا جانبي الوعي الإنساني- ذاك المتجه إلى الداخل، والآخر المتجه نحو العالم الخارجي- يقبعان في وضع مبهم تحت ستار مشترك؛ حالمٍ أو نصفِ يقظان. وقد كان هذا الستار منسوجاً من الايمان، وأهواء طفوليّة، وأوهام. وهكذا، بدا العالم وتاريخه، عبر ذلك الستار، مصبوغاً بألوان غريبة، إذ لم يكن الإنسان واعياً بذاته إلا أنه فرد من أفراد جنس بشري بعينه، أو أمة بعينها، أو حزب، أو مؤسسة، أو أي فئة من الفئات العامة الأخرى. وحدث في إيطاليا ذلك الزمان أن بدأ هذا الستار في التلاشي والتبدد، مفسحاً المجال لتصور ومعالجة (موضوعيْن) للدولة، كما لأشياء العالم عامّة. كما فرض الجانب الذاتي، في الوقت عينه، نفسه بالقدر ذاته من الأهميّة، مما أتاح للإنسان أن يصبح فرداً واعياً بذاته، وأن يتعرف إلى ذاته بهذه الصفة»[5].

وكانت العقول المتبصّرة، مثل عقل لورينزو بيرفرانسيكو تدرك أن ما كان يحدث من تحول عميق في ثقافتهم هو عمليّة تقدميّة في طبيعتها، على

الرغم من إصرارها على العودة إلى منجزات الحقبة الكلاسيكيّة. وقد كانت إنسانويّة أوروبا الغربيّة في طور التشكل والنمو، فمن الناحية التجارية، امتدت الطرق التجاريّة إلى قارات جديدة. أما ثقافياً، فقد امتدت، بالدرجة ذاتها، إلى مناطق وأراض لم تكن مستكشفة من جانب الأوروبيين من قبل. ولم يكن بالإمكان، إذّاك، أن تعاد عقارب الساعة إلى الوراء. وربما مثّل سافونارولا قوة دافعة باتجاه مجتمع أكثر عدالة، لكنّ عجيب المفارقات أن هذه التقدميّة السياسيّة كبحها اتجاه محافظ أخلاقياً وثقافياً.

وكان بييرفرانشيسكو، بما هو راع للفنون، عازماً على تعزيز إرث لورينزو العظيم بصورته التقدميّة على أقل تقدير. وعندما عاد ميخائيل أنجلو، الذي استأثر بإعجاب بييرفرانشيسكو، بعد سنة من فراره إلى بولونيا، قرّر الأخير مساعدته ما أمكن خلال أيام العُسرة تلك. ونورد هنا ما جاء به أسكانيو كونديفي، الذي روى له ميخائيل أنجلو سيرة حياته في أواخر أيامه، نقرأ:

«حين عاد ميخائيل أنجلو إلى موطنه باشر في نحت تمثال لإله الحب؛ إيروس، وقد صوّره أنجلو بعمر السادسة أو السابعة، وجعله مستلقياً كما لو كان نائماً. وإذ وقعت عينا لورينزو بييرفرانشيسكو ميديتشي على هذا العمل، فإنه أعجب بجماله الكلاسيكي أيّما إعجاب، وأشار على ميخائيل أنجلو بخطة، قائلاً: إذا كان بمقدورك معالجة الرخام حتى يبدو كما لو كان مدفوناً، فإني سأتمكن، حينها، من إرساله إلى روما، وتقديمه على أنه عمل أثري نادر استخرج من باطن الأرض قبل وقت قصير. وسيكون بمقدورك، والحالة هذه، الحصول على مبلغ طائل يتجاوز سعره الحقيقي. وإذ كان ميخائيل أنجلو عبقرياً

ملماً بدقائق مهنته وما فيها من طرق خدّاعه، فإنه باشر بالعمل تبعاً لمقترح لورينزو»[6].

غير أن هذا الاحتيال لم يسر، تماماً، تبعاً للخطة المرسومة، فقد نجح الرجل الذي اختاره لورينزو دي بيرفرانشيسكو للتفاوض حول بيع تمثال ميخائيل أنجلو إلى الكاردينال الثري؛ رافائيلي رياريو، في روما، بإقناع الأخير بأصالة هذه «اللُّقية الأثرية النادرة»، فدفع فيها مبلغاً هائلاً، وإن لم يُكْشف عن مقداره. لكن الوسيط احتفظ بالجزء الأكبر من المبلغ لنفسه، محتالاً، بذلك، على ميخائيل أنجلو، ولورينزو بيرفرانشيسكو. وما لبث الكاردينال رياريو، وهو الخبير الشهير في هذا المضمار، أن اكتشف أن هذا التمثال «الأثري» ما هو إلا تمثالٌ مُقلَّد، نُحت في العصر الحديث. ومع ذلك، فقد استأثر بإعجابه إلى درجة أنَّه دعا ميخائيل أنجلو إلى روما كي يعمل لديه، محققاً، ربما، ما قصد إليه لورينزو بيرفرانشيسكو في الأصل. وهكذا، سيقيم ميخائيل أنجلو في روما على مدى الأعوام الثلاثة المقبلة، منتجاً بعضاً من أولى روائعه من المنحوتات التي أنجزها لصالح سلسلة من الراعين الأثرياء. واشتملت هذه على تمثال عظيم أكبر من الحجم الطبيعي لباخوس المخمور، وهو إله الخمر لدى قدماء الرومان؛ ذلك التمثال الذي علّق عليه فاساري بكل تبصّر، قائلاً: «إنه يمتلك قوام الشاب الرشيق بصورة ما، ممزوجاً بالحسّية والاستدارة اللتين تُميِّزان الجسد الأنثوي»[7]. وكانت تلك الفترة، أيضاً، هي التي أنتج فيها ميخائيل أنجلو تمثال «بييتا»؛ رائعته الدينيّة المتعالية على الشأن الدنيوي، مصوراً مريم العذراء وهي مُطرقة بحزن شديد على جثة المسيح العارية المضمومة إلى حجرها؛ ذلك العمل الذي جعل فاساري، وهو معاصر لأنجلو، دهِشاً من «المعجزة المتمثلة في الكيفيّة التي أحالت

كتلة صخريّة صماء إلى هذا الكمال الحي، وهو أمر تعجز الطبيعة ذاتها عن الإتيان بمثله»[8].

وما كان بوسع ميخائيل أنجلو أن يصوّر مباهج الخمرة، وكمال الجسد العاري في مدينة سافونارولا؛ «مدينة الرب». فقد يكون إيمان ميخائيل أنجلو العميق بالرب متساوقاً مع إيمان سافونارولا، ولكن لولا تحرّر الأول من تأثير الأخير لما كان بمقدوره أنْ يحقّق ذلك النبوغ الذي كان لورينزو العظيم أول من لمسه لديه. كما كان بمقدور ذلك الفنان، الذي فاق أضرابه تديناً، أن يحقّق وعد النهضة، ويدرك دوره الريادي في نشره وسط الفساد السائد في روما. أما بوتيتشيلي فقد تخلّف في فلورنسا. ووفق ما يرويه فاساري، الذي نشأ في فلورنسا عقب ذلك بعقدين، ومن المؤكد، أنّه سمع حينئذ مباشرةً من مواطنيه، الذين عاشوا خلال تلك الأوقات، أن:

> «بوتيتشيلي أصبح من الأتباع المتحمسين حماساً شديداً لسافونارولا وتعاليمه، مما دفعه إلى التخلي عن الرسم تماماً. وإذ عنى ذلك انقطاع أسباب عيشه وتكسبه، فقد أحدث اضطراباً شديداً في حياته. لكن ذلك جعله أشد التزاماً بعضويته وحماسته لجماعة البيانوني (البكائين)، كما جعله يهجر أي تفكير بممارسة مهنته»[9].

ومن شبه المؤكد أن فاساري قد أخطأ في اعتقاده أن بوتيتشيلي أقلع عن الرسم خلال تلك الفترة، فعدد من لوحاته حمل تاريخاً موثوقاً يرجع إلى تلك السنين.

ومع ذلك، فليس هناك من شك أن سوق اللوحات الفنيّة قد كسد وتوقف في «مدينة الرب»، مما ترك عديداً من الفنانين المبرّزين بلا أي دخل. وربما كان ضيق ذات اليد هو ما حدا ببوتيتشيلي إلى ترحيل مرسمه، كما

هو معروف، والانتقال إلى الإقامة مع أخيه سيموني فليبيي الذي كان يسكن فيما دُعي الطريق الجديد (Via Nuova). واشتهر سيموني بكونه شديد التعاطف مع جماعة البيانوني، على الرغم من أنَّ ولعه الدائم بالأدب العلمانيّ بدا مناقضاً لاعتقاده المزعوم في الحقيقة المطلقة والوشيكة لنبوءات سافونارولا الرؤيويّة القياميّة. ومن المرجَّح أن بوتيتشيلي كان منشغلاً، حتى ذلك الحين، بإتمام رسوماته التوضيحيّة الخاصّة بالكوميديا الإلهيّة لدانتي. وهو عمل خاص وسرّي ساعد، لهذا السبب ربما، في تعزيز الشائعات المتعلقة بتخليه عن مهنته.

ويعتقد كثيرٌ من الخبراء أن بوتيتشيلي قام، خلال هذه الفترة، برسم لوحته الشهيرة المسمّاة «رثاء المسيح الميت»، التي تصوّر المشهد التقليدي لأشخاص يتغشاهم الحزن وهم يتحلّقون حول جسد المسيح المسجّى. وتبرز هذه اللوحة بوصفها عمل روح متصالحة مع حياتها الجديدة، إذ إن وجه مريم العذراء مكمود حزناً. أما القديسون الذين يحيطون بها، فكلٌّ يعبّر عن قدر من مشاعر الأسى الخاصة به، كما كان وجه المرأة التي إلى اليمين يتماهى مع وجه المسيح الميت، إذ بمقدور المرء أن يستشعر قرب أنفاسها من خد المسيح الشاحب المائت، وهي تضغط عليه بخدّها. لكننا إن أمعنّا النظر فسنرى، بصورة لا تخطئها العين، أن هذا الوجه هو ذاته الذي صوّره بوتيتشيلي في لوحة «مولد فينوس» لدى خروج الأخيرة، كما تصورّها اللوحة، من بين الأمواج. أما إذا نظرنا إلى شمال اللوحة وتأملنا الشخص الذي يُعنى بجراح قدمي المسيح، فسنرى أنه إحدى ربّات الرقص في لوحة الربيع. وهكذا، فكل صور الجمال الوثنية التي صوّرها بوتيتشيلي قد أسلمت نفسها إلى الحزن الذي يُقطّع نياط القلوب على الشخص الذي

حلَّ محلَّها جميعاً في قلب بوتيتشيلي.

وقد عكس هذا التفجّع، بعدة صور، تحوّلاً مشابهاً كان يحدث لدى أهل فلورنسا، أو على الأقل لدى الأغلبية التي كانت ترى في سافونارولا، حينئذ، زعيمها السياسي والروحي. فلم يعودوا مجرد أتباع له، وإنما أصبحوا يؤمنون به. وبدأوا يتنكبون عن أساليب حياتهم القديمة، وعن أفراحهم وأتراحهم، وذلك لتكريس أنفسهم بما هم مواطنون جدد في «مدينة الرب». ولا مجال لإنكار قوة الإيمان الذي تعاظم فوصل، تقريباً، إلى شكل من الهستيريا الجماعيّة المكبوتة، التي بدأت تسري وقتها في عروق جماعة البيانوني وأتباعها.

لكن أتباع سافونارولا لم يكونوا جميعهم، كما رأينا من قبل، من البيانوني، فبين أولئك الذين آمنوا مخلصين بدعوته للرجوع إلى البساطة، التي ميّزت أسلوب الحياة المتّبع في المسيحيّة الأولى، برز العنصر الفكري الذي اشتمل في وقت من الأوقات على العديد من أفراد دائرة لورينزو العظيم الثقافية في قصر ميديتشي. وكان ممن مثّل هؤلاء فيتشينو، الذي تمنّى على سافونارولا أن يعزّز الإيمان الأعمى لدى إخوته بقوة التراث الكلاسيكي، فبينما رجع سافونارولا إلى أنبياء العهد القديم، كان فيتشيو لايزال يأمل في إقناعه بإدخال التراث الفلسفي للأفلاطونيّة إلى معتقده، ذلك أنَّ أفكار أفلاطون لم تلهم الحركة الإنسانويّة فحسب، وإنما قدّمت سنداً فكرياً لكثير من جوانب اللاهوت المسيحي. وقد رأى فيتشينو في أفلاطون قديساً مسيحياً عملت أفكاره على تهيئة الأرضيّة لمجيء المسيح. وإذا كان يوحنا المعمدان قد عُدَّ الناطق باسم المسيح دينياً، فمن المتوجب أن ينظر إلى أفلاطون بوصفه الأب الفكري للأخير.

وكان من شأن إدخال فكر أفلاطون إلى التراث المسيحي أن يوحّد كل أولئك الذين اجتذبتهم معتقدات سافونارولا، فضلاً عن منح أساس فلسفي لهذا المعتقد، مما يجعل من العسير على العدد المتزايد من مفكرّي النهضة في أرجاء إيطاليا كافة، مقاومته. وإذا أراد سافونارولا أن يجعل من فلورنسا مركزاً للعالم المسيحي الجديد، فإن هذه هي الطريقة الفُضلى للتقدم بهذا المشروع وإنجاحه، إذ هنا تكمن قواعد النهضة الدينيّة التي تكافئ -بل تتجاوز في الواقع- النهضة الفكريّة والفنيّة التي ولدت في فلورنسا. فما وعد به الكتاب المقدس جماعة البيانوني، كان بمقدور أفلاطون أن يقدّمه للمؤمنين من المفكرين والزعماء في أرجاء إيطاليا كافة؛ أولئك الذين تملكهم قدر كبير من خيبة الأمل بسبب الفساد الذي عمّ كنيسة روما. لكن الرعب تملّك فيتشنو، حين بقي سافونارولا على شكه في صحة الأفكار الأفلاطونيّة المتأخرة، ولاسيما أفكار بعض أتباعه، فقد قادت هذه الأفكار الأفلاطونيّة المتأخرة فيتشينو إلى الإيمان بعدد من الأفكار الهرمسيّة، التي تشبه عدداً من أفكار سافونارولا الميتافيزيقيّة. ونحن نعرف من سجل كشوفات الأخير، أنه كان يؤمن بوجود كائنات مثل الملائكة والشياطين، حتى إنه رآها. كما آمن إيماناً عميقاً بالنبوءات، ولاسيما تلك التي تنبع من الرؤى التي كان يراها بعين عقله، بيد أن أفكار تلك النبوءات كانت مستقاة مباشرة من أنبياء العهد القديم. ومن جهة أخرى، فقد كان يمقت مقتاً شديداً أشكال التنبؤ الأخرى الباطنيّة أو السريّة مثل التنجيم، ورأى فيها هرطقة محضة.

(16)
صاعقة مباغتة

لم يعر الفاتيكان، كما بدا في مبتدأ الأمر، اهتماماً كبيراً لما صدر عن سافونارولا من رد صفيق على ألكسندر السادس، حين رفض الأول دعوة الأخيرة الودودة لزيارة روما. فقد كان البابا منشغلاً بأمور أُخرى: إذْ كان عليه أن يعيد بسط نفوذه على المدينة المقدسة بعد ما ناله من إذلال عندما اخترق شارل الثامن والجيش الفرنسي قلب روما، جاعلين منها نقطة عبور، وتوجّب على البابا، أيضاً، أن يخطّط لحركته السياسيّة التالية في الساحة الايطاليّة.

ولما فرغ سافونارولا من إلقاء عظته «الأخيرة» في أواخر يوليو من عام 1495، وأشرف على الطبعة الأولى من كتابه «جامع الكشوفات»، وأرسل رسالته الجوابيّة إلى ألكسندر السادس، لجأ إلى المصايف الريفيّة ليتخفّف من الإنهاك النفسي والبدني، اللذين لحقا به جراء طريقته الزهديّة في العيش، ومحاولاته الشاقّة لتوجيه دفة السياسات الفلورنسيّة. وقد فاقم من ذلك كله ما عاناه من مرض الزُّحار. ومكث سافونارولا، في الغالب الأعم، في تكية سانتا ماريّا ديل ساسو القائمة في أعالي جبال كاسينتينو، التي تبعد ثلاثين ميلاً تقريباً إلى الشرق من فلورنسا، وكانت تكية سانتا ماريا قد أصبحت، قبل ذلك الزمن بحولين، جزءاً من الطائفة التوسكانيّة المستقلّة التابعة لإمرة

سافونارولا. وقَدْ تلازمت إقامته هناك مع عزمه على زيارة كل المؤسسات التي غدت، مؤخراً، تحت أمرته. وبدأ سافونارولا، تدريجياً، في استرداد عافيته وقوته، بعيداً عن حرّ المدينة وضغوطاتها، وبعيداً عمّا ألزم به نفسه من حياة صارمة في سان ماركو. ثمّ ما لبث أنْ وصلت إلى فلورنسا، في وقت ما من الأسبوع الثاني لشهر سبتمبر، رسالة بابويّة من روما نزلت نزول «صاعقة مباغتة»[1]. ومما لا ريب فيه أن هذه الرسالة، المؤرخة بتاريخ الثامن من سبتمبر، لم تكن من إنشاء البابا ألكسندر السادس، ولا كُتبت، ربما، بأمر مباشر منه. ومهما يكن من أمر، فإن الصياغة وأسلوب الخطاب أخبرا عن شخص متمرس في السياسة، ناهيك عن تضلُّعه في أساليب الكنيسة. ومن المعروف، الآن، أن ما دُعي الرسالة البابويّة، قد سُطِّر بقلم بارتولوميو فلوريدي؛ أسقف كوسينزا، واحد الأعضاء البارزين في السكرتاريا البابويّة، وجرى ذلك، على نحو شبه مؤكد، بتحريض من بييرو دي ميديتشي أو أتباعه في روما[1].

وعمد فلوريدي، بصورة ماكرة، إلى إرسال رسالته البابويّة إلى «رئيس دير سانتا كروتشه»[2] بدل أن يبعث بها، مباشرة، إلى سافونارولا في سان ماركو، متقصّداً من ذلك خدمة أغراضه، وربما تمويه خطواته، فقد مثَّل دير سانتا كروتشه مركز المعارضة الرئيس لسافونارولا في فلورنسا وموطن غرمائه من الرهبان الفرنسيسكان. وهكذا، ما لبثت محتويات ما دعي الرسالة البابويّة أن انتشرت، كما أريدَ لها، في أنحاء فلورنسا جميعها،

(1) سيوعز ألكسندر السادس، بعد ذلك الحين بعامين، باعتقال فلوريدي بتهمة تزوير رسائل بابويّة. وبناء عليه، سيُجرّد من منصبه، ويُزج به في السجن البابوي في قلعة القديس أنجليو حيث سيخضع لنظام غذائي تجويعي قوامه الخبز والماء، وهو ما سيودي بحياته.

ولاسيما في أوساط الأرابياتي، وأنصار ميديتشي، وذلك قبل أسبوع من تمريرها إلى سان ماركو، حتى إنها لم تُسلَّم، آنئذ، إلى سافونارولا مباشرة. إذ يُشير «مُستند الاستلام»[3] الأصلي إلى أنَّ رئيس الدير كان مايزال يستجمُّ بعيداً، ربما في كاسينتينو.

أما الرسالة نفسها، فقد كانت مُثيرة للفزع، فهي تبدأ بملاحظات عامَّة قليلة حول إمكان حدوث بعض الأمور الخطيرة، من قبيل الانشقاق داخل الكنيسة» و«الأفكار الهرطقيَّة» جرَّاء «تبنِّي بساطة زائفة»، ثم تمضي لتسمي شخصاً يُدْعى جيرولامو سافونارولا، الذي:

«غدا مضطِّرب التفكير ومخبولاً بفعل الاضطرابات التي عمت إيطاليا مؤخراً إلى درجة أنَّه شَرَعَ بالإعلان أنه مرسل من عند الرب، حتى إنه يزعم التحدُّث مع الرب... مدَّعياً أن من لا يصدق نبوءاته لا رجاء له في الخلاص... وعلى الرغم من اصطبارنا عليه، فإنه يرفض التوبة والتبرؤ من ذنوبه بخضوعه لإرادتنا. وعليه، فقد قررنا أن نضع حداً لهذا الانفصال الفاضح من قبل الطائفة التوسكانيَّة عن المجمع اللومباردي؛ ذلك الانفصال الذي وافقنا عليه بسبب ابتزاز رهبان مخاتلين بأعيانهم. وقد قررنا إعادة توحيد هاتين الطائفتين تحت إمرة نائب الأسقف العام لمجمع اللومباردي، سبستيانو ماغي، الذي سيرأس عملية التحقيق في أنشطة سافونارولا، فضلاً عن كتاباته. وسيُوقف سافونارولا عن الوعظ حتى يتمّ الانتهاء من ذلك التحقيق... وأيّما امرئ لا يلتزم بمتطلبات هذه الرسالة، فإنه سُيحرمُ في الحال».

ومن اليسير تخيل ردة فعل سافونارولا الفوريَّة على هذه الوثيقة، فهو

معرَّض إلى أن يخسر الاستقلال الذي اكتسبه لقاء أكلاف باهظة، حين ضحّى بالاستقامة الحقّة التي تقوم عليها غاياته الروحيّة بإبرامه ذلك العهد مع لورينزو العظيم الراقد على فراش الموت.

ومن الممكن ألا يكون سافوناورلا قد تسلَّم ما دُعي بالرسالة البابويّة إلا بعد أن قفل عائداً إلى فلورنسا. أما ردّه عليها، فمن المؤكّد أنه جرى في فلورنسا في التاسع والعشرين من سبتمبر، كما يشيرُ تاريخ الرسالة، وربما كان ذلك بعد يوم، أو نحو ذلك، من اطلاعه على محتوياتها. لقد أدرك سافوناورلا أنه إن كانت له من فرصة للحفاظ على استقلاليته وإنفاذ الدور الذي كان يشعر أن الرب قد أناطه به، فيتوجّب عليه أن يقنع روما بقضيته، وكان عليه أن يُدلِّل على الطبيعة الحقة لمعتقده ويفتديه. وقام سافوناورلا، بكل عناية وجهد، بتبرير موقفه بنداً بنداً، ساعياً إلى دحض كل تهمه من التُّهم التي وجّهت إليه. وكان إنجاز هذه المهمة، دون الدخول في تعارض مع سلطة البابا والمعتقد القويم للكنسية، مهمة شاقّة تتطلب مجهوداً جبّاراً. وهكذا، فقد اتسم عددٌ من الحجج بحذلقة تنِدُّ عن الغاية التي جُعلت لها. وألفى سافوناورلا نفسه، بعد أن أعلى من فضائل عقيدته البسيطة والنقيّة على ما سواها، مُتّكلاً على ثقافته المتفرِّدة لطرح قضيته. وقد امتدَّ ردُّه المُسهب إلى أكثر من عشر صفحات متراصّة. وفيما تلا ذلك، كان يذكر، ساخراً، على الملأ، أنَّ الرسالة البابويّة حوت ما لا يقل عن ثمانية عشر خطأ[4]. ولكن يكفي أن نذكر عدداً قليلاً من الحجج التي ساقها كي نلمس ما امتازت به رسالته من قوّة. فقد زعم سافوناورلا أنه كان، دوماً، مذعناً للكنيسة، بخلاف ما جاء في الرسالة البابويّة من مزاعم، ولم تصدر عنه أي هرطقة، لأن كل ما فعله لم يتعدَّ دعوة المذنبين إلى التوبة. وحين تعلّق الأمر

بدوره كنبي، فقد كانت حجته مراوغة على نحو خاص، نقرأ:

«... أما بشأن النبوة، فإني لم أزعم، قط، بانني نبي. ومع ذلك، ما كان لهذا أن يُعدَّ هرطقة لو أني زعمته، فلقد سَبَقَ وتنبات باشياء صدَّقتها الأيام. أما الأشياء الأخرى فسيثبت قادم الأيام صدقها»[5].

وكان سافونارولا قد ادَّخر حججه الأكثر إحكاماً وحذلقة لدحض ما انطوت عليه الرسالة البابويَّة من حديث حول انفصاله عن الطوائف التوسكانيَّة. وألحَّ سافونارولا على أنَّ الانفصال لم يكن ناجماً عن «ابتزاز بعض الرهبان المخاتلين»، وإنما حدث بتدخل من الكاردينال كارافا، وهو الكاردينال الحامي للرهبنة الدومينيكيَّة (لم يجر التطرُّق إلى الحيلة التي استخدمها كارافا وما تلاها من سحب الخاتم من إصبع البابا الذي ينطوي، حتماً، على ابتزاز. وذلك على الرغم من أن سافونارولا أُعلمُ بما حدث). وقد استطرد سافونارولا مُحَاججاً بعدم جواز وصم رهبان سان ماركو بـ «الرهبان المخاتلين»، على الرغم من تحريضهم على الانفصال، فالقاصي والداني يعرف أنهم مثال التقوى والورع. وفوق ذلك كُلِّه، رأى سافونارولا أن من الظلم الصريح أن يُعيَّن نائب الأسقف العام لمجمع اللومباردي ليرأس تحقيقاً بشأن سلوكه. فقد كان الأخير؛ المدعو «ماغي»، من ألد أعداء سافونارولا كما هو معروف، وذلك جراء ذلك الانفصال.

ويوجز ريدولفي الخلاصة غير الاعتياديَّة التي انتهى إليها سافونارولا:

«وهكذا، فقد تبيَّن أن الاتهامات التي وجهت إليه ما هي إلا فرية دَنيئة. ولهذا، فقد أشار إلى أنه لن يتخذ أي إجراء فيما خصَّ هذه الأوامر العليا، حتى يعترف قداسة البابا ببراءته، ويحلَّه من أي مسؤوليَّة بهذا الصدد»[6].

وانطوت «الإشارة» الأخيرة على خطورة ظاهرة. وعلى أي حال، فقد كان سافونارولا يلعب على الحقيقة التي مفادها أن تدخل البابا غير المبرّر في شؤون الرهبان الدومينيكان من شأنه أن يؤدي إلى حدوث بلبلات عميقة في الهيراركية الكنسيّة. وعليه، فما إن فرغ سافونارولا من كتابة ردّه على البابا، حتى كتب إلى الكاردينال كارافا، بما هو رئيس للأخويّة الرهبنيّة، ملتمساً منه الدعم في هذا الأمر، وزاعماً:

> «إنني مدرك إدراكاً تاماً من يقف وراء هذه الفريات التي قيلت بحقي، وأعي أنها من عمل مواطنين فاسدين، ممن يتمنون عودة الطغيان إلى فلورنسا»[7].

وكان سافونارولا موقناً أنَّ ما ساقه من حجج سيكسب المعركة، مما جعله، حينها، يأخذ زمام الأمور بيده. وهو وإن ألحّ في رسالته على أنّه كان دوماً طوع بنان الكنيسة، فقد خالف ما تضمنته الرسالة البابويّة من أمر يقضي بإيقافه عن الوعظ، وذلك حين ألقى عظة الأحد في الـ12 من أكتوبر، وأتبعها بعظة ثانية في الأحد الذي تلاه. ويبدو أن دوافع سافونارولا من وراء ذلك هي إحباط مخططات أعدائه ومكائدهم. فمن المؤكد أن الأخبار تواردت إليه من روما (ربما عن طريق الكاردينال كارافا) أن الكسندر السادس قرّر، سراً، مساندة قضية ميديتشي، وأنه كان بصدد دعم انقلاب مرتقب تُعدُّ له أسرة ميديتشي. وكانت الرسائل الرئيسة لما ألقاه سافونارولا من عظات، ظاهرياً، ذات توجه سياسي مباشر. فقد ادّعى، أولاً، أنه كتب إلى البابا، وأنَّ قضيته قد حُلَّت. وأشار، ثانياً، على مواطني فلورنسا أن من الضرورة بمكان أن يتخذوا إجراءات عاجلة ضدَّ الأرابياتي، الذين كانوا يتآمرون ضده، وأن يهبُّوا للدفاع عن أنفسهم ضد انقلاب وشيك تُعدُّ له أسرة ميديتشي.

وما يلفت النظر أنه، بات، حينئذ، يحضُّ الفلورنسيين، بتقصد، على العنف عوض حثِّهم على مسامحة أعدائهم. فقد «ولّى زمن الرحمة، وآن أوان استلال السيوف... وقطع رأس كل من يعارض الجمهوريَّة»[8]، ثم أشار، بصورة لا تخطئها عين، إشارة مباشرة إلى بيرو دي ميديتشي، فحثَّ مواطني فلورنسا على التأسِّي بالرومان القدماء، الذين واجهوا الخونة ممن سعوا للإطاحة بالجمهوريَّة، وإعادة تاركوينيوس إلى العرش، قائلاً: «اضربوا عنقه، حتى لو كان كبير قومه، اضربوا عنقه».

غير أنه ما إن حان أوان عظته الثالثة في يوم الأحد الموافق 25 من أكتوبر، حتى تحوَّل موقفه تحوُّلاً تاماً، فقد ألقى، هذه المرة، تحية الوداع على جماعته، مضيفاً على نحو تلغيزي: «ادعو الرب أن يلهمني حين يحلُّ الوقت الذي أتقدَّم فيه للوعظ مرة أُخرى»[9]. وكان سافونارولا قد تلقَّى، بصورة ما، إنذاراً مسبقاً لما كان على وشك الحدوث. إذ أرسل إليه ألكسندر السادس رسالة بابويّة في السادس عشر من أكتوبر (كانت لما تزل بعد، أثناء ذلك الوقت، في طريقها من روما إلى فلورنسا)، صرَّح فيها على نحو لا لُبْسَ فيه:

«نحن نأمرك، بمقتضى تعهدك بالطّاعة، بالتوقف عن الوعظ حالاً، سواء كان ذلك في العلن أو في أمكنة خاصَّة، إلى أن يحلَّ الوقت الذي تكون به قادراً على المثول أمامنا»[10].

ولم يكن ثمة أي لبس، هذه المرة، بشأن محرر الرسالة البابويَّة ومصدرها ومرجعيتها (على الرغم من أنَّها حَملتْ، مرَّة أُخرى، توقيع فلوريدي التي أُمليت عليه، فيما يبدو، تبعاً للبروتوكول المُتبع) وقد كان ألكسندر السادس، عازماً على إسكات سافونارولا، ولكن، لماذا لم يَحْرِمه رسمياً؟

ألفى ألكسندر السادس نفسه، حينها، مواجهاً بتهديد خطير محتمل

لبابويّته ذاتها. إذ بات من الواضح أن شارل الثامن كان يقلّب الرأي بإمكان سيره على رأس جيشه من جديد، لغزو إيطاليا. ولن يتردد، هذه المرة، في خلع ألكسندر السادس في أول سانحة. وكان سافونارولا قد بقي على اتصال مع شارل الثامن، حتى إنه كتب له، في الصيف، حاثًّا إياه على القيام بذلك. فقد ظلّ سافونارولا معتقداً أن شارل الثامن مثّل «سوط الرب»، وأنه إذا أخفق في تأدية ما نُدِبَ له، أو سلك سلوكاً لا يتواءم مع قَدْر هذا الدور، فإن الرب لن يعجز عن عقابه، كما أوضح للملك شخصياً، وذلك حين منع سافونارولا الأخير من نهب فلورنسا.

وعزم ألكسندر السادس، إثر هذا التهديد الجديد، أن يتّبع سياسة مختلفة في إيطاليا؛ تلك السياسة التي كفّت حينها عن الاعتماد الكامل على الحلف المقدّس، الذي بدت عليه، فعلياً، علائم الانهيار. وبدا هدف البابا البعيد هو السعي لإغواء فرنسا للدخول في حلف. وكانت تلك مهمّة صعبة، لكنها بدت الأمل الأفضل الذي يمكّنه من تحقيق طموحاته السياسيّة أو، بالأحرى، البقاء في السلطة. ولهذا، فإنه كان في حاجة لرضا سافونارولا. إذ ستفضي أي محاولة لحرمان «الراهب الضئيل» إلى استياء كل من شعب فلورنسا وشارل الثامن، الذي كان مايزال ينظر إلى سافونارولا بوصفه صديقاً. غير أنّ ألكسندر السادس كان يعرف أنّ اتخاذه خطوة صغيرة، بإيقاف سافونارولا عن الوعظ لمخالفته أوامر الرسالة البابويّة السابقة، يقع، تماماً، ضمن صلاحيته. وفي واقع الأمر، كان لا بد أن يُعدّ هذا الرد متوقعاً من البابا، كي يبقي على سلطته ومكانته البابويّتين. فلا يمكن أن يكون أهل فلورنسا، أو شارل الثامن، قد توقعوا منه ما هو أقل من ذلك. وقد عرف ألكسندر السادس أنّه بإسكاته سافونارولا سيجعل منه غير ذي

تأثير، إذ تكمن قوة سافونارولا وتأثيره -على الناس كما على أشياعه داخل الكنيسة- في قدراته الخطابيّة أساساً.

وألفى ألكسندر السادس نفسه، خلال الشهور التي تلت، تحت ضغوط كبيرة لإلغاء الأمر الذي قضى بإسكات سافونارولا، ولاسيما إذا أراد أن يفوز بود شارل الثامن. ومن ثمّ، فعندما مارس كل من السفير الفلورنسي والكاردينال كارافا ضغوطاً على البابا كي يوقّع أمراً يأذن لسافونارولا بالبدء مجدّداً بإلقاء عظاته، أوائل عام 1495، أعلن البابا لفظياً أن بإمكان سافونارولا أن يتقدّم ويلقي عظات الصوم الكبير القادمة، لكنه تأبّى أن يوقع أي وثيقة بهذا الشأن. وهكذا، فقد كانت الرخصة المعطاة لسافونارولا محدودة، وعرضة للإلغاء في أي لحظة.

ومثّلت الكرنفال السابق ليوم الصوم الأكبر، تقليدياً، فترة من الاحتفالات الصاخبة في فلورنسا، وكان هذا عندما أرسى لورينزو العظيم أنشطة اللهو الصاخبة المفرطة، مثل العروض المسرحيّة الدّاعرة، التي ألّف لها أشعاراً مثل قصيدته: «أغنية الفلاحين»، ومطلعها: «كلنا يملك حبات من الخيار؛ حبات كبيرة أيضاً».

وقد تحدّرت هذه الأنشطة الكرنفاليّة من مهرجانات روما الوثنيّة، وكانت معانيها الحقيقيّة قد دَثرت منذ زمن طويل. وجرت العادة أن يلبس المواطنون أثواباً تنكريّة غريبة، وأن يضعوا أقنعة على وجوههم، جائلين في الشوارع، ومنخرطين في عربدات صاخبة تتضمن، غالباً، أغنيات قصيرة داعرة، وسلوكات تهريجيّة ماجنة. وكانت النيران توقد كي يؤدي الرجال والنساء حولها رقصات معربدة، كما كانت الحواجز تنصب على مداخل الأحياء المختلفة، فيوقف الأشخاص الذين يرغبون في الدخول، ويُسألون

أسئلة بذيئة وفظّة، ويجبرون على دفع «رسوم جمركيّة». أما في أثناء طقوس التراشق بالحجارة، التي كانت تدور بين العصابات من صبية المناطق المُتصارعة، فقد كانت تبلغ حدوداً قصوى، حين كان يصاب المُشاركون فيها بجراحات بليغة، وتُهشّم جماجمهم، حتى إنهم يقتلون أحياناً. وشعر الأَجلّاء من المواطنين أن تلك الاحتفالات بدأت، شيئاً فشيئاً، تخرج عن السيطرة بصورة خطيرة، والتقط سافوناورلا هذا الأمر، فنظّم حملة هدفت إلى اقتلاع هذا السلوك «غير المسيحي»، مستخدماً صبية تراوحت أَعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة. وكان يطلب من الشبان الصغار حضور دورات دراسيّة استعداداً لطقوس العبور المسيحيّة التقليديّة، التي تثبّت الانتساب الكامل للكنيسة، وتسمح للمشاركين بالمناولة المقدسة، وكان على هؤلاء أن يتعلموا، في هذه الدورات، كراسات العقيدة التي تأخذ شكل أسئلة وأجوبة، ويُفترَض تذكُّرها لدى مراسم التثبيت. وأدرك سافوناورلا أن هذه الصفوف الدراسيّة تمثّل فرصة لا نظير لها لتنظيم شبان فلورنسا في قوّة دينيّة صارمة قادرة على محاربة أشكال الغلو والإفراط التي تسود الكرنفال. وأعطى أوامره لرهبان سان ماركو، ممن كانوا يدرّسون في هذه الصفوف، أن يحبّبوا تلاميذهم بالإيمان البسيط، الذي كان يبشّرُ به في عظاته. وما لبث أن أصبح هؤلاء الفتية المراهقون، بما هم أهداف سهلة لمثل هذا الحماس الراديكالي، من المؤمنين المتحمّسين لهذه الصيغة الأصوليّة التي أتى بها سافوناورلا. وقد جرى تنظيمهم، لاحقاً، في مجموعات تتزيّا بثياب بيضاء ترمز إلى النقاء والطهارة، وجرى الدّفع بهم إلى الشوارع التي يقام بها الكرنفال، بهدف منع أي تجاوزات. وجرى نصب المذابح المزدانة بالصلبان والشموع على مفترقات الطرق الرئيسة في المدينة، حيث كان الفتية

يصدحون بالترانيم، مستميلين، بذلك، المارّة للتوقف والانخراط معهم في الغناء والإنشاد. واحتذى هؤلاء الفتية خُطى أهل الشقاوة والعربدة، فأقاموا حواجزهم الخاصَّة على قوارع الطرق. لكنهم كانوا يطلبون، بأدب جم، صدقات للفقراء، في حين دأب أولئك المعربدون على السخرية ممن أراد المرور، وإكراهه على دفع إتاوة نقديَّة. وبينما كان هؤلاء الأخيرون يجوبون سعياً وراء الانخراط في معارك التراشق بالحجارة مع غرمائهم من الأحياء الأخرى، كان «فِتية سافونارولا» يطرقون الأبواب لجمع التبرُّعات العينيَّة وتوزيعها على الفقراء.

وقد سجَّل لاندوتشي؛ المواطن المستقيم على الدوام، مفاخراً أن: «بعضاً من أبنائي كانوا ضمن تلك القوات المباركة، ذات التفكير النقي»[11] وكتب، في يومیّاته، واصفاً واحدة من الحوادث التي انهمك فيها فتية سافونارولا في أثناء الكرنفال، وما أثارته من ردَّة فعل:

> «عزم بعض الفتية أن يصادروا حامل الحجاب لإحدى الفتيات اللائي كنَّ يسرن في شارع فيا دي مارتيغلي، فأثارت عائلتها جلبة كبيرة إزاء ذلك، وقد حدث كل هذا لأنَّ سافونارولا حثَّ فتيته على التصدي للنساء اللائي يرتدين ما هو غير لائق من أدوات الزينة»[12].

كما أوصى سافونارولا فتيته أن يشتدُّوا على المقامرين الذين مقتهم أشدَّ المقت. وهكذا، فـ«ما إن يعلن أحد من الناس أنَّ: هاهم فتية سافونارولا قد أتوا، حتى يفرَّ المقامرون جميعهم، مهما بلغت خشونتهم وقوتهم». وعلى النحو ذاته، فقد تصدى «الراهب الضئيل» لما رآه الفحش الأكبر، الذي ظل كثير الشيوع في فلورنسا: «وقد حظي الفتية باحترام كبير، فقد أقسموا على درء المنكرات، ولاسيما الأكثر مقتاً من بين الموبقات جميعها، ذلك

الشيء الذين لم يتطرّق إليه شاب صغير أو شيخ كبير في تلك الأيّام المباركة». وتمثَّل «الفحش المقيت»، الذي أشار إليه لاندوتشي، هنا، في اللواط، الذي كان متفشياً في أرجاء المدينة كافة، ومنتشراً في أوساط الرجال والنساء على السواء. وقد لجأ الشبان من الرجال إلى هذا الضرب من العلاقات المثلية لعدم توافر الفتيات اللواتي كن ملزمات بالحفاظ على عذريتهنّ حتى يحين موعد زواجهنّ. وثمّة سبب آخر، تمثَّل في موقف الأزواج الذين أرادوا الحيلولة دون قيام زوجاتهم بولادة عدد كارثي من الأطفال، ولهذا فقد أُقِرَّ، بطلب من سافونارولا، في أوائل اجتماعات المجلس الأكبر، إبان شهر ديسمبر من عام 1494، قانونٌ يقضي بحكم الإعدام على من يرتكب خطيئة اللواط. ولكن، على الرغم ممّا وجّهه سافونارولا من انتقادات شديدة، ومحاولات للتضييق على هذه الفعلة، فإن المدينة أحجمت عن أي إحراق جماعي على الأوتاد للوطيين. فقد أُدين، على مدار السنوات التالية، رجل واحد فقط، وقيل إنه لص وقاطع طريق سيئ السمعة[13]، وكانت العقوبة المقرَّرة لهذه الأفعال هي الإعدام أيضاً. وكما وصف لاورو مارتنيز ذلك، قائلاً: «حتى في مواجهة الولاء القوي للراهب سافونارولا، أظهرت فلورنسا حكمة سياسيّة بالغة، إزاء حملة المطاردة ضد الشواذ جنسياً، ومن تمارس الشذوذ من النساء»[14]. لكن من الممكن وضع ذلك في خانة الاستثناء الذي أكَّد القاعدة، إذ كان التطبيق القسري للأصوليّة الدينيّة يتعاظم ويكتسب فاعلية أكبر.

وعلى الرغم من هذه القيود البيوريتانيّة المتزمتة، فقد عُدَّ ما مارسه سافونارولا من قمع بسيطاً إذا ما قورن بالقمع الذي أراحت «مدينة الرب»، الأكثر ديمقراطيّة، مواطنيها منه. وغدا الناس، فيما يبدو، محرَّرين

بفضل القداسة التي تعرّفوا إليها حديثاً، مما قاسوه من قمع مُفسدٍ ونافذ، على نحو ماكر، في مناحي الحياة جميعها على يد لورينزو العظيم. وكما صاغ ذلك لاندونتشي، قائلاً: «أحمدُ الرب أني شهدت هذه الفترة الوجيزة من القداسة. وإني لأدعو الرب أن يعيد لنا، مرّة أخرى، تلك الحياة الطاهرة النقيّة... فيا لها من أيام مباركة عشناها». وإذا كان من المؤكّد صدور بعض ردّات الفعل المناهضة لـ«فتيان سافونارولا»، حين أطلق هؤلاء حملتهم في أثناء الكرنفال السابق ليوم الصوم الكبير عام 1494، فمما لا ريب فيه أن مشاعر لاندوتشي التقويّة عكست مشاعر عدد كبير من مواطنيه. ويرسم لاندوتشي لوحة زاهية لما حصل في ثلاثاء المرافع عام 1496، وهو اليوم الذي يسبق بداية الصوم الكبير، عندما بلغ السلوك الخشن في السنين السابقة ذروته المعهودة، نقرأ:

«التاريخ 16/ فبراير. الموضوع: الكرنفال. ألقى سافونارولا، قبل بضعة أيام، عظة ينتقد فيها تقاليد الكرنفال الحمقاء، ومن ذلك ما دأبت عليه عصابات الصبية الزعّار من تراشق بالحجارة، وبناء معسكرات من الأغصان، وقال، عوض ذلك، بوجوب أن يَنْفروا لجمع الصدقات للمعدمين. وهكذا، لم ينخرط الصبية في نصب الحواجز على الطرقات، وإنما سلكوا سلوك الأبرياء الطاهرين، حاملين الصلبان على قوارع الطرقات. ولما كان هذا اليوم هو يوم الكرنفال الأخير، فقد تجمعت فرق الصبية بعد الصلوات، وقرعت النواقيس المسائيّة في كل ناحية من أنحاء المدينة الأربع، وحملت كل واحدة من الفرق رايتها الخاصّة... وسارت هذه الفرق بمعيّة قارعي الطبول والزُّمار، مصحوبين بحاملي الصولجان وخدم قصر ديلا

سينيوريا، ورافعين عقائرهم بالابتهالات، في حين حملوا، جميعاً، أغصان الزيتون. وقد استثار هذا المشهد كوامن العديد من المواطنين الأجلاء، فاغرورقت أعينهم بالدموع... وقد قيل إن زهاء ستة آلاف صبي أو يزيد، ممن تراوحت أعمارهم بين الخامسة والسادسة عشرة، شاركوا في هذه الفاعليّة»[15].

والتقت تلك المسيرات الأربع عند مشفى الأبرياء[1]، ثم عرَّجت بسيرها، بعد إذ غدت مسيرة واحدة، لتجوب المدينة أكملها، وهي تشدو ترانيم دينيّة، وتجمع تبرعات عينيّة للمعوزين، ثم تتوقف للحظات عند مختلف المواقع الرئيسة، بما في ذلك كنائس المدينة الأكثر شهرة، مثل كنيسة دير سان ماركو التابعة لسافونارولا، قبل أن تعبر النهر إلى ميدان أولترانو، لتقفل عائدة عبر جسر بونتي فيكيو، وتتقدّم في سيرها نحو الكاتدرائيّة. ومما هو جدير بالتسجيل، هنا، أنَّ خط سير المسيرة لم يتضمَّن قصر ميديتشي، الذي كان محطة رئيسة في أيٍّ من المسيرات إبان العقود المنصرمة. وليس هذا الإلغاء بمستغرب، فإذا اعتبرنا الظروف القائمة آنئذ، نجد أن الزمن قد تحوَّل، ومضت تلك الأيام إلى غير رجعة، وإن انطوى ذلك على دلالة عميقة ومؤثرة لدى الجميع.

ولا بُدَّ أن تكون تلك المسيرة الطويلة، التي كانت تصدح بالتراتيل الدينيّة، قد استغرقت أكثر من ساعة، وربما ساعتين، وذلك إذا كانت قد وقفت في كل الأماكن التي أوردها لاندوتشي في يوميّاته. ولا بد أن تكون،

---

(1) كان هذا المبنى الذي شُيِّد في أوائل عصر النهضة، وحمل اسماً مؤثِّراً (مشفى الأبرياء)، في واقع الأمر، داراً للأيتام، حيث كان يؤخذ الأطفال غير المرغوب فيهم والمهجورون فيعتنى بهم ويعلَّموا مهنة من المهن.

على النحو ذاته، أعداد غفيرة من أهل فلورنسا؛ الذين إما اصطفوا على قوارع الطرقات، أو نظروا إليها من نوافذهم، قد شاهدوا خط المسيرة الطويل. وكان من الممكن لكثير من هؤلاء أن يمضوا يومهم في العربدة في الظروف العاديَّة. وعلى الرغم من أن أهل فلورنسا لم يكونوا جميعهم مساندين للتطورات الجديدة هذه، فلم تسجل أي حوادث جديَّة أو خطيرة مثل إقامة الحواجز في الطرقات، أو التراشق بالحجارة في أي من المصادر المعاصرة في ذلك الزمان.

وحين وصلت المسيرة إلى الكاتدرائيَّة «كانت الكنيسة تغصُّ بالرجال والنساء، الذين فصل بينهم، فجعلت كل فئة في جانب من جانبي الكنيسة. وكانت القرابين تُقدَّم مشفوعة بإيمان صادق ودموع خاشعة، لم يشهد مثلها من قبل. ومن المؤكد أن زهاء عدة مئات من الفلورينات قد جرى جمعها، وجعلت العديد من الفلورينات الذهبيَّة في أوعية جمع الصدقات، لكن أغلبها كان من فئة النحاسيَّات والفضيَّات الصغيرة. وتبرعت بعض النسوة بمشابك خمورهن. وتبرَّعت أخريات بملاعق فضيَّة، ومناديل، ومناشف، وكل ما يعنُّ في البال من الأشياء الأخرى. وقد بدا أن كل من أمَّ المكان أراد أن يتقدَّم بشيء للمسيح وأمه، ولقد قمت بتدوين هذه الأشياء لأنها حقيقيَّة، رأيتها بأم عيني، وتأثرت بها أيما تأثر».

وعلى الرغم من أن العبارة الأخيرة تحملُ في أطوائها معنى الإضافة، فإن المغزى منها بدا وكأنه تأكيد لشعور غير اعتيادي خالج لاندوتشي في هذا اليوم. وهكذا، سبقت أكثر مدن أوروبا تحضُّراً زمنها كرَّةً ثانية، فقد كانت تلك ثورة، لا شيء آخر، وهي الأولى في فجر الحقبة الحديثة. ويمكن النظر إلى سافونارولا، بهذا الاعتبار، على أنه رائدٌ لتقليد سيستمر لينتج

شخصيات من أمثال لوثر، وكرومويل، وروبيسبير، وحتى لينين. وليس من الصعب أنْ نرى في سافونارولا عناصر جنينيّة لكل الشخصيّات الثوريّة التي أعقبته، مثلما أن من غير الصعب تلمُّسَ بشيرٍ بمقطوعة ووردزورث الشهيرة حول الثورة الفرنسيّة في كلمات لاندوتشي المنتشية (يا لها من أيام مباركة عشناها)، وتقول المقطوعة:

«لشدَّ ما هو رائع أن تكون حياً في ذلك الفجر
ولكن أن تكون شاباً يافعاً ذلك هو النعيم عينه»[16]

وألقى سافونارولا في اليوم التالي الذي صادف أربعاء الرماد (1496) أولى عظات الصوم الكبير في الكاتدرائيّة أمام حشد من المصلين، الذين ضاقَ بهم المكان:

«وقد أُقيم مُدَّرج لفتيان سافونارولا بمحاذاة الجدران، قُبالة المذبح الكائن وراء النساء... وشدا الفتية تسابيح عذبة قبل بدء العظة، ودخل رجال الدين، إثر ذلك، الهيكل، وشرعوا بإنشاد الابتهالات التي ردَّدها الفتية من ورائهم. وكان ذلك رائعاً فأَبكى الجميع، بمن فيهم أكثر الناس تحفُّظاً، وهم يقولون: إن ما يجري شأن ربَّاني»[17].

ورأى كثرة من الناس أن عظات سافونارولا في الصوم الكبير لعام 1496 من أرفع ما قدَّمه في حياته، فهي لم تتوفر على كثير من الخيالات الرؤيويّة- كما كانت عليه حال عظاته السالفة. وقدَّم، عوضاً عن ذلك، حججاً وأفكاراً تُعيِّن الخطوط العامّة لأهدافه، ورأى في مفتتح عظته أن مستقبلاً بعينه ينتظر أولئك الذين كدُّوا، في الآونة الأخيرة، لإذاعة أفكاره وبثِّها،

وجاء فيها:

«بِكم، أيُّها الشُّباب، أضع أملي وأمل الرب. فأنتم من سيحكم مدينة فلورنسا، لأنكم لستم نزّاعين إلى الطرق الشريرة التي اتَّبعها آباؤكم الذين لم يعرفوا كيف يكون الخلاص من حكامهم المستبدين، أو تقدير هبة الحريَّة التي وهبها لشعبه»[18].

كما تطرّق إلى المسألة التي لم يجر حلُّها بعد بشأن علاقته مع الكنيسة، مسترجعاً حجته العقليَّة البارعة، ومؤادها: «لقد كتبت إلى روما، موضّحاً، أنني إن كنت كتبت، أو أوردت في عظاتي، على نحو غير مقصود، شيئاً يمكن أن يدخل في باب الهرقطة... فأنا على استعداد للاعتذار، والتراجع، دون تحفظ، عن أي شيء قلته. وسأظلُّ، دوماً، مذعناً لحكم الكنيسة».

وليس هذا فحسب، وإنما ذهب بعيداً إلى حد القول بعصمة الكنيسة فيما خصّ العقيدة. ولكن، إذا كانت الكنيسة معصومة في هذا الأمر، فلا يعني ذلك أن رجال الكنيسة وعامة الناس ملزمون بالنزول عند كل أمر يصدر عمَّن هم أرفع منزلة في الطبقة الأكليريكيَّة، حتى لو صدر ذلك الأمر عن البابا نفسه. وألَحَّ سافونارولا قائلاً: «لا يمكن للبابا أن يأمرني بالقيام بشيء يتعارض مع تعاليم الأناجيل». وستغدو هذه الفكرة لازمة متكررة في عظات الصوم الكبير جملةً. إذ أصرَّ، قائلاً: «يتوجب علينا أن نطيع الرَّب لا أن نطيع الإنسان». وادَّخر امتهانه الشديد لـ«كاهن روما الأكبر... أنت يا من جَلَبت شهوته، وشغفه بالترف والسرف، وغروره، الدمارَ للعالم، منتهكاً حرمة الرجال والنساء على السواء بشهوانيتك، ودافعاً بالأطفال إلى اللواط والبغاء... أنت يا من تمضي الليالي مع محظيتك، وتقوم بعدها بأداء الطقوس المقدسة في الصباح»[19]. وأدرك سافوناورلا، فيما يبدو، أنه إذا حصر نفسه

في الطائفة التوسكانيّة التي يتزعمها، فإنه سيصبح معزولاً، ولا ريب، من جانب الهيراركيّة الكنسيّة. وعليه، ستبدأ التحركات للإعلان بأن ما ينادى به سافونارولا من تعاليم هرطقة، وستحشد روما أعداء فلورنسا التقليديين، وستهاجم المدينة وتهزم. وستذهب إصلاحاته، حينها، أدراج الرياح. ولذا، فإنه ما عاد يمتلك بديلاً سوى توسيع دائرة طموحاته، والسعي لإصلاح الكنيسة كاملة. وغدت نبرة خطابه، استتباعاً، أخشن.

وكان على أهل روما، إذاك أن يتحضّروا المصائر جهنّميّة، إذ: «سَتُصَفدون بالحديد، وتقطعون إرباً إرباً بالسيوف، وتحرقون بالنار، وتأكل أجسادكم ألسنة اللهب». وسيصف سافونارلا، في عظة أخرى من عظات الصوم الكبير، تصوراته الرؤيويّة، مقارناً بين مصير روما ومصير بابل. يقول في عظته تلك:

> «سيتلاشى النور في غياهب الظلمة، وستمطر السماء ناراً وصخوراً كبريتيّة. في حين تضرب النيران والجلاميد الأرض وتحيلها قاعاً صفصفاً... لأن روما قد تلوّثت بخليط جهنّمي قوامه الكتاب المُقدّس، ممزوجاً بأشكال الرذائل جميعها»[20].

وكان أفراد جماعة الأرابياتي، وأعداء سافونارولا داخل الكنيسة، يبلغون، بسرور كبير، كل كلمة تصدر عنه إلى روما. وكانت دعوته لمواجهة أي من البابوات ممن تعارض مواقفهم مع الكتاب المقدس من السوء بمكان. ولكن ما هو أبلغ من ذلك تمثّل في إشارته التي تقول: «أنت يا من تمضي الليالي مع إحدى المحظيات، وتؤدي بعدها القدّاس في الصباح»، فقد عرف كل من سمعها من المقصود بذلك، سواء أولئك الذين كانوا يستمعون إلى العظات، أو من وصل إليهم خبرها من الهيئة الكهنوتيّة في روما. فقد مثّل

ذلك إشارة، لا يعتورها لبس، إلى سلوك ألكسندر السادس. وتعاظم قلق السلطات الفلورنسيّة مع كل عظة جديدة. وكان مجلس السينيوريا يعي أنْ ليس بمقدوره كبح جماح سافونارولا، مخافة أن يستعدوا مناصريه المدعوِّين بـ «النّائحين Piagnoni». لكنهم كانوا، جميعاً، مدركين أن الغضب المتعاظم لدى الأرابياتي يمكن أن يتفجّر بفعل حالة الغليان. وكانوا يخشون من الإجراءات التي يحتمل أن يتخذها ألكسندر السادس ضد المدينة. وثمّة دليل يشيرُ إلى أن السلطات فوضت بيرو كابوني للتحدُّث مع سافونارولا، محذِّراً إياه من المخاطر التي كان يستجلبها للمدينة. ومن المثير للاستغراب أن هذا التحذير بدا، وكأنه أعطى سافونارولا سبباً للتأمل والتفكير، الأمر الذي يمكن ملاحظته في العظة الدينيّة الأخيرة من سلسلة العظات التي ألقيت بعد عيد الفصح في العاشر من إبريل. فقد افتتح عظته بالتحدي المعتاد، مُصراً على أنه لن يلتزم بالنزول عند أوامر تطلب منه فعل الأخطاء، سواء أتت تلك الأوامر ممن هم أرفع منه منزلة في السلك الكنسي، أو من البابا نفسه. وأصرَّ، وهو يخاطب أياً من هؤلاء الأعداء، على القول: «أنت الذي على خطأ، ولست أنت الكنيسة. إنك إنسانٌ ومرتكب للمعاصي»[21]. ومع ذلك، فإن شيئاً مما قاله كابوني مارس أثراً تأديبياً عليه، لأنه ألمح، بعدها، لما سيجري، مستقبلاً، وما سيخوضه من صراعات. «هل ترغبون في معرفة كيف سينتهي كل هذا بالنسبة إلي؟ أستطيع أن أقول لكم إنه سينتهي بموتي، وذلك حين أُقطَّع إرباً إرباً». وكما لو أنه يحاول التنبؤ بمصيره، سعى، بصورة متناقضة، إلى الدفاع عن نفسه، وسوق الحجج على براءته من أي انتهاك لحرمة ألكسندر السادس:

«لقد بلغت قداسته معلومات، شفاهة أو كتابة، بأني قمت بانتقاده

على سلوك مُشين، وهذا غير صحيح. فكما ورد في الإنجيل: ولا تلعن رئيساً في شعبك. وأنا لم أقارف ذلك الفعل، بل إني لم أُشر، قط، بالاسم إلى أي امرئ خلال عظاتي من على هذا المنبر الكنسي».

وأقلُّ ما يقال في هذا الكلام أنه مراوغ ومخاتل، وهو وإن حرص على عدم ذكر ألكسندر السادس بالاسم، فإن كل من حضر الصلوات عرف إلى من تحيل كلماته.

وكانت أخبار عظات سافونارولا قد أغضبت حكام إيطاليا جميعهم، فلم يسمح هؤلاء لأي قسيس بإلقاء مثل تلك العظات الملتهبة في ولاياتهم. وكانوا على يقين أن من شأن إذاعة هذا الضرب من الآراء أن يثير البلبلة بين المواطنين. فكان لا مناص من إيقاف هذا القسيس صاحب الأفكار الهدّامة. وكما عرف سافونارولا أنه لن يصيب النجاح ما لم تنتشر رسالته في أرجاء المعمورة، وما لم ينجح في غزو روما، أدرك حكام إيطاليا، أيضاً، أن زعاماتهم كانت عرضة للمساءلة مادام سافونارولا ماضياً في الوعظ والتبشير بدينه الأصولي، وما ينطوي عليه من محاولات سياسيّة خطرة، فكان من المتوجّب إسكاته على نحو قاطع وعاجل. وكان الشخص الذي توجّب عليه الاضطلاع بذلك هو البابا، غير أن ألكسندر السادس كان مايزال يدرك أنه إذا قام بأي محاولة جديّة لمعاقبة سافونارولا، فسيؤدي ذلك، حتماً، إلى إثارة غضب مواطني فلورنسا الذين سيجنحون، بدورهم، إلى استدعاء شارل الثامن كي يعجّل بمخطّطاته لغزو إيطاليا، وعزل البابا عن عرشه. فعيَّن الأخير، كسباً للوقت، لجنة كنسيّة من كبار علماء اللاهوت للتحقيق في سلوك سافونارولا وما تضمنته عظاته، بحثاً عن دلائل ومستمسكات هرطقيّة.

وتمثّل أحد أسباب تأييد الناس لسافونارولا، بهذه الأعداد الغفيرة، في الوضع البائس والضاغط، الذي عمّ فلورنسا في ذلك الوقت. فقد قاوم أهل بيزا كل مساعي جيش المرتزقة الفلورنسي في استعادة المدينة، وعنى ذلك أن تجارة فلورنسا، في غالبها، قد تجمّدت تقريباً. وازدادت الحالة سوءاً بسبب أحوال الطقس غير المعهودة، التي ضربت إيطاليا على امتداد سنة كاملة تقريباً. وروى لاندوتشي في الـ14 من مايو عام 1496، قائلاً: «لم يتوقف المطر هنيهة واحدة طوال هذا الوقت، وكانت العواصف المطريّة قد تواصلت زهاء أحد عشر شهراً، فلم يحدث قط، أن مرّ أسبوع بأكمله خلا من الأمطار»[22]. وتفاقمت الأمور كثيراً إلى درجة أنه تحدّث عن ذلك بتاريخ الـ18 من مايو، فقال: «حدث فيضان عظيم بلغ من القوّة حداً أخذ معه نبات الذرة النامية حديثاً في الحقول، ووصل إلى مسافات بعيدة، بُعدَ السهول المنخفضة، بالشدّة نفسها التي كان عليها هنا، في حين تدفقت المياه بالغةً قرية[1] في روفيزانو عبر جدارين على جانب الطريق».

وشرع الفلاحون، موقنين بضياع موسم الحصاد القادم، بالتدفّق من الضواحي الريفيّة، طلباً لما توفره المدينة من حماية، وما لبثت عائلات كاملة أن بدأت بالتخييم في الشوارع، وتوسُّل الطعام. وقد عنت مشاعر التعاطف المسيحي السائدة لدى عامة مواطني المدينة أنّ أحداً لن يقضي جوعاً، وقام سافونارولا بتجنيد رهبان سان ماركو كي يضطلعوا بتوزيع الطعام والكساء الملائم، مما جُمع في أثناء الصوم الكبير. ومع ذلك، فسرعان ما بدأت هذه

(1) قرية من قرى النساجين تبعد ميلين إلى الشرق من أسوار المدينة في أعالي وادي آرنو. وما يشير إليه لاندوتشي بوصفه corn يعني القمح وغيره من الحبوب، وليس الذرة الصفراء.

العائلات، التي عصفت بها الهوام والحشرات، وقد استوطنت الأرصفة، تمثّل خطراً على الصحّة العامّة. وبدأت الإشاعات والأقاويل المقلقلة تشيع في المدينة، وكان لاندوتشي قد سمع، في وقت مبكر يعود إلى الرابع عشر من مايو أنّ وباء الطاعون «قد عاود الظهور في عدة مقاطعات من فلورنسا». وكما سجّل في يوميّاته، إثر ذلك بأسبوعين، «فقد بدأ العديد من الأشخاص يعانون من أعراض بعينها تُدْعى(الدّمامل الفرنسيّة)، التي تبدو شبيهة بالجدري. لكنها كانت تتزايد باطّراد، ولم يهتد أحد إلى علاجها»، ومن شبه المؤكد أن هذه الأعراض كانت تُشير إلى مرض «الزُّهري» وليس الدُّبول (أورام في الغدد اللمفاويّة)، التي كانت من الأعراض المائزة للطاعون الدُّبلي[1]. ولم يتبق إلا النزر القليل من المال في الخزينة العامّة بعد أن دُفعت نفقات جيش المرتزقة الذي يقاتل في بيزا، مما ترك مجلس السينوريا عاجزاً عن التعامل مع تدفق عديد اللاجئين من الأرياف، فضلاً عن تفشّي الأمراض.

وقد أرسلت لجنة علماء اللاهوت، في تلك الأثناء، تقريرها إلى ألكسندر السادس، وجاء فيه أنّها لم تقع على أي دليل يفيد بوجود أفكار هرطقيّة في

(1) لم يكن وباء الطاعون الذي عاود الظهور، مرّات عديدة، في العديد من المدن الايطاليّة والأوروبيّة، خلال هذه الفترة، فتاكاً كما كان الموت الأسود (أو الطاعون الدُّبلي)، الذي اجتاح أوروبا قبل زهاء 150 سنة، حاصداً أرواح ما يعادل ثلث العدد الكلي للسكان. أما هذه الأوبئة التي ضربت فلورنسا (وغيرها من المدن) فلم تكن فتاكة إلا بالنسبة إلى من أصيب بها، ونادراً ما كانت تتجاوز في انتشارها عدة حالات قليلة في الجوار القريب جداً، وكان المرض يختفي فجأة وفي ظروف غامضة كما بدأ. ويشيرُ كل هذا أن هذه الأوبئة اللاحقة كانت أقل فتكاً من الأشكال الأخرى للمرض كتلك المتصاحبة مع «التهابات الدم» أو الالتهابات الرئويّة. ومن المثير للاهتمام، وهو ما يتبدى واضحاً في إشارة لاندوتيشي، أن الطاعون الذي ظهر في فلورنسا، في ذلك الوقت، والدمامل الفرنسيّة، كانا يُعدّان مرضين مختلفين تماماً.

كتابات سافونارولا وتعاليمه. وكان من شبه المؤكد أن مردُّ هذه الخلاصات غير المرتقبة عائد إلى وجود الكاردينال كارافا في اللجنة. وإذا كان لأي شخص أن يؤدِّب راهباً دومينيكياً، فيتوجب عليه أن يكون النائب الأسقفي العام لأخويته الرهبانيَّة، وليس البابا. وقد عبَّر رؤساء الأخويات الأخرى عن مشاعر مشابهة، فلم يكن ثمة من يرغب باستحداث بدعة بغيضة توسِّع دائرة نفوذ البابا على حساب سلطتهم. وكان ثمَّة إجماع، مؤدَّاه استحالة إدانة سافونارولا بالهرطقة، وهو يستند في كل ما بَشَّر به إلى تبحُّره المتفرِّد في الكتاب المقدَّس.

وقرّر البابا، إثر ذلك، اتباع تكتيك مختلف، فقد أمر، في وقت ما من الأسابيع الأولى لشهر أغسطس، بمثول الراهب لودفيكوا دا فيرارا، الذي لم يكن رئيساً عاماً للرهبنة الدومينيكيَّة[1] فحسب، وإنما اتفق، أيضاً، أنه ينحدر من المدينة نفسها التي جاء منها سافونارولا، وأَوعز إلى لودفيكو فيرارا بالقيام بمهمة سريَّة إلى سافونارولا في سان ماركو، يسأله فيها النصح حول الكيفية التي يصار بها إلى إقناع فلورنسا أن تصبح حليفة للبابا.

وشدَّ الراهب لودفيكو رحاله، بموجب ذلك، إلى فلورنسا، حيث اجتمع إلى سافونارولا، كاشفاً له أنَّ البابا قطع له وعداً إن تعاون لإنجاح مخططاته فسيرسِّمه -إكراماً لفلورنسا- كاردينالاً. ولم تكن لدى سافونارولا الرغبة في إعطاء أي رد فوري للراهب لوديفيكو، واكتفى بإخباره أنْ: «احضر عظتي القادمة، وستسمع ردِّي[23]». وكان مجلس السينيوريا قد دعا سافونارولا لإلقاء عظة يوم السبت التالي الموافق للعشرين

(1) كان الرئيس الشرفي للرهبنة؛ الكاردينال كارافا، هو المسؤول عن إدارة الشؤون اليوميَّة للرهبنة، بما هو النائب الأسقفي العام.

من أغسطس في قاعة المجلس الأكبر[1]، التي اكتمل بناؤها منذ وقت يسير، ولم يكن من المنتظر أن تقتصر تلك العظة على الشأن الديني، وإنما كانت وسيلة شبه رسميَّة يتمُّ فيها إعلام أعضاء السينيوريا وكبار أعضاء الإدارة الحاكمة بأفكاره المتعلقة بالشأن السياسي الداخلي والخارجي على حد سواء. وقد تحدَّث سافونارولا، خلافاً لعظاته التي اتخذت منحنى انفعالياً في الكاتدرائية، بعبارات هادئة ومتعقِّلة، متناولاً عدداً من الأسئلة التي عرف أنها تنتهب عقول أكبر عدد من المسؤولين. وشرح لهم الأسباب التي دعته إلى الاضطلاع بمهمَّة البقاء على تواصل مع شارل الثامن: وتمثَّل ذلك بتذكير الملك بواجبه في إنفاذ دوره بوصفه «سوط الرب». وأنكر، في الوقت عينه، تهمة معارضته التحالف المقدس مع ألكسندر السادس. وأنه ظل معارضاً لانضمام فلورنسا إلى التحالف الإيطالي الذي يتزعمه البابا، لأن فلورنسا أعطت كلمتها، من قبل، لشارل الثامن أنها ستبقى حليفة له. تطرَّق سافونارولا إلى العديد من الأمور الأخرى، نحو تقديم العون إلى أولئك الذين استوطنوا الشوارع، ليعرِّج، بعد ذلك، إلى الإشاعة التي كانت تجتاح فلورنسا آنذاك، ومفادها أن سافونارولا سَيُرَسَّمُ كاردينالاً عما قريب. فتحوَّلت نبرته وسلوكه فجأة، عند هذه النقطة، وعاد كما لو كان يلقي عظة بكل الحنق والإيمان الراسخ لنبي من أنبياء العهد القديم، وأنكر، بشدَّة، أن تكون قد داخلته أي رغبة في تسلُّم القبَّعة القرمزيَّة الكارديناليَّة، وجاء في عظته: «لو أني اشتهيت مثل ذلك الأمر، فهل كنت أقف أمامك

(1) ومع ذلك، بقيت القاعة، من بعض الجوانب، غير مكتملة بعض الوقت، لأسباب اقتصاديَّة. ولم تكتمل إلا بعد ثمانية أعوام حين فُوِّض ليوناردو دافنتشي وميخائيل أنجلو لتغطية الجدارين الجانبيين الهائلين بجداريات تصوِّر انتصارات فلورنسا التاريخيَّة.

بهذا الرداء الرّث؟ على النقيض من ذلك، فإن الهبة الوحيدة التي أسعى إليها هي الهبة التي يمنحها الرب لقديّسه، ألا إنها الموت، أو قبعة الدم القرمزيّة، هذا كل ما أتشوف إليه»[24].

وكان سافونارولا قد تنبأ في عظات يوم الصوم الكبير بحلول منيته (سأُقطّع إرباً). وكشف حينها، بصورة لا مراء فيها، عن شوقه أن يكون شهيداً، وبدا كأنه يرى مثل تلك النهاية أمراً محتوماً. ومن الجدير أن نضع ذلك في الاعتبار لدى مطالعتنا ما سيلي من أحداث، فمن المؤكّد أنه كمن وراء كل ما اتخذه من قرارات.

وبقيت فلورنسا، في تلك الأثناء، ترزح تحت وابل من الأمطار التي تركت آثارها الكارثيّة على امتداد المناطق الريفيّة، مخلّفة مشهداً بائساً، فـ«لم يجر حصاد الحبوب، حتى تلك اللحظة، في العديد من المناطق، وتأخّر الموسم باكمله، ولم تكن الحنطة أو العنب أو التين قد آتت أكلها بعد»[25]. وغدا مخزون المدينة من الطعام متدنياً على نحو خطير، وخيّم على المدينة شبح المجاعة.

وازدادت، في الوقت عينه، الحرب ضد بيزا سوءاً، فقد جرى إمداد بيزا المحاصرة عبر السفن التي جاءتها من البندقية وميلان، وما لبثت أن أرفدت هذه الإمدادات بقوات دفع بها ماكسميليان الأول؛ الإمبراطور الروماني المُقدّس[1]، الذي استدعي من جانب لودفيكو سفورزا؛ حاكم ميلان. وقَدْ ناءت فلورنسا بحِمل دفع أجور الجنود المرتزقة، حتى إن بعضهم انضم،

(1) ماكسيمليان الأوّل: حكم مناطق في النمسا وألمانيا وبورجندي، وكان الأخير معارضاً لفرنسا، وحرص على إظهار دعمه لألكسندر السادس، كما انضمّ إلى الحلف المقدس. وقد تطلّع إلى أن يتوّجه البابا، رسمياً، إمبراطوراً، وهو تقليد يعود إلى زمن شارلمان، وقد جرى تعطيل هذا التقليد.

بساطة، إلى المعسكر المقابل، فقد شعر بإمكانية أن يُدفع له أكثر.

وكان بييرو كابوني قد وضع على رأس القوات الفلورنسيَّة، وبذل الأخير وسعه للملمة شعث الجنود المرتزقة، الذين كانوا تحت إمرته إسمياً. وعندما اندلع القتال مع قوات بيزا، التي سعت إلى قطع خطوط الإمداد من ناحية ميناء ليفرنو القائم على الساحل، ويقع على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب، انبرى كابوني لصدّه. ولشدَّ ما كان رجلاً مقداماً، اقتاد رجاله في ساح الوغى، واستحثُّ المرتزقة على الانخراط في قتال منجز، لكنه حين اقتاد الهجوم على القلعة الكائنة في سولانا الواقعة فوق التلال المطلّة على ليفورونو، عاجلته طلقة بندقية من فئة الهركوبة (وهي نسخة قديمة من بندقية الماسكيت)، وقد تسبَّبت له بجرح قاتل، فقضى صريعاً في ساح المعركة.

وأشاعت أنباء مصرع كابوني جواً من الحزن الشديد بين أهل فلورنسا، لأنه ما طفق يُعدُّ بطلاً بسبب موقفه العلني في مواجهة شارل الثامن. وجرى نقل جثمان كابوني إلى مسقط رأسه على بارجة عبر نهر أرنو. وأُقيمت له، في السابع والعشرين من سبتمبر جنازة رسميَّة حضرتها أعداد غفيرة من الناس[1].

وذكر لاندوتشي في مدّوناته، بعد ذلك بأقل من شهر، كيف وصلت الأخبار من حلفاء فلورنسا في ليفورنو بأنَّ:

«أثنتي عشرة سفينة تحمل شحنات من الحبوب حطّت رحالها هناك. وتبين أن تلك الأخبار غير صحيحة، فعلى الضد من ذلك، كان ذلك أسطولاً لملك فرنسا. كما أنَّ أهل بلدة ليفورنو هبّوا باتجاه

(1) من الممكن تلمس محبة أهل فلورنسا الدائمة لكابوني حين نعلم أن شارعاً لم يزل يحمل اسمه هناك، وهو يقع شمال مركز المدينة، قريباً من الموقع السابق لبوابة بورتو سان غالّو.

معسكر الإمبراطور ماكسميليان الأول، فذبحوا نحو أربعين رجلاً، واستولوا على أسلحتهم المدفعيّة»[26].

ولم ينته حصار بيزا بهذا «الهجوم الأهلي المباغت». لكن الفلورنسيين أدركوا، على أقل تقدير، أن بمقدورهم الاعتماد على المساعدة الفرنسيّة، وأن مخزونهم المتناقص من الحنطة سيجري تعويضه.

وذهبت كل تلك الآمال أدراج الرياح حين وصلت الأنباء التي تقول إن ابن شارل الثامن ووريثه؛ الدوفين (الابن الأكبر) الذي أدخل مولده، في شهر سبتمبر، البهجة والحبور إلى قلب الملك، قد وافته المنيّة إثر ذلك التاريخ بخمسة وعشرين يوماً فقط، أي بتاريخ الثاني من أكتوبر. وأخذ الحزن بمجامع قلب الملك شارل الثامن، فألغى غزوه المزمع لإيطاليا. وكان سافونارولا، قطعاً قد حذّر شارل الثامن بأن الرب سينزل به العقاب إذا لم يتصرف بوصفه «سوط الرب»، فيغزو إيطاليا كرّة أُخرى. وقَدْ تحققت، بذلك، نبوءة أخرى من نبوءاته، ولكن لم يبتهج أحدٌ من أهل فلورنسا بتحقق هذه النبوءة. فقد تُرِكت فلورنسا وحيدة في مواجهة الأعداء من كل حدب وصوب، وبدأ بعض المواطنين يضيقون بهذه النبوءات.

وتلقّف أعداء سافونارولا من الأرابياتي، مستندين إلى أنصار أسرة ميديتشي، هذه الفرصة على الفور، سعياً وراء إثارة مشاعر الكراهية تجاه «الراهب الضئيل». أوَلم يكن قد دوّن في «جامع الكشوفات» أن مريم العذراء أخبرته كيف أنَّ: «مدينة فلورنسا ستغدو أكثر مجداً، وقوّة، وازدهاراً وغنى مما كانت عليه طوال عصورها السالفة، وأن ما خسرته من أراض لا بُدَّ مُسترجعة، وأن حدودها ستنداح إلى أبعد مما بلغته من قبل؟»[27] فماذا بشأن هذه النبوءة؟ لا يمكن أن توصف تجارة فلورنسا، آنئذ، إلا أنها في حالة

ركود وكساد، كما لم يكن في مكنة المدينة استعادة بيزا.

وقد ردّ سافوناورولا على مثل هذه الانتقادات في العظة التي ألقاها في الكاتدرائية يوم الأحد الموافق للثامن والعشرين من أكتوبر، لكنه لم يأسف على عدم تحقيق هذه النبوءات، بل إنه وبّخ جموع المصلين. فلم تكن فلورنسا جديرة بهذه النعمة ما لم تتطهّر، وقد عوقب سكان فلورنسا بسبب عدم توبتهم، ومازال كثيرٌ من الشر يرفل في «مدينة الرب». وأصغى جماعة المصلين، وقد تملّكهم الخوف، ولكن حتامَ سيبقون راغبين في وضع إيمانهم وثقتهم في الروح القدس؟

وامتلأ ألكسندر السادس بهجة لدى سماعه بإلغاء الغزو الفرنسي، فأمر القوات البابويّة، في الحال، بالسير شمالاً واحتلال فلورنسا، وانضمت إلى هذه القوات فرقة عسكريّة من سيينا. وإذْ تقدّمت هذه القوّة المشتركة نحو فلورنسا، فقد عمد المرتزقة من جنود فلورنسا إلى الانسحاب من بيزا لقطع الطريق على هذه القوات. والتقت القوتان عند كاشينا في وادي بو الواقع إلى الشرق من بيزا. وما هو إلا وقت قليل حتى أَجبر جيش المرتزقة الفلورنسي القوات البابويّة على الفرار، ثمّ دخلوا في سورة من السُعار، فأعملوا يد القتل، وسلبوا ونهبوا كل من صادفهم خلال مسيرهم داخل عدد من القرى الجبليّة، قبل أن يرتدوا لحصار مدينة بيزا، لكن ذلك كله لم يجلب للفلورنسيين إلا راحة مؤقتة، فقد باشر أسطول البندقيّة بإغلاق ميناء ليفورنو إغلاقاً منظماً، متسبباً بعودة الأسطول الفرنسي المحمل بالقمح والحبوب من حيث أتى، أي إلى مارسيليا. كما ترجّل الإمبراطور الروماني المقدّس، ماكسميليان الأول، من أسطوله محفوفاً بمزيد من القوات، ونزل في بيزا.

واحتشدت ضد فلورنسا القوات المشتركة المؤلفة من قوات البندقيّة، وميلان، وقوات ماكسميليان الأول الإمبراطوريّة، مشفوعة بقوات ألكسندر السادس ونابولي بوصفها عداة محتملين لم يظهروا بعد للعيان. كما كان بيرو دي ميديتشي وأخوه الكاردينال جيوفاني يضعان الخطط لإنشاء جيش من المرتزقة بهدف مهاجمة فلورنسا. ومن المثير للسخرية، أن نزول ماكسيملان بـ «بيزا» هو الذي عجّل بالانقسام بين المتحالفين، حين توضّح للجميع أنه كان يفكر في الاحتفاظ ببيزا لنفسه. وأدى ذلك إلى استعداء كل من قوات البندقيّة وميلان، اللتين كانت لهما خطط سريّة مماثلة، في حين كان بيرو دي ميديتشي مصمّماً، أشدَّ تصميم، على أن تبقى بيزا ملكاً للفلورنسيين.

لكن فلورنسا، مع ذلك، لم تتوفر على أي حليف، ولم يكن وضعها الداخلي أفضل حالاً. فقد عمدت الإدارة الحكوميّة إلى رفع الدين العام إلى مبلغ هائل جرّاء استمرارها في تمويل جيش المرتزقة. وبصرف النظر عن إصلاحات سافونارولا، فقد بدأ كره الحكومة يتزايد، ولاسيما وسط طبقات أرباب المال. وعلى الرغم من الانتصار الذي تحقّق في كاشينا، فقد تبدّى أُفق المستقبل غائماً.

(17)
محارق المتاع الزائل

قاست فلورنسا، كما كان يُخشى، شتاء قاسياً، انتهى بمجاعة، وتفضي الصورة التي رسمها لاندوتشي للحياة في المدينة، إبان ذلك الوقت، إلى قراءة كئيبة وقاتمة. إذ كتب، في 25 من يناير عام 1497، يقول:

«بلغ سعر البوشل من الحبوب 3 ليرات و14 سولدياً[1]. وقد ماتت، في ذلك الوقت، امرأة وسط جمهرة من الناس في سوق الذرة، حيث كانت تباع مخزونات المستودعات الحكوميَّة من الخبز والذرة. كما نقلت لنا الأخبار نبأ أحد الفلاحين الفقراء، الذي قدم إلى فلورنسا يتوسل الخبز، تاركاً وراءه أطفاله الثلاثة يتضورون جوعاً، وحين رجع إلى البيت وألفاهم يُحتَضرون من الجوع، ولم يجد ما يقيم به أودهم، تناول حبلاً وشنق نفسه»[1].

وعلى الرغم من صدور مرسوم رسمي قضى بخفض سعر الذرة إلى 12 سولدياً للبوشيل الواحد قبل أسبوع أو نحو ذلك، فقد سجَّل لاندوتشي في

(1) كانت الليرة تساوي عشرين سولدياً. وقد بلغ سعر البوشل من الحبوب، في الأوقات العاديَّة أقل من ليرة واحدة. ومن الصعب مقارنة الأسعار بدقة. لكن المصادر المُطّلعة تشيرُ إلى أن ما كان يكسبه عامل محترف، خلال هذه الأوقات الصعبة، يومياً، لم يكن يكفي لإطعام عائلته (المكونة من ثمانية أفراد تقريباً) سوى بالقليل من الخبز والخضار. ولم تكن الكوميونة «السلطات المدنية» توزع الحبوب مجاناً فحسب، وإنما كانت الأديرة، مثل دير سان ماركو، توزِّع، أيضاً، الخبز للجوعى بقدر ما تستطيع.

السادس من فبراير كيف أن التوزيع المجاني للحبوب على المعدمين أدى إلى حدث أكثر ماساوية، نقرأ:

«تعرض العديد من النساء إلى الاختناق في زحام سوق الذرة، في حين أُخرج بعضهنّ وهن يصارعن الموت، وربما بدا ذلك غير قابل للتصديق لكني شاهدته بأم عيني».

وعرفت فلورنسا، في ذلك الدور من تاريخها، أموراً غريبة. وشهد اليوم التالي ذروة أسابيع عيد الصعود [الكرنفال] لتلك السنة، عندما «احتفل» بالكرنفال نفسه على طريقة سافونارولا. إذ كان «فتية سافونارولا»، مرّة أُخرى، قد أمضوا الأسابيع السابقة على الاحتفال بنصب المذابح الكنسيّة على قوارع الطرقات، ذارعين الشوارع في مجموعات، وهم يتوشّحون البياض، رافعين عقائرهم بالابتهالات الدينيّة، وقاصدين البيوت لجمع التبرعات لأهل العُسْرة. وكانت عمليّات الجمع هذه قد اتخذت طابعاً أكثر إلحاحاً، إذ كانت الأشياء التي سعى وراءها فتية سافونارولا، حينها، من تلك الفئة التي تصنَّف، بوصفها من متاع الدنيا الزائل (أباطيل بالتعبير الكتابي). وتجاوزت أنشطة هؤلاء الفتية، كثيراً، أخذ المواد التي على شاكلة حامل الخمار الذي تتزيّن به النساء، وتضمنت جمع كل أشكال الزينة وأدوات الرفاه، المعتبرة من تلك الأشياء التي تنأى بمالكيها عن الطريقة المسيحيّة الأُصوليّة، مما بشَّر به سافونارولا في عظاته. واشتملت تلك الأشياء على الأدوات التي تستخدمها النساء في الزينة؛ مثل المجوهرات، و«شعر الأموات»[2] المُعطَّر «الباروكة»، والمرايا، والعطور (الروائح الداعرة)، والأقمشة المصبوغة بالألوان الزاهية التي تصنع منها الألبسة. ومن نافل القول، أن الأشياء المستخدمة في المقامرة كانت مطلوبة بكثرة أيضاً، ومن ذلك أحجار النرد،

وأوراق اللعب، وموائد القمار، وحتى مجموعات الشطرنج. وقد عُدَّ أي شيء يجلب المتعة والسرور، في جولات جمع التبرعات، صفقة عادلة بالنسبة إلى فتية سافوناروﻻ. ومن ذلك، الكتب اللاتينيّة العلمانيّة (التي قيل إنها اشتملت على كل صور القصص الماجنة)، وحكايات بوكاتشيو البذيئة، وأشعار بيترارك الشهيرة في العشق، وحتى أعمال الأوّلين من فلاسفة الإغريق (الهرطقات الوثنيّة)، فضلاً عن كتب الشعراء، بدءاً من أوفيد حتى بوليتسيانو. ولم تكن حُمى الطلب على الآلات الموسيقيّة أقل من ذلك، إضافة إلى التماثيل واللوحات التي لا تصوِّر الموضوعات الدينيَّة، مثل النماذج المُصّغرة لتماثيل دوناتيلّو، المليئة بالإيحاءات الخنثويَّة، بالإضافة إلى رسومات الأشكال الأنثويَّة العارية. ولم تُستثن من ذلك اللوحات التي تتناول أغراضاً دينيَّة، ولاسيما تلك «التي رُسمت بطريقة شائنة، بحيث تظهر فيها مريم العذراء كما لو كانت بغياً»[3].

وقد جرى الزعم أن الفنان بوتيتشيلي تخلّى، في تلك الفترة، عن عدد من لوحاته ذات المواضيع العلمانيّة تأثُّماً. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من المؤرخين مازال يُشكك في الأمر، فمن المؤكد أن هذا الأمر مردُّه إلى ما كابده هذا الفنان من حالة عقليّة مضطربة في ذلك الوقت.

وكان بوتيتشيلي، وهو في أوائل الخمسينات من عمره حينها، واحداً من المجموعة القليلة الناجية من بين تلك النخبة الفكريّة الساحرة التي أمّت قصر ميديتشي، وقد اتّجه بوتيتشيلي، بحلول تلك المرحلة، إلى رسم سلسلة من صور صلب المسيح وعذاباته الأليمة. ويتبدّى وجه المسيح في هذه اللوحات وهو يتدلّى تحت شعره الطويل الداكن والمُتلبّد، مشفوعاً بنظرة ألم وتسليم. وتبدو على اللوحة كل العلائم الدالّة على أن بوتيشيلي قد رسمها

بشعور عميق من التقمص العاطفي. وعلى الرغم من إيمانه بسافونارولا، فإن فلورنسا أصبحت، بسبب ما عاناه من كرب وفقر، مكاناً مؤلماً إيلاماً مبرحاً بالنسبة إليه.

وكان الناجي الآخر، وهو فيتشينو المتلعثم وصغير البنية، قد بلغ من الكِبر عتياً، وألم به الكرب والمرارة. وكان الأخير قد كتب، في ذروة أيام لورينزو في قصر ميديتشي، محتفياً بالتقليد الإغريقي القديم، المتعلق بالعلاقة الأفلاطونيّة، التي جمعت بين الشُبّان الوسيمين ومعلميهم الأكبر سناً، واصفاً إياها بأنها تمثل أسمى أشكال الحب. لكن فيتشينو ألفى نفسه، في أعقاب إدانة سافونارولا للشذوذ الجنسي، وقد رُميَ بتهمة اللواط، وانتقص قدر الرجل الذي كان، في يوم من الأيّام، فيلسوفاً مبجّلاً، ومثار إعجاب، بما هو أحد كهنة كاتدرائية فلورنسا، واستحال، وقتها، إلى شخصية فاضحة وشائنة. وإذ ازدرى سافونارولا محاولة فيتشينو الزج بمحبوبه أفلاطون داخل الحظيرة المسيحية، فإنه التجأ إلى الريف في كاريغي، لكنه اضطر إلى العودة، مؤخراً، تحت وطأة المجاعة، فقوبل بإعراض أصدقائه القدامى عنه، فلم يكن أنصار ميديتشي يثقون به بسبب ارتباطه السابق بسافونارولا، حتى إن أشخاصاً مثل بوتيتشيلي نأوا بأنفسهم عنه، لأن سافونارولا كان يُعدّه مهرطقاً.

ودأب الناس، كما تقدَّم، على إقامة المحارق الكبرى في أحياء المدينة، ليرقصوا حولها بصورة خليعة، أثناء عيد الصعود في الزمن السابق على عهد سافونارولا، لكن هذه المحارق اجتمعت حينها في محرقة واحدة مهولة في ميدان السينيوريا، وكان الغرض من ذلك أن تتسع إلى كل الأمتعة الزائلة التي جمعها فتية سافونارولا. وجرى تشييد هرم خشبي ثماني الأضلاع

ذي طبقات سبع مُدرَّجة، لتمثل كل واحدة منها إحدى الكبائر السبع. ووضعت أمتعة الغرور على تلك المدَّرجات، ثمَّ جيء بأكياس القش وأكوام الخشب القابلة للاشتعال وحتى بعض الأكياس الصغيرة من الديناميت (التي كان الهدف منها نشر لهب النيران في جميع أرجاء الهرم، إضافة إلى إعطاء آثار شبيهة بما تحدثه الألعاب الناريَّة من صوت الفرقعات وزخَّات الشرر). وقد جُعِل كل ذلك داخل الهرم، وارتفع، في النهاية، هرم متاع الغرور إلى علو بلغ ستين قدماً، وبلغ محيطه عند القاعدة 200 قدم. ووضع على قمة الهرم تمثال خشبي صُنع ليبدو على شكل الصورة التقليديَّة للشيطان، التي أُضيفت إليها رجلا ماعز شَعُورة ومشقوقة الظلف، وأذنان حادتان، وقرون، وذقن صغيرة مُدببة[1]. هذا ما كانت عليه حال هذه المجموعة المدهشة من الأمتعة الباطلة، التي قيل إنَّ أحد تجار البندقيَّة كان يمرُّ بفلورنسا، فعرض 22000 دوكات لقاءها بدل أن تُهدر حرقاً. وكان ذلك المبلغ فادحاً، إذا عرفنا أنه جاء في وقت المجاعة، إذ كان بمقدور المرء، خلال تلك السنوات، أن يبتا ع قصراً متواضعاً لقاء عُشر ذلك المبلغ. ومع ذلك، فقد رُفِضَ عرض التاجر

(1) كان الهدف من هذه «الصورة الشيطانيَّة»[4]، أيضاً، أن تُجسّد الاحتفال الكرنفالي السابق، حين كانت توضع مثل هذه الصور، وتنصب التماثيل على قمة المحرقة التي كان الناس يرقصون حولها، واستخدمت في الأصل صورة بان؛ الإله الإغريقي القديم المرتبط بالترخُّص الجنسي والخصوبة والربيع. ولم يكن الشبه بين الصورة التقليديَّة للشيطان وهذا الإله الإغريقي القديم شبهاً عارضاً، إذ جرت العادة أن تُدمج آلهة ديانة ما في الديانة التي تخلفها (مثلما أصبحت «أثينا»؛ إلهة العذرية الإغريقيَّة، مريم العذراء) أو أن تُختار هذه الآلهة لتغدو من جانب الديانة الجديدة صورة شيطانها (مثل اختيار «بان» ليصبح رمزاً للشيطان). وقد أدرك بيكو ديللا ميراندولا هذه السمة، وجعلها جزءاً من فلسفته الكونيَّة، وبذل سافونارولا ما وسعه من جهد كي «يبرئه» من أضراب هذا التفكير، الذي ينسف تفرُّد المسيحية واختلافها عن غيرها.

بازدراء، وما لبث أن خرج فاراً بحياته، حين رأى أنَّ شكل الوجه الذي جُعل على قمة الهرم عُدِّل ليصبح شبيهاً بوجهه.

وقد أشعلت، في موعد الكرنفال الموافق للسابع من فبراير لعام 1497، «محرقة متاع الغرور». وكان كبار مسؤولي الإدارة يرصدون هذا الحريق الهائل من شرفة قصر السينيوريا، في حين كانت جوقات فتية سافوناررولا المتشحين بالبياض تشدو الترانيم، مؤدِّية إلى جانب ذلك، الأغاني التي تسخر من متاع الدنيا الزائل؛ تلك الأغاني التي أُعدَّت، خصيصاً، لتلك المناسبة. وبينما كانت النيران تمور وتزداد اشتعالاً، ضجت أصوات الأبواق خارجة من القصر، مشفوعة بجلجلة قرعات الجرس الكبير؛ فاكا. وصفَّقت الجموع المحتشدة ابتهاجاً باللهب المتصاعد، قبل أن تنضمّ لجوقة فتية سافونارولا في الإنشاد. وبدا كأن فلورنسا قد أصبحت «مدينة الرب» بحق.

وألقى سافونارولا، في اليوم التالي، أول عظة من عظات الصوم الكبير لتلك السنة، وقد دارت حول نصوص مأخوذة من إصحاح حزقيال، وهو أحد أكثر أنبياء العهد القديم شدَّة وحنقاً، والمشهور هذه الأيام بفتواه التي تقول: «فلذلك هكذا قال السيد الرَّب: ها أنذا أمد يدي على الفلسطينين وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر. وأجري عليهم نقمات عظيمة بتأديب سخط، فيعلمون أني أنا الرب، إذ أجعل نقمتي عليهم»[5].

ولم يكن هذا الشعور حرياً بأن يخالج امرأً يحتفل بأكاليل غار النصر الذي حققه بإنشاء «مدينة الرب» في فلورنسا. وفي واقع الأمر، كان سافونارولا قد أدرك تماماً، في هذه المرحلة، أنَّ المسار الوحيد المتاح أمامه، إن هو أراد النجاح، أو حتى البقاء على قيد الحياة، يتمثل في: تحدِّي جبروت روما،

والقضاء، بذلك، على الفساد من قلب الكنيسة ذاته، فيصار إلى تطهيرها من الداخل.

وإذا لم ينبر لفعل ذلك، فإنه مقضيٌ عليه لا محالة، وستغدو الشهادة التي أشار إلى أنها قد تنتظره، قدراً مقدوراً، إلا إذا أخذ بزمام المؤمنين المخلصين، واقتادهم إلى محاربة شرور روما. وهذا ما سعى إليه حثيثاً، وقد تعاظمت جرأته وحماسته مع حلول كل عظة أو مناسبة. وما إن حلَّ الرابع من مارس حتى ارتفعت نبرة كلامه إلى درجة تصريحه قائلاً: «يتناقل الإخوة الرهبان قولاً مأثوراً فيما بينهم ومؤدّاه: أنه قادمٌ من روما، لا تمنحوه ثقتكم. أصيخي السمع جيداً لكلامي، أيتها الكنيسة الشرّيرة، يخسر الرجال، في بلاط روما، أرواحهم طوال الوقت، إنهم تائهون. أيُّها البائسون! أنا لا أجزم أن هذا يصحُّ على الجميع هناك، فقد بقي نفر قليل على صلاحه. وإذا ألفيت أناساً ممن طاب لهم المقام في روما، فاعلم أنهم فاسدون وذوو أنفس خربة. إنه فاسد، حسناً، إنكم تفهمون ما أعني»[6].

عندما تحوَّل سافونارولا من صيغة الجمع إلى المفرد، فلا بد أن تكون جموع المصلين المؤيدين له قد عرفوا أنه كان يشيرُ، يقينياً، إلى البابا. وكما لو أن شعوراً راوده بأنه، ربما، ذهب بعيداً في تهجمُه، فتراجع قليلاً، زاعماً: «أنا لا أتحدث عن شخص بذاته» لكنَّه، مدفوعاً بالفيض الغامر من الانفعالات التي اضطرمت في صدره، ما لبث أن طرح عن نفسه أي ضرب من ضروب الحذر، وطوَّح به بعيداً قائلاً:

«أواه أيتها الكنيسة البغي، لقد كان جبينك، في سالف الزمان، يتندَّى خجلاً من غرورك وشهوتك، لكنك الآن تجاهرين بهما دون أي مظهر من مظاهر الندم. ودأب القساوسة، فيما مضى، على

الإشارة إلى أبنائهم بوصفهم (أبناء الأخوة)، لكنهم يدعونهم الآن بـ (الأبناء) على رؤوس الأشهاد، وفي كل مناسبة».

ولا يمكن أن يكون ثمّة التباس أو خطأ إزاء المقصود من هذه الملاحظات. فقد بات ما أخذ في السابق صورة همسات وإشاعات في أوساط الطبقات المُثقّفة، من المعارف العامّة، حينها راقياً إلى علم الناس جميعهم أن ألكسندر السادس كان أول «بابا» يُقرُّ، بصورة علنيّة، بأولاده غير الشرعيين، دون أن يعبأ باستخدام عبارات تلطيفيّة، نحو «ابن الأخ» أو «بنت الأخ»، حتى إنه اشتطَّ في مسلكه فأحضر أبناءه ليعيشوا معه في المقر السكني البابوي الكائن في الفاتيكان. وأدهى من ذلك، أن العشيقة الجديدة لألكسندر السادس ذي الستة والستين عاماً، وهي جوليا فارنيس؛ المرأة المتزوجة والمتحدِّرة من عائلة كريمة، التي بدأت علاقتها مع البابا وهي لما تزل في سن المراهقة، قد ولدت له، مؤخراً، ابناً جديداً. ولا بُدَّ أن تكون هذه الأخبار قد بلغت سافونارولا في سان ماركو عن طريق المصدر الدومينيكي السّري، كما لا بُدَّ أنها كانت معروفة لدى بعض الأفراد من طائفته ممن هم على دراية بخبايا الأمور.

وكانت الأخبار عن سافونارولا وعظاته، على النحو ذاته، تُبثُّ، بحرص شديد، إلى روما عن طريق خصومه، ولاسيما من الفرانسيسكان والأغسطينيين، وهذا ما صعَّب الأمر على المبعوث الفلورنسي؛ إليساندور براتشي، حين وصل إلى روما، ومثل أمام ألكسندر السادس في الـ13 من مارس. وكانت العلاقات السياسيّة بين روما وفلورنسا في أدنى مستوياتها، بسبب قضية بيزا والحلف المقدس. وكان براتشي قد تلقَّى تعليمات محدَّدة من الإدارة الفلورنسيّة حول الموقف الذي ينبغي عليه اتخاذه بشأن السياسة

الخارجيَّة للمدينة. وافتتح براتشي خطابه الرسمي أمام البابا بالعبارات الدبلوماسيَّة المنمَّقة المعتادة، معبِّراً عن احترام فلورنسا العميق وتأييدها لقداسته. لكنه عُني بأن يتجنب التعهُّد بأي التزامات معينة، ثم واصل حديثه، وقد اعتراه بعض الخوف، معرِّجاً على الأمور الأكثر تحديداً، التي كُلِّف بتبليغها لألكسندر السادس. واشتملت هذه الأمور المطالبة بعودة بيزا إلى فلورنسا، والتذكير بأن الأخيرة تتمتع بدعم شارل الثامن، الذي تعهدت له المدينة بتحالف غير قابل للنقض؛ ذلك العهد الذي يقف، لعظيم الأسف، حائلاً بين فلورنسا والانضمام إلى حلف ألكسندر السادس المُقدَّس. وأوضح ألكسندر السادس، إيضاحاً تاماً، أنه غير مغني بكل هذا الهراء، ولاسيما وهو يصدر عن الرجل الذي يمثِّل الدولة التي سمحت لسافونارولا بالمضي في التبشير بمثل تلك العظات الكفريَّة والمشينة في حقه. وضرب البابا صفحاً عن كل شيء ما خلا عبارات المجاملة الديبلوماسية الروتينيَّة، وخاطب براتشي ذا الحظ العاثر، قائلاً:

«سيدي السكرتير، قد تكون سميناً مثلنا، ولكن اعذرني في أن أقول لك أن الرسالة التي تحملها مهزولة وعجفاء[1]، وإذا لم يكن لديك شيء آخر تقوله، فبمقدورك أن ترتدَّ على أعقابك وتعود من حيث أتيت... إننا غير قادرين على فهم ما حملك على اتخاذ مثل هذا الموقف المعاند والمكابر، ولا بدَّ أنه راجع إلى إيمانك بنبوءات عرَّافكم ذاك. وإذا ما اتفق لنا مخاطبة شعبكم مباشرة، فإننا متيقنون أن ما نتوفر عليه من حجج صادقة لن يلبث أن يردكم إلى رشدكم، ويزيل

(1) لم تكن كل الطبقات الاجتماعيَّة في فلورنسا، كما هو واضح، تعاني نقصاً في الطعام، والحبوب الغالية الثمن.

الغشاوة عن عيونكم، ويخرجكم من ضلالتكم التي اقتادكم إليها هذا الراهب. غير أن ما أمضّنا، وما يمنحنا، في الوقت نفسه سبباً أقوى لمعاداتكم، هو دعم مجلس السينيوريا وأهل فلورنسا له. وقد جرى كل ذلك دون سبب وجيه، وذلك حين حطّ من قدرنا، وقدح فينا، وطعن في شرفنا؛ نحن من يشغل هذا الكرسي الأقدس»[7].

كان بمقدور البابا أن يكون واثقاً وهو يدلي بجوابه الغاضب، فلم يكن معروفاً لدى براتشي، وفلورنسا، وحتى من جانب سافونارولا نفسه، أن الوضع السياسي قد تحوَّل تحوُّلاً دراماتيكياً لصالح ألكسندر السادس، فقد دخل الأخير في مفاوضات سريّة مع شارل الثامن. وتواردت الأخبار، وقتها، إلى فلورنسا، تحدِّثُ بأن ألكسندر السادس نجح في قلب الطاولة على فلورنسا. فَبُعث برسول إلى روما، على جناح السُّرعة، حاملاً هذه الأخبار إلى الوفد الفلورنسي هناك، وخُلاصة ذلك أنَّ إقناع شارل الثامن، جرى أخيراً في 25 فبراير في فرنسا، بتوقيع معاهدة مع «الحلف المقدَّس». وربما مثَّل ذلك، نبأ مشؤوماً بالنسبة إلى براتشي، غير أنه كان بمثابة كارثة سياسيَّة بالنسبة إلى سافونارولا في فلورنسا. فقد تلاشى «سوط الرب»، الذي كان يلّوح به. فربما كان ألكسندر السادس و«الحلف المقدَّس» في وضع تشوبه الفوضى، غير أن شيئاً واحداً ظل بيناً وجلياً، وهو انعدام الأمل في أن يهبَّ أحد لنجدة فلورنسا إذا هاجمها واحدٌ أو أكثر من أعدائها المحدقين بها، ولم يكن من المحتمل أن تتحوّل هذه الحال في المستقبل المنظور. وعمَّت فلورنسا، في أعقاب هذه الأخبار، خيبة أمل من دور سافونارولا النبوي، فرفع كل من الأرابياتي والبيغي (المجموعة المعارضة، وتلك المؤيدة) الشعار الذي يقول: «إننا، جميعاً، ندعو، إلى العالم الطبيعي» (عما هو عالم مغاير لذاك

الخارق للطبيعة، أي عالم النبوءات) وقد بدأ هذا الشعار يشيع بين المواطنين.

وحين سمع سافونارولا بهذا، عزم، بفعل ما ألم به من لدغات الألم، أن يردّ على منتقديه في العظة التالية. وكان سافونارولا كالموسوس، يعود مرّة تلو أخرى إلى ما كان يقوله حول «العالم الطبيعي». وبصورة مشابهة، هاجم، تبعاً لما سجّله كاتب اليوميات المعاصر لذلك الحدث؛ بارتني، شارلَ الثامن، «ذاماً إياه، بوصفه أحمق وكسولاً»[8]، مضيفاً أنه كان قد تنبأ، بحق، «بموت ابنه، وأنه تنبأ الآن بموته هو»[9]. وعلى الرغم من أن سافونارولا تحاشى ذكر اسم شارل الثامن (وهي نقطة يؤكدها النص المطبوع نفسه)، فإن الشك لم يكن ليخامر بارنتي أن سافونارولا كان يشير إلى شارل الثامن في عظته تلك.

وإذا ما عاينّا تنبؤات سافونارولا من زاوية علميّة وعقليّة حديثة، فلا يمكن أن ننكر أنه كان يجازف في طريق غير مأمون. وهو وإن تنبأ، فيما مضى، بموت طغاة على نحو دقيق ومثير للإعجاب، فإن شارل الثامن مثّل حالة مختلفة. إذ كان في السادسة والعشرين من عمره، ويتمتّع بصحة جيدة، مما يشيرُ إلى أن إيمان سافونارولا بنفسه غلب عليه، فقد شجعته صحة نبوءاته السابقة إلى درجة شعر معها أنّ الباطل لا يتطرّق إلى أي من المعتقدات التي يحملها بإيمان وقوّة كافيين. وكان من الواضح، في الوقت عينه، أن الغضب قد تملّكه جرّاء نجاح أعدائه، فغلبت انفعالاته على أي تبصر عقلي بالأمور، مدركاً أن مستقبله برمته على المحك. فلقد بدأ يفقد تأثيره، وإذا استمرّ هذا التحوّل في مجرى الأمور، فمن المرجّح أن يتبخّر نفوذه. وقد كان موقع سافونارولا غريباً، فهو دخيل على المدينة، ولم يشغل أي منصب منتخب في الإدارة الحكومية، واعتمدت سلطته على تأثيره في أعضاء السينيوريا الذين

كانوا يتبدلون دائماً. كما، ارتكنت إلى قدرته في فرض إرادته على الجماهير عبر ما يلقيه من عظات. فلولا هذه القدرة ما كان بمقدور «فتية سافونارولا» أن يمتلكوا مثل ذلك التأثير بتحقيقهم الانقلاب الدعائي المذهل، مُمَثّلاً بـ «محارق متاع الغرور»، التي غدت، آنئذ، حديث إيطاليا بأكملها.

وقد أخفق شارل الثامن، من منظور سافونارولا، إخفاقاً كبيراً حين لم ينهض بالدور الذي أناطه الرب به، وهو أن يكون «سوط الرب». وعليه، فإنه سيتلقى، هو ذاته، ضربات ذلك السوط. ولن يكون لدى الرب من خيار سوى أن يمحق شارل الثامن لعصيانه أمره. وهكذا، شعر سافونارولا بوجود مسوّغ للتنبؤ بمثل هذا الحدث. وإذا ما نظرنا إلى هذا من منطلق الأدبيات النفسيّة الحديثة، فمن الممكن إدراج هذا السلوك في خانة التفكير الرغائبي أو التوهم الذاتي. ولكن إذا أخذ بعين الاعتبار الجو النفسي- الديني الذي ساد فلورنسا في ذلك الوقت، فضلاً عن الحالة التي تملكت عقل سافونارولا، فلا يمكن أن تكون تلك النبوءة تدليساً مضلّلاً.

وقد واصل سافونارولا إلقاء عظاته، في عيد الصوم الكبير لعام 1497، حول النبي حزقائيل، في حين ظل أهل فلورنسا يتضورعون جوعاً بسبب المجاعة التي فتكت بلفورنسا. وقد سجّل لاندوتشي، بتاريخ التّاسع من مارس، قائلاً: «عُثر على عدد من الأطفال قضوا جوعاً في فلورنسا»[10]، ثم ما لبث أن كتب، إثر ذلك بثمانية أيام فقط، يقول:

«كان الرجال والنساء والأطفال، طوال هذا الوقت، ينهارون من الإنهاك والجوع. في حين كان بعض آخر يلفظ أنفاسه تحت وطأة الجوع. أما في المستشفى فقد قضى كثير من الناس بفعل الوهن المتأتي عن الجوع».

وكانت عظات سافونارولا في الصوم الكبير، في حمّى هذه الأجواء التي

تنفح بالهلاك والكوارث، تجتذب، كما في السابق، حشداً كبيراً من الناس. ويسجل لاندوتشي أن «خمسة عشر ألف شخص قد حضروا عظته في كل يوم من أيام الأسبوع». ومن الممكن أن يكون هذا الرقم قد شمل نصف عدد القادرين جسدياً من السكان في ذلك الوقت. غير أن سافونارولا وجد أن نقاده غدوا أكثر ثقة وإزعاجاً، وذلك بسبب ما ألم بمكانته من ضعف، بأثر من تحالف شارل الثامن مع البابا. ويذكر لاندوتشي في واحد من أبواب يوميّاته المعنون بـ «جمعة الآلام»:

«ألقى أحد القساوسة عظة في كنيسة سانتو سبيريتو[1]، فهاجم الراهب جيرولامو سافونارولا، وظلَّ يقول، طوال فترة الصوم الكبير، أن (الراهب) كان يخدعنا، وهو ليس نبياً».

وانقسم أهالي فلورنسا إلى معسكرين متخاصمين بضراوة، وكشفت رسالة رسميّة مرسلة من السفير الفيراري خلال شهر مارس أنَّ:

«المدينة منقسمة أكثر من أي وقت مضى، في حين يتملك الخوف الجميع من أن قتالاً أهلياً عنيفاً لن يلبث أن يندلع عما قريب، وإذا ما حدث ذلك، فإنه سيشكل خطراً كبيراً على المدينة. ويبذل سافونارولا، في هذه الأثناء، وسعه، لتجنب التصعيد، لكن عدد أعدائه تعاظم، وبدا عليهم التصميم، ولاسيما في أعقاب الأخبار التي تحدثت عن الهدنة المباركة [بين فرنسا والحلف المقدس]»[11].

وكان الوضع السياسي داخل فلورنسا يتحول تحولاً عميقاً وخفياً ضد سافونارولا منذ عدة شهور، إذ انتُخب فرانشيسكو فالوري حاكماً

(1) يُعرف هذا الراهب عادة بـ «الأخ ليوناردو فيفيتسانو». وكانت كنيسة سانتو سبيريتو قائمة على تلة أولترانو، كما كانت مركزاً للأوغسطينيين الذين ناصبوا سافونارولا العداء، بعد أن أذل القس ماريانو دا جيناتسانو؛ وهو الرجل الذي أصبح حينئذ رئيس رهبتهم في روما.

«غونفالونيراً» في يناير. وتحدر فالوري هذا من أسرة عالية الشأن، وكانت من الحلفاء الأوفياء والأصدقاء المقربين للورينزو العظيم، وليس أدل على ذلك من أن فالوري اقترن بإحدى نساء أسرة ميديتشي. وكان لورينزو قد اختاره عام 1491 واحداً من الوفد المكون من خمسة أعضاء، وأرسله إلى سافونارولا كي يقول له قولاً ليّناً، مؤدّاه أن على الرئيس الجديد لسان ماركو -ربما- أن يخفّف من نبرة عظاته. مهما يكن من أمر، فقد امتلأ فالوري ذعراً عندما أخذ بييرو ميديتشي على عاتقه أمر الانطلاق في مهمّة شخصيّة خاصة إلى شارل الثامن، دون أن يتشاور مع مجلس السينيوريا. وعندما تناهت الأخبار إلى فلورنسا تحكي عما تنازل عنه بييرو ميديتشي في اجتماعه مع شارل الثامن، تملك فالوري غضب شديد. ولم يجد حرجاً، بعد أن فرّ بييرو من المدينة، في أن يصبح نصيراً متحمّساً لجماعة البيانوني، فضلاً عن تأييده سافونارولا وإصلاحاته الاجتماعيّة. وكان انتخاب فالوري بوصفه حاكماً عام 1497، مستحقاً قبل هذا التاريخ بزمن طويل، إذ كان محبوباً جداً لدى الجماهير، ومعروفاً بقوة شخصيته، وعطفه في آن معاً، فضلاً عن امتلاكه العديد من المناقب القياديّة. لكنه، لشديد الأسف، لم يتمتع بالذكاء الكبير، وفي المرات القليلة التي كان يخرج فيها بفكرة أصيلة، نراه وقد تملكته إلى حد الهوس. وتبعاً لما حكاه عنه غيتشارديني، الذي عرفه ربما عن قرب، فإن فالوري «كان يفرض آراءه غير آبه بما يعتقده الآخرون، وإذا اتفق أن خالفه أحدهم، فإنه يقمعه ويسيء إليه»[12]. وتمثلت أفكاره الأولى، في بداية تسلمه منصب الغونفالونير، الذي يستمر شهرين، أن يجري توسيع المدى الديمقراطي للمجلس الأكبر، وذلك بتخفيض سن التصويت لعضويته من الثلاثين إلى الرابعة والعشرين. وبدت هذه الفكرة، للوهلة الأولى، فكرة

ممتازة، لكن فالوري أصيب بخيبة آمل حين حذّره سافوناورلا من مثل تلك الخطوة غير المسبوقة، فضرب صفحاً عن نصيحة سافوناورلا السياسية، المتسمة ببعد النظر، ومضى قدماً في مشروعه دون أن يقيم اعتباراً للعواقب.

وربما كان سافوناورلا رجلاً أصولياً، لكنه كان قد تعلّم منذ أمد بعيد أن الأمر حين يتعلّق بالشؤون المدنيّة العلمانيّة، فإن البراجماتيّة هي التي تحقّق النجاحات، عادة، لا المثاليّة. وقد تبيّن، مثلما توقّع سافوناورلا، أن الحركة المثاليّة التي قام بها «فالوري» كانت كارثيّة. فقد أدى التخفيض الحاد لسن التصويت إلى تدفق هائل من الشباب؛ الجموح اللاهث وراء المتع، إلى المجلس الأكبر، ولاسيما ممن ينتمون إلى طبقة التُّجار. وكان العديد منهم قد بلغ سن الرشد في عهد لورينزو، وامتلك هؤلاء عناد الشباب الواثق والمحظوظ في تلك الحقبة. وقد مقتوا كل ما كان سافوناورلا يمثّله ويدعو إليه، فسيطرت جماعتا بيانكي Bianchi الليبراليّة، وبيغي الموالية لأسرة ميديتشي على المجلس الأكبر. أما الانتخابات الخاصة بمنصب «الغونفالونيير» للفترة من مارس إلى إبريل، فقد كان المرشح الفائز بها هو برناردو ديل نيرو؛ الجد الأكبر لجماعة ميديتشي. وقد بلغ الخامسة والسبعين من العمر حينئذ، لكنه لم يزل مقتدراً جسدياً، وكان يقود جماعة بيغي، وهي التي بقيت معارضة، بشدّة، لسافوناورلا.

وعلى الرغم من هذا، كان برناردو ديل نيرو، في واقع الحال، يدين بحياته لسافوناورلا، فحين فرَّ بييرو دي ميديتشي، عام 1494، ما كان لديل نيرو أن ينجو بحياته وعائلته من غضب الدهماء المُستعر لولا عظة سافوناورلا المشبوبة بالعاطفة، التي حرّمت أي فعل انتقامي ضد أنصار ميديتشي. ولم ينس ديل نيرو هذا، فكان يعامل سافوناورلا نفسه باحترام جم، على الرغم

من كرهه للتوجه نحو درجة أكبر من الديمقراطية، وما رافقه من أصوليَّة بيوريتانيَّة. وبذل ديل نيرو أقصى جهده لكبح جماح الجماعة الأشد تهوُّراً، وهي جماعة بيغي، التي اتخذت من العنف سبيلاً للإطاحة بالحكومة. ومن ناحية ثانية، فلن تكون هناك، من بعد، تلك المشاورات الهادئة المعتادة بين الغونفالونيير ورئيس دير سان ماركو فيما خصَّ الاتجاه الأفضل الذي يُتوجَّب تبنيه في السياسة العامَّة. وكان من شأن تأثير سافوناورولا أن يبقى مُعطلاً طوال الشهرين القادمين، ما دام ديل نيرو يشغل منصب الغونفالونيير. أما مدى الدعم الشعبي الذي يمكن أن يحشده الغونفالونيير الجديد في شهري مارس وإبريل، فإنه أمر ستكشف عنه مخبآت الأيام.

ولم تمضِ سوى ثلاثة أسابيع على تولِّي برناردو ديل نيرو لمنصبه، حتى سرت الإشاعات، بكل صورها، بين المواطنين. وقد سجَّل لاندوتشي في الحادي والعشرين من مارس، قائلاً:

«تكونت لدينا شكوك في وجود مؤامرة يتزعمها بييرو ميديتشي، فقد قيل إنَّه ينوي دخول فرينزولا[1] حيث سيوزع الطحين والحنطة على الناس. ويجعلهم يهتفون «كرات»[2]، غير أنّ أياً من ذلك لم يصح»[13].

وقد أُغلقت بوابات المدينة احترازاً. لكن، لم تبدُ أي علامة على وجود بييرو أو قواته خارج الأسوار، ولم تكن ثمة تقارير عن مشاهدة مثل تلك القوات تعبر الأرياف وهي في طريقها إلى المدينة. واستمرت الأوضاع داخل المدينة، في تلك الأثناء، بالتردِّي يوماً إثر آخر. وكما أورد لاندوتشي

(1) إحدى البوابات الشمالية في أسوار المدينة.

(2) الهتاف التقليدي لتحية أفراد ميديتشي وتأييدهم.

في التاسع من إبريل، فقد: «ارتفعت أسعار الحنطة إلى أربع ليرات و10 سولديات»[14]. وذكر بعد ذلك بأربعة أيام أنَّ سعر الذرة ارتفع إلى 5 ليرات. وإذا كانت الليرة تساوي عشرين سولدياً، فقد عنى ذلك حدوث زيادة بنسبة تزيد على العشرة بالمئة خلال أربعة أيام فقط. غير أن لاندوتشي يضيف في اليوم نفسه (12 إبريل): «لقد قمت ببيع كمية صغيرة، مما فاض عن حاجتي، بسعر 4 ليرات و14 سولدياً. وبناءً عليه، فإني أرى نفسي متبطراً».

وكان من الجلي أن أولئك المقتدرين يقومون بخزن المؤن، وإنْ داخَلَهم شعور بالذنب حتى حين يعمدون إلى بيع ما فاض عن حاجتهم إلى الأصدقاء والجيران بأسعار تقل عما هو متداول في السوق، إذ بدوا وكأنهم ينتفعون من التضخم الكبير الذي شهدته تلك الأيام. فقد انتهبت أهل فلورنسا الصراعات على غير صعيد، سواء أكانت شخصيّة أو سياسيّة أو روحيّة.

وسجل لاندوتشي، بعد ذلك بتاريخ 25 إبريل، يقول: «تواردت إلينا الأخبار أن بييرو ميديتشي كان في سينا مع جحفل من الجند، مما اقتضانا وضع حراسات ليليّة على البوابة والأسوار. وكانت سينا هذه تقع على مبعدة أربعين ميلاً، فقط، إلى الجنوب من فلورنسا، وهي عاصمة المنطقة المستقلة الواقعة ما بين إقليم توسكانا وروما، ولطالما عُدَّت العدو التقليدي لفلورنسا. وقد استطاع بييرو ميديتشي، أخيراً، أن يحشد، بعون مما اجتمع لأخيه الأصغر الكاردينال جيوفاني من سلطة ومال ونفوذ، قوة غازية؛ تلك القوة التي كان من الواضح أنها تتجه شمالاً، قادمة من روما. وكانت، على الأرجح، تجند المزيد من الرجال، في أثناء مسيرها. وإذ خلت الفقرات التي دوَّنها لاندوتشي حول هذا الشأن من التفاصيل الدقيقة، فإن ما يميزها من بساطة وتعجّل يشيان بحالة الذعر الذي لا بُدَّ أنها اجتاحت فلورنسا، نقرأ:

«التاريخ: 27 إبريل. تناهى إلينا الخبر أن بييرو دي ميديتشي كان في ستاغيا[1]. 28 إبريل. تناهى إلينا الخبر أنه كان في كاستالينا[2]. وفي واقع الأمر، كان قد وصل، قبل أربع وعشرين ساعة إلى فونتي دي سان غاغيو مع ألفي رجل من المشاة والفرسان، وإذّاك عمد الغونفالونير وكبار الشخصيات، قبل ساعة الغداء إلى تسليح أنفسهم والاجتماع عند بوابة سان بييرو غاتولينو[3]»[15].

غير أن الأمور لم تجر كما يشتهي بييرو ميديتشي، فقد أمر بيرناردو ديل نيرو بإغلاق بوابة سان بييرو وتشديد الحراسة عليها، كما عمل على توزيع القطع القليلة من سلاح المدفعية الخفيفة التي امتلكتها المدينة بموازاة المتاريس. وكان ديل نيرو ملزماً، بما هو غونفالونير، أن يبرّ بقسمه فيما يتعلّق بالدفاع عن المدينة، وكان مصمماً على المضي في اتخاذ التدابير، حتى وإن كان ذلك لتجنب أي اتهام بالخيانة وحسب. غير أن أفراداً من طائفة بيغي أرسلت إلى بييرو تخبره أنَّ مجرد وجوده سيؤدي إلى انتفاضة شعبيّة داخل فلورنسا، وستتبع ذلك دعوة تطلب منه دخول المدينة، وستشرع بعدها البوابات على مصاريعها، وستتنادى الجماهير الحاشدة وتتوافد مرحبة به، وهاتفة له، في أثناء عودته المظفرة على ظهور الخيل إلى قصر ميديتشي، لتولي السلطة من

(1) staggia كانت بلدة صغيرة على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من فلورنسا.

(2) castellina قرية صغيرة تقع في الجبال على بعد ستة أميال إلى الشمال الشرقي من ستاغيا. أما فونتي دي سان غاغيو، فقد وقعت إلى جنوب أسوار حي أولترانو. ومن الواضح أنَّ ذكر هذه المواقع جاء عبر الإشاعات التي طرقت أسماع أولئك الذين كانوا يفرّون من الضواحي الريفيّة القريبة جداً، بحثاً عن السلامة النسبية التي توفرها أسوار المدينة.

(3) كانت هذه هي البوابة الرئيسة في الأسوار الجنوبية لحي أولترانو، وتعرف الآن بالبوابة الرومانية porta romana وتقع في الطرف الجنوبي لحدائق بوبولي، التي لم تكن، بالطبع، موجودة في ذلك الوقت.

جديد.

لكن أياً من ذلك لم يقع، ويبقى السبب مجهولاً. لقد كان هناك، بلا شك، كثير من «الحث» على النزول إلى الشوارع، مصحوباً بمواكب الخيّالة التي نظّمتها جماعة بيغي، وكان أفرادها يجوبون الضواحي رافعين عقائرهم بالهتاف «كرات، كرات». ولكن حين حانت لحظة الحقيقة، بدا الساسة، ومن بينهم أولئك الذين عارضوا سافونارولا، غير متحمسين إلى عودة أسرة ميديتشي للحكم، وحملوا بقية الناس على الاعتقاد بذلك. وفضلاً عما سبق، فقد بدأت، إبان ذلك، بعض مؤن الإغاثة تتوارد إلى فلورنسا من ميناء ليفورنو، فما عاد المواطنون، بعدها، راغبين بالارتشاء، والخضوع لبيرو لقاء ما يقدمه من حنطة. وعلى الرغم من الانقسام العميق الذي مازال يخيّم، آنئذ، على المجتمع الفلورنسي، فسرعان ما أصبح واضحاً أن المدينة لم تكن مستعدة لاستقبال بيرو ميديتشي والترحيب به. وكان برناردو ديل نيرو والأكابر من المواطنين المُسلحين (الذين كان بينهم قطاع واسع من الأنصار المتشددين لجماعة بيغي) يرصدون، بارتياب، أي تحرك من الأسوار، في حين أظلّ السكون والهدوء شوارع المدينة، وبقيت بوابات المدينة مغلقة. وسجّل لاندوتشي، في وقت لاحق من ذلك اليوم:

> «حين بلغ الوقت نحو التاسعة مساء (5 مساء) استدار بيرو ميديتشي راجعاً، وانصرف بعيداً بعد أن رأى ألا أنصار له في فلورنسا. وكان من الحمق، وأي حمق، أن يعرّض نفسه إلى مثل هذا الخطر، فلو أردنا لتقبّضنا عليه. ولو قُرِعَت أجراس الإنذار في الخارج، إذاً لأحيط به من كل جانب. وهكذا، فقد عاد إلى سينا وقد تملّكه الخوف».

ومن المؤكد أن تفاؤل لاندوتشي التخيُّلي مثار شك، لكن من المؤكد،

أيضاً، أن إراقة بيرو المتفاخر ماء وجهه، وأخبار ما نزل به من إذلال شعبي ما لبث أن عمت أرجاء إيطاليا جميعها. وبات ابن لورينزو العظيم أمثولة للمتندرين، وعاد إلى روما كسيراً مهيض الجناح، فسعى إلى طمس ذكرى ذلك الخزي والعار بالانغماس في اللهو والإفراط في الشراب. وسيروي صديقه الحميم لامبيرتو ديل أنتيلا ذلك، لاحقاً، بشيء من الإطناب، فيقول:

«أسلم نفسه، هنا، إلى حياة المجون والفاضح من الأعمال. فقد كان ينهض من فراشه عصراً كي يتناول غداءه، فيرسل أحدهم إلى المطبخ في الأسفل، لينظر إن كانوا قد أعدوا طبقاً مخصوصاً يشبع نهمه. هذا إذا لم يكن ينوي الذهاب إلى مطعم سان سيفيرينو، حيث تقدَّم، يومياً، وليمة فاخرة من لذائذ الطعام. وكان يمضي معظم وقته هناك. واعتاد، بعد أن يفرغ من تناول طعامه، أن يذهب إلى غرفة خاصة ويصطحب معه إحدى البغايا ليمكث معها حتى يحين موعد وجبته المسائية. وكان يمكث، في أحيان أخرى، إلى وقت متأخر، ليذهب، بعد ذلك، متسكعاً في شوارع روما بصحبة نفر من الزعّار الحمقى والمتهتكين، ثم يعود إلى زوجته مع طلائع الفجر تقريباً. وهكذا كان يبدِّد وقته وطاقته في الاستهلاك الشره للطعام، ولعب الميسر، والتهتُّك، فضلاً عن كل أصناف الفسق والفجور»[16].

وكان بيرو، حتى ذلك الحين، يعتاشُ على آخر مجموعة من مجموعات لورينزو النفيسة المكونة من الجواهر والأطباق، التي استطاع أخوه الكاردينال جيوفاني استنقاذها قبل فراره من فلورنسا. وأدت حياة المُجون والتهتك التي تمثَّلها بيرو إلى ترد في شخصية الأخير، التي اتسمت، أصلاً، بالعناد والمكابرة.

فقد انتظر مِن كل مَن تعامل معه أن يكون خانعاً وتابعاً له، وأن ينزل

عند كل نزواته المتمردة والمستعلية، ولم يُعهد عنه تقدير من يقوم على خدمته أو الرأفة به. أما رفاقه، فمهما بلغ إخلاصهم له، فمن الممكن أن ينقلب عليهم، ساعة يشاء، بوحشيّة ضارية، حتى إنه انقلب على صديقه الحميم فرانشيسكو ديل نيرو، آمراً لامبيرتو ديل أنتيلا أن يدبر لاغتياله. وربما كان ذلك انتقاماً من قريب الأخير الغونفالونير بيروناردو ديل نيرو، الذي أوصد دونه بوابات المدينة. ليس هذا وحسب، فلن يلبث بييرو أن يتمادى، فينقلب على أخيه. إذ كان لا يتورّع عن معاملة أخيه بما عهد عنه من غطرسة، حتى حين يكونان في مكان عام، مما جعل أخوه يرفض رؤيته تماماً. ومع ذلك، كان بييرو يتوجه إليه، دون إبطاء، للمطالبة بحصته ما إن تَرِد إلى الكاردينال أي من إيرادات إقطاعاته الكنسيّة المتعددة. ولا يحتاج الأمر سوى يومين أو ثلاثة حتى تتبدّد في ضروب السّرف، أو تتبخّر في المقامرات.

وبينما كان الكاردينال جيوفاني المتثاقل والجسيم على نحو متعاظم يصحو، في الغالب، مع إشراقة الشمس ليتناول فطوره في السرير، ويقرأ إلى ما بعد الظهر، قلّما كان أخوه الأكبر والأكثر لياقة يذهب إلى سريره قبل شروق الشمس، وهو في حالة يُرثى لها. وكان أبوهما، من قبلهما، قادراً على ممارسة كلا السلوكين، سوى أن كبرياءه وطموحه جعلاه قادراً على التغلب على مثل هذه السلوكات. ولهذا، فقد عرف لورينزو العظيم، في وقت مبكر، ما ورثه عنه ولداه من عيوب، فأفرغ جهده لتحذيرهما من مغبة هذه السقطات. وقد كان لورينزو الأب مُمتلكاً لصفات العظمة، ومتبصّراً ، كما نعلم، بما يكفي، كي يدرك أنّ أحد ولديه يمتلك، ربما، مثل هذه المناقب والصفات (أحدهما أحمق والآخر فطن)، وطاف في خاطره أنه طالما بقيا قريبين من بعضهما، فربما شكّلا قوة جبّارة في فلورنسا كما في

الكنيسة، غير أن عالمي بيرو وجيوفاني تناءيا، حينئذ، وتنافرا.

وعلى الرغم من ذلك، ما فتئ الكاردينال جيوفاني يُدبّر لعودة أخيه حاكماً لفلورنسا، فاستثمر، لهذه الغاية، صداقته مع الأوغسطيني المتنفذ ماريانو دا جيناتسانو، الذي بقي العدو الأكبر لسافونارولا، واستغلَّ ما له من دالة على ألكسندر السادس ليستحثَّه، دوماً، على اتخاذ تدابير ضد سافونارولا. ولم يكن البابا أو أي شخص آخر في الفاتيكان، في ذلك الوقت، بحاجة لمن يستحثهم في هذا الشأن، فقد ذكر ريكاردو بيكي، بما هو سفير فلورنسا الدائم لدى روما، في تقريره: «إن الغضب ضد سافونارولا يتعاظم لدى الأطراف جميعها في روما، فما عاد بالإمكان الدفاع عنه»[17].

(18)
«الأخذ بشبهة الهرطقة»

كان من المقرر في الرابع من مايو عام 1499، أي بعد ستة أيام فقط من فشل «غزو» بييرو دي ميديتشي، أن يلقي سافونارولا عظة عيد الصعود في الكاتدرائية، لكن لاندوتشي سجّل كيف أنَّ:

«عدداً من أعداء سافونارولا اللدودين نصبوا له فخاً ماكراً. فقد شقوا طريقهم، في الليلة التي سبقت إلقاءه العظة العتيدة، عنوة إلى الكنيسة، واقتحموا الباب المجاور لبرج الجرس، ثم دخلوا إلى المنبر وملؤوه بالقاذورات»[1].

وقد أكّد بورلاماكي ذلك، حتى إنَّ الأخير يفصِّل الحديث في ذلك، فيقول إن مجموعة من الدُّخلاء لوَّثوا المنبر بالبراز، وغطوه بجلد حمار متعفّن، فضلاً عن أحشائه المنتنة. وعمدوا، كذلك، إلى تثبيت مسامير تحت المِقرأ (منضدة تلاوة الكتاب المقدس)، بحيث إذا قام سافونارولا بإحدى إشاراته المعتادة للتأكيد على واحدة من نقاطه، وذلك بالضرب على المنبر بقبضته، انغرست هذه المسامير في جلده (يمكن لهذه المحاولة التخريبيّة الأخيرة أن تأتي بغير النتائج المرجوّة، إذ إن سافونارولا الذي دأب على جلد ذاته، لن يصرفه عن الوعظ مثل ذلك الألم البسيط، بل من شأن هذا المشهد المتمثّل في الدم الذي يقطر من يده وهو يلوّح بها، أن يثير المشاعر، ويدفع

المصلين الأكثر سذاجة إلى الاعتقاد بأنهم يشهدون معجزة تُواطئ آثار الدم التي أحدثتها المسامير في جسد المسيح عند صلبه، أو شيئاً شبيهاً بذلك).

ومهما يكن من أمر، فقد اكتشف هذا التدنيس في صبيحة اليوم التالي، وجرى تنظيفه، وكان سافوناورلا عاقد العزم على إلقاء عظته، على الرغم مما سرى من إشاعات حول التربّص به لاغتياله. فقد كانت هذه هي فرصته الأخيرة في الوعظ أمام الجماهير، ذلك أن مجلس السينيوريا أصدر مرسوماً بحظر المواعظ جميعها ابتداءً من الخامس من مايو. ومما لا شكّ فيه أن الوضع السياسي غير المستقر، والقابل للاشتعال بسهولة، كان وراء اتخاذ هذا القرار، فضلاً عن تأثير الأعضاء المعادين داخل المجلس. كما كان لدى السلطات سبب ضاغط آخر لحظر التجمعات العامّة، فقد جرى الإبلاغ عن المزيد من حالات الإصابة بمرض الطاعون، التي كانت معزولة في أحياء المعدمين إبان فصل الشتاء، مما يؤشر على احتمال سريان الوباء على نحو خطير مع تباشير أشهر الصيف الحارّة.

وقد غصّت الكاتدرائيّة التي شهدت عظة سافوناورلا في عيد الصعود بالحاضرين، إذ تنادى أنصاره من كل صوب. وما كان لهذا الحدث أن يجري دون أن ترافقه أحداث جديّة وخطيرة، وقد كتب لاندوتشي حول الحدث الذي شهده، فقال:

«ما إن مضى ما يقرب من ثلثي العظة، حتى حدثت جلبة في الأعلى من جانب الجوقة، وكانت كما لو أن شخصاً ما يضرب بعصا على صندوق. ونعتقد أن ذلك كان متعمداً وصادراً من الأشخاص ذاتهم الذين دنّسوا المنبر، وما أسرع ما عمّ الاهتياج مشفوعاً بالصيحات التي انبعثت من الموجودين: أيا يسوع. وذلك لأن الناس كانوا قلقين

ومتوفزين لهؤلاء الأشرار الذين سيفتعلون حالة من الاضطراب والشغب. ولم يطل الوقت بعد أن استقرَّ الناس حتى عَلَتْ صيحة أخرى: أيا يسوع. ولما كانت هذه المشاغبة قريبة من المنبر حيث وُجِد حراس سريون للدفاع عن الأخ الراهب، فقد وقع نظر هؤلاء، حينها، على بعض الرجال الذين أثاروا الريبة لديهم. وإذ اقترب هؤلاء الأخيرون من المنبر، انبرى رجل يُدعى لاندو ساسوليني وضرب رجلاً آخر يدعى بارتولوميو غويني بالطرف المسّطح وغير الحاد من سيفه»، فعمَّ الهرج والشغب بين جمع المُصلّين، وفتحت بوابة الكاتدرائيّة الكبيرة على مصراعيها سريعاً، واندفعت الجماهير المُرتعبة خارجة نحو الميدان. وهرع بعضٌ من أنصار سافونارولا إلى البيوت المجاورة، وعادوا وقد أحضروا أسلحة معهم، ثم انضموا إلى آخرين تجمّعوا حول المنبر، مصمّمين على حمايته من أعدائه المسلحين. وبقي سافونارولا، في تلك الأثناء، عند المنبر جاثياً على ركبتيه يصلّي. وانسحب الذين كانوا ينوون اغتياله، في آخر الأمر، وخرجوا من الكاتدرائية لتبتلعهم الشوارع، ثم انطلق به أنصاره المسلحون في رحلة الإياب التي تستغرق خمس عشرة دقيقة عبر شارع الكوكوميرو، عائدين به إلى مأمنه في دير سان ماركو.

وبدا هذا الحدث وكأنما يشير إلى أن غالبية مواطني فلورنسا ما انفكوا يناصرون سافونارولا، وأن أي محاولة لـ «إزاحته» أو استبداله ستؤدي إلى حرب أهلية طاحنة. وقد جاءت الانتخابات الأخيرة لمجلس السينيوريا والمجالس القياديّة، التي جرت في أوائل مايو، بالجماعة الأكثر تطرفاً، وهي جماعة الأرابياتي، حالةً محل جماعة بيغي، وغدت الفئة الأكثر

تأثيراً في الحكومة. ومع ذلك، كانت جماعة الأرابياتي القائدة للمشهد مصممة، مهما غلت التكاليف، على تحاشي الصراع الأهلي، فقد يفضي اندلاع مثل هذا الصراع إلى نهاية فلورنسا بوصفها جمهوريّة مستقلّة. وقد كان ثمة بعض المتطرفين داخل جماعتي بيغي والأرابياتي [الذين لم يطلقوا على أنفسهم اسم «الساخطين» عبثاً] ممن كانوا يميلون إلى إطلاق العنان لمشاعرهم. وبقي الوضع متوتراً مصحوباً بحوادث العنف بين فينة وأُخرى. وفي عيد القربان، سار فتية سافونارولا، مرّة أُخرى، عبر الشوارع والطرقات، حاملين صلباناً حمراء في أيديهم. وإذ كانوا يجتازون جسر سانتا ترينيتا باتّجاه منطقة أولترانو، خرج رجل مجهول راكضاً من بين الجماهير، واختطف الصليب من يد قائد المسيرة، «ثم كسره وألقى به في النهر، كما لو أنه كان واحداً من الكفار»[2].

ولم يمض أسبوع واحد على الشغب الذي حصل في كاتدرائيّة فلورنسا، حتى قرّر ألكسندر السادس، أخيراً، اتخاذ إجراء ضد سافونارولا. فقد أحجم، فيما مضى، عن التحرُّك، متأملاً أن تسوّي عودة بيرو دي ميديتشي إلى الحكم الأمر برمته، فضلاً عما سيلي ذلك من انضمام فلورنسا إلى الحلف المقدَّس. غير أن بيرو أخفق في مسعاه، ومضى سافونارولا في تحديه للبابا، إلى أن خرجت الأمور عن السيطرة. ولم يعد أمام الأخير من بديل سوى العمل على توطيد سلطته، فاتخذ الخطوة القصوى بـ«حرمان» سافونارولا رسمياً «بشبهة الهرطقة»[3]. وقد عنى ذلك منعه من الوعظ، أو أخذ المناولة وإعطائها. كما اشتمل الحرمان على تعليمات بأنه: «يحرم على الجميع مساعدته بأي صورة من الصور، سواء بالتحدُّث إليه أو الموافقة على أي قول أو فعل يصدر عنه، وإلا صدر حرمان بحق من يخالف هذه

التعليمات أيضاً». ولكن حتى يصبح الأمر أو المرسوم نافذاً، يجب أن تُسلَّم رسالة بابويَّة رسميَّة بالحرمان تَبْعثُ بها روما إلى فلورنسا؛ الأمر الذي أدرك ألكسندر السادس أنه ينطوي على بعض الصعوبة. وقد أنيطت هذه المهمة، ولهذا دلالته، بالعالم اللاهوتي الجهبذ؛ جيانفيتوريو دا كاميرينو، الذي ألقى، قبل شهرين فقط، عظة في فلورنسا هاجم فيها سافوناورولا بضراوة بالغة. وعلى الرغم من امتعاض جماعة الأرابياتي، التي مثلت مجلس السينيوريا في ذلك الحين، من سافوناورولا، فإنها رأت في عظة دا كاميرينو تحريضاً فاضحاً وأثيماً على إحداث الاضطرابات الأهلية، فقامت بطرده من المدينة؛ ذلك الحكم الذي عنى أنه سيتعرَّض لعقوبة الإعدام إن عاد. وكان من شبه المؤكد أن الاختيار وقع على دا كاميرينو بتأثير من مستشاري البابا، ولاسيما جيناتسانو. وكان المقصد من ذلك إثارة الأمور كي تبلغ أقصى أمدائها.

وانطلق دا كاميرينو، دون إبطاء، من روما ميمماً وجهه باتجاه فلورنسا. ولكن ما إن حطَّت قدماه على الأراضي التوسكانيَّة حتى راوده القلق، فهو وإن كان مبعوثاً من البابا، فقد لا يمنحه هذا حصانة دبلوماسيَّة كاملة من حُكم السينيوريا الذي صدر بحقه. وهكذا، فقد انسحب، بهدوء، إلى سينا الآمنة، وأرسل إلى السينيوريا، من هناك، يسألهم الأمان كي يتمكَّن من إتمام مهمته البابويَّة، فلم يتلقَّ أي رد مباشر على طلبه. وإذ مضت على انتظاره ثلاثة أسابيع بات جليَّاً لـ «كاميرينو» أن من غير المُرجَّح أن تنال رسالته أي قبول أو اعتراف من أي نوع. وكان مجلس السينيوريا محيطاً بالغرض المرتجى من مهمَّة كاميرينو ومآلاتها على المدينة إن هي تحققت، ولم يكن البابا في روما قادراً، في تلك الأثناء، على التحقق من أخبار كاميرينو ومكان وجوده. وبدا أن رسالة الحرمان التي أصدرها قد تبخرت في الهواء.

وقرر كاميرينو بعد زهاء شهر من الانتظار أن يعهد بنسخ من الرسالة البابويّة إلى رسول مجهول الهويّة، وأعطاه تعليمات بأن يُسلِّم هذه النُسخ إلى خمسة مراكز إكليركيّة معارضة لسافونارولا في فلورنسا؛ تلك المراكز التي كانت هذه الرسائل موجهة إليها، ولاسيما كنيسة سان كروتشه الفرانسيسكيّة، وكنيسة سانتا ماريا نوفيلا (التي بقي الدومنيكان فيها موالين للبابا)، إضافة إلى كنيسة سانتو سبيريتو الأوغسطينيّة. وكان أن أُعلن في هذه الكنائس الخمس، في يوم الأحد الموافق للثامن عشر من يونيو، وأمام جموع المصلين، عن حرمان سافونارولا مشفوعاً بالجرس، والكتاب المقدس، والشموع[4]. وقد تضمَّن هذا الطقس العريق قرعاً رصيناً للجرس كما يجري في الجنازات، وإغلاقاً للكتاب المقدس، وذكراً لصفة الحرمان: «نحكم عليه بأنه ملعون، مع الشيطان وملائكته، إلى نيران جهنَّم الأبديَّة» وأخيراً، النفخ على شعلة الشمعة وإطفاؤها، بما يرمز إلى طرد روح المحروم، وحرمانه من نور الرب. وحين أقيم هذا الطقس في كنيسة سانتو سبريتو، تراسه، بزهو الظافر، خصم سافونارولا ليونرادو دا فيفيتسانو، الذي عنَّف سافونارولا في عظاته التي ألقاها طوال عيد الصوم الكبير الفائت.

وما أسرع ما جاء رد سافونارولا على ذلك، فقد كتب في اليوم الثاني مباشرة رسالة طُبعت لغاية النشر وحملت عنوان: «في نقض الحرمان الزائف». وما يحمل دلالة هنا أنها لم تكتب باللاتينيّة العلميّة التي تستعملها الكنيسة، وإنما بالإيطاليّة؛ لغة عامة الناس، وكانت تخاطب «كل المسيحيين وأحباب الله»[5]. وقد دافع سافونارولا، من خلالها، عن نفسه ضد روما، موضحاً بأنه لا ينوي، على الإطلاق، قبول هذا الحرمان. وقد حشد أتباعه المخلصين حوله زاعماً: «أن الرب سيلطف بنا، ويدرأ عنا كل خطر ومَهْلكة،

وسيمنحنا نصراً مبيناً». ولن يمضي وقت طويل حتى ينشر سافونارولا رسالة ثانية باللاتينيّة، بعنوان: «في نقض الحرمانات المتقعّرة» وقد استهدف بها اللاهوتيين، وغيرهم من الأكاديميين والمسؤولين المتعلمين، واستجمع سافونارولا فيها كل ما أوتيه من فكر ومعرفة لتناول مسألة حرمانه. فكل ما في الأمر أنه اتهم بـ «شبهة الهرطقة»، دون إثبات أو بينة. ولم توجه إليه أي تهمة، ولم تكن ثمة محاكمة، ولم يجر إثبات جُرْمه. وعمد في هذا الدفاع ذي المستوى العلمي الرّفيع إلى ذكر حالات سابقة اضطرّ فيها عددٌ من رجال الدين إلى تحدي الحرمانات الظالمة، حتى إنه ذهب بعيداً حين استذكر النصيحة التي أصدرها مارتين الخامس؛ البابا المحبوب والمبجّل، في وقت سابق من ذلك القرن، وقد أدّى انتخابه إلى إنهاء الانشقاق العظيم[1]. وكان مارتين الخامس قد أعلن أن المسيحيين لم يكونوا ملزمين بالصدود عن المحرومين، إلا إذا صدرت تعليمات بابويّة صريحة تقضي بذلك، وعلى الرغم من أن ألكسندر السادس قام بذلك فعلاً، فإن سافونارولا ألفى نفسه غير ملزم مطلقاً بالتوقف عن الوعظ. وهكذا، ففي التاسع عشر من يونيو، وهو اليوم ذاته الذي تلا تلاوة قرار الحرمان من على منبر خمس كنائس من كنائس فلورنسا الكبرى، ألقى سافونارولا عظة في سان ماركو تداعى إليها جمع غفير من المعجبين، الذين أمّوا المكان من أرجاء المدينة كلها.

لكن الجو العام كان، في ذلك الوقت، قَدْ تغيّر في فلورنسا، إذ إن مجلس السينيوريا المكون من جماعة الأرابياتي بدأ حينها يتراخى بشأن العديد من

(1) استمر الانشقاق العظيم The Great Schism من عام 1378 حتى 1417، وكان ثمة بابوان خلال تلك الفترة؛ واحدٌ في روما وآخر في أفينيون، ولم يكن أي منهما يعترف بسلطة الآخر.

المحظورات التي فرضتها المجالس السابقة بنصح من سافونارولا. وقد سجّل لاندوتشي في الحادي عشر من يونيو، قائلاً:

«جرى سباق الخيول المسمّى بسانتا باربارا[1]، وكان قد أوقف لسنوات، جرّاء عظات سافونارولا. وقرّر مجلس السينيوريا الحالي أن من المتوجب السماح بإقامته، متجاهلين عظات سافونارولا، وقائلين: لندع الناس تبتهج قليلاً، هل يجب علينا، جميعاً، أن نسلك مسلك الرهبان؟»[6].

وتلقى الناس، حرمان سافونارولا، بعد ذلك بأسبوع، بابتهاج عام، وجاء ذلك عفوياً في جانب منه. لكن من المؤكد أنه كان بتشجيع من جماعتي أرابياتي وبيغي. كما رحّبت كل من جماعة تاييدي؛ الأقل عداوة وخبثاً، وجماعة يبانكي؛ العلمانيّة الليبراليّة، بنهاية حكم سافونارولا التي تلوح في الأفق. ورقص الناس في الميادين، وظهرت البغايا طوال الليالي في الشوارع حيث كان يسمحُ لهن بالمكوث عادة. وقد انتشرت الأغاني الشعبيّة التي تسخر من سافونارولا ورهبانه، ومن جماعة البيانوني، وجرى ترديدها في الحانات التي ازدهرت من جديد، في حين كانت الحشود تتجمع خارج سان ماركو، وتسخر من سافونارولا وأتباعه، وهي ترفع عقائرها بالأغاني الشعبيّة، وتطلق الشتائم البذيئة بصخب عالٍ.

---

(1) Palio: هو سباق الخيول التقليدي السنوي، الذي كان يجري في شوارع المدينة عبر مسار يبلغ طوله ميلاً واحداً، واعتاد الفرسان لبس ثياب ملونة ترمز إلى المنطقة أو الحي الذي جاء منه الفارس، وكانت الجماهير تصطف على كلا الجانبين، هاتفة إلى الجواد الذي يمثّل منطقتها، وتعم الأجواء الاحتفاليّة المدينة في اليوم الذي يجري فيه السباق. وكانت تلك البهجة العامّة، والمراهنات التي ترافقها، من المُستكرهات الآثمة عند سافونارولا. ويعد سباق باليو السنوي، الذي مازال يقام في الميدان الرئيس لبيزا، أثراً من الآثار الباقية لمثل تلك السباقات القديمة.

غير أن هذه العربدات جاءت كرد فعل على سياق النذر المشؤومة التي لعبت، ربما، دوراً محفزاً في إثارة حالة الاستهتار من جانب هؤلاء الذين قاموا بأعمال المرح والعربدة. وكما خشي العديد من الناس حين جاءت التقارير لتتحدث عن الحالات المعزولة من الطاعون التي شهدتها الأحياء الفقيرة خلال الشتاء، فقد جلب الصيف حينئذ - بروائحه المنتنة وتكاثر حشراته في الشوارع والطرقات- انتشاراً أخطر للمرض. وتقدّم يوميّات لاندوتشي مادة ومشهداً سوداويين، وما من ريب أنَّ ما سَجّله قد بعث القشعريرة في أوصال أهل فلورنسا: سواء ممن ابتهج أو رثى لإبطال قوانين سافونارولا التطهُريّة. نقرأ:

«28: يونيو: يقولون إن ثمة 60 حالة وفاة يومياً جرّاء الحُمّى.

30 يونيو: عصف الوباء بعدة بيوت في المدينة، وثمانية بيوت في منطقة بورغو دي ريكوربولي[1].

3 يوليو: لقد جرى اكتشاف المزيد من البيوت التي عصف بها الطاعون، حتى الآن، مما جعل الجميع يفكّر بالهرب.

وقد جرى، وسط كل هذا، انتخاب دومينيكو بارتولي؛ المناصر لسافونارولا، لمنصب الغونفالونير، وتسلّم منصبه في غرة يوليو. ومن الممكن أن يكون هذا التعيين قد أدى إلى إنقاذ حياة سافونارولا، وذلك بأن صدَّ الأرابياتي عن اتخاذ الأمور بأيديهم».

وكانت قد بدأت شحنات جديدة من الحبوب بالوصول إلى المدينة من ميناء ليفورنو، واتخذت الإدارة الجديدة إجراءات عاجلة للتخفيف من معاناة جماعة البيانوني، فقد جاء وقت من الأوقات ارتفع فيه سعر

(1) ضاحية تتكون من أكواخ الصيادين الفقراء قبالة أسوار المدينة، على الضفة الجنوبيّة من نهر أرنو.

الحبوب إلى أكثر من 5 ليرات و100 سولدي، لكن الإدارة الجديدة قد ضمنت، في أوائل يوليو، ما يكفي من المخزونات الاحتياطيّة، مما دفع لاندوتشي إلى الكتابة قائلاً: «لقد ثبّت موظفو الوفرة[1] سعر الحبوب في السوق على 35 سولدياً» ومع ذلك، فقد بقي هذا السعر الجديد ضعف السعر المعتاد.

وبقي الوضع في حالة من التنازع طوال يوليو، وإن لم يتخذ صورة عنفيّة، ربما بسبب ما أصاب الناس من إنهاك. وكتب لاندوتشي يقول:

«29 يوليو: كان ثمة كسوف للشمس، وكان كثيرٌ من الناس يموتون من الطاعون والحُمّى، مما أفرغ المدينة من أهلها. وذلك حين نزح كل مقتدر إلى الأرياف».

ورأى العديد ممن يؤمنون بالخرافات، ولاسيما من الفقراء الذين لم يكن بمقدورهم أن يأووا إلى الريف، في كسوف الشمس نذير شؤم. وكان من بين من تخلّف في المدينة عدد من الذين مازالوا ينوون الإطاحة بالحكومة.

أما في روما، فقد انفرط عقد الصداقة بين بييرو ميديتشي وصديقه الحيمم لامبيرتو ديل أنتيلا. وعلى الرغم من أنَّ الأخير كان منفياً من فلورنسا، فقد قرّر الرحيل إلى سيينا حيث راسل عدة أصدقاء متنفذين في فلورنسا، مستعطفاً إياهم تقديم التماس إلى مجلس السينيوريا، إنابة عنه، ينشدونهم العفو. وإذا سمحوا له بالعودة، فإنه، كما صرّح، قمين بأن يقدّم لمجلس السينيوريا وفرة من المعلومات المهمّة بشأن أسرة ميديتشي وأنشطة اعوانها في روما.

وكانت السينيوريا قد شكلت، إثر غزوة بييرو ميديتشي التي احبطت،

(1) المكافئ الفلورنسي لوزارة التموين.

شبكة من الجواسيس في الأرياف المحيطة بالمدينة، مما يمكنها من تلقي معلومات فوريّة حول أي اقتراب لرحالة يقومون، ربما، بعملية استطلاع لاجتياح قادم. وإذ يئس ديل أنتيلا من أي إجابة، عزم على القيام بزيارة خفيّة لأملاك أسرته التي لا تبعد سوى أربعة أميال خارج فلورنسا. وما لبثت سلطات المدينة أن تنبهت لتحركاته، ولم يكد يقترب من أملاكه حتى جرى اعتقاله، واقتيد مخفوراً إلى فلورنسا حيث عُذِّب بالطريقة التقليديّة المتبعة في فلورنسا، والمعروفة باسم الـ«سترابادو» Strappado، إذ كانت تُوثق يدا السجين وراء ظهره، ثم يُعلَّق ببكرة تُرفع، فتحمل السجين في الفراغ مُعلَّقاً من مِعْصميه، ثم تُحرَّر البكرة ليسقط الجسد حتى يكاد يلامس الأرض، وكان يجري إيقاف السقوط بواسطة الحبل المعقود حول معصميه، ولشدَّ ما كان الألم موجعاً وفظيعاً، وكان من الممكن أن يحدث السقوط خلعاً في عظم الأكتاف (وكانت تعاد، عندئذ، إلى مكانها على يد جراح يوجد هناك، مما يتيح استئناف العملية كرَّة تلو أخرى). وربما تعرَّض السجناء للتعذيب بالسترابادو، غير مرَّة، بحضور أفراد من لجنة شرطيّة، وبعض أعضاء مجلس السينيوريا، كي يستمعوا إلى الاعترافات دون وسيط.

ولم تكن دوافع ديل أنتيلا في عودته إلى فلورنسا، فيما يبدو، بريئة تماماً. فقد وجد معه، لدى اعتقاله، عدد من الرسائل السريَّة، وحين أُخضع إلى عدة عمليات من التعذيب بطريقة السترابادو، نطق أنتيلا بأسماء الأشخاص الذين كان من المفترض أن تسلم إليهم هذه الوثائق. كما اعترف بكل ما يعرفه عن أنشطة أسرة ميديتشي وأعوانها في روما[1]، ثم ذكر أسماء المواطنين

(1) مثَّل هذا الاعتراف المرجع الذي استقى منه المؤرخون التفاصيل الدقيقة المتعلقة بجولة المجون والتهتك التي كان يقوم بها بيرو كل يوم.

الفلورنسيين البارزين الذين أقسم بييرو ميديتشي أن يعدمهم إذا آلت إليه السلطة من جديد. واعترف، كذلك، بقائمة كاملة من الخونة من داخل المدينة؛ أولئك الذين كانوا يحيكون المؤامرات بكل همة ونشاط بقصد الإطاحة بالحكومة لصالح عودة بييرو ميديتشي إلى الحكم. وكان أنتيلا قد كوّن عدداً غفيراً من الأعداء من بين الأسر الفلورنسيّة المتنفذة قبل أن يفرّ إلى المنفى ليلتحق ببييرو دي ميديتشي. ومن المؤكد أن لديه الكثير من الحسابات التي أراد أن يصفيها، لذلك، فقد شكك العديد من المعاصرين (بمن فيهم أولئك الذين حضروا اعترافاته) بالقائمة المطوّلة من «الخونة» التي نطق بها في آخر الأمر.

وما لبث مجلس السينيوريا أن وضع الخطط لاعتقال من جاء اسمه في القائمة. وكان من أولئك العديد من كبار الشخصيّات والأفراد الذين ينتمون إلى أرقى أسر المدينة، من أمثال جينو كابّوني، وأندريا دي ميديتشي (قريب لورينزو دي بييرفرانشيسكو) ولورينزو تورنابوني (من أسرة زوجة لورينزو العظيم) ونيكولو ريدولفي؛ القيادي البارز في جماعة بيغي، حتى إن القائمة اشتملت على الغونفالونيير السابق بيرناردو ديل نيرو، الذي أبى أن يفتح بوابات المدينة أمام بييرو. ولم يخامر هؤلاء الثلاثة الأخيرون الشك في موقفهم، وحين جرى استدعاؤهم إلى قصر السينيوريا حضروا طواعية، مفترضين طلبَ النصح منهم بشأن الوضع الصعب الذي أدخلت فيه اعترافات أنتيلا المدينة، فاعتقل ثلاثتهم على الفور، بمن فيهم ديل نيرو ذي الاثنين والسبعين عاماً، وجرى اقتيادهم إلى مقرّات الشرطة في منطقة بارغيلّو، وعُذِّبوا بطريقة السترابادو.

وقد سجّل لاندوتشي، بعد خمسة أيام فقط من اعتقال أنتيلا، يقول:

«10 آب: انطلقت الألسن بالحديث فتكلم الجميع حول ما الذي يتوجب فعله بالسجناء، فذهب بعضهم إلى القول إنهم غير مذنبين، وأصرَّ آخرون على أنهم كانوا مذنبين»[7].

وقد قُدِّم هؤلاء الثلاثة، مع اثنين آخرين، إلى المحاكمة في الـ17 من آب. وما أسرع أن وُجدوا مذنبين، فحكم عليهم بعقوبة الإعدام، مشفوعة بحكم يقضي بنفي أسرهم. وقدَّم محامي الدفاع الخاص بهم طلباً لاستئناف الحكم، انطلاقاً من الإصلاحات التي أُدخلت على النظام القضائي باقتراح من سافونارولا. وما لبثت أن امتلأت المدينة بالأقاويل والإشاعات الجامحة والمتضاربة حول مصيرهم. فهل كانوا، حقيقة، أبرياء؟ وإذا نُفِّذ فيهم الحكم، فهل سيلهب ذلك الوضع برمته، ويفضي إلى اندلاع حرب أهليّة؟ وسرت الأنباء، وقتها، أنَّ بييرو ميديتشي قد استنهض همته، وارتحل من روما صوب سيينا من جديد، متأملاً أن يجمع قوات كافية للزحف على فلورنسا. وكان ظهوره، هذه المرّة، عند أسوار المدينة سيفضي إلى إثارة انتفاضة من نوع ما. وكان من الضروري النظر في طلب الاستئناف المقدَّم من الرجال الخمسة المدانين بأقرب وقت ممكن.

ولم يكن بالإمكان حل مسألة بمثل ذلك القدر من الأهميّة إلا بطريقة ديمقراطيّة من خلال اجتماع المجلس الأكبر. ولكن لم يكن، ببساطة، ثمة وقت كاف لجمع عدد من الأعضاء يكتمل به نصاب الاجتماع، إذ غادر العديد منهم المدينة إلى مزارعهم وفيللهم الكائنة في الأرياف، وكانت هذه عادة متبعة خلال أشهر الصيف الحارة، غير أن انتشار الطاعون والحُمّى نجم عنه خروج كبير في تلك السنة خاصّة. وهكذا، فقد تمَّ إلغاء فكرة الدعوة إلى اجتماع المجلس الأكبر. وقام الغونفالونيير دومينيكو بارتولي؛ المؤيد

للسافونارولية، عوضاً عن ذلك، باستخدام صلاحيّاته، وطلب اجتماع المجلس المصغر المعروف باسم براتيكا «Pratica» في الثاني عشر من آب. وبلغ تعداد الأخير ما يقرب من 200 رجل، تكوّنوا من مجلس السينيوريا، وكبار الشخصيات في الإدارة الحكوميّة، وغيرهم من أهل الخبرة في المدينة. وكان هؤلاء سيتباحثون في وجاهة الاستئناف المقدم، ثم يُصارُ إلى التصويت عليه من جانب مجلس السينيوريا. وبقي المحكوم عليهم حبيسي زنازينهم في سجن بارغيلو المجاور، ولم يسمح لهم بالحضور عند النظر باستئنافهم، كما لم يسمح لمحامي الدفاع؛ السيد فيسبوتشي، بالحضور. أما سافونارولا، الذي لم يكن يشغل أي منصب في الإدارة، فقد كان غائباً بطبيعة الحال، لكن آراءه كانت حاضرة. وقد خيّمت أجواء الانقسام بقوّة على الحضور منذ البداية. وابتدأ الاجتماع صباحاً، واستمر طوال ساعات المساء حتى حلول الليل، وكان الجنود يذرعون المكان في دوريات لحراسة ميدان السينيوريا في الخارج، وذلك للحيلولة دون قيام أي مظاهرات عامّة. وقد سمع هؤلاء، عند الحادية عشرة، أصوات الرجال الغاضبين تتعالى منبعثة من نوافذ القصر المفتوحة حيث كان الاجتماع منعقداً. فقد كان الجدل يدور حول طبيعة الجمهوريّة ذاتها، ومسارها مستقبلاً، على ضوء الشُّموع المرتعشة، إذ كان الأفراد الخمسة المدانون من كبار المواطنين، وفيهم من ينتسب إلى أسر عريقة وبارزة، ومن هو من كبار التجار، وكبار أعضاء النقابة، والغونفالونيير السابق. وعلى الرغم من ميولهم المتعاطفة مع أسرة ميديتشي، فإنهم تميزوا بالاعتدال، وكانوا موضع احترام، حتى إنهم محبوبون (من جانب العديد ممن آثروا سافونارولا على من سواه)، ولم تكن غالبية المواطنين معتقدة بإدانتهم. وإذا جرى إعدام هؤلاء الرجال على نحو متسرّع، وجرّدت

أسرهم من أملاكها وثرواتها، ثم أُرسلت إلى المنفى، فإن هذا سيمثّل علامة فارقة لتحوّل خطير في سياسة الجمهوريّة، وقد استثار مثل هذا الاحتمال انفعالات عنيفة.

«وما لبث أن انتصف الليل حتى كان الاجتماع المنعقد لمناقشة الاستئناف قد تدهور إلى حد أن القصر صار، في تلك الليلة، مثل دكان حداد، أو كهف تسكنه روح منتقمة. وقد اقتادت الحاضرين روح الازدراء وثورة هوجاء مجنونة، إذ كانوا يمتشقون الأسلحة بأيديهم، وتصدر عنهم كلمات جارحة، وتملؤهم رغبة في الشجار... حتى إن بعض الأشراف خشوا على حياتهم وسلامتهم»[8].

ولم يشهد الوضع، مع كل هذا، أي انفراج. إذ كان لا بُدّ أن يصوّت ستة من أعضاء السينيوريا لصالحه، بيد أن المتوافر، حتى اللحظة، لم يجاوز أربعة أو خمسة من الأعضاء المقتنعين بذلك. وتقدّم النبيل كارلو ستروتزي، في لحظة ما، نحو أعضاء السينيوريا الجالسين، وأمسك بييرو غيتشارديني[1]، وهدّد بإلقائه من النافذة المفتوحة إلى الميدان في الأسفل إن لم يتراجع ويصوّت ضد الاستئناف. ومثّل هذا الهجوم الجسدي جريمة خطرة، لكن الأمور تجاوزت، في تلك اللحظة، الأحكام القانونية الدقيقة. وفي الواقع، فإن تشيرّيتاني، المعاصر لتلك الأحداث، ذهب بعيداً إلى حد الزعم: لو كان محامي الدفاع فيسبوتشي حاضراً وبدأ بالترافع عن المدانين لقذف من النافذة فعلاً.

وما إن بلغت الساعة الثانية صباحاً حتى وصل الاجتماع إلى أقصى مداه، بسبب ما قام به فرانشيسكو فالوري؛ زعيم جماعة البيانوني، الذي عُيّن، كذلك، في منصب رفيع في الإدارة. إذ زعم المؤرخ غيتشارديني (الذي

(1) هو والد مؤرخ عصر النهضة الشهير فرانسيسكو غيتشارديني.

لا بُدَّ وأنه سمع رواية مباشرة للحدث من أبيه)، قائلاً: «هبَّ فرانشيسكو فالوري، أخيراً، على قدميه في سورة غضب شديدة. وأمسك بصندوق الاقتراع بيده، ضارباً به الطاولة التي يجلس إليها أعضاء السينيوريا، وصارخاً: إما أن تتحقق العدالة وإما أن تفتح أبواب جهنَّم، ثم أصدر إنذاراً نهائياً عنيفاً، قائلاً: إما أن يموت هو أو أن يموت الخونة المتآمرون»[1][9].

وقد جعلت هذه المواجهة، على الخصوص، أحد أعضاء السينيوريا يخشى على حياته، وهو الحرفي الماهر؛ نيكولو زاتي، لذا قرر أن يرجع عن رأيه، ويصوّت ضدّ قبول الاستئناف، مُتمماً بذلك النصاب المطلوب، وهو ستة أصوات. فتمت المصادقة، بذلك، على عقوبة الإعدام. وما أسرع ما أُرسِل الحكم إلى الجلاد العام، واقتيد المتهمون، بعجلة لا موجب لها، خارج زنازينهم، أحدهم تلو الآخر، حفاة الأقدام، ومقيدين بالسلاسل إلى المكان العتيد، الذي تنفذ فيه أحكام الإعدام، وهو ساحة سجن بارغيلّو. وكانت المنصَّة التي يجري فيها حكم الإعدام محاطة بطبقة من القش، وجرت العادة أن توضع طبقة من القش فوق الرأس المقطوع حتى لا يرى المحكوم الذي لم يُنفذ فيه حكم الإعدام بعد، الدم المتراشق لمن سبقه إلى حتفه. وما إن أشارت الساعة إلى الرابعة صباحاً حتى انتهى كل شيء.

وعلى الرغم من العجلة والتكتم اللذين رافقا إنفاذ الحكم، فقد انتشر الخبر في المدينة المظلمة انتشار النار في الهشيم، وقَدْ سجّل لاندوتشي يقول: «ولشدَّ ما كانت دهشة الجميع من حدوث شيء كهذا، فقد كان

(1) تضع بعض المصادر حادثة ستروررتزي العنيفة، مباشرة، بعد هذه الحادثة. كما أن مارتينز يقيم، مرتكناً الى روايتي شيرباني وبيرنتي، الأدلة على وقوع هذه الحادثة في «الساعات التي سبقت الوصول إلى القرار النهائي... في خضم تلك الجلبة»، ويبدو هذا مرجَّحاً في ظل تلك الظروف التي سبق وصفها، على الرغم مما جاء في شهادة والد غيتشارديني. [10]

الأمر غير مفهوم البتة، إذْ سيقوا إلى حتوفهم في الليلة ذاتها، ولم يكن في مقدوري منع نفسي من البكاء حين رأيت جثمان الشاب لورينزو تورنابوني متجاوزاً الكانتو دي تورناكوينتشي وهو محمول على نعش قبيل الفجر»[11].

وكان ميقات الفجر في ذلك الوقت من السنة ما بين الخامسة والسادسة، ولم يكن لاندوتشي، في تلك الساعة مُجرّد عطار يعلم بما حدث، وينتظر الجنازة خارج زاوية متجره عند الكانتو دي تورناكوينتشي، لتمُر في طريقها إلى قصر تورنابوني المجاور، فلم يكن وحده، إذ لا بُدَّ وأن تكون الشوارع المظلمة قد امتلأت بالناس، بملامحهم المصمتة الشبحيّة، ولا بُدَّ أن بعضهم كان متأثراً مثل لاندوتشي.

وكان سلوك سافونارولا، خلال تلك الفترة، مُحيّراً، وقد سجّل لاندوتشي في وقت مبكّر يعود إلى التاسع من يوليو، قائلاً:

«تفشّى الطاعون في سان ماركو، فغادر العديد من الإخوة الرهبان الدير، قاصدين الريف حيث فلل آبائهم وأقربائهم وأصدقائهم. أما سافونارولا فقد تلبّث في الدير مع نفر قليل من الرهبان، وقد بلغ عدد البيوت الفلورنسية التي فتك بها الطاعون أربعة وثلاثين بيتاً في ذلك الوقت، كما انتشرت الحُمّى على نطاق واسع»[12].

ولم يكن مثل هذا السلوك غريباً على سافونارولا، فقد عزم على المكوث في مكانه حتى لو عرض حياته للخطر. وهو وإن منعه مجلس السينيوريا من الوعظ بسبب تفشي الوباء، ناهيك عن حكم الحرمان الذي صدر بحقه، فإنه مازال قادراً على تبادل المشورة سراً، ولاسيما مع شخصيات متنفذة مثل «فرانشيسكو فالوري»، وسواه من جماعة البيانوني صاحبة النفوذ. وكان

أفراد الجماعة يسعون، في واقع الأمر، إلى «الراهب الضئيل»، طلباً للنصح والإرشاد. وحين توسلت أسرة «تورنابوني» إلى سافونارولا كي يتشفّع للشاب لورينزو الودود والمحبوب لدى الناس، فإنه طلب، كما قيل، من مجلس السينيوريا إظهار الرحمة، على الرغم من أنه قال ذلك، فيما يبدو، من باب المسايرة لا أكثر. وليس ثمة من وثيقة، في واقع الحال، تشير إلى توسُّطه، بل إن بعضهم يشكك في أنه قام بأي شيء على الإطلاق. وبخلاف الدعوة الصريحة التي أطلقها، مناشداً الناس الرأفة بالمواطنين المعارضين في أعقاب محاربة بييرو ميديتشي، لم يقدِّم سافونارولا أي التماس علني عام بشأن الرجال المدانين. ولا نتوفر إلا على رسالة بعث بها سافونارولا إلى جيوفامباتيستا ريدولفي؛ شقيق المدان «نيكولو»، بتاريخ التاسع عشر من اغسطس، أي بعد يومين من حكم المحكمة الأولي على المدانين بالإعدام، نقرأ:

«وهكذا يا عزيزي جيوفامباتيستا، أولى لك في ما تعيشه من محنة الآن، أن تحيي في قلبك فضيلة الإيمان وعظمة روحك. وتدبّر في نعماء هذا العالم وثرواته، فهي تزول وتتلاشى مثل الريح. أما الزمن الممنوح لنا على هذه الأرض، فإنه يتقاصر ولا يلبث أن ينقضي. وربما كان الرب قد أنزل هذه العقوبة لأجل خلاص أخيك. فالمعاناة غالباً ما تخلِّص أصحاب الثراء من اللعنة التي تحلُّ بهم»[13].

ومن الجلي أن هذه الكلمات لا تحمل كثيراً من العزاء لشخص حكم على أخيه بالإعدام، وهي لا تحمل في أطوائها، وهذا أمر له دلالته، بصيصاً من الأمل في إرجاء تنفيذ الحكم. ومن الجدير بالملاحظة هنا أن سافونارولا دعاه بـ «جيوفامباتيستا خاصتي» (تعطي هذه الصيغة بالإيطاليّة شعوراً أقوى بالقرب والحميميّة)، وليس هذا غريباً، فقد كان جيوفامباتيستا واحداً

من أكثر أتباعه ولاء وقرباً إليه، مما يجعل هذه الرسالة تبدو جافة وجافية، كي لا نقول قاسية، على الرغم من أنها غير مستغربة، فيما تعلّق بجانبها الذي يحيل على تزهد سافونارولا وانصرافه عن الدنيا ومباهجها.

ويبقى مدى التزام سافونارولا بهذا الجانب، وإتباعه القول بالعمل، محط سؤال. وهو وإن كان في عزلة روحية وصحيّة معاً في سان ماركو إلى جانب نفر من مريديه المخلصين، فقد كانت تلك فترة سعى فيها، أيضاً (أو أتباعه على أقل تقدير) إلى توطيد دعائم سلطته السياسيّة التي تراجعت، من دون شك، في أعقاب الإعدامات الخمسة. وعلى الرغم مما خلّفه الأمر من حزن عام (كالذي شعر به لاندوتشي)، وهذا ما يثير للدهشة، فلم يكن له تأثيرٌ كبير سياسياً، فقد أورد المبعوث الميلاني في تقرير بتاريخ العاشر من سبتمبر، يقول: «لا يمكن لأحد أن ينكر أنَّ جماعة الراهب تهيمن، حتى الآن، على الحكومة بكاملها دون أي معارضة»[14]، فقد خلف بارتولي، الذي شغل منصف الغونفالونيير مدة شهرين، ثلاثة رؤساء من المُتعاطفين مع جماعة البيانوني، تعاقبوا على شغل المنصب ذاته. وكانت شعبية سافونارولا قويّة إلى درجة أن كاتب اليوميّات المدعو بارينتي كتب خلال نوفمبر، يقول:

«حظي (الراهب جيرالامو) بمنزلة رفيعة في قلوب الناس، فسُكَّت ميداليات البرونز التي تحمل صورته، إذ نُقشت على أحد وجهي الميدالية صورة سافونارولا، وأحيطت بجملة تقول: سافونارولا سليل الأنبياء العظماء. في حين جعلت صورة روما على الوجه الآخر، وقد رسم فوقها خنجر، وأحيطت بجملة تقول: سيف الرّب بتَّارٌ وسريع»[15].

أنفق سافونارولا ليله ونهاره في عزلة تامة في صومعته يكتب ما يراه

كثيرون إرثه الأدبي الأكبر. إذ انخرط، بدءاً من يوليو عام 1497 تقريباً حتى أوائل فبراير من عام 1498، عميقاً في فترة من النتاج الإبداعي الهائل، منجزاً ما لا يقل عن كتابين كاملين في غضون ستة شهور. وقد أودع في الأول عهده «إنجيله» الروحي، فيما جمع الثاني آراءه في السياسة. ولم يكتف بذلك، فقام بمراجعة كتاب ضد التنجيم كان قد ألّفه بالاشتراك مع بيكو دي ميراندولا قبل أربع سنوات، وعمل على ترجمته إلى اللغة الإيطالية، وكان يحمل عنوان: «أطروحة في نقض التنجيم التنبؤي».

أما كتابه «انتصار الصليب»، فقد احتوى على مجمل معتقدات سافوناورولا الروحيّة. ومن المثير للدهشة أن الكتاب ينطلق، في مبتدئه، من منظور شكي، مستخدماً صيغاً قد لا تكون مستهجنة لو أنها وردت في أعمال ديكارت؛ الفيلسوف الذي سيدشن عصر الفلسفة الحديثة، بعد أكثر من قرن. ومن ذاك قوله: «لن نرتكن إلى أي مرجعيّة، وسنمضي كما لو كنا نرفض تعليمات أي كائن في العالم، مهما كان هذا الأخير حكيماً. وسنرتكن، فقط، إلى المنطق الطبيعي»[16]. ثم يمضي إلى تحليل هذا التوكيد الجريء، ليقول: «ينطلق المنطق من المرئي إلى غير المرئي [الغيبي] على النحو الآتي: فكل معرفتنا تأتي عن طريق الحواس التي تدرك العالم الخارجي. أما العقل فإنه يدرك جوهر الأشياء». وتمثّل هذه القطعة الفذّة من التفلسف الإرهاصات الأولى لكل من الإمبريقيّة والعقلانيّة في بواكير الفلسفة الحديثة، غير أن الجملة اللاحقة توضح أنّ سافوناورولا لم يُعن بهذه التساؤلات لذاتها (مثلما فعل كل من ديكارت ومعاصره الإمبريقي المُبكّر؛ جون لوك)، إذ يفترض سافوناورولا أن الانتقال من المعرفة الخارجية (الحواس) إلى المعرفة الداخلية (العقل) هو تقدم نحو غاية مخصوصة: «وهكذا ترتقي المعرفة

بالشيء المادي إلى المعرفة بما هو غير مرئي (الغيبي)، واستباعاً إلى الرَّب». وقد أتبع ذلك بفرضية أخرى مفادها أن: «الفلاسفة يسعون إلى البحث عن الرَّب في عجائب الطبيعة المرئية»، ثم يعقد مشابهة بين ذلك والكيفيَّة التي «نسعى فيها إلى اكتشاف الكنيسة غير المرئيَّة، التي يتزعمها المسيح عبر الكنيسة المرئية». ومن ثمَّ، فإن كل دعاوى الشكيَّة والحجاج العقلي تُستبدل برؤى سافونارولا المعتادة، الشبيهة بسفر الرؤيا؛ تلك الرؤى التي تجمع المهابة والرهبة التي تميِّز العهد الجديد بالإيمان البسيط الذي يميِّز العهد القديم. إذ تمضي العربة الروحيَّة الغامضة عابرة المجازات القديمة، وماخرة عباب السماوات، وهي تحمل المسيح الفاتح، وقد علا رأسه تاج الأشواك و«أضيئت جراحه النازفة بالنور السماوي الهابط من علِيِّين. فيبدو، إذّاك، مُشعاً مثل شمس ثلاثيَّة تمثل الثالوث المقدَّس».

ويمضي العمل على النحو ذاته عبر أبواب أربعة من الحجاج الأصولي، الذي تُعزِّزه قوة سافونارولا الفكريَّة والمنطقيَّة الكبيرة، فضلاً عن آرائه الميتافيزيقيَّة، ورؤاه التنبؤيَّة المؤثِّرة، التي ألفناها في عظاته. ويتبدَّى هنا الجمع ذاته الذي حقَّق المأثرة العظيمة في إقناع أرقى العقول كما أبسطها على حد سواء في فلورنسا. ومهما يكن من أمر، فإنَّ هذا العهد [الكتاب] يفتقر، بصورة ما، إلى قوة التأثير التي يستجلبها حضور سافونارولا، ومن اليسير علينا تلمسها في فقرات مأخوذة من عظاته المدَّونة، إذ تمكننا الأخيرة، على أفضل وجه، من تخيل الجسد المقلنس على المنبر المعتلي صحن كاتدرائية فلورنسا، وتخيل صوته الساحر الذي يجلجل جرْسه حول بحر الوجوه أسفل منه. كما يمكن أن نتصوره وهو يجري حواره الشخصي معهم، حين يسأل ويجيب في آن، عارضاً أمامهم الرؤى الرهيبة التي تراءت له في

صومعته المنعزلة، أثناء التبتُّلات الليليّة الطويلة التي يتخللها الحرمان القاسي، وجلد الذات (وربما كذلك الألم الممض للهلوسات الناجمة عن الصداع النصفي).

وإذا كانت فلورنسا محاطة، حينئذ، بأعدائها، من كل جانب، ومنهكة لما ألمَّ بها من انتشار الطاعون والحُمّى، فقد كان تذكر تلك الشخصيّة، ذات المناقبيّة القياديّة ما ألهم الغونفالونير الجديد السعيَ حثيثاً وراء نصح سافونارولا السياسي. وقد كان الرجل الذي انتخب لمنصب الغونفالونير في مطلع عام 1498 هو جيوليانو سالفياتي، الذي ألفى نفسه، هو ومجلسه، في حالة من الضياع لدى مواجهتهم الانقسامات الداخليّة العصيّة على الحل، فيما يبدو، فضلاً عن التهديدات الخارجيّة. وبدا الأمر كما لو كان بنو إسرائيل يترقبون، بلهفة، نزول موسى «عليه السلام» من الجبل حاملاً الألواح التي كتبت عليها الوصايا العشر. غير أن هذه النصائح العمليّة لن تصل من سافوناورلا هذه المرة، فلن يكون ثمة أي مقترحات لإصلاحات سياسيّة متبصِّرة، تهدف إلى جمع المواطنين في وحدة سياسيّة وطنيّة، ولن يختار سافوناورلا ترديد التراث التوراتي بعبارات مُرْعدة كما لو أنها قُدَّت من الصخر. إنّ سافوناورلا قد عرف أن الوقت قد أزف لتحرير نفسه من عهده كاملاً، بصورتيه الدينيّة والعلمانيّة؛ ذلك العهد المتأتي من الحكمة المتراكمة عبر الخبرة، والمكتسبة بهداية من الرب خلال الخمسة والأربعين عاماً، التي أمضاها على هذه الأرض.

وهكذا، فعوض أن يهبّ سافوناورلا لنجدة فلورنسا، في محنتها من جديد، اختار البقاء في عزلة تامّة، وكتابة عهده السياسي، بعنوان: «رسالة في حُكْمْ فلورنسا وحكومتها». ويجملُ، في هذا الكتاب، كثيراً من النصائح

السياسيّة التي قدّمتها عظاته في أوقات سابقة من الأزمة. وقد حلَّ محل نبي العهد القديم، حينها، الصوتُ الرشيد الذي يتوجّه، تحديداً، إلى الشخصيّة الفلورنسيّة ذات الطبيعة المتقلّبة والطموحة، التي لا تلائمها سوى حكومة مدنيّة، أي حكم جمهوري[17]. وليس من قبيل الزعم الباطل التأكيد أن الفلورنسيين، بخلاف أي شعب آخر في زمانهم، مثّلوا الجمهور الأكثر ملاءمة لمثل هذا العمل. فلم يحدث، منذ قدماء الإغريق، أن وُجدت دولة مدنيّة كان فيها الناس (أو جلهم) معتادين على أن تكون لهم كلمة في اختيار حكومتهم. وحتى حين دُمّرت هذه الحريّة، تماماً، على يد أسرة ميديتشي، فإن لورينزو العظيم أدرك، تماماً، ضرورة أن يجعل العملية السياسية تبدو كما لو أنها مراعية لأصول الديمقراطية.

لا تُعدُّ رسالة (treatise) سافونارولا، خلافاً لبعض الأعمال الكلاسيكيّة السابقة في الفلسفة السياسيّة (مثل كتاب «الجمهوريّة لأفلاطون»)، وصفة ليوتوبيا دينيّة، وإنما تتبدى بوصفها عملاً خاصاً بالفلسفة السياسيّة في عصر النهضة. وقد كتبت قبل خمس عشرة سنة من كتاب ماكيافيلّي الموسوم بـ«الأمير»، الذي يُرجع إليه عادة، بوصفه عملاً رائداً في هذا الحقل (في واقع الأمر، يحتوي «الأمير» على دليل موثوق بأن ماكيافيلّي قرأ رسالة سافونارولا). ويشير سافونارولا، في عمله هذا، إلى أنَّ الإنسان كائن حر، ولأنه كذلك، فمن المتوجب أن يخضع لحكومة من نوع ما. كما يمحّص نقائص الاستبداد وشروره، ويُحذّر من نقيضها ممثلاً في الفوضى العامّة. ويقترح، عوضاً عن ذلك، إقامة مجلس أكبر مكافئ للمجلس الفلورنسي، بما هو الخيار الآمن الأفضل للحريّة البشريّة، فهو يعين على ضمان الطبيعة الديمقراطيّة للمجتمع.

لقد كانت رسالة سافوناررولا متقدمة جداً على زمانها، تماماً مثلما كانت الحكومة الديمقراطيّة في فلورنسا (التي لعب سافوناررولا دوراً فاعلاً وكبيراً في إنشائها) بشيراً طليعياً بالدولة الغربية المُعاصرة، من وجوه عدة. ولا يعني ذلك القول إن فلورنسا كانت أنموذجاً ديمقراطياً ليبرالياً شعبياً، كما يمكننا فهمه الآن، ولا القول إن رسالة سافوناررولا كانت وصفة متسقة وملائمة لذلك النوع من الحكم. فعلى النقيض من ذلك، أوضح سافوناررولا، من البداية، أنَّ أرقى أشكال الحكومات هي، بلا شك، الحكم المطلق، الذي يتزعمه حاكم مستقيم ورع [المستبد العادل]، غير أنه كان مضطراً للتسليم بأنَّ المنطق والخبرة دلّا على «أن هذا الضرب من الحكم لا يصلح لأنماط الخلق كلهم... ولاسيما الفلورنسيين».

ما الذي يستخلصه المرء من ذلك؟ فما من أحد يمكن أن يجبر سافوناررولا على قول مثل تلك العبارة. لكن الخلل في تصوّره الخاص يبرز في هذا الموضع بالذات، فلقد كان يؤمن بحكومة حُرّة لأهالي فلورنسا، لكنه يُصّر، في الآن ذاته، على ضرورة فرض أخلاقيات صارمة على هؤلاء الناس: «المتقلبين، وغير المستقرين على حال، والطموحين». وهكذا، فإن الإنسان الذي توخى إرساء ميثاق عدالة صارم، سعى، في الآن ذاته، إلى وضع ميثاق صارم من الأخلاقيات، فمن المتوجب أن تأتي الحريّة المدنيّة «Civil Freedom» على حساب الحريّة الشخصيّة. ونحن نقع على مثل هذه الدوافع غير السويّة لدى كثير من القادة الثوريين على اختلاف تلوُّناتهم (من كرومويل إلى لينين)، غير أنَّ العدالة والأخلاق، بالتعريف، ليستا محط انشغال رجل بعينه، وإنما الناس كافة، الذين لا يرى سوادهم الأعظم أن العدالة الاجتماعيّة والأخلاق الشخصيّة أمران متطابقان تماماً. وعليه، يبقى

هذا التناقض السياسي، على وجه الخصوص، عصياً على الحل حتى اللحظة الحاضرة، بيد أن سافونارولا كان أول من تبيّنه، واعترف به، حتى لو جاء على حساب معتقداته الأثيرة.

(19)
التحدي السافر

خبرت فلورنسا، في أوائل عام 1498، شتاءً قاسياً آخر، لا يشبه غيره من الشتاءات. وقد سجل لاندوتشي، في السادس من يناير، يقول: «كان البرد، في هذا الوقت، قد بلغ أقصى مداه شدة وقسوة، وقد تجمّد نهر أرنو عن آخره»[1]. وسيكتب لاحقاً عن «تشكّل الصقيع لأزيد من شهرين». وقد دفع هذا الطقس الناس إلى مغادرة الأرياف والرجوع إلى المدينة. ومما يدعو إلى الارتياح: «أنَّ الحديث عن الطاعون قد خفت الآن، ذلك أن المدينة باتت خالية من هذا الوباء ما خلا بيتاً أو بيتين، لا أكثر». وقد صادف السادس من يناير عيد الظهور، أيضاً، الذي يُحتفل به بزيارة المجوس الثلاثة للمسيح الطفل، وكان من عادة المدينة الاحتفال بإقامة مراسم تقليدية رمزيّة:

> «ذهب أعضاء السينيوريا ليقدموا الأعطيات في سان ماركو، وتقدّموا إلى الأخ جيرولامو لتقبيل يده على المذبح. ولشد ما أدهش ذلك أصحاب العقول الرّاجحة، لا من أعدائه فحسب وإنما من أصدقائه أيضاً»[2].

وعمت الإشاعات التي تفيد بأن سافونارولا سيخرج، عما قريب، من سان ماركو، وسيستأنف إلقاء عظاته الشهيرة، متحدياً بذلك سلطة البابا، والحرمان الذي أصدره، بصورة سافرة. وقد زار سفير فيرارا الراهب

سافونارولا، مدفوعاً بما داخله من فضول لمعرفة حقيقة هذه الشائعات، وسأله مباشرة إذا كان ينوي مواصلة الوعظ مرة أخرى، فأجابه سافونارولا: «أنه سيفعل حين يتسلَّم الإشارة من أولئك الذين لديهم القدرة على إصدار الأوامر له». وسأله السفير إن كان ينتظر أمراً من البابا أو مجلس السينيوريا، لكن سافونارولا أجاب أنه لن يتصرف بناء على أوامر من السينيوريا أو البابا الذي لم يقم بفعل شيء لإصلاح فساده وغيِّه الشخصي، فضلاً عن إصراره على رفض إلغاء الحرمان الظالم لسافونارولا. وزعم الأخير، في المقابل، أنه كان ينتظر الأمر ممن هو أعلى من البابا ومن المخلوقات الحية كافة.

كان مجلس السينيوريا في مأزق حقيقي، وكانت فلورنسا متلهفة لتدخل البابا في قضية بيزا، وعودة الميناء للحكم الفلورنسي، من أجل حل مشكلة النقص المتفاقم في المواد الغذائية الذي عانت منه المدينة، وأدرك مجلس السينيوريا، كذلك، الحاجة إلى الحفاظ على شعبيته لدى أنصار سافونارولا، وذلك بالسعي إلى إقناع ألكسندر السادس بإبطال الحرمان. ومن الممكن أن نلمس عظم الأهميّة التي أولاها مجلس السنيوريا وأهل فلورنسا لمسألة حرمان سافونارولا، إذا علمنا بالسفارة التي عُهد بها إلى المحامي دومينيكو بونسي، قاصداً فلورنسا، ليتفاوض مع ألكسندر السادس في روما حول هذا الشأن، على أمل الحصول على «غفران كامل وغير مشروط»[3] لسافونارولا. لكن ألكسندر السادس كان متصلّباً، وكأنما قُدَّ من الصخر، فلقد كانت فلورنسا حينها جزءاً لا يتجزأ من طموحه السياسي الأرحب، ممثّلاً في بسط سيطرته على إيطاليا، وكي يحقق هذا الغرض كان في حاجة إلى انضمام فلورنسا للحلف المُقدّس، وقد أصدر أوامره بذلك، ولن يدرس المسألة المُتعلقة بسافونارولا، وينظر فيها ما لم تنضم فلورنسا إلى هذا الحلف.

وما لبث «مَنْ هو أعلى من البابا ومن المخلوقات الحيَّة كافَّة» أن تحدَّث مع سافونارولا. فأعلن «الراهب الضئيل» من ساعته أنَّه عزم على معاودة إلقاء عظات ما قبل الصوم الكبير. وما إن حلَّ الحادي عشر من فبراير حتى غادر «الراهب الضئيل» بهيئته المُقَلْنَسة وأنفه المعقوف وعينيه الغائرتين، سان ماركو، محاطاً بحراسه من المعاونين المخلصين، حاثِّين الخطى نزولاً عبر طريق الكوكوميرو إلى كاتدرائيَّة فلورنسا. وقد جاءت ثيمة عظاته، هذا العام، من سفر الخروج، وهو السفر الثاني من العهد القديم، الذي يتحدث عن موسى «عليه السلام»، وكيف قاد بني إسرائيل من العبودية في مصر إلى «أرض الميعاد». وما إن صعد سافونارولا المنبر، حتى سرى بين الناس فرح غامر بعودته، فانفجروا في غناء جماعي بكلمات الترنيمة الذائعة التي تقول: «Te deum laudamus» (نمجدك أيها الرب)[4]. ولكنه لم يتأثر بهذا الترحاب البتة، مستهلاً كلامه بزهد وتواضع كبيرين، ومردِّداً كلمات إبراهيم «عليه السلام»: (ها أنا قَدْ أخذت في مخاطبتك يا مولاي مع أنني لست سوى تراب ورماد)[5].

وإذ انتهى من مخاطبة الرب، تحوَّل إلى جموع المصلين عازماً على ألا يوارب في كلامه فيما خصَّ قرار حرمانه وموقفه من سلطة ألكسندر السادس، فقال:

> «إن حاكم الكنيسة أداة من أدوات الرَّب... لكن إِن لم يستخدم بوصفه أداة ربانيَّة، فإنه يغدو أداةً مثلومة كغيرها من الأدوات... وهو ليس أعظم من أي شخص آخر... إنك لا تقوم بأعمال الخير دون أن تسلم نفسك لهداية الرب الأعلى».

وإن قال لك: «إنني امتلك السلطة، فبمقدورك أن تقول له: « ليس هذا

بصحيح، فما من يد تقودك إلى سواء السبيل، فأنت أداة مكسورة».

ولما لم يكن ذلك كافياً، انطلق في هجوم شخصي صريح على ألكسندر السادس وأعوانه في روما، فأنشأ قائلاً:

«ما الذي رمى إليه أولئك الذين كذبوا من أجل أن يصدر بحقي الحرمان؟ أولئك الذين ما إن أعلن القرار بحرماني حتى انصرفوا إلى ما كانوا فيه من سرف في المأكل والمشرب، وإلى أشكال الطمع جميعها. فضلاً عن معاشرة المحظيات، وبيع الإقطاعات والرُّتب الكنسيَّة، ومقارفة أشكال الكذب والفسق كلها. فمع أي صف ستكون يا يسوع؟ صف الحقيقة أم الأباطيل؟ قل يا يسوع: إني أنا الحق ...».

كان سافونارولا يجلِّي موقفه دون لبس أو موارِبة، حتى إنه ربط، وقتها، بين حرمانه والسلوك اللاأخلاقي الذي انتهجه البابا ومن هم حوله، معلناً، في الوقت عينه، أنه لا ينوي الامتثال لما يأمر به ذاك الشخص، أو قبول قراراته الرسميَّة. وهكذا، فقد قام سافونارولا بتحد علني ومباشر لألكسندر السادس. ولم يكن ثمة، إذاك، مجال للتراجع من كلا الجانبين.

واستقبلت عظة سافونارولا بشيء من الرهبة والذعر من جانب أهالي فلورنسا، وسجل لاندوتشي، قائلاً بهذا الشأن:

«ذهب كثيرٌ من الناس لسماعه، ودارت حول ما قاله نقاشات كثيرة. غير أن كثيراً من الناس، أيضاً، أحجم عن الذهاب خشية أن يتعرَّضوا للحرمان قائلين: سواء أكان قرار حرمانه عادلاً أم ظالماً، فمن المتوجب أن نخاف منه. وقد كنت من أولئك الذين استنكفوا عن الذهاب»[6].

وقد يكون لاندوتشي ممن أيّد سافونارولا، لكنه بقي حذراً إزاء ما يتعلّق بسلطة الكنيسة، كما كان، بالفعل، العديد من أفراد جماعة البيانوني. وكتب لاندوتشي، بعد ستة أيام فقط من عظة سافوناورلا الأولى، يقول:

«17من فبراير: وعظ (الراهب جيرولامو) في سانتا ماريا ديل فيوري [كاتدرائية فلورنسا] لكن عدد من ذهب من الناس كان أقل من المعتاد».

واتفق، قريباً من ذلك الوقت، أنَّ مجموعة متطرفة من المجموعات المناهضة لسافونارولا، التي تألفت في جزئها الأكبر من شباب الطبقة العليا الطائشين والساعين وراء المتع، المعروفين باسم كومباناتشي[1]، قد قرّروا أن يتولوا زمام الأمور بأنفسهم. فقاموا بتدبير مؤامرة لقتل سافوناورلا، وذلك بنسفه بالمتفجرات في أثناء إلقائه واحدة من عظاته في الكاتدرائية. وخطّطوا لاستئجار خبير محلّي بالذخائر يدعى «بايا» كي يقوم بإخفاء البارود تحت المنبر. لكن المؤامرة ألغيت في اللحظة الأخيرة، لأن «الكومبانتشي» أدركوا أن مثل هذا الانفجار لا بُدَّ وأن «يشوّه أو يقتل»[7] أولئك الذين يتقدّمون المصلين، ممن يمكن أن يكونوا من أسرهم هم انفسهم. ويرى مارتينيز أن ذلك لو قُدِّر حدوثه، لكانت تلك أول قنبلة «إرهابيّة» في التاريخ الأوروبي. كما توضح هذه الحادثة ما كانت تمارسه مشاعر التعاطف والكراهية تجاه سافوناورلا من تأثير عميق على المدينة، وذلك حين بلغ الأمر مداه، فأحدث انقساماً في العديد من أسر الطبقة العليا[2].

(1) الرفاق السمجون أو البشعون، ومن الممكن أن يكون مكافئها العامي الحديث هو «الأولاد المتنمرون».

(2) تؤرّخ بعض المصادر، مثل عمل فيلاري، هذه المؤامرة قبل ذلك الوقت بنحو سنة، أي في عظة عيد الصعود التي ألقاها سافوناورلا في مايو من عام 1497، وذلك حين جرى =

وفي اليوم ذاته، الذي كان سافوناورلا يلقي فيه عظته العامّة، أرسل أحد سفيري فلورنسا لدى الفاتيكان، وهو بونسي، رسالة إلى مجلس السينيوريا[1]، يشتكي فيها قائلاً:

«إنّني أتعرّض للهجوم على كل صعيد من جانب الكرادلة والأساقفة، الذين اشتكوا بأقسى العبارات والأساليب من سلوك معاليكم [بالسماح لسافوناورلا بالوعظ]، ولم يبق منهم واحد لم يخبرني عن غضب البابا الشديد بشأن هذا الأمر. أعداؤكم يملؤون روما، وهم يبذلون جهودهم لإثارة مشاعر الضغينة ضدكم».

كان البابا قد أدرك، في تلك الأثناء، أن فلورنسا لم تكن راغبة في المقايضة ما بين سافوناورلا ودخولها في الحلف المقدّس، مما جعله يتميّز غيظاً. وفضلاً عن ذلك، فقد كان الأوغسطينيون في فلورنسا يبعثون إليها بكل شاردة وواردة، فيما يتعلّق بتصرفات سافوناورلا وأقواله. وقد طلب ألكسندر السادس، في الخامس والعشرين من فبراير، من براتشي وبونسي المثول أمامه في البلاط البابوي، حيث احتجّ إليهم بشأن سافوناورلا: «معبراً عن نفسه بأقوى العبارات الممكنة، وبانفعال شديد»[8]. وأمر بونسي بإرسال كتاب رسمي عاجل إلى مجلس السينيوريا يخبرهم فيه أنهم إن لم يقوموا بفرض القيود عليه أو استخدام أي وسيلة أُخرى معه فإن [قداسته سيفرض] تحريماً

= تلطيخ المنبر بالمخلفات، بعد أن ألغيت خطة التفجير. ويستشهد فيلاري بيورلاماكي بوصفه واحداً من مصادره الموثوقة. أما مارتينيز؛ الخبير الحديث، فإنه يؤثر الاعتماد على موثوقيّة مجلة لورينزو فيولي المعاصرة.

(1) في الواقع، كانت هذه، تبعاً للبروتوكول السائد، موجهة إلى مجلس العشرة، الذين كانوا يضطلعون بالشؤون الخارجية للجمهورية. لكن من المؤكد أنها استهدفت الغونفالونيير ومجلس السينيوريا، أيضاً، كما تشير كلماتها بوضوح.

عاماً بحق المدينة كلها. وكان هذا مكافئاً للحرمان الجماعي الذي يتضمَّن منع القرابين المقدسة، وعدم إقامة القداس، ويضاف إلى ذلك، وهو ربما أكثرها إثارة للفزع، عدم السماح بإقامة الجُنَّاز، وطقوس الدفن، تبعاً للسنن. المسيحيَّة. وقد واصل ألكسندر السادس كلامه معلناً أنَّه صرَّح بذلك في جلسة رسميَّة للبلاط أمام جميع كرادلته، وأساقفته، وسفرائه إلى الكرسي الرسولي (كي يكون واضحاً أنه لن يحيد عن هذا القرار ولن يبطله). ثم هيَّأ البابا نفسه، واستجمع قواه، ليدخل في حالة أكثر انفعالاً من السابق، وأمر بأن تُجرى قراءة علنية لبعض المقطوعات الشعريَّة البذيئة، التي جرى تداولها في فلورنسا، ووصلت إلى سمعه (عن طريق المتطوعين من الأوغسطينيين من دون شك)، وقد كانت هذه المقطوعات تسخر من البابا على نحو سوقي مبتذل، جاعلة منه ومن سلطته مثار تهكم أمام المواطنين العاديين. وحين كان يحاول السفراء الفلورنسيون الرد على ألكسندر السادس، جرى إسكاتهم مباشرة، فكانوا يمتثلون لأمره دون إبطاء أو نقاش.

وأرسل بونسي، الذي جرى توبيخه، رسالة عجلى إلى فلورنسا. غير أن البابا، دفعاً لأي لبس إزاء نواياه، أملى نص رسالتين بابويتين، شارحاً فيهما آراءه بأقوى الصور الممكنة، وأمر بأن ترسلا إلى فلورنسا على جناح السرعة. ولن يكون، هذه المرة، عذرٌ أو زعم بأن الرسائل قد ضلَّت طريقها، ولا مماحكة حيال قانونيَّة أوامره. وهكذا، فإما أن يجري العمل على إسكات سافونارولا، أو أن تجد فلورنسا نفسها في خطر ماحق. وسيتبدَّى جلياً للجميع أن مثل ذلك الخطر لن يقتصر على الشأن الديني، فقد كانت رايات القوة الموحدة للحلف المقدس تلوح خفَّاقة من وراء ألكسندر السادس.

ولكن، حين كان حاملو الرسائل الدبلوماسيَّة يحثون جيادهم شمالاً

على طريق كاسيا القديمة، في المرحلة الأخيرة من رحلة الـ 150 ميلاً إلى فلورنسا. كان سافونارولا في اليوم نفسه، الموافق للسابع والعشرين من فبراير، يصعد درجات المنبر في سان ماركو لإلقاء عظة عيد المرافع. وتبعت ذلك المسيرة المعتادة لفتية سافونارولا، حاملين الشموع، ورافعين عقائرهم بالترانيم، وهم يذرعون الشوارع، قارعين الأبواب بقوّة طلباً للتبرعات من الأشياء المترفة، بغرض جمعها كي تحرق في محارق المتاع الزائل، التي كانت تقام سنوياً. ومن المثير للدهشة أن عدداً كبيراً من تلك الأشياء ظل موجوداً في بيوت بأعيانها. لكن جمع مثل تلك الأشياء لم يحظ بالترحيب التام، وألفى فتية سافونارولا أنفسهم موضع استقبال مختلط.

«فقد جرت مراكمة مجموعة كبيرة من الأشياء في ميدان السينيوريا، وتكوّنت أشياء المتاع الزائل هذه من التماثيل العارية، وألواح ألعاب الميسر، والكتب الهرطقيّة، ونسخ من القصيدة الملحميّة الموسومة بـ «مورغانتي»[1] والمرايا، وغيرها من المتاع الزائل، التي وصل ثمنها إلى مبالغ كبيرة قُدّرت بآلاف الفلورينات... على الرغم من إثارة عدد من الناس[2] غير المتحمسين لبعض الاضطرابات، وذلك بقذف القطط الميتة، وكل أضراب القاذورات على تلك الكومة»[9].

وتورد تقارير أُخرى تعرّضَ مسيرات الإنشاد إلى الرجم بالحجارة، وأن الحواجز أقيمت لمنعها من دخول بعض الأحياء. كما تتحدث عن تعرّض

(1) قصيدة ملحميّة ساخرة مناهضة للدين، استأثرت بإعجاب الناس إبان حكم لورينزو، وظلت تحظى بشعبية كبيرة بعد وفاته.

(2) إشارة إلى جماعة Tiepidi المعتدلة في مناهضتها لسافونارولا. وقد تفاقم امتعاض الأخيرة من تصرفاته، ولاسيما فيما تعلّق بتحديه سلطة البابا، فمن الممكن أن يتأتّى عنه قيام الأخير بإصدار حرمان جماعي بحق المدينة، ومن ثم تعريض أرواحهم للخطر في نظر الرب.

فتية سافونارولا، في حالات بعينها، إلى التهجم الجسدي بالعصي، وتمزيق أرديتهم البيضاء من الخلف. فقد كان أرقّاء الحال مازالوا يكابدون على النزر اليسير من الحبوب التي تُلقى إليهم، ويعتاشون عليه. فكانوا يتحسَّرون، إذاك، على إتلاف مثل تلك الأشياء الثمينة، التي كان من الممكن أن تباع لتشترى بثمنها مواد تموينيَّة. كما كان ثمة شعور متزايد بالسأم والضجر لدى العديد من الأهالي المعتدلين من الجو البيوريتاني الخالي من البهجة، الذي ساد أرجاء المدينة، واقتحم عالمهم وحياتهم الشخصيَّين، في حين أقامت جماعة الأرابياتي على إثارة ما تستطيع من الشغب.

وعندما وصلت الرسائل البابويَّة التي تطالب بإسكات سافونارولا، إلى فلورنسا أخيراً، جرى، تبعاً لرواية غيتشارديني «عقد مجلس كبير[10] حول هذا الأمر، واحتدم فيه الجدل والخلاف». وعلى الرغم من الاصطدام المتعذِّر اجتنابه بين أنصار كل من جماعتي الأرابياتي والبيانوني، فقد شعر الكثير من كلا الطرفين بالتعاطف مع ما عبَّر عنه جيوفاني كومبي:

«ما من معنى لإرسال هذه الرسالة البابويَّة لنا، إلا بقدر ما تكتسي من دلالة لو أنها أرسلت إلى مدينة بيروجيا[1]. وسيكون من العار علينا أن نمتثل لذلك ونذعن له... وستكون علامة على جحودنا [لسافونارولا] إذا أطعنا. فنحن ممتنون جداً لكل ما فعله من أجلنا...

ونحن نتوفر به على كنز يغبطنا عليه، ربما، الناس جميعهم»[11].

وتبعاً لما رواه غيتشارديني، فإنّ خصوم سافونارولا: «الذين كان تأثيرهم على الناس يتزايد باستمرار، اعترضوا على عدم امتثاله لأوامر (البابا)، واحتجوا بأن عناده وعجرفته لن يفضيا إلا إلى إثارة غضب البابا وانزعاجه،

(1) كانت من أملاك البابا سابقاً، قبل أن ترفض حكمه في القرن السالف.

في الوقت الذي تجري فيه المداولات حول مسألة استرجاع بيزا معه ومع الحلف المقدس. ورغم ذلك، فقد دافع مؤيدو سافوناررولا عنه، مصرّين على عدم جواز الخلط بين الشأنين الرباني والدنيوي، وبناءً عليه، ينبغي العمل على عدم السماح للبابا بدس أنفه في شؤون الجمهوريّة[12].

وقد جرى تصويت نهائي بعد عدة أيام من النقاشات، التي تفاوتت في درجة سخونتها.

وقد أوصت غالبية كبرى بعدم السماح لسافونارولا بالوعظ. وهكذا، أمره مجلس السينيوريا، فأطاع سافونارولا الأمر، وأخلى مكانه للأخ دومينيكو دا بيسّا، كي يلقي العظات في سان ماركو، وكلّف غيره من الرهبان بالوعظ في الكنائس الأخرى»[13].

كان هذا تحايلاً واضحاً كما سيتبدى للجميع، فقد كان دومتيكو دا بيسا أشدَّ أتباع سافونارولا حماساً وولاء له. وكان الجميع يعلم أنه، وإخوته من الرهبان، سيقومون، ببساطة، بإلقاء عظات سافونارولا حرفياً، بصرف النظر عن أي تعليمات من روما.

وقد تملّك السكان، آنذاك، مزيجٌ متقلّب ومتزايد من المعتقدات الوطنيّة المتضاربة، والانقسامات الطبقيّة والسياسيّة، والولاءات الدينيّة. وقد انعكست هذه المشاعر المختلطة في آراء الغونفالونير وأعضاء مجلسه، الذين حلّوا محل الحكام المناصرين لسافونارولا في الأول من مارس لعام 1498. وكان الغونفالونير بيرو بوبوليسكي ذاته من مناوئي سافونارولا المعروفين، على الرغم من كونه غير متطرف. أما مجلس السينيوريا المكوّن من ثمانية أعضاء، فقد كان منقسماً على نفسه، فكان أربعة منهم معروفين بتأييدهم لجماعة الأرابياتي، في حين انتمى ثلاثة منهم إلى جماعة البيانوني، وشعر

العضو الثامن، وهو بيرو فيديني، أنّه غير قادر على إلزام نفسه بموقف محدّد. وهكذا، فحين جرى استئناف الحكم المتعلق بالمتآمرين الخمسة، كما تقدّم، اقتضى الأمر، تبعاً للدستور الفلورنسي، اجتماع ستة أصوات من مجلس السينيوريا ورئيسه، لإقرار هذا الأمر، كما أي أمر ذي أهميّة. وإذ تردّد فيديني في ذلك، بات مجلس السينيوريا عاجزاً عن اتخاذ أي قرار حاسم ضد سافونارولا في الوقت الحاضر على أقل تقدير.

وكانت الدلائل، جميعها، تشيرُ إلى أن المدينة تتقدم نحو مواجهة مصيريّة ستمخض عنها نواتج حاسمة. وحين آذن ذلك اليوم بالمجيء، لم يكن ثمة من يرغب في أن يكون مع الطرف الخاسر، وذلك لما اشتهر عن فلورنسا من سلوك عنيف وانتقامي في أعقاب تسوية النزاعات السياسية الكبرى. وقد ساد المدينة مناخ منذر بالشؤم، حين استشعر معظم الناس ما قد تضمره الأيام. فاستعدَّ بعضهم لذلك اليوم، فيما اتخذ الآخرون الاحتياطات، نقرأ: «حين رأى قادة المجموعة المعارضة أنَّ العديد من الشُّبان المسلحين القادمين من أُسر مرموقة، والمتقدين حماساً كانوا يناصبون العداء لسافونارولا، قاموا بتجميع أولئك الشبان في فرقة سُميّت كومباناتشي، وتزعَّمهم دوفو سبيني. واعتاد هؤلاء الاجتماع وتناول الطعام معاً، وإذ كانوا شباناً ذوي محتد كريم ومسلحين، فقد خشيهم الجميع. وقد دفع ذلك باولانطونيو سودريني، الذي كان نصيراً متحمّساً للراهب، إلى إلحاق ابنه توماسو بتلك الجماعة، حتى يكون لديه سند عندهم في حال حدوث ما لا تُحمد عقباه».

وقد ظلَّ آخرون ثابتين على مواقفهم، لأسباب مبدئيّة. وبقي من بقي لأسباب ذاتيّة محضة، أو لأنه لم يكن ثمة مجال للتراجع. وكان فيتشينو ذو الخمسة والستين عاماً، والمُحتقر على نطاق واسع حينها، قد عدَّ نفسه، منذ

بعض الوقت، من الفئة الأخيرة. وإذ كان يحيا حياة شخص مذعور، فإنه لم يعد يشعر بالأمان، إلا لفترات قصيرة في أثناء وجوده في الفيلا التي يمتلكها في كاريغي. أما المدينة، فلم يكن يستطيع المكوث فيها إلا فترات محدودة، في بيوت القلة القليلة، التي كانت على استعداد لاستضافته، مثلما كانت مستعدة لاحتمال لسانه السليط، إكراماً لشهرته القديمة. وكان فيتشينو قد اشتكى، قبل بضعة شهور فقط، في رسالة لواحد من البقيّة الباقية من أصدقائه، وهو الناشر البندقي المشهور ألدوس مانوتيوس، بأنَّ مجموعته القيمة من المحفوظات والكتب، التي اشتملت على طبعات من كتب أفلاطون وغيره من الفلاسفة القدماء مكتوبة باللغة اليونانية الأصليّة، ومجموعة ثرّة من كتب الأدب الكلاسيكي، كل هذه متناثرة، حينئذ، في أجزاء مختلفة من المدينة «بسبب موجات الغضب الثلاث، التي بثَّتْ الكراهية والبغضاء في أوصال فلورنسا المغمورة، أساساً، في حالة من البؤس المتواصل، لما استجلبه عليها الطاعون، والمجاعة، والاضطراب السياسي الشديد. وأسوأ من ذلك كُلّه، ذلك النفاق البشري الذي يمثّل وباء مقنّعاً»[14]، ولم تكن هذه الملحوظة الأخيرة سوى إشارة مقنعة إلى سافونارولا. وعندما أخفق الأخير، فيما تلا من شهور، في التشفع لصديق عمر فيتشينو؛ برناردو ديل نيرو، فإن الأسى والغيظ بلغا من فيتشينو مبلغاً لا حَدَّ له.

وقد نفَّس عن جام غضبه بكتابة مساجلة نقديّة لاذعة ضد سافونارولا، سيصار إلى نشرها بعد ثلاثة أشهر. وكانت المخطوطة الأصليّة مكتوبة على أربعة جوانب من مخطوطة لاتينيّة متراصّة، وقد كان مطلعها: «اعتذار من مارسيليو فيتشينو بالإنابة عن العديد من أهل فلورنسا، الذين وقعوا أسرى خداع المسيح الدجّال، المدعو سافونارولا، القادم من فيرارا، ذاك الذي فاق

بنفاقه كل المنافقين...»[15]. وبعد أن استجمع كل ما ألم به من تبحر بالكتاب المقدس، وهو يطاول ما اجتمع لسافونارولا نفسه، قام فيتشينو بالنيل من رئيس دير سان ماركو، وذمّه مقتبساً القديس بولس في غير موضع، ومما جاء فيها قوله:

«... ذلك أن مثل أولئك المتبجحين هم متنبئون زائفون، وعاملون مخاتلون، يتسترون بأردية حواريّي المسيح، ولا عجب، فهذا إبليس نفسه يتشكل بهيئة ملاك النور. وهكذا، فليس من الغريب إذا اتبع وكلاؤه خطاه، وتدثّروا بلباس التقوى وأهلها»[16].

وقد داوم صديقه السابق بوتيتشيلي على العيش في بيت شقيقه سيموني، الذي اقتادته حماسته لآراء جماعة البيانوني إلى استضافة اجتماعات منتظمة لزمرة من أصدقائه. وقد قيل إن هذه الاجتماعات كانت تجري في مرسم بوتيتشيلي، الذي كان من المؤكد أنه الأنسب، بحكم سعته، لعقد هذه الاجتماعات، التي حضرها الفنان نفسه يقيناً.

ويمكننا أن نتخيل هذه المجموعة الصغيرة الجادّة مُتحلّقةً حول ضوء الشموع، في حين تستند لوحات بوتيتشيلي، غير المكتملة بعد، على الجدران التي تتماوج عليها الظلال؛ تلك اللوحات التي كانت، تبعاً لما ذكر كاتب سيرته؛ رونالد لايتباون، تُعبّرُ عن «حس عميق بالاضطراب، ومعايشة لأزمان رؤى قياميّة، في آخر أيام العالم، التي استشعرها غالبية أهل فلورنسا في التسعينيّات من القرن الخامس عشر»[17].

واستلم مجلس السينيوريا الإنذار النهائي من الفاتيكان، ومؤداه: أن سافونارولا إن لم يوضع رهن الاعتقال، ويرسل إلى روما من ساعته، ستكون فلورنسا جمعاء تحت وطأة الحظر والحرمان الجماعي، اللذين خشي أهل

فلورنسا كافة أن يصبحا نافذين. وستتم، في الوقت عينه، مصادرة البضائع التي تعود إلى التجار الفلورنسيين المقيمين في روما، كما سيُلقى بهؤلاء الأخيرين في زنازين قلعة سانت أنجلو سيئة الصيت. وبدا كما لو أن فلورنسا على شفير حرب مع روما، التي ستستدعي قوى الحلف المقدس الساحقة لمؤازرتها. غير أنَّ المعضلة التي كانت تواجه مجلس السينيوريا مازالت ماثلة، فإذا جرى اعتقال سافونارولا، فمن المحتم أن يُدخل ذلك المدينة في حرب أهلية.

وقد ضرب سافونارولا، في هذا الوقت بالذات، ضربته الكبرى. فَقَدْ أدرك أنَّ حكام أوروبا الأقوياء كانوا يتميزون غيظاً من ألكسندر السادس، إذ إن سلوكه الشخصي المشين، فضلاً عن تدابيره السياسيَّة الخدَّاعة والخؤونة، بلغت حداً جعل الكثير منهم يُسرُّ لفكرة الخلاص منه. وعليه، فقد قرَّر سافونارولا أن يخطَّ رسالة سيَّارة إلى هؤلاء الحكام، مقترحاً أن من الضروري عقد مجلس كنسي بغرض عزل ألكسندر السادس، واستبداله بمرشح آخر أليق بعرش القديس بطرس. واختار سافونارولا توجيه خطابه في رسالته تلك إلى الإمبراطور الروماني المقدس، إضافة إلى ملوك هنغاريا، وإسبانيا، وإنجلترا، وفرنسا، وكانت لديه ثقة خاصَّة في شارل الثامن، على الرغم من معاهدته التي عقدها مع ألكسندر السادس. إذ تلقى سافونارولا معلومات استخباريَّة تفيد أن ما ألمَّ بملك فرنسا من حزن لفقد ولده اقتاده إلى إصلاح سبل حياته، وغدت مآثره الجنسيَّة، التي أبداها، لدى احتلاله نابولي، أثراً من الماضي. وقد «حوَّل الآن قبلة أفكاره ليعيش تبعاً لأوامر الرب»، فجعله ذلك، أيضاً، ينظر نظرة استنكار لسلوك ألكسندر السادس. وهكذا، فقد راودت شارل الثامن نفسه فكرة عقد مجلس كنسي، حتى إنه

بدأ البحث في الأمر مع كرادلته.

كانت رسالة سافونارولا إلى القادة الأوروبيين مباشرة وواضحة الهدف، وجاء فيها:

«أزف الوقت الذي نثأر فيه لشرفنا، ولقد أمرني الرب بالكشف عن أسرار جديدة، تكشف للعالم أجمع المياه الخطرة التي أبحرت فيها سفينة القديس بطرس. ولا ريب أن مرد هذه الأحوال إلى استخفافكم بهذه المسائل، الذي طال كثيراً . فالكنيسة تنوء بالقبائح والموبقات من رأسها حتى أخمص قدميها، لكنكم لما تتوانوا عن علاج أسقام الكنيسة فحسب، وإنما تقومون، أيضاً، بتقديم فروض الطاعة والولاء لمنبع تلك الشرور التي لوثتها. لذلك، غضب الرب غضباً شديداً، وحَرَم الكنيسة، منذ مدة طويلة، من راع لها... وإني، هنا، أشهد باسم كلمات الرب، أن ألكسندر السادس ليس بابا، ولا يمكن النظر إليه بهذه الصفة، وهو الذي قارف ذلك الذنب المُهلك المسمّى السيمونيّة، الذي اشترى بواسطته العرش البابوي، وباع الإقطاعات والرُّتب الكنسية، يوماً تلو آخر، للمزاودين الذين يدفعون أغلى الأثمان، وغير ذلك كثير من الشرور والرذائل التي يفاخر بارتكابها. علاوة على كل ما سبق، فإني أعلن أنه ليس مسيحياً، ولا يؤمن بوجود الرب. وهكذا، فإنه يتجاوز كثيراً حدود الكفر»[18].

ولم تكن هذه سوى الكلمات الافتتاحية لسافونارولا، فقد وصل حينئذ إلى لباب المسألة، والمقصد الحقيقي لرسالته. وكما صاغ ذلك فيلّاري، فقد: «مضى سافونارولا بعد هذه الكلمات إلى دعوة أمراء العالم المسيحي كافّة،

لعقد مجلس كنسي في أقرب سانحة، وتعيين مكان ملائم لهذه الغاية ويكون خارج نطاق التأثير الخارجي في الآن ذاته»[19].

وأضاف سافوناورلا رسائل شخصيّة وجهها إلى كل حاكم على حدة، ومن تلك ما خاطب بها ماكسميليان؛ الإمبراطور الروماني المقدّس، قائلاً: «لقد بلغ مسامعي أن أحوال سموّه ستكون على شفير الخطر ما لم يقم بمآثره، فينقذ الكنيسة من حالة الخزي التي أُركست فيها». وتغاضى سافونارولا عن نبوءته المتعلقة بموت شارل الثامن، فخاطبه خطاب المتوسّل والمحب، قائلاً:

> «من المؤكد أنك لم تنس ما أناطه بك الرب من دور مُقدّس، مما يعني أنك إذا استنكفت عن اللحاق بهذا المشروع المُقدَّس فإن العقوبة التي ستحلُّ بك ستكون أكبر وأفْدح من تلك التي ستنزل بالآخرين. فتفطّن أن الرب قد أراك الإشارة الأولى لغضبه الشديد(1). أنت يا من تحمل لقب الملك الأشدُّ مسيحيّة(2)، أنت يا من اختارك الرب ووهبك سلاح انتقامه، هل ترغب في التنحي جانباً لتشهد دمار الكنيسة؟ هل تريد الضرب صفحاً عمّا يتهددها من مخاطر؟»

كان «الراهب الضئيل» في هذا الموضع، يلعب دور المخلّص للعالم المسيحي، وبدا الأمر إعلان حرب صريحاً ضد ألكسندر السادس. فليس ثمة حلول وسطيّة، وستكون نهاية ذلك ظفراً تحققه بابويّة ألكسندر السادس، أو نصراً للرجل الذي رغب في إخراج الكنيسة واستنقاذها من

---

(1) إشارة إلى موت ابنه الرضيع.

(2) الملك الأشد مسيحيّة، لقب منحته الكنيسة إلى ملك الفرانكيين الأول؛ كلوفيس، في مطلع القرن الخامس، وغدا، مُذاك الحين، لقباً يتوارثه ملوك فرنسا.

فساد من استبدَّ بها وطغيانه، فهي مناجزة لا تنتهي إلا بموت أحدهما. وغدا، حينها، واضحاً لِمَ تخيَّر سافونارولا سفر الخروج ليجعل منه موضوع عظاته في الصوم الكبير، قبل أنْ يجري إسكاته، فقد أراد أن يتبع خطى النبي موسى «عليه السلام»، الذي قاد بني إسرائيل، وخرج بهم من حكم الطغيان والقهر إلى أرض الميعاد. ومن المتوجب هنا أن نؤكد اختلافاً مهماً بين كلتا الحالتين. إذ لم يكن سافونارولا، كما تبدَّى ذلك في رسائله، ينوي شق صف الكنيسة، بل كان يرغب في إصلاحها من الداخل، وذلك بتنصيب بابا جديد يعمل على القضاء على الفساد، إذ كان نهج سافونارولا في الإصلاح يهدف إلى الحفاظ على الكنيسة موحدة وسالمة.

وكانت فلورنسا المدينة الأوروبيّة الأكثر تقدّماً في الشأن الثقافي، ومهد النهضة. وغدت حينئذ بؤرة تقدم جديد، لكنه في الحقل الديني هذه المرّة، وقد تمثَّل في تصور جديد لكنسية ترتقي إلى نهج يقوم على المساواة، وتؤسس على أفكار المسيحية الأولى. وقد شابهت هذه الأفكار الجمهوريّة، كذلك، أفكار العصر الكلاسيكي الديمقراطيّة، التي مثَّلت محك عصر النهضة. غير أنها كانت، مصحوبة، أيضاً، بنكوص إلى الأصوليّة الطاغية، التي ميَّزت العهد القديم. وليس من الممكن التغاضي عن المفارقة المتأصِّلة في هذه الصيغة: إذ قدَّمت الديمقراطيّة التي سعى سافونارولا نحوها حريّة لم يكن بمقدوره قبولها.

(20)
انقلاب الحال

ما لبث أن وصل روما خبر حول نوايا سافونارولا المتطرفة بإرسال رسالة سيّارة إلى حكام أوروبا، وكان هذا أكبر خطر يمكن أن يهدّد بابوية ألكسندر السادس على الإطلاق. وأدرك الأخير أن من المتوجب إيقافه، في الحال، مهما بلغت التكاليف، فعمد إلى استثمار علاقاته المتعددة، سواء، في فلورنسا أو في أنحاء إيطاليا جميعها. وكان الأُوغسطينيون وغيرهم من الطوائف والأخويات الدينية، فضلاً عن أنصار الأرابياتي، وحتى التايادي المعتدلون «Tiepiod»، معارضين، تماماً، لانعقاد المجلس. إذ ستؤدي هذه الحركة الثوريّة، لا محالة، إلى الإلقاء بالكنيسة في أتون الفوضى، وإدخال القادة والمصالح الوطنيّة في حالة اصطراع. ومن الممكن أيضاً أن ينشأ عن ذلك صدع يشابه الانشقاق البابوي الغربي، الذي جرى رأبه بصعوبة بالغة قبل 80 عاماً فقط.

وكانت جواسيس جماعة الأرابياتي تراقب بوابات المدينة جميعها من الفجر، عند فتحها، حتى إغلاقها عند الغروب. وكانوا يتقّبضون على أي من أتباع الطائفة الدومينيكيّة، الذين من المحتمل أن يكونوا مراسيل يحملون نسخاً من رسالة سافونارولا. لكن سافونارولا كان مستعداً لذلك، واستثمر، بصورة ماكرة، العديد من المتعاطفين معه من الأهالي ذوي

الاتجاه العلماني. وأعطيت تعليمات إلى صديقه الحميم؛ دومينيكو مازينغي، التاجر والغونفالونير السابق، لتحبير رسالة شخصيَّة إلى صديقه جيوفاني غواسكوني؛ سفير فلورنسا إلى البلاط الفرنسي، الذي سيمرر فحواها إلى شارل الثامن. وقد كتب مازينغي رسالتين بهذا الصدد، على أمل وصول إحداهما، على الأقل، إلى وجهتها المقصودة. كما أرسل سيموني ديل نيرو، الذي بقي مخلصاً لسافونارولا على الرغم من إعدام أخيه برناردو، رسالة إلى أخيه نيكولو، الذي كان سفير فلورنسا في إسبانيا، يأمره بالسعي للالتقاء، سراً، بالحكومة المشتركة، المكونة من الملك فرديناند الثاني؛ ملك أراغون، والملكة إيزابيلا؛ ملكة قشتالة. وطُلب، في الآن، ذاته، إلى جيوفاني كومبي؛ بطل الاستقلال الجديد للمدينة، الذي كان يتَّقد حماساً، أن يكتب إلى ماكسيميليان الأول في ألمانيا. وحمل السُعاة كل رسالة من هذه الرسائل التي كانت مختومة ومعنونة كما لو كانت رسائل شخصيَّة أو تجاريَّة، وأُلحقت رسالة سافونارولا بهذه الرسائل الشخصيَّة.

ويبقى مصير هذه الرسائل لغزاً غامضاً بصورة ما، فقد كان ملك إسبانيا خارج البلاد في البرتغال، ولم يتسلَّم رسالته قط. أما الرسائل الموجهة إلى كل من إنجلترا وهنغاريا، فقد تلاشت ولم يُعثر لها على أثر. ولاقت الرسالة الموجهة إلى ألمانيا، فيما يبدو، المصير ذاته. وثبت أن «مازينغي» كان على حق فيما اتخذه من إجراءات احترازيَّة، وذلك حين نعلم أنَّه لم تصل إلا رسالة واحدة من رسالتيه اللتين بعث بهما إلى شارل الثامن، فقد هوجم الساعي الذي يحمل الرسالة الثانية من طرف عصابة من قطاع الطرق، في أثناء عبوره أراضي ميلان، وسلبوه ما يحمل. وإذ أدرك هؤلاء أهمية الرسالة التي غدت في حوزتهم، وقتها، فقد باعوها إلى دوق ميلان، الذي بعث بها

إلى البابا. وامتلك الأخير، إذَّاك، دليلاً مادياً على خيانة سافوناورلا للبابويَّة.

ومن عجيب المفارقات، أن الخطر الرئيس الذي سيدهم سافوناورلا، في ذلك الوقت، سيأتي من مأمنه، أي من داخل المناطق الفلورنسيَّة. وكان لهذا الحدث بداية مبهمة، فقد حرَّض عليه واحدٌ من ألد أعداء سافوناورلا؛ فرانشيسكو دا بوغليا، وهو راهب ينتمي إلى الأخوية الفرانسيسكيَّة المعارضة، ومثَّلت كنيسة سان كروتشه الواقعة شرقي المدينة مقرَّها الرئيس. وتفصيل ذلك أنَّ «دا بوغليا» ألقى عظة، قبل عام أو نحو ذلك، أي أوائل عام 1497، في براتو التي تبعد زهاء عشرة أميال إلى الشمال من فلورنسا. وعبَّر، خلالها، بقوة لسافوناورلا وكل ما يمثله ويدعو إليه، متحدياً أي شخص يؤمن بما جاء به الأخير، وقابلاً ببطلان الحرمان الذي أصدره البابا في حق سافوناورلا، على أن يخضع هو وإياه لاختبار «محنة النار». وكان هذا التقليد القديم المتَّبع منذ العصور الوسطى يقضي بقيام الممتحن بالتخويض في النار، حافي القدمين أحياناً، على مسكبة طويلة من الجمر المحمر، أو أن يمُّر، في أحيان أُخر، خلال نار هائلة. أما الفائز في هذا الاختبار فهو الذي يستطيع إنهاءه دون أن يمسسه ضرر، وهو ما يُعدُّ إشارة ربَّانية على صحة قضيته. وتجمع الأدلة أنَّ الراهب فرانشيسكو كان، يتحدث بصورة مجازيَّة ليشير إلى ما يكنه من مقت شديد لسافوناورلا، ولم يدر في خلده أن يبرز أي من الناس، فيقبل أن يتحداه في هذا الاختبار، الذي دثر وغبرت أيامه.

لكن ما حدث، في ذلك اليوم، أن دومينيكو دا بيسا؛ الصديق الأقرب والأكثر وفاء لسافوناورلا، كان موجوداً في براتو، فقاده حماسه البريء إلى قبول التحدِّي، الذي أشهره الراهب على رؤوس الأشهاد. وما إن تسامع الرهبان الفرنسيسكيون بما حدث، حتى صدرت الأوامر إلى الراهب

فرانشيسكو بالعودة فوراً إلى كنيسة سان كروتشه، وما لبث أنْ طُوِيَ الأمر بهدوء.

مهما يكن من أمر، فقد أكد سافونارولا، خلال عظات الصوم الكبير التي انتدب سافونارولا صديقه دومينيكو كي يلقيها عوضاً عنه، أن الرب تكلَّم من خلاله. وقد لجَّ في الأمر كثيراً، وبلغت مزاعمه حداً دعا معه الحاضرين، قائلاً:

«أناشد كل واحد منكم أن يجأر إلى الرب بالدعاء، بأنه إن لم تكن تعاليمي آتية من عنده، أن يرسل عليَّ ناراً من عنده، فتحرق روحي في جهنَّم»[1].

وعلى الرغم من أن سافونارولا لم يقصد ذلك حرفياً، فإنه عُدَّ استفزازاً مباشراً كما رآه الراهب فرانشيسكو الذي عمد، في عظة ألقاها في 25 من مارس في كنيسة كروتشه، إلى تناول موضوع محنة النار. لكنه أشهر تحديه هذه المرَّة بوجه سافونارولا ذاته، مشيراً إلى ما زعمه سافونارولا أمام جمع المصلين.

ولم يأبه سافونارولا لمثل هذا الاستفزاز وتجاهله، فقد كان عاكفاً، في هذا الوقت على تأليف النصوص لعظات الصوم الكبير، التي سيُكلف آخرين بإلقائها نيابة عنه. وكان منهمكاً، أيضاً، بوضع التدابير المتعلقة بإرسال رسالته السيارة، كي يُصار إلى تسليمها إلى حكام أوروبا وملوكها، فضلاً عن كتابة الرسائل الشخصيَّة لكل واحد من أولئك الحكام على حدة. وينضاف إلى كل ذلك أنه اعتقد، منذ زمن طويل، أن الممارسات القروسطيَّة، على غرار محنة النار، تنتمي إلى خرافات العصور الغابرة. لكنه لم يُنكر غيرها من ممارسات ذلك العصر، ومن ذلك ممارسة جلد الذات، أو الإفراط في

الصوم، وغيرها من الكفارات والمحن الذي ينزلها المرء بنفسه. فقد قبل هذه الأخيرة بما هي أفعال تقرب روح المؤمن من الرب، وبما هي اختبار للحقيقة. وقد آمن سافونارولا، أيضاً، بما أعطيه من نعمة التنبؤ، والرؤى، والمنامات، واعتقاده بأنه كليم الرب. واستشعر أنها جزء من تجربته الحقيقيّة[1]. أما غير ذلك من الممارسات القروسطية، مثل الخضوع للمحنة باستخدام أحد العناصر[2]، والعرافة، وممارسة السحر، والخيمياء، والتنجيم، فقد أنكرها بازدراء. وكان في مكنته حشد حجج دينيّة وفكريّة ضد الاعتقاد بمثل تلك الممارسات، كما تجلّى في مساجلاته مع صديقه بيكو ديلا ميراندولا، التي حجّ فيها خصمه الفذ، وفنّد اعتراضاته. وهكذا، فإن محنة النار تدخل في باب الخرافات، ويغدو أي تحد مثل الذي أعلن عنه الراهب فرانشيسكو غير جدير بالنظر والاعتبار.

غير أن سافونارولا لم يأبه بالحماس الساذج وغير العقلاني، الذي وسم شخصيّة مريده «دومينيكو دا بيسا»، وفوّضه بوصفه أحد الرهبان الدومينيكان المخلصين لإلقاء العظات بالإنابة عنه. وهكذا، لم ير الراهب دومينيكو نفسه الواجهة العامة لسافونارولا فحسب، وإنما أراد أن يراها المستهدف من التحدّي الذي تقدم به الراهب فرانشيسكو. ولم يكن راغباً، كما حدث من قبل، في التملّص مما رأى أنها مسؤولية تقع على عاتقه. وقد سجّل لاندوتشي في الثامن من مارس يقول:

(1) ليست ثمة أي صورة من صور النفاق أو المغالطة المنطقيّة في دعوى سافوناورلا هنا، كما يبدو. فلا ينكر حتى علم النفس الحديث أن مثل تلك الخبرات قد تبدو واقعيّة وحقيقيّة جداً لمن يخبرها.

(2) عرفت أجزاء من أوروبا القروسطيّة، إضافة إلى محنة النار، محنة الماء (التي يمكن أن تنتهي بالغرق)، ومحنة التراب (أي الدفن)، ومحنة الهواء (أي القذف بالمرء الممتحن من برج مرتفع، أو جرف صخري).

«ألقى الراهب دومينيكو في (سان ماركو) عظة قال فيها إنه كان راغباً في الخضوع لاختبار (محنة النار)... ووعظ الراهب فرانشيسكو في كنيسة سان كروتشه مصرّحاً: أنه هو، أيضاً، رغب في الخضوع للاختبار، قائلاً: اعتقد أني ساحترق، لكني أرغب بالقيام بذلك حُباً في تحرير شعب هذه المدينة، فإذا لم يحترق هو فمن الممكن أن تصدّقوا، حينها، أنه نبي»[2].

ويوضح هذا أن الراهب فرانشيسكو لم تساوره الشكوك حيال مآلات هذا الاختبار، إذ كان يُهْدِف نفسه للموت لقاء تخليص فلورنسا من سافونارولا، لكنه حالما سمع بأن سافونارولا لن يكون ندّه في هذا الاختبار، وإنما سينوب عنه دومينيكو، أصرّ على أنّ «خلافه كان مع سافونارولا لا مع سواه، وعلى الرغم من إيقانه أن النيران ستلتهمه، فإنه كان على استعداد تام أن يخوّض في النار، كي يضمن هلاك ذاك الذي بذر التعاليم الزائفة المفتراة، أما الرّاهب دومينيكو فلا شأن له به»[3].

كان من المتعين أن يكون هذا نهاية الأمر، فقد لام سافونارولا الراهب دومينيكو، متوسّلاً أقوى العبارات. وكان الأخير قد استشعر راحة كبيرة بتحرره من التزامه، الذي رأى أنه سينتهي به إلى الموت المحتّم. لكن أطرافاً أُخرى قد اقحمت نفسها، وكانت عازمة على الدفع بالأمر إلى نهايته. وإذا كان لمثل هذا الاختبار أن يقع، فلا بُدّ من الحصول على إذن من مجلس السينيوريا، مما يعني أنه لم يَعُد أمراً متعلّقاً بالسلطات الكنسيّة المعنيّة على الحصر، وإنما أصبح شأناً سياسياً.

وقد دفع رئيس مجلس السينيوريا؛ بوبوليسكي، آنذاك، مجلس السينيوريا، بما مارسه على أعضائه من ترهيب، إلى موقف مؤيد لجماعة الأرابياتي،

لهذا فإنهم أجمعوا على المضي قدماً في موضوع محنة النّار. وغدت هذه الجماعة، التي كانت، على الأرجح، وراء هذا التحدي بداءة، القوّة الدافعة بهذا الاتجاه، فقد مورس ضغط كبير على الرهبان الفرنسيسكان، لإقناع الراهب فرانشيسكو كي يُلحَّ على سافوناررولا بقبول التحدّي. وبُثت الشائعات التي تقول إنه إن رفض التحدّي، فسيتبدّى دجالاً مهرطقاً يخشى أن يضع معتقده في أتون الاختبار الرباني. وقيل إن مصدر هذه الشائعات كان الراهب فرانشيسكو، الذي أكدت له جماعة الأرابياتي، بصورة ماكرة، أنْ ليس لزاماً عليه الولوج إلى النار أبداً، فلن يسمح بحدوث هذا النوع من الممارسات أساساً.

غير أن الأعضاء الأكثر تطرُّفاً من أنصار جماعة الأرابياتي ما كانوا ليقبلوا بمثل ذلك، فحين اجتمع الشبّان المتهورون والمخادعون من جماعة كومباناتشي إلى مائدتهم المعتادة، انتهوا إلى:

> «أن سافوناررولا إذا ولج النار فسيحترق لا محالة، وإذا تخلّف فلن يكون له مقام صدق عند أتباعه. حينها سيكون بمقدورنا إثارة الشغب، ومن الممكن أيضاً أن نقبض عليه في تلك الأثناء»[4].

وليس ثمة من شك أن ثلة منهم كانت تبيّت النيّة لقتل سافوناررولا، واتفق حينها أن حماس الراهب دومينيكو قد غلبه من جديد، فغدا ألعوبة في أيديهم، يفعلُ ما يضرُّه وينفعهم. وقد قام الراهب دومينيكو، في اليوم الذي تلا يوم المأدبة، بتجاهل تعليمات سافوناررولا، فنشر وثيقة، دون موافقة الأخير، بعنوان الخلاصات، وجاء فيها:

> «كنيسة الرب في حاجة إلى إصلاح، ويتوجب أن تبتلى بالعذاب وتُجدَّد، وكذا الشأن مع فلورنسا، إذ يجب أن تبتلى لتعود إلى الرخاء

والازدهار. ويتوجّب على الكفرة أن يؤوبوا إلى دينهم المسيحي. وينبغي لهذه الأمور أن تحدث في زماننا، أما قرار الحرمان الصادر بحق أبينا المبجّل هيرونيمو (جيرولامو سافونارولا) فهو باطل. وهكذا، فإن من يقرّر تجاهل هذا القرار، فلا إثم عليه»[5].

ولم تتجاوز هذه «الخلاصات»، في واقع الأمر، ما كان يكرز به سافونارولا في عظاته منذ بعض الوقت، لكن ذلك مثّل الفرصة التي طالما انتظرتها جماعتا؛ كومباناتشي، والأرابياتي. فقد تبدى ذلك دليلاً مكتوباً على تحدّي سافونارولا للكنيسة، كما مثّل قبولاً للتحدّي الذي أشهره الراهب فرانشيسكو. وأصر مجلس السينيوريا على قيام كاتب العدل لديها بفحص الوثيقة، ثم طلب إلى الراهب دومينيكو المثول في قصر السينيوريا، كما طلب إليه الإقرار بصحة توقيعه. وجرى، إثر ذلك بوقت قصير، إقناع الراهب فرانشيسكو بأن يُقرّ ما عرضه من تحدٍ بتوقيعه، وهو ما فعله بعد تمنع وإحجام كبيرين. وتعقّد الأمر على ما فيه من تعقُّد، حين انبرى أحد معاوني سافونارولا، ويُدْعى الرّاهب ماريانو أوغي، ليقول إنّه على أهبة الاستعداد لمرافقة أخيه في العقيدة؛ الراهب دومينيكو، للتخويض في النار، إذا كان الرهبان الفرانسيس مستعدين للدفع بمرشح إضافي.

وقد تعددت الروايات حول ما كان يجري في قصر السينيوريا، وعمّت أرجاء المدينة، وكانت مشفوعة بالإشاعات المتضاربة. وبدا أنّ الأمور تخرج عن السيطرة، وبدأ جو من الهستيريا يسود شوارع المدينة. فقد اختفت الممارسات البربريّة والخرافيّة القروسطيّة، مثل محنة النار، منذ زمن طويل، ولاسيما من فلورنسا؛ المدينة المتحضرة، التي نهضت منارةً للعلم والثقافة، حتى إن مئة عام أو أكثر قد مضت على حدوث مثل تلك الممارسات في

المدينة. وقد تملّك الرعب عدداً كبيراً من الناس، في حين تلهفت أعداد أخرى من السكان لمشاهدة مثل ذلك الحدث الرهيب، وقلة منهم لم يعنها الأمر. وقد بقي سافونارولا، في تلك الأثناء، متوحّداً في صومعته، داخل دير سان ماركو، يتحنّث ويسأل الرّب الهداية. وبدا أنه انتهى، في هذه المرحلة، إلى خلاصة مؤدّاها أن خصومه قد بزوه، بما امتلكوه من حنكة سياسيّة، وما عاد بمقدوره فعل شيء حيال ذلك.

وانعقد المجلس المصغر، يوم الجمعة الموافق للثلاثين من مارس للبت في الموضوع، فهل يجوز السماح بمثل ذلك الأمر داخل مدينة متحضرة. وقَدْ حضر الاجتماع، على مجرى العادة، زهاء مئتي رجل من المواطنين الذين يحق لهم الحكم، إذْ سيناقش هؤلاء المسألة قبل أن تُعرض، أخيراً، على أعضاء مجلس السينيوريا للتصويت عليها. وسيكون هذا استنساخاً لما جرى مؤخراً من نقاش حول الاستئناف ضد قرار الحكم بإعدام «الخونة الخمسة»، على الرغم من إدراك الحاضرين جميعهم، ما يمكن أن تجلبه النتيجة التي سيخرج بها المجلس المصغر من خطر جسيم على الجمهوريّة، يجاوز في جسامته ما عداه. وما إن بدأ الاجتماع حتى أعلن الغونفالونيير السابق المؤيد لسافونارولا؛ دومينيكو مازينغي، على نحو مفاجئ، أنه يؤيّد إجراء محنة النار، لأنها ستنتهي، حتماً، بمعجزة خارقة تظهر مجد الرّب، فضلاً عما سيجلبه ذلك من سلام على المدينة[6]. أما جيرولامو روتشيلاي، الذي عُرف باعتداله، فقد اتخذ مُقْتَرباً عقلانياً وإن توصّل، في آخر الأمر، إلى النتيجة ذاتها. وذلك حين قال:

«كل ما يثار من صخب حول مسألة محنة النار أدخل في باب السفاسف والترهات، فما ينبغي علينا الانشغال به ومناقشته هو

الكيفيّة التي نتخلّص بها من الرهبان وغيرهم، وممن ينتمي إلى جماعة الأرابياتي ومن لا ينتمي إليها، حتى يشيع السلام بين أهل المدينة. وما يهمني من ذلك كله، أنَّ هذه المسألة إن أعادت إلى مواطنينا الألفة والانسجام، فلندعها تحدث إذن... فحقيق بنا أن ننشغل بمدينتنا، لا أن نأبه لبضعة رهبان يتعرّضون للحرق».

وحاول فيلبو غويني العلماني، إذّاك، تلطيف الوضع الذي أخذ يتأزّم بصورة متعاظمة، قائلاً:

«أرى أنَّ فكرة محنة النار مسألة مستهجنة، وإني أخالفها أشدَّ المخالفة. فلم لا نستخدم محنة الماء عوض ذلك، فهي أقل خطراً. فإذا استطاع الراهب جيرولامو سافونارولا أن يخوّض في الماء فلا يبتل، فإني سأتبعه، حينها، طالباً منه الصفح والعفو».

ومع ذلك، فقد بلغت الانفعالات مبلغاً عاد معه من العسير الالتفات إلى مثل هذه الاقتراحات الطريفة، إذ استبّد الغضب بجيوفاني كاناتشي؛ وهو من ألد أعداء سافونارولا، فهبَّ واقفاً على قدميه لمقاطعة ما يجري، غير أن هذا الغضب هو ما دفعه إلى التقدم بالاقتراح الوحيد الذي نال استحسان الحاضرين، قائلاً:

«حين أسمعكم تذكرون مثل هذه الأمور، فإني أتساءل إن كان الموت خيراً لي من الحياة. وإذا قُدِّر لأسلافنا الذين أنشأوا هذه المدينة سماع ما نختصم فيه، جالبين على أنفسنا من العار ما يجعلنا أضحوكة يتندّر بها العالم، فإنهم سيتبرؤون منا. فلقد هبطت مدينتنا المجيدة إلى أحط وهاد الانحدار لسنين عديدة. ولا يحيط بنا، هاته الأيام، سوى الفوضى والاضطراب».

وعلى الرغم من ذلك، ما كان بمقدور كاناتشي نفسه اجتراح أي سبيل آخر للخروج من المأزق الذي حاق بهم فقال: «أناشدُ سعادتكم [يا أعضاء مجلس السينيوريا] استنقاذ شعبنا من هذا البؤس مهما غلا الثمن. سواء كان ذلك باستخدام النار، أو الهواء، أو الماء، أو ما شئتم من الطرق».

لقد انحدرت مدينة لورينزو العظيم إلى هذه الدرجة من الانحطاط في أعين أهلها كما في أعين إيطاليا كلها. فالمدينة التي كانت مهد حركة النهضة ارتكست في هاوية التقسيم والعار، ودخلت تجارتها في كساد عظيم، أما «متاعها»، فقد أُسلم إلى النار، في حين تَهدَّد شعبَها، الذي كان يعاني أشد المعاناة، من خطر الدخول في الفوضى. أما حُكامهم الضعفة فقد انصرفوا إلى حياكة المؤامرات والتألُّب على بعضهم. ولم يكن أي من الحاضرين، ولا حتى من أولئك الأنصار المتحمسين لسافونارولا من العلمانيين، يعتقد أن اختبار محنة النار سينتهي بمعجزة، فلا بُدَّ لمن يشارك فيه أن يحترق. غير أن قرار مجلس السينيوريا الذي أيَّدته غالبية المجلس المصغر، تمثَّل في المضي قدماً، وإجازة هذا الاختبار الذي يشارك فيه اثنان من الفرانسيس مقابل اثنين من الدومينيك. كما قرر المجلس المصغر، رسمياً، ما يتوجب اتخاذه من إجراءات لدى إعلان نتيجة اختبار محنة النار. فإذا احترق أحد رهبان الدومينيك حتى الموت، سيصار حينها إلى نفي سافونارولا، أما إذا احترق أحد الرهبان الفرنسيس حتى الموت، فسيصار حينها إلى نفي الراهب فرانشيسكو (تطوَّع أحد أتباع طائفة الفرنسيس، بحلول هذا الوقت، وعرض أن يحل محلَّه في المحنة، لأن فرانشيسكو أصبح فزعاً إلى حد العجز عن فعل ذلك). وعلاوة على ما سبق، فقد قرر المجلس المصغَّر أنه إذا رفض أحد الطرفين الخضوع للمحنة، فيصار، حينها، إلى نفي قائد الطرف الرافض في الحال. أما إذا قضى

كلا الطرفين المشاركين في المحنة، فسيعلن، حينها، عن أن الدومينيك هم الخاسرون (وسينفى، إذاك، سافونارولا)، وكان منطق المجلس المصغر شفافاً بقدر ما كان جائراً، فلقد عزموا على التخلص من سافونارولا.

لكن ذلك لا يمكن أن يكون الحكم النهائي، فعلى الرغم من أنَّ اختبار محنة النار كان يقع ضمن سلطات مجلس السينيوريا في فلورنسا، فإن أولئك المشاركين فيه كانوا من أعضاء الكنيسة، مما تطلَّب إذناً من ألكسندر السادس. ولقد أرسل مجلس السينيوريا خطاباً رسمياً إلى سفير فلورنسا في روما. ولكن حين مُنح بونسي الإذن بالمثول بين يدي ألكسندر السادس، فإن قداسته أعلمه أنْ ليس في مكنته منح موافقته الرسميَّة لمثل هذه الممارسة، وما لبث أن اتَّضح كذلك أن البابا لم يكن بصدد إصدار رسالة بابويَّة يدين بها محنة النار. مهما يكن من أمر، فقد وصلت رسالة سريَّة إلى مجلس السينيوريا، ربما بعث بها ماريان دا جيناتسانو من روما إلى الأُوغسطينيين في فلورنسا، وكان فحواها يقول إن ألكسندر السادس كان، في واقع الأمر، مؤيِّداً لإقامة محنة النار، مما سيعني نهاية سافونارولا، فما إن يُنفى الأخير حتى يسعى ألكسندر السادس إلى القبض عليه وجلبه إلى روما.

ومن المفارقات العجيبة، أن سافونارولا تصرَّف إزاء احتمال إقامة محنة النار بقدر من الغموض والالتباس، مشابهاً في ذلك موقف البابا بصورة مدهشة. فقد مَقَت، في بادئ الأمر، فكرة محنة بالنار مقتاً شديداً، لكنَّه حين كان صائماً يتحنَّث في صومعته وحيداً، نما في داخله اعتقاد خفي أن معجزة قد تتأتى، عن هذا الحدث، من شأنها أنْ تُعلي من منزلته في أعين الناس، وتسوِّغ فعاله. وسيكون ذلك مماثلاً لتحقق نبوءاته، مثلما حدث عندما نزل شارل الثامن بإيطاليا بوصفه «سوط الرب». وتؤكِّد جملة من

المصادر المعاصرة، آنئذ، هذا التغير في قلب سافوناروولا، مشيرة إلى سلسلة من الأحداث التي أدّت إلى حدوثه.

وكان أحد أقرب أتباع سافوناروولا إليه من بين رهبان سان ماركو الراهب «سيلفسترو ماروفي»، وهو رجل صاحب روحانيات عميقة، وكان معتل الصحّة معظم الوقت، يعاني وسواس المرض والأرق، مما جعله عرضة لأن يرى رؤى شبيهة بتلك التي رآها رئيسه. وقد أكنّ سافوناروولا إجلالاً واحتراماً عميقين لسيلفسترو، إلى درجة أنه أصبح يبدي إيماناً برؤى الرهبان يماثلُ إيمانه برؤاه. وقد وصف الراهب سيلفسترو لسافوناروولا، في هذه المرّة، رؤيا رأى فيما الملاكين الحارسين لكل من دومينيكو وسافوناروولا ذاته، وقد وعداه أن النار ستكون برداً وسلاماً على الراهب دومينيكو. واجتمع إلى ذلك إيمان الأخير، وحماسه الذي لا يلين للمشاركة في المحنة، ليقنع سافوناروولا، في آخر الأمر، بأن من المتعين عليه منح بركاته له، ثم أرسل برسالة إلى مجلس السينيوريا يؤكّد لهم قيامه بذلك، مضيفاً أنَّ من اللازم أن تجري بعد أسبوع، أي يوم الجمعة، السادس من إبريل. وقد أيّدت العديد من المصادر المعاصرة، آنئذ، هذا الأمر، فضلاً عن الأحداث اللاحقة التي صدقته.

ولا تختلف الروايات إلا في التفاصيل. ويجمل غيتشارديني ذلك بقوله:

«وإذْ حُدِّد اليوم الموعود، أذن مجلس السينيوريا للراهب (جيرولامو) بالوعظ. وقد بيَّن، في عظاته، التي ألقاها في سان ماركو، ما تنطوي عليه المعجزات من أهميّة كبيرة. وقال إنها يجب ألا تُستخدم إلا عند الضرورة حين لا يكون للخبرة أو المنطق أي جدوى أو نفع. لأن الايمان المسيحي أُثبت عبر طرائق لا تحصى. كما أنَّ حقيقة ما تنبأ به من الأمور قد بانت بدرجة كبيرة من النجاعة والمنطق، كان من

اليسير معهما على أي شخص غير سادر في حياة الشرور والآثام أن يفهمها. وأضاف أنه لم يلجأ كثيراً إلى قدرته على اجتراح المعجزات، كي لا يختبر الرّب، أما وقد انبرى الآن من يتحداهم، فإنهم يقبلون التحدّي عن طيب خاطر، وبوسع الناس جميعهم أن يكونوا على يقين أن رهبانهم سيخرجون سالمين، دون أن يمسّهم سوء، في حين سيحترق الآخرون. وإذا حدث خلاف ذلك، فإنهم لن يتخلّفوا عن القول، بجرأة ظاهرة، أنّ كل ما بشّر به رئيسهم لم يكن إلا حديثاً يفترى. ومضى سافونارولا قدماً ليقول: إنّه لا يقصد رهبانه على الحصر، وإنما أي أمرئ يلجُ النار دفاعاً عن تلك الحقيقة، فإنه سيخرج سالماً من غير سوء، ثم بادرهم بالسؤال إن كانوا، هم أيضاً، مستعدين للتخويض في النار، إن اقتضت الحال، في سبيل عمل جليل قدّره الرب. فأجابوا عن آخرهم هاتفين: أنهم مستعدون. ولشدّ ما كان هذا مدهشاً، فمما لا ريب فيه أنه لو عمد الراهب جيرولامو إلى الطلب منهم أن يقوموا بذلك، فلن يتخلّف معظمهم عن النزول عند طلبه، لا يلوون على شيء»[7].

وقد ألقيت العظة أمام حشد كبير من الرهبان والراهبات، فضلاً عن جماعة البيانوني، وكثرة من النساء والأطفال. ومن المؤكد أن عظة سافونارولا قد استثارت هيستيريا جماعيّة تجاوزت كثيراً رجال الدين، وكان قد تقرّر أن تجري محنة النار في ميدان مجلس السينيوريا، مما يتيح لأكبر عدد من السكان مشاهدةَ المعجزة، أو رؤية الضحايا وهم يحترقون. وأقيم في وسط الميدان ممشى من الطوب، وكِسَر الحجارة، وكُسي بالطِّين. وكان ارتفاعه سبع أقدام، وبلغ طوله تسعين قدماً، أما عرضه فبلغ ستة عشر

قدماً[1]. وجُعل على جانبي الممشى صفّان من جذوع الأشجار، وغطيت بالأغصان والفروع الصغيرة «وأُشبع الخشب بالزيت والكحول والصمغ، لجعل عملية الاحتراق أقوى وأفعل»[8]. وكان من اللازم إشعال هذين الصفين المعدّين للاحتراق على طولهما بالكامل حتى يتوهجا ويضطرما مثل الجحيم، فيكونان ملائمين لاختبار محنة النار. وكان على كلا المشاركين البدء بجواز هذا الممر، الذي بلغ طوله 90 قدماً، بصورة متزامنة، وكل منهما يواجه الآخر، مخوّضين عبر الجحيم، إلى أن يخرجوا من الناحية الأخرى سالمين أو محترقين.

كانت أخبار الحدث القادم، في ذلك الحين، قد عمّت مدن إيطاليا الرئيسة، بل تعّدتها إلى ما وراء جبال الألب. إذ لم يكن ثمة بلاط ملكي، أو دير، أو طبقة تجاريّة لم تكن لها شبكات إخباريّة خاصّة، إما عن طريق السُّفراء، أو الرهبان الرّحالة، أو الطرق التجاريّة، أو السّعاة وما إلى ذلك. هذا ما كانت عليه الحال من اهتمام بالغ بسافونارولا وأنشطته السّابقة، ولاسيما عظاته ونبوءاته، حتى إن أخبار هذه التطورات الأخيرة ما لبثت أن تسربت إلى العامّة بكل أطيافهم، فقد كانت محنة النار موضوع تكهن وتخمينات في الحانات والأسواق، كما في القصور والأديرة. هل كان سافونارولا قادراً، فعلياً، على اجتراح معجزة؟ لن يكون ثمة شك، هذه المرّة، بوجود خداع أو تضليل جماعي، أو حتى مصادفة تنبؤيّة، إذ سيحدث اختبار «محنة النار» أمام نظر الجميع.

(1) يمكن العثور على التفاصيل المتعلقة بهذا البناء في يوميّات لاندوتشي ص 135، حيث يعطي النسب والمقاييس المستخدمة في ذلك الوقت، مثل براتسا braccia، وتعني الذراع وكان هذا المقياس يقلّ، فعلياً، عن القدمين بقليل. وهكذا يحدد لاندوتشي ارتفاع الممشى بأربع براتسات، أما طوله فخمسون.

من الصعب أن نجزم فنقول إن هذا الحدث سيمثّل منعطفاً في تطور الوعي البشري. ولكن ليس ثمة من شك أن نتيجة هذا الحدث المثير، الذي سيطر على المخيلة الجماعيّة، يمكن أن تكون عاملاً مساعداً في عملية التحوُّل المطوَّلة، التي جرت في هذا الدور من التاريخ الأوروبي الذي نشيرُ إليه، الآن، بوصفه عصر النهضة. إذ، لا شك، أن الإثبات المادي أو الدحض العملي للاعتقاد بالمعجزات سيؤدي، في هذا الوقت تحديداً، إلى نشر موجات متلاحقة وغير منتهية من التدبُّر والتفكُّر لدى أصحاب البحث والاستقصاء. وها هي الحقيقة، في بواكير الفجر الأولى للتفكير العلمي الجديد، تختبر عبر تجربة، يمكن التحقق منها (كان اختبار محنة النار يُدْعى بالإيطالية تجربة النار L'esperimento del fuoco. وسيبدأ غاليلو ومعاصروه، وهم الرُّواد الحقيقيون للطريقة التجريبيَّة العلميَّة، باستخدام كلمة esperimento لوصف الاختبارات أو الامتحانات ordeals، التي كانوا يخضعون لها أفكارهم العلميَّة).

كتب سافونارولا، خلال تلك الأيام السابقة لموعد محنة النار، وثيقة موجزة ونشرها. وكانت بعنوان Riposta (الإجابة)، وقد سعى فيها إلى تسويغ نفسه وموقفه إزاء الحدث القادم، وكان أن اختتمها بقوله:

«إنَّ أولئك الذين يعرفون أنَّ الرّب مُلْهِمهم حقاً سيمرون بين ألسنة اللهب، حتماً، دون أن يمسسهم سوء. هذا إن جرى اختبار (محنة النار)، فليس هذا بالأمر المؤكد تماماً. أما أنا، فإني أضِنُّ بنفسي لقضية أكبر، ساكون متأهباً، دائماً، لبذل نفسي في سبيلها. وليس ذلك العهد ببعيد، فحينها سيعلن الرب عن نفسه بآيات معجزة وخارقة لمألوف الأشياء، ولن تأتي هذه بفعل تضرّع الناس ورغباتهم.

ولنكتفِ بأن ننشغل، الآن، بإرسالنا بعض إخوتنا إلى محنة النار، وأننا سنكون عرضة، بالقدر ذاته، لنقمة الجماهير إذا لم يأذن الرب، فيجعل النار برداً وسلاماً عليهم»[9].

وقد أمر سافونارولا، خلال الأيام القليلة المتبقية على «محنة النار»، بإغلاق بوابات دير سان ماركو، وعدم السماح لأي كان بالدخول أو الخروج. وبدأت جماعة الرهبان، بعد أن اعتزلت العالم الخارجي، تقوم الليل لاهجة بالدعاء لأخويها اللذين سيخضعان لامتحان محنة النار.

ثم ما لبث مجلس السينيوريا أن عمد، في يوم الخميس الموافق للخامس من إبريل، أي في الليلة السابقة على الاختبار، إلى تأجيله يوماً واحداً. ومن الجلي أن مجلس السينيوريا امتلك سبباً للاعتقاد أنَّ ثمة رسالة قادمة من ألكسندر السادس تحرّم محنة النار. لكن لم تمض أربع وعشرون ساعة حتى تكونت لدى المجلس قناعة، فيما يبدو، بعدم وجود مثل تلك الرسالة. فأعلنت أن الاختبار سيمضي قدماً في اليوم التالي، أي يوم الأحد الموافق للسابع من إبريل. وأصدر أعضاؤه، في الوقت عينه، مرسوماً غير متوقع، عدّلوا فيه المرسوم السابق، محدّدين فيه، على نحو دقيق، أنَّ الراهب دومينيكو إن احترق، فعلى الراهب جيرولامو [سافونارولا] مغادرة فلورنسا في غضون ثلاث ساعات[10].

ومن المهم أن نلحظ هنا التواقت القائم بين اليقين الذي تشكل لدى مجلس السينيوريا، أنْ لن تكون ثمة أي رسالة بابويّة قادمة، وبين إصدارها المرسوم الجديد الذي يحظر على سافونارولا البقاء في فلورنسا (يستغرق الوصول إلى الحدود، في ذلك الزمان وتلك الظروف، أكثر من ثلاث ساعات). إذ يشيرُ هذا التواقت إلى أن مجلس السينيوريا لا بُدَّ وأنه قد تلقّى تعليمات

سريّة، ربما عبر جيناتسو والأوغسطينيين، من ألكسندر السادس. كما أن التفاصيل الدقيقة المتعلقّة بالنفي العاجل لسافوناورولا توحي بأن من أعدّها تخيل، فور انقضاء ثلاث ساعات على ظهور نتيجة محنة النار، سافوناورولا الحاضر وسط الحشود المتراصّة في ميدان قصر السينيوريا، وقد فرّ من وسط الجموع الغفيرة الغاضبة (وينطوي هذا على بعض الخطر على حياته) شاقاً طريقه إلى حصان سريع احتفظ به لهذه الغاية. ولم يكن سافوناورولا يمقت مثل هذه الوسيلة الفارهة في الترحُّل والتنقل فحسب، وإنما من غير المعقول، بالنسبة إليه، أن يقوم بترتيبات مسبقة لما كان سيراه فراراً جباناً في حال معاناة صديقه الوفي من غمرات الموت. ومع ذلك، فإن جرت الأمور وفق هذه الصيغة، فمن المؤكد القبض عليه خلال تلك الساعات الثلاث، التي لن يعود، فيها تحت حماية فلورنسا، حتى وإن كان مايزال يمشي في مرابعها. وكان من المتوقع أيضاً أن تُقطع الطريق عليه، وأن يعتقل باسم البابا، حالما يجتاز بوابات المدينة، على يد أي عصابة مسلّحة من جماعة الأرابياتي، أو جماعة الكومباناتشي، الكامنة هناك تتربّص به، امتثالاً للمهمة التي كُلّفت بها. وما هي غير بضعة أيام، حينئذ، حتى يُسلَّم إلى ألكسندر السادس في روما. وسيكون على «الراهب الضئيل»، عندها، وهو الذي تجاسر فأرسل إلى حكام أوروبا رسائل يستحثهم بها على عقد مجلس كنسي بهدف عزل البابا، ألا ينتظر الرحمة من شخص مثل ألكسندر السادس.

(21)
محنة النار

بدأ الناس، مع طلائع فجر السابع من إبريل، بالتوافد على ميدان قصر السينيوريا، وغُلِّقت المداخل ما خلا ثلاثة، وخضعت هذه الأخيرة لحراسة مشدَّدة، ولم يسمح للنُّظارة بحمل السِّلاح. كما أصدر مجلس السينيوريا أوامر بمنع النسوة والأطفال من دخول الميدان، فربما أثارت تعبيراتهم العاطفية الجمهور إلى درجة يكون معها من الصعب السيطرة عليه. وما إن بلغت الساعة العاشرة صباحاً حتى غصَّ الميدان بالنظارة. ومثل شطر كبير من هؤلاء أفراداً لجماعة بيانوني وأنصارهم. لكن من الواضح، بالقدر ذاته، أن أجزاء كبيرة من الجموع الغفيرة كانت من المناوئين لسافونارولا. وإذ استشعر مجلس السينيوريا هذا الوضع المُتوتِّر، فقد جنَّد ألف رجل لاتخاذ مواقع إستراتيجيَّة في أرجاء الميدان كافَّة، بهدف الحفاظ على النظام، والمبادرة لإخماد ما قد ينشأ من شغب. وتكوَّن هؤلاء الرجال من طرفي السكان المنقسمين، الذين لم يحاول أي منهما إخفاء تعاطفه وميوله. وقام دوفو سبيني؛ قائد جماعة الكومباناتشي، بقيادة مئات من أنصاره المدججين بالسلاح في مشهد استعراضي متعجرف. وإذ حذَّر الرهبان الدومينكان من أن جماعة الكومباناتشي قد تعمد إلى القبض على سافونارولا، قام ماروكشيو سالفياتي؛ المتعاطف مع جماعة بيانوني،

بتكوين فرقة من 300 رجل مسلح، قيل إن واجباً حراسياً في الميدان أُنيط بهم في ذلك اليوم. وكانت القوات الموجودة جميعها تحت إمرة جيوفاني ديلا فيكيا؛ الضابط المسؤول عن الميدان، والمُعيَّن من جانب مجلس السينيوريا، وكان ثمة 500 مسلح تابعون له شخصياً. وصدرت الأوامر لمعظم رجال هذه الكتيبة بحراسة قصر مجلس السينيوريا، الذي يحوي الغونفالونير بوبوليسكي وأعضاء المجلس، وذلك في حال حدوث أي محاولة لمهاجمة المبنى من جانب جماعة البيانوني، الذين غدوا متيقنين، حينها، من توجهات السينيوريا المناوئة لسافونارولا.

وما إن حلَّت ساعات الظهيرة حتى أُغلقت المداخل الثلاثة الرئيسة، لمنع دخول مزيد من الجماهير، فيزداد المكان ازدحاماً على ازدحامه. وعلى الرغم من المظهر الزاهي للروح العسكريَّة والجماعيَّة التي تملأ سماء إبريل، فإن المناخ العام كان أبعد ما يكون عن الاحتفالية، وذلك مع تصاعد التوتر بمضي الوقت. وقد أُمرت الأطراف المتنافسة أن تثبت وجودها في الميدان عند الساعة الواحدة ظهراً. ووصلت، في الوقت المُحدد، مجموعة من الفرنسيسكان قوامها 200 شخص. واصطَّف هؤلاء، الذين ارتدوا ثيابهم البنية البسيطة المعقودة حولها حبال بيضاء ذات أناشيط، في مكان أُخلي من الناس، وهم مطرقون. ولم يبدوا أي تعبير ظاهر، أو استعراض عاطفي، حين اتخذوا مواقعهم المخصَّصة لهم في مبنى لوجيا دي سينيوريا المفتوح، والمحاذي لقصر السينيوريا؛ ذلك المبنى الذي قسِّم إلى جزأين بحاجز خشبي للفصل بين الطرفين المتعارضين. فجعل الفرانسيسكان إلى الجانب الشرقي الأقرب إلى القصر، وأنيطت حمايته بمجموعة من الكومباناتشي المتدرِّعين، في حين فوّض سالفياتي فرقة من قواته الموالية لسافونارولا بحماية الجانب

الغربي. أما قبالة مبنى اللوجيا حيث تنداح أمامه الساحة الممتدة من حافة الرصيف المرتفع أمام قصر السينيوريا باتجاه الجانب الغربي، فكان يُرى ممر المشاة الترابي الطويل والمرتفع المُعدُّ لمحنة النار، وقد جعلت على جانبيه أكوامٌ من الحطب والأغصان المُغْرَقة بالمواد المشتعلة.

وأقام سافونارولا، وقت الظُّهيرة تقريباً، قداساً صارخاً كامل المراسيم، قبل أن يلقي عظة قصيرة أمام جمع من الأنصار والرهبان التابعين. ومما يثير الفضول أنه انبرى، حتى في هذه المرحلة المتأخرة، ليخبرهم قائلاً: «لست مستوثقاً من أن اختبار محنة النار سيقام بالفعل، لأن ذلك لا يعتمد علينا»، لكنه مضى ليقول: «إذا اتفق وحدث، فإنا نحن الظافرون»[1].

ثم انطلق إثر ذلك يصحبه الوفد الدومينيكاني المرافق من سان ماركو، ليبلغوا ميدان السينيوريا بعد نصف ساعة من وصول الفرانسيسكان. وكتب لاندوتشي الذي كان يراقب دخولهم:

«... ثم أعقب ذلك دخول الرهبان الدومينيكان، الذين ولجوا الساحة باستعراض لا يماثله استعراض، إخلاصاً وولاءً. كان ثمة عدد كبير من (الإخوة الرهبان)، بَلَغ نحواً من 250 راهباً، يمشون اثنين اثنين، ومن ورائهم الراهب دومينيكو حاملاً الصليب، يعقبه الراهب جيرولامو رافعاً خبز القربان، ويحتذي خطواتهم جمع كبير يحملون المشاعل والشموع، رافعين عقائرهم بالترانيم وهم خاشعون. وإذ استقرّ الجميع في أماكنهم في ساحة لوجيا ذات العماد، المقنطرة، ونُصب مذبحٌ هناك، بدأوا بتجويد ترانيم قدّاسيّة، في حين كانت الجموع تنتظر المشهد العظيم»[2].

وكان من شأن هذه الجموع المتشوّقة أن تصاب بخيبة أمل لو أنَّ اختبار

«محنة النّار» بدأ على الفور. وما أسرع ما بدا واضحاً أن الفرنسيسكان كانوا مصمّمين على إثارة بعض الاعتراضات الإجرائيّة. إذ ذكر أحد شهود العيان، واسمه بارنتي، أن الراهب دومينيكو آلى على نفسه أن يلبس رداءً طويلاً جداً «من المخمل ذي الحمرة الناريّة»[3]. وكان واضحاً لدى كثرة من الحاضرين أنه يستعرضُ، إلى أقصى مدى، دوره الرّئيس في هذه المناسبة، التي قد تتمخض عنها معجزة، على الرغم من أنّ الرمزيّة السّاخرة لثوبه ذي اللون النّاري كانت فاتته على ما يبدو. وكما لاحظ مارتيني: «بدا دومينيكو وكأنّه كان منهمكاً في تمثيليّة إيمائيّة متناقضة وغريبة للشهادة التي اعتقد أنها لن تتحقّق»[4]. ودار واحدٌ من الاعتراضات الرئيسة للفرنسيسكان حول تلك الأردية التي لبسها الراهب دومينيكو (فقد خشي الفرنسيسكان أن تكون مسحورة[5]، كي تحميه من ألسنة اللهب). وعندما نزعت عنه العباءة الحمراء. احتجّ الفرنسيسكان، من جديد، على الملابس الدومينيكية التي كان يرتديها تحت العباءة بزعم أنها قد تكون «مسحورة» هي الأُخرى. فأُخذ الراهب، إذّاك، إلى قصر السينيوريا حيث نضيت عنه ملابسه، وبقي عارياً. وقد برزت مقولةٌ جرى تداولها، لاحقاً، بين أفراد جماعة البيانوني، أن الفرنسيسكان أصرّوا، أيضاً، على تفحُّص أعضائه التناسليّة بحثاً عن أي علامة شؤميّة خارقة للطبيعة.

وأُكره الراهب دومينيكو على ارتداء أردية راهب دومينيكي آخر قبل عودته إلى ساحة اللوجيا. ولم ينته الأمر عند ذلك، فعندما أصرّ الفرنسيسكان على أن سافونارولا قد يحاول، هو أو أحد من أتباعه، أن يحيط دومينيكو بتعويذة سحريّة قبل بدء الاختبار، فإن الأخير أُكره على أن يقف منتظراً وسط الفرانسيسكان حيث كان قابضاً، بقوّة، على الصليب الذي آمن بصدق أنه

سيحميه من النار. كما أصرّ الفرنسيسكان على ألا يسمح للراهب دومينيكو أن يلج النار وهو يحمل صليبه، خشية أن يكون هذا الصليب «مسحوراً» أيضاً. وأبدى سافوناورولا، الذي تحدَّث بالإنابة عن الراهب دومينيكو، استعداده للتسليم بهذا الأمر، مقترحاً، بالمقابل، أن يدخل النار حاملاً قطعة من القربان المقدَّس[1]، الذي حمله الأول بنفسه إلى الميدان، لكن الاعتراض ظلَّ قائماً. فاستدعي الدومنيكان والفرنسيسكان إلى قصر السينيوريا لمناقشة لاهوتية الأمر، في حين انتظر كل من دومينيكو وسافوناورولا في الخارج. وألحَّ الفرنسيسكان على عدم السماح بإدخال القربان إلى النار، فقد كان «شراً مستطيراً» و«مخالفاً لمذهب الكنيسة»[6]. أما الدومنيكان فقد أصرّوا أن المظهر الخارجي، أو جسد المسيح (الخبز)، إن كان لقمة سائغة للنيران، فإن جوهره (جسد المسيح ذاته) لن يتأثَّر بتاتاً.

وبدأ مزاج الجمهور الغفير بالتحوّل، فقد أتوا ليشهدوا حدثاً جللاً وعَرْضاً مثيراً، إذ اعتقد بعضهم أنه سيشهد معجزة، لا أقلَّ من ذلك، في حين استثار آخرين المشهد العتيد والرهيب لأناس يحترقون حتى الموت. وإذا كان هؤلاء وأولئك يتحرَّقون شوقاً لمثل هذه العجيبة، فإنهم كانوا مستعدين لأن يتصبَّروا وقتاً طويلاً بصورة ما. غير أنّ صبرهم بدأ ينفد، حينها، بعد أن طالت السجالات كثيراً وراء أبواب القصر الموصدة. واستبدَّ القلق بسافوناورولا إزاء هذه التطورات، فأرسل رسالة عاجلة إلى القصر، يُلحُّ فيها على ضرورة إنهاء الطرفين لخلافاتهما، وتسويتها بأسرع وقت حتى

(1) كان القداس الإلهي، خلال هذه الفترة، يتضمَّن في العادة تناول قطعة من رغيف خبز خالٍ من الخميرة يعرف باسم القربان، وتضاف إليه رشفة من الخمر، بعد أن يباركهما القسيس؛ وهو طقس يحيلهما إلى جسد المسيح ودمه. ولم يكن مجرد فعل رمزي، بل عُدَّ القربان جسد المسيح الفعلي.

يُصار إلى المضي قدماً في محنة النار. وجاء الردُّ من القصر واضحاً، ومؤداه أن ذاك إن كان موقفه، فإن للراهبين الدومنيكيين مطلق الحريّة في أن يدخلا محنة النار وحيدين، وكان من الطبيعي أن يرفض سافونارولا هذا الطلب.

وأوجز فيلاري، العديد من تقارير شهود العيان لما حدث بعد ذلك قائلاً:

بدأ صبر الجموع بالنفاد، فقد مضى على اجتماعهم في الميدان عدة ساعات، دون أن يتبلّغوا بشيء من الطعام أو الماء منذ ساعات الفجر الأُولى. وصاروا متبرّمين بملوّهم الملل من الانتظار وعبثيته اللذين لا طائل منهما. وبدأت الهجمات المتذمرة تنطلق من أوساط الجمهور بألوانه وأماكن وجوده كافة، تتخللها من حين إلى آخر صيحة تحريضيّة. فقد انتظرت جماعة الأرابياتي هذه الفرصة وتلقفتها بلهفة، وسعت لاستثمارها. إذ جرى تشجيع أحد المأجورين من جانب جيوفاني مانيتي على إثارة بعض القلاقل، فدخل الميدان، فجأة، في حالة اضطراب شديد، وكانت جُلّ مخارج الميدان مغلقة. وهكذا، ألفى الناس أنفسهم محاصرين، وقد أُطبق عليهم من كل جانب. وكانت هذه هي اللحظة، فيما يبدو، التي خططت فيها جماعة الأرابياتي للقبض على سافونارولا والقضاء عليه بأيديهم العزلاء. وقد سعوا، في واقع الأمر، لفعل ذلك تماماً، غير أن سالفياتي أوعز إلى رجاله بالاصطفاف أمام مبنى اللوجيا المفتوح، ثم رسم على الأرض خطاً بسيفه صائحاً: «كل من تسوّل له نفسه اجتياز هذا الخط، سيجد نفسه وقد جُعل نصفين بسيف ماركوتشيو سالفياتي». وقد فاه بهذه الكلمات بطريقة حازمة لم يجرؤ معها أي امرئ على التقدم قيد خطوة إلى الأمام[7].

وتقدم، في تلك الأثناء، الجنود الذين كلفهم مجلس السينيوريا بحراسة القصر، وذلك لدى رؤيتهم الحشود تتقدم أفواجاً إثر أفواج داخل الممر، وبدؤوا، عندئذ، بدفعهم إلى الخلف، «فيما كان المجلس في وضع تائه إزاء ما يصنعه»، ومن حسن الطالع، فقد تحوّل الوضع تماماً مع هبوب فجائي لعاصفة شديدة، رافقها رعد وبرق ووابل من المطر. وكان من الممكن لهذا المطر الصّيب أن يضع حداً للإجراءات جميعها. لكن الجمهور غدا مصمماً، فلم يتزحزح من مكانه، وبقي واقفاً، هناك، غير آبه بغزارة المطر. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن في مقدور بعضهم إلا أن يرى في ذلك علامة على سخط الرّب لإقامة محنة النار. بيد أن العاصفة ذهبت فجأة كما بدأت، وما لبث أن ظهر حملة الصولجان؛ الناطقون باسم السينيوريا، من داخل القصر، ليعلنوا إلغاء اختبار محنة النار، وتلقّى الجمهور هذا الإعلان بشعور من الذعر.

وكان أن حلّ الظلام في ذلك الوقت، وبذلت جماعة الأرابياتي وسعها لاستغلال الوضع من جديد. وسرت الإشاعات التي تقول إنّ محنة النار ألغيت لأن سافونارولا لم يسمح للراهب دومينيكو بالمشاركة فيها، وتضمن ذلك بعض الحقيقة، ذلك أنّ سافونارولا رفض، فيما سبق، أن يقوم الراهبان الدومينيكيان بخوض محنة النار وحيدين، وكان الجمهور شاهداً على هذا الرّفض. فقد كان مَنْ وجد منهم في المقدمة قادراً على سماع ما يدور وفهمه، وما لبث هؤلاء أن بثّوا ما تناهى إليهم من معلومات إلى من هم خلفهم، حتى إن جماعة البيانوني ذاتها باتت على قناعة أن من المتوجّب على سافونارولا قبول التحدي بنفسه، إذ كانت الفرصة مهيّأة ليكشف عن قواه الإعجازيّة على مرأى من كل مَن آمن به، لكنه لم يعدُ كونه، دجّالاً

كما تبيَّن في آخر الأمر. وبدأ مزاج الحشود بالتغيُّر، وما أسرع ما غادر الفرنسيسكان الميدان، ولحق بهم، بعد بعض الوقت، الرهبان الدومينيكان، شاقين طريقهم، بعسر شديد تحت جُنح الظلام، من بين الحشود الغاضبة. وقد غذوا الخطى، سراعاً، إلى دير سان ماركو.

وإذا تدَّبرنا الأمر في الوقت الحاضر، فمن الممكن أن نخلص إلى أن سافونارولا غُرِّر به، وجُرَّ إلى هذا الاختبار جراً. وفي واقع الأمر، توحي كلماته بما خالطه من ظنون وارتياب إزاء الأمر برمته خلال الأيام القليلة السابقة على الحدث.

فقد تمثل هدف السينيوريا، بالتحالف مع جماعتي الأرابياتي والكومباناتشي، في إثارة الجمهور ضدَّ سافونارولا، ومن المؤكد أنهم نجحوا في ذلك. إذ نُظِر إلى الأخير، حينها، على أنَّه المتسبِّب في حرمان سكان فلورنسا من المشهد العظيم، الذي كانوا يتشوَّقون لرؤيته. فقد كان دجّالاً ومخادعاً، وعاجزاً عن اجتراح المعجزات، حتى إنه لم يكن ينوي وضع رهبانه موضع الاختبار، وقد بدأ من تبقى من الحشود بالتعبير عن غضبهم قبل أن تُفَرقهم القوات المُسلحة، وتُرْسلهم إلى بيوتهم في حلكة الظلام.

وتبدت هذه حادثة دالَّة ومهمةً من غير جانب، فضلاً عن كونها لحظة محوريَّة. فقد كانت المدينة منقسمة على نفسها قبل موعد محنة النَّار. ولكن بعد ما حاق بسافونارولا من فشل ذريع، تحوَّل الأمر، فانقلبت عليه أعداد كبيرة من جماعة البيانوني، وهي من أنصاره، إن لم تكن الجماعة كلها. وغدت اليد العليا، من الآن فصاعداً، لجماعة الأرابياتي، التي كانت مصممة على استثمار هذا الوضع ما وسعها ذلك.

(22)
حصار سان ماركو

صادف اليوم التالي، الموافق للثامن من إبريل عام 1498، حلول أحد الشعانين. وكانت الشوارع، في البداية، هادئة على نحو ينذر بالشؤم. وما أسرع ما تبين أن جو المدينة العام قد تغيّر تماماً بعد خروج الناس من بيوتهم عصراً. وبدأ الأمر بحوادث صغيرة، فبينما كان أفراد الطبقات العليا يجوبون الشوارع عبر السوق القديمة، وهم يتزيّون بأحسن الثّياب والحلي التي يرتدونها في الآحاد والأعياد، واجهوا جماعة من مشايعي سافونارولا (الذين تشي بهم ثيابهم البسيطة)، وغيرهم من جماعة البيانوني المعروفين. فبدأ أفراد هذه الطبقات التصرف بعدائية مع هؤلاء الأخيرين، فطالعوهم بالشتم والسباب والبصاق، وحتى بدفعهم بخشونة وشدّهم من ثيابهم. أما في الشوارع والميادين الرئيسة، فقد بدأت الملصقات الجديدة بالظهور على الجدران، وكانت تهاجم المواطنين البارزين ممن كانوا معروفين بتأييدهم لسافونارولا، من أمثال مازينغي، وفالوري، وسوديريني. وقد طاردت مجموعة من الصبية الأشرار من جماعة كومباناتشي أي شخص ينتمي إلى جماعة البيانوني، وأوسعوا كل من نجحوا بإمساكه ضرباً.

وكان من المقرر أن يلقي مريد سافونارولا الحميم؛ ماريانو أوغي، عظة أحد الشعانين في كاتدرائيّة فلورنسا. وقد امتلأت المقاعد قبل أن تبدأ صلاة

المساء بوقت طويل، إذ رأى أولئك الذين بقوا موالين لسافونارولا، في ذلك، سانحة للاحتشاد معاً، وإظهار دعمهم المتواصل لرئيسهم. وغادر الراهب ماريانو دير سان ماركو في الساعة الموعودة، واتخذ سبيله نزولاً إلى طريق الكوكوميرو، محاطاً بالمجموعة المعتادة من الرهبان والحُرّاس؛ الذين دأبوا، حينئذ، على مرافقة أي راهب من سان ماركو يذهب لإلقاء عظة خارج نطاق حمى كنيسة الدير. ولكن ما إن ظهر الراهب ماريانو وجماعته حتى قوبلوا بوابل من الحجارة التي قذفهم بها أولاد الشوارع المُعْدَمون، الذين استأجرتهم جماعة الكومباناتشي.

وما إن وصل ماريانو إلى الكاتدرائية، بعد طول مجاهدة، حتى كانت الأخيرة ممتلئة إلى درجة غصَّ بها الهواء[1]. ولكن لم يكن الحاضرون جميعهم من أنصار سافونارولا، إذ حضرت مجموعة من الكومباناتشي مولعة بإثارة الشغب، «فبدأ أفرادها بالضرب على المقاعد التي يجلس عليها الأطفال والنساء، مستخدمين لغة فظّة، وهم يصرخون: اخرجوا من هنا يا من تتباكون وأنتم تنشدون التراتيم، مما أنهض العديد من المصلِّين. وبدأت، إذّاك، جلبة كبيرة في الكنيسة، إلى درجة عُدَّ معها من استطاع بلوغ أحد الأبواب محظوظاً، وحين احتجَّ بعض مَن وجد مِن الرجال، حاول الكومباناتشي إسكاتهم بازدراء، والتشاجر معهم، حتى إن بعضهم استخدم أسلحته ضد العديد من أنصار الأخ الراهب، الذين كانوا يفرّون باتجاه جادة كوكوميرو، وأُصيب عدد من هؤلاء وجرحوا. ولم تمض على ذلك بضع ساعات حتى كانت المدينة بأكملها مدججّة بالسلاح»[1].

وتطوّرت المشاهد المضطربة خارج الكاتدرائية، مشفوعة بتشجيع من جماعة الكومباناتشي لأنصارها بإطلاق الصيحات: «لنذهب إلى الراهب

ونِل منه! إلى سان ماركو، إلى سان ماركو»[3].

وكانت طائفة من أنصار سافونارولا قد ذهبت إلى سان ماركو لحضور صلوات الغروب، لكن ساحة الكنيسة، كما وصف لاندوتشي، ما لبث أن امتلأت بالدهماء المناوئين لسافونارولا: «مما جعل من المتعذّر على العديد من الرجال والنساء الخروج من الدير. واتّفق لي أن أكون هناك. ولولا أني تمكنت من الخروج عبر الرواق المقنطر، والذهاب بعيداً باتجاه بوابة سان غالّو، لقضيت نحبي هناك. وكان الجميع يسعى إلى تسليح نفسه. وصدر بيان من مجلس السينيوريا يعلن عن مكافأة مقدارها 1000 من الدوكات لمن يتمكن من القبض على الراهب جيرولامو وتسليمه إلى السلطات. لقد دخلت فلورنسا في حالة من الهياج والفوضى...»[4].

وعجّل الرهبان، حينئذ، بإغلاق الأبواب الأماميّة لكنيسة الدير وأرتجوها، ثم أمّنوا النساء المذعورات ممن عَلِقْن في الكنيسة، إضافة إلى مصلين آخرين لم تكن لديهم الرغبة أو القدرة على الانخراط في العنف، وجعلوهم يسلكون مسلك لاندوتشي الحصيف، هاربين من الجانب الخلفي للدير.

وأخذ عديد من الرهبان بالاستعداد للدفاع عن سان ماركو، الذي بدا أنه مقبلٌ على خطر جسيم، مصدره الدهماء الذين علا صياحهم، وتكاثر عددهم في الخارج، بعد أن أجّجتهم جماعة الكومباناتشي إلى درجة أنهم غدوا خارج السيطرة تماماً. وكان إلى جانب الرهبان المتجمعين داخل الدير زهاء الثلاثين من جماعة «البيانوني»، ومن أنصار سافونارولا العلمانيين البارزين. وكان من بين هؤلاء فرانشيسكو فالوري، الذي نصح الرهبان، في مبتدأ الأمر، بعدم اللجوء إلى العنف، قائلاً: إنَّ من الأفضل لهم، أن

يغادروا المدينة التزاماً بعهودهم الرهبانيّة، ثمّ يمكنهم العودة واستلام الدير من جديد حين يكون مجلس السينيوريا قد استعاد النظام، وعادت الأمور إلى مجاريها. بيد أن الرهبان رفضوا التفكير في التخلّي عن موطنهم، وبيّنوا له أنهم عازمون على الدفاع عن بيت الرّب. وفي واقع الأمر، كان بضعة رهبان يُجْرون، منذ وقت ليس بقصير، استعداداتهم لمثل ذلك اليوم. وكانت ثمة صومعة قديمة غير مأهولة في أسفل الرواق، وقد جرى تحويلها إلى مخزن سرّي للسلاح من جانب اثنين من الرهبان المستجدين، وهما الراهب سيلفسترو، (ويا للعجب) الراهب فرانشيسكو ميديتشي. وقد جمعا، بالفعل، مجموعة كبيرة من الأسلحة المتنوعة، التي اشتملت على:

«اثني عشر درعاً واقياً للصدر، ومثلها من الخوذ، وثمانية عشر مَطْرداً (سلاح قديم مكون من رمح وفأس وحربة) وخمس أو ست أقواس ونشّابة، والكثير من التُرُس، واربع أو خمس بنادق من فئة القربينة، وبرميل بارود، وصندوق من الطَلَق المصنوع من الرصاص، بالإضافة إلى زوج من المدافع الصغيرة البدائيّة»[1][5].

وقد هُرّبت هذه الأسلحة إلى داخل الدير على يد كل من البيانوني البارز فرانشيسكو دافانزاتي، وتابعه الأمين بالدو إينغرامي، اللذين

(1) المطرد halberd سلاح قديم يشبه الرمح، وله مقبض خشبي طويل ينتهي بغطاء معدني، يتوجه رمح ونصل فأس ورأس معدني حاد. أم االقربينة فهي تمثل الصورة الأولى للبندقية، وهي ذات ماسورة طويل تعملُ بواسطة فتيل إشعال، ويستخدم فيها، عادة، ملح بارود، وتطلق رصاصات مستديرة. وقد استخدمت أوائل القرن الخامس عشر، وكانت فعالة لمدى قصير فقط، وعرضة للانفجار، مما جعلها أكثر خطورة على المُستخدم منها على الهدف. وكانت المدافع الأولى ذات أسطوانات قصيرة وفوهات واسعة، واستخدم فيها ملح البارود لإطلاق قذائف مدفعيّة أو حجارة في الهواء. وكانت خطرة، أيضاً، على المستخدم كما على الهدف.

أخذا على عاتقهما، وقتها، إعداد الخطط للدفاع عن الدير، ووضع الحراسات في نقاط بأعيانها على طول الأسوار، وتعيين المراقبين عند الشُرفات المرتفعة، وقد تطوَّع ستة عشر راهباً، وأبدوا استعدادهم لحمل السلاح تحت إمرة إينغرامي، الذي سيضطلع بتوجيه عملية الدفاع عن الدير. إذ ما إن تكون الأبواب القويَّة التي تفصل الكنيسة عن الدير الداخلي محكمة الإغلاق، فإن الأسوار العالية ذات النوافذ الصغيرة والضيقة التي تحيط بالدير تعطيه حماية منيعة.

ومن المستغرب أن التجهيز لكل ذلك جرى دون علم سافونارولا، الذي كان، قطعاً، سيمنع مثل هذه الأنشطة. وفي واقع الأمر، فقد بقي، حتى مرحلة متأخرة، غافلاً بدرجة كبيرة عما كان يجري في ديره الخاص، على الرغم من أنه ما لبث أن أدرك ما يجري في الخارج، وذلك حين بدأ الدهماء، الذين كانوا يحاصرون الدير ويطلقون الشتائم، يرمون الحجارة، وغيرها من المقذوفات والنفايات من فوق الأسوار. ولما كان رئيسَ الدير، فلا بُدَّ أن يكون هو من أوعز بقرع جرس سان ماركو المعروف باسم «الطفل الباكي La Piagnona» (بسبب ما يصدره من أصوات حزينة من جهة، ولأنه، وهذا هو السبب الأقوى والأوضح، كان يدعو جماعة البيانوني «البكائين» للفروض الكنسيَّة)، أما هذه المرة فقد هدف قرع الجرس إلى إطلاق جرس الإنذار، معطياً إشارات كي يُصار إلى إرسال المليشيات المدنية لاستعادة الهدوء والنظام. لكن مجلس السينيوريا لم يكن، كما بدا، ميالاً للسماح باتخاذ مثل هذا الإجراء الضروري. فقام، عوضاً عن ذلك، بإرسال حملة الصولجان؛ الناطقين الرسميين باسمه، كي يعلنوا من خارج دير سان ماركو أن على الجميع داخله إلقاء السلاح. وأمر سافونارولا بمغادرة المدينة إلى

المنفى، وحَدَّد الإعلان بصورة جليّة أن من المتعين على سافونارولا أن يكون خارج حدود الأراضي الفلورنسيّة خلال اثنتي عشرة ساعة، ويفترض أن يكون هذا الشرط الأخير، الأكثر واقعيّة، قد هدف إلى إضفاء صدقيّة ومعقوليّة على أمر السينيوريا، وذلك على أمل أن ينتهز سافوناورلا هذه الفرصة، فيفرّ ناجياً بحياته. لكن هذا الإعلان جاء بنتيجة معاكسة تماماً، فقد رفض الرهبان الأمر، ولم يروا فيه سوى خديعة اصطنعتها جماعة الكومباناتشي كي تدفعهم إلى فتح الأبواب، فيتمكن رجالها المسلحون، حينئذ، من الاندفاع إلى الداخل ومهاجمتهم. ولما بات من الواضح أن الإعلان لم يفض إلى أي نتيجة، دخل مجلس السينيوريا في نقاش، بين أعضائه، حول الإجراء الواجب اتخاذه لفرض سلطتهم والمحافظة عليها. وصاحب ذلك اقتراح من بعضهم رأى أن يُصار إلى إصدار أمر بوجوب إزالة الأسلحة جميعها من المنطقة المحيطة بسان ماركو حقناً للدماء. وحين كانوا منهمكين في مناقشة هذا المقترح وغيره من الإجراءات البديلة، احتدم النقاش وعلت الانفعالات إلى درجة أن اثنين من المجلس أشهرا السلاح في وجه بعضهما. وسرعان ما تغلبت الفئة المناوئة لسافوناورلا على أصوات المعتدلين، الذين عُنوا، أوّل ما عُنوا، بتجنب الشغب، مع تصاعد الانقسام الأهلي عبر المدينة، وذاك هو السبب الذي دفع دومينيكو مازينغي؛ المؤيّد لسافوناورلا وصاحب المنصب الرفيع في الإدارة، إلى الذهاب، على عجل، نحو قصر السينيوريا، ليذكّر أعضاء الهيئة الحاكمة، وغيرهم من المُؤتمرين في القصر، بواجبهم الرئيسي في حفظ الأمن والنظام. لكنه، كما ذكر أحد الحاضرين «صُدّ، ووجهت له أقذع الألفاظ وأكثرها خشة في العالم أجمع، ولولا تدخل بعض الأشراف لكان قتل فيما أعتقد»[6].

وقد كان سافونارولا، في تلك الأثناء، عازماً على تحاشي أي شكل من أشكال العنف الخطير، فأعلن، وهو يلبس رداءه الكهنوتيّ ويرفع صليباً بين يديه، أنه ينوي مغادرة سان ماركو وتسيلم نفسه في الميدان، مبرّراً قراره، بقوله: «دعوني أذهب، فلقد ثارت هذه العاصفة بسببي أنا لا بسبب أي أحد آخر»[7]. لكن الرهبان ومن لازمه معهم من العلمانيين منعوه ذلك، متوسلين إليه: «ألا تتركنا وتذهب! فإنهم سيقطعونك عضواً فعضواً، وماذا سيحلُّ بنا إن أنت ذهبت؟»

وإذ حل الظلام نجح فرانشيسكو فالوري بالهرب من الدير المحاصر، قاصداً حشد أكبر عدد يستطيعه من جماعة البيانوني المخلصين، كي يتمكنوا من العودة والدفاع عن سان ماركو. وقد وصف لاندوتشي كيف أنَّ فالوري: «خرج خفية من سان ماركو إلى الحديقة الكائنة خلف الدير والمحاذية للأسوار. لكنه ما إن وصل هناك حتى تَقبَّض عليه اثنان من الرجال الأشرار، واقتيد إلى منزله. ثم جلبه حملة الصولجان، في المساء، واقتادوه، بعد أن أمَّنوه، سيراً على الأقدام إلى القصر. لكنهم قبل أن يصلوا، هناك، جاء رجلٌ من ورائه وضربه بمنجل على رأسه مرتين أو ثلاث مرّات، فقضى من ساعته. وحين انتهب الدهماء بيته أصيبت زوجته بإصابة قاتلة فماتت متأثرة بجراحها، كما أصيب أطفاله ومربياتهم بجراح. وقَدْ أَتى هؤلاء الدَّهماء على كل ما في البيت[8]، وكانوا، في تلك الأثناء، قد بدؤوا في اقتحام بيوت العديد من أنصار البيانوني البارزين، ونهبها، كما حدثت جرائم أخرى»[1].

(1) من المفهوم أن تكون خطيّة الأحداث، وسط الظلام والفوضى العارمة التي سادت المدينة، مختلفة قليلاً عن الروايات المتعددة التي روت ما حدث آنئذ. لهذا لم ألتزم حرفياً برواية لاندوتشي، وإنما اخترت ما يبدو أنه التسلسل الأكثر احتمالاً.

وواصل لاندوتشي القول: «وقد حدث اقتتال، في الوقت نفسه، حول سان ماركو حيث كان الحشد يتضاعف باطِّراد. وقد أُحضرت ثلاثة آلاف قاذفة للحجارة إلى فيا لارجا (الطريق العام)، وشارع الكوكوميرو. فكان أن تمخَّض عن ذلك العديد من الإصابات بين جريح وقتيل. وقد قيل إن مجموع من قتلوا تراوح بين خمسة إلى عشرين شخصاً، أما الإصابات فقد بلغت المئة تقريباً.

وما إن بلغت الساعة السادسة ليلاً أو نحواً من ذلك [الثانية فجراً] حتى قامت الحشود بإشعال النار في أبواب الكنيسة ورواق الدير، ثم اقتحمت الكنيسة باندفاع شديد وبدأت القتال».

كان الرهبان عازمين على الصمود، واثقين من أن فالوري لن يلبث أن يعود لإنقاذ الموقف بعد أن يكون قد جمع جمهرة من أنصار البيانوني المسلحين، والممتلئين حماسة، من أرجاء المدينة كافّة. وتختلف الروايات في هذا الشأن، لكن يبدو أن زهاء اثني عشر راهباً أو أكثر، من الرهبان المسلحين، إلى جانب أنصارهم، قد تهيؤوا للقتال لصد حشد الرعاع الهائج، الذي يجتاح الكنيسة:

> «يا له من مشهد متفرّد حين ترى هؤلاء الرجال وهم يعتمرون الخوذات ويرتدون الدروع فوق أردية الرهبنة الدومينيكيّة، ملوحين بالمطارد وهم يندفعون هاتفين: فليحيَ يسوع، وداعين رفاقهم إلى حمل السلاح»[9].

واستطاع الرهبان، وهم يلوّحون بسيوفهم، مطاردة الغزاة وردّهم إلى الوراء، في حين استولى الجمع، الذي يحاصر الدير، على السلالم، وحاول تَسوُّر الدير. لكن الرهبان ردوهم على أدبارهم برجمهم بالطوب المنتزع

من سقف المبنى. أما من تصدَّر المشهد ذلك اليوم، فكان بطلاً دون منازع، الراهب الألماني المدعو إنريكو، وهو رجل طويل القامة، مفتول العضلات، رمى -تبعاً لرواية واحدة على الأقل- بنفسه، حرفياً، إلى ساحة الوغى، وانتزع بندقية من طراز القربينة من أحد المغيرين، قبل أن يستخدمها في صد المهاجمين. وتقول رواية أرجح من هذه السابقة، أنّه تموقع في المنبر وهو يحمل إحدى القربينات التي أتى بها من مستودع الدير، وأطلق النار على الجموع التي كانت تندفع، عجلى، إلى صحن الكنيسة. إذ سيتوفر له، من موقعه ذاك، الوقت والموارد اللازمة لتعمير سلاحه بملح البارود. وفي حُمّى الانفجارات الصادرة من بندقيته وبنادق الآخرين، وما نتج عن ذلك من سُحب الدخان الخانقة، والفوضى العارمة، والصرخات الصادرة عن الحشود المتقاتلة، استطاع الراهب إنريكو، كما قيل، أن يردي عدة مغيرين، مستخدماً المنبر لتسديد رميه واختيار هدفه. وبدا الأمر وكأنَّ الرؤى المستوحاة من سفر الرؤيا، التي دأب سافونارولا على وصفها من على هذا المنبر، تتحقق حينها في المكان عينه الذي شغلته يوماً جموع المصلين السابحة في ملكوت الرب بعيداً عن الدنيا ومشاغلها.

تجمع المصادر على أنَّ القتال العنيف تواصل في سان ماركو وما حوله لعدة ساعات من تلك الليلة. وعلى الرغم من عدم قدرة سافونارولا على كبح جماح العديد من رهبانه وصدّهم عن القيام بسلوكات عنيفة، فإنه، كما قيل، اتخذ، في مرحلة من المراحل، موقعاً له في رواق الكنيسة، الذي كان مضاءً بالمشاعل المتوهجة، إذ ترأس، وهو محاط بالأغلبية من أخوانه المخلصين، الصلوات والابتهالات إلى أن أصبح الصخب والعراك شديد الخطورة. فحمل عدد من الرهبان، إذّاك، المشاعل، المتوهجة، وتقدموا

باتجاه الحشد. وقد أدّى ذلك المشهد، تبعاً لما جاءت به بعض مصادر ذلك العصر، إلى ذعر شديد أخذ بمجامع عدد كبير من المغيرين، الذين توهّموا أن فرقة من الملائكة تنزلت من السماء للدفاع عن سان ماركو. لكن حالتي الهلع والفرار لم تشملا الجميع ولم تطولا. وإذ علا صخب المعركة، من جديد، وغدا الوضع خطيراً، قاد سافونارولا معاونيه خارج الكنيسة، وولج بهم إلى الدير، حيث تجمعوا، مرة أخرى، في المكتبة الكنسية الإغريقيّة، وانبرى فيهم خطيباً، في حين كانت الحشود تُثير الشغب، ويتعالى هتافها مختلطاً بالانفجارات المتقطعة التي تحدثها القربينات، إذ قال: «كل كلمة قلتها كانت تأتيني من الرّب، ولما كان هو شاهدي في السماء، فإني لا أقول إلا حقاً... إنني أرحل عنكم مملوكاً بأسى وحزن عميقين، وذلك كي أتمكّن من تسليم نفسي لأيدي أعدائي. وإني لا أدري إن كانوا ينوون قتلي أم لا؟ ولكن، لا بُدَّ أن تكونوا على يقين أنني إذا مت، فإني سأكون هناك في حال أفضل، وأقدر على مساعدتكم وأنا في السماء من وجودي هنا على هذه الأرض»[10].

وقد اقتُرح على سافونارولا، حتى في هذه الساعة المتأخرة، أن بوسعه الفرار عن طريق الحديقة، وذلك بأن يسلك الطريق التي سلكها فالوري، وذكرت بعض المصادر أن سافونارولا تروّى في الأمر. لكن يهوذا برز من بين مريديه، حينها، وقرّر أن يتحرّك، إذ خان واحد من مجتمع سان ماركو العهد، معطياً مواثيق الولاء لجماعة الأرابياتي. وكان هذا الراهب هو مالاتيستا ساكرامورو، الذي اقترب، في تلك اللحظة الحاسمة، من سافونارولا، مقترحاً: «ينبغي على الرّاعي أن يُهدف حياته للأهوال فيضحي بها كُرمى قطيعه؟»[11]

ومن الواضح أن الرّاهب مالاتيستا كان متبصّراً وعارفاً بالطريقة التي كان عقل سافونارولا يعمل بها، لأن «الراهب الضئيل» أقصى، على الفور، كل ما اعتمل في داخله من تردد، موقفاً أي جدال، ومعلناً قراره الحاسم الذي لا رادّ له بتسليم نفسه إلى السلطات، ثم تلقّى المناولة، وقام بتوديع أصحابه من الرهبان، مُقبّلاً كل واحد منهم. وقد ألحف عليه كثير من أتباعه المقربين بالسؤال طالبين مرافقته، لكنّه تأبّى عليهم، ولم يسمح إلا لواحد من الرهبان بمرافقته، وهو الراهب دومينيكو دا بيسا، الذي أثار إعجاب سافونارولا لما ظهر منه من إيمان راسخ حين كان من المُقرّر أن يخضع لمحنة النار.

وكان مجلس السينيوريا قد أرسل، في ذلك الحين، فرقة من القوات المُسلّحة تحت إمرة جيوفاني ديلا فيكيا، الذي فرض نوعاً من النظام بين مثيري الشغب، فضلاً عن تمكنه من شق طريقه إلى رواق الدير. وقد أرسل سافونارولا اثنين من رهبانه إلى الرواق للتفاوض حول شروط استسلامه لرجال ديلا فيكيا المتاهبين باسلحتهم. وأبلغ الرهبان هؤلاء الأخيرين: «أنهم وإخوتهم يوافقون على تسليم الأخ الراهب إذا قطعتم لنا وعداً بأخذه سالماً إلى القصر»[12]. وإذ تلقّيا هذا العهد، تقدَّم سافونارولا والراهب دومينيكو من الدير إلى الرواق، حيث انضم حملة الصولجان، منذ وقت وجيز، إلى رجال ديلا فيكيا، وقد ألقى الأولون القبض على الراهبين حال وصولهما.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة فجراً على الأرجح، أو ربما أكثر من ذلك[1]. وما كاد حملة الصولجان يبدؤون بتقييد سافونارولا والراهب

(1) يتباين الوقت الذي تأتي على ذكره المصادر المعاصرة آنئذ عي نحو كبير. ومن ذلك، أن الأحداث التي ذكر لاندوتشي أنها حدثت في الساعة السادسة ليلاً، أي الثانية فجراً بمعايير نا الوقتيّة، ربما حدثت في وقت أبكر بصورة ما. وبينما ذكر بورلاماكي بأن وقت اعتقال سافونارولا كان في السادسة ليلاً، فإن ريدولفي قال: إنه كان ما بعد السابعة ليلاً. =

دومينيكو حتى اندفع الحشد الغاضب وأحاط بهم يريد اختراق الجنود وأخذ الراهبين المُعتقلين.

ولما اقتيد الاثنان يحفُّهما صفَّان من الجند إلى ساحة سان ماركو، فإنَّ الحشد الذي تبدَّى عبر ومضات المشاعل، لاحق المعتقلين بالسباب والشتائم والبصاق. وحاول أحدهم، في مرحلة ما، القفز عبر صف الجنود، وقذف شعلة ملتهبة على وجه سافونارولا، صارخاً بسخرية لاذعة: «انظر إلى النور الحقيقي»[13].

وبينما كان المعتقلان يسيران مخفورين، ولدى عبورهما الباب الجانبي لقصر السينيوريا، تمكَّن أحدهم من ركل سافونارولا في مؤخرته صارخاً: «انظروا! هذا هو المكان الذي كانت تصدر منه نبوءاته!»

واقتيد الاثنان، لحظة دخولهما، إلى القصر، إلى الغونفالونيير بوبوليسكي، وكان إلى جانبه أعضاء السينيوريا وعدد كبير من كبار الشخصيَّات. ولم يستطع بوبوليسكي منع نفسه من التشفي والتفاخر بالنصر الذي دبَّر له هو ورفاقه من الأرابياتي. وسأل الراهبين التَّعسين والمهانين، بصوت مفعم بالسخريَّة، إن كانا لايزالان على اعتقادهما أن كلماتهما تنزلت عليهما من الرب، وأجاب كلا الراهبين أنهما يعتقدان ذلك فعلاً. فجرى اقتيادهما، إذاك، إلى حبسين منفصلين داخل القصر. وسار الحراس بسافونارولا صعوداً عبر السلم الحجري المؤدي إلى البرج ذي البريجات، حيث سجن في زنزانة حجريَّة صغيرة جداً تعرف باسم Alberghettino (النُّزل الصغير)،

= ويناقش الأخير مشكلة بورلاماكي مع التوقيت في واحد من الهوامش، وكل ما يمكن أن يقال، ونحن مطمئنون، أن الاعتقال وما تلته من أحداث جرت في ظلمة ما يمكن تسميتها الساعات الأولى، أي الوقت الذي يسبق بقليل أول خيط من خيوط الفجر، الذي كان يبدأ قبل الخامسة بقليل في ذلك الوقت من السنة.

التي أطلّت نافذتها الصغيرة على قصر السينيوريا. ومن المفارقات العجيبة أنها كانت الزنزانة ذاتها التي حُجز فيها كوزيمو ميديتشي عام 1433، حين تمكنت أسرة «ألبيتسي» من عزل أسرة ميديتشي عن السلطة حيناً من الزمن. وكان كوزيمو الداهية قد استخدم شبكة اتصالاته، واستطاع أن يتدبَّر أمره، ويدفع رشوة لقاء النجاة بحياته والخروج من زنزانته. وكان صديقه البابا؛ يوجين الرابع، وغيره من رؤساء الولايات الإيطاليّة، في ذلك الوقت، قد احتجوا لصالحه، مطالبين بإلغاء حكم الإعدام الصادر بحقِّه، والسماح له بالخروج مع عائلته إلى المنفى، حيث تمكّن كوزيمو من تحصيل ما يكفي من المال للمساعدة في اجتراح وسيلة تعود بأسرة ميديتشي إلى الحكم. ولم يكن لدى سافونارولا مثل تلك الشبكة، أو تلك الوسائل، ولم يكن له أسباب وصلات تربطه بمثل تلك القوى المتعاطفة. إذ ابتهج البابا ورؤساء الولايات الإيطالية جميعها لسقوطه. أما أهل فلورنسا فقد انقلب جُلُّهم ضده، ولم يبق من أنصاره إلا المضطهدين من جماعة البيانوني، وقد ظلُّوا يؤيِّدونه خفية وبصورة حزينة.

(23)
المحاكمة والتعذيب

وصف لاندوتشي الجو العام في فلورنسا، عشية اليوم الذي أشرقت شمسه في صباح الاثنين الموافق للتاسع من إبريل عام 1498، قائلاً:

«وضع الناس أسلحتهم، غير أنهم واصلوا الحديث حول ما حدث. وتبدّى الأمر كما لو أن جهنّم فتحت من تحت أقدامنا. ودأب الكل على القول (بائس وخائن). ولم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة تأييد لسافونارولا، وإلا فسيكون مصيره القتل. وكان الجميع يسخر من المواطنين، ناعتين إياهما بـ (أنصار سافونارولا النائحين Piagnoni) والمنافقين»[1].

كانت جماعة الكومباناتشي compagnacci تجوب الشوارع مزهوّة بالنصر، عارضة الأسلحة التي تمّ اكتشافها في سان ماركو، ومُدّعية أنّها دليلٌ يؤشّر على أن سافونارولا نوى قيادة عصيان مسلح ضد الحكومة، فهو لم يكن مشعوذاً دجّالاً فحسب، وإنما خائن أيضاً. وقد فرّ المتعاطفون مع البيانوني Piagnoni من الطبقة الوسطى إلى الريف، أما الآخرون فقد أخذوا عوائلهم، سراً، وحملوا معهم ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، وقصدوا المنافي خوفاً على حياتهم.

وأُنزل سافونارولا من الزنزانة Alberghettino في وقت متأخر من

صباح الاثنين، وأُخضع، حينها، لنوع من الاستجواب غير الرسمي من طرف مجلس السينيوريا. وإذ غدا وقتئذ في الحجز، فإنه سيخضع للإجراءات القانونية اللازمة، التي ستشتمل على الاستجواب والتعذيب من طرف هيئة قضائية مشكّلة، بغرض تعيين القوانين التي انتهكها سافونارولا، وامتحان مزاعمه في النبوّة والتكلُّم مع الرب.

واتخذت الأمور، في اليوم التّالي، منحى جدّياً:

«فقد حَملَ رجلان سافونارولا، عند التاسعة مساء، [أي الخامسة مساء تبعاً لمعاييرنا الوقتيّة] إلى سجن بارغيلّو فوق أيديهما المتشابكة، ذلك أنه كان مقيد الرجلين واليدين بالأصفاد. كما أُحضر الرّاهب دومينيكو إلى هناك بالطريقة ذاتها. وأُمسك الاثنان عند وصولهما، فوضع الراهب جيرالامو سافوناورلا على المخلعة «آلة التعذيب» ثلاث مرات[1]. أما الراهب دومينيكو فقد وضع عليها أربع مرات. وقال سافوناورلا، حينها: أنزلوني وسأكتب لكم سيرة حياتي كاملة. كما يمكن للمرء أن يتخيّل، حين سمع من آمن به، من ذوي المبادئ القويمة، أنه خضع للتعذيب، كيف غشيت معظمهم غاشيةٌ من البكاء والنحيب»[2].

وقد أُلحق بهذين الراهبين المتهمين الراهب العليل والمستشار المقرب: سيلفسترو ماروفي، الذي قدّره سافوناورلا تقديراً عالياً بسبب ما كان يأتيه من رؤى. وعَمِد سيلفسترو إلى الاختفاء، في البداية، حين جرى اجتياح دير سان ماركو. لكن الراهب الجحرود مالاتيستا وشى به، فكان أن اعتقله مجلس السينيوريا.

---

(1) يتحدث الأصل الإيطالي عن التعليق بواسطة الحبل، مما يعني أنهم خضعوا للتعذيب بطريقة السترابادو الفلورنسيّة التقليديّة لا بالمخلعة.

وكان الرَّجل الذي عُيِّن ليغدو المحقِّق الرئيس في الهيئة القضائيَّة المشكلة للتحقيق مع سافونارولا هو فرانشيسكو دي سير باروني، المُشتهر بلقب «سير شيكوني». وكان الأخير، ذو الشخصيَّة الكريهة، من المؤيِّدين والمقربين من بييرو دي ميديتشي. وهو من اضطلع، في السابق، بإنفاذ مكائد الأخير وأعماله الماكرة. ومن المفارقات العجيبة، أن بييرو وأخاه الكاردينال جيوفاني حين فرَّا من المدينة، لجأ السير شيكوني إلى سان ماركو، ولم يتسن له الخروج إلى العلن إلا ابعد أن أصدر سافونارولا، من على منبره، أقصى أشكال التحذير من الانتقام، مستهدفاً بذلك كلا الجانبين. ولبس، إذَّاك، قناع النَّصير القوي لجماعة البيانوني، لكنَّه ظلّ، في الواقع، مخبراً يُسرِّب المعلومات، مباشرة، إلى دوفو سبيني على هامش الموائد التي كانت تُقيمها جماعة الكومباناتشي؛ أعداء سافونارولا اللدودون؛ تلك الموائد التي دأَبَ السِّير شيكوني على حضورها، كما لم يتخلَّف عن حضور عظات سافونارولا في الكاتدرائية. ولما كان السير شيكوني مجرد كاتب عدل، فلم يحقَّ له، قانونياً، إجراء أي تحقيق رسمي. لكن مجلس السينيوريا قرَّر، خلافاً للعادة، تجاوز تلك الأمور التفصيليَّة، ذلك أنَّ من الممكن الاعتماد على السير شيكوني في إصدار حكم يقود حتماً إلى إدانة سافونارولا.

تكونت الهيئة القضائيَّة التي عيَّنها مجلس السينيوريا من سبعة عشر مواطناً، وكانوا جميعاً من المعارضين المتحمسين لسافونارولا، وكان من بينهم دوفو سبيني، إضافة إلى عدد من قيادات جماعة الكومباناتشي، ومدوِّن اليوميَّات بييرو بارينتي، الذي كانت مشاعره واضحة من خلال تسجيله للأحداث بصفة يوميَّة. كما اشتملت الهيئة على جيوفاني مانيتي، وهو الشخص الذي عَمِدَ إلى إثارة الحشود ضد سافونارولا وهي تنتظر

وقائع محنة النار. وقد روي عن «مانيتي» طلب الإذن لإجراء فحص علني لأعضاء سافونارولا التناسليّة، إذ سرت شائعات مردُّها نبوءة أحد المنجمين، التي زعمت أن نبياً بأعضاء تناسلية خنثويّة سيصل إيطاليا. وأراد مانيتي أن يطمئن إلى أن سافونارولا ليس ذلك الرجل، وأُجيب الأول إلى طلبه، بل إن ذلك تمَّ وقد ملأ قلوب أعضاء الهيئة بهجة ورضا. ولم تكن هذه المهانة التي نزلت بسافونارولا إلا مجرَّد استهلالٍ وبداية[1]. وكان مجلس السينيوريا، قد أزال، في تلك الأثناء، أي معارضة محتملة لأفعاله. فتمت الدعوة لانتخابات المجلس الأكبر، دون أن يسمح لأي من مناصري جماعة البيانوي التقدُّم للانتخابات، بل انتزع كل من اشتُبه بتعاطفه مع هذه الجماعة من الإدارة الحكوميّة، وأُخرج منها.

وسيستمر استجواب سافونارولا على مدى الأسبوع التالي حتى السابع عشر من إبريل (ومما يؤشّر على جديّة هذه الإجراءات ووضعها الطارئ، أنّها لم تؤجل أو يجر إيقافها في الجمعة العظيمة، التي حلّت في الثالث عشر من مارس، أو في أحد القيامة الذي جاء إثر ذلك بيومين، وكلتا المناسبتين تُعدان من أكثر المناسبات الدينيّة قداسة في التقويم المسيحي)، وقد استمرّ الاستجواب باتباع الطريقة الفلورنسيّة المعتادة المستخدمة في التحقيقات الجنائيّة. واقتضى التقليد أن يُستدعى سافونارولا، في البداية، كي يعترف بتهمة الخيانة، وإذا عُدَّ اعترافه غير وافٍ بالمراد، فَسَيُذكّر بإمكانية انتزاع مزيد من الأدلّة باستخدام طريقة السترابادو. وإذا لم تنل اعترافاته، حتى بعد

(1) قد تكون الإشاعات المتعلّقة بوصول هذا النبي هي التي دفعت بالرهبان الفرانسيسكان، أيضاً، إلى الإصرار على تفتيش الأعضاء التناسليّة للراهب دومينيكو، بحثاً عن أي «علامة خارقة»، قبل البدء بمحنة النار.

هذا التحذير، رضا هيئة المحققين، فسيجري، حينها، ربط يديه إلى ظهره، وتعريضه لسقطة أُخرى من سقطات «الستر ابادو» حتى «يعترف» فعلياً. ومن غير الممكن تخيّل ما خلّفه ذلك من أثر على جسد سافونارولا المهزول، بفعل ما اعتاده من صيام متواصل، ونكران للذات، وجلْدٍ فعلي لها. وكانت ميزة هذه الوسيلة؛ «الستر ابادو»، أنها لم تكن قاتلة إذا استخدمت على نحو صحيح ومتروٍّ. وعلاوة على ذلك، فإنها لا تُخدّر الجسم، مما يجعلها مؤلمة، بالقدر نفسه، في كل مرّة تنفذ فيها. وكان هذا الضرب من الاستجواب قانونياً في فلورنسا، حتى إن المحاكمة باستخدام المحن «trial by ordeal»، بقيت بكل صورها، جزءاً لا يتجزأ من العمليّة القضائيّة في معظم أرجاء أوروبا، بالقدر نفسه الذي كانت عليه الحال خلال الحقبة القروسطيّة. ومع ذلك، فقد كانت محاكمة سافونارولا غير قانونيّة جملةً، إذ إن محاكمة الرهبان والقساوسة لم تكن من اختصاص القضاء التابع للسلطات المدنيّة، وإنما من اختصاص المحاكم الكنسيّة.

غير أن ذلك لم يُؤبه له مادام سافونارولا هو الشخص المُمتَحن. ولم يمض على وجود سافونارولا ثمان وأربعون ساعة مغلولاً في زنزانته في سجن بارغيلّو، حتى كانت أنباء ذلك قد بلغت ألكسندر السادس. وعبّر قداسته في اليوم نفسه، الذي وافق الثاني عشر من إبريل، عن مشاعره إلى مجلس السينيوريا قائلاً:

«لقد غمرتنا الغبطة والسعادة حين أعلمنا سفيركم عما اتخذتموه من إجراءات مناسبة لسحق الحقد المجنون الذي ألم بابن الإثم والخطيئة؛ الراهب هيرونيمو سافونارولا، الذي لم يعمل على نشر مثل تلك الهرقطات بين الناس بنبوءاته الزائفة والفارغة فحسب،

وإنما عصى أوامركم وأوامرنا بقوة السلاح. وها هو يقبع، أخيراً، في السجن بسلام، مما يجعلنا نثني على مخلصنا الحبيب، الذي يشع نوره السماوي بمثل تلك الحقيقة على دولتنا الدنيويّة، فلا يسمح أن تبقى مدينتكم المُخَلصة في الظلمة فترة أطول من ذلك»[3].

وكان مجلس السينيوريا قد أعطي الإذن، صراحاً، بالتحقيق مع سافوناورلا تحت التعذيب. لكنّ ألكسندر السادس أوضح، على نحو لا لبس فيه، ضرورة إرساله إلى روما، حيث يصار إلى محاكمته أمام المحكمة الكنسيّة المختصّة بذلك. وكان هذا سيعني طرق تحقيق أكثر تقليديّة، مثل طريقة المخلعة، والوسم بالحديد، وغير ذلك من وسائل محاكم التفتيش، التي حاكمت ضحاياها، تقليدياً، بتهم الهرطقة. ومن المفارقات العجيبة، أنّ محاكم التفتيش بقيت حكراً على رهبنة سافوناورلا ذاتها، أي الرهبنة الدومينكانيّة. وكان من شأن هذه الطرق الرهيبة التي يضطلع باستخدامها ممارسون مهرة أن تنتزع أدق التفاصيل والمعلومات من الضحيّة المنكودة[1].

امتلأ مجلس السينيوريا غبطة لدى تسلمه رسالة ألكسندر السادس البابويّة، التي لم تسمح لهم بتعذيب سافوناورلا دون حرج فحسب، وإنما رفعت عن المدينة خطر الحرمان العام أيضاً. ليس هذا فحسب، وإنما اشتملت الرسالة البابويّة على عفو عن أولئك الذين جُرّموا بمهاجمة أملاك الكنيسة وتدنيسها في أثناء حصار دير سان ماركو. ومع ذلك فقد كان مجلس السينيوريا ممانعاً للنزول عند طلب ألكسندر السادس الحاسم، فلن

---

(1) فيما يتعلّق بمحاكم التفتيش، كان التعذيب، في الغالب، يمارس من أجل التعذيب. أما بعد ذلك، كما هي الحال في فلورنسا ذلك الوقت، فإن الحقيقة المنتزعة بمثل تلك الطرق العنيفة كانت عرضة للتوافق، دائماً، مع ما تعتقد الضحيّة أن الجلاد ينتظره منها، وعليه فلم تكن هذه الطريقة موثوقة في تحصيل المعلومات الصحيحة.

يجري إرسال سافونارولا إلى روما، وقد كان هذا الأمر أكثر من مجرد شأنٍ من شؤون مدينة فلورنسا الذي يؤكِّد استقلالها، إذ لا بُدَّ أن يكون سافونارولا، على مدى السنوات التي كان مجلس السينيوريا يستشيره فيها، قد حاز معرفة وثيقة بأعمال حكومة المدينة، وسياستها السريَّة، فضلاً عن طرق جمع المعلومات الاستخبارية. ولا بُدَّ أن تكون هذه الأنشطة قد اشتملت على أعمال مخبرين متعاطفين، يقدمون معلومات استخباريَّة عن روما، وربما جواسيس داخل الفاتيكان نفسه. ومن المؤكَّد أن ألكسندر السادس سيعمل على استخراج أكبر قدر من المعلومات المهمة، التي يحتفظ بها سافونارولا؛ تلك المعلومات التي سيستخدمها البابا، لا محالة، لتحقيق أغراضه السياسيَّة، ومن تلك القضاء على المخبرين، واستباق ما وضعته فلورنسا من إستراتيجية وإحباطها، واستغلال ما تعاني منه المدينة من نقاط ضعف. وعليه، كان من المتعين الاحتفاظ بسافونارولا في فلورنسا، حتى لو أسخط ذلك قداسة البابا، وقد أسخطه حقاً. ويبرز هذا واحداً من الأسباب التي جعلت محاكمة سافونارولا تحاط بأقصى درجات السريَّة، فما كان حضور المحاكمة بمسموح إلا من جانب أعضاء هيئة التحقيق السبعة عشر، والطبيب الجراح، وأعضاء مجلس السينيوريا. ولم يسمح لسافونارولا حتى باستقدام محامي دفاع، استناداً إلى صفته الدينيَّة. إذ لا يسمح لرجل الدين بمثل ذلك حين يمثل أمام محكمة كنسيَّة، وكان منطق هذه الحجَّة هو المنطق الذي اتُّبع في مجريات قضية سافونارولا.

وقد تواردت أخبار مهمَّة، في الثالث عشر من إبريل -ربما في اليوم نفسه الذي وصلت فيه الرسالة البابويَّة فلورنسا- إلى المدينة من مصدر آخر. إذ عُلِمَ أنَّ في السابع من إبريل (المتواقت مع اليوم الذي كان يتوجب فيه إجراء

محنة النار) سقط شارل الثامن على العتبة الحجريَّة لأحد مداخل القصر، فشُج رأسه، وفقد الوعي. وعلى الرغم من جهود الأطباء البارزة، فإن الملك، الذي بلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، فارق الحياة في غضون ساعات. وهكذا، فقد تحققت النبوءة التي أطلقها سافونارولا، بمهابة وجلال تقويين، قبل أكثر من سنة. ويبدو أنَّ هذه الأنباء أدخلت العديد من الناس في حالة من التفكير والتأمُّل، ولاسيما حين رشحت هذه الأخبار، وبلغت أسماع جماعة البيانوني الصامتة المحزونة، التي بقيت تناصر سافونارولا سراً. ومع ذلك، ما كان لهذه الأنباء أن تؤثر في المصير الذي كان ينتظر سافونارولا، فقد انطلقت عجلة الزمن، وكانت تحتاج أكثر من تحقق «معجزة» لإيقافها.

تختلف المصادر حول عدد «سقطات» السترابادو التي عانى منها سافونارولا، إذ زعمت الأقاويل التي بلغت لاندوتشي، كما رأينا، أنه أُسقط ثلاث مرات. في المقابل، زعم شقيق بوتيتشيلي وأحد أنصار جماعة «البيانوني»؛ سيموني فيليبيي، أن سافونارولا أُخضع لأربع عشرة سقطة في يوم واحد، مما كان سيجعله عاجزاً عن الاعتراف بأي صورة من الصور، وكان من شبه المؤكد أن يلقى حتفه جراء ذلك، في حين يذهب آخرون بعيداً إلى حد الزعم بأن قطعاً من الفحم المشتعل كانت تُجعل في باطن قدميه بعد أن يُعلَّق من جديد إثر كل سقطة. غير أن كثيرين رأوا ذلك من قبيل المبالغات التي ازدحمت بها سير القديسين وما كابدوه من عذاب. لكن الحقيقة تبقى عصيَّة على التحديد في ضوء ما شهدته الأجواء من استقطابات، فضلاً عما أحيط بالأحداث من سريَّة. مهما يكن من أمر، فإن الحكم المُنطَلق من المعايير الحديثة يرى أن جسد سافونارولا المهزول تحمَّل أربع سقطات، على أبعد تقدير، قبل أن ينهار ويقول لمن يقومون على تعذيبه: «أنزلوني وسوف

أدون لكم سيرة حياتي جملة وتفصيلاً»، لكن ذلك لم يكن كافياً البتة، فما أراده مجلس السينيوريا هو عدد من الاعترافات المخصوصة، التي تثبت تهمة الخيانة على سافونارولا، مما يتيح لهم إعدامه. وهكذا، فقد بدأ السير شيكوني استجواب سافونارولا، كما ينبغي، وتدوين إجاباته.

وتشير الدلائل إلى أن تسجيل «السير شيكوني» لهذه الأحداث كان محرّفاً على نحو مُتعمَّد، بغية الوصول إلى النتيجة المرجوّة. ولا وجود هنا، لمخطوط أصلي، وكل ما نتوفر عليه هو نصوص مطبوعة واهية جرى إصدارها في وقت لاحق من تلك السنة. ومما لا يمكن إنكاره، إمكانية أن يكون سافونارولا، بما عاناه من انهيار، قد اعترف بأشياء كثيرة. لكن، من شبه المحال أن يكون الأخير قد اعترف على النحو الذي جاء في النسخة المطبوعة من نص «السير شيكوني» المخطوط. ومع ذلك، يبقى النص المطبوع حقيقاً بالدرس والفحص لسبب بسيط، وهو أنّه كان -ربما- رواية منحازة لما حدث، لكنها ليست مختلقة على الجملة. ويعزّز الدليل الداخلي هذا التقييم، فالمشكلة تتحدد في بيان الموضع الذي تتضاءل فيه الحقيقة ويطغى الزيف، فيزودنا النص، إذّاك، بعدد من القرائن المعقولة. وإذا كانت الصورة التي يعكسها النص لا تحيل إلى تحقيق بارع، فإن ما ينطوي عليه من خلط وشواش يشير إلى الحقيقة الضمنيّة التي يقوم عليها.

وقد طلب من سافونارولا، أولاً وقبل كل شيء، أن يعترف بأن نبوءاته لم تتأتَّ عن كشوفات ربانيّة، وأن زعمه بأن الرّب كلّمه هو زعم باطل. وقد جاء فيما سجّله السير شيكوني أن سافونارولا أنكر أنه نبي، وانطوى هذا على اعتراف خطير، أيقن سافونارولا بالضرورة ما سيكون له من عواقب وآثار عميقة على أنصاره من جماعة «البيانوني». غير أنَّ ثمّة سبباً

وجيهاً يدعونا للاعتقاد أنّه فعل ذلك حقاً، فمما لا ريب فيه أنَّ سافونارولا أنكر في غير مناسبة أنه نبي. لكنه، في المقابل، عمد، في غير مناسبة، إلى ارتداء عباءة النبوة، سواءً جاء ذلك تصريحاً أو من خلال طريقته في الوعظ. وكان المدافعون (apologists) عنه من المعاصرين أمثال بورلاماكي، والراهب بينديتو لوسكينو، وجيانفرانشيسكو بيكو دي ميراندولا (ابن أخ الفيلسوف بيكو، وكاتب سيرته) قد سلّموا بأن يكون سافونارولا قد قدّم هذا الاعتراف، لكنهم دافعوا عن تفكيره حول هذه النقطة. وما من ريب أنهم كانوا قريبين قرباً كافياً من سافونارولا يجعلهم على بينة من طريقة تفكيره، ولا بُدَّ أن سافونارولا كان مدركاً، إدراكاً تاماً، أن بعض الرسل، مثل النبي عاموس والنبي زكريا، قد أنكر نبوّته في مناسبات بعينها، بالإضافة إلى يوحنا المعمدان. ووفقاً لإنجيل يوحنّا، فقد أعطى المسيح نفسه إجابة ملتبسة عن هذا السؤال[1].

مهما يكن من أمر، فقد اعتقد سافونارولا، يقيناً، بنبوّته. وأنه رأى، فعلاً، العديد من نبوءاته تتحقق؛ تلك النبوءات التي اكتنف بعضها الغموض، وكان عرضة لطيف واسع من التأويل (مثل قدوم «سوط الرّب»)، في حين تنبأ بعضها الآخر بأحداث تحققت بأرجحيّة كبيرة (مثل موت الطغاة). غير أنَّ نبوءته المتمنية موت شارل الثامن قد تحققت بصورة قطعيّة، دون أن يخالطها الغموض، لكنها لم تمارس تأثيراً يُذكر على المحققين، الذين أجبروه على الاعتراف بأنه ليس نبياً.

وقد تبع اعتراف سافونارولا تبرير لدوافعه، وبدا ذلك مناقضاً لشخصيّته تماماً:

(1) فسألوه: «ألست أنت ذلك النبي؟ فقال: لا لست أنا». (يوحنا: الإصحاح الأول: 21)

«فيما يتعلّق بمقصدي وهدفي، فإني أقول بحق: أن مردُّ الأمر كله إلى مجد الدنيا، والسعي وراء السمعة والشهرة. وقد سعيت، كي أحقق هذه الغاية، إلى إعلاء أسهمي لدى النّاس، وتعزيز موقفي في مدينة فلورنسا، لأن هذه الأخيرة مثّلت، كما بدا لي، أداة جيّدة لإعلاء هذا المجد، ومكاثرة أسهمي ومنحي شهرة في الخارج»[4].

غير أن تلك الدوافع الملفقة لا تمثّل خيانة. فمضى سافونارولا بالاعتراف، تحت مزيد من الاستجواب المصحوب بالتعذيب الوحشي، مقراً أنه كان موافقاً، دوماً، على إنشاء جمهوريّة جديدة من اللحظة التي فرّ فيها بييرو ميديتشي. غير أن ما قدّمه من أسباب بدا، مثل سابقه، غير قابل للتصديق، فهو يغاير مذهبه في العدالة الاجتماعيّة، الذي ألهم عظاته في الدعوة إلى جمهورية جديدة، وإنشاء مجلس أكثر ديمقراطيّة، ذاهباً في اعترافه إلى القول: «وإذ بدت لي أنها تتماشى على نحو أفضل مع غاياتي وأهدافي، فإني سعيت إلى تشكليها على ذلك النحو... وكنت أنوي إدراج أولئك الذين يدعون أنفسهم أصدقائي في الحكم، وتقديمهم على من سواهم. ولهذا كنت اختصهم ما استطعت وأوثرهم على غيرهم».

وكان مثل هذا الاعتراف القسري يقرّبه أكثر فأكثر نحو حافة الخطر، غير أن السعي نحو التأثير السياسي لا يصنّف بوصفه جريرة كبرى، ولاسيما في فلورنسا. لكن السير شيكوني ضغط باتجاه انتزاع الاعتراف من سافونارولا بأنه أعَدَّ انتخابات مجلس السينيوريا والمجلس الأكبر تبعاً لمراده. فرفض سافونارولا، وهو في هذه الحالة المحطّمة، أن يعترف بذلك. وعندما سُئل، تبعاً لما جاء في السجل، إذا كان متحالفاً مع بييرو ميديتشي، فإنه أجاب: «لقد عارضته بشدّة»[5]، ويعكس هذا أيضاً جانباً حقيقياً،

ويكشف، كذلك، عن الطبيعة المختَلطة لنص السير شيكوني المُحوَّر، فمن غير المتحمل أن يكون هذا الزعم الوطني داخلاً ضمن عمليَّة تلفيق كاملة قُصد منها إدانة سافونارولا بتهمة الخيانة. أما عندما استُعلم من الأخير إنْ كان قد راسل شارل الثامن، فإنه اعترف، طواعية، أنَّه فعل، وقد قام بذلك، لصالح فلورنسا كما كان واضحاً. واعترف، أخيراً، أنه دعا إلى عقد مجلس كنسي بغية التخلص من الفساد. ولا ينطوي هذا، مرّة أخرى، على فعل من أفعال الخيانة، ولاسيما إذا تعلَّق الأمر بفلورنسا، فضلاً عن أن موقفه إزاء سلوك ألكسندر السادس كان معروفاً للقاصي والداني. ولكن، حينما سئل سافونارولا إذا كان قد سعى إلى البابويَّة، فإنه أجاب: «لا، لم تساورني الرغبة في أن أصبح البابا، ذلك أني إنْ نجحت في مسعاي، فسأعدُّ نفسي أعلى منزلة من أي كاردينال أو بابا»[6]. ويعني ذلك، أن في ذهنه أهدافاً روحانيَّة أرقى، لا منصباً كنسياً، على الرغم من أنه، حين مُورِسَ عليه ضغط أشد (ربما بعد مزيد من التعذيب)، تراجع عن مزاعمه السابقة، واعترف أنْ لو اتفق وجرى انتخابه، ما كان ليرفض منصب البابويَّة.

ومن المُرجَّح أن «السير شيكوني» كان ملتزماً بقائمة من الأسئلة التي أعدَّت مسبقاً من طرف مجلس السينيوريا والحاضرين من الهيئة القضائية، وانه كان يتَّبع، بكل بساطة، التسلسل الموجود، دون أن تكون في ذهنه إستراتيجيَّة عدوانية حقيقيَّة، ما عدا حرصه على اكتشاف أدلة تؤكد خيانة سافونارولا. وهي وإن كانت طريقة غير بارعة، فإنها كانت قادرة على إثارة المفاجآت الكفيلة باصطياد المتهم المنهك والمحطَّم على حين غرّة. ومن ذلك، كيف تلقَّى سافونارولا المعلومات من مخبريه المتميزين عما كان يجري في المدينة وخارجها؟ وهل طلب من رهبانه أن يفشوا سر كرسي الاعتراف،

فيبلغوه بالمعلومات المهمة والخاصّة التي استقوها؟ ولقد نفى سافونارولا عن نفسه هذه التهم.

وكان السير شيكوني يفوق سافونارولا دهاء من حين إلى آخر، وحينما سأله السير شيكوني إن وقف موقف المؤيِّد للممارسة التي تُدعى «محنة النار»، فإنَّه أنكر ذلك. لكنه اعترف، لاحقاً، أنه أجازها، ومضى في ذلك قائلاً: «من أجل سمعته»[7]. ونقع هنا، ربما، على اعتراف حقيقي. فقد جرى التلاعب بسافونارولا وجرِّه إلى وضع شعر فيه أنه ملزم بقبول تحدي جماعة الرهبان الفرانسيسكان، وقد يبرز هذا بوصفه السياق الموثوق الوحيد في تقرير السير شيكوني، وذلك حين زعم سافونارولا أنّه تصرَّف من أجل سمعته. أما المزاعم الأخرى، على غرار: «كنت أنوي أن أحكم»، و«كانت غايتي... الحصول على المجد الدنيوي»، و«لإعلاء اسمي ومكاثرة أسهمي... كبريائي... نفاقي وما إلى ذلك «[8]، فيتضحُ أنها صيغ متكرِّرة على نحو غدت معه لازمة مُطّردة، وقد أُدرجت، بصورة لا تخطئها العين، من جانب السير شيكوني أو آخرين غيره، إذ لم تكن هذه هي اللغة التي استخدمها سافونارولا. كما أن تكرارها الذي يعقب أجوبة سافونارولا العديدة، وما تنضح به من مشاعر لا تتواءم مع شخصيّة سافونارولا هو أمرٌ لا يُصدَّق ببساطة.

وحلَّ الثامن عشر من إبريل، أخيراً، بعد أن مضى أسبوع من الاستجواب (أو العمليات Processi، أي المحاكمات كما كانت توصف رسمياً) فاختلى السير شيكوني بنفسه «وعمل على صياغة وإعادة ترتيب»[9] النسخة الأوَّلية التي لديه.

وحين قُرئت، في وقت لاحق من ذلك اليوم، أمام سافونارولا، فإنه

اعترض على ما احتوته من تحريفات، متوعداً السير شيكوني: «إذا قمت بنشر هذا الكلام، فأنت لا بُد ميت في غضون ستة شهور»[1][10]. وأُمِر سافونارولا، في وقت مبكر من اليوم التالي، بوضع اسمه على الوثيقة، فرفض بادئ الأمر، لكنه وقَّع حين هُدِّد بمزيد من التعذيب بالسترابادو، وغيرها من «وسائل التحفيز».

وقد سجَّل لاندوتشي، في وقت لاحق من اليوم نفسه، يقول:

«جرت قراءة المسودة، المكتوبة بخط يد الرَّاهب جيرولامو، علانية أمام المجلس في القاعة الكبرى»، وعلى الرغم من الإعلان عن الشهادة على هذا النحو، فمن غير الممكن أن تكون بخط يد سافوناورلا ذاته، ولا يتسنى التثبت إلا من توقيعه. إذ تقع النسخة المطبوعة الواردة في سيرة فالوري، وهي الوثيقة التي تحمل رقم 26، فيما يزيد عن سبع وعشرين صفحة متراصة الحروف. أما «المسودة» فلا بُدّ أن تكون مُلخصاً أقصر من ذلك، فمن المؤكّد أن تكون قدرة سافوناورلا على الكتابة، قد ضعفت كثيراً، إلى درجة أنه لو كان هو من كتب الاعتراف بنفسه، لاقتضاه ذلك مقداراً لا يأتي عليه عدٌّ من الوقت والجهد، وذلك بسبب ما قاساه من «السترابادو». ولا بُدُّ أن يكون مجلس السينيوريا في عجلة من الأمر لا تسمح بمثل هذا الإجراء المستهلك للوقت، في ضوء مطالبة البابا بتسليم سافوناورلا إلى روما، فضلاً عما رزحت تحته فلورنسا من فوضى.

(1) هذه النبوءة المرجوحة، التي من شبه المؤكد أنها تقع ضمن الفئة السيكولوجيّة ذاتها للنبوءة المتعلقة بشارل الثامن، ستتحقق أيضاً. غير أن المصدر الوحيد لهذه هو بورلاماكي؛ المؤيّد شديد الحماس لسافوناورلا.

ومن الضروري تأكيد هذه النقاط بسبب الافتقار الكامل للأدلَّة الملموسة، لبناء صورة متكاملة عن الحالة، انطلاقاً مما يظلُّ، بالضرورة، مجرد تكهنات فيما خصَّ الوثيقة الأصليَّة. وقد كان سافونارولا يجاهد للحفاظ على حياته، في الوقت الذي تخلت فيه سلطات الجمهوريَّة الجديدة، فيما بينها، عن مزاعم العدالة التي نهضت دعوى استعادتها سبباً للإطاحة بأسرة ميديتشي.

ومضى لاندوتشي في تسجيله للآثار الكارثيَّة التي تركتها الصيغة الأوليَّة لشهادة سافونارولا عليه، يقول: «لقد اعترف، الآن، الرجل الذي رأيناه نبياً حقيقياً، أنه لم يكن نبياً على الإطلاق، وأنه لم يتلق من الرب الأشياء التي كان يعظ بها. كما اعترف أن كثيراً من الأمور التي حدثت خلال السنوات التي مارس فيها الوعظ لم تقع بسبب تنبُّوه بها. لقد كنت حاضراً عندما تمت قراءة المحاضر، ولشدَّ ما كانت دهشتي مما سمعت، بل إن المفاجأة ألجمتني وعقدت لساني، ومما أشجى قلبي وأحزنه أني شهدت تداعي مثل هذا الأنموذج الرائع، لأنه قام على الكذب. لقد عاشت فلورنسا على أمل قيام قدس جديدة، حيث القوانين عادلة والمدينة تنهض مثالاً رائعاً لحياة الصلاح والتقوى، مما سيجعلها عجيبة من عجائب الأرض. وستؤدي دور القائد في إصلاح الكنيسة، وهداية الكافرين، وتكون سلوى الصالحين»[11].

لم يكن لاندوتشي الوحيد من بين أنصار جماعة «البيانوني» الذي آمن بنبوة سافونارولا. ومن المؤكَّد أنه لم يكن الوحيد، الذي خالجه ذلك الشعور المُدمِّر حين قُرئت مسودة الاعتراف على رؤوس الأشهاد. فلقد تداعى حلم جماعة «البيانوني» بالقدس الجديدة، حيث تسود العدالة الاجتماعيَّة، وهكذا، فلن تكون فلورنسا «مدينة الرب» في نهاية المطاف.

مهما يكن من أمر، فما لبث أن انتهى مجلس السينيوريا إلى خلاصة مفادها أن اعتراف سافونارولا، حتى في حالته الفاسدة، والأسلوب المتبع في انتزاعه، كان، ببساطة، غير كاف، إذ لا ينطوي كل ذلك على فعل خياني، فهو لم يعترف بأي جريمة كبرى. ولن يتوانى ألكسندر السادس، إذّاك، عن الإصرار، مرّة ثانية، على إرسال سافونارولا إلى روما، مما استوجب إخضاع الأخير إلى «محاكمة» ثانية. وقد بوشرت هذه، تحت الظروف السرّيّة السابقة ذاتها، وبعد يومين، فقط، من القراءة العلنية العامّة لمسودة المحاكمة الأولى.

وكان المحقق الرئيس، ومدوّن الوقائع والأدلّة هو «السير شيكوني» نفسه، لكنها خلت هذه المرّة، وفقاً للتقرير المطبوع، «من التعذيب أو أي أذى جسدي»[12]، ويتناقض هذا مع ما تناهى إلى لاندوتشي من إشاعات، وذلك حين سجّل بعد يومين، فقط، من بدء المحاكمة الثانية، قائلاً: «لقد تعرّض الأخ الراهب للتعذيب». كما لاحظ اعتقال عددٍ كبيرٍ من أنصار جماعة البيانوني البارزين، في اليوم نفسه، وعلى رأسهم الغونفالونير؛ دومينيكو مازينغي.

واقتربت المحاكمة، في اليوم التالي، الموافق للرابع والعشرين من إبريل من مرحلتها الأخيرة، وطُلب من سافونارولا التوقيع على «اعترافاته»[13]، ويبدو انه كتب، على الأقل، جزءاً من الوثيقة بيده هذه المرّة. ومع ذلك، فثمة عدد من الأسطر أضافها السير شيكوني، وقد علمنا بذلك لأن سافونارولا كتب، أو أجبر على كتابة، أن «ثمة ملاحظات في الهوامش دوّنها السير شيكوني»[14]، مما أعطى الأخير صكاً مفتوحاً ليضيف، في وقت لاحق، ما يشاء (هو أو أي من أعضاء مجلس السينيوريا، فضلاً عمّن حضر المحكمة). ومن الممكن التدليل على مثل ذلك الإقحام اللاحق، فيما نسب من اعتراف

إلى سافونارولا، قيامه، بما هو رئيس دير سان ماركو، بتقديس الخبز والخمر كل يوم لغايات إقامة القدّاس، وتقديم المناولة المقدسة[15]، على الرغم من أنه لم يذهب للاعتراف قط، ويكشف عن أسباب ذلك، قائلاً:

«إن ما منعني من الذهاب إلى الاعتراف هو عدم رغبتي في إفشاء نواياي الخفيّة، والبوح بها لأي كان. وعجزي، كذلك، عن التحلل من هذه الآثام بسبب انعدام رغبتي في التخلي عن مبتغاي ونواياي. لكني لم ألق بالاً لذلك بناءً على الغاية النبيلة والكبرى التي أضمرتها في نفسي. وحين يفقد المرء إيمانه وروحه، فبمقدوره، آنئذ، أن يفعل ما يشاء ويسعى وراء الأشياء الكبيرة. وهكذا، فإني أعترف، اعترافاً صريحاً، باجتراحي الكبائر والآثام، وأنا أريد أن أقوم بهذا الاعتراف على أكمل وجه، لهذا فإني مستعد للقيام بأي فعل، مهما عظم، تكفيراً عما كسبته يداي»[16].

ومن العسير التسليم أن سافونارولا فقد إيمانه في أثناء سعيه وراء «الغاية الكبرى» التي أضمرها في نفسه، ولاسيما حين تتمثل تلك الغاية في جعل فلورنسا «مدينة الرّب». إذ من غير الممكن لأستاذ مَهَرَ في المنطق، وناظر فيلسوفاً ذا كعب عالية، مثل بيكو ديلا ميراندولا، أن يناقض نفسه على هذه الصورة الصارخة، على الرغم مما سلكه السير شيكوني من طرق خرقاء وفجّة في انتزاع الاعترافات. ومن المستغرب، في واقع الأمر، أن يسمح مجلس السينيوريا، ومن حضر من أكابر القوم، ممن كان بينهم أصحاب عقول راجحة، باعتماد مثل هذا الهراء. ومن المفترض كذلك أنهم لم يكونوا، في هذه المرحلة، آبهين بسفاسف الأمور، وإنما كانوا يتعجلون الوصول إلى «الغايات الكبرى» التي اعتملت في دواخلهم.

وقد حوت أجزاء من الوثيقة المطبوعة الخاصة بمحكمة سافوناررولا الثانية، بالفعل، طيفاً بعينه من الحقيقة، إذ تكوَّنت لدى سافوناررولا، بفعل ما خبره عبر السنين، حنكة سياسيَّة كبيرة. وتتوفر النسخة المطبوعة من محاكمته الثانية، فيما يبدو، على ما يؤكد ذلك. فقد أشار فيها إلى أنه أدرك، إدراكاً جيداً، الطريقة الوحيدة لنجاح الديمقراطيَّة في جمهوريَّة فلورنسا، نقرأ:

«تمثَّل مقصدي، كما قلت سابقاً في إجاباتي عن أسئلة أُخرى، أن من المتعين تولِّي المواطنين، ممن توسَّمت فيهم الصلاح، مواقع السلطة جميعها. أو أن يحكموا، على أقل تقدير، بأغلبية أربعة إلى ثلاثة، أما الآخرون المعروفون بـ (جماعة الأرابياتي)، الذين لم أدعهم بهذا الاسم حفاظاً على كرامتي وشرفي، فإن من المتوجب استبعادهم عن الحكومة قدر المستطاع»[17].

وتبدو الأمور منسجمة، حتى هذه النقطة، مع ما أرادته المحاكمة من اعتراف، لكنه كان يعرف أنَّ النجاح لن يكتب لأي ديمقراطيَّة، ولاسيما في الظروف التي سادت فلورنسا في تلك الأيام، ما لم توجد معارضة من نوع ما، فحتى أنصاره لم يكونوا فوق الشبهات السياسيَّة. وجاء بهذا الصدد قوله:

«لم أكن أنوي إقصاء [المعارضة كلها] وإخراجها من اللعبة، لأني كنت أومن كثيراً، بإيجاد عقبات أمام قادة جماعتنا. فقد خامرتني الشكوك أن من الممكن أن يصبح هؤلاء القادة من المواطنين، في نهاية الأمر، مهيمنين جداً، فيتحصَّلوا، إذَّاك، على سلطة طاغية، مما يمكنهم من إقامة شكل ضيق من أشكال الحكم الخاص بهم، ويحيلوا المجلس الأكبر إلى حطام وخراب».

وهكذا، فقد أخذ تصوُّر سافونارولا لعمل المجلس الأكبر في الحسبان جوانب الضعف البشري. وإذا عُدَّت مثل هذه الفقرات ضعيفة الإسناد، فمن الصعب، عندها رؤية الأسباب التي دفعت بالسير شيكوني أو مجلس السينيوريا لاختلاقها. ولا بُدَّ أن نذكر، من جديد، أن مثل هذه الأفكار لا تشكل جريمة كبرى.

وقد تعرَّض حلفاء سافونارولا المقرَّبون، في الوقت نفسه، للتحقيق، فهذا الراهب دومينيكو دا بيشا؛ المخلص والمتحمِّس الذي بلغ إيمانه بأستاذه حدًّا جعله على استعداد لإجراء اختبار محنة النار، قد عانى الأمرين على يد السلطات. وسعى مستجوبوه إلى إقناعه أن سافونارولا اعترف بكل ما قارف من ذنوب وآثام، ابتداء من كونه متنبئاً زائفاً حتى الهرطقة والكفر. غير أن الراهب دومينيكو ما فتئ يصرُّ على القول: «بيقيني العقلي، لم أتوقف يوماً عن الايمان، بنبوءات سافونارولا. ولم أزل أومن بها، إيماناً راسخاً، بغياب أي دليل ينقضها»[18]، ولم يكتف المستجوبون بإخضاع الراهب دومينيكو للسترابادو، وإنما اخضعوه لأهوال آلة الستانغيتا[1]. وقد أخبرهم الأخير، بعد أن أنزلوا به صنوف العذاب، قائلاً:

«لقد سعيت إلى ان اكون دقيقاً فيما قلته لكم، مثلما ساكون حين تحين ساعتي. وقد أموت، فعلاً إذا أنزلتم بي مزيداً من العذاب،

(1) المعروفة أكثر باسم الجزمة الإسبانيّة أو الجزمة الحديديّة، وهي آلة تعذيب واسعة الانتشار في أوروبا القروسطيّة. وتكون، عادة، من صفائح حديديّة تُشدُّ لتغلّف القدم بطريقة تُمكن من دق الأسافين الحديديّة فيما بين الأغلفة، كي تنفذ إلى اللحم. ومن الممكن أن تكون الجزمة، أحياناً، من قالبين مزودين بشوكات حديديّة داخليّة تمكن من شدّها لتغدو أكثر ضيقاً وإحكاماً، أو من الممكن أن تكون أكبر ومغلقة بإحكام بحيث يمكن صب الماء فوق القدم داخل القالب، كي توضع بعد ذلك فوق النار، وتصل تدريجياً إلى درجة الغليان.

لأني محطَّم تماماً، وقد كُسرت ذراعاي وتهشمتا، ولاسيما ذراعي اليسرى، التي قام جلادكم بخلعها للمرة الثانية».

ولكنهم مضوا في تعذيبه، ومضى هو في عناده، دون أن يستطيع دفع نفسه إلى الكذب، مصرّحاً: «لطالما رأيت فيه رجلاً مستقيماً ومتفرّداً»[19]. ويشخص هنا السؤال ذاته، الذي كنا قد سألناه حول المصادر المتعلقة بمحاكمات سافونارولا. وكما فعل فالوري بالوثيقة التي تحمل رقم عشرين من قبل، فإنه عمد إلى إدخال النسختين «الأصليَّين» المختلفتين من المخطوط الذي وصل إلينا، وألحقهما في آخر السيرة التي كتبها، وجرت طباعة النسختين فجعلت الواحدة بإزاء الأخرى بقصد المقارنة. وانتهى فالوري إلى القول بصحة النسخة الموضوعة إلى الشمال، موضّحاً أنها هي: «الوثيقة الحقيقة المكتوبة بخط يده، أما الثانية فزائفة»[20]. وإذا أخذنا بالاعتبار زعم الراهب دومينيكو أن «ذراعيه قد كسرتا وتهشمتا»، عاد من الصعب الاعتقاد بأنه هو من كتب هذه الوثيقة «الحقيقيَّة»، ومن المرَّجح أنه أملاها على أحدهم، وألحق بها توقيعاً ما بعد أن قرأها بإمعان. ويقدِّم فالوري نفسه دفاعاً بليغاً عما انتهى إليه من خلاصات، فيقول:

«حين قرأت السلطات اعتراف الراهب دومينيكو، وجدت أن من اللازم إحداث بعض التغييرات لطمس ما احتوته من نبرة بطوليَّة كانت ظاهرة في كل كلمة... وحين وضعت كلتا النسختين من هذه الاعترافات، فإني ألفيت، وهو أمر اكتشفته بنفسي، أن النسخة التي حُوِّرت على يد مجلس السينيوريا كانت مصوغة على نحو أفضل، وخالية من الأخطاء النحويَّة، فضلاً عن كونها أحكمُ أسلوباً من رواية الاعتراف الحقيقي الموثوق. إذ تشيرُ الأخيرة إلى أسلوب

بلاغي صادق وطبيعي لا يصدر عن صنعة فنية. وإنما هو تعبير عفوي لروح متفتّحة. وليس من الممكن قراءة حيثيات هذا التحقيق، دون أن يستثير ذلك في النفس لواعج الألم، فهي تنقلنا إلى غرفة التعذيب ذاتها، لنشهد خلع الأطراف من غير رأفة أو رحمة، ونسمع طقطقة العظام وهي تصطك وتتشابك، مستشعرين ومدركين الصوت المنهك الضعيف؛ ذلك الصوت المتسامح شديد النقاء، الصادر عن الراهب ذي الشخصيّة البطوليّة، الذي يستقبل الموت بابتسامة الشهيد الملائكيّة»[21].

وقد تبدو مثل تلك المشاعر مشتطة ومبالغاً فيها بمقاييس عصرنا العلماني، ولكن من المؤكد أن شيئاً مشابهاً لذلك قد حدث فعلاً. إذ أثبت إيمان الراهب دومينيكو أنه عصي على الفتنة والانكسار. وقد انتصر، بصورة معجزة، على جلّاديه، ودام ذكره بعد أفول نجمهم.

أما ثالث هؤلاء الرهبان الذين تقبّضوا عليهم في سان ماركو؛ فهو سيلفسترو ماروفي؛ الراهب العليل المنصرف عن الدنيا إلى شؤون الآخرة، الذي ألهمت رؤاه سافونارولا كثيراً. وقد كان سيلفسترو على النقيض من سابقه، وأثبت أنه مثال على الضعف البشري. وإذ أخفق في الاختباء في سان ماركو، غدا حينئذ في مواجهة المُحققين مملوءاً بالرعب والذُّعر. وكان السير شيكوني هناك، من جديد، ليباشر عملية التحقيق، وما هي غير لحظات حتى أنكر سيلفسترو سيّده: سافونارولا، وأنكر معه ما صدر عن الأخير من مزاعم، قبل أن يقدّم قائمة كاملة بأسماء المواطنين ممن اعتادوا زيارة سافونارولا في دير سان ماركو. ومع ذلك، فقد عجز عن تقديم أي دليل حين سُئل عن تدخُّل سافونارولا بشؤون الدولة، كما ناقض، على نحو

أخرق، «الاعتراف» الذي قدَّمه سافوناورلا في الوثيقة القانونيَّة، التي وقع عليها الأخير بقوله: «إنه لم يذهب إلى الاعتراف قط»، وذلك حين أوضح سيلفسترو كيف:

«حدث في عشرين أو خمس وعشرين مناسبة، حين كان سافونارولا على وشك إلقاء عظة من عظاته، أنه كان يقصد صومعتي ويخبرني: أني قد ارتج علي فما أعرف ما أعظ به، فادع الرب لي، لأني أخشى أن يكون قد تخلّى عني لعظم ذنوبي. ثم يقول إنه راغب في التحرر من ذنوبه، ويقوم بالاعتراف لي. ثم ما يلبث أن يغادرني ويلقي عظة حسنة. وقد فعل ذلك، آخر مرَّة، حين ألقى عظة في سان ماركو يوم السبت السابق على الأحد الأخير من الصوم الكبير. وفي الختام أقول: إنَّه خدعنا جميعاً»[22].

ولا بُدَّ أن نذكر، من جديد، أن التغير المفاجئ بالأسلوب والنبرة يوحي بأن الجملة الأخيرة أقحمت من جانب «السير شيكوني»، ومع ذلك، فإن اعتراف الراهب سيلفسترو لم يكن كافياً، على ما كان فيه من خسَّة ودناءة، لإدانة سافونارولا بعقوبة الإعدام.

وأثبت الآخرون من رهبان سان ماركو أنهم على مثال الراهب سيلفسترو ضعفاً وهواناً. وقد صدر بحق هؤلاء حرمان من البابا ألكسندر السادس، لما أظهروه من مقاومة عنيفة في أثناء حصار سان ماركو، فسعوا إلى التكفير عن أخطائهم وإلغاء ذلك الحكم، حين بعثوا، في 21 من إبريل، برسالة جماعية إلى البابا وقَّع عليها جل الرهبان في الدير. ونالت هذه الرسالة سمعة رديئة بما هي إذعان ذليل للبابا، فضلاً عن كونها خيانة صاغرة لرئيسهم المحبوب. وفي واقع الأمر، فهي كلا الأمرين معاً.

ولكن، من الممكن قراءة هذه الوثيقة على أنها رسالة موجهة إلى البابا، بوصفه رئيساً للكنيسة وشاغلاً لموقع القديس بطرس، لا بصفته الشخصيّة بوصفه ألكسندر السادس، الذي قرّعه سافونارولا وازدجره. وإذا كان الفرق بين الاثنين دقيقاً ولا يكاد يُرى، فإنه حقيقي في هذه الحالة، فهم لم يذلوا أنفسهم أمام المسخ الفاسد الذي كان يجلس على عرش القدّيس بطرس، وإنما أمام ظل الرب على الأرض، ويتضح هذا التمييز، ويغدو ذا دلالة حين تصف الرسالة شعور الرهبان إزاء سافونارولا:

«لم نكن وحيدين في ذلك، وإنما أُخذ رجال أكثر منا حكمة بحجج الراهب جيرولامو سافونارولا ومكره، ممثلة في قوة عظاته وتفرُّدها، وما مثله من قدوة، فضلاً عن سلوكه الورع والقدسي، وإخلاصه، أو ما بدا لنا أنه إخلاص، مما كان له أثر في تطهير المدينة من الفسق والفجور، والربا، وكل ضروب الإثم والشرور. وينضاف إلى ذلك الأحداث التي بدت وكأنها تصدّق نبوءاته بطريقة تتجاوز أي قوة أو خيال بشري. وكانت هذه النبوءات متعددة ذات طبيعة أخّاذة إلى درجة أنه لولا تراجعه عن مزاعمه، واعترافه بأن كلماته لم تكن من وحي الرب، لما كنا قادرين على الارتداد عن إيماننا به، فقد بلغ الأخير مبلغاً كنا مستعدين معه للتخويض في النار دعماً لمعتقداته وتعاليمه»[23].

ومن الممكن أن يبدو هذا الاعتراف الجلي تلخيصاً بليغاً ووافياً لـ«ظاهرة» سافونارولا بمجملها، فضلاً عن تأثيرها في أولئك الذين أحاطوا به، ومن المؤكد أنه يتوافق مع الطريقة التي ينظر بها العديد من الكُتاب المحدثين إلى ما جرى في فلورنسا إبّان تلك السنين. فقد كان ذلك وهماً

جماعياً شاركهم فيه، على نحو شبه يقيني، سافوناورلا ذاته. إذ كان هؤلاء الرهبان سريعي التأثر، وكان جلهم من ذوي التعليم العالي، ويتحدرون من أسر مرموقة، وقد راعهم تبنّي العديد من مفكري المدينة ومثقفيها للفلسفة الإنسانويّة، كما راعهم ما شاهدوه من تحلل أخلاقي صاحب انبعاث القيم الكلاسيكيّة. وما لبث هؤلاء بفعل كل ما تقدم من أسباب، أن وقعوا تحت الهالة السحريّة التي اجتمعت في شخص «الراهب الضئيل»، ذي المناقبيّة العالية. وقد انماز تأثيره بما انطوى عليه من تطرُّف فكري وقوة إلهام معاً، في حين تضمنت طريقته في التنبؤ الديني مزيجاً جامحاً من الأصولية والانفعال العاطفي، الذي تاخم حدود الهيستيريا الرعناء.

وقد آمن الشباب الحائرون من رهبان سان ماركو بسافوناورلا، في خضم عالم يمور بالتغيرات الكبيرة والعميقة، مما جعلهم متشوقين لليقينيّات، التي بشرت بها عظات سافوناورلا؛ تلكم كانت الحقيقة الصادقة، التي لا تحقق لها إلا بتحفيز أهل فلورنسا، ودفعهم إلى تبني حياة الطهر والفضيلة اللازمة، كي تنهض فلورنسا بوصفها «مدينة الرب». وتبرز الرسالة التي حبرّها رهبان سان ماركو بوصفها الدليل الأدق والأوضح، من بين تلك الأدلة التي نمتلكها حول الإيمان الذي غرسه سافوناورلا في قلوب من آمن به من الأتباع الذين جاؤوا من غير طبقة. ومن الممكن أن يكون هذا قد أثّر، بصورة ما، في لورينزو العظيم نفسه، فهو من دعا سافوناورلا للعودة إلى فلورنسا، وهو من استدعاه حين كان يغالب سكرات الموت. وقد اعتنقت أفكاره ومعتقده قطاعات متنوعة ومتعددة من المجتمع الفلورنسي، بدءاً من بيكو ديلا ميراندولا، مروراً برهبان سان ماركو، ووصولاً إلى أنصاره من جماعة البيانوني الفقراء. وقد كان لهذا المعتقد الأثر في إلهام الراهب

دومينيكو، وهو يغالب ويلات التعذيب، التي اقتادته إلى شفير الشهادة.

قررت جماعة الأرابياتي المناهضة لسافونارولا أن تتولى الأمور بنفسها، فقد عرفت أن العديد ممن ينتمون إلى جماعة البيانوني، المؤيدة لسافونارولا، أكثر عناداً من لاندوتشي، وأنهم لم يقتنعوا بصحة ما جاء في الإعلان العام لاعترافات سافونارولا. وسيجد هؤلاء رمزاً يلتفون حوله مادام سافونارولا حياً يرزق. ولا بُدّ، والحالة هذه، أن يجري العمل على تشويه صورته المثاليّة التي استقرت في وعي الناس، وكان من الواضح أن الأدلة الزائفة لم تُجد نفعاً، وبات من اللازم، حينها، البحث عن دليل مقنع وحقيقي. فبادرت جماعة الأرابياتي، في السابع والعشرين من إبريل، في حملة اعتقالات لمن عُرف عنه التعاطف مع جماعة البيانوني، أو حتى اشتبه في تعاطفه معها. وكان مقصدهم من وراء ذلك مزدوجاً، فقد ارادوا، أولاً، تحصيل اي دليل جرمي على وجود مؤامرة؛ مما سيضمن الحكم بالإعدام على سافونارولا بتهمة الخيانة العظمى. كما أرادوا، ثانياً، إطلاق نمط من الحكم الإرهابي الصاعق، الذي من شأنه أن يقضي، إلى الأبد، على جماعة البيانوني. وقد سجّل لاندوتشي أحداث ذلك اليوم قائلاً: «جرى جلد كل المواطنين الذين اعتقلوا بهذه الجريرة، وهكذا فقد انبعثت صرخات الألم والذعر من سجن بارغيلّو بدءاً من الحادية عشرة صباحاً حتى المساء»[24]. ولكن، على الرغم من كل صيحات الذعر والاعترافات المهينة هذه، فإنها لم تنطو على دليل دامغ يدين سافونارولا، «فأعيد المواطنون جميعهم إلى بيوتهم، في الفاتح من مايو، ولم يبق سوى الرهبان المساكين الثلاثة».

وقد تملّك اليأس جماعة الأرابياتي في تلك المرحلة، وقام الغونفالونيير الجديد ومجلس السينيوريا الذي تكون بأكمله من الأرابياتي، بدعوة المجلس

المُصغّر لاتخاذ قرار فيما يتوجب عمله. وبقي ألكسندر السادس، حتى ذلك الحين، يلحُّ في طلب الرهبان الثلاثة، ووجوب نقلهم إلى روما ليحاكموا في محاكم الكنيسة، كما اقتضى العرف. وتمخّض اجتماع أعضاء المجلس المصغر عن اقتراح مؤدّاه أن الطريقة الوحيدة –مرة أخرى– للحؤول دون ذلك، هي أن تعاد محاكمة الرهبان، مرّة أخرى، في فلورنسا، متأمّلين أن يتحّصلوا، هذه المرّة، على دليل جرمي حقيقي ينتزعونه من أحد هؤلاء الرهبان على أقل تقدير. وانبرى بوبوليسكي، مستجمعاً كل ما لديه من سلطة بوصفه رئيساً سابقاً لمجلس السينيوريا، ليحتجَّ على ذلك بقوله: «سواء تعلّق الأمر بالطريقة التي أُجريت بها التحقيقات السابقة، أو تعلّق بنشدان السلام والنظام العام في المدينة، فإننا إذا مضينا في التحقيق معهم على النحو ذاته، فلن يستجلب ذلك إلا الفضيحة. ذلك ما جرى العلم به من الممثلين الدبلوماسيين للولايات الإيطاليّة جميعها»[25].

ربما أُجريت «التحقيقات» سراً في سجن بارغيلّو، غير أن الطريقة التي أُجريت بها قد طبقت الآفاق وعمّت أرجاء إيطاليا، مما أثار نفوراً شعبياً واسع الأمداء. إذ كان قيام جمهوريّة متحضرة مثل فلورنسا بالتصرف على هذا النحو مع رجال يتزيّون بأردية دينيّة، بمثابة عار يصمُ إيطاليا كلها، فضلاً عن أن السفير الفرنسي جيوفاني غواسكوني، المعروف بأنه صديق حميم للملك لويس الثاني عشر، أوضح، بصريح العبارة، أنه متعاطف مع سافونارولا وجماعة البيانوني. وهكذا، فقد كان الدعم الذي تستقيه فلورنسا من حليفتها الفرنسيّة على المحك.

وقرر المجلس المصغر، في آخر الأمر، إيفاد بعثة إلى سفير فلورنسا في روما، وهو بونسي، الذي أعطيت له تعليمات لإخبار ألكسندر السادس

أن مجلس السينيوريا يرغب في جعل سافونارولا ورفيقيه عبرة للمعتبرين في فلورنسا، إذ سيشهد إعدامه البقيَّة الباقية من أنصاره، مما سوف يجعلهم يدركون، مرَّة وإلى الأبد، أن قضيتهم باتت عقيمة ولا طائل منها. أما إذا أصرَّ ألكسندر السادس على مزيد من التحقيق مع الرهبان بشأن الأمور الدينيَّة، فإننا نرحب بإرسال لجنة بابويَّة إلى فلورنسا تضطلع بهذا الأمر.

(24)
الحُكم

وافق ألكسندر السادس على اقتراح مجلس السينيوريا، الذي تملكته الدهشة من ذلك. وقد كان البابا، في واقع الأمر، راغباً في طي صفحة سافونارولا بأسرع ما يكون، فلن يقضي ذلك على أحد مصادر التحدّي السافر والخطير لسلطته فحسب، وإنما سيضع حداً لدعوة سافونارولا أن يُعقد مجلس كنسي يهدف إلى الإطاحة به عن عرش البابويّة. وكان من شأن إنفاذ حكم الإعدام بسافونارولا في فلورنسا أن يُدخِل فلورنسا في اضطرابات شعبيّة عامّة، مما يوفّر فرصة مثاليّة، ربما، لفرض حكم أسرة ميديتشي من جديد. وهكذا، تعود المدينة، بضربة واحدة، إلى ما عهدته من استقرار، وتُحكم من جانب حليف متمثل بـ «بيرو ميديتشي»، الذي سيكون من الشاكرين.

واختار ألكسندر السادس لجنته البابويّة، المكونة من شخصين، بعناية بالغة. إذ وقع اختياره على عالم اللاهوت المُسن جيوفاكينو تورّياني، وهو النائب الأسقفي العام لرهبنة الدومينيكان، الذي سيضفي على اللجنة شرفاً وهيبة لا جدال فيهما، على الرغم من أن الأخير كان قد أيّد، عام 1493؛ أي قبل خمس سنوات فقط، رغبة سافونارولا بتشكيل مجمع توسكاني منفصل، غير أن ما جرى من أحداث أخيرة أقلقه كثيراً وأمضّه. أما الشخصية البارزة

التي مثّلت خيار البابا الثاني، فهو بلا شك ربيبه وصنيعته ذو الستة والثلاثين عاماً، واسمه فرانشيسكو ريمولينو[1]. وكان هذا الأخير رجلاً طموحاً ومؤثِّراً، وقد أثبتت خبرته القانونيّة، بما هو قاضي روما، جدارته العظيمة لدى البابا في القضاء على العديد من أعداء الأخير. وقد جرت في عروق الأخير، كما في عروق البابا، دماء إسبانيّة، وأصبح صديقاً حميماً لابن البابا ذي السمعة الرديئة؛ تشيزاري بورغيا. وكان ولاء الأول قد أراه ما اكتسب من المكافآت، التي لم تقل عن أربع إبرشيات. وكان سافونارولا، في تلك الأثناء، يضنى في السجن ويهزل. وقد نمت الكثير من الأساطير حول هذه الفترة، وهي تظهر بصورٍ مختلفة في السير والتراجم المعاصرة التي تأخذ، في هذه المرحلة، منحى سير القديسين. ومع ذلك، تنطوي حقائق بأعيانها على وثوقيّة راجحة. فقد كانت زنزانة سافونارولا خالية من أي قطعة أثاث، وكان مجبراً على النوم على الأرضيّة الحجريّة، وكانت [الزنزانة] معتمة نهاراً ومظلمة ليلاً. كما منعت عنه الزيارة، وكان سجّانه ذو السمعة الرديئة، نصيراً لجماعة الأرابياتي المعادية لسافونارولا، وقد عامله بدافع من هذه الخصومة. غير أن معاشرته الوثيقة «للراهب الصغير» وما لاحظه عليه من تجلد وتصبّر القدّيسين، أقنع، على ما يقال، هذا الشخص الفظ بقضية سافونارولا. وقد قيل إن سافونارولا كتب له، في المقابل، كُرّاساً بعنوان: «قاعدة سلوكيّة لتمثّل الحياة الصالحة». ويبدو ذلك مستبعداً في ضوء ما كان يعانيه سافونارولا من حالة جسديّة ونفسيّة مزرية. ومع ذلك، سيصار إلى نشر هذا الكرّاس في وقت لاحق من تلك السنة، كما تتحدث

(1) يُشار إليه، أحياناً، باسم Remolines أو Remolins. أما في فلورنسا، فإنه غالباً ما كان يدعى Romolino، لأنه أرسل من روما ربما.

تراجم القديسين عن كتابة سافوناررولا قصاصات وعظيّة أعطاها لسجانه، كي يدفع بها إلى ابنته، حتى إن بعض المصادر تتحدث عن إبراء سافوناررولا لسجانه من مرض الزهري عن طريق معجزة.

غير أن ثمّة كرّاساً أعمق تتوزعه كثرة من الإشارات الدّالة على أنّ سافوناررولا كتبه بنفسه، وليس هناك دليل على انه كتب في أي وقت آخر من حياته. ومن المرّجح أنه أملاه على أحد رهبانه المخلصين، الذين سُمح لهم بزيارته، نظراً إلى وضعه الجسدي. وكان بعنوان: «تفسير وتأمل في مزمور الرحمة»، ويبدأ كما يلي:

«بائس أنا، لقد هجرتني الخلائق، أنا الذي أسأت للسماء كما للأرض. أي أرض ستقلني؟ وإلى من ألتجئ؟ ومن سيحنو عليّ؟ فأنا لا أجرؤ على رفع عينيّ إلى السماء بسبب ما قارفت من الذنوب بحقها. اما الأرض فكيف لي أن أعثر على ملتجأ فيها، وقد خلّفتها في حالة مزرية... فإليك وحدك أرجع، يا أرحم الراحمين، ممتلئاً بالحزن والكآبة. فأنت وحدك أملي، وأنت وحدك معاذي»[1].

وأعقب سافوناررولا ذلك باقتباس السطور الافتتاحيّة الشهيرة من مزمور 51 «مزمور الرحمة»، التي تقول: «ارحمني، يا رب، بلطفك الحنّان»[2]، ثم ما لبث أن شبّه نفسه بأحب الحواريين إلى المسيح، وهو القديس بطرس، الذي كان المسيح قد أخبره في الليلة السابقة على صلبه: «الحقّ اقول لك: إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات»[3]. وقد حدث، لكن القديس بطرس لم ينكر المسيح إلا حين سألوه إن كان عرفه:

«غير أن هذه الأسئلة لم تزد عن كونها كلمات، فما كان في وسعه أن يفعل لو أتى اليهود وهدّدوا بضربه... إذن لأنكره كرّة أخرى لو انه رآهم

يلوحون بالسياط. وهكذا، إذا كان القديس بطرس الذي أسبغت عليه نعمك ظاهرة وباطنة، قد سقط في اختباره أيّما سقوط، فماذا كان عساي أنا أن أفعل يا رب؟ وما الذي أستطيع فعله؟»[4]

ويثبت هذا، فيما يبدو، أنَّ سافوناورلا انهار تحت وطأة التعذيب، وقدَّم بعض الاعترافات غير الصحيحة فيما خصَّ معتقده. فمن الممكن أن يكون قد أقرَّ بأنه توقَّف عن الذهاب إلى الاعتراف (ونعرف أن ذلك غير صحيح)، وربما ذهب بعيداً فأنكر، أيضاً، أن كلماته كانت تتنزل عليه من الرَّب (وإن اعتقد خلاف ذلك)، ولعلَّه أنكر ما رآه من رؤى (في حين يتفق وصفه لما شاهده من رؤى في كتابه «جامع الكشوفات» مع خُلاصات علم النفس الحديث). مهما يكن من أمر، مازال من الصعب التسليم بما جاء في وثيقة السير شيكوني من أن سافوناورلا اعترف: «أنَّ غايته كانت نيل المجد الدنيوي»، وأنه «خسر إيمانه وروحه». ومن الجدير بالنظر هنا وجود ذلك التمييز الدقيق فيما يبدو، فقد أنكر القديس بطرس معرفته بالمسيح، لكنه لم ينكر إيمانه، وقد يكون سافوناورلا قد أنكر أنَّه يعرف كلمات الرب، لكنه، مثل القديس بطرس، لم ينكر إيمانه فيما يبدو. ويتبدى ما عقد من تشابه دقيق هنا مقصوداً، ولا بد أن تكون مُشابهة جليَّة تماماً بالنسبة إلى عالم لاهوت استثنائي مثل سافوناورلا. ومن الممكن أن يكون قد أجبر، تحت وطأة التهديد والوعيد، على أن يوقع وثيقة ينكر فيها إيمانه، لكنه لم يفعل ذلك في واقع الأمر.

ومن الصعب التشكيك بوثوقيَّة كلمات الوثيقة الأخيرة المنسوبة لسافوناورلا، التي تُعرف الآن باسم «التفسير»، وستؤثر هذه الكلمات -على مدى السنين القادمة- في العديد ممن سيقرؤونها. وسيكون لهذا

الكُرّاس، في واقع الأمر «حظٌ عظيمٌ»[5]، فلن تمضي سنتان قبل أن يُنشر ما لا يقل عن أربع عشرة طبعة منه باللغة اللاتينيّة، والعاميّة الإيطاليّة، وحتى «العاميّة الألمانيّة». ونقع هنا على تعبير قُدسي تقريباً عن اليأس الروحي، إذ يتجلّى هذا الكرّاس وثيقة ذات عمق وعاطفة نادرين؛ مما أكسبه تقدير العلماء، ورجال الدين، وعامة أهل إيطاليا، وألمانيا، وغيرهما. كما ستثبت شعبية هذه الوثيقة أنها بؤرة خطرة، وذلك مع تنامي السخط وتصاعده من سلوك الكنيسة الفاسد، ورجال الدين التابعين لها، على غير مستوى[1].

وإذا تأملنا الشدّة والكآبة اللتين وسمتا العاطفة المعبَّر عنها في كرّاسة سافونارولا؛ التفسير، فلا بُدّ أن يكون الأخير قَدْ استشعر، في تلك المرحلة، أن موعد إعدامه قد قَرُب. وكان مدركاً أن من المرجّح وضعه على خازوق وحرقه، بما هو مهرطق، وما لبثت الأحداث أن أكّدت ذلك. وقد وصلت اللجنة البابويّة إلى فلورنسا في التاسع عشر من مايو عام 1498، وكان المزاج العام، في تلك الأثناء، قد وَضح تماماً. فحين عبر أعضاء اللجنة البابويّة شوارع المدينة على ظهور الجياد، كان النُظارة المصطفون على جانبي

(1) لا بُدّ أن تكون الطبعات اللاتينيّة قد وصلت إنجلترا قبل فترة طويلة من ظهور أي طبعة إنجليزيّة، إذ إن أول طبعة إنجليزيّة، صدرت في عام 1534، وكانت بعنوان:

«An exposicyon after the manner of a coteplacyo vpon. Lj. psalme called Miserere me De»[6].

وكان الطلب على هذا الكتاب كبيراً إلى حد أنه سرعان ما تلته ترجمات أخرى، مما يؤشّر على أنه حظي بشعبية كبيرة لدى نساء الطبقة العليا، ممن تعلمن القراءة، لكنهن لم يتعلمن اللاتينيّة. فضلاً عما حظيت به هذه الترجمات من شعبية لدى الرجال من ذوي التعليم المتدني، وظهرت هذه الترجمات على الرغم من انفصال إنجلترا عن كنيسة روما في عام 1531. وهو ما يعطي دلالة أُخرى، إن كان ثمة حاجة لذلك، على التقدير الذي حظي به هذا العمل من جانب المسيحيين كافةً.

الطريق يصرخون: «الموت للراهب»[7]، في حين كان ريمولينو يجيب: «سيموت فعلاً». وكانت جماعة الأرابياتي مبتهجه أيما ابتهاج من موقف الأسقف الشاب الطموح، الذي قدم من روما، فأرسلوا، عرفاناً بجميله بغيًا جميلة إلى مكان إقامته، وقد أُلبست ثياب غلام خادم. وأكد ريمولينو، الممتن لمضيفيه، ألا شك هناك في مآل المحاكمة القادمة، قائلاً: «ستكون لدينا محرقة كبيرة، لقد توصلت إلى الحكم الموجود أصلاً في قلبي».

بدأت محاكمة سافونارولا، أمام اللجنة البابويَّة، في اليوم التالي، وكان الأسقف ريمولينو هو المحقق الوحيد، ولم يكن هناك غير خمسة من أعيان فلورنسا بصفة مراقبين، أصالة عن الحكومة العلمانيَّة. وكان من الواضح أن سافونارولا استعاد، خلال مسار التحقيق التمهيدي، بعضاً من رباطة جأشه خلال شهر مضى منذ محاكمته السابقة، وهو الزمن الذي استثمره على أكمل وجه في تأليف كُرّاس «التفسير». ومن الممكن أن يكشف هذا العمل عن مؤلِّف يعيش في لجَّة أعمق اضطراب نفسي وروحي. ومع ذلك، فإنه يصف عذابات أزمته بوضوح يوحي باستعادته لما تميَّز به من تبصُّر فكري. وعندما بدأ ريمولينو بالتحقيق مع سافونارولا حول اعترافاته السابقة، فإنه لاحظ كيف كان يتظاهر بالإجابة، وذلك حين يعمد إلى قول بعض الحقيقة ثم يحيطها بالغموض، ولكن دون كذب على الإطلاق[8].

وما هو إلا وقت وجيز حتى عيل صبر المحقق بسبب من هذه المراوغة الواضحة، فـ«أمر ريمولينو أن يُجرّد سافونارولا من ثيابه حتى يتجهَّز للستربادو، فجثا الأخير على ركبتيه، في رعب مُطلق، وقال: أصغ لي الآن، يا رب، لقد أمسكت بي، إني أعترف أني أنكرت المسيح، وأنني نطقت بالأكاذيب، أيها السادة الفلورنسيون كونوا شهوداً عليَّ في هذا المقام. لقد

أنكرته خشية من التعذيب، وإذا كان عليَّ أن أعاني، فإني أود أن تكون معاناتي من أجل الحقيقة: فاعلموا أن ما قلته سمعته من الرّب: يا رب إنك تجعلني أُكفِّر بما ينزل بي من عذاب عما جنيته حين أنكرتك تحت وطأة الخشية من التعذيب، فاستحق علي ما أنا فيه»[9].

وتمضي الوثيقة في الوصف بأن «سافونارولا قد جُرّد من ثيابه الآن، وعندها جثا على ركبتيه مرّة أُخرى، حاملاً يده اليسرى بيده اليمني، قائلاً: إنها أصبحت متعطلة تماماً. وقد بدت أنها مخلوعة تماماً بفعل الخضوع السابق للسترابادو. ولا بُدّ أنها بقيت متدلية إلى جنبه دون أن يكون قادراً على استعمالها طيلة الشهر المنصرم. وبينما جعلت يدا سافونارولا إلى ظهره وقيّدتا بالحبل كي تُشدا، إثر ذلك، إلى الأعلى بقوّة، كان من الواضح أنه يهذي من الرّعب مردِّداً: لقد أنكرتك، لقد أنكرتك خوفاً من التعذيب. وحين كان يُجذب بشدّة إلى الأعلى، فإنه كان يكرّر كلامه بهياج هيستيري: فلتساعدني أيها المسيح، فلقد أمسكت بي هذه المرّة».

كان سافونارولا، عند هذه المرحلة، قد بلغ أقصى حدود الاحتمال والتجلُّد. وبمقدور المرء أن يتخيّل حالة التفكك والهذيان والصراخ التي تتخلّل الكلمات الأكثر تماسكاً كما ظهرت في الوثيقة. ومثلما لاحظ ريدولفي، فقد اشتملت هذه الأخيرة على أشياء ما كان للسير شيكوني ليسجلها في مجموعة الأكاذيب خاصته[10]. ومن الثابت أن هذه الوثيقة المتعلقة بمحاكمة سافونارولا الثالثة تحوي جانباً من الحقيقة تقشعر لهوله الأبدان، إذ لا يقطع السرد والنبرة السائدة أي إقحامات خارج السياق.

وكان ريمولينو محققاً قضائياً متمرّساً عمل، حيناً من الزمن، على صقل أساليبه في غرف التحقيق في روما، حيث لم تكن ثمة قيود تركز على

إجراءات التحقيق كما كانت عليه الحال في فلورنسا. وكان سافونارولا قد فقد عقله في تلك المرحلة، وأخذ يصرخ متوسّلاً: «لا تمزقوني إرباً إرباً، فلتساعدني يا يسوع».

وقام ريمولينو بسؤال سافونارولا سؤالاً يُظهر ساديته والتذاذه بتعذيب ضحيته قائلاً: «لِمَ تستنجد بالمسيح؟» وتمكّن سافونارولا من الإجابة قائلاً: «كي أبدو إنساناً صالحاً». لكن عندما كرّر ريمولينو السؤال غير مرّة، لم يكن بوسع سافونارولا سوى أن يجيب: «لأنني مجنون». وما لبث أن بدأ يتوسّل قائلاً: «لا تعذبوني أكثر من ذلك، سأنبئكم بالحقيقة، سأنبئكم بالحقيقة».

وفي خضمّ الأسئلة الاستفزازيّة، سأله ريمولينو فجأة، لِمَ أنكرت ما كنت قد اعترفت به سابقاً؟ وما كان بوسع سافونارولا سوى أن يجيب: «لأنني أحمق».

ويبرز عند هذا الحد السؤال الذي يقول: ما الذي كان يفعله ريمولينو هنا؟ فقد كان سافونارولا قد كشف، على نحو صريح، من قبل، أن السبب الذي جعله ينكر أنه تكلم مع الرب، وأنه شاهد جملة من الرؤى التي تتنبأ بالمستقبل، هو خشيته الشديدة من التعذيب. غير أنه أخبر السير شيكوني هذه المرة: أنه أراد أن تكون معاناته من أجل الحقيقة، وأنَّ ما قد سمعه كان صادراً، فعلاً، من الرب. وبدا الأمر كما لو كان ريمولينو عازماً على إجبار سافونارولا على الإقرار بأن اعترافاته السالفة، التي أدلى بها أمام شيكوني كانت اعترافات صحيحة وحقيقيّة. وعلى الرغم من طموح ريمولينو، الذي لا يعرف الرحمة، فإن الأخير يبقى من أهل الله. فهل أراد أن يتحقّق أنه لم يكن أداة لاستجواب (أو استشهاد) نبي؟ ينهض هذا واحداً من التأويلات التي من الممكن أن نضعها في الإطار العام لما وصلنا من النسخ والطبعات

المختلفة لهذا النص. وهو تأويل تُرجّحه الأسئلة اللاحقة، التي سعى ريمولينو من خلالها إلى التشكيك، بصورة ماكرة، في صحة معتقد سافونارولا، وإيمانه استتباعاً.

وحين أُنزل سافونارولا، في آخر الآمر، إلى الأرض، فإنه اعترف من جديد قائلاً: «حين أواجه بالتعذيب، فإني أفقد كل سيطرة على نفسي»، ثم أضاف بنوع من الشعور بالارتياح والانفراج: «عندما أكون في غرفة بحضرة رجال يعاملونني على نحو لائق، فإني أُعبّرُ عن نفسي، إذّاك، بصورة عقلانيّة ومنطقيّة».

غير أن دهاء ريمولينو تبدّى، في هذه اللحظة حصراً، ليفعل فعله. وقد عرف الأخير أن سافونارولا غاط في حالة شرود للعقل، فشرع لمّا أحسَّ بما يعانيه سافونارولا من حالة مضطربة، بإطلاق وابل من الأسئلة غير المترابطة والملغومة، متأملاً أن يجبر سافونارولا على إدانة نفسه دون أن يشعر. وعند نقطة بعينها سأله ريمولينو: «هل سبق لك القول فيما وعظت به أن المسيح ليس إلا بشراً؟» فأجاب سافونارولا: «وحده الأحمق يمكن أن يفكر بهذا.» ولو أن الأخير قدّم إجابة خاطئة، أو حتى غائمة، لهذا السؤال لأدين بالهرقطة[1]. واستتبعت ذلك طائفة أخرى من الأسئلة الخطرة؛ مثل، «هل تعتقد بالتمائم والتعاويذ السحريّة؟» وكان سافونارولا قادراً على أن يجيب: «لم أتوقف لحظة عن السخرية من مثل هذا الهذر والهراء»، واستطاع على نحو ما الثبات على موقفه. أما في اليوم التالي، حين بدا

---

(1) كان المؤمنون بالهرقطة الآريةـ، التي تسببت بأخطر انشقاق في الكنيسة القديمة بعد أقل من ثلاثة قرون على موت المسيح، يصرّحون، أساساً، أن المسيح كان «مولوداً»، أي أنه كان بشراً لا إلهاً.

سافونارولا قادراً على تقديم إجابات محكمة ومترابطة، فإن ريمولينو تناول، تفصيلياً، مسألة كان قد مرّ عليها مروراً سريعاً في اليوم الأول، وهي مسألة تهم تفصيلاتها سيده ألكسندر السادس، بصورة كبيرة. فقد عمد ريمولينو إلى تهديد سافونارولا بمزيد من جلسات التعذيب بالسترابادو ليطالعه بعد ذلك بمجموعة من الأسئلة حول المجلس الكنسي الذي سعى سافونارولا، دون أن ينجح، إلى عقده بقصد الإطاحة بالبابا. ولكن سرعان ما أدرك ريمولينو أنْ ليس بمقدور سافونارولا إخباره بأكثر مما كان يعرف في الأصل، فقد ظلّ القادة الإيطاليون على عدائهم لفلورنسا، ولم يجرؤ أي منهم أن يقوم بأي تحرّك عدائي ضد ألكسندر السادس. وقد طالب ريمولينو بمعرفة أسماء الكرادلة الذين أيّدوا انعقاد المجلس، غير أن إجابات سافونارولا توافقت، من جديد، مع معلومات ألكسندر السادس الاستخباريّة، إذ كان الجميع حذراً من اتخاذ مثل تلك الحركة. ولقد احتفظ ألكسندر السادس، كما بدا، بشكوكه، ذلك أن ريمولينو مارس ضغوطاً على سافونارولا، ملحاً في السؤال، مرّة تلو الأخرى، حول موقف الكاردينال كارافّا، الذي لعب دوراً حيوياً في حصول سافونارولا على الإذن بإنشاء مجمع توسكاني مستقل، لكن الأخير بقي مصراً، حتى بعد أن تعرضّ لمزيد من جلسات «السترابادو»، «أنني لم أقم بإجراء أي اتصال مع كاردينال نابولي؛ كارافّا، بشأن المجلس الكنسي».

وقد انتهى ريمولينو، على كره، إلى خلاصة مفادها أنه لن يتحصل على مزيد من المعلومات حول هذه المسألة مهما بذل من جهد، مما اضطّره إلى المسارعة في إنهاء التحقيق في ذلك اليوم، مشيراً إلى أنه سيسلم حكمه في اليوم التالي.

وقد عمد مجلس السينيوريا، حتى في الوقت الذي لم تنته فيه اللجنة البابويّة بعد من التحقيق مع سافوناورلا، إلى عقد جلسة للمجلس المُصغَّر لمناقشة الحكم الذي سيصدر بحق سافوناورلا. وعلى الرغم من أن جماعة الأرابياتي، مثّلت غالبية في المجلس الأصغر، فإن الخبير القانوني الجليل؛ أغنولو نيكوليني، وهو أحد المؤيدين السابقين لبييرو ميديتشي، أدلى برأيه الذي كان مؤدّاه أن إعدام سافوناورلا سيكون جريمة: «إذ قلّما يجود التاريخ بشخص مثله»[11]. وأردف نيكوليني قائلاً: «إذا حدث أن خمد الإيمان في العالم، فلن ينجح هذا الرجل بإحيائه فحسب، وإنما سيعمل على بث ما أوتيه من علم غزير. وعليه، فإني أشير عليكم أن تضعوه في السجن إذا كان هذا ما تريدون، ولكن أبقوا على حياته، وامنحوه حق استخدام المواد الكتابيّة، فلا يُحرم العالم، آنئذ، من أعماله العظيمة المكرّسة لتمجيد الرّب».

غير أنَّ الغالبية كانت مؤيِّدة لإعدام سافوناورلا:

«فلا أحد يمكنه الارتكان إلى أي سينيوريا في المستقبل، ذلك أنَّ مجلس السينيوريا يتغيَّر كل شهرين، ومن شبه المؤكد إطلاق سراح الراهب، إذّاك، وسيتسبب، كرّة أخرى، في إدخال الاضطرابات إلى المدينة، بيد أن الرجل الميّت لا يمكنه الكفاح في سبيل قضيته».

في الحقيقة، بقيت السلطات مسكونة بالخوف من سافوناورلا ومن تبقّى من أتباعه، وقد قدّم كاتب سيرة سافوناورلا الحديث؛ ديسموند سيوارد، دليلاً مثيراً للاهتمام على مثل تلك المخاوف استقاه من اليوميّات، التي سطّرها سيموني فليبيبي، وهو شقيق ساندرو بوتيتشيلي. ويَذْكر فيها ما قام به دوفو سبيني؛ الزعيم ذو السمعة السيئة لجماعة الكومباناتشي، بعد ثمانية عشر شهراً، وفي وقت متأخر من إحدى ليالي الشتاء، من زيارة لبوتيتشيلي في

مرسمه. إذ وجه الأخير، في أثناء جلوسهما أمام الموقد، الأسئلة إلى «سبيني» حول محاكمات سافونارولا، التي كان يعرف أن الأخير قد حضرها، وأسرَّ له سبيني قائلاً: «ساندرو، هل تريدني أن أفوه لك بالحقيقة؟ لم نعثر في ما قام به سافونارولا على أي خطأ أو ذنب من المهلكات، ولا أدنى من ذلك أو أكثر». ويضيف «سبيني» أنهم لو أبقوا على حياة سافونارولا وصاحبيه الرّاهبين، وسمحوا لهم بالعودة إلى دير سان ماركو، «لانقلب الناس علينا، وجعلونا في أشولة، ومزّقونا شرّ ممزق. لقد بلغ الأمر برمته حداً لا رجعة فيه، وكان علينا فعل ذلك للنجاة بجلودنا»[12].

وأجرى ريمولينو، في 22 من مايو، استجواباً قصيراً آخر لسافونارولا، دون أن يكلِّف نفسه عناء استدعاء زميله في اللجنة؛ تورّياني، ثم أرسل كتاباً رسمياً إلى سافونارولا يامره بالمثول أمام اللجنة في اليوم التالي «عندما ستُختتم المحاكمة، ويتسلَّم الحكم الصادر بحقه»[13]. وما كان بمقدور سافونارولا إلا الرّد على الرسول البابوي بالقول: «إنني سجين، وإذا استطعت القدوم، سآتي». وقبل أن يرسل ريمولينو تقريره إلى ألكسندر السادس، اجتمعت اللجنة البابويّة مع سلطات فلورنسا لإقرار مصير سافونارولا، فضلاً عن مصير الرّاهبين دومينيكو، وفرانشيسكو؛ اللذين لم يُعنَ أعضاء اللجنة أنفسهم باستجوابهما. وكان ثمة مسعى لإظهار ولو نزر يسير من الرحمة والرأفة المسيحيتين اللتين رآهما الحاضرون، دون شك، نفاقاً صراحاً تقشعّر له الأبدان. إذ اقترح ريمولينو أن يتم الإبقاء على حياة الراهب دومينيكو المسترسل في عناده، والمعروف بصلاحه وتقواه. لكن أحد الفلورنسيين انبرى ليذكر ريمولينو بأنه: «إن أُبقي على حياة الراهب دومينيكو، فإن أفكار سافونارولا وتعاليمه ستبقى حيّة»[14]، فعاد ريمولينو،

حينها، إلى جوهره الحقيقي، وأجاب: «راهب صغير آخر لا يضير، ليمت هو أيضاً».

واختلى الأسقف ريمولينو، إثر ذلك، ليكتب تقريره إلى ألكسندر السادس، واشتمل التقرير على اعترافات سافونارولا التي وردت في نص السير شيكوني، دون أن يقيم اعتباراً لاتساق النص، مُدْرِجاً كل التفاصيل المضحكة لفرط ما فيها من الأغلاط، والتدليسات الواضحة، والمزاعم، والأكاذيب، والمبالغات. ومن ذلك: «أنه يعترف بتحريض المواطنين على الثورة، والتسبب، عن عمد، في خلق حالة نقص في الغذاء، عانى منه الفقراء جوعاً مهلكاً، فضلاً عن قتله لنفر من أكابر المواطنين...»[15]. ولم يكن من المستغرب أن يذكر ريمولينو بأشد العبارات اعترافات سافونارولا بشأن محاولته الدعوة إلى عقد مجلس كنسي، وكيف:

> «أنه بعث برسائل ومخاطبات إلى غير أمير مسيحي، يستحثهم على تحدي قداستكم، وإحداث انشقاق في الكنيسة. هذا ما بلغه هذا المسخ المرائي من جور وشرور، فلم يكن مظهره الخارجي المُجلَّل بالتقوى سوى تمثيليَّة».

وبدا أن مخيلة ريمولينو قَدْ خانته، عند هذا الحد. وارتأى أن ينزّه المشاعر المرهفة لسيده بورغيا (اسم أسرة ألكسندر السادس) عن سماع ما انطوت عليه شخصيَّة سافونارولا من مساوئ وأفعال: «ومن تلك الطبيعة المريعة أذكر جرائمه الخسيسة، التي لا تطاوعني نفسي في تدوينها، فضلاً عن تلويث عقلي عند التفكير بها»[16].

وقد أدين الرهبان الثلاثة، في آخر الأمر، «لما هم هراقطة وخوارج، ولكونهم بَشّروا بالبدع... إلخ». وسيصار في صبيحة اليوم التالي إلى «الحط

من قدرهم» (أي تجريدهم من كهنوتيتهم)، ومن ثم تسليمهم إلى السلطات العلمانيَّة المختصة، لتلقي ما يستحقون من عقاب.

وما لبث أن عرف جميع الناس أن العقوبة قد تحدَّدت مسبقاً. وقد كتب لاندوتشي عن مصير سافونارولا (الذي سيشاركه فيه رفيقاه الراهبان)، يقول: «تقرَّر، في الثاني والعشرين من مايو، أن من المتعين الحكم على سافونارولا بعقوبة الموت، ووجوب أن يُحرق حياً. وقد نُصبت، في ذلك المساء، منصة الإعدام في نهاية الممر، الذي يصل إلى منتصف ساحة قصر مجلس السينيوريا... وأُقيم هناك عامود من الخشب الصلب بلغ علوه عدة أذرع، وجعلت حول قاعدته منصة دائرية، ثم ثبتت قطعة خشبيَّة، أفقياً، في أعلى العامود الخشبي تقريباً، مما جعلها تشبه الصليب. لكن الناس لاحظوا ذلك وقالوا: إنهم سيصلبونه. وحين علمت السلطات بذلك، فإنها أعطت الأوامر بقطع جزء من الخشبة حتى لا تأخذ شكل الصليب»[17].

وكان ذلك هو المكان ذاته، الذي كان من المقرر، قبل ستة أسابيع، أن تجري فيه «محنة النار».

(25)
الشنق والحرق

كان سافونارولا جاثياً على ركبتيه في الزنزانة، مستغرقاً في الصلاة تماماً، حين اقتحم عليه الباب، في الـ22 من مايو، أعضاء مجلس السينيوريا يتقدمهم السير شيكوني، وذلك ليبلغوه أنّه أدين بالإعدام. ولم ينبس المُدان ببنت شفة، وعاد، ببساطة، لابتهالاته، دون أن يعنّي نفسه بالسؤال عن الطريقة التي سيعدم فيها، أما الراهبان الآخران فقد تباينت ردّة فعلهما تبايناً شديداً، إذ أدرك كلاهما أنهما يواجهان الموت. غير أن الراهب الورع دومينيكو هو، وحده، من اتخذ خطوات استباقيّة حيال ذلك، فقد أرسل إلى الرهبان الدومينيكان في دير فييسولي، الذي ترأسه، رسالة وداعيّة من أعماق قلبه، وهو وإن كان معتمداً اعتماداً كلياً على إيمانه، فإنه عرف، أيضاً، كيف يتخذ إجراءات عمليّة، ذلك أنه ضمّن رسالته تعليمات لرهبانه، جاء فيها:

«اجمعوا من زنزانتي كل ما تقع عليه أيديكم من كتابات الراهب جيرولامو سافونارولا، واجعلوها في كتاب، ثم ضعوا نسخة منه في مكتبتنا. وقوموا بوضع نسخة أخرى في قاعة طعام الدير وثبتوها إلى الطاولة بحيث يمكن قراءتها بصوت مرتفع عند مواعيد تناول الطعام، وكي تتيح لإخوتنا من عامة الناس، الذين يقومون بالخدمة، قراءتها بينهم وبين أنفسهم»[1].

ولا بُدَّ أن تكون هذه الرسالة قد هُرِّبت من جانب واحد من القلة الذين أجيز لهم زيارة الرجال المحكومين في زنازينهم، ذلك أنها وصلت، دون دراية من أحد، إلى أيدي مَن أُرسلت إليهم. وعلى الرغم من أن اللجنة لم تَشتبقِ على حياة الراهب دومينيكو، فإن أفكار سافونارولا ومعتقداته [سيكتب] لها البقاء، بخلاف ما رغب فيه المجلس المصغر، وسعى للحيلولة دونه. أما الراهب سيلفسترو، فقد تملّكه الهلع حين تُلي عليه الحكم جهراً. فتوسَّل، توسُّل اليائس، طالباً أن تعرض قضيته أمام مواطني فلورنسا، الذين سيرأفون به، يقيناً، وذلك لما ناله من سمعة طيبة وسمت حياته الروحيّة الزكيّة.

وانضم إلى الرهبان المدانين، والمقيمين كل في زنزانته، عضو من أعضاء جماعة كومباني دي نيري، وهي طائفة دينيّة يلبس أفرادها الأردية والقلنسوات السود. وقضى التقليد، آنئذ، أن يمضي هؤلاء الساعات الأخيرة مع مَن يُحكم عليهم بالإعدام. وكان جاكوبو نيكوليني هو الراهب الذي عينه مجلس السينيوريا لمرافقة سافونارولا في تلك الساعات، وذلك لما عُرف عن الأول من كرهه لجماعة البيانوني. وعلى الرغم من ذلك، فيبدو أن نيكوليني قد تأثّر تأثراً عميقاً بسافونارولا من اللحظة التي تقابلا بها، فقد رأى الأول في تصبُّر الثاني وتجلده مؤشراً قوياً على إلهام روحاني قوي. وعندما سأل سافونارولا نيكوليني إن كان بوسعه استخدام نفوذه لتأمين لقاء أخير بين الرهبان المدانين الثلاثة، كي يتمكّن من تلقينهم كلمات تكون لهم عوناً في مواجهة المحنة التي تنتظرهم، فقد وافق الأخير عن طيب خاطر. ومن المثير للدهشة أنه تمكّن من إقناع مجلس السينيوريا كي يسمحوا بمثل هذا اللقاء، وإن تحت قدر معقول من المراقبة. ومن المفارقات العجيبة أنَّ الثلاثة

أُحضروا للقاء المزمع في قاعة المجلس الأكبر، الذي بذل سافونارولا وسعه لإنشائه بوصفه القلب الديمقراطي لحكومة جمهورية فلورنسا.

لم تكن أعين الرهبان الثلاثة قد التقت منذ ليلة حصار سان ماركو في إبريل المنصرم، إذ جرى استجواب كل واحد منهم وتعذيبه على حدة، طوال الأسابيع الستة التالية: تلك المحنة التي أدّت إلى كسر معنويات سافونارولا وتحطيمها مؤقتاً، وسحقت روح الراهب سيلفيسترو بصورة نهائية، أما الراهب دومينيكو فلم تنل منه وبقيت روحه عالية. ومع ذلك، فقد أُخبر كل واحد منهم، على حدة، أن أخويه الآخرين قد اعترفا بالهرطقة، والشعوذة، وبث النبوءات الكاذبة، وتضليل الناس. ونقل المحققون عن سافونارولا اعترافه بأنه لم يكن نبياً، ولم يتفق له أن رأى كشوفاً ورؤى غيبيّة، وأنه لم يتحدَّث بصوت الرب. لكنهم لم يخبروا رفيقيه أنه أنكر، في مرحلة لاحقة، هذه الاعترافات التي زعم سافونارولا أنها انتزعت منها تحت وطأة التهديد بالتعذيب الذي لا يُطاق.

ولم يكن بمقدور ثلاثتهم أن يعرفوا ما صحَّ من المعلومات التي نُقِلت لكل واحد منهم عن رفيقيه الآخرين. وإذ أدرك سافونارولا أن لقاءهم لن يكون، بالضرورة طويلاً، فإنه قام، على الفور، بتولي زمام الأمور، متوجِّهاً بالقول إلى الراهب المخلص دومينيكو: «لقد سمعت أنك طلبت أن يُلْقى بك في النار حياً، وهذا خطأ. فليس لنا أن نختار الطريقة التي نموت فيها، وينبغي أن نُسلِّم، راضين، بالقدر الذي كتبه الرب لنا»[2]، ثم توجَّه إلى الراهب سيلفيسترو، الذي يُرثى لحاله، مُعنِّفاً: «أما أنت، فإني أعلم أنك ترغب في عرض براءتك أمام الناس، لكني آمرك أن تسقط هذه الفكرة من ذهنك، وأن تتبع، عوضاً عن ذلك، خطى السيد المسيح، الذي رفض

أن يحتجَّ ببراءته حتى وهو على الصليب. إذ علينا أن نحذو حذوه بما هو المثال والقدوة، ولزام تمثُّله واتباعه»، ثم جثا الراهبان على ركبتيهما أمام رئيسهما، فمنحهما سافونارولا بركاته، وأُعين الأخير في طريق عودته إلى زنزانته، إذ لم يكن يقوى على السير وهو مقيد بالأصفاد، فضلاً عما ألمَّ بجسده من ضعف. وقد كتب ريدولفي، واصفاً سافونارولا خلال الفترة التي تلت، يقول: «إن رواية ساعات سافونارولا الأخيرة تشبه صفحة من سير آباء الكنيسة الأوائل»[1][3]. ويروي بورلاماكي الموالي لسافونارولا حادثة تمثل جزءاً من الأسطورة[2]، التي جسّدها سافونارولا؛ تلك الرواية التي صاغها فيلاري بكلماته قائلاً:

> «كانت خيوط الفجر الأولى قد لاحت في الأفق حين عاد سافونارولا إلى زنزانته، وكان، قد أنهكه الدوار والإرهاق إلى درجة أنه أراح رأسه، عرفاناً ومحبّة، في حجر نيكوليني، وذهب، حالاً، في إغفاءة خفيفة. وكانت روحه ترفل بسكينة وصفاء إلى درجة بدا معها وكأنه يبتسم كما لو أنه يرى في منامه رؤى سارّة»[4].

(1) كان آباء الكنيسة هم الزعماء الروحيين للكنيسة المسيحيّة خلال القرون الخمسة الأولى، التي تلت وفاة المسيح، أو نحو ذلك، إذ تمثّل العديد منهم حياة مثاليّة، وجابه بعضهم الاستشهاد بثبات روحي عظيم.

(2) يبقى المصدر الرئيس المعاصر للأحداث التالية هو بورلاماكي الموالي لسافونارولا، الذي يأخذ ما يقدّمه من وصوفات، ربما بصورة لا مَفرَّ منها، منحى سير القدّيسين. ومع ذلك، فقد كان ثمة آخرون ممن تركوا رواية حول تلك الأوقات. ويصف لاندوتشي الأحداث اللاحقة كما رآها، وقدّم كل من بيرنتسي، وناردي، وسيريتاني، كذلك، أوصافاً تتطابق، في جزئها الأكبر، مع الخطوط الرئيسة العامّة للأحداث. وكان غيتشارديني، الذي يعده كثيرون أب التاريخ الحديث، وقَدْ ترعرع في فلورنسا، في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الوقت. وسيبدأ في تأريخه لتلك الأحداث بعد ذلك بعشر سنين فقط، وقد قمت في أحيان كثيرة بالرجوع إلى هذه المصادر جميعها.

عندما استيقظ سافونارولا، بدا وكأنه استغرب لكونه غطّ في النوم، وقيل إنّه اختصّ رفيقه الرقيق بأن أخبره عن واحدة من النبوءات، ومؤدّاها أنه سيأتي زمان على فلورنسا تجد نفسها غارقة في بلاء كارثي. وقال: «نيكوليني، تذكرْ هذا بعناية». وأضاف: «ستحدث هذه الأمور حين يكون هناك بابا يُدْعى كليمنت»، وستجري هذه الأحداث فعلاً في عام 1529، حين ستتعرض فلورنسا لعوز وشدّة مطوّلة تتأتّى عن حصار يدوم عشرة شهور، قبل أن تذعن المدينة وتستسلم، وسيحدث ذلك كله في عهد البابا كليمنت السابع. غير أن باسكال فيلاري، وهو واحد من كتاب سيرة سافونارولا الأكثر إطلاعاً وتعاطفاً معه، يميل إلى الاعتقاد أن ما توفرت عليه هذه النبوءة من تفاصيل «تبدو غير معقولة»، مضيفاً «أن علينا افتراض أن اسم (كليمنت) ما لم يكن قد أضيف في تاريخ لاحق على يد أولئك المعتقدين المتحمسين بسافونارولا، فإن من الممكن إدراج ذلك في باب المصادفة»[5].

وسيق الرجال الثلاثة، مع إطلالة صباح الثالث والعشرين من مايو، من زنازينهم، واجتمعوا مرّة أخرى. كانت معاصمهم مكبلة بالأغلال، ولكن دون أن تُصفَّد أرجلهم بالسلاسل هذه المرّة، مما مكّنهم من نزول درجات سلالم قصر مجلس السينيوريا مترّنحين، ثم الخروج إلى الميدان. ويتحدث غيتشارديني عن ذلك فيقول: «تداعى حشد من الناس كي يشهدوا عملية إذلال سافونارولا وإعدامه، وكان كل تجمع صغير في هذا الحشد بحجم الحشد الذي اجتمع في المكان عينه في اليوم الذي ضرب لعملية (محنة النار)، آملين أن يشهدوا المعجزة التي وُعدوا بها»[6].

واجتمعت على الشرفة الحجريّة المرتفعة البارزة خارج القصر، ثلاث محاكم منفصلة. وستقوم كل واحدة منها بأداء الدور الذي أُنيط بها في المراسم

المطولة، التي استمرت تبعاً لأحد المعاصرين «مدة ساعتين تامتين»[7]، إذْ «بدأت في الثامنة واستمرت إلى العاشرة صباحاً تقريباً».

وتزعَّم المحكمة الأولى أسقف فاسونا؛ بينيديتو باغنوتي، الراهب السابق في سان ماركو، ومن عجب أنه كان أحد المؤمنين المتحمسين بسافونارولا في يوم من الأيام، وكان باغنوتي هذا قد فُوّض من جانب البابا بقراءة الرسالة البابويّة، التي تحط من قدر الرهبان الثلاثة، على رؤوس الأشهاد، وتجرّدهم، جهاراً، من كهنوتيتهم. وكانت هذه الرسالة قد أُرسلت، في الواقع، إلى باغنوتي قبل أن يغادر أعضاء اللجنة البابويّة روما.

وهي دلالة جليّة تؤشّر على ما كان يفكّر به ألكسندر السادس بشأن سافونارولا ورفيقيه الراهبين. واستشعر باغنوتي الحرج والارتباك حين واجه سافونارولا، وألفى نفسه غير قادر على النظر في وجهه، وتعثّر وهو يتلو الإعلان الرسمي، مصرّحاً في أثناء ذلك بـ «إني أفصلك من الكنيسة المجاهدة [على الأرض] ومن الكنيسة المظفَّرة [في السماء]»، فانبرى اللاهوتي العريق سافونارولا، وصححه قائلاً: «الكنيسة المجاهدة [الأرضيَّة] فحسب، أما الأخرى فليست ضمن سلطانك القضائي»[8]، فسارع باغنوتي إلى تصحيح نفسه.

وقد سجّل لاندوتشي كيف: «أنهم أُلبسوا أرديتهم الكهنوتيّة كاملة، ثمّ نزعت عنهم واحداً فواحداً، وصاحبت ذلك الكلمات الملائمة في الحط من قدرهم وتجريدهم من رتبهم»[9].

وعقدت المحكمة الثانية برئاسة الأسقف ريمولينيو، الذي أدّى، إثر ذلك، بعض المراسم التي أظهرت بوضوح نفاق ألكسندر السادس، فقد أصدر قداسته، قبل أن تنتهي اللجنة البابويّة إلى حكمها، بل ربما قبل

خروجها من روما، رسالة بابويّة موجهة إلى ريمولينو، مسبغاً على الرهبان الثلاثة الغفران الكامل. وقد منحهم هذا عفواً رسمياً يحلّهم من جميع الآثام المرتكبة في دار الدنيا هذه، كما يُحلّهم من عذاب المطهر في العالم الآخر. وإذْ اكتمل هذا الإجراء،بما نضح به من نفاق بابوي فائق، قام ريمولينو بتسليم الرهبان الثلاثة المجرّدين من أرديتهم الكهنوتيّة للسلطات العلمانيّة، التي غدا الرهبان الثلاثة، حينها، تحت سطوة قضائهم. وكانت هذه هي المحكمة الثالثة المكونة من أعضاء مجلس السينيوريا، «الذين قرروا، دون إبطاء، أن من المحتم شنقهم وحرقهم... وجرى، إثر ذلك، حلق وجوههم وأيديهم، تبعاً لما جرت عليه العادة في مثل تلك المراسم»[1].

وسيق الرّجال الثلاثة، إذ ذاك، حفاة الأقدام، وعراة إلا من ملابسهم الداخليّة البيضاء، عبر الشرفة البارزة خارج القصر، يرافقهم اثنان من ذوي الأردية السوداء من جماعة كومباني دي نيري، اللذين اقتاداهم عبر الممر البارز الطويل المفضي إلى الميدان. وقد وجدت في آخر الممر منصة دائريّة نصبت عليها مشنقة جُعلت تحتها أكوام من حزم الخشب سريعة الاشتعال، استعداداً لإضرام المحرقة الكبيرة.

وانطلقت من بحر الوجوه المصطفة أسفل منهم على جانبي الممر، هتافات، غاضبة، في حين صرخ بعضهم، متهكماً: «سافونارولا! هذا وقت إظهارك إحدى المعجزات»[10]، وتشير الأدلّة إلى أن آخرين، ولاسيما من جماعة البيانوني، كانوا يتضرعون بصمت أن يجترح معجزة تنجيه من الإعدام.

---

(1) تشيرُ الطبعتان المبكرتان من يوميّات لاندوتشي (1865–1883 صدرت كلتاهما في فلورنسا) إلى حلق الرأس واليدين؛ تلك الممارسة التي تشكّل واحدة من طقوس دخول الرهبنة.

وكان أول من سيقاد إلى المشنقة هو الرَّاهب سيلفسترو، واقتاده الجلاد على عجل إلى الدرجات، وصولاً إلى أعلى السُّلَّم، الذي كان مرتكزاً على المشنقة، ثمّ وضع الحبل حول عنقه وركل السلم ليتأرجح جسد سيلفسترو في الهواء، وإذ كان الحبل أقصر مما يجب، ولم تكن الأنشوطة محكمة بصورة كافية حول عنقه، ولما كانت السلاسل الحديديّة الملتفة حول خصر المحكوم غير ثقيلة بدرجة كافية كي تنزل جسده إلى الأسفل، فقد بقي الرجل المتأرجح في الهواء يغالب انقطاع النفس. وقد وصف لاندوتشي، الذي شهد هذه الأحداث مصير الراهب سيلفسترو، قائلاً: «لما لم يكن ثمة سقوط كاف لقِصَر الحبل، فإنه عانى بعض الوقت وهو يقول، مرّة تلو الأخرى: أي يسوع! في حين كان يتأرجح في الهواء، لأن الحبل لم يكن مشدوداً بإحكام، فيهلكه في الحال»[11]، وكان ذلك كله متعّمداً، حتى يُصار إلى شنق الراهبين الآخرين إلى جانبه، ويكون ثلاثتهم على قيد الحياة حين تضرم النار أسفلهم. وكان هذا جزءاً من العقوبة التي تهدف إلى جعلهم يعانون لواعج الألم المتأتية عن ألسنة النيران، التي تلتهم أجسادهم وهم يقاسون غمرات الموت.

وكان ثاني هؤلاء هو الراهب دومينيكو، الذي قيل إنه صعد السلم، عدواً، وتعابير السرور والحبور تكسو وجهه، مستعداً للقاء خالقه، وكان يردِّد، تبعاً للاندوتشي: «أي يسوع»، وهو يغالب عملية الشنق المطوّلة مثل سابقه. و«كان آخرهم سافونارولا، المسمّى بالمهرطق. ولم يجهر سافونارولا بالكلام وإنما كان يتمتم، وهكذا جرى شنقه. وحدث ذلك كله دون أن يلقي أي منهم كلمة وداعيّة، وعُدَّ ذلك أمراً غير اعتيادي، ولاسيما من جانب الصُلاّح من الناس والمهتمين، الذين أصيبوا بخيبة أمل. فلقد تأمّل الجميع رؤية بعض الآيات والإشارات، وأرادوا تمجيد الرب، والبدء بحياة ورعة

وتقيّة، ورغبوا في تجديد الكنيسة وإصلاحها، واهتداء غير المؤمنين وإيابهم إلى ربهم، غير أن أحداً من المحكومين لم يبادر إلى تعليل أفعاله وتسويغها، مما دفع كثيراً من الناس إلى فقدان إيمانهم».

وعلى الرغم من خيبة الأمل تلك، فقد جلّى وصف غيتشارديني كيف أنّ بعض الناس ظلّوا على شكوكهم، فقد سجّل يقول: «إن موت سافونارولا، الذي تلقاه برباطة جأش، دون أن يتفوّه بكلمة سواء للمطالبة ببراءته أو الإقرار بجرمه، لم يغيّر في رأي أحد سواء من أولئك الذين خالفوه أو كانوا معه، حتى إنه لم يؤثّر في مشاعر كلا الفريقين غُلواً أو نزولاً. إذ رأى فيه جمع من الناس دجالاً، في حين رأت ثلة أخرى أن اعترافه العلني لم يكن إلا تزويراً وتدليساً... أو أنه أُجبر على قوله بعد أن انهار جسده تحت وطأة التعذيب وأَهواله»[12]. ولم تطو صفحة عملية الإعدام تماماً، دون أن تبرز حادثة غير متوقعة، فقد تناقلت الأخبار ما قام به الجلاد حين هز الحبل حول عنق سافونارولا بعنف يوحي بساديته والتذاذه، مما جعل جسد سافونارولا يتراقص في الهواء، وقد سعى من وراء ذلك إلى جعله أضحوكة للمتندرين وسط الحشود. وعنى هذا الهزل الممجوج أن الجلاد كان شخصاً غير ملائم أو قادر على إتمام هذه المهمّة البشعة تبعاً لما أريد لها. وتدلُّ اللوحات التي صوّرت المشهد ضرورة أن يكون ارتفاع السلم المؤدي إلى أعلى المشنقة عشرين قدماً، وعلى أي حال، فقبل أن يتمكن الجلاد من نزول درجات السلم لاستكمال مهمته، سبقه إلى ذلك أحدُ النُّظارة، إذ اندفع رجلٌ يحمل مشعلاً ملتهباً، من بين الحشود، وأضرم النار بالأخشاب صارخاً: «الآن يمكنني أن أحرق الراهب، الذي أراد حرقي»[13].

وإذْ انتشرت النار في هشيم الأشجار الموضوع على المنصة حول

الصليب، بدأت طائفة من الناس بقذف أكياس صغيرة من ملح البارود داخل الحريق الهائل، مما تسبب بانفجارات صغيرة، وسيول من الشرر. وما إن بدأت ألسنة النيران تتصاعد في الهواء نحو الأجساد المعلَّقة، حتى هبَّت ريح مفاجئة محوِّلة النيران إلى الجهة الأُخرى من أجسادهم، مما اضطر الحشود إلى الانكفاء إلى الوراء وهي تقول ذاهلة: «معجزة، معجزة»[14]. لكن الريح توقفت فجأة كما بدأت، فاندفعت الحشود إلى الأمام، من جديد، في حين أخذت ألسنة النيران تلعق أجسادهم من غير جهة. ويمضي بورلاماكي، الذي من المؤكد أنه شهد هذا الحدث من نقطة قريبة، في وصف الكيفيَّة التي امتدت فيها النار إلى الحبل الذي أوثق يدي سافونارولا خلف ظهره، فتحرَّر ذراعاه بأثر من ذلك، ثم تلقَّف تيار النيران الصاعدة ذراعه اليمنى، رافعاً إياها صُعداً في الهواء، وفاتحاً يده بصورة دراماتيكيَّة كما لو كان يبارك النَّظارة من بين أَلسنة النيران، مما أفزع ثلة ممن شاهدوه، فشرعت النساء يبكين وينشجن بصورة هيستيريَّة، وجثت أخريات على ركبهن، وقد اعتقدن أن الرجل الذي آمنَّ، سراً، بانه قديس قد باركهنَّ، أما الآخرون فقد نفروا من المكان خوفاً وفزعاً.

ولم يسدل الستار على المشهد عند هذا الحد، فقد عزمت جماعة الأرابياتي على استبعاد أي مشاهد تنطوي على صورة من صور القداسة والإجلال، فاستأجروا جماعات من الصبيان الزُّعار الفقراء لإطلاق هتافات السُّخرية، والرقص حول النيران المتقافزة، وقد رجم بعضهم الأجساد المتدلية بالحجارة، مما تسبب في سقوط أجزاء منها إلى قلب النيران الهادرة. وأصدر مجلس السينيوريا أوامره بأن تشكل زمرة من الحرَّاس المسلحين، وتتحلَّق حول النيران، لإجبار الحشود على التراجع إلى الخلف،

كي يحولوا بينهم وبين جمع رفات الجثث، أو آثارٍ منها فتُقدَّس، إذ أزمع مجلس السينيوريا ألا يُدشِّن إعدام سافونارولا نشوء طائفة من المعجبين تخلد اسمه وأفكاره الدينيّة. وقد جرى، في الوقت عينه، تلقيم النار بمزيد العيدان مما زادها استعاراً.

ولما كانت السلاسل الملتفة حول أجسادهم مثبتة إلى المشنقة، فقد بقيت أجسادهم معلّقة، حتى مع ازدياد أوار النار، وامتدادها إلى الحبال الملتفة حول أعناقهم، لكن أطرافهم بدأت تتساقط وسط الجحيم، تاركة صوراً شبحيّة من بقايا جذوعهم المتفحمة، التي كان من الممكن تبينها عبر النيران المتصاعدة. وتعهّد ريمولينو بأن يوعز بدفع المشنقة كي تسقط في قلب النار وتتحطم، حاملة معها ما تبقى من الأجساد المتفحمة، فلا تبقى، إذاك، باقية يلتقطها الناس ويقدّسونها. وكان ريمولينو يتصرّف، في هذا الموقف، على نحو يتجاوز نطاق صلاحياته القضائية، فهو حين أحال مسؤولية عقوبة الإعدام إلى السلطات المدنيّة، أصبح هذا الأمر تحت إمرة مجلس السينيوريا. على أي حال، يبدو أنَّ جميع من في السلطة كانوا عازمين، بالقدر نفسه، على ضرورة أن يعيّن موت سافونارولا نهايةَ الرجل وكل ما يمثله على حد سواء.

وكان الميدان، في ذلك الحين، قد أُخلي من الناس. وإذ خَمدت النيران وبردت، جرى تجريف الرماد ووضعه في عربات، ثم جُرَّت هذه الأخيرة بعد أن مُلئت، زهاء 200 ياردة أسفل الطريق نحو بونتي فيكيو؛ «الجسر القديم» القريب. وقد حُفَّت هذه العربات بحاملي العصيّ كي يحولوا دون حصول الناس على أي من الآثار والبقايا، وأُفرغت حمولة العربات من الرماد، كيفما اتفق، في مياه نهر أرنو، حيث استقرّت سحب الغبار المبنعثة

منها، تدريجياً، على سطح الماء. ثم ما لبث أن دفعها التيار إلى مجرى النهر، متجاوزة السد إلى ما بعد أسوار المدينة، عابرة الريف التوسكاني الأخضر نحو مصب النهر، حيث تلاشت المياه في البحر.

خاتمة
الآثار اللاحقة

عمّت مشاعر الارتياح والانفراج فلورنسا لرحيل سافونارولا، وما لبث ذلك الباب أن أشرع أمام احتفالات محمومة، وقد سجّل لاندوتشي في الشهر التالي، كيف:

«بدأ الجميع في الانغماس في سلوك منحل وفاسد، فقد كان المرء يرى المطارد [سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس وحربة] أو السيوف المجرّدة في أنحاء المدينة جميعها. أما الرجال فقد كانوا يلعبون الميسر تحت ضوء القناديل في المركاتو نوفو [السوق الجديدة] وفي الأمكنة جميعها دون أي شعور بالحياء. وبدا وكأنما أبواب جهنّم قد فتحت، وبدا أن الويل والثبور سيلحقان بكل من يجرؤ فيتصدّى لهذه الشرور»[1].

وأطلقت السلطات، في الآن ذاته، حملة منظّمة لاستئصال تعاليم سافونارولا ومحوها، إذ أعلن الأسقف ريمولينو، بُعيدَ إعدام الأول، أن من المتعين على من يمتلك أياً من كتابات سافونارولا أن يُسلّمها في غضون أربعة أيام، وإلا فإنه سيواجه الحرمان، ثم قفل ريمولينو عائداً إلى روما لتقديم تقريره الرسمي للبابا، مصطحباً معه البغي الجميلة التي أُهديت إليه. وسيقوم ألكسندر السادس، لاحقاً بتكريمه، شكراً وامتناناً، وذلك بترقيته إلى رتبة كاردينال.

وكما جرى تطهير الإدارة العلمانيّة من أي بقية باقية من المتعاطفين مع جماعة البيانوني، وفرّ عدد من أنصار سافونارولا البارزين، على الرغم من بقاء واحد منهم، على الأقل، في المدينة. فقد ألفى بوتيتشيلي نفسه، مثل أي شخص آخر، غارقاً في خضم اضطراب نفسي بأثر من الصراع الذي نشأ بين لورينزو العظيم وسافونارولا. وقد قدّم فاساري لمحة أخيرة عن التأثير الذي خلّفه هذا الصراع على العبقري، الذي نوّرت أعماله الفلسفيّة الباهرة أوائل عصر النهضة، نقرأ:

«أصبح بوتيتشيلي، بما هو رجل طاعن في السن، فقيراً إلى درجة أنه... كان سيقضي جوعاً، ربما، لولا عون الأصدقاء... وإذ غدا شيخاً كبيراً وكليلاً، يعرج في مشيته ويتكئ على عكازتين لأنه لم يعد قادراً على أن ينتصب واقفاً، فقد قضى عاجزاً وواهناً»[2].

وعلى الرغم مما لحق بجماعة البيانوني من إذلال ومهانة، فلم يكن لدى مواطني فلورنسا أدنى رغبة في عودة أسرة ميديتشي إلى الحكم، إذ أصبح المجلس الأكبر، الذي بذل سافونارولا الغالي والنفيس للدفع باتجاه إنشائه، عنصراً مفضلاً ومحترماً من عناصر الحكومة الجمهوريّة. وهكذا، فقد ألفى أنصار أسرة ميديتشي أنفسهم مكروهين، مما أفسح المجال، أمام جيل من الحكام الإداريين الموهوبين بأثر من ذلك التوجّه، الذي أخلى الساحة من الحرس القديم، ممثلاً بأنصار ميديتشي وسافونارولا معاً. وضمّ هذا الجيل، فيما ضم، الشاب ماكيافيلّي، الذي انتخب في منصب من المناصب العليا، وأثبتت كفاءته إلى حد أنّه أُرسل إلى الخارج مبعوثاً فلورنسياً.

وكان من الممكن أن تبقى فلورنسا ضعيفة عسكرياً، وأن ترزح تحت تهديد ألكسندر السادس، ولاسيما جيش ابنه سيزار بورغيا، الذي لا تعرف

الرحمة طريقاً إلى قلبه. وإذ سعت الحكومة الفلورنسيَّة إلى معالجة هذا الموضوع، فقد أرسل ماكيافيلّي، على جناح السرعة، إلى البلاط الفرنسي، ولعب الأخير، هناك، دوراً فذاً في استئناف العلاقات المتينة مع ملك فرنسا القوي الجديد؛ لويس الثاني عشر، مواصلاً، بذلك، السياسة التي نافح عنها سافونارولا. وقد عمل هذا على حماية المدينة من الغزو حتى وفاة ألكسندر السادس عام 1503. وقَدْ وافت بييرو ميديتشي المنية في السنة ذاتها، لكن الكاردينال جيوفاني دي ميديتشي كان قد بنى، منذ زمن طويل، صداقة عميقة مع غريم ألكسندر السادس، وهو الكاردينال ديلا روفير، الذي ما لبث أن أصبح البابا الجديد المكنّى بـ «يوليوس الثاني». وأذن هذا الأخير لصديقه الكاردينال جيوفاني باستخدام القوّات البابويّة لاستعادة السيطرة على فلورنسا. ولم تمضِ غير بضع سنين حتى أثبت حكم ميديتشي العائد أنه بلغ من الفساد وكره الناس له مبلغاً أفضى إلى الإطاحة به عام 1527 لصالح الجمهوريّة، التي ما لبثت أن شهدت عودة الأصولية السافوناروليّة، معلنة عن نفسها بوصفها «جمهوريّة المسيح». وقد أُطيح بهذه الأخيرة، في آخر الأمر، بعد حصار مطوَّل للمدينة، ضربته حولها قوات موالية للبابا الذي كان من أسرة ميديتشي؛ المكنى بـ (كليمنت السابع)، وذلك في عام 1529 المشؤوم على نحو مطابق، كما قيل، لما تنبأ به سافونارولا.

ربما ارتكب لورينزو العظيم غلطة بدعوة سافونارولا للعودة إلى فلورنسا. ولكن ما كان لنواتج هذه الدعوة أن تحول دون ما أضمره من خطط طويلة المدى لتوسيع سلطة أسرة ميديتشي إلى ما هو أبعد بكثير من حدود الدولة المدينيّة، وهي خطط سَتؤتي أُكلها لدى الأجيال اللاحقة، حين يتربَّع أفراد من أسرة ميديتشي على عرش البابويّة، فضلاً عن العرش الفرنسي. وسيقود

سلوك البابوين من أسرة ميديتشي، وهما ليو العاشر وكليمنت السابع، إلى حركة الإصلاح الديني، التي مزّقت العالم المسيحي إلى قسمين وغيّرت وجه أوروبا إلى الأبد، وستكون السياسات المثيرة للجدل التي انتهجتها ملكتا فرنسا من أسرة ميديتشي وهما: كاترينا وماري دي ميديتشي، فعّالة في الحفاظ على الأمة الفرنسيّة، بما هي أمة واحدة ذات سيادة، مما أفضى إلى ازدهارها لتغدو أقوى دولة في أوروبا في ظل «الملك الشمس»؛ لويس الرابع عشر. ولولا فضل لورينزو العظيم وما وضعه من خطط طموحة لذريته من بعده، ما كان لأي من ذلك أن يحدث، وكان من الممكن أن يتخذ تاريخ أوروبا مساراً مختلفاً تماماً.

وقد قام تعارض، كما هو معروف، بين نظام شبه حميد ولطيف، لكنه قائم على نظام رأسمالي يديره زعيم أسرة من المصرفيين والأقوياء، وبين نظام أصولي معارض استجاب لحنين الشعب وتشوّفه لليقينيات الأخلاقيّة، التي علّمت عصراً سابقاً، فضلاً عن تشوّقه إلى مجتمع تسوده المساواة والديمقراطية، كما نجح هذا النظام في تحويل هذا الحنين إلى واقع معيش. ولم تمض أربعون سنة حتى تجاوز هذا الصراع بين أسرة ميديتشي وسافونارولا حدود فلورنسا. وما إن تبوّأ كليمنت السابع (1523–1534) عرش البابويّة حتى كانت حركة الإصلاح قد بدأت أولى خطواتها الثابتة. وكانت الإصلاحات التي نادى بها سافونارولا قد شقّت العالم المسيحي وقسّمته. وقد أبدى مارتن لوثر، وهو يتزعم حركة الإصلاح الديني، إعجابه بسافونارولا، وذلك بكتابة مقدّمة لكرّاس الأخير الموسوم بـ «التفسير»، ناظراً إليه بوصفه أحد آباء الكنيسة الأوائل. ومع ذلك، فقد كان ثمة اختلاف عميق في المنحى الذي اتخذه الرجلان. إذ كان سافونارولا يؤمن بإصلاح الكنيسة من الداخل،

ولو قُيِّض لمارتن لوثر أن يكون موجوداً في ذلك العصر لنظر إليه سافوناورلا بوصفه واحداً من أسوأ تمثلات رجال الدين الهراطقة، ولاسيما أنَّ لوثر اقترن بواحدة من الرّاهبات.

ولن يقف الأمر عند هذا الحد، إذ سيستمر الانقسام، بعد حركة الإصلاح، بين اتجاه مادي تقدّمي وآخر روحي، ليكون الأساس لعدد من الأحداث الثوريّة العنيفة. ويشخص سافوناورلا، تبعاً لهذا الاعتبار، شخصيّة طليعية وسابقة لزمانها، فمما لا ريب فيه أنَّ تشديده على المسألة الديمقراطيّة كان من وجهة نظر سياسيّة، موقفاً يتسم بالحداثة، لكنه كان، في الوقت عينه، أول شخص في أوروبا الحديثة يواجه المشاكل التي تمخضت عما صاحب الثورة من شعور بزهو الحرية الذي أعقبه القمع والكبت، باسم الحفاظ على نقاء الثورة وطُهرها، فضلاً عن دعوى حمايتها من أعدائها، وستغدو هذه، في القرون التالية على عصر سافوناورلا، عمليّة حتميّة، ومن الممكن معاينتها، بصورة أو أخرى، بدءاً من قطع رأس شارل الأول على يد البيوريتانيين في إنجلترا، مروراً بالثورة الفرنسيّة والمصير الذي لقيه روبسبير.

وقد شهد القرن العشرون حضوراً طاغياً لهذا الاتجاه، ممثلاً بلينين والبلاشفة في روسيا، وآيات الله في إيران. كما تجاوز الصراع المذكور فلورنسا في أخريات القرن الخامس عشر، ليشمل أوروبا كلها، فقد امتد الشكل الحديث من هذا التصادم بين الأصوليّة والماديّة، في السنوات الأولى من القرن الحالي، متجاوزاً حدود الدولة الواحدة، ليصبح ظاهرة عالميّة منتشرة في أرجاء المعمورة قاطبة.

كان ثمّة موت في فلورنسا؛ موت لورينزو العظيم، وموت مواطنين (بدءاً من المتآمرين إلى ضحايا الوباء)، وموت سافوناورلا، وفي الوقت عينه،

كانت ثمة حقبة تُحتضر؛ حقبة العصور الوسطى. وإذ أفل النظام القديم في فلورنسا، وتصرّمت مدته، فقد أفسح المجال لميلاد جديد؛ ميلاد الازدهار الحقيقي لعصر النهضة والدولة السياسيّة الحديثة.

الهوامش

المقدمة: إبرة البوصلة الإيطاليّة

1. **'a fever [that] gradually...'**

انظر كذلك: رسائل أنجيلو بوليتسيانو:

trans. & ed. Shane Butler (London, 2006), Book IV, Letter 11, p.231, 5.

2. لاتسارو دا تيشينو: يظهر في بعض المصادر باسم لاتسارو المولود في بافيا، مما يؤدي ببعض الناس إلى الخلط بينه وبين عالم الفسيولوجيا الشهير؛ لاتسارو سبالانتساني، المولود في بافيا، الذي عاش في القرن الثامن عشر.

3. **'museum of mummies'**: see Jacob Burckhardt, *The civilization of Renaissance Italy*, trans. Middlemore (London, 1990), p.41

4. **'begat eight boys...'**

تعود هذه المقطوعة الشعرية الساخرة إلى الشاعر مارولوس، وجرى اقتباسها بلغتها اللاتينية في:

F. Ludwig von Pastor, *The History of the Popes*, ed. & trans. F. I. Antrobus, 40 vols (London, 1950 edn), Vol. V, p.240n.

5. **'Lorenzo was loved...'**: Machiavelli, *Istorie fiorentine*, Book VIII, Sec. 36

6. **'so gentle it... '**: cited in Christopher Hibbert, The Rise and Fall of the House of Medici (London, 1985), p.172

7. 'His great virtues…' et seq.: Machiavelli, *Istorie fiorentine*, Book VIII, Sec. 36

8. جرى اقتباس هذا العبارة الشهيرة في عدد كبير من المصادر. والعبارة الإيطاليّة الأصليّة: ago di balancia، وترجمتها الحرفيّة «إبرة كفتي الميزان المتوازيتين»، لكن الصيغة الأكثر شعريّة، التي تشير إلى البوصلة، أصبحت الأكثر قبولاً في الترجمة الإنجليزيّة، ربما لكونها أكثر ملاءمة. انظر على سبيل المثال العنوان المتعلق بأسرة ميديتشي في الطبعة الشهيرة للموسوعة البريطانيّة عام 1911، مجلد 28، ص33، وهي مقالة من إنشاء الأكاديمي الإيطالي الشهير المختص بعصر النهضة: باسكوال فيلاري.

9. «الراهب الضئيل»: تجمع معظم المصادر أن سافوناورلا يستخدم هذه العبارة، انظر، على سبيل المثال، آخر سيرة غيريّة عن سافوناورلا.

Lauro Martines, *Scourge and Fire: Savonarola and Renaissance Italy* (London, 2006).

10. كان سيلفسترو؛ الراهب المخلص والمقرّب من سافوناورلا، يؤمن أنه سمع تلك الكلمات من سافوناورلا ذاته. انظر:

Lives of the Early Medici: As told in their correspondence, trans. & ed. Janet Ross (London, 1910), p.340

11. جرى النقاش حول هذا اللقاء بين سافوناورلا ولورينزو المُحتضر بدرجات مختلفة من الإسهاب والتفصيل من جانب العديد من المصادر المتخصّصة، انظر على وجه الخصوص:

William Roscoe, *The Life of Lorenzo de' Medici* (London, 1865), pp. PP. 354-5, and Pasquale Villari, La Storia di Girolamo Savonarola e de' suoi tempi, 2 vols (Florence, 1887), Vol. I, pp.157-60, 182-6

وهو يستند إلى بعض مصادر ذلك العصر الأصليّة، فضلاً عن امتحانه موثوقيّة تلك المصادر.

12. ''**Lightning flies...** «: cited in Latin and English in Roscoe, *Lorenzo*, pp.368-9. I have not used Roscoe's translation.

٦- أمير في كل شيء ما خلا الاسم

1. ذكرت تقارير ذلك العصر أن السنة التي ولد فيها لورينزو هي 1448، ذلك أن رأس السنة الفلورنسيّة لا يبدأ إلا بحلول عيد البشارة، الموافق للخامس والعشرين من آذار. وقد التزمت، في هذا الشأن، بالاستخدام الحديث لرأس السنة طوال الوقت.
2. **'give way...'**: letter from Lucrezia to her husband, Piero de' Medici, dated 17 May 1446. See Ross, Early Medici (correspondence), p.50
3. **'theatrical performances...'**: *see History of the Popes*, ed. Antrobus, Vol. III, p.6, citing as his source the contemporary Giovanni de Pedrino, Cronica di Forli
4. **'Lorenzo is learning...'**: letter from Lucrezia de' Medici to her husband Piero, 28 February 1458. See Ross, Early Medici, p.60.
5. **'by imitating...'**: letter from Marsilio Ficino to Lorenzo de' Medici, undated. See Ross, Early Medici, p.76
6. **'to see him...'**: Machiavelli, Istorie Fiorentine, Book VIII, Sec. 36
7. **'act as a man...'** *et' seq.*: letters from Piero de' Medici to Lorenzo in Milan, May 1465. See Ross, Early Medici, pp.93-5
8. تتفاوت الأرقام المتعلقة بتجارة حجر الشب، عامّة، والمداخيل البابويّة في هذه الفترة بصورة كبيرة. وقد استقرأت ما اعتمدته من أرقام، في المجمل، من:

   Jean Delameau, *L'Alun de Rome X Ve-XIXe siécle* (Paris, 1962), as well as Raymond de Roover, *The Rise and Decline of the Medici Bank 1397-1494* (Harvard, 1963),

   وهو يركز على التجارة مع بروج ولندن، وثمة حقيقتان موثوقتان

تشيران إلى الحجم الكلي لتجارة حجر الشب في عام 1462، وقُدِّرت تجارة حجر الشب في أوروبا، قبل الاحتكار البابوي، بزهاء 300,000 فلورين، في حين بلغ حجم هذه التجارة إلى بروج والبندقيّة مجتمعة، إثر ذلك بثلاث سنين، 4,500 طن.

9. رسالة من بيرو ميديتشي إلى لورينزو في روما، آذار، انظر:
Early Medici (correspondence), ed. Ross. pp.102-3
10. **'I know nothing…'**: see de Roover, Medici Bank, p. 365, citing as the original source the Report of Angelo Tani in the collection *Mediceo avanti il Principato* (in the State Archives of Florence), filza 82, no.163
11. يظهر هذا الاقتباس بصور مختلفة في غير عمل، انظر على سبيل المثال:
Hibbert, Medici, p.73. The original source is Cosimo›s friend, the contemporary Florentine humanist Vespasiano di Bisticci.
12. **'Messer Dietisalvi…'** et sec.: Machiavelli, Istorie fiorentine, Book VII, sec. 10
13. **'When I see . . .'**: Lorenzo de' Medici, Sonnet V, opening 'Lasso a me!... ' *see The Autobiography of Lorenzo de' Medici The Magnificent*, trans. James Wyatt Cook (New York,1995), pp.80-2. This has the Italian and English versions on facing pages: I have not adhered to Cook's translation.
14. **'Lucretia [sic] was the mistress…'**: see Roscoe, Lorenzo p.74
15. **'Although neither…'**: cited in Cecilia M. Ady, Lorenzo dei Medici and Renaissance Italy (London, 1960), p.29. A copy of the few remaining pages of Lorenzo's Ricordi can be seen in the Florentine archives (*Publica Liberia Magliabechiana*).
ويزعم روسكو أنه نقل ذلك من مخطوطة مكتوبة بخط يد لورينزو، وهي مخطوطة مفقودة الآن، أما فيما خصَّ الطبعة الإنجليزية فانظر: Early Medici 150-6، وينقطع السرد في السجل عند التاريخ الموافق للفائح من آذار عام 1485 (في الواقع في عام 1484)، تبعاً للمخطوطة التي

التزمت بالسنة الفلورنسيّة القديمة، التي انتهت في الخامس والعشرين من آذار.

16. **'good height'** et seq.: letter from Lucrezia de' Medici to her husband Piero, dated 'Rome 27 March 1467', see Ross, Early Medici, p.108
17. **'he who does not...'**: Machiavelli, *Istorie fiorentine*, Book VII. Sec.11
18. **'On the second day...'**: Lorenzo, Ricordi, see Roscoe, Lorenzo, Appendix XI, P.466
19. **'I would like...'**: collation of letters written 1-4 December 1469 by Lorenzo de' Medici in Florence to Galeazzo Sforza, Duke of Milan cited in Miles J. Unger, *Magnifico: Life of Lorenzo de' Medici* (New York, 2008), pp. 168-9
20. **'was greatly mourned...** ': Lorenzo, *Ricordi*. see Roscoe, *Lorenzo*, Appendix XI, p.466
21. **'in as civil...'**: cited in Tim Parks, *Medici Money: Banking, Metaphysics and Art in Fifteenth_Century Florence* (London, 2006), p. 199
22. **'LAU.R.MED'**: cited in F.W. kent, *Lorenzo de' Medici and the Art of Magnificence* (Baltimore, 2004), p.146
23. **'because none could...'**: Angelo Poliziano, *Stanze Cominciate per La Giostra di Giuliano de' Medici* (Turin, 1954)
24. **'Lorenzo, heady with youth...'**: Machiavelli, *Istorie Fiorentine*, Book. VIII, Sec.3
25. **'With regard to this...'**: ibid., Book. VIII, Sec. 2
26. **'Therefore, with the blessing...'**: see Ross, Early Medici,p.229
27. **'embittered and darkened...'** et seq.: Jacob Burckhardt, *The Civilization of Renaissance Italy*, trans. S. Middlemore (London, 1990), pp.40-1
28. **'without the sanction of...'**

جاء ذلك في وثيقة وجدت بين أوراق ستروزي.

(Carte Strozziane Series I, No. 10, fols 190-1), cited in de Roover, Medici Bank p.367

29. **'It is likely ...'**: ibid.
30. **'We've all got cucumbers...'**: Lorenzo de' Medici, Opere, ed. A. Simioni (Bari, 1914), Vol. II, Canti Carnascialeschi, p.247

2- الشر الأعمى

1. **'certain of the minor...'**: see Roberto Ridolfi, Vita di *Savonarola*, 2 Vols. (Florence, 1974) Vol. 1, p.14
2. **'Borso was a...'**: Pius II, Memoirs of a Renaissance Pope, trans. F. Gragg (New York, 1959)' p.114
3. **'the giving of robes...'**: Michele Savonarola, *De Nuptiis Battibecco et Serrabocca*, cited in Edmund Gardner, Dukes and Poets in Ferrara (London, 1904), p.81
4. **'subterranean dungeons...'**: Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. I, p.14
5. **'That which God...'**: cited in Ridolfi, *Vita...Savonarola*, Vol. 1, PP.5-6
6. **'he was in the habit ...'**: see Pacifico Burlamacchi, *La Vita del Beato Geronimo Savonarola* (Florence, 1937 edn), p.7.

استقيت هذه المعلومات من كتاب سيرة ترك غفلاً من اسم المؤلف. وقيل إن مؤلِّفه هو الراهب باسيفيكو بورلاماكي، الذي غالباً ما نُعِت بـِ « بورلاماكي الزائف»، بسبب ما اعتقده كثيرون أنه ليس اسمه الحقيقي. وكان المؤلف، بصرف النظر عن هويته الحقيقية، يعرف سافونارولا ودائرته المقرَّبة، ومن المرجح أنه شهد أو سمع الكثير من أخباره شخصياً. ومع ذلك، فليست هذه السيرة المبتسرة موثوقة على نحو كامل، وذلك بما تشتمل عليه من المبالغات الصارخة، والأساطير المتعلقة بهذا الموضوع. ويُعدُّ بورلاماكي واحداً من المصادر المعاصرة لتلك الفترة، التي أُشير إليها في هامش سابق.

7. **'In the sadness...'**: the original version of this poem is cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. 1, p.10
8. **Fra Benedetto of Florence**: see *Vulnera diligentis* in Alessandro Gherardi, *Nuovi documenti e studi intorrno a Girolamo Savonarola* (Florence, 1887), PP.7-8
9. **'not had desire for...'**: Savonarola, Prediche sopra Aggeo, ed L. Firpo (Rome, 1965), p.325
10. تزخر أعمال سافونارولا بهذه المشاعر، وقد وردت هذه الحادثة بالذات في:

Stanley Meltzoff Botticelli, Signorelli and Savonarola (Florence, 1987), P. 51

11. **'the bloody...'**: Savonarola cited in Pierre Van Passen, A *Crown of Fire. The Life and Times of Girolamo Savonarola* (New York, 1960), p.29
12. **'the partisans...'**: ibid., drawing on descriptions by contemporary chroniclers
13. **'Caleffini reports...'**: ibid.
14. **'Now those who live...'**: *et' seq.*: Girolamo Savonarola, A Guide to Righteous Living and Other Works, trans. Konrad Eisenbichler (Toronto, 2003), pp.62, 3
15. سفر التكوين، الإصحاح الثاني عشر، آية رقم (4) (نسخة الملك جيمس). يشير سافونارولا إلى هذا في عدد من عظاته، انظر على سبيل المثال: predica XLX Spora Aggeo، التي ألقيت في التاسع عشر من كانون أول لعام 1494. وقد استخدمتُ الإحالات الكتابية، التي تضمنتها عظات سافونارولا. وينطوي هذا على مفارقة تاريخيّة، ذلك أن نسخة الملك جيمس لم تكن نشرت في إنجلترا، بعد ذلك التاريخ، بما يزيد عن القرن. ومع ذلك، فإن هذه النسخة بدت وكأنها أكثر ملاءمة للتعبير عن كلمات سافونارولا ونبرته.

16. **'truly this would have...'**: *et seq.*: Savonarola's letter to his father Niccolò, 25 April 1475, see Savonarola, *Le Lettere*, ed. Roberto Ridolfi (Florence, 1933), pp.1-3. There is an English version in Savonarola, *A Guide to Righteous Living* . . ., pp.35-7. Only the latter includes the address to his father.
17. **'rejoice that God ...'**: Savonarola, Lettere, p.4
18. **'a strong man ...'**: letter of 25 April 1475, ibid., p.1
19. **'My son...'**: see Ridolfi, *Vita ... Savonarola*, Vol. 1, p. 12, citing as his original source Fra Benedetto, *Vulnera Diligentis*, ms. nella Biblioteca Nazionale di Firenze, Magl. XXXIV. 7 (che si completa col Riccardiano 2985), c. 13 t
20. **'the silence which enveloped...'**: ibid., P.15
21. **'where I found liberty...'**: ibid., p.16, citing several sources, including Burlamacchi and Gianfrancesco Pico della Mirandola's Vita
22. **'The sceptre her .. ,'**: Ridolfi, Vita ... Savonarola, vol.1, p.9
23. **'If the rapid...'**: Burckhardt. *Renaissance in Italy*, p.48
24. **'long silent streets...'**: *Charles Dickens, American Notes and Pictures from Italy* (London, 1908), p.321

3– فلورنسا في عهد لورينزو

1. **'He uses the...'**: despatch of 29 July 1484 from Buonfrancesco Arlotti to Duke Ercole of Ferrara, cited in Gardner, *Dukes... in Ferrara*, p. 207
2. **'With great expense...'**: despatch of 12 August 1484 from Arlotti, cited ibid., p.208
3. **'That same night...'**: ibid., p.208
4. **'Thus at last . . .'**: Machiavelli, Istorie Fiorentine, Book VIII, Sec. 28
5. **'Jesus, highest good...'**: *et seq.*: Girolamo Savonarola, Poesie, *tratte dall' autographo*, ed. C. Guasti (Florence, 1862), p.41

6. **'mind and the radiance...'**: Marsilio Ficino, *Opera*, ed. A. H. Petri (Basle, 1576), Vol. I, pp.834-5
7. **'neither gravity...'**: see Ronald Lightbown, *Sandro Botticelli* (London, 1978), Vol. 1, p.72, citing A. Politian, *Prose volgari ineditedi e poesie...*, ed. I. Del Lungo (Florence, 1867), pp.253-5
8. **'thirteen leather bags'**: many sources mention these bags; see, for instance, Tim Parks, *Medici Money* (London, 2005), p.220, and Lauro Martines, *April Blood* (London, 2003), p.203
9. **'Between May and September...**: de Roover, Medici Bank, p.66
10. **'The city was in perfect...'**: *Francesco Guicciardini, Storie fiorentine dal 1378 al 1509*, ed. Roberto Palmarocchi (Bari, 1931), p.72
11. **'He was a man . . .'**: cited in Roscoe, *Lorenzo de' Medici*, p.265
12. **'fisher of men'**: cited in James Hankins, 'Marsilio Ficino', Routlede Encyclopedia of Philosophy, ed. E. j. Craig, Vol., p.655
13. **'not as a deserter'** et seq.: cited in James Hankins, 'Pico della Mirandola', *Routlede Encyclopedia of Philosophy*, ed. E. J. Craig, Vol.7, p.387
14. **'piously philosophising'**: cited in Ridolfi, *Via... Savonarola*, Vol. 1, p.69

15. أخذت المعلومات التالية المتعلقة بتعاليم سافوناورلا وعظاته، التي استمدت من رهبانه ومعاصريه، من ثلاثة مصادر، وهي:

Placido Cinozzi, *Epistola, p.10 et seq.*, the contemporary historian of San Marco, Roberto Ubaldini, Annalia (Cronaco deli Convento di San Marco), p.135 et seq., which was written in 1505 and Burlamacchi, *Savonarola* (1937 edn), p.16

ومن الأيسر الحصول على كثير من هذه المعلومات من الطبعات الإنجليزيّة للسير، التي كتبها كل من فيلاري وريدولفي، وقد تصرّفت بها على نحو ما، انظر:

Pasauale Villari, *Savonarola*, trans. Linda Villani (London, 1888),Vol. 1. pp.71-3, and Roberto Ridolfi, Savonarola, trans. Cecil Grayson (London, 1959), pp.14-15.

ولم أتبع ترجماتها بصورة حرفية.

16. **'I had neither...'** et seq.: , Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, ed. P. G. Ricci, Vol. 1, p.50 and *Prediche sopra Ruth e Michea*, ed V. Romano, cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol.1, p.26
17. **'many reasons...'**: see the fifteenth-century document re the trial of Savonarola in the documents reprinted in Villari, '*La stories.. di Savonarola*, Vol.2, p. cxlix et seq.
18. **'You should consider...'**: see letter 5 December 1485 in Savonarola, Le Lettere ed. Ridolfi, p. 5-11
19. **'Most honourable...'**: *et seq.*: ibid, p. 5-11
20. فيما يتعلّق بما قدمه سافونارولا من أسباب حول حلول عقاب الكنيسة الوشيك، فضلاً عن الاقتباسات المأخوذة من ملاحظات سافونارولا اللاتينيّة على عظاته لعام 1486، التي اكتشفتها ريدولفي، انظر:
Roberto Ridolfi, *Studi Savonaroliani* (Florence, 1935), pp.44-52. More readily available English accounts can be found in Ridolfi, Savonarola (trans. Grayson), pp.24-5, and Desmond Seward, *Savonarola and the Borgia Pope* (Stroud, 2006), p.45
21. **'When I...'** et seq.: Savonarola, A Guide to Righteous Living..., p.65

4- تثبيت دعائم أسرة ميديتشي

1. **'Be careful not...'** et seq.: Letter from Lorenzo de' Medici to Piero de' Medici, 26 November 1484, see Ross, Early Medici pp.260-5
2. **'Not much is...'**: de Roover, *Medici Bank*, p.349
3. انظر عظة سافونارولا الواردة في كتاب جيوفاني ديلا ميراندولا:
His life by his nephew Giovanni Francesco Pico translated from

the Latin by Sir Thomas More (London, 1890 edn), pp.26-7.
وقد قمت هنا بإعادة صياغة لغة القرن السادس عشر بلغة إنجليزيّة يسيرة، لمزيد من الإيضاح.

4. **'As a desyrous…'**: ibid., p.9, with the same qualification as above
5. **'pleasant enough…'**: cited ibid., p.85
6. هناك تقارير متباينة قليلاً حول حادثة أريزو، وهي مذكورة في عدد من كتب السِّير، انظر على سبيل المثال المصدرين اللذين يستشهدان بالمقالة التي كتبها دي. بيرتي في مجلة (Revista Contemporanea) وهما:
Eugenio Garin, *Giovanni Pico della Mirandola: Vita e Dottrina* (Florence, 1936), p.25, and Giovanni Semprini, *Giovanni Pico della Mirandola* (Todi, 1921), P55 et seq. Both these sources cite the article by D. Berti in the journal Rivista Contemporanea, Vol. XVI-XVII (Turin, 1859), pp.49-51 docs I-III (one of which is *Antonimo Maliabechiana*). In English, see Seward, *Savonarola*, p.27

5- التحدّي الذي جاء به بيكو

1. A complete reprinted text of Pico's these can be found in Giovanni Pico della Mirandola, *Conclusiones sive Theses DCCC* (Geneva, 1973), pp.27-90
2. **'maintain nothing…'**: see Pastor, History of the Popes, Vol. p.342
3. p.117 **'on public...'**: Pico letter of 12 November 1486, see Chanoine Pierre- Marie Cordier, Jean Pie de la Mirandole (Paris, 1957), p30
4. **'heretical, rash, and…'**: see Pastor, *History of the Popes*, vol. 5, p.343 p.89 'in twenty nights': cited ibid.
5. **'We have given...'**: G. Pico della Mirandola, De hominis

dignitate ... ed E. Garin (Florence, 1942), Vol. 1, pp.104,6

6. **'Pain in my feet...'**: cited in Hugh Ross Williamson, Lorenzo the Magnificent (London, 1974), p.262
7. **'When the spirit escapes...'**: Roscoe, Lorenzo, p.308, n41, gives the Italian version, though I have not adhered to Roscoc's translation
8. **'This is the greatest...'**: letter from Lorenzo de' Medici to the Florentine ambassador in Rome, 14 March 1489, see Ross, Early Medici, p.303
9. **'The Count della Mirandola...'**: letter from Lorenzo de' Medici to the Florentine ambassador in Rome, 19 june 1489, see Ross, Early Medici, p.310
10. **'I much wish to...'**: letter from Lorenzo to the Florentine ambassador in Rome, 14 March 1489, see Ross, Early Medici, p.303
11. انظر ترجمة غريسون لكتاب ريدولفي حول سافونارولا. وقد وردت الكلمة قبل الأخيرة من الاقتباس، في هذه الترجمة الإنجليزيّة (أو الأصل الايطالي) بصيغة «أنت»، وبينت المصادر الأخرى التي روت هذه الحادثة ضرورة أن لورينزو كان يشير إلى الضمير «نحن» فيما يتعلق بالختم، أي ختم أسرة ميديتشي، ذلك أن ختم بيكو لم يكن ليحمل أي صفة أو علاقة قويّة بالكنيسة في ذلك الوقت. ومن المؤكد أن ذلك كان سيفضي، لا محالة، إلى رفض الطلب المذكور في الرسالة. والمصدر الأصلي لهذا الاقتباس هو نسخة سابقة من:

    Burlamacchi, Vita del P.F. Girolamo Savonarola (Lucca, 1764) for full details of this, see Villari, *La Storia... Savonarola, Vol. I, p.91 n. 1. Except where indicated otherwise, from now on I have cited the Lucca 1764 edition of Burlamacchi, which is available in the British Library.*
12. **'that a scourge...'** *et seq.*: see notes to pp.72, 73

13. **'to various cities. . .'**: letter dated 25 January 1490, Girolamo Savonarola, Le Letter, ed. R Ridolfi (Florence, 1933), pp.11-14
14. **'In This Way…'**: Savonarola, Lettere, p.12 et seq.
15. **'when it is time…'**: ibid, pp.11-14
16. **'he spoke with a voice…'** et seq.: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 1, p.86, paraphrasing Burlamacchi, Savonarola, p.15
17. الشيوخ الأربعة والعشرون المذكورون في سفر الرؤيا، الإصحاح الرابع.
18. **'You must not be…'**: *Savonarola, Lettere*, pp.11-14
19. **'Go and do the task…'**: see Burlamacchi, Savonarola, p.18

6- عودة سافوناورلا

1. **'for this delaye…'**: cited in Giovanni Francesco Pico della Mirandola, *Vita*... (trans. More), p.27
2. **'Division of all the Sciences'**: see Villari, La Storia ...*Savonarola*, Vol. 1, p.108
3. **'a man in whom God...**: cited in Giovanni Francesco Pico della Mirandola, *Vita*... (trans. More), p.26
4. **'I am the hailstorm…'**: Savonarola, *Prediche sopra Ruth e Michea*, ed. V. Romano (Rome, 1962), Vol. 2, p.91.
   تُشكل هذه المجموعة وغيرها من مجموعات عظات سافوناورلا جزءاً من الأعمال الكاملة (الطبعة الوطنيّة edizione nazionale) ولما كانت مجلدات منفصلة وصادرة بتواريخ مختلفة، وغالباً ما قام بتحريرها كتاب مختلفون، فقد قمت بالإحالة إلى العناوين الفرديّة الخاصّة بكل منها.
5. **'he did not speak…'**: Francesco Guicciardini, Storie florentine, ed. R. Palmarocchi (Bari, 1931), p. 108
6. **'by all kinds of people'**: see Ridolfi, Vita... Savonarola, Vol. 1, p.57, citing Girolamo Savonarola, *Compendio di rivelazioni*, ed A. Crucitti (Florence, 1933)

7. '1 was unable...': ibid., p 58
8. 'You fool...: ibid.
9. 'a terrifying...': ibid.
10. 'a time such as...' et seq.: see Seward, Savonarola, p.53 and Villari, *La Storia*... Savonarola, Vol. 1, p.133 et seq.,
    كلاهما يورد مصدره بوصفه مخطوطة أصليّة مكتوبة بخط يد سافوناورلا، والمعروفة باسم:
    Compendium Revelationum (for details of this, see Villari, *La Storia*... *Savonarola*, Vol. I, p.135 n.1)
11. 'the preacher for...': see Ridolfi, Vita... Savonarola, Vol. I, p.56, citing Savonarola, *Compendio di rivelazioni*,
    وهي ترجمة إيطاليّة عن الأصل اللاتيني لبعض الصفحات التي احتوى عليها كتاب جامع الكشوفات.
12. 'as a result...': ibid. p.55
13. 'which forces me...': et seq.: Villari, *La Storia*... *Savonarola*, Vol. pp.136-7' citing Documento VIII, p.XXXIII,
    وهو يتوفر على العظة كاملة، ويقع في آخر المجلد الأول.
14. 'I believe that Christ...': cited in Martines, *Savonarola*, p.27
15. 'a certain respect...': Guicciardini, *Storie*, p.108
16. 'a man eminent...': see Poliziano *Letters* [Latin and English], Book IV, Letter II, p.237
17. 'The ultimate aim...': see Villari, La Storia... *Savonarola*, Vol. 1, p.106, citing Girolama Savonarola, *Compendium totius philosopiae tam... moralis* (Venice, 1542), Book 1, p.25
18. 'I have met...': Poliziano cited in Ross Williamson, Lorenzo, pp.238-9
19. 'musical voice...': Poliziano, letter to Tristano Calco, cited in Villari, *La Storia*... *Savonarola*, Vol. I, p.8o

20. **'Father, there is…'** et seq.: in a letter by his brother, the poet Girolamo Benivieni, to Clement VII, cited in Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, pp.51-2
21. **'I shall wax...**: cited in Latin in several sources: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.26, citing as one of his sources Roberto Ubaldini, 'the future chronicler of San Marco'
22. **'It is not for you…'**: Acts, Ch. 1, vv.7-8
23. فيما خصّ التفاصيل والظروف المحيطة بعظة الراهب ماريانو، استندت إلى مجموعة متنوعة من المصادر، بما فيها:

    Villari, *La Storia…Savonarola*, Vol. 1, p.79 et seq., Ridolfi, Vita Savonarola, Vol. I, PP64-5' and Seward, Savonarola, pp.55-6,

    واعتمدت كذلك على المصدرين الأصليين، اللذين ارتكن إليهما الجميع، وهما:

    Burlamacchi, Savonarola, p.23 et seq., and Placido Cinozzi, *Epistola de vita et moribus Ieronimo Savonarola*, which can be found in P. Villari and E. Casanova, Scelta di prediche e *scritti di fra Girolamo Savonarola etc* (Florence, 1887).
24. **'You will not…'**: see Ridolfi, Vita... Savonarola, Vol. 1, p.50, who Cites the original Latin document reproduced in Villari, *La Storia …Savonarola*, Vol. 1, p. XXXIII, which pertains to 'after Easter 1491'.

    لقد قمت باختيار تأويل عريض لهذا التاريخ، وهو يبدو ملائماً.

٧- القط والفأر

1. **'Who made me...'** *et seq.*: Burlamacchi, *Savonarola*, p.24 *et seq*.
2. **'A foreign monk…'**: ibid.
3. **'Is he asking…'**: see Ridolfi, Vita… Savonarola, Vol. 1, p.67, where he is paraphrasing Burlamacchi, *Savonarola*, p.24 *et seq*.
4. هذه ترجمتي بتصرف للنص الإيطالي ذي الطبيعة الاصطلاحيّة، انظر:

Ridolfi, *Vita… Savonarola*. Vol. 1, p.68, citing Burlamacchi op. cit., p. 25, and Cinozzi op. cit., p.13

5. **'all his enemies met…'**: Machiavelli *Istorie Fiorentine*, Book VIII, Sec.36

6. وردت أنباء هذا الاجتماع في كتب السير الرئيسية، انظر على سبيل المثال:

   Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. I, p.59, and especially Villari, La Storia... Savonarola, Vol. 1, p.139, where note 3 gives a list of the many contemporary sources, which include Burlamacchi, Cinozzi and Benivieni op. cit.

7. **'So great was the persecution...** ': see *The Autobiography of Lorenzo de' Medici: A commentary on my sonnets*, ed. & trans. James Wyatt Cook (Binghampton, 1995)' Sonnet x, p.104. This has the Italian and English translations on facing pages; I have not adhered to Cook's translation.

8. **'To prevent the ...** ' : see Ross, *Early Medici*, p.302

9. **According to some sources…** : see Parks, *Medici Money*, p.240.

   مما لا شك فيه أن تعليم جيوفاني رتّب على لورينزو قدراً كبيراً من الديون، لكن المبلغ المذكور من الجائز أن يكون، في واقع الأمر؛ مقدار ما يدين به جيوفاني لبنك ميديتشي، ويبلغ 7,500 فلورين كما يذكر روفر في كتابه بنك ميديتشي، وهي ديون تجاوزت موعد السداد بسنتين.

10. **'accusing Lorenzo of…'**: see Ross Williamson, *Lorenzo*, p.261

11. **'These great men…'**: see Roberto Ridolfi, Studi Savonaroliani (Florence, 1935), p.100;

    يُقدِّم أحد الهوامش تعريفاً بهذه العظة، فيقول إنها أُلقيت يوم السبت الذي أعقب الأحد الثاني في الصوم الكبير.

12. **'the whole city…'**: cited in Ross Williamson, Lorenzo, p. 209

13. **'30 loads of gifts…'**: Luca Landucci, *Diario Fiorentino dal 1450 al 1516*, ed. I del Badia (Florence, 1883), p.63

14. **'to have changed...'**: ibid. p.209
15. **'I recommend that...'** et seq.: letter from Lorenzo de' Medici, March 1493, in *Laurentii Medicis Magnfici Vita (Adnotationes et Monumento)*, 2 vols (Pisa, 1784), Vol. 2, p.308 et seq. A more readily available complete English version can be found in Ross, *Early Medici*, pp. 332-5
16. **'one is foolish...'**: cited in de Roover, *Medici Bank*, p.37
17. **'5 April...'**: *Landucci, Diario*, p.63
18. **'That night Savonarola...'**: Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. 1, pp.73-4
19. **'on the night...'** and following footnote: see Girolamo Savonarola, *Compendium Revelationum*, in Giovanni Francesco Pico della Mirandola, *Vita R.P.Fr Hieronimi Savonarolae Ferrarensis Ord. Predicatorum*, ed. J. Quétif (Paris, 1674), Vol. 1, p.231, and Girolamo Savonarola, *compendio di rivelazioni*, ed. F. Buzzi (Casale Monferrato, 1996), P. 47 For Villari's argument, see his *La Storia...Savonarola*, Vol. 1, pp.154-6; for his vision date, see ibid., P 165
20. **'Pico arrived to see...'** *et seq*.: Poliziano, *Letters*, pp.236-8
21. **'and restore what has...'** *et' seq*.: see note to p.13

8– نهاية عصر

1. **'On the night...'**: Poliziane, *Letters*, p.248
2. **'people heard wolves...'**: Guicciardini, *Opere* (Milan, 1998), p.190
3. **'there were many...'**: *Machiavelli, Istorie fiorentine*, Book 8, Sec. XXXVI
4. **'Besides these incidents...'**: Roscoc, *Lorenzo*, pp.359-60
5. **'In the eyes of the world...'**: Landucci, *Diario*, P.54

6. **'the people of Florence...'**: Machiavelli, *Istorie fiorentine*, Book 8, Ch. XXXVI
7. **'It is now generally…'**: de Roover, *Medici Bank*, pp.372-3
8. **'a sermon is preached…'**: Landucci, *Diario*, p.53
9. **'Each morning in…'**: written by Niccoló Guicciardini, 13 April 1492, see Ridolfi, *Studi Savonaroliani*, p.264
10. هذه إعادة صياغة مختصرة، وقد حرَّرها فيلاري وجمع أجزاءها من النسختين اللاتينية والإيطاليّة، اللتين خطّهما سافوناورولا؛ انظر:
Villari, La Storia Savonarola, Vol. 1 p.167. The Latin version can be found in Savonarola, *compendium Revelationum*, which is included in Gianfrancesco Pico della Mirandola, Vita R.P.F. Hieronimi p.231 et seq. and an Italian version can be found in Savonarola, *compendio di rivelazioni*, ed. Buzzi (Rome, 1996), pp.244-5
11. **'Au of Florence…'**: letter written by Bernardo Vettori, 7 May 1492, see Ridolfi, *Studi Savonaroliani*, p.107
12. **'he could still…'**: Ascanio Condivi, *Vita di Michelangelo* (Milan, 1928), p.192
13. become an exceptional preacher et seq.:
تُعلّق العديد من المصادر المعاصرة آنذاك؛ من ماكيافيلّي وبولتسيانو إلى كونديفي، على عظات سافوناورولا وأسلوبه في الخطابة، وما يتعلّق بتغيّر لكنته، فضلاً عن تطوُّر أسلوبه الوعظي.
14. 'the dismissal of Soderini and Rucellai: this is mentioned in Meltzoff, *Botticelli..Savonarola*, p.256. For the most part, precise details can only be gleaned obliquely; see, for instance, Donald Weinstein, *Savonarola and Florence* (Princeton, 1970), p.121

٩- فُلك نوح

1. جرى نشر النص اللاتيني بعد ذلك بأكثر من أربعين سنة في كتاب:
   Girolamo Savonarola, *Reverendi P. Fra Hieronymi Savonarole in primam D. Joannis epistolam*… [Bernardini Stagni edition] (Venice, 1536)
2. **'Savonarola spoke in…'**:

   تظهر هذه الصيغة المعدّلة، بصورة واضحة، في:

   Villari, *La Storia… Savonarola*, Vol. 1 p.200
3. **'The length of the ark…'**: Genesis, Ch. 6, V.15
4. **'each day he…'**: Villari, *La Storia… Savonarola*, Vol. 1, p.201
5. **'Gladius Domini…'** *et seq.*: Savonarola, Compendium Revelationum, pp.229-31
6. **'he shall take…'**: cited in Seward, Savonarola, P.67
7. **'I will go…'**: Isaiah, Ch. 45, V.2.
8. **'O Lord, we…'**: see Villari, *La Storia… Savonarola*, Vol. 1, p.199

   وهذه إعادة صياغة لـ:

   '*Prediche sul Salmo* Quam bonus' (Prato, 1846), sermon XXIII, 562-79.

   وهذه الأخيرة هي إعادة طباعة للملخصات الأصليّة، التي كتبت باللاتينيّة من جانب سافونارولا نفسه بعد إلقاء هذه العظات. وكما يذكر فيلاري في المرجع السابق فإنّ: «هذه العظات ترجمت ونشرت لاحقاً بعد أن نقحها جيرولامو جيانوتي، خلال القرن السادس عشر». ومن المثير للاهتمام أن ما تعلّق بالخطر العثماني وإمكانية قيام الرب باستخدام الأتراك سوط عذاب، لم يعد له جيانوتي في ضوء الغزو الفرنسي اللاحق، الذي بدا للكثيرين أنه تحقق لنبوءة سافونارولا.
9. **'he gave up…'**: Giorgio Vasari, *Lives of the Artists*, trans. George Bull (Harmondsworth, 1965), Vol. I, p.227

10. **'in mind alone…'**: cited in Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.146.

وثمة العديد من التعبيرات المشابهة، التي عكست إعجاب سافوناورولا الفكري بـ «بيكو».

11. **'a previously undiscovered…'**: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.147

12. المرجع السابق. فيما يتعلق بمصادر ريدولفي التي لا يطالها الشك، انظر المجلد الثاني حيث يستفيض بالحديث حول هوامش سينيبالدي، التي تظهر في حواشي إحدى نسخ:

Domenico Benivieni, *Defensione [of Savonarola]* (Florence, 1496), which is conserved in the Collezione Guicciardiniana 3.7.91, at the Biblioteca Nazionale di Firenze.

13. **'According to... the future chronicler…'**: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.147, 65

14. **'advice and judgements'**: cited in Ridolfi, *Vita…Savonarola*, Vol. 1, p.148. For further information on Savonarola's participation, see ibid., Vol.II, pp.349-50 n.13.

10– السعي نحو الاستقلال

1. **'a life of sanctity...'**: Savonarola, *Le Lettere* (ed. Ridolfi), p.33
2. **'He intended…'**: this is taken from Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, pp.101-2, who cites as his sources Alessandro Gherardi, *Nuovi documenti e studi intorno a Girolamo Savonarola* (Florence, 1887), p.61 et seq., and Burlamacchi, Savonarola (1937 edn), p.51 et seq.
3. **'When we have completed…'**: ibid.
4. **'it is my intention…'**: Savonarola, *Le Lettere* (Ridolfi) p30
5. **'At all times…'**: letter from Lorenzo de' Medici, March 1493, in *Laurentii Medicis Magnifici Vita (Adnotationes et Monumento)*,

2 vols (Pisa, 1784), Vol. 2, p.308 et seq.

ولغاية الحصول على طبعة إنجليزيّة مكتملة ومتيسّرة، انظر:

Ross, Early Medici, pp.332-5

6. '**[Cardinal] Rodrigo Borgia...**': see Pastor, *History of the Popes*, Vol. 5 p.385b, citing as 'the annalist' the contemporary historian Piero Parenti, *Storie fiorentine*, a work that was later edited and published. Pastor consulted the original document, which can be found in the Codex Magliabecchi, XXV, 2, 519, f. 133b in the National Library, Florence.

7. جرى إيراد هذه الملاحظة بصور مختلفة في العديد من المصادر، انظر على سبيل المثال:

Seward, Savonarola, p.64; James Reston Jr, Dogs of God (New York, 2005), p.287; and the authoritative and respected late Michael Mallett, *The Borgias* (London, 1969), p.128

الذي احتوى للأسف على خطأ تحريري أدّى إلى ضغط مضلل للمعلومات.

8. لتوكيد صحة الموقف غير المحتمل، الذي جرى بين الكاردينال كارافا والبابا ألكسندر السادس، انظر على سبيل المثال ريدولفي في كتابه عن سافونارولا، الذي يستشهد بعدة روايات معاصرة:

Ridolfi, Vita... Savonarola Vol. I, p.95, (see Vol. II, p.526 n.24), including Cinozzi, Epistola..., p.12; Burlamacchi, *Savonarola* (1937 edn), p.56; and Ubaldini,

الذي يستشهد في كتابه التاريخي عن سان ماركو بالكاردينال كارافا.

9. '**If you had arrived...**': cited in Burlamacchi, *Savonarola* (1937 edn), p.56

10. جرى إيراد هذه الكلمات التقليديّة الأخيرة في:

Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 1, p.177 n.1,

حيث أورد عدة مصادر سيريّة ووثائقيّة.

11. فيما خصَّ التفاصيل الكاملة المالية العامّة لهذه الفترة، انظر:
de Roover, *Medici Bank; Parks, Medici Money*; and Niall Ferguson, *The Ascent of Money* (London, 2008)
12. **'vivae vocis…'**: cited in Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.102, giving his sources as Gheraradi, Nuovi documenti…, p.61 et seq., and Burlamacchi, Savonarola (1937 edn), 51 et seq.
13. **'Hebrew, Greek…'**: cited in Villari, La Storia… Savonarola, Vol. I, p.178 n. 2, where he gives Burlamacchi, *Vita del P.F.* Girolamo Savonarola (Lucca, 1764), p 44 et seq., as his source
14. **'A rumour quickly spread…'** et seq.: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, p.113, citing as his source the contemporary eyewitness Alessandro Bracci, in a letter dated 23 June 1493. Further details, see Vol. 2, p.232 n.32.
لقد استخدمت عبارات براتشي، تبعاً لترتيب مختلف، كي أحافظ على تعاقبية الزمن.
15. **'They contain…'**: see the English edition, Roberto Ridolfi, *The Life of Girolamo Savonarola*, trans. C. Grayson (London, 1959), p.70

11– «تواجه إيطاليا أوقاتاً عصيبة…»

1. **'Italy faced hard…'**: Machiavelli, *Decennale Primo*, lines 1-3
2. ثمّة مراجع عديدة معاصرة تتناول الحالة العامّة والتطورات التاريخيّة في إيطاليا، ولا سيما في فلورنسا، خلال هذه الفترة الفائقة الأهميّة بين سنتي 1493–1494. انظر على سبيل المثال أعمال كل من شيريتاني، ولاندوتشي، وماكيافيلّي، وغيتشارديني. وقد أفدت من كل هؤلاء، فضلاً عن العديد من التفاصيل الأعم التي كتبت منذ ذلك الحين، انظر على سبيل المثال : Paul Strathern, The Medici.
3. **'boasted that the Pope…'**:

سجّل هذه الملاحظة المؤرخ البندقي المعاصر آنذاك دومينيكو ماليبيرو في:

Annali Veneti (Florence, 1843 edn), p.482

4. سفر هوشع، الإصحاح السابع.
5. **'20th January…'**: Landucci, Diario, p.66-7.
6. فيما يتصل بحادثة المنحوتات الثلجيّة، فقد جاء على ذكرها كل من: كونديفي وفاساري، وكلاهما كان من معاصري ميخائيل أنجلو وعلى معرفة شخصيّة به. وثمّة مصدر إنجليزي من الأيسر الحصول عليه هو:
Michael Holroyd, *Michael Angelo Buonarotti* (which contains in translation The Life of Michelanelo by Ascanio Condivi, London, 1911), pp.12-13 (Ch. 1, Sec. XI)
7. **'a horde of...'** et seq.: Dante, Inferno, Canto XV
8. **'perverse vices…'**: Dante Aligheri, Hell, trans. Dorothy L. Sayers (Harmondsworth, 2001 edn), Canto XV, commentary p.97
9. **'We heard that…'**: Landucci, Diario, p.67
10. ذكرها جان كلوزيل في كتابه: *Anne de France* ، مستشهداً بالمؤرخ الفرنسي المعاصر لتلك الفترة؛ وهو بيير دي برانتوم، الذي ولد بعد وفاة الملكة آن بنحو عشرين سنة.
11. **'Lorenzo and Giovanni…'**: Landucci, Diario, p.67-8
12. **'the fleet of the King...'** et seq.: Landucci, Diario, p.69-70
13. **'the prime mover of…'**: Machiavelli, Decennale Primo, line 51
14. **'Italy faced hard times…'**: Machiavelli, Decennale Primo, lines 1-3, 4- 6, 16

12– «لأُهلك كل جسد فيه روح حياة»

1. **'I will destroy all flesh'**: Genesis, Ch.6, v.17 (Revised Standard version)

2. **'For Behold…'**: ibid.
3. **'Behold, the sword…'**: see Bartolomeo Cerretani, *Storie Fiorentine*, p.12, which appears in J. Schnitzer, *Zur Geschichte Savonarolas* (Munich, 1904), Vol. 3
4. **'Everyone walked…'**: Cerretani, Storie Fiorentine (Schnitzer), p.12
5. انظر: *Vasari Lives of the Artists*، ترجمة Bull)، مجلد 1، ص231، وذلك للحصول على نسخة لاتينيّة متيسّرة. ولم ألتزم هنا بترجمة بول.
6. **'Although he was…'**: Guicciardini, *Opere* (Bari, 1931)' Vol. 6, p.63
7. **'a young man of…'**: *Mémories de Philippe de Commynes*, ed. Mlle Dupont (Paris, 1843), Vol. 2, p.336
8. **'behind his hand...'**: ibid. p.340
9. **'A rumour was... '**: Guicciardini, *Opere* p.444
10. **'with regard to…'**: see *Mémoires de Philippe de Commynes* ed. Dupont, Vol. 2, pp.348, 352, and Philippe de Commynes, *Mémoires*, ed J. Calmette & C. Durville (Paris, 1925), Vol.3, pp.52, 56-7
11. **'that Lorenzo de' Medici...'** et seq.: Condivi *Vita di Michelangelo* (Milan, 1928), pp.50, 54
12. **'if the place had…'** Commynes Mémoires, ed. Calmette, Vol. 3, p.53
13. **'those who... .'**: ibid. p.56
14. **'he told [Piero] that...'** et seq.: ibid. pp.55-6
15. **'All the girls…'**: Mantuan envoy to Florence, cited in Hibbert, *Medici*, p.185
16. **'Before there was…'** et seq.: Savonarola, *Prediche sopra Ageo*, ed. Luigi Firpo (Rome, 1965), p.12
17. **'During the course…'**: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, pp.121-2, where he paraphrases Savonarola, *Compendio di Rivelazione*, c.6

18. **'A Dominican friar…'**: Mantuan envoy to Florence, cited in Hibbert, *Medici*, p.185
19. **'that it is time…'**: Cerretani, *Storie fiorentine*, p.11
20. **'a man of holy…'**: ibid.
21. **'We're finished!'**: cited in Martines *Savonarola*, p.38
22. **'forbidding anyone...'** et seq.: Landucci *Diario*, pp.75—6
23. **'Another proclamation...'**: Landucci, *Diario*, p.75

13- الإذلال

1. **'seigneur de Balsac'**: see Commynes, *Mémoires* (ed. Calmette) Vol.3, p.66
2. **'began pillaging...'**: ibid., p.67
3. **'It was believed…'**: ibid., p.67 n.1
4. **'others were behaving...'**: et seq.: ibid., p.67
5. **'Black scorch marks…'**: Niall Ferguson, The Ascent of Money (London, 2008), p.27
6. **'the Medici bank brought...'** et seq.: de Roover, *Medici Bank*, p.370
7. **'small in stature…'** et seq.: Guicciardini, *Opere*, Vol. 1, p.68
8. **'At last you have arrived, O King! ... '** *et seq*.: see Commynes, Mémoires (ed. Calmette), Vol.3, p.145; also Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. 1, Ch.10 opening pages; Guicciardini, *History of Florence*; Savonarola, Compendium Revelationes et al. The words I have used are a compilation from these sources.
9. **'the boat of true… '** et seq.: see Martines, *Savonarola*, pp.55-6' paraphrasing and then citing Savonarola, *Prediche sopra Ageo* (ed. Firpo), pp.80-2.

ما استخدمته من كلمات عبارة عن تجميع من هذه المصادر.

10. **'Girolamo Tornabuoni...'**: see Landucci, *Diario*, p.76
11. **'There was great cause…'**: Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 1, pp.242-3

12. يصفُ مؤرخو تلك الفترة جميعهم الدخول الفرنسي إلى فلورنسا. أما أفضل التقارير التي صدرت عن شهود العيان المعاصرين للحدث، فهي تلك التي ذكرها شيرتاني ولاندوتشي وبيرنتي، والتي يستشهد بهم المؤرخون من فيلاري، ومارتينيز وهيبرت وأنا هنا (وفي كتابي أسرة ميديتشي)، ولمعرفة وجهة النظر الفرنسيّة، انظر:
John S.C. Bridge, *A History of France from the Death of Louis XI, Vol. II, The Reign of Charles VIII*, p.149 *et seq*.
13. **'My brother…'**: *Letters de Charles VIII*, ed. P. Pélicier (Paris, 1930), Vol. IV, pp.111-12.
14. **'A gang of…'**: see Villari, *La Storia…Savonarola*, Vol. I, pp.250-1,
الذي استخدم عدة مصادر معاصرة مختلفة، وعلى الخصوص بيرنتي وشيرتاني.
15. **'only divine providence…'**: Piero Parenti, *Storia fiorentine*, Vol. I, 1476-8, 1492-6 (Florence, 1994) p.142
16. **'And all the while…'**: Landucci, *Diario*, p.82.
17. ينطبق الأمر ذاته على هذه الحادثة الشهيرة، كما على غزو الفرنسيين لفلورنسا. وتلمح المصادر المعاصرة آنذاك؛ مثل لاندوتشي، وشيرتاني، وغيتشارديني وغيرهم إلى المعاهدة والظروف التي أحاطت بتوقيعها. وهي لا تختلف إلا في التفاصيل، وتورد التواريخ اللاحقة القصّة ذاتها، مستخدمة الكلمات ذاتها تقريباً، وقد غدت قارّة في ثنايا الأسطورة.
18. أورد هذا الخطاب لاندوتشي، بصيغة معدَّلة، في يومياته، ص (87–88)، كما ذكر في غيرها من الروايات المعاصرة آنذاك، ومع ذلك فإن مصدره الرئيس هو:
Savonarola, Prediche XXVI *sopra Ruth e Michea*.
19. **'beneath the pious…'**: see Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.42

20. **'if he had lived…'**: cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.149; see also Pico: His life... (trans. More), p.26
21. **'the object of as much…'**: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. I, p.257, citing Parenti, Storie Fiorentine
22. **'The scientists used...'** *et seq.*: Daily Telegraph, February 2008

14– حكومة جديدة

1. **'Florence was stripped…'**: Guicciardini, *Opere*, ed. F. Palamanocchi (Bari, 1931), Vol. VI, p.105
2. **'When Charles VIII…'**: Guicciardini, *Opere* (Milan, 1998), p.208
3. **'an election ...'**: Landucci, Diario, p.89
4. **'Anyone who had...'**: Guicciardini, *Opere*, ed. f. Palmanocchi (Bari, 1931), Vol. VI, p.101
5. **'although they had…'**: ibid., p.25
6. **'12th December (Friday)…'**: Landucci, *Diario*, p.91
7. **'They decided that…'**: Guicciardini, *Opere*, (Milan, 1998), p.209
8. **'there were always...'** *et seq.*: Landucci, Diario, pp.94, 90, 92
9. **'Jesus Christus…'** *et seq.*: see Seward, *Savonarola*, pp.94, 96, citing Savonarola, *Predica XIII* sopra Aggeo
10. **'the people no longer...'** *et. seq.*: Villari, *La Storia…. Savonarola*, Vol. I, pp.265-6
11. For details of the Great Council, see Villari, *La Storia.. Savonarola*, Vol. I, pp.285-7
12. **'one-fifth of the male population...'**: Gene Brucker, *Renaissance Florence* (New York, 1968), p.268
13. **'to encourage...'**: Guicciardini, cited in Villari, *La Storia… Savonarola*, Vol. I , p.287
14. **'it so broadened…'**: see Lightbown, Botticelli, Vol. I, p.133

15. **'went on discussing...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.93
16. **'The new** ***Sinoria*****...'**: ibid., p.78
17. **'government introduced...'**: letter from Savonarola, written 1495-6, cited in Seward, Savonarola, p.95
18. **'in Italy...'**: see Savonarola, *Predica XIII* sopra Aggeo (12 December 1494)
19. **'This priest...'**: Landucci, *Diario*, p.97
20. **'because he had...'**: *et seq.*: Commynes, Mémorires, ed. Calmette, Vol.3 , p.144-5
21. **'a most peculiar...'**: Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. 2, p.197
22. **'We have heard you...'**: for the text of this letter, see Villari, *La Storia.... Savonarola*, Vol. I, Documento XXIII
23. **'firstly, because...'**: for the full text of this letter, see Savonarola, Le Lettere (Ridolfi), pp.55-58, also Villari, *La Storia.. Savonarola*, Vol. I, Documento XXIV
24. **'last sermon'** et seq.: see Savonarola, *Prediche XXVI sopra* i Salmi, ed. Vincenzo Romano, 2 vols (Rome, 1969-74)
25. **'The Lord has placed me...'**: *et seq.*: for the Latin version, see Girolamo Savonarola, *Compendiumn Revelationum*, in Giovanni Francesco Pico della Mirandola, Vita R.PFr. Hieronimi (ed. Quétif). For a modern Italian version, see Girolamo Savonarola, Tratto sul governo della Cittá di Firenze (*Casale Monferrato, 1996), which includes the* Compendio di rivelazione (ed. Fausto Sbaffoni), pp.37-161. For English citations see Herbert Lucas, *Fra Girolamo Savonarola* (London, 1906), pp.49-73; E.L.S. Horsborough, *Girolamo Savonarola* (London, 1911), pp. 88-91; David Weinstein, Savonarola and Florence (Princeton, 1970), pp.116-8 and Seward, Savonarola, pp.140-5

15- أصوات فلورنسا

1. **'at the Dogana...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.112, 114
2. **'though we may use...'** *et seq.*: Martines, *Savonarola*, p.149
3. **'On 24 May…'**: Landucci, *Diario* (1883 edn), p.106
4. **'There are many enemies…'**: see Savonarola's letter of 31 July 1495, cited in full in Villari, *La Storia.. Savonarola* (1887), Vol. I, Doc. XXIV, pp. cv-cvii
5. **'both sides of human…'** Jakob Burekhardt, *Die Kultur der Renaissance in Italien* (1926 Leipzig edn), p.119
6. **'When Michelangelo returned...'**: Condivi, Vita di Michelangelo (1928), pp. 59-60
7. **'all the slenderness…'**: Giorgio Vasari, Le Vite del piu eccelenti pittori, scultori a carchitetti, 4 vols, ed. Carlo L. Ragghianti (Milan, 1943-7), Vol. III, p.410
8. **'the miracle of how…'**: ibid., Vol. III, p.411
9. **'Botticelli became an…'**: ibid., Vol. I, p.869

16- صاعقة مباغتة

1. **'a bolt from…'**: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. I, p.202
2. **'the prior and Monastery…'**: and further citations from this Brief, see Savonarola, *le Lettere* Ridoif pp.231-3
3. **'gratla recuperandae…'**: see Ridolfi, *Vita… Savonarola*, Vol. I, p.204, citing his source as Codice Magliabechiano, XXXV, 190. This receipt was not dated.
4. **'no less than…'**: from a sermon preached on 18 February 1498, see Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, 2 Vols, ed. Pier Giorgio Ricci (Rome, 1955-6), Vol. I , p.47
5. **'With regards to prophecy…'** et seq.: see Savonarola, *Le Lettere*, pp.61-73

6. **'Thus the accusations...'**: see Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.207
7. **'I am well aware...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. I, p.404
8. **'The time for mercy...'** et seq.: from sermons delivered on 11 and 18 October 1495, cited in Savonarola, *Prediche spora i Salmi*, ed. Vincenzo Romano, 2 vols (Rome, 1969-74), Vol. 2 p.191 *et seq.*, p.218 *et seq.*
9. **'Pray to God...'**: ibid., Vol. 2, p.241
10. p.325 **'We command you...'**:

    للاطلاع على الرسالة البابويّة كاملة، انظر:

    Nuovi Documenti e Studi intorno a Girolamo Savonarola, ed. Alessandro Gherhardi (Florence, 1887), pp.390-1
11. **'some of my Sons...'**: Landucci *Diario*, p.125
12. **'Some boys took away...'** *et seq.*: ibid. pp.123-4
13. **'was also said...'**: *cited in Martines, Savonarola*, p.285.
14. **'Even in the face...'**: ibid.
15. **'16th February...'**: *et seq*. Landucci, Diario, p.124-5
16. **'Bliss it was...'**: William Wordsworth, *The Prelude* (London, 1926), Book XI, lines 108-9, p.401
17. **'steps were set up...'**: Landucci *Diario*, pp.125-6
18. **'In you, young men...'** *et seq.*: sermon delivered on 17 February 1496, see Savonarola, *Prediche sopra Amos a Zaccaria*, ed. P. Ghigglieri, 3 Vols (Rome, 1971-2)
19. **'the high priests of Rome...'**: et seq.: ibid., sermon 24 February
20. **'the light will vanish...'**: ibid., sermon 23 March
21. **'It is you who are...'** *et seq.*: ibid., sermon 10 April
22. **'Throughout this time...'** *et seq.*: Landucci, Diario, pp.131-3
23. **'Come to my next...'**: cited in Seward, Savonarola, p.158
24. **'If I coveted...'**: sermon delivered on 20 August 1496, see

Savonarola, *Prediche sopra Ruth e Michea*

25. **'In many places...'**: Landucci, *Diario*, p.138
26. **'that twelve ships...'**: ibid. p.139
27. **'The city of Florence...'**

17– محارق المتاع الزائل

1. **'The price of corn...'** *et seq.*: Landucci, Diario, pp.143-4
2. **'vanities', 'dead hair'**, etc.:

   تتكرر مثل هذه المصطلحات بكثرة في عظات سافونارولا، التي ألقاها في الصوم الكبير لعام 1497، وقد دارت حول سفر النبي حزقيال.

   (see note to p.350 below)
3. **'which are painted...'**: see Savonarola, *Prediche sopra Amos*, sermon XIII, delivered on 6 March 1496
4. **'monstrous image'**: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 1, p.505
5. **'Thus saith the Lord...'**: Ezekiel, Ch. 25, vv.16-17
6. **'Friars have a proverb...'** *et seq.*: Savonarola, Prediche sopra Ezechiele, ed. Roberto Ridolfi, 2 vols (Rome, 1955), Vol. 2, p.59
7. **'My Lord secretary...'**: see Gherardi, *Nuovi documenti*..., p.151 *et seq.*
8. **'condemning him as...'**: Parenti, cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.277
9. **'the death of his son...'**: see Savonarola, *Prediche sopra Ezechiele*, Vol. I, p.286
10. **'More than one...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.145
11. **'The city is more...'**: cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.278, who gives as his original source Antonio Capelli, *Fra Girolamo Savonarola e notizie intorno al suo tempo, in Atti della Deputatzione di Storia Patri per le provincie Modensi e Parmensi*, 'Vol. IV (1868), pp.301-406

12. **'imposed his views...'**: See Seward, *Savonarola*, citing Guicciardini, *Storie Fiorentine*, p.152
13. **'We suspected a plot...'**: *et seq*.: Landucci, *Diario*, p.145
14. **'The price of corn...'** *et seq*': Landucci *Diario*, p.146.
15. **'27th April. We heard that...'**: *et seq*. ibid, p.147
16. **'He here abandoned...'**: *et seq*: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp. 9-11,

    إذ يعيد فيلاري صياغة عبارات الدليل الذي قدّمه لامبرتو ديلاتيلا في الوثيقة رقم (1)، التي يمكن رؤيتها على الغلاف الخلفي للمجلد الثاني.
17. **'The outrage against...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, naming as his source Gherardi, Nuovi Documenti, pp.84-6

18– الأخذ بشبهة الهرقطة

1. **'a number of...'** *et seq*.: Landucci, Diario, p.147-8
2. **'broke it and...'**: ibid., p.151
3. **'on suspicion of heresy...'** *et seq*.: see Alexander VI's papal Brief of Excommunication, *Villari, La Storia... Savonarola*, Vol.2, Documento V, pp.xxxix-xl
4. وتعني، حرفياً، الحرمان من حق تناول القربان المقدس، وينبع هذا الطقس المسيحي من الإقصاء من الكنيس، كما جاء في العهد القديم. (انظر: سفر عزرا، الإصحاح العاشر) ويشتمل العهد الجديد على مثل هذه الأمثلة. انظر، مثلاً، إنجيل متى، الإصحاح العاشر، الآية 17. ويردُ ذلك عدة مرات في كتابات بولس الرسول. وقد تطور هذا الطقس الديني عبر القرون، لكنه احتفظ بالأساسيات العامة له.
5. **'To All Christians...'** et seq.: *Savonarola*, Le Lettere, pp.141-5
6. **'The palio of Santa Barbara...'**: *et seq*.: see Landucci, Diario, pp.152-5 , which cover the entries for June and July 1497
7. **'10 August...'**: ibid. p.156

8. **'the palace that night...'**: cited in Martines, *Savonarola*, p.194, giving Cerretani as his source.
9. **'Franceso Valori at last...'**: see Guicciardini, Opere (Bari, 1931), Vol. VI, p.142,

   اقتبست من طبعة أصلية مختلفة من كتاب مارتينيز حول سافونارولا، (ص195–196)، وقد قمت بجمع هذه الترجمات.
10. **'In the hours leading...'**: see Martines, *Savonarola*, p.195
11. **'Everyone astonished that...'**: Landucci, *Diario*, pp.156-7
12. **'Plague broke out...'**: ibid, p.154
13. **'Thus, my Giovambattista...'**: Savonarola, *Le Letter* (Ridolfi), p.178 *et seq*
14. **'For the tune being...'**: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, p.xxxv, where this letter from Paolo Somenzi to the Duke of Milan is reprinted amongst the documents
15. **'So great was the esteem...'**: see Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. II, p.315, citing Parenti, Storie fiorentine,

    الذي عزا، من جهته، هذه الكلمات إلى القس والمثّال المعاصر أمبوغيو ديلا روبيا.
16. **'We will not rely...'**: et seq.: Girolamo Savonarola, *Trionfo della Croce* (Siena, 1899).

    ويتضمن هذا النسختين اللاتينيّة والإيطاليّة موضوعتين على صفحات متقابلة، وهما مكونتان من فصول قصيرة جداً تقع في صفحة أو صفحتين فقط. أما الاقتباسات التي استخدمتها فهي مأخوذة من الأبيات الأخيرة الواردة في المقدمة، ومستهل الفصل الأول والثاني.
17. **'the mutable, restless...'** et seq.: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, p.99, giving as his source Savonarola, *Trattato circa il regimente il governo della citta di Firenze*, Part 1

19– التحدي السافر

1. **'At this time...'** *et seq.*: Landucci, Diario, p.161
2. **'when he received...'** *et seq.*: letter from Manfredo Manfredi to the Duke of Ferrara, dated 1 February [1498]: see Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, pp.319-20
3. **'total and free...'**: see Gherardi, Nuovi *Documenti*, p.175
4. **'As soon as Savonarola...'**: Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, ed. P. G. Ricci, 2 vols, (Rome, 1955), Vol. I, p.3, preamble to first sermon (Predica I)
5. **'Lord, I who am but...'** *et seq.*: ibid. Vol. I, pp.3, 18
6. **'Many people went...'** *et seq.*: Landucci, Diario, pp.161-2.
7. **'be maimed...'**: cited in Martines, *Savonarola*, p.1, giving as his source Lorenzo Violi, *Le giornate*, ed. G. C. Carfagnini (Florence, 1986), pp.73-4. Later direct Martines quote also from p.1
8. **'I am being attacked…'** despatch from Bonsi to Florence dated 17 February [1498], see Gherardi, *Nuovi Docunenti*..., p.178
9. **'A big stack...'**: Landucci, Diario, pp.130-1
10. **'A great council...'**: Guicciardini, Opere (Bari, 1923), Vol. VI. p.146
11. **'As for this Brief...'**: cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol.I, p.332 giving his source as Clementi Lupi, *Nuovi Documenti inorno a fra Girolamo Savonarola*, Archivo Storico Italiano (Florence, 1842), Third Series, Vol. III (1866), Part 1, pp.3-77
12. **'whose influence with...'**: Guicciardini, Opere (Bari, 1929), Vol. I, pp.295–6
13. **'At last a great...'** *et seq.*: Guicciardini, Opere (Bari, 1931), Vol. VI, p.146
14. **'because of three furies...'**: cited in Marsilio Ficino, *The Antichrist Girolamo of Ferrara*..., ed. & intro, by Volkhard Wels

(Texas, 2006), Introduction p.11, citing as the original source Marsilio Ficino, 'Letter to Aldus Manutius', dated 1 July 1497

15. **'Apology of Marsilio .. .'** *et seq.*: see Ficino, *The Antichrist*, p.26
16. **'For such boasters...'**: ibid., p.27; *Corinthians*, Ch.2, vv.13-15
17. **'the profound sense ...'** et seq.: Lightbown, *Botticelli*, Vol.I, p.130
18. **'The time to avenge our disgrace...'**: cited in Villari, *La Storia… Savonarola*, Vol. 2, pp.132-3, where p.132 n.1
    تجري مناقشة المصادر العديدة التي جاءت في هذه الرسالة، ويرى أن أصدقها هو مخطوطة ريكاردي.
19. **'Savonarola then proceeded...'** et seq.: Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, p.133

20– انقلاب الحال

1. **'I entreat each one...'**: Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, cited in Pastor, *History of the Popes*, Vol. VI p.41
2. **'Fra Domenico preached...'** *et seq.*: Landucci, Diario, p.167
3. **'his quarrel was with...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp.138-9, p.139 n.1 gives an elaboration of the contemporary sources.
4. المرجع السابق الذي يستشهد بكاتبي اليوميات المعاصرين، وهما: بورلاماكي وشيريتاني.
5. **'The Church of God...'**: ibid, p.140 n.2 for Latin text
6. الروايات حول اجتماع المجلس المصغر، بتاريخ 30 آذار 1498، متشابهة بدرجة كبيرة، لكنها ليست متطابقة على الدوام. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاقتباسات والاستشهادات، وهي تظهر في كتب السير الرئيسة، انظر على سبيل المثال: المجلد الثاني من كتاب فيلاري حول سافونارولا، فهو يناقش في صفحة 144 هامش رقم (1) المصادر المعاصرة آنذاك

ودرجة موثوقيتها. وقد استرشدت أيضاً بكل من ريدولفي ومارتينيز:
(*who cites Consulte e pratiche della republica fiorentina*, 1498-1505, ed. Denis Fachard, 2 vols. (Geneva, 1993), Vol. I, p.64-5).

7. **'The day having...'**: Francesco Guicciardini, Opere, Vol. 6, Storie fiorentine (Bari, 1931), p.149
8. **'all the wood...'**: Landucci, Diario, p.135
9. **'Those who know themselves...'**: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp.147-8,
   الذي يستشهد بالوثيقة كلها، وتوجد النسخة الأوليّة المكتوبة والموقعة بخط اليد في سجل مخطوطات سان ماركو؛ ورقة رقم (168). وهذه المخطوطة الأصلية ليست مؤرخة، لكن الأدلّة الداخليّة تؤكد أنها كتبت خلال الأيام الأولى للأسبوع السابق على الموعد، الذي ضُرب لإقامة اختبار محنة النار.
10. **'In the event that...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol.2, p.150,
   إذ يُعطي الهامش رقم (2) تفاصيل كاملة عن المصدر الأصلي في الأرشيفات الفلورنسيّة.

21-- محنة النار

1. **'I cannot be sure whether...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol.2, pp.152-3, see *Esortazione fatta al popolo in San Marco il di Aprile* 1498, which is included at the end of his Prediche sopra *l'Esodo* (*Sermons on Exodus*)
2. **'And then came the Dominicans...'**: Landucci, *Diario*, p.169
3. 'of fiery red velvet': cited in Martines, *Savonarola*, p.226, giving as his original source Parenti, Storie fiorentine (Schnitzer), p.257
4. **'engaged in an extraordinary...'**: ibid.
5. **'The Franciscans were afraid...'**: Guicciardini, Opere, Vol. I,

p.150

6. '*was most wicked*' *et seq*.: cited in Martines, *Savonarola*, p.28
7. **'The patience of the multitude...'** *et seq*.: see Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp.157-8.

تفيدُ هذه الرواية من التفاصيل المستفيضة في:

Violi, *Le giornate*, ed. G. C. Carfagnini (Florence, 1986) and Fra Benedetto [of Florence] Luschino, *Vulnera diligentis*, ed. S. dall' Aglio (Florence, 2002),

وكذلك الأمر في كتاب بورلاماكي حول سافونارولا، في حين يؤكد آخرون، مثل لاندوتشي، هذه الأحداث. كما يؤكد كل من الراهب بينديتو وفيولي كلمات سالفياتي المتوعِّدة. ولا تختلف هذه التوصيفات المتعددة إلا في تفاصيل ثانوية، ولاسيما ما اتصل بترتيب بعض الأحداث. غير أن وصف فيلاري يبدو الأكثر موثوقيّة وتشويقاً.

22- حصار سان ماركو

1. **'the benches were already...'**: cited in Martines, *Savonarola*, p.232, giving Cerretani as his source
2. **'began to strike the backs...'**: Landucci, *Diario*, p.170
3. **'Let's get the Friar...'**

تورد العديد من المصادر المعاصرة روايات مختلفة لهذه الهتافات، انظر على سبيل المثال:

Landucci, Diario, p.170; Burlamacchi, *Savonarola*, p.156

4. **'making it impossible...'** *et seq*.: Landucci, Diario, p.170
5. **'Twelve breastplates...'**: see Villari, La *Storia... Savonarola*, Vol.2, p.ccxxxiii
6. **'rebuffed with every villainy...'**: cited in Martines, *Savonarola*, p.234, giving as his source Parenti, *Savonarola* (Schnitzer), p.265

7. **'Let me go forth...'** *et seq.*: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp.166-7,
وهو يستند في مصادره إلى الوثائق الأصلية المنشورة في نهاية المُجلد الثاني، مثل الوثيقة رقم (28)، ولاسيما تلك الأقسام المتعلقة بالراهب سيلفستري في الصفحة 20 وما بعدها، والأقسام الخاصة بأليساندرو بوتشي في ص273 وما يليها. وقد أكد ذلك بورلاماكي وغيره من المعاصرين.
8. **'came out of San Marco secretly...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.170-1
9. **'It was an extraordinary sight...'** *et seq.*: see Villari, La Storia... Savonarola, Vol. 2, p.166.
في هذا الموضوع، وما يليه، أدرج فيلاري عدداً من التقارير المعاصرة، واستند بصورة كبيرة على تقدير الراهب بينديكتو، الذي كان واحداً من الرهبان المسلحين.
10. **'Every word that I have...'** *Archivo Storico Italiano*, App. VII (Florence, 1849), pp.82-6
11. **'Should not the shepherd...'**: cited in Villari, *La Storia.... Savonarola*, Vol. 2, p.175,
وقد استند في مصادره المعاصرة إلى بورلاماكي، وفيولا، والراهب بينديتي (الذي كان حاضراً في ذلك الوقت).
12. **'We agree to hand over...'**: cited in Seward, Savonarola, p. 245, giving at his source Burlamacchi, *Savonarola* (Lucca, 1764), p.144
13. **'Behold the true...'** *et seq.*: ibid.

23- المحاكمة والتعذيب

1. **'People laid down...'** *et seq.*: Landucci, Diario, p.171-2
2. **'At the ninth hour...'**: Landucci, Diario, p.172

3. **'It gave us the greatest pleasure…'**: Gherardi, *Nuovi documenti*, p.231
4. **'Regarding my aim...'** *et seq.*: cited in Martines, *Savonarola*, p.250. One of the corrupted versions of Ser Ceccone's transcript was printed as I *processi di Girolamo Savonarola* (Florence, 1498). This was republished in Florence in 2001 under the editorship of Ida G. Rao *et al.*
5. **'I strongly...'**: cited in Seward, Savonarola, p.250
6. **'No, I did not...'**: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp. 195-6.

   وقد استند إلى الوثيقة رقم (26) الواقعة في نهاية المجلد نفسه الذي يحوي ما يفترض أن يكون النسخة المطبوعة الكاملة للتحقيقات، التي خضع لها سافونارولا في هذه الفترة وما تلاها.
7. **'for the sake...'**: see Seward, *Savonarola*, p.251, paraphrasing the original text
8. **'I intended to...'** *et seq.*: see above, and other sources such as Martines, etc.
9. p456 **'formalise and set...'**: cited in Savonarola, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.374
10. **'If you publish...'** et seq.: cited in Ridolfi, *Vita...Savonarola*, Vol. I, p.374 giving as his source Burlamacchi, *Savonarola* (1937 edn), p.171. See n.47 in Vol.2, p. 645 for Ridolfi's comments.
11. **'The protocol of...'** *et seq.*: Landucci, Diario, p.173
12. **'without torture or...'**: I processi ... (ed. Rao), p.z p.25
13. **'The frate was...'**: Landucci, Diario, p.174
14. **'in some places there...'**: cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.378,

    وقد استند على نسخته الأصلية من المحاكمات:

    I processi del Savonarola, ed. R. Ridolfi, in La Bibliofilia Vol. XLVI (1944), p.30

15. **'consecrated the bread...'** *et seq.: I processi* . . . (ed. Rao), p.25
16. **'My intention, as I have said...'**: ibid., p.27
17. **'It was not my intention...'**: ibid., pp.28-9
18. **'In the certainty...'** *et seq.*: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, p.207.

يمكن العثور على الشهادة الكاملة لمحاكمة الراهب دومينيكو في نهاية المجلد (2)، الوثيقة رقم (27).

19. **'I have always thought...'**: cited in Seward, *Savonarola*, p.252
20. **'The true document...'**: Villari in *La Storia… Savonarola*, Vol. 2, p.cxcix. Villari gives the sources of these documents in note 1 for each of them.
21. **'When they read...'**: ibid., pp.205-6
22. ibid., p.210,

مستنداً إلى الشهادة المتعلقة بمحاكمة الراهب سيلفستر التي طبعت على الغلاف الخلفي لهذا المجلد بوصفها الوثيقة رقم (28).

23. **'Not only ourselves...'**: ibid., p.213. The Latin original of this letter can be found in F.-T. Perrens, *Jérome Savonarole d'aprés les documents orginaux et avec des piéces justficatives en grande partie inédites (Paris, 1856), Document XVII*
24. **'All the citizens arrested...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.174
25. **'both on account of the way...'**: cited in Villari, *Savonarola* (trans. L. Villari), Vol. 2, p.399-400 - giving as his original source Florentine Archives, Register, Sheet 86 t. This also appears in Lupi, Nuovi Documenti.

24- الحُكم

1. **'Unfortunate am I...'**: cited in Ridolfi, Vita… Savonarola, Vol. I, p.385-6
2. **'Miserere mei...'**: Psalm 51, V.I

3. '**Verily I say...**': Mark; Ch. 14, v.30
4. '**But these questions...**': cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.385-6
5. '**extraordinary fortune**' *et seq.*: Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. 2, p.650 n.8
6. '**An exposicyon after...**': see British Library, catalogue no. c.52, f.16.(2.)
7. ترد هذه الكلمات بصور مختلفة في كتب السِّير الرئيسة مثل؛ فيلاري، وريدولفي، اللذين يرجعان أساساً إلى كتاب بورلاماكي عن سافونارولا.
8. '**observed how [Savonarola] would...**': see Seward, *Savonarola*, p.251
9. '**Remolino ordered that ...**' *et seq.*: see Villari, La Storia... Savonarola, Vol. 2, p. clxxxvij et seq.

   توجد ضمن الوثائق المطبوعة في نهاية المجلد (2) المخطوطة الكاملة بمحاكمة سافونارولا الثالثة، التي تمتد من ص184 إلى ص198. وثمة نسخ مختلفة اختلافاً طفيفاً عن هذه المخطوطة في I Processi، التي استخدمتها في الكتاب أيضاً.
10. '**such things as Ser Ceccone...**': Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.391
11. '**for history rarely produces...**' *et seq.*: see Burlamacchi, Savonarola, pp.151-2. *Indicatively there is no remaining original document of this meeting in the Florentine archives.*
12. '**Sandro, do you want...**': see Doc. 13 (b) in Lightbown, Botticelli, Vol. I, pp.169-70: original source *Estratto della Cronaca di Simone Filipepei*, which is in the Archivo Segreto Vaticano, Politicorum, XLVII, fol. 338 et seq.
13. '**when his trial...**' *et seq.*: (ed. Rao), p.43
14. '**If this friar...**' *et seq.*: cited in Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, p.234, giving as his original source Burlamacchi, *Savonarola*, p.154

15. لقد وقَّع كل من توريانو وريمولينو هذا التقرير، لكن من المتفق عليه، بصفة عامة، أن ريمولينو هو من كتبه أو كتب الجزء الأكبر منه على الأقل. ومن الممكن رؤية نسخ من هذا التقرير المرسل إلى ألكسندر السادس، وهي تختلف في تهجئة الكلمات اللاتينية القروسطيّة، وما تحتويه من تفاصيل:
A. G. Rudelbach, *Savonarola und seine Zeit* (Hamburg, 1835), pp.494-7, and Fra Karl Meier, *Girolamo Savonarola aus grossen Theils handschriftlichen Quellen* (Berlin, 1836), pp.389-91.
والشواهد التي قدمتها مأخوذة من بدايات المرجع الأخير.
16. 'as heretics and schismatics...': cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I. p.293,
الذي يذكر أن مصدره الأصلي هو الوثيقة الملحقة بنهاية المحاكمة الثالثة، انظر كتاب فيلاري حول سافونارولا، المجلد الثاني، ص198.
17. '22 May. It was decided...': Landucci, *Diario*, p.176

25– الشنق والحرق

1. 'Collect up from my cell...': Burlamacchi, *Savonarola*, p.155
2. 'I hear that you have...' *et seq.*: ibid., pp.156-7
3. 'The account of his last...': Roberto Ridolfi, 'Savonarola' entry, Encyclopedia Britannica (2002 edn), Vol. 10, p.485
4. 'It was already well...' *et seq.*: Villari, *La Storia... Savonarola*, Vol. 2, pp.238-9.
مصدر القصة والاقتباس هو كتاب بورلاماكي؛ سافونارولا، ص57.
5. 'do not seem credible...': ibid., p.239 n.1
6. 'A multitude of people...': Guicciardini, *Opere* (Bari, 1929), Vol. I, p.298
7. 'the ceremonies lasted...': cited in Martines, *Savonarola*, p.274, giving as his contemporary source Piero Vaglienti, *Storia dei sui tempi* 1492-1514 ed. G. Berti et al. (Pisa, 1982), p.48

8. **'I separate you from...'** *et seq.*: cited in Ridolfi, *Vita... Savonarola*, Vol. I, p.400.

وقد سُجّلت هذه الحادثة الأولى بصور مختلفة قليلاً في غير مصدر من المصادر المعاصرة آنذاك؛ مثل:

Iacopo Nardi, Istorie di Firenze, 2 vols, ed. A. Gelli (Florence, 1848), Vol. I, p.136, and Simone Filipepi, Estratto della Cronaca, in P. Villari and E. Casanova, *Scelta di prediche e scritti di fra Girolamo Savonarola* (Florence, 1898), p.504 et seq.

9. **'They were robed in all...'**: *et seq.*: Landucci, Diario, p.177
10. **'Savonarola, now is...'**: cited in Ridolfi, Vita . Savonarola, Vol. I, p.402
11. **'there not being...'** *et seq.*: Landucci, *Diario*, p.177-8
12. **'which was suffered...'**: Guicciardini, *Opere* (Bari, 1929), Vol I, p.298
13. **'Now at last...'**: Burlamacchi, *Savonarola*, pp.161-2
14. **'A miracle...'**: Burlamacchi, *Savonarola*, p.162

الآثار اللاحقة

1. **'everyone had began...'**: Landucci, *Diario*, p.181
2. **'As an old man...'**: Vasari, *Le, Vite*, Vol. I, pp.869, 871

المصادر والمراجع

Cecilia M. Ady, *Lorenzo dei Medici and Renaissance Italy* (London,1960)

Archivo Segreto Vaticano, Politicorum.

Ascanio Condivi, *Vita di Michelangelo* (Milan, 1928).

Domenico Benivieni, *Tratto... in defensione... Ieronimo da Ferrara* (Florence, 1496)

John S. C. Bridge, *A History of France from the Death of Louis XI, Vol. II, 'The Reign of Charles VIII.*

Gene Brucker, *Renaissance Florence* (New York, 1968).

Jakob Bruckhardt, *The Civilization of Renaissance Italy*, trans. Middlemore (London, 1990).

Jacob Bruckhardt, *Die Kultur der Renaissance in Italien* (1926 Leipzig edn)

Burlamacchi, *Vita P. F. del Beato Girolamo Savonarola* (Lucca, 1764 edn)

Antonio Capellia, *Fra Girolamo Savonarola e notize intorno sl suo tempo, in Atti della Deputatzione di Storia Patri per le provincie Modensi e Parmensi*, Vol. IV (1868)

Giovanni Cavalcanti, *Istroie Fiorentine* (Florence, 1838).

Lettres de Charles VIII, ed. P. Pélicier (Paris, 1930).

Jean Cluzel, *Anne de France* (Paris, 2002).

Codice Magliabechiano (Florentine Archives)

Philippe de Commynes, *Mémoires*, ed. J. Calmette & C. Durville (Paris, 1925)

Mémoires de Philippe de Commynes, ed. Mlle Dupont (Paris, 1843)

Chanoine Pierre-Marie Cordier, *Jean Pic de la Mirandole* (Paris, 1957)

Dante Aligheri, *Hell*, trans. Dorothy L. Sayers (Harmondsworth, 2001, edn)

Jean Delameau, *L'Alun de Rome XVe-XIXe siècle* (Paris, 1962)

Charels Dickens, *American Notes and Pictures from Italy* (London, 1908)

Niall Ferguson, *The Ascent of Money* (London, 2008)

Marsilio Ficino *The Antichrist Girolamo of Ferrara* ... ed. & intro. Volkhard Wels (Texas, 2006)

Marsilio Ficino, *Opera*, ed. A. H. Petri (Basle, 1576)

Consulte e pratiche della republica fiorentina, 1498-1505, ed. Denis Fachard, 2 vols (Geneva, 1993)

Edmund Gardner, *Dukes and Poets in Ferrara* (London, 1904)

Eugenio Garin, *Giovanni Pico della Mirandola: Vita e, Dottrina* (Florence, 1936)

Alessandro *Gherardi, Nuovi documenti e studi intorno a Girolamo Savonarola* (Florence, 1887)

Francesco Guicciardini, *Opere* (Milan, 1998)

Francesco Guicciardini, *Storie fiorentine*, ed. Roberto Palmarocchi (Bari, 1931)

John S. Harford, *The Life of Michael Angelo Buonarotti* (London, 1857)

Christopher Hibbert, The Rise and Fall of the House of Medici (London, 1914)

Michael Holroyd, *Michael Angelo Buonarotti* (which contains in translation *The Life of Michelangelo* by Ascanio Condivi) (London, 1911)

E. L.S. Horsborough, *Girolamo Savonarola* (London, 1911)

Domenico Malipiero, *Annali Veneti* (Florence, 1843 edn)

F. W. Kent, *Lorenzo de' Medici and the Art of Magnificence* (Baltimore, 2004)

Luca Landucci, *Diario fiorentino dal 1450 al 1516* (Florence, 1883)

Luca Landucci, A *Florentine Diary from 1450 to 1516*, trans. Alice Jervis (London, 1927)

Ronald Lightbown, *Sandro Botticelli*, 2 vols., (London, 1978)

Herbert Lucas, Fra Girolamo Savonarola (London, 1906)

Lucian, *Works*: Loeb edition in 8 vols., Greek with facing-page translation into English by A. M. Harmon (London, 1913)

Clementi Lupi, *Nuovi Documenti inorno a fra Girolamo Savonarola*, Archivo Storico Italiano (Florence, 1842)

Fra Benedetto Luschino, *Cedrus Libani*, ed. P.V. Marchese, *Archivo Storico Italiano*, App. VII (Florence, 1849)

Fra Benedetto [of Florence] Luschino, *Vulnera diligentis*, ed. S. dall' Aglio (Florence, 2002)

Niccoló Machiavelli, *Istorie fiorentine* (Florence, 1971)

Niccoló Machiavelli, *Discorsi* (Florence, 1971)

Niccoló Machiavelli, *Opere*, ed. F. Flora (Rome, 1949-50)

Michael Mallett, *The Borgias* (London, 1969)

Domenico Malipiero, *Annali Veneti* (Florence, 1843 edn)

Lauro Martines *April Blood* (London, 2003)

Lauro Martines, Scourge *and Fire: Savonarola and Renaissance Italy* (London, 2006)

Laurentii Medicis Magnifici Vita (adnotationes et Monumento), 2 vols. (Pisa, 1784)

The Autobiography of Lorenzo de' Medici: A commentary on my Sonnets, ed. and trans. James Wyatt Cook (Binghampton, 1995)

Lorenzo dé Medici, *Opere*, ed. A. Simioni (Bari, 1914), Vol. II *Canti Carnacileschi Lives of the Early Medici: As told in their correspondence*, trans. & ed. Janet Ross (London, 1910)

Fra Karl Meier, *Girolamo Savonarola aus grossen Theils handschriftlichen Quellen* (Berlin, 1863)

Stanley Meltzoff, *Botticelli, Signorelli and Savonarola* (Florence, 1987)

Iacopo Nardi, *Istorie di Firenze*, 2 vols. ed.A. Gelli (Florence, 1848)

Piero Parenti, *Storie fiorentine*, ed. A. Matucci (Florence, 1994)

Tim Parks, *Medici Money: Banking, Metaphysics and Art in Fifteenth-Century Florence* (London, 2006)

F.-T. Perrens *Jérome Savonarla d'après les documents originaux et avec des pieces justificatives en grande partie inédites* (Paris, 1856)

Gianfrancesco Pico della Mirandola, Vita R. P. *Fr Hieronimi Savonarolae Ferrarensis Ord. Praedicatorum*, ed. J. Quétif (Paris, 1674)

Giovanni Pico della Miradola, *Conclusiones sive Theses DCCCC* (Geneva, 1973)

Giovanni Pico della Mirandola, His life by his nephew Giovanni Francesco Pico translated from the Latin by Sir Thomas More (London, 1890 edn)

Pius II, *Memoirs of a Renaissance Pope*, trans. F. Gragg (New York; 1959)

A. Politian [Poliziano], *Prose volgari inedited e poesie ...*, ed. I. Del Lungo (Florence, 1867)

Angelo Poliziano, *Letters*, ed. & trans. by Shane Butler (London, 2006)

Angelo Poliziano, *Stanze Cominicate per la Giostra di Giuliano de' Medici* (Turin, 1954)

James Reston Jnr., *Dogs of God* (New York, 2005)

Roberto Ridolfi, *Studi Savonaroliani* (Florence, 1935)

Roberto Ridolfi, *Vita di Girolamo Savonarola*, 2 vols. (Florence, 1974)

Rivista Contemporanea Vols. XVI-XVII (Turin, 1859)

Raymond de Roover, *The Rise and Decline of the Medici Bank*, 1397-1494 (Harvard, 1963)

William Roscoe, *The Life Lorenzo de' Medici* (London, 1865)

Hugh Ross Williamson, Lorenzo the Magnificent (London, 1974)

Routledge Encyclopedia of Philosophy, ed. E. J. Craig Vols. 3 & 7.

A. G. Rudelbach, *Savonarola und seine Zeit* (Hamburg, 1835)

Girolamo Savonarola, *A Guide to Righteous Living and Other Works*, trans. Eisenbichler (Toronto, 2003)

Girolamo Savonarola, *Compendic di rivelazioni*, ed. A. Crucitti (Florence, 1933)

Girolamo Savonarola, *Compendium totius philosopiae tam ... moralis* (Vencie, 1542)

Girolamo Savonarola, *Le Lettere*, ed. Roberto Ridolfi (Florence, 1933)

Girolamo Savonarola, *Poesie, tratte dall'autographo*, ed. C. Guasti (Florence, 1862)

Girolamo Savonarola, *Prediche sopra, Aggeo*, ed. L. Firpo (Rome, 1965)

Girolamo Savonarola, *Prediche sopra Amos a Zaccaria*, 3 vols., ed. P. Ghigglieri (Rome, 1971-2)

Girolamo Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, ed. P. G. Ricci (Rome, 1962 et seq.)

Girolamo Savonarola, *Prediche sopra l'Esodo*, 2 vols., ed. Pier Giorgio Ricci (Rome, 1955-6)

Girolamo Savonarola, Prediche sopra Ezechiele, 2 vols., ed. Roberto Ridolfi, (Rome, 1955)

Girolamo Savonarola, *Prediche sopra Ruth e Michea*, ed. V. Romano (Rome, 1962)

Girolamo Savonarola, *Prediche sul Salmo Quam bonus* (Prato, 1846)

Girolamo Savonarola, *Reverendi P. Fra Hieronymi Savonarole in primam D. Joannis epistolam ...* [Bernardini Stagni edition] (Venice, 1536)

Girolamo Savonarola, *Tratto sul governo della Cittá di Firenze* (Casale Monferrato, 1996)

Girolama Savonarola, *Trionfo della Croce* (Siena, 1899)

Giovanni Semprini, *Giovanni Pico della Mirandola* (Todi, 1921)

Francesco de Ser Barone, I *proessi di Girolamo Savonarola* (Florence, 1498)

Desmond Seward, *Savonarola and the Borgia Pope* (Stroud, England, 2006)

Paul Strathern, *The Medici: Godfathers of the Renaissance* (London, 2003)

Miles J. Unger, *Magnifico: Life of Lorenzo de' Medici* (New York, 2008)

Piero Vaglient, *Storia dei sui tempi 1492-1514*, ed. G. Berti et al (Pisa, 1982)

Pierre Van Passen, A *Crown of Fire: The Life and Times of Girolamo Savonarola* (New York, 1960)

Giorgio Vasari, Le *Vite dei piu eccelenti pittori, scultori e architetti*, 4 vols., ed. Carlo L. Ragghianti (Milan, 1943-7)

Giorgio Vasari, *Lives of the Artists*, trans. George Bull (Harmondsworth, 1965)

Pasquale Villari, *La Storia di Girolamo Savonarola e de' suoi tempi*, 2 vols. (Florence, 1887)

Pasquale Villari, *Savonarola* 2 vols. trans., Linda Villari (London, 1888)

P. Villari and E. Casanova, *Scelta di prediche e scritti di fra Girolamo Savonarola*, etc. (Florence, 1887)

Lorenzo Violi, *Le giornate*, ed. G. C. Carfagnini (Florence, 1986)

F. Ludwig von Pastor, *The History of the Popes*, 40 vols., ed. & trans. F. I. Antrobus (London, 1950, edn)

Donald Weinestein , *Savonarola and Florence* (Princeton, 1970)

William Wordsworth, *The Prelude* (London, 1926)

نبذة عن المترجم:

ناصر مصطفى أبو الهيجاء: مترجم أردني له عدة مقالات ودراسات، وترجمات في الصحف والمجلات العربية التي تعنى بالعلوم الإنسانية، وقد ترجم لمشروع كلمة كتاب (لا نهائية القوائم) للفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو، وكتاب (الاستشراق في عهد التفكك الاستعماري) لمؤلفه علي بهداد، وكتاب (موجز تاريخ الجنون) لمؤلفه روي بورتر.

موت في فلورنسا

يبحث هذا الكتاب ببراعة وتقصٍّ بدايات عصر النهضة، الذي انبثق فجره من مدينة فلورنسا في القرن الخامس عشر. وقد اضطلعت أسرة ميديتشي برعاية الفن والفنانين من أمثال بوتيتشيلي وميخائيل أنجلو، وشكلت هي ومن التف حولها من أدباء ومفكرين الروح الإنسانوية الجديدة في أوروبا. ويسلط المؤلف الضوء على الصراع الذي شهدته المدينة في ذلك العصر، وقد مثّل قطبيه لورينزو ميديتشي الملقب بالعظيم، والراهب سافونارولا الممتلئ برؤى العهد القديم ونبوءاته القيامية؛ تلك الرؤى التي وجدت صداها بين المواطنين المحرومين، الذين آثروا اليقينيات الدينية القروسطية على الأسئلة الفلسفية ذات المشرب الدنيوي. وقد عيّن ذاك الصراع بين العلماني والديني واحدةً من أهم اللحظات في التاريخ الغربي، وتمخض عنه قتال هلك فيه خلق كثير، بين إعدامات مرعبة ووفيات غامضة.






كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة